إنه أوان الموت

A Time To Die

بقلم

الكاتب الجنوب إفريقي

ولبرسمث

Wilber smith

(الكتاب الذي باع ٧٠ مليون نسخة)

(*his savage best seller book*)

ترجمة

المستشار / محمد المصطفى حسن عبد الكريم

سناد / السودان



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: إنه أوان الموت

اسم المترجم: محمد المصطفى حسن عبد الكريم

رقم الإيداع : 18632

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٩٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

نبذة عن الرواية

أوان الموت :

تحت الشمس الإفريقية اللاهبة التي لا ترحم ، اشترك رجلان وامرأة في رحلة مزقت برنامجهم لقضاء أيام ممتعة في الصيد مزقًا ، وألقت بهم وسط أتون دموي لحرب أهلية في أدغال شرق إفريقيا .

فبالنسبة لسين كورتني ، بطل حرب العصابات والمقاتل المحترف ، فقد جاء أوان الحرب ، وجاء الوقت الذي يجد فيه الحب العنيف والعاطفة القوية ، التي لم يجدها من قبل .

وبالنسبة للفاتنة كلوديا مونتيرو ، فقد جاء الوقت لتواجه اختبارًا قاسيًا في قارة لا تجدي فيها المعايير الأمريكية فتيلاً .

أما فيما يختص بريكاردو ، والدها الواسع الثراء ورجل الأعمال المندفع ، فقد جاء أوان مواجهته للهاجس الخطير الذي ملأ عليه حياته .



رواية «أوان الموت» ، والتي تنتقل بنا من مناطق الصيد العظيمة في زمبابوي إلى أراضي الحرب الأهلية والدمار في موزمبيق تعتبر من الروايات العالمية الفريدة، التي نالت انتشارًا وشهرة واسعة ، والتي تمور صفحاتها بما لمؤلفها ، ولبر سمث ، من مشاعر عميقة وحب جارف لأعماق إفريقيا السوداء .



نبذة عن المؤلف

ولد ولبرسمث في أواسط إفريقيا عام ١٩٣٣ وتعلم في كل من ما يكل هاوس وجامعة رودس.

تفرغ للكتابة عام ١٩٦٤ ، بعد نجاح روايته (عندما يتغذى الأسد) ، ومن يومها كتب عشرين رواية غذاها بدراساته وبحوثه العديدة وبجولاته في أنحاء العالم .

وقد صار دأبه ، حتى أواخر الثمانينات من القرن العشرين أن يقضي الفترة من نوفمبر إلى فبراير في التجوال ، حيث يمضي شهرًا للتزلج على الجليد في سويسرا ، ثم يتوجه لصيد الأسماك في «أستراليا ونيوزيلندا» أما في أشهر الصيف فإنه يتجول في بيئات شديدة التباين مثل الاسكا وبراري الأدغال الأفريقية .

وهو يهتم اهتمامًا خاصًا بشعوب وطنه إفريقيا وللحياة البرية فيها ، وهو ما ينعكس بعمق المشاعر والأحاسيس في رواياته .

وهو متزوج من السيدة دانييل ، والتي أهدى إليها رواياته الستة عشر الأخيرة ..





أوان الموت A time to die

القسم الأول

الأسد، فردريك الأكبر

ما سبب لها ألمًا لا يطاق هو أنها ظلت جالسة في مكانها ، بدون حراك ، لأكثر من ساعتين . كانت كل عضلة من جسمها ترتجف رغبة في التزحزح . وأصاب الخدر أردافها . فرغم نصيحتهم لها ، إلا أنها لعنادها ، لم تستجب لهم ورفضت أن تفرغ مثانتها قبل التوجه معهم إلى المخبأ . لقد كانت في منتهى الحرج لوجودها وسط هؤلاء الرجال ، مثلما ستكون في منتهى التوتر والخجل إذا تسللت بمفردها داخل الغابة الإفريقية لتقضي حاجتها . كم أسفت لعنادها وكم أسفت لموقفها وقتذاك .

ظلت تحدق من خلال فتحة صغيرة بالنفق الضيق ، الذي شيده الصيادون داخل الغابة الكثيفة بمهارة شديدة ، إذ لو تركوا فرعًا صغيرًا أمام النفق ، الذي يصل طوله إلى ستين ياردة ، فإن هذا الفرع الصغير قد يغير من مسار رصاصة تطير بسرعة ثلاثة ألف قدم في الثانية .

وبدون أن تحرك رأسها ، نظرت كلوديا بطرف عينها إلى أبيها الجالس بجوارها في النفق . كانت بندقيته مسنودة على شعبة من فرع شجرة أمامه بينما رقدت يده بخفة على مقبضها ، لم يكن محتاجًا لأكثر من رفع بندقيته بضع بوصات وإسنادها على خده حتى يكون جاهزًا للتصويب وإطلاق النار .

وبالرغم من الألم والتوتر والخدر من جراء جلستها تلك ، إلا أن نوبات من الغضب المكتوم كانت تجتاحها لمجرد تصورها لوالدها وهو يطلق النار من ذلك السلاح الجهنمي اللامع .

كان دائمًا هكذا . لكنه ، ومثلما كان يغضبها بتصرفاته ، إلا أنه كان يملأ جوانحها أيضًا بعاطفة قوية متناقضة وعنيفة .

لم يفعل والدها في حياتها شيئًا إلا وسيطر عليه ، لقد سيطر تمامًا على حياتها ، ومن هنا فقد كرهته وأحبته في نفس الوقت ، ومهما حاولت الفكاك من قبضته إلا أنه كان يفلح وبسهولة في إعادتها إليه ثانية ، وكانت تعرف أن السبب الرئيسي الذي دعاها لعدم الزواج ، رغم بلوغها السادسة والعشرين من

عمرها ، ورغم وسامتها المفرطة وما حققته من نجاح في حياتها العلمية ، ورغم العدد الذي لا يحصى من الخطاب - ومن بينهم اثنان على الأقل ظنت وقتها أنها على حب معهمل السبب الأساسي لذلك كان هذا الرجل الجالس بجوارها ، لم تجد أبدًا مثل بابا من يشبهه أو من يقارن به .

فالكولونيل ريكاردو مونتيرو ، الرجل الجندي والمهندس والمثقف والذواقة الخبير بالطعام، ورجل الأعمال والمليونير الكبير ، والبطل الرياضي ، والمحب للحياة ، ومحطم قلوب النساء ... كم من الأوصاف كانت تلائمه تمامًا ، رغم أنها لا تكمل وصفه كما تعرفه هي ، لم تصف حنانه وشفقته ولا قوته التي جعلتها نخبة ، ولم تصف قسوته واندفاعه وعنفه مما جعلها تكرهه ، لم تصف ما فعله لوالدتها حتى حولها لأشلاء امرأة سكيرة منبوذة ، كانت كلوديا تعلم أن بمقدوره تدميرها إذا ما وقفت في طريقه . لقد كان والدها الثور ، وكانت هي المتادورة مصارع الثيران ، كان رجلاً خطرًا ، ومن هنا كل جاذبيته .

عندما حدثها أحدهم يومًا بأن الأوغاد دائمًا ما يستهوون النساء ، سخرت حينها من هذا القول . لكنها ، وبعد إمعان فكرها فيما بعد ، عرفت أنها توافق ولو جزئيًا على هذا القول ، الله بالفعل يعلم أن بابًا واحد من الأوغاد ! فهو كثير الضجيج منتفخ الأوداج فخور بعيونه الذهبية البراقة وأسنانه الناصعة التي تشي بأصله اللاتيني . بإمكان والدها أن يغني مثل كاروسو وبإمكانه أن يلتهم كل المكرونة التي تصبها في طبقه صبًا . ورغم أنه ولد في ميلانو إلا أن كيانه كله كان أمريكيًا ، فقد هاجر جداها إلى سياتل هربًا من إيطاليا موسوليني عندما كان ريكاردو طفلاً.

لقد ورثت عن أبيها صفاته الجسمانية وخاصة لون العيون والأسنان الناصعة والجسم الزيتوني البراق ، ورغم كل هذا كانت ترفض منه أي تصرفات قد تضايقها وتتخذ ، من ثم ، الطريق الآخر. اختارت أن تدرس القانون في تحد مباشر للاقانونية سلوكه . ولأنه كان جمهوريًا فقد اتخذت لنفسها طريق الحزب الديمقراطي حتى قبل فترة من إدراكها لمعنى السياسة . ولأنه اكتنز الأموال والثروة والعقار ، فقد رفضت عمدًا وظيفة بمائتي ألف دولار عرضت عليها بعد تخرجها واختارت بدلاً منها أخرى بأربعين ألف دولار في وكالة للحقوق المدنية .

ولأن بابا كان قائدًا لفصيلة مهندسين في فيتنام ، وإنه لا يزال يطلق عليهم لقب الحمقى والحثالات ، فإن عملها في خدمة الإنويت ، من سكان الاسكا الأصليين ، أرضاها تمامًا . وذادت غبطتها وارتياحها عندما أظهر عدم رضائه التام عن عملها هذا رغم أنه كان يطلق على الإسكيمو أيضًا لفظ الحمقى والحثالات . لكنها الآن في إفريقيا ، بعد رجاء حار منه ، رغم أن ما أرعبها

وأثار حنقها هو إنه ما جاء إلى هنا إلا ليقتل الحيوانات ، بينما هي على الضد من ذلك تمامًا . وعند ما كانت في الاسكا كانت تخصص أي وقت فراغ لها للعمل في «جمعية الاسكا للمحافظة على البيئة والحياة البرية» وذلك بدون مقابل . كانت تلك الجمعية تقدم كل جهودها ومواردها لمحاربة الشركات الباحثة عن البترول وخاصة لتغولهم على البيئة وتسببهم في دمارها .

كانت شركة والدها - شركة المعدات الهندسية بأنكوردج - من أكبر الموردين للمعدات الثقيلة ، ولتلك المستخدمة للحفر واستخراج البترول وتوريد خطوط أنابيبه .

ومن ثم فإن عملها ذاك في الجمعية كان منها نتيجة منطقية ومتعمدة وبعد حسابات دقيقة .

مع كل هذا فإنها الآن في بلاد غريبة عنها مستسلمة تمامًا لما يقوم به والدها من قتل وذبح لحيوانات وحشية برية وذات جمال أخاذ ، لذا فقد أصابها الدوار من جراء أفكارها المشوشة المتناقضة إنهم يطلقون على هذه الرحلة «السفاري» أو رحلة للصيد والقنص . ورغم إنها لم تتخيل مطلقًا أن تكون عضوة مشاركة في مثل هذا العمل البشع - وحقًا لقد رفضت بغضب وسخط كل دعواته لها للمشاركة في الأعوام السابقة - إلا أنها ما وافقت هذه المرة إلا نتيجة للسر الذي علمت به قبل بضعة أيام من دعوة أبيها لها . فربما تكون هذه المرة هي الأخيرة له . الأخيرة حقًا التي ستكون فيها مع أبيها ، وهذا ما قد أرعبها أكثر ، أكثر حتى من مشاركتها في هذا العمل القذر الذي تقوم به الآن .

« يا إلهي ! ماذا سأفعل بدونه ؟ كيف سيكون عالمي من بعده ؟ » وعندما راودتها هذه الفكرة حركت رأسها لأول مرة منذ ساعتين ونظرت من فوق كتفها . كان يجلس من خلفها ، وقريبًا جدًا منها في النفق ، المغطاة حوائطه بالقش والأعشاب ، رجل آخر . كان ذلك الرجل هو الصياد المحترف ، وبالرغم من أن أباها قام بالصيد معه عشرات المرات في رحلات سابقة إلا أن كلوديا لم تره إلا قبل أربعة أيام فقط ، عندما هبطت من طائرة الخطوط الجوية الجنوب أفريقية في مطار هراري ، عاصمة زمبابوي في شرق وسط إفريقيا ، وطار بهم ذمرء الصياد من هناك - بطائرته «بيتش كررافت بارون» ذات المحركين - إلى هذا المكان النائي والشاسع لمحمية الصيد المجاورة لموزمبيق والتي كان قد قام باستئجارها من حكومة زمبابوي .

كان اسمه سين كورتني . ورغم إنها لم تعرفه إلا منذ أربعة أيام فقد كرهته وكأنها عرفته العمر كله. لم يكن مستغربًا أن تفكيرها في والدها قادها بالغريزة لتنظر لهذا الرجل : «هنا يوجد رجل خطير آخر» . هكذا حدثت

نفسها ، رجل قاسي القلب ، شديد الصلابة واللامبالاة لكنه - يا للشيطان - وسيم جدًا ، حتى أن كل حواسها صرخت محذرة لها منه .

قطب جبينه ونظر إليها بحدة بعيونه الخضراء البراقة ووجهه الداكن ، خطوط رجل الغراب بأركان عينيه تغضنت ضيقًا من حركتها تلك ، وبإصبع واحد وكزها بهدوء في وركها محذرًا إياها للسكون ثانية ، ورغم أن لمسته تلك كانت خفيفة إلا أنها ارتبكت لإحساسها بقوة الرجولة البارزة في إصبعه ذلك . لقد راقبت يديه من قبل مقنعة نفسها بألا تتأثر بشكلها الأخاذ : «هما يدا فنان أو طبيب جراح أو قاتل» ، هكذا فكرت في نفسها ، لكن هذه اللكزة أغضبتها وكأنه تحرش بها جنسيًا ، التهب غضبها وهي تحدق مرة أخرى من خلال فتحة النفق : «كيف يجرؤ على مس جسدها ؟» . لقد شعرت وكأنه وسمها بحديد محمي في تلك البقعة من وركها التي وكزها بإصبعه.



قبل مغادرتهم للمعسكر بعد ظهر اليوم ، في طريقهم للغابة ، أصر سين على أن يستحم كل منهم مستخدمًا صابونًا خاصًا عديم الرائحة ، كما حذر كلوديا من عدم استخدام أي عطور ، وفي نفس الوقت قام أحد خدم المعسكر بإمدادها بقميص وبنطلون مكويين فور خروجها من الحمام .

«هذه القطط الكبيرة يمكنها شم رائحتك من على بعد ميلين» . هكذا أخبرها سين ، لكنها الآن ، وبعد ساعتين من البقاء في حرارة براري وادي الزامبيزي المرتفعة ، بدأت تشتم آثارًا من رائحة سين كورتني ، وهو يجلس بالقرب منها جدًا ، ولكن غير ملاصق لها . رائحة عذبة لعرقه الرجولي وشعرت برغبة لا تقاوم للتحرك من على كرسيها ، لقد بعث فيها شعورًا بالقلق ، لكنها أجبرت نفسها على الثبات في جلستها ، جاذبة لأنفاسها بعمق ، محاولة أن تلتقط ولو نسمة من رائحته الخفيفة التي تهب عليها من فترة لأخرى لكنها توقفت عن ذلك بغضب عندما أدركت ما كانت تفعله .

وعلى بعد بوصات منها اهتزت ورقة خضراء كانت متدلية على حائط النفق والتوت ، وفي الحال شعرت بالهبوب الهادئ لأول نسائم المساء ، كان سين قد اختار مكان النفق في أدنى اتجاه للريح ولكن ، وبعد هبوب نسيم المساء عليهم، وجدوا رائحة أخرى ، هي رائحة لجثة منتنة لجاموسة عجوز ، يتخذها الصيادون طعمًا وشركًا للحيوانات الكاسرة . كان سين قد اختارها من بين قطيع يضم أكثر من مائتين من هذه الحيوانات السوداء الضخمة ، ثم أشار لبابا «هذه الفتاة العجوز تجاوزت مرحلة التواله ، خذها أسفل الكتف ، في القلب تمامًا» ، لقد كان ذلك أول حيوان تراه كلوديا يقتل عمدًا ، ورغم الصدمة

التي سببها لها صوت الطلق الناري إلا أن ما صدمها أكثر كان تدفق الدم الغزير من تلك الضحية وصراخها وعويلها وهي تنازع الموت ، توجهت كلوديا من فورها إلى حيث كانوا قد تركوا عربة القنص التايوتا وجلست في المقعد الأمامي في حالة من الغثيان والدوار وتصبب عرقها البارد في حين قام سين ومعاونوه من قصاصي الأثر بسلخ الجاموسة وتجهيزها للطعام ، قاموا باستخدام رافعة ، ملحقة بمقدمة التايوتا ، لرفع الجثة على فرع متدلٍ لجميزة ضخمة ، وتم تثبيتها ، بعد نقاش وجدال طويل بين سين وقصاصيه ، على ارتفاع يسمح بالضبط لأسد مكتمل النمو ، واقف على رجليه ، للوصول إليها وإطفاء نار جوعه ، ويبدو له أن يتمكن أي قطيع من القطط الكبيرة من التهامها دفعة واحدة ، وهم جلوس ، ومن ثم يتوجهون لصيد آخر .

تم هذا قبل أربعة أيام ، وحتى في ذلك الوقت ، وعند إكمال عملهم ، لاحظوا كثرة الذباب الأخضر المعدي الذي اجتذبت أسرابه رائحة الدم الطازج ، أما اليوم فقد عملت الحرارة والذباب عملهم ، مما دعي كلوديا لتغضن أنفها وتقطب وجهها من رائحة النتن التي انبثقت من الجثة والتي حملها الريح إليها ، لقد بدا وكأن النتن قد غطى لسانها ومؤخرة حلقها بمزوجته ، وعندما حدقت صوب الجثة التي بالشجرة تراءى لها أنها ترى جلدها الأسود يتموج من جراء يرقات الذباب التي كانت تتلوى وتنخر في لحمها المتعفن .

وغمغم سين قائلاً عندما اشتم تلك الرائحة قبل دخولهم ذلك اليوم في المخبأ: «جميل جداً ! إنها تشبه رائحة جبن الكاممبرت الناضج ! لا يوجد قط على مسافة عشرة أميال من هنا يمكنه مقاومة هذه الرائحة ! » .

وفي أثناء انتظارهم بدأت الشمس في التحول تدريجيًا نحو الغروب ، وبدأت الغابة وكأنها تزدهي بحلة من الضياء الباهر المختلف تمامًا عن ضياء الظهيرة ، كما سرت برودة خفيفة كمقدمة لنسائم المساء مما أيقظ الطيور البرية من هجوعها أثناء حر الظهيرة ، وتحت الشجيرات التي تغطي ضفة الوادي أخذ طائر اللاوري ينادي صارخًا «كوك ! كوك ! كوك ! » مثل الببغاء ، كما قام زوج من طيور الشمس ذات اللون المعدني البراق في نفض أجنحتها من فوق الأشجار التي تعلو النفق ثم ترفرف بأجنحتها ، وهي متدلية من أعلى لأسفل ، وسط الأزهار البالغة المتلفة لتمتص الرحيق منها ، شعرت كلوديا بالحبور الشديد عند مراقبتها لهذا المنظر ، ومع أنها كانت قريبة جدًا منهم بحيث ترى ألسنتهم النحيلة الأنبوبية وهي تغرز عميقًا داخل الأزهار الصفراء ، إلا أن تلك المخلوقات الصغيرة تجاهلتها تمامًا وكأنها جزء من الشجرة .



كانت لا تزال تراقب تلك الطيور عندما شعرت بتوتر مفاجئ أصاب جميع من حولها بالنفق ، رأت والدها يتصلب فجأة ورأت يده التي كانت على البندقية وقد أمسكت بهدوء بها ، كان إحساسه بالإثارة واضحًا ملموسًا وهو يحدق من خلال الثقب الذي أمامه بالنفق : ورغم تحديث كلوديا الشديد مثله إلا أنها لم تر بالضبط ما الذي أثاره ، ومن طرف عينها لاحظت أن سين كورتني يتسلل بخفة ليجلس بينها وبين والدها ويمسك من ساعده في إشارة تحذيرية لضبط النفس.

ثم سمعت سين يهمس بصوت خافت كالنسيم : «انتظر ! » . فانتظروا في صمت ثقيل كالموت، وانسابت الرقائق رويدًا رويدًا حتى مرت عشر دقائق ثم عشرون ...

وهمس سين : «على يسارك ! » . كان ذلك غير متوقع لدرجة أنها أحست بالرعب لمجرد سماعها هذا الهمس ، التفتت نحو اليسار فلم تر شيئًا : مجرد ظلال للأعشاب والشجيرات ، وظلت تحدق بدون أن تطرف عينيها حتى آلمتها وامتلأتا بالدموع وبدأت تغمض عينيها وتفتحهما بسرعة ثم تنظر ثانية ، وفي هذه المرة رأت شيئًا يتحرك ويتسلل كالضباب أو الدخان ، دفقة بنية اللون تنساب وسط الأعشاب التي أحرقتها الشمس .

وفجأة وبطريقة دراامية خطا حيوان نحو أرض القتل القائمة أسفل الجثة الطعم المعلقة على شجرة الجميز .

شهقت كلوديا ، بالرغم منها ، واختنقت أنفاسها في حلقها .

لقد رأت أجمل حيوان في حياتها ، قط كبير ، أكبر كثيرًا مما قد توقعت أن تراه ، حيوان ثقيل أملس ذهبي اللون ، حول الحيوان وجهه ونظر إليها مباشرة ورأت أن حلقه كان كالقشدة الناعمة، ورأت انعكاس الشمس على شعيرات شفته الطويلة البيضاء ، كانت آذانه المستديرة ذات الحواف السوداء منتصبة في حالة من الإصغاء الشديد ، وعيونه الصفراء متوهجة غضبًا وكأنها حجر القمر، أما إحداقها فكرؤوس لسهام سوداء مصوبة نحو ذلك الحائط الذي يواري النفق .

لم تمكن كلوديا من التنفس ، فقد تجمدت من شدة الإثارة ، ومن الخوف الذي ملأ جوانحها عندما نظر القط في وجهها ، ولم تطلق الزفير المحبوس في صدرها إلا عندما أدار لحيوان رأسه ونظر إلى الجثة المعلقة على الشجرة باشتهاء.

كادت كلوديا أن تصرخ بصوت عالي : «لا تقتلوه ، من فضلكم ، لا تقتلوه ! » ، ولفرحتها الشديدة لاحظت أن والدها لم يحرك ساكنًا وأن يد سين لا زالت موضوعة على ساعده ليضبط أعصابه .

عندها فقط عرفت أن الحيوان كان لبوة ، إذ لم يكن على رأسها شعر اللبدة ، لبوة ، لطالما أصغت للحديث الذي كان يدور بين رجال المعسكر المتحلقين حول النيران ، ومنهم عرفت أنهم لن يصيدوا إلا أسدًا بلبدته وعرفه ، وأن عقوباتها شديدة وغراماته كبيرة ، وربما السجن ، تنتظر الذين يقتلون أنثى، تراخت قليلاً وأعطت نفسها كلية للاستمتاع الكامل بما تشاهده من الجمال الصاعق لهذا الحيوان ، لكنها لم تكد تستمتع بالمنظر حتى حولت اللبؤة عينيها ونظرت من حولها مرة أخرى ثم ، وبعد أن تأكدت بأن كل شيء على ما يرام ، فتحت فمها ونادت بصوت عميق كالعواء .

وفي الحال تقافز أشبالها نحو الساحة ، كان هنالك ثلاثة منهم يغطيهم الفراء الصوفي ، وكأنهم لعب الأطفال ، وعلى أجسامهم تلك البقع التي تميز صغار الأسود ، كانت لهم مخالب كبيرة لا تتناسب مع أجسامهم الصغيرة ، وبعد تردد منهم ، وبتجاهل تام من اللبؤة ، شرعوا في القيام بمعارك وهمية يتصارعون ويسقطون على بعضهم البعض وسط صرخاتهم الصاخبة وهريرهم المتواصل .

تجاهلتهم اللبؤة ونهضت على رجليها الخلفيتين للوصول إلى الجثة المتدلية ، ألقت برأسها داخل بطن الجثة التي أزيلت عنها الأحشاء وبدأت في تناول الطعام، ظهرت صفوف من الحلمات التي تم امتصاصها من قبل أشبالها ، وكان الفراء من حول الحلمات لا يزال لزجًا بلعابهم إذ لم تقم بعد بفطامهم ، ولم يلق أشبالها بالاً لها وواصلوا لعبهم ولهوهم .

ثم خطت لبؤة أخرى إلى الساحة ، ومن خلفها تبعها شبلان في سن متقدمة ، كانت هذه اللبؤة ذات لون داكن وكان عمودها الفقري مزرقًا وفراؤها يحمل آثار الجراح والصراعات القديمة ، ميراث عمر من معارك القنص والصيد الضاري العنيف وضربات الأخفاف والقرون والمخالب ، كان أحد أذنيها نصف مقطوع كما بدت أضلاعها واضحة : من خلال جلدها المقروح، كانت عجوزًا ، وربما كان شبلاها اللذان تبعاها نحو الساحة هما آخر ولادة في حياتها ، ففي العام المقبل ، وعندما يهجرها الشبلان ، وعندما تكون وقتها أضعف من أن تواصل بقاءها مع القطيع ، فإن الضباع ستأخذها ، لكنها الآن لا زالت تعيش، مستخدمة مخزونها من الخبرة والتجارب والخداع المدخر .

تركت اللبؤة الصغرى لتذهب أولاً لتناول الطعم ، فقد شاهدت من قبل أسدين يقتلان في نفس هذا الموضع ، أسفل جثة لذيذة متدلية من شجرة ، وكانت بالتالي مترددة ، وقليلة الثقة ، لم تحاول تناول طعامها بل تمددت على الأرض محركة باستمرار لذيلها وبتوتر واضح ، بينما كانت من حين الآخر تتوقف لتحدق بشدة باتجاه النفق على الناحية الأخرى البعيدة .

وعلى عجزيهما جلس شبلاها يحدقان بتلمظ نحو الجاموسة المعلقة وهما يزمجران بغضب من جراء الجوع والإحباط الذي أصابهما ، حيث كان اللحم المعلق أمامهما أعلى من أن يصلا إليه ، وفي النهاية لملم أكثرهما جرأة أطرافه وتراجع للوراء قليلا ثم قفز بعزم وتصميم على الطعم ، أنشب مخالبه الأمامية بالجاموسة بينما تدلت رجلاه الخلفيتان في الهواء محاولاً أن يلتهم قطعة من اللحم في عجلة وتسرع إلا أن اللبؤة الفتية استدارت نحوه بشدة وهي تزمجر ثم صفعته بعنف حتى سقط على ظهره ثم وقف على رجليه وتراجع بخذي وخجل .

لم تحاول اللبؤة العجوز أن تحمي صغيرها فهذا هو قانون القطيع ، إذ لا يأكل أولاً إلا الحيوان الأقوى والأكثر أهمية وسطهم .

هذه الجماعة من الحيوانات لا تعيش إلا على قوتها ، ومن ثم لا يحاول الصغار ولا الضعاف منهم التغذية إلا بعد أن تشبع الأولى ، وعندما يضيق الحال، ويأتي موسم الجفاف والجوع ، ويندر وجود الصيد ، وعندما يكون انبساط السهل عائقاً لهم من الافتراس ، فإن الصغار قد يجوعون حتى الموت ، أما الإناث البالغة فلا تدخل في دورة شبق مرة أخرى إلا بعد أن يعود الصيد وافراً كما كان . بهذه الطريقة يضمن القطيع بقاءه .

زحف الشبل المهزوم ليلحق بأخيه تحت الطعم وليتنافس معه في التقاط قطع اللحم المتساقط من بطن الجاموسة الممزق والذي تركته اللبؤة القوية بدون قصد منها .

وفجأة ، وفي انزعاج واضح ، سقطت اللبؤة على أرجلها .. فزعت كلوديا عندما رأت أن رأس اللبؤة كله كان ممتلئًا بيرقات وديدان بيضاء خرجت من جثة الطعم عندما كانت تتغذى عليه، نفضت اللبؤة رأسها بعنف وتساقطت الديدان عنها كحبات الأرز ، وبمخالب يديها خمشت بجنون جوانب وجهها حتى تتخلص من تلك الديدان السمينة التي كانت تحاول التسلل لفتحات أذنيها المغطاة بالشعر ، ثم مدت رقبتها للأمام وعطست بشدة لتطرد تلك الديدان من منخريها .

انتهز أشبالها الصغار تلك السانحة للمزيد من اللعب أو للرضاعة وألقى اثنان منهم بجسمهما على رأسها محاولين التعلق بأذنيها بينما قام الثالث بالتسلل نحو بطنها وجذب أحد الحلمات بفمه . تجاهلتهم أمهم ونهضت مرة أخرى لمعاودة طعامها بينما حاول الشبل المعلق بثديها التشبث به لفترة أطول ثم سقط تحت مخالبها مجرجراً خيبته عندما انتصبت وبدأت في جذب اللحم وزحف من بين أرجلها معفراً بالتراب أشعثًا خائب الأمل .

لم تتمالك كلوديا نفسها من الضحك رغم وضعها ليدها على فمها ، وفي الحال غرز سين إصبعه بشدة بين أضلعها .

لم تستجب سوى اللبؤة العجوز لقهقهة كلوديا ، فقد كان بقية القطيع مشغولاً جدًا ، أما هي فقد انحنت ومددت أذنيها على جانبي وجهها وحدقت بشدة باتجاه فتحة النفق ، وبهذه العيون البشعة المحدقة نحوها تبخرت من كلوديا أي رغبة في الضحك مرة أخرى وحبست أنفاسها .

حدثت نفسها بدون امتناع واضح : «لا يمكن للبؤة أن تراني ، حقًا لن تراني» ، ولكن ولعدة ثوان اخترقتها تلك العيون الملتهبة .

وفجأة نهضت اللبؤة العجوز وتسللت نحو الحشائش والشجيرات من خلف شجرة الطعم، تلوث كالأفعوان منزلقة على جسمها البني الشاحب ، وعندها فقط أطلقت كلوديا أنفاسها المحتبسة وابتلعت ريقها بارتياح .

وبدأت الشمس تنزلق نحو المغيب وتختفي من فوق الأشجار بينما واصل بقية القطيع طعامه.

ثم بدأ الشفق الإفريقي الجميل يلقي بظلاله عليهم .

❖ ❖ ❖

همس سين بنعومة : «إذا كان معهم توم - أسد - فسيظهر الآن» فالليل هو وقت خروج الأسود ، والظلام يزيدهم جرأة وصلابة وقسوة ، وبدأ الليل يرخي سدوله عليهم رويدًا رويدًا .

سمعت كلوديا صوتًا .

لكن الغابة مليئة بمثل هذه الأصوات ، لذا لم تلق بالاً إليها ، ثم سمعت فجأة صوتًا واضحًا لا ريب فيه ، صوت وقع أقدام لحيوان ثقيل ناعم وخفي كالشبح وقريب جدًا ، اقشعر جلدها من الخوف وكأن ألوف الحشرات تزحف على ظهرها ، وبسرعة أدارت رأسها .

كان كتفها الأيسر ملتصقًا على جدار القش بالنفق وكانت بالجدار فتحة صغيرة عرضها حوالي بوصة نظرت خلالها كلوديا وتبينت أن هناك حركة ما ، وللوهلة الأولى لم تتعرف على ما رأته ثم ما لبثت أن أدركت أنه ليس إلا جلدًا أسمرًا ذاهيًا يغطي تلك الفتحة على بعد بوصات من الجانب الآخر ، وعندما حدقت نحوه في ذعر تراجع الجلد الأسمر من أمامها ، وهنا سمعت شيئًا آخرًا هو أنفاس لحيوان يتشمم ما حوله على جانب الجدار الآخر .

وبالغريزة قامت ، وبدون أن ترفع عينيها عن فتحة الجدار ، بمد يدها من خلفها ، ولكن يدًا قوية باردة أخرى أمسكت بها ، هذه المودة لم تؤلمها ، أو

تثير أعصابها ، هذه المسكة مثلما أثارتها قبل دقائق ، بل بالعكس ، لقد شعرت بأنها أعطتها الأمن والراحة والطمأنينة بأكثر مما كانت تصدق ، بل أنها لم تستغرب إنها حقا قد مدت يدها من خلفها لتمسك بيد سين ، وليس بيد بابا .

وفجأة وأثناء تحديقها من خلال الفتحة رأت أن هناك عينًا أخرى ضخمة مستديرة ، تلتمع كالعقيق الأصفر ، عين لا إنسانية قاسية لا يطرف لها جفن ، ترسل إليها نظرة كاللهب من بؤبؤ أسود بشع ، وعلى بعد ذراع من وجهها ، أرادت أن تصرخ وتستغيث لكن حلقها كان مقفلاً ، أرادت أن تقفز على قدميها لكن قدميها كانا ميتتين ، أتت مثانتها المنتفخة الصلبة كالصخرة من أسفل بطنها ، وبدون أن تسيطر على نفسها شعرت بأن بضع قطرات دافئة قد بللتها .

هذا الذي حدث جعلها أكثر قدرة للسيطرة على نفسها ، فقد شعرت بالمهانة أكثر مما شعرت بالخوف ، فضمت عليها فخذيها وتمسكت أكثر بيد سين بينما واصلت تحديقها صوب تلك العيون البشعة الصفراء .

تشممت اللبؤة ما حولها مرة أخرى بقوة ، لكن كلوديا ، رغم تململها بهدوء ، سيطرت على أعصابها :

«لن أستغيث ولن أصرخ» ، هكذا حدثت نفسها .

تشممت اللبؤة مرة أخرى وبصوت عال ما حولها خلق الجدار وامتلأت خياشيمها برائحة الإنسان . فأطلقت زئيرًا هائلاً بدا وكأنه سيحطم جدار النفق، قاومت كلوديا الصرخة التي كادت تنطلق من حلقها وفي نفس الوقت اختفت العين الصفراء من أمام الفتحة وسمعت صوت وسائد لأقدام هائلة تدور من حول النفق .

أدارت كلوديا رأسها لتعرف مصدر الصوت ونظرت في عيني سين مباشرة ، كان مبتسمًا وهذا ما سبب إثارة استغرابها بعد كل الذي عايشته قبل قليل ، كانت على شفتيه ابتسامة المتهور الطائش وبدت السخرية في عينيه الخضراوتين، ولأنه كان يسخر منها فقد تلاشى الرعب منها وحل محله الغضب الشديد ، قالت في نفسها : «هذا الخنزير ! ، هذا الخنزير الرموي المغرور» ولأنها كانت تعرف أن وجهها قد ابيض من الرعب ، وأن عيونها أصبحت داكنة ومتسعة ، فقد كرهت نفسها لذلك وكرهته أكثر لأنه كان شاهدًا لما حل بها .

أرادت أن تستعيد يدها من قبضته لكنها كانت لا تزال تسمع صوت ذلك القط الكبير هناك قريبًا جدًا وهو يطوف من حولهم ، ورغم أنها إشمأزت من

سين وازدرته إلا أنها علمت بأنها لن تستطيع أن تتمالك نفسها بدون قبضته تلك، لذا واصلت الإمساك به لكنها أدارت رأسها بعيدًا عنه محاولة تتبع زمجرة اللبؤة، وحتى لا يرى سين وجهها .

ابتعدت اللبؤة من أمام المخبأ ، ومن خلال الفتحة رأت كلوديا جسمها الذهبي الضبابي وقد ابتعد عنهم كما رأت أن اللبؤة الشابة والأشبال قد اختفوا تحت الحشائش بعد أن حذرتهم اللبؤة الكبرى بزئيرها وبالتالي عادت أرض القتل تحت شجرة الطعم خالية مهجورة .

بدأ الضياء يتلاشى بسرعة الآن وسيحل الظلام خلال بضع دقائق ، وكان مجرد التفكير في أن هذا الرجل الشرير جالسًا بجوارها في الظلام أكثر من أن يحتمل ، اقترب سين منها ووضع بين شفتيها شيئًا صغيرًا صلبًا ، وللوهلة الأولى قاومت ذلك لكنها على كل حال فتحت فمها وتركته يدخل فيه مكعبًا من اللبان لتعلكه ، ولقد دهشت وأصابتها الحيرة والبلبلة : «لقد جن الرجل ! أهذا وقت لمضغ اللبان ؟ » .

وعندما طحنت العلكة بين أضراسها تبين لها أن ريقها كان قد جف تمامًا وأن حلقها كان وتغضنًا محرقًا وكأنها ابتلعت ثمرة يرسمون ، جرى لعابها من طعم النعناع لكنها لم تشعر نحو سين بأي عرفان لشدة غضبها ، ولأنه كان يعلم أن فمها لابد أن يكون جافًا بعد المحنة التي مرت بها ، وكرهت هذا منه، خف الضياء قليلاً ، ووسط الظلام زأرت اللبؤة من وراء المخبأ ، وأخذت كلوديًا تفكر وبشوق شديد في عربة التايوتا التي تقف على بعد ميل منهم في مدخل الغابة ، وكأنما أصابت العدوى أبيها إذ سأل سين بصوت خافت : «متى سيحضر حاملو بنادقك تلك السيارة؟» وأجابه سني بهدوء : «ليس قبل غياب أي أثر للضياء اللازم للرمي ، خمسة عشر أو عشرين دقيقة أخرى » .

سمعت اللبؤة صوتهم وزأرت مرة أخرى مهددة ، وبمرح قال سين : «العاهرة الوقحة ! (سنارلي سو) شخصيًا ؟ » ، أجابته كلوديا بصوت كفحيح الأفاعي : «أقفل فمك ، إنها ستجدنا».

- أوه ! إنها تعرف إننا هنا ، ثم رفع صوته وصاح باللبؤة : «اذهبي من هنا أيتها العاهرة العجوز. اذهبي لأشبالك ! » .

جذبت كلوديا يدها بعنف من قبضته وصاحت به : «عليك اللعنة ، إنك ستكون سببًا لقتلنا جميعًا» ، لكن الصوت الآدمي المرتفع هو الذي أدهش اللبؤة ، ولدقائق خيم الصمت تمامًا على ما وراء الجدار ، رفع سين بندقيته القصيرة القبيحة ذات الماسورتيه والتي كانت ملقية على الجدار بجانبه ووضعها على حجره ، كانت بندقية من طراز (٥٧٧ نيترو إكسبريس) ، فتح خزنتها

وأفرغ منها رصاصتيها المنتفختين واستبدلهما باثنتين أخرجهما من داخل جيب جاكتته الأيسر ، كانت هذه طقوس خرافية يقوم بها عادة عندما يشرع في الصيد ، ثم قال لريكاردو :

- «أسمعني الآن يا كابو ، إذا ما قتلنا هذه العاهرة العجوز ، بدون سبب مقبول ، فإن جهاز إدارة الصيد سيقوم بسحب رخصتي ، والسبب المقبول هو عندما تقوم اللبؤة بالتهام ذراع واحد منا وليس قبل ذلك ، هل تسمعني ؟» .

أومأ ريكاردو برأسه : «إنني أسمعك» .

- حسنا ، لا تطلق النار إلا إذا أخبرتك وإلا والله سأطلق النار عليك أيضًا» .

في ضوء الغروب الخافت تبادلا الابتسام ، وعرفت كلوديا لدهشتها الشديدة أن كلا الرجلين كانا يستمتعان بذلك الحوار ، هذان المجنونان الأخرقان يتسليان حقًا !

- عندما يصل جوب بالعربة سيكون الظلام حالكًا ولا يستطيع جوب أن يحضرها حت المخبأ ، علينا أن نتوجه إليها في موقفها بجانب ضفة النهر ، وعليك أن تذهب أولاً يا كابو ثم تمشي كلوديا بيننا ، كونوا قريبين من بعضكما ، ومهما حدث لا يجري أحد منكما . بالله عليكم لا يجري أي واحد منكما » .

ثم سمعوا صوت اللبؤة مرة أخرى تحوم بخفة من حولهم ، زأرت مرة أخرى وفي الحال جاوبها زئير من على الجانب الآخر للمخبئ . كانت اللبؤة الشابة هناك الآن ، وغمغم سين : «كل القطيع هنا » تغير الوضع تمامًا فلقد جذب زئير اللبؤة العجوز .

باقي القطيع . انقلبت الآية وصار الصيادون هم الطرائد ، لقد حصروا في المخبأ ، كان الظلام على وشك أن يحل تمامًا وبدت الشمس كموقد خافت يتوهج على الأفق الغربي .

وهمت كلوديا : «أين العربة » ؟

فأجابها سين : «إنها في الطريق » ، وفجأة تغير صوته وصاح بحدة : «أرضًا ! استلقوا على الأرض!» ، ورغم أنها لم تسمع شيئًا مريبًا إلا أنها ألقت بنفسها أرضًا من على كرسي القماش .

فقد زحفت اللبؤة على الجدار الأمامي مرة أخرى ، وبدون أن يسمع لها صوت ، ثم ألقت بنفسها عليه تزأر بشراسة وعنف وهي تمزق في البناء الهش بمخالب يديها ، وبرعب شديد تبينت كلوديا أن اللبؤة على وشك الهبوط من فوقها .

صاح فيهم سين بحدة وهو يرفع بندقيته ذات الماسورتين : «ضعوا وجوهكم على الأرض» وفي نفس اللحظة انفتح الجدار فجأة ، أطلق سيد النار ودمدم صوت الرصاصة المنطلقة من خلال النفق فأضاءت مداخله بلهب ساطع كأنه وميض آلة للتصوير ، وقالت لنفسها :

«قد قتل الوحش» ، فبالرغم من كراهية كلوديا لسفك الدماء إلا أنها شعرت بالراحة وبالذنب معًا . لكن هذا لم يدم طويلاً فقد أفزعت الرصاصة فقط تلك القطة وطردتها بعيدًا عنهم حاليًا ، وقدر سمعت كلوديا صوت اللبؤة وهي تهرول بعيدًا داخل الحشائش مزمجرة بشراسة .

«لقد فشلت في إصابتها» . اتهمته كلوديا وسط أنفاسها المتقطعة لبنيا امتلأت خياشيمها برائحة البارود ، فأجابها سين : «لم أحاول إيذائها» ، ثم قام بفتح البندقية وعبأها بالرصاص من الحزام الذي على صدره : «لقد صوبت عليها طلقة تحذيرية أمام رأسها» ، ثم سمعوا صوت ريكاردو جافًا ولا مبالٍ : «ها هي ذي العربة قادمة» ، ورغم أن آذان كلوديا لا زالت تظن من صوت أطلاق النار إلا أنها سمعت صوت محرك العربة الديزل القادمة نحوهم ، وانتصب سين واقفًا : «لقد سمع جوب صوت الرصاصة لذا حضر مبكرًا ، لا بأس . لنستعد للخروج» .

تهيأت كلوديا للخروج ، ثم نظرت من فوق الحائط الهش للنفق نحو الغابة الكاحلة المخيفة المحيطة بهم ، وتذكرت ذلك الممر المتعرج الضيق بجوار ضفة النهر والمستخدم كطريق ، وأن عليهم أن يمشوا راجلين لحوالي ربع الميل في هذا الظلام كي يصلا إلى السيارة وإلى الأمان ، وأصابها الذعر من جراء ما هو قادم .

وبين الأشجار ، وعلى بعد أقل من خمسين ياردة منهم ، زأرت اللبؤة مرة أخرى . ضحك سين ضحكة خافته وأمسك بساعد كلوديا وهو يقودها باتجاه باب النفق وقال : «اللبؤة الصاخبة الخبيثة!» ، لم تحاول كلوديا هذه المرة أن تبتعد عنه بل وجدت نفسها أكثر تعلقًا بذراعه ، ثم قال لها أمرًا : «أمسكي بحزام كابو» ويهدوء أطلق يدها ووضعها على حزام أبيها من جهة ظهره ثم قال: «تمسكي به ، وتذكري أنه مهما حدث فلا تجري ، حيث إن الجري سيدفعهم في الحال نحوك ، نفس لعبة القط مع الفار والتي لا تقاوم بالنسبة للقطيع» ، أدار سين مفتاح الكشاف الكهربائي ، كان مدفوع الماجلايت القوي أسود اللون ، لكن حتى هذا الشعاع القوي الذي انبثق منه بدا أصفرًا شاحبًا في ظلمة الغابة الكثيفة وهو يديره ذات اليمن وذات الشمال . وعكس الشعاع مرأى كثير من العيون المتوهجة كنجوم النحس والتي كانت متوارية بالغابة ولم يكن من المستطاع التمييز بين عيون الأشبال من عيون أمهاتهم .

وبهدوء قال سين: «لننطلق» . تحرك ريكاردو خلال ممر الطريق الضيق الوعر وهو يجرجر كلوديا معه ومشوا ببطء متلاحقين ، كان ريكاردو يقود المقدمة حاملاً بندقيته الخفيفة بينما تلاه سين في المؤخرة حاملاً المصباح الكهربائي وبندقيته الثقيلة وبينهما كلوديا .

وكلما انعكس شعاع المصباح على العيون المتوهجة كلما بدا لهم أنها أقرب مما يتصورون ، حتى أن كلوديا بدأت ترى بوضوح أجسام تلك الحيوانات التي كان لونها شاحبًا كلون الفراشات في ضوء المصباح ، عندما بدأت تدور من حولهم بنشاط وتحفز . كانت اللبؤتان تقتربان منهم بخطى سريعة من وراء الأعشاب وتراقبانهم بشدة ولكن سرعان ما تديران رؤوسهما عن انعكاس الشعاع عليهما .

كان ممر الطريق منحدرًا ووعرًا و ... أوه ... طويل جدًا ! . كل خطوة كانت كالعذاب لكلوديا وضاق صبرها وهي تتعثر خلف والدها ، لم تكن تراقب خطاها وهي تمشي بل ركزت اهتمامها على أشكال تلك القطط والتي تستعرض نفسها من حولهم .

همس سين محذرًا : «ها هي صغار لي سو قادمة» ، في الوقت الذي استجمعت فيه اللبؤة العجوز شجاعتها وتقدمت نحوهم خلال الظلام وهي تطلق زئيرًا كأنه صوت قاطرة بخارية ، في دفقات تصمم الآذان فخرج من حلقها ومن فمها المفتوح، كان ذيلها الطويل يضرب الهواء من جنب إلى جنب وكأنه كرباج من جلد فرس النهر .

توقفوا عن السير ، وقام سين بالتلويح ببندقيته وبالكشاف الكهربائي نحو الوحش المهاجم وصرخ في اللبؤة «أغربي عنا ! إذ هبي أيتها الوسخة ! » . لكن اللبؤة واصلت تقدمها وقد ألصقت أذنيها ومددتهما على جانبي وجهها ، وقد تدلى لسانها القرمزي من فمها المفتوح وأبرزت أنيابها الطويلة المشرعة .

صرخ فيها سين «ياه ... سنار لي سو ! سأحطم رأسك الغبي ! » .

وفجأة أوقفت اللبؤة هجومها في اللحظة الأخيرة ، وانتصبت على أقدامها القوية الأمامية ، بينا الغبار يدور من حولها في ضوء الكشاف ، ثم أمرها بحزم «تبولي على نفسك ! » ، نصبت أذنيها ثم استدارت وهرولت في طاعة نحو الغابة . وضحك سين ضحكة خافتة وقال : «كانت لعبة منها علينا ، فقد كانت فقط تختبرنا » ، جاء صوت كلوديا مخروشًا وكالعويل في أذنها : «وكيف عرفت ذلك؟» فأجابها سين : «إنه ذيلها ، فطالما كانت تلوح به فهي تعبث بنا بدون شك، أما إذا احتفظت بذيلها منتصبًا فمن الأجدى أن تحترسي » .

وهنا صاح ريكاردو : «ها هي العربة قادمة » . وفعلاً شاهدوا أضواءها من

خلال الأشجار ، وهي تقفز على جانب النهر وراءهم ، وهمست كلوديا «الحمد لله» ، أسرع سين محذرًا لها عندما بدأوا الهبوط على الممر الضيق ثانية : «لم ينتهي الأمر بعد . فهناك أيضًا جيرتي الصخابة في انتظارنا».

كانت كلوديا قد نسيت تلك اللبؤة الشابة تمامًا ، أما الآن فقد تلفتت من حولها بخوف وهي لا زالت متعلقة بحزام أبيها .

وأخيرًا وصلوا إلى ضفة النهر ، الذي كان مضاءً تمامًا بأنوار العربة التايوتا ، التي توقفت على بعد ثلاثين ياردة منهم ، بينما ظل محركها دائرًا . وكانت رؤوس قصاصي الأثر واضحة من خلف الأنوار وهم على المقاعد الأمامية بالعربة ، لقد اقتربوا كثيرًا منها ، لدرجة أن كلوديا لم تتمالك نفسها ، وفجأة وبدون تفكير جذبت يدها من حزام والدها وهرولت مندفعة تجاه العربة جريًا على رمال الشاطئ الرخوة البيضاء .

سمعت صياح سين من خلفها : «أيتها الملعونة الخرقاء» ، وفي الحال جاء زئير اللبؤة المخيف خلال هجمتها ، فبينما كانت كلوديا تتلفت من حولها وهي فزعة، خرجت اللبؤة من وسط حشائش البوص الطويلة التي تكسو جانب النهر، وبدت أثناء هجومها ضخمة شاحبة وسريعة كالحية وقد انعكس عليها ضوء العربة . تقلصت معدة كلوديا وهي تجرجر أقدامها وسط أمواج من الرمال البيضاء الكثيفة ورأت أن اللبؤة كانت ترفع ذيلها عاليًا منتصبًا كعمود من الصلب.... ورغم محنتها ورعبها فقد تذكرت بوضوح ما قاله سين لها من قبل ، وحدثت نفسها بصوت ثلجي: «هذه المرة لن تتوقف عن الهوج وستقتلني » .



لم يكن سين قد تنبه في الحال بأن كلوديا كانت تجري ، كان كل انتباهه مركزًا على حماية المؤخرة ، وهم يهبطون خلال الممر الضيق المنحدر نحو النهر حاملاً مصباحه الكهربائي بيساره ، بينما حملت يده اليمنى البندقية ذات الماسورتين ، وكان يتابع اللبؤة العجوز في تحركها من حشائش البوص ، وهي تزحف على بطنها نحوهم ، وكان متأكدًا أن هذه مجرد تظاهرة غير جادة للعدوان عليهم منذ أن انتهرها أثناء هجومها المخادع ذاك ، كان الشبلان جالسين من خلفها على الحشائش وهما يرقبان ما يحدث بعيون واسعة وبانتباه شديد ، ولكن بخوف وتردد عن المشاركة ، وحتى ذلك الوقت لم يكن سين قد شاهد اللبؤة الشابة ثانية رغم إنه كان متأكدًا الآن بأنها هي الخطر الرئيسي الذي يهددهم من وراء حشائش النهر الكثيفة العالية .

لقد أحس بكلوديا وهي تصطدم به لكنه ظن أنها ربما تعثرت ، ولم يدرك أنها اصطدمت به عندما استدارت لتجري ، كان لا يزال مستغرقًا في البحث

عن اللبؤة الشابة ، مديرًا مصباحه بين الحشائش الطويلة يمينًا ويسارًا ، عندما سمع صوت أقدام كلوديا وهي تجري على الرمال ، فاستدار بسرعة ليرى أنها تجري بمفردها في طريقها باتجاه ضفة النهر ، فصرخ فيها بغضب جنوني : «أيتها الملعونة الخرقاء» ، لقد كانت الفتاة مصدرًا دائمًا للإزعاج والشقاق منذ وصولها قبل أربعة أيام ، لقد عصت أوامره بفظاعة وقلة اكتراث ، وتبين له الآن وفي لمح البصر، وقبل أن تشن اللبؤة هجومها ، بأنه على وشك أن يفقدها ، لقد كان مقتل أي زبون أو تشويهه أكبر سبة تنال أي صياد محترف مما يعني نهاية لحياته المهنية ، ونهاية لعشرين عامًا من الشقاء والكدح حتى وصل إلى ما وصل إليه : «أيتها الخرقاء اللعينة» ! ، صب جام غضبه ومرارته على تلك الفتاة التي تجري وهو مندفع نحوها ، مصطدمًا بريكاردو الذي كان لا يزال واقفًا على الممر وقد تجمد من هول الصدمة. وفي تلك اللحظة اندفعت اللبؤة نحوها من جانب الحشائش الطويلة التي كانت تنتظر فيها .

كان مجرى النهر مضاءً بأنوار العربة ولذا ألقى سين المصباح من يده وأمسك بالبندقية بكلتا يديه ، لكنه لم يتمكن من إطلاق النار ، إذ لم تكد زاوية الإطلاق مناسبة ، لوجود كلوديا بينه وبين اللبؤة المهتاجة : جرت كلوديا على الرمال بارتباك وخرق وهي تدير وجهها عنه لتراقب الهجوم القادم ، دافعة بيديها في اهتياج شديد غير مواكب لحركات قدميها ، وصاح فيها سين : «إلى الأسفل ! انبطحي على الأرض» ، لكنها واصلت الجري معيقة لتصويب ناره ، في اللحظة التي انحدرت اللبؤة نحوها ، مبعثرة الرمال تحت مخالبها التي امتدت ملتوية صفراء من تحتها ، وهي تزأر وتزمجر عند كل قفزة تجاهها ، وكانت رافعة ذيلها منتصبًا عاليًا مستقيمًا .

وفي ضوء كشاف العربة ، كانت ظلال القطة والفتاة منعكسة داكنة على الرمال البيضاء وهما يقتربان من بعضهما البعض ، ورأى سين اللبؤة وهي تستعد للوثوب ، ورأى نفسه عاجزًا ، وهو ينظر خلال جهاز التسديد في البندقية، عن أن يفرق بينهما إذا ما أطلق النار ، وإنه حتمًا سيصيب الفتاة ... وفي اللحظة الأخيرة تعثرت كلوديا عندما ذابت أقدامها من تحتها من الخوف ، وبصرخة يائسة انبطحت على وجهها في الرمال .

وفي الحال صوب سين بندقيته باتجاه صدر اللبؤة الأصفر الشاحب . فببندقيته هذه كان بمستطاعه إصابة قطعتين من العملة المعدنية يقذفهما أي شخص في الهواء من على بعد ثلاثين ياردة ، حتى لو قذفت إحداهما يسارًا والأخرى لليمين ، وقبل أن تسقطا على الأرض ، بهذه البندقية قتل الفهود والأسود والخرتيت والجاموس والفيل بالمئات ، مثلما قتل بها الثوار الأفارقة أيام حرب الغابات في روديسيا ، لم يكن أبدًا يحتاج إلى طلقة ثانية ، أما الآن فإن

الهدف واضح أمامه ويمقدوره أن يرسل بمنتهى الثقة في نفسه رصاصة عيار ٧٥٠ مفلطحة ناعمة الرأس لتخترق اللبؤة من صدرها حتى رأس ذيلها وستنتهي اللبؤة . ولكن ستنتهي أيضًا هذه الرحلة ، وربما تنتهي رخصة امتيازه أيضًا ولربما كان أقل ما سيصيبه هو شهور من التحقيقات والمحاكم ، إذ إن لبؤة تقتل يعني صب جام غضب الحكومة وإدارة الصيد الحكومية على أم رأسه .

كانت اللبؤة على وشك القفز فوق الفتاة الممددة على الأرض ، لا يفصل بينهما إلا بضع أقدام من الرمال البيضاء ، أوقف سين تصويبه ، فقد كانت مغامرة خطرة للغاية ، إلا أنه صمم على القيام بها ، لقد كان يغامر بحياة الفتاة أيضًا ، لكنها أثارت خنقه وغضبه عليها وبالتالي ما عليها إلا أن تعتمد على حسن الحظ لإنقاذ حياتها .

أطلق سين النار على الأرض الرملية على بعد قدمين من أمام فكي اللبؤة المفتوحين على آخرهما ، حفت الرصاصة الثقيلة الأرض من أمامها ، مرسلة بركانًا من الرمال وشلالاً من الحصى الأبيض الطائر ، والذي غطى اللبؤة تمامًا ، وفي لحظة ملأ الرمل فمها وتسلل إلى رئتيها أثناء زئيرها وقفل منخاريها تمامًا ودخل في عيونها الواسعة الصفراء ، باطشًا بها ليعميها ويذهلها ثم ليوقف هجمتها في الحال .

جرى سين بسرعة إليها جاهزًا لإطلاق النار من الماسورة الأخرى ، لكن لم يكن هذا بالضروري ، فقد التوت اللبؤة على نفسها وهي تتراجع للخلف باهتياج شديد ، خامشة في عيونها المغطاة بالرمال ، ثم تتقلب على ظهرها وتنهض ثانية لتتراجع متخبطة باتجاه حشائش البوص على الشاطئ في عمى ، لتتدحرج ثانية وتسقط ، ثم تكافح للنهوض مرة أخرى ، حتى تلاشى أخيرًا صوت زئيرها المكروب الفزع .

وصل سين لكلوديا ووضع ذراعه من حولها وأنهضها على قدميها المتهالكتين ، لم تستطع أرجلها حملها فاضطر إلى أن يحملها مرة ويجرجرها أخرى نحو التايوتا ثم يلقى بها في المقعد الأمامي.

في نفس الوقت زحف ريكاردو مذعورا نحو العربة وألقى بنفسه على المقعد الخلفي ، بينما قفز سين إلى العربة وهو يحمل بندقيته كالمسدس بيد واحدة ممتدة نحو الظلام ومستعدًا لأي هجوم ثم صرخ في وجه جوب : «انطلق» ، فرفع السائق ، من قبيلة المتابيلي ، قدمه من على دوار الكلتش وانطلق على درب النهر وهو يقفز بالعربة ويتمايل بها في سرعة وانفعال .

وفي الدقيقة الأولى لم يتحدث أحد منهم حتى فارقوا ذلك الممر الضيق على ضفة النهر ووصلوا إلى الطريق الناعم المطروق . ونادت كلوديا بصوت ضعيف

مختنق : «إذا لم أتبول الآن فسأنفجر ! » فأجابها سين ببرود : «يمكننا أن نصويك دائمًا نحو سو الصخابة ، مثل أي طفاية حريق جيدة ، فتغسليها غسلاً!» ومن خلف المقعد أطلق ريكاردو ضحكة مرحة ، ورغم تبين كلوديا بما في هذه الضحكة من زوال للتوتر من والدها وتسكين لأعصابه ، إلا أنها استنكرت ذلك بشدة ومرارة ، مما ضاعف من حدة بؤسها وهو أنها الذي عانت منه .

❖ ❖ ❖

عدوا بالعربة لمدة ساعة حتى وصلوا للمعسكر ، وعند وصولهم كان موسس . الخادم المخصص لكلوديا في المعسكر - قد ملأ تنك الحمام بالماء الدافئ . ولم يكن التنك سوى برميل كان مستخدمًا للوقود وقد علق على أغصان شجرة موبين ، ومن حوله أقيم ستار من حصير من القش المضفور بدون سقف ، ومن تحته أرضية مبلطة بالأسمنت .

وعندما وقفت كلوديا تحت الماء الدافئ المندفع نحوها ، وعندما عاد لونها إلى وضعه الطبيعي القرمزي ، شعرت بزوال الدوار الذي أصابها من جراء تدفق الأدرنالين في شرايينها ، ليحل محله شعور لذيذ بالعافية والقوة التي يعرفها من يمر بسلام من مثل أهوال الخطر الماحق الذي عاشته هذا اليوم ، كانت ، وهي تعمل رغوة الصابون حول جسدها ، تسترق السمع لسين . لقد كان على بعد خمسين ياردة منها في الملعب الرياضي المؤنث الذي أقامه خلف الخيمة التي يقطن فيها وكان هسيس أنفاسه يصل إليها بوضوح وهو يتدرب على رفع أثقال الحديد لم يتوقف أبدًا ، طوال الأيام الأربعة التي قضتها معهم ، عن التدرب فور عودتهم من الغابة ، ومهما كان اليوم شاقًا أو الصيد صعبًا .

«رامبو!» ابتسمت في نفسها سخرية وإذدراء لهذا المغرور ، مع أنها ورغمًا عمن أحاسيسها ، ولأكثر من مرة خلال الأيام القليلة السابقة ، كانت تراقبه خلسة ، متأملة عضلات يديه المفتولتين وبطنه الرمادية الضامرة . وحتى أردافه المستديرة القوية ، التي تشبه زوجًا من بيض النعام ، لم تغب عن بالها .

❖ ❖ ❖

حمل موسس المصباح وتقدم أمامها عند خروجها من الحمام مرتدية عباءة من الحرير وقد لفت حول رأسها بشكيرًا كالعمامة . كان قد جهز لها مسبقًا الملابس التي تناسبها : بنطلونًا فضفاضًا من الكاكي وقميصًا قصير الأكمام وحذاء برقبة بلون جلد النعام ، وهي بالضبط الملابس التي كانت ستختارها لنفسها .

كان موسس يغسل ملابسها المتسخة يوميًا ويكويها بإتقان وروعة حتى أن

بنطلونها كان يحدث أصواتًا خافتة عندما ترتديه ، وهذا ما ذاد من إحساسها بالحيوية والرفاه . استفرق بتخفيف شعرها وتسريحه وقتًا ، ثم أكملت وضع مكياجها وأضافت بعض أحمر الشفاه إلى شفتيها ، وعندما نظرت لنفسها في مرآتها الصغيرة إزداد شعورها وإحساسها اللذيذ المريح حدة فابتسمت مخاطبة نفسها : «من فينا هو المغرور المختال الآن» ، ثم توجهت إلى حيث تحلق الرجال حول نار المعسكر ، والذين توقفوا عن الحديث عندما أطلت عليهم ، مما أضاف إليها مزيدًا من الغبطة والحبور .

وعندما رآها سيد قام من مقعده ليحييها بطريقته التي تغيظها أكثر مما تسعدها فتظاهرت بالحزم ورجتهم ألا يقوموا أو يقعدوا بدون راع ، وابتسم سيد لها بعذوبة . بعد أن حذر نفسه من إبداء أي مشاعر إعجاب لها . وقدم لها كرسيًا من القماش لتجلس عليه ففعلت ومدت أطراف قدميها نحو نار المعسكر .

وأمر سين الخادم بإحضار كأس من الشراب للدونا : «أنت تعرف ما ترغب فيه الآنسة » .

وعلى صينية من الفضة أحضر النادل الويسكي لها في كأس من الكريستال النقي بلون ماء بيربير الزلال وممتلئًا لنصفه بمكعبات الثلج ، وكان طعمه لذيذًا .

ارتدى النادل جلبابًا نظيفًا ناصع البياض يتدلى حتى أسفل ركبتيه ، ورضع على كتفه وشاحًا قرمزيًا ، ليدلل على وكانته ككبير للخدم ، وطربوشًا أحمرًا على رأسه وقد وقف مساعداه باحترام وراءه ومرتدين نفس طراز الطربوش والجلباب الأبيض . كان هذا مما ضايق كلوديا بعض الشيء: أن يكن هناك عشرين خادمًا للاهتمام فقط بثلاثة منهم ! هذا نوع من الترف والاستعمار والاستغلال! نحن الآن في عام ١٩٨٧ يا إلهي ، وقد ولى عهد الإمبراطورية منذ زمن ! لكن الوسكي كان لذيذًا ! تناولت رشفة من كأسها وقالت لسين : «أظن أنك تتوقع منى أن أشكرك لإنقاذك حياتي» . فأجابها سين: «لا . أبدًا يا حلوتي » .

عرف سيد في التو مدى كراهيتها لهذا الأسلوب في المخاطبة فواصل حديثه لها : «لم أتوقع منك أي اعتذار عن تصرفك الأخرق . وحتى أكون في غاية الصراحة معك ، فقد كنت أكثر قلقًا على حياة اللبؤة . فإذا ما قتلتها فسيكون هذا حقًا وضعًا مأساويًا » .

تحفزت كلوديا للصراع بل شعرت بلذة وحبور وهي تبادل سين الهمز واللمز. وكلما اخترقت برود أعصابه ازدادت حبورًا ، وكأنها في مرافعة ناجحة بإحدى المحاكم . لكن كبير الخدم قطع عليها تحفزها عندما أعلن : «يقول الشيف،

رئيس الطهاة ، أنه قد جهز العشاء . سامبوا » .

قادهم سين للخيمة التي جهز بها الطعام ، والتي أضيئت بشمعدان كبير جذاب مزدان بعشرات الشموع المضيئة المصنوعة من بروسلين ما يسين . كانت السكاكين من الفضة الخالصة وأخذت كلوديا ، بدهشة ، تتفحص بدقة الدفعة التي عليها ، بينما كانت كئوس الكريستال تبرق على سطح غطاء المنضدة المصنوع من قماش ماديرا المبرقش ، ووقف خادم مجلبب وراء مقعد كل منهم جاهزًا لخدمتهم . وسأل سين :

«ماذا تشتهى أن تسمع الليلة يا كابو ؟ » .

فأجابه ريكاردو : «قطعة لفو لفجانج أما دبوس » .

ضغط سين على زر تشغيل المسجل قبل أن يتوجه لمقعده وانسابت أنغام موزارت لكونشيرتو البيانو السابعة عشرة صافية على ضوء الشموع .

كان الحساء من البازلاء الخضراء مع الشعير المقشر ومطبوخًا بمرق من نخاع عظام الجاموس، وبه كميات كبيرة من صلصة الفلفل الحار والتي أطلق عليها سين «بيلي بيلي هو هو !».

ورثت كلوديا عن أبيها حب الفلفل الحار والثوم والنبيذ الأحمر لكنها رغم ذلك لم تستطع مواجهة الطبق الثاني المطبوخ من أحشاء الجاموس بالصلصة البيضاء والذي كان يحبه كل من والدها وسين . حاول والدها إقناعها بتناول لقمة منه لكنها ترددت شاعرة بنوع من الغيثان حتى التقط أنفها رائحة الطبق المخصوص الذي أعده لها الشيف . فتحت فطيرة ذهبية اللوت تصاعد بخار لذيذ لشرائح كبيرة من لحم الغزال والكلاوى المطبوخة جيدًا . وعندما وضعه الشيف بنفسه أمامها هز قلنسوته البيضاء باستغراب عندما افترضت كلوديا إضافة عشرة فصوص من الثوم إلى الطبق :

- يقول كتاب الطبخ ألا نضع ثومًا ... دونًا !

- لكن كتابي يقول بإضافة كمية كبيرة منه ! كتابي يقول بصوت عالٍ أن لابد من عشرة فصوص من الثوم . أوكي يا شيفي ؟

وابتسم الشيف موافقًا مستسلمًا . كانت كلوديا بعذوبتها وبساطتها قد أسرت قلوب كل العاملين بالمعسكر .

ثم قدم لهم نبيذ (كابرنيت) المصنوع في جنوب إفريقيا ، وكان لذيذًا وقويًا ولا يقل في طعمه عن نبيذ شيتاني المفضل عندها ، وأولت كل اهتمامها به وبطبق الشيق المخصوص . كانت مصاعبه ذلك اليوم ، ثم الشمس ، ثم الهواء المنعش قد ضاعفه من شهيتها ، وكانت مثل بابا حيث يمكنها أن تأكل وتشرب ما تشاء بدون أن تضيف أوقية واحدة من الشحم أو اللحم إلى جسمها أو

لمحيط خصرها .

ولم يعكر صفو ذلك المساء إلا الحوار والأنس الذي كان دائرًا بين الرجال. فقد كانوا لا يتحدثون - شأنهم شأن الأمسيات الماجنة - إلا عن البنادق ورحلات الصيد وقتل الحيوانات البرية. وكانت لغة الحوار عن البنادق غير مفهومة لديها وكأنها رطانة أعجمية . فقد كان أبوها يقول شيئًا مثل :

«بندقية وزربي ٣٠٠ يمكنها أن ترمي برصاصة وزن ١٨٠ حبة بسرعة ٣٢٠٠ قدم في الثانية . وهذا يعطيك أكثر من ٤٠٠٠ قدم / رطل من قوة فوهتها وصدمة هايدروستاتيكيه مذهلة ! » .

ويرد عليه سين :

«أنتم أيها اليانكي مهووسون بالسرعة . لقد أطلق روي وزربي من الرصاص على حيوانات إفريقيا أكثر مما أكلته أنت من السباجتي يا كابو ! أعطني كثافة مقطعية عالية للرصاصة وراسي مخروطي وسرعة إطلاق متوسطة و ....» .

حدثت كلوديا نفسها : «لا أظهن أن أي إنسان له قدر معقول من الذكاء يمكنه أن يتحدث حول نفس الموضوع ساعة بعد ساعة » . رغم ذلك فقد كانت تذهب ، مساء كل من الأيام الماضية ، إلى فراشها تاركة لهم الخوض في نفس الموضوع ، بين دخان السيجار وكئوس الكنياك.

وعندما كانوا يتحدثون عن الحيوانات والصيد فإنها كانت تبدي اهتمامًا ، بل وتشارك أيضًا في الحديث ، ولكن من وجهة نظر مغايرة ومعارضة وغير موافقه لهم على طول الخط ، كانوا يتحدثون كثيرًا عن ذكور حيوانات بعينها اشتهرت ، بل حتى أصبحت أسطورة للصيادين ، لدرجة أن سين كان يطلق عليها أسماء أو ألقابًا قد لا تنطبق عليها ، وكان ذلك مما يضايق كلوديا ويغيظها ، مثلما تغتاظ عندما ينادي سين بابا بلفظ كابو ، وكأنه زعيم عصابة مافيا . أحد هذه الحيوانات كان يسميه «فردريك الأكبر» أو ببساطة «فرد» ، وكان هذا هو الأسد الذي يسعون لقنصه الآن . الأسد الذي من أجل صيده علقوا الجاموسة المنتنة على تلك الشجرة ... «لقد شاهدته مرتين هذا الموسم يا كابو . بل أن واحدًا من زبائني قد أطلق عليه رصاصة لكن ، لعلمك ، فقد كانت أعصابه متوترة ويده مرتجفة حتى أن طلقته طاشت لأبعد من ملعب للكرة !» .

ومال عليه ريكاردو بشغف : «حدثني أكثر عنه» . تدخلت كلوديا بعذوبة : «بابا ! لقد أخبرك عنه الليلة الماضية والليلة قبل الماضية والليلة قبل قبل الماضية!» فقهقه ريكاردو وقال : «عليك أن تنظر إلى البنات الصغيرات لا أن تسمعهم ! ألم أعلمك أي شيء يا بنيتي ؟ » ثم التفت إلى سين : «أخبرني بالمزيد عن فرد ، مره

أخرى » . فأجابه سين :

«أولاً يصل طوله لأكثر من أحد عشر قدمًا . ليس هذا فقط . بل أن له رأسًا كراس فرس النهر، وعليه لبدة وكأنها حزمة دريس سوداء ضخمة . وعندما يمشي فإنه يثير الأرض حينما يطأها كما تفعل الرياح بشجرة المساسا . أهو ذكي ؟ أهو ماكر ؟ إنه كل هذا مجتمعًا . لقد أطلقت عليه النيران ثلاثة مرات من قبل حسبما أذكر . بل أنه جرح مرة بواسطة صياد إسباني في محمية أيان بيرس قبل ثلاثة مواسم لكنه تعافى من جراحه . لم يكن ليصل لهذه العظمة إذا ما كان بليدًا أو غبيًا».

«لكن كيف سنتوصل إليه ؟ » يسأله ريكاردو .

«أظن أنكما الاثنان تثيران القرف» . قطعت كلوديا حريتهما قبل أن يجيب سين على السؤال وقالت: «بعد رؤيتي لهذه الحيوانات العظيمة اليوم ، تلك الأشبال الصغيرة الحلوة . كيف بالله تسمح لكم أنفسكم بقتلها ؟ » .

- لم أشاهد اليوم أي أشبال تقتل . غمغم ريكاردو وهو يومئ للخادم للمزيد من الطبعة المطبوخ بالصلصة البيضاء . ثم أضاف : «وللحقيقة فإننا واجهنا أكبر الخطر لا لشيء إلا لنؤمن سلامتهم » . فأجابته كلوديا بغضب : «إنك تهدد خمسة واربعين يومًا من حياتك لمجرد أن تقتل الأسود والأفيال . لذا لا تلقى على مواعظك يا ريكاردو مونتيرو ! » .

تدخل سين قائلاً : «إنك دائمًا تسحرينني بأسلوب تفكيرك المضطرب ، وبسهولة وسرعة عويلك وصراخك » . فاستدارت كلوديا نحوه وهي متحفزة مشتهية للقتال : «لا يوجد أي اضطراب في تفكيري : إنما أنت هنا فقط لنقتل الحيوانات! » .

أجابها سين موافقًا : «مثلما يذبح أي مزارع حيواناته ليؤمن نفسه قطيعًا مزدهراً معافىً وليؤمن لباقي القطيع مكانًا مناسبًا ليعيش فيه » . فردت عليه بتحد :

- «إنك لست مزارعًا» . فرد عليها اعتراضها قائلاً :

- أوه . نعم أنا مزارع يا آنستي . لكن الفرق الوحيد بيننا هو أنني أذبحهم في الغابة وليس بداخل السلخانة . لكنني ، مثل أي مزارع ، أهتم أساسًا ببقاء واستمرار قطيعي وتوالده» .

لم تقتنع كلوديا وقالت له متحدية : «لكنهم ليسوا بالحيوانات الأليفة . إنها حيوانات برية وجميلة» .

- جميلة ؟ وبرية ؟ ماذا بحق الجحيم يعني هذا لنا ؟ مثل أي شيء في هذا العالم العصري المتقدم ، فإن على الوحوش والصيد في أفريقيا أن تدفع الثمن إذا

أرادت البقاء والازدهار . فكابو ، هنا ، ينفق عشرات الألوف من الدولارات لكي يصطاد أسدًا وفيلاً . إنه يحول هذه الحيوانات إلى محصول نقدي يفوق كثيرًا المقابل الذي يعود من الماشية والمعيز . وهذا ما دفع بالحكومة الزمبابوية، التي استقلت حديثًا ، لأن تخصص امتيازات لمحميات برية بها ملايين الأفدنة حتى تعيش وتترعرع فيها الحيوانات البرية والصيد . إنني مثلاً أستأجر إحدى هذه المحميات ، ولدي أقوى دافع في العالم لكي أحميها تمامًا من تغول الرعاة أو سارقي الصيد ، ولأعمل بكل وسيلة ممكنة لضمان وجود وفرة من الصيد والوحوش لزبائني الصيادين . لا يا حلوتي ! فالرحلات القانونية المنظمة للصيد هي من أفضل الوسائل للحفاظ على براري إفريقيا وثروتها الوحشية » . وسألته كلوديا بسخرية : «معنى ذلك أنك ستحمي تلك الحيوانات باستخدام أقوى البنادق ذات القدرة النارية العالية » .

أطلق سين ضحكة خافتة : «بنادق قوية النيران ؟ صرخة عاطفية ببغائية أخرى ! هل تريدين منا استخدام بنادق ضعيفة النيران ؟ أليس هذا مثل الجزار الذي يستخدم سكينًا باردة لذبح الحيوانات ؟ إنك امرأة ذكية . لذا استخدمي رأسك في التفكير وليس قلبك . الحوار الواحد لذاته ليس مهمًا . فحياته محدودة جدًا وبسنوات قليلة . وفي حالة هذا الأسد الذي نسعى لصيده ، فقد لا تزيد على اثني عشرة عامًا . لكن الشيء الذي لا يقدر بثمن هو استمرار بقاء القطيع ككل . بقاء النوع ككل ، وليس بقاء فرد واحد منه . أسدنا هذا ليس إلا ذكرًا عجوزًا وصل إلى أقصى مدى ممكن من حياته ، حمى فيها إناثه وصغاره وأضاف جيناته إلى القطيع . سيموت موتًا طبيعيًا خلال العام القادم أو الذي يليه . أليس من الأفضل أن يكون ثمن موته عشرة آلاف دولار نقدًا يتم إنفاقها على توفير ملاذ آمن لأشبال تعيش مطمئنة فيه ، أم تترك هذه البراري لتقتحمها هذه الأفواج من البشرية السوداء ومعهم قطعانهم الهزيلة من المعيز الأعجف ؟ » .

هزت كلوديا رأسها بحزن : «يا إلهي ! أنصت إليك ؟ ! أفواج من البشرية السوداء ؟ ، ليس هذا إلا قوة غلاة العنصريين . هذه أرضهم . فلماذا لا يكونون أحرارًا ليعيشون أينما يريدون ؟» .

ضحك سين وقال لها : «هذا هو منطق الليبراليين مشوش التفكير . أرجوك تحديد موقفك بالضبط لي ، وفي أي جانب تقفين . أأنت مع الحيوانات البرية الجميلة أم مع الإنسان الأسود البري الجميل ؟ لا يمكن أن تجمعي بينهما أبدًا . فعندما يدخل الإثنان في صراح حول مكان للعيش فإن الحيوانات البرية تكون دائمًا الخاسرة إلا إذا تمكنا نحن الصيادون من دفع الفاتورة لهم » .

سلمت كلوديا أخيرًا بأن سين ليس بالرجل الذي يسهل النقاش منه ،

وشعرت بارتياح عندما تدخل أبوها وأعطاها لحظة لتلتقط فيها أنفاسها :

«ليس هنالك شك يا سين في أي جانب تقف ابنتي الحبيبة . وعلى كل حال فإنك تتحدث مع عضو قيادي في (لجنة إعادة توطين قبائل الإنويت بمناطقهم الأصلية » .

ابتسمت كلوديا بعذوبة وقالت له : «ليس الإنويت يا بابا . سيظن الناس إنك صرت رخوًا. ليسوا حتى بالإسكيمو . أظن أن وصفك المعتاد لهم هو (الحمقى والحثالات) .

سوى ريكاردو للخلف خصلة فضية من عل ىصدغه وسأل سين : «هل أحدثك كيف تتجول ابنتي مع لجنتها لتحديد كم من الأسكا يعود للإنويت؟».

مالت كلوديا قليلاً لتربت على يد والدها : «على كل حال فهو سيخمدك هذا جزء من روتين أنسه ، وهو شيء مسلي حقًا وستحبه جدًا ! » .

واصل ريكاردو حديثه وكأنها لم تقل شيئًا : «إنهم يذهبون إلى الشارع الرابع في أنكوردج حيث توجد كل البارات ثم يمسكون ببعض الإسكيمو الذين لا زالوا في بعض وعيهم ويركبونهم طائرة ويحلقون بهم فوق شبه الجزيرة ثم يسألونهم : «الآن حدثونا أين اعتاد قومكم أن يسكنوا ؟ أرونا أين أراضي قنصكم التي تؤول لقبيلتكم ؟ ما رأيكم في تلكم البحيرة ؟ ألم يقم أهلكم بصيد السمك هناك يومًا ما ؟ » .

ثم غير ريكاردو صوته ليقلد لهجة رجال الإسكيمو ، فقد كان يجيد محاكاتهم : «بالتأكيد ! . هكذا يقول أحدهم وهو جالس في المقعد الخلفي بالطائرة ومحدق بعيون نصف مغمضة من الوسكي : «بالتأكيد . فهذا هو المكان الذي كان جدي يصيد فيه » .

ثم غير صوته مرة أخرى محاكيًا صوت كلوديا : «وماذا عن تلك الجبال ، هناك ، تلك التي سرقناها نحن البيض الخبثاء منكم وأسميناها بتلال بروكس. ألم يقم جدك أبدًا بالصيد هناك؟».

تحول إلى لهجة الإسكيمو ثانية : «بالتأكيد ! نعم يا رجل ! لقد صاد جملة من الدببة هناك وإنني أذكر تمامًا جدتي وهي تخبرني بذلك » ز

تدخلت كلوديا مشجعة له : «واصل يا بابا . فلديك جمهور مدهش هذه الليلة فإن المستر كورتني يستمتع تمامًا بخفة دمك » .

وسأله ريكاردو : «سين ، هل تعلم بأن كلوديا لم تجد حتى الآن أي إسكيمو يرفض لها عرضًا ببحيرة أو جبل . أليس هذا مدهشًا ؟ تصور يا سين إن صغيرتي سجلت كل أهدافها في المرمى ولم تفشل حتى ولو لمرة واحدة ! » .

غمغم سين : «إنكم محظوظون حقًا يا كابو . فهناك قد يتركون لكم شيئًا . أما هنا فإنهم يأخذون كل شيء » .

استيقظت كلوديا عن سماعها السعال المهذب الخافت لموسس ، وعلى خشخشة الآنية الفخارية خارج ستارة خيمتها . لم يحدث أبدًا أن أحضر لها أي أحد الشاي في سريرها . لقد كان هذا ترفا لا لزوم له في نظرها .

كان الظلام لا زال مخيمًا والجو باردًا بالخيمة حتى إنها سمعت قرقعة الصقيع وصريره على الستارة عندما أزاحها موسَسٌ ولم تكن تتصور مطلقًا أن تكون إفريقيا بهذه البرودة .

جلست على سريرها نعسة ، وكان على كتفيها لحاف يغطيها ووضعت يديها حول إبريق الشاي وراقبت موسس وهو يتجول حول الخيمة وقد صب وعاءً من الماء الساخن في حوض الغسيل ، وبجواره وضع بشكيرًا أبيض نظيفا . ثم ملأ كوبًا بالماء الساخن ووضع بجانبه فرشة أسنانها والتي اعتصر فوقها معجونًا للأسنان . بعد ذلك أحضر موقدًا مليئًا بالفحم المشتعل ووضعه لها في وسط الخيمة وقال :

«الجو بارد جدًا اليوم يا دونا » .

« ولا يزال مبكرًا جدًا للنهوض» . أجابته كلوديا وهي تغالب هل سمعت زئير الأسود هذه الليلة يا دونا ؟

تثاءبت كلوديا وأجابته : «لم أسمع شيئًا» . فلو كانت الأسود تعزف نشيد (أمريكا الجميلة) على أنغام فرقة نحاسية بالقرب من سريرها لما أيقظتها .

وضع موسس ثيابها على السرير الاحتياطي ، وكان قد قام بتلميع حذائها ومسحه حتى كاد الحذاء يتلألأ . ثم أردف وهو يتراجع بأدب نحو ستارة الباب : «إذا ما أردت أي شيء فأرجو أن تناديني » . نهضت من على سريرها ووقفت قليلاً حول الفحم الملتهب وهي تدفئ بنطالها قبل أن ترتديه . كانت السماء مذدانة بالنجوم وعندما غادرت الخيمة توقفت قليلاً وهي تنظر في دهشة لقبة السماء الجنوبية ولكنوز جواهرها المتلألئة البراقة ، ثم التقطت نجوم الصليب الأعظم بإحساس من اكتشف شيئًا هامًا . بعدها توجهت إلى حيث تحلق الرجال حول نيران المعسكر ورفعت يديها فوق دفء اللهب ، وابتسم والدها وقال لها :

- لم تتغيرين منذ كنت صغيرة . أتذكرين كيف كنت أناضل حتى تنهضي من سريرك كل صباح للتوجه للمدرسة ؟ » وأحضر لها نادل آخر كوبًا ثانيًا من الشاي ، بينما صفر سين باتجاه جوب ، والذي أدار محرك العربة وقادها حول المعسكر نحو البوابة الأمامية . ثم ما لبثوا أن بدأوا في ارتداء الملابس الثقيلة والطواقي ووضع الملافح الصوفية حول رقابهم .

توجه الجميع نحو عربة الصيد ، وكانت البنادق متراصة على الحوامل ، وكان جوب وشادراش المتابيليان واقفين خلف العربة وبينهما وقف قصاص الأثر القزم من قبيلة الأندروبو . كان قصاص الأصر يحمل وجهًا طفوليًا ، ولا تصل قامته إلى إبط كلوديا . ولكن كانت له ابتسامة عذبة وعيون براقة لعوبة . لقد بدأت كلوديا تشعر شعورًا قويًا بالحب لكل السود بالمعسكر ، لكن متاتو القزم استأثر بمعظم هذا الحب ، فقد كان يذكرها بأحد أقزام الحكاية العالمية الشهيرة (سنووايت) .

تلاصق السود الثلاثة للحصول على بعض الدفء من شدة البرد ، وكانوا يرتدون معاطف من فائض الجيش وقبعات بلاكلافا المطرزة . قابول تحية كلوديا لهم بابتسامات عريضة كشفت عن أسنانهم البيضاء القوية في عتمة الفجر . فقد افتتنوا جميعًا بها وأحبوها بدورهم .

قاد سين العربة ، وجلست كلوديا بينه وبين أبيها ، ثم انحنت خلف الزجاج الأمامي ووضعت رأسها على كتف بابا التماسًا للدفء . فمنذ أن بدأت هذه الرحلة للصيد قبل بضعة أيام وجدت نفسها تحب هذه البداية للتحرك في مطلع الفجر .

تحركت العربة فوق الطريق المتعرج الوعر ، ثم ما لبث ظلام الليل أن بدأ في التلاشي وأخذ الفجر يطل عليهم . وأطفأ سين مصابيح العربة .

حدقت كلوديا في غابات الكمبريتم وفي أوراق الحشائش والأعشاب التي تتخللها ، والتي يطلق عليها سين لفظ (فلايس) ، محاولة أن تكون أول من سيرى أول الحيوانات البرية الجميلة . لكن سين أو والدها كان دائمًا من يغمغم:

- أحد وعول الكودو على يسارك ، أو ....

- هناك ظبي بوصي ،

أو ينحني متاتو من مكانه خلف السيارة ليربت على كتفها برفق ، بيده النحيلة السمراء ، مشيرًا إلى أحد المنظر النادرة . كانت آثار الحيوانات التي عبرت الطريق الترابي أثناء الليل مبعثرة فيه . وقد شاهدوا في إحدى المرات برازًا جديدًا لأحد الأفيال ، لا زال البخار يتصاعد منه من جراء البرد القارس للفجر ، وبشكل كومة كبيرة بارتفاع الركبة . وأسرع الجميع بالنزول من العربة ليتفحصوها .

وفي البداية كانت كلوديا مستغربة لهذا الاهتمام بكومة من البراز . لكنها اعتادت على ذلك الآن . وعلق سين بقوله :

- شحاذ عجوز على وشك أن يفقد باقي أسنانه »

فاستفسرته كلوديا :

- وكيف عرفت ذلك ؟

فأجابها سين :

- لأنه لا يستطيع مضغ طعامه تمامًا . أنظري إلى الأغصان وأوراق الشجر التي بالبراز . إنها تكاد أن تكون سليمة تمامًا » .

انحنى متاتو بجوار هذا الأثر متفحصًا بانتباه شديد علامات الأقدام المستديرة الضخمة ، في حجم غطاء لوعاء الفضلات المنزلية وعلق سين قائلاً لكلوديا :

- أنظري لنعومة أخفافه . إنها متآكلة وكأنها طاقم مستهلك أملس لإطار عربة كبيرة وقديمة».

وسأله ريكاردو بلهفة :

- أهو ؟

وألقى نظرة على بندقيته ٤١٦ المعلقة على الحامل ، خلف العربة .

فأجابه سين :

- متاتو سوف يخبرنا .

لكن الأندروبو القصير بصق على التراب بتأفف وهز رأسه كمن يندب حظه ثم وقف وتحدث إلى سين بصوت كالصفير وبلغة سواحيلية مفخمة :

- ليس هو بالفيل الذي نريد . متاتو يعرف هذا العجل » .

وشرع سيد في الترجمة ، بينما واصل متاتو حديثه :

- لقد رأينا هذا الفيل في العام الماضي هناك بالقرب من النهر . إن له نابًا مكسورًا أمام شفته والناب الآخر متآكل كجزع شجرة مقطوع . ربما كان له يومًا من الأيام زوجًا رائعًا من الأنياب. وأعتقد أنه الآن في الجانب الآخر من الجبل» .

وبدت كلوديا مندهشة غير مصدقة وتساءلت :

- أتعني أن متاتو يمكنه التعرف على فيل معين فقط عن مشاهدة آثار أقدامه على الأرض ؟

- نعم . بإمكان متاتو أن يتعرف حتى على جاموسة بعينها وسط قطيع من خمسمائة حيوان. وسيعرف ذلك الحيوان أخرى بعد عامين آخرين بمجرد نظره إلى آثار أقدامه » .

وأضاف سين مبالغًا بعض الشيء :

ـ متاتو ليس قصاصًا للأثر . إنه ساحر !



واصلوا رحلتهم بدون مشاهدتهم لشيء غير مألوف . هنك أحد عجول الكودو ، داكنًا كالشبح وعليه خطوط طباشيريه بيضاء ، وله عرف وظهر محدوب وقرون طويلة كالبريمة تلمع في العتمة ، وقد انزلق نحو الغابة ، وهناك قط ذباد استيقظ فجأة من سباته عند سماع صوت العربة، ونظر إليهم بدهشة ، من خلال الحشائش التي كان راقدًا عليها ، بعيونه البراقة وجلده الذهبي المبقع الذي يشبه جلد الفهد . أيضًا أخذ أحد جرذان الكنجاروا في القفز أمام العربة التايوتا . قابلتهم أيضًا أسراب من دجاج الوادي وهي تشقشق ، وعلى رؤوسها تلك الخوذات الصفراء الشمعية وأخذت تجري نحو الأعشاب لتختبئ فيها .

ولم تعد كلوديا تسأل ما هذا الطائر أو ما هذا الحيوان ؟ فقد بدأت في التعرف عليهم الآن مما زاد من بهجتها وحبورها .

أوقف سين العربة قبل شروق الشمس مباشرة ، على سفح تلة صخرية برزت فجأة من خلال الغابة ، وبدؤوا يتسلقونها بخفة بعد أن خلعوا ملابسهم الثقيلة تسلقوا جانب التلة ، التي ارتفعت لحوالي ثلاثمائة قدم ، عن طريق ممر جانبي ممهد وبدون توقف حتى وصلوا للقمة بعد جهد وخاصة من كلوديا لمحاولتها إخفاء أنفاسها المضطربة عنهم . كان توقيت سين لعملية الصعود متقنًا إذ إنهم ما وصلوا للقمة حتى أشرقت الشمس من خلال أشجار الغابة البعيدة وتلألأ عليها الضياء الباهر والألق .

نظروا من حولهم فرأوا منظرًا شاملاً عريضًا بانوراميًا للغابة وأغصانها وأوراقها المتوهجة بالألوان الذهبية الباهرة ، وحيث تناثرت تلال صخرية ناتئة بأنحائها هنا وهناك كأبراج القلاع الأسطورية . أما بعض التلال الأخرى فلم تزد عن كونها كتلاً صماء من الصخور السوداء ، تشبه بقايا المواد التي تخلفت بعد بدء الخليقة .

خلعوا ستراتهم بعد أن أدفأ التسلق أجسامهم ، وأضافت أشعة الشمس البازغة المزيد من توقعاتهم بنهار شديد الحرارة . ثم جلسوا على قمة التل وهم يديرون مناظيرهم المقربة نحو أشجار الغابة . ومن ورائهم أنزل جوب صندوق الطعام الذي كان قد حمله معه ، ثم أوقد النار. لقد كان الوقت مبكرًا جدًا ، عندما بدؤوا رحلتهم هذه ، لتبادل الأفكار . أما الآن ، وبعد انطلاق رائحة البيض المقلي بالزيد وشرائح اللحم ، فقد بدأ لعاب كلوديا يسيل .

وأثناء انتظارهم حضور الطعام الشهي ، أشار سين إلى تضاريس الأرض من حولهم وقال:

- أمامكم الآن حدود موزمبيق وراء تلك التلة الأخرى ، على بعد سبعة أو ثمانية أميال من هنا».

حدقت كلوديا من خلال منظارها وقالت مغمغمة :

- موزمبيق ؟ إن للإسم وقعًا رومانسيًا ! فأجابها سين بصوت أجش :

- ليس بهذه الرومانسية . إنما هو انتصار آخر للاشتراكية الإفريقية ، وللسياسات الاقتصادية للخراب والفوضى جبذة الإخراج ».

فردت عليه كلوديا ببرود :

- ليس بمقدوري تناول جرعة من العنصرية قبل الإفطار » فابتسم سين وقال لها :

- حسنًا . يكفي فقط أن أقول بأنك عبر هذه الحدود ستجدين أن اثنا عشر عامًا من الماركسية والفساد والشره وعدم الكفاءة قد أوشكت أن تطرح ثمارها . لديك هناك حربًا أهلية مدمرة ، خرجت عن نطاق السيطرة عليها ، ومجاعة قد تودي بحياة مليون مواطن هذا العام . ستجدين الأمراض المعدية المتفشية ، بما فيها الإيدز ، والتي ستقتل مليونًا آخر من البشر في ظرف السنوات الخمسة القادمة » .

قطع ريكاردو الحديث بقوله :

- يبدو هذا المكان ممتعًا لقضاء عطلة . ما رأيك يا جوب في إحضار الإفطار؟ » .

أحضر لهم جوب أطباقًا من شرائح اللحم المقدد والبيض المقليب مع الخبز الفرنسي المحمر. وأتبع ذلك بأباريق مليئة بقهوة قوية الرائحة وذكية فأكلوا حتى امتلأوا وهم يرقبون الغابة من حولهم ، خلال تناولهم للطعام ، بمناظيرهم المقربة . وعلقت كلوديا قائلة :

- إنك طباخ ماهر يا جوب .

فأجابها جوب بهدوء :

- شكرًا مدام .

كان يتحدث بالإنجليزية ولكن بلكنة خفيفة . كان في أواخر الثلاثينات من عمره وله جسم طويل قوي وعيون ذكية واسعة تتوسط وجهًا وسيمًا مستديرًا يميز تمامًا أولئك الرجال المتابيلي المنحدرين من الزولو . ثم استفسرته كلوديا :

- متى تعلمت الإنجليزية ؟

تردد المتابيلي ونظر إلى سين بطرف عينه قبل أن يجيبها بصوت دافئ عميق:

ـ في الجيش يا مدام » .

وأوضح لها سين :

ـ كان جوب نقيبًا في فرقة كشافي بالانتاين معي » .

فصرحت كلوديا بتعجب :

ـ نقيبًا ؟ كابتن ؟ إنني لم أعلم بذلك » .

ثم توقفت فجأة عن الحديث من شدة الخجل والضيق الذي انتابها . وواصل سين الحديث قائلاً :

ـ ربما لا تعلمين أنه كان هناك ضباطًا سودًا في الجيش الروديسي . وهناك الكثير لتعلميه عن إفريقيا غير الذي تعرضه عليكم قناة السي بي إس التلفزيونية » .



كان شادراش ، حامل البنادق الثاني ، جالسًا على بعد خمسة ياردات ، على قمة التل ، حيث يمكنه أن يرى بوضوح ما على يساره . صفر الآن بفمه بهدوء وأشار إلى ذلك الاتجاه .

نظف سين ما تبقي من صغار البيض في طبقه بقطعة خبز وضعها في فمه ثم ناول الطبق لجوب قائلا :

ـ شكرًا لك يا جوب . كان هذا عظيمًا .

ثم توجه للحاق بشادراش حيث قام الاثنان بالتحديق بواسطة مناظيرهم في الغابة . ناداهما ريكاردو بقلة صبر :

ـ ماذا حدث ؟

فأجابه سيد :

ـ فيل .

قفز كل من ريكاردو وكلوديا وهرعوا للحاق بهما . واستنفرتهم كلوديا :

ـ أين ؟ أين ؟ أهو فيل ضخم ؟ أيمكنك أن ترى أنيابه العاجبة ؟ أهو هو ؟

لكن سين أشار إلى شيء رمادي ضبابي غير واضح بين الأشجار وقال :

ـ إنه بعيد جدًا لأقطع برأي ، إنه على بعد عدة أميال من هنا » كانت كلوديا مندهشة من صعوبة رؤية مثل ذلك الحيوان . واحتاجت لعدة دقائق كي تراه عندما تحرك الفيل قليلاً . وتساءل ريكاردو :

ـ ماذا تظن ؟ أيمكن أن يكون هو توكوتيلا ؟

ـ ربما يكون هو . لكن احتمال ألا يكون ألف إلى واحد » .

توكوتيلا . أنصتت كلوديا من قبل لهم عندما يتحدثون عن هذا الفيل أثناء جلوسهم بجوار نيران المعسكر . لقد كان توكوتيلا ، أو الفيل الغاضب ، بين تلك الحيوانات الأسطورية التي لم يتبق منها إلا حفنة قليلة في طول وعرض إفريقيا . فيل ضخم له أنياب يزن الواحد منها أكثر من مائة رطل . كان توكوتيلا هو السبب الرئيسي الذي دعى والدها للحضور إلى إفريقيا هذه المرة وبصحبتها ، وللمرة الأخيرة في حياته . كان قد شاهده م نقبل ، عندما كان في رحلة صيد مع سين كورتني قبل ثلاثة سنوات . وقد تتبعه الاثنان وقتها لخمسة أيام ، عندما قادهم متاتو متتبعًا الأثر لأكثر من مائة ميل قبل أن يصلوا إليه وعلى بعد عشرين خطوة منهم كان الفيل الضخم العتيق يتغذى على ثمار شجرة مارولا .

لقد تمكنوا من تفحص أي تجاعيد وثنيات على جلده الرمادي ، واقتربوا منه لدرجة كان بإمكانهم حساب عدد ما تبقى من شعر على ذيله العتيق الذي تساقط الشعر منه عبر السنين . حدقوا جميعًا برهبة بالغة ، وفي صمت عميق ، نحو العاج الذي يحمله .

لقد صمم ريكاردو مونتيرو على دفع أي مبلغ من المال ليقتني ذلك العاج لنفسه ويضمه إلى مقتنياته . وسأل سين هامسًا :

- أليست هناك أي وسيلة لصيده ؟

لكنه رأى سين مترددًا وهو يهز رأسه وقال :

- لا يا كابو . لا يمكننا أن نلمسه ولو بأغلى ما تستحقه رخصتي وامتياز صيدي من قيمة .

فحول رقبة لوكوتيلا كانت هناك قلادة متينة من النايلون ، بحجم إطار عربة ، معلق فيها جهاز للإرسال. فقد حدث قبل بضعة أعوام أن قام فريق حكومي ، تابع لمشروع أبحاث الفيلة بزمبابوي ، ومن على طائرة مروحية ، بإرسال قذيفة مخدرة عليه . وأثناء غيابه عن الوعي قام الفريق بتثبيت القلادة وجهاز الإرسال حول رقبته مما جعل من توكوتيلا حيوانًا مصنفًا للبحث العلمي . وبالتالي خارج نطاق رخصة الصيادين . هذا بالطبع لن ينجيه من لصوص الصيد والمتغولين. ولم يكن بمقدور أي صياد قانوني الوصول إليه بطريقة مشروعة .

وبينما كان الفيل تحت تأثير المخدر ، قام الدكتور جلين جونز ، الطبيب البيطري الذي خصصته الحكومة للمشروع ، بقياس طول أنيابه العاجية وقطرها . ولم يكن تقريره الرسمي عن عمله هذا مباحًا للنشر . لكن سكرتيرته الشقراء الجميلة ، والتي كانت تعتبر أن سين كورتني هو الوحيد الذي ملك فؤادها بهواه ، وغمر شبابها البض بسحره . قامت سرًا باستخراج

نسخة من التقرير وقدمتها له .

وهمس سين لريكاردو عندما كانا يتأملان العاج بشراهة ويتفحصان الفيل العجوز :

ـ حسب قياسات جونز ، فإن الناب الواحد سيزن حوالي ١٣٠ رطلاً . أما الناب الثاني فأقل منه ببضعة أرطال » .

كان ناب الفيل عند جذعه في حجم فخذ سين . ولم يكن حادًا في طرفه الآخر بل كان غليظًا كالعمود ومصبوغًا لدرجة السواد بعصير الأوراق الخضراء التي كان يأكلها . وطبقًا لتقرير دكتور جونز فقد كان الناب الأيسر بطول ثمانية أقدام وأربعة بوصات ونصف . أما الأيمن فطوله ثمانية أقدام وستة بوصات وربع من طرفه حتى الشفة .

وأخيرًا لم يكن هناك بد من أن يتركوه ليتجول وحيدًا وغادروا المكان . ولكن ، وقبل ستة أشهر بينما كانت السكرتيرة الشقراء تجهز طعام الإفطار لسين في شقتها الصغيرة بميدان أفنيو بهراري ، أشارت لسين بعفوية :

ـ أتدري ياسين بأن توكوتيلا قد تخلص من قلادته ؟ » .

كان سين راقدًا في فراشها لكنه قفز فجأة وسألها :

ـ ماذا قلت ؟

ـ لقد كان جونز في أشد حالات الغضب . لقد وضعوا جهاز تحديد مكان واتجاه تحركات توكوتيلا عليه ، لكن كل ما حصلوا عليه هو القلادة فقط . وحتى هذه فقد تخلص منها وقذف بها على قمة شجرة مساسًا » .

ـ أيتها الحسناء الصغيرة . تعالى لتنالي جائزتك » .

وجرت إليه الحسناء في سعادة وحبور .

إذن فقد تخلص توكوتيلا من قلادته ، وبالتالي لم يعد بالحيوان المخصص للأبحاث . صار مرة أخرى قابلاً للصيد القانوني المرخص . وفي ذلك اليوم أرسل سين ببرقية لريكاردو بألاسكا . تسلم الرد بعد ظهر اليوم التالي :

ـ أنا قادم . قف . أحجز لي رحلة سفاري كاملة للقنص نبدأ أول يوليه وحتى منتصف أغسطس . قف . أريد ذلك الجامبو . قف . كابو » .

والآن ، وعندما وقف ريكاردو على قمة التلة ، يتمعن في الشبح الرمادي لذلك الفيل العجوز الموجود بأقصى الغابة ، فقد كان يرتجف من فرط إثارته .

تمعنت كلوديا فيه بدهشة واضحة . أكان هذا والدها ، القط الأكثر برودًا في العمل ؟ والسيد اللبق وسط المجتمع ؟ لقد شاهدته وهو يتفاوض حول عقود بعشرات الملايين من الدولارات وشاهدته وهو يقامر بفدية أمير على

طاولات لاس فيجاس ، بدون أن تبدو عليه أي انفعالات ملموسة . لكنه الآن يرتجف من شدة الإثارة وكأنه تلميذ ينتظر موعده الأول مع فتاة . وغمرها سيل من العواطف والحب نحوه ، وفكرت مخاطبة نفسها :

- لم أفهم قط من قبل كم يعني هذا بالنسبة له . ربما كنت قاسية عليه ، فهذا هو آخر شيء يتمناه ويرغب فيه في ما تبقى من حياته » .

وأرادت أن تلقى بذراعيها حوله وتحتضنه ولتؤكد له كم أنا آسفة يا بابا . آسفة لأنني جاولت أن أحرمك من هذه المتعة الأخيرة لك .

ولكن لم يبد على ريكاردو حتى الإحساس بوجودها . وردد بنعومة وكأنه يحدث نفسه ، أو كأنه يفرض مشيئته :

- ربما يكون توكوتيلا » .

لكن سين هز رأسه وقال :

- لدى أربعة من قصاصي الأثر الممتازين يراقبون النهر . ولا يمكن لتوكوتيلا أن يعبره بدون معرفتهم لذلك. أيضًا لا زال الوقت مبكرًا ، ولا أتوقع أن يغادر الوادي إلا بعد أن تجف آخر الحفر المحتوية على الماء بالجرف ، وهذا لن يتم إلا بعد اسبوع أو عشرة أيام » .

تجاهل ريكاردو هذا التفسير :

- ربما يكون قد تسلل . ربما يكون هو الذي هناك » .

أو مأسين برأسه موافقًا :

- سنهبط ونلقى نظرة بالطبع » .

لم يندهش لانفعال ريكاردو مثلما لابنته . فهو معتاد على ذلك تمامًا . لقد حدث ذلك على الأقل لخمسين من عملائه والذين يماثلون ريكاردو في القوة والجرأة والنجاح . رجال لم يحاولوا إخفاء غرائزهم أو السيطرة عليها . فالوضع النفسي الذي ينتاب الصيادين لا يمكن إخفاؤه . رغم أن بعضهم ينكرون ذلك ويحاولون السيطرة على أنفسهم . لكن البعض الآخر يحول تلك الروح إلى مجالات أخرى تمتص طاقاتهم بطريقة أقل عنفا ، ولو ظاهريًا ، مثل ضرب الكرات في ملعب الجولف ، مستبدلين الكرة الصغيرة البيضاء بالضحايا ذات اللحم والدم .

لكن رجلاً مثل ريكاردو مونتيرو لا يفرغون كل طاقاتهم وشهواتهم ولا يقبلون بأقل من الإثارة العنيفة التي يتيحها لهم الطراد والقتل .

ونادى سين رجاله :

- شادرا شي ، أحضر للبوانا بندقيته الـ ٤١٦ . وأنت يا جوب : لا تنس

زجاجات الماء . هيا بنا يا متاتو » .

هبطوا من التلة الشديدة الانحدار قافزين بخفة من صخرة لصخرة . وعندما وصلوا للسفح اتخذوا تشكيل الركض ، ومتاتو يقودهم متتبعًا الأثر ، ومن بعده جوب وسين ، يمسحون الغابة أمامهم بقدرات بصرهم الحادة . أما ريكاردو وكلوديا فكانا في الوسط ومن خلفهما شادراشي حاملاً البندقية ليناولها لريكاردو إذا ما احتاج إليها . ساروا مسرعين ولكن مضت قرابة الساعة في الغابة قبل أن يلتقط متاتو علامة ما يشبه الطبق الكبير الضخم على التراب ، ثم فتات الأغصان والأفرع التي شتتها الفيل أثناء تناوله لطعامه .

توقف متاتو فجأة والتفت للخلف بعيون زائغة . ثم أطلق سلسلة من صيحات القرف وخيبة الأمل . وقام سين بتوضيح الأمر :

- إنه ليس توكوتيلا ! هذا أثر الفيل العجوز ذي الناب الواحد . إنه نفس الفيل الذي رأينا أثره صباح اليوم لكنه فقط استدار وعاد من هذا الطريق » .

نظرت كلوديا إلى أبيها ورأت خيبة الأمل البالغة عليه وشعرت بأن قلبها يتمزق من أجله .

لم ينطق أحد منهم بكلمة أثناء رجوعهم للتايوتا . وعند ما وصلوها قال سيد برفق :

- لقد كنت تعلم يا كابو أن الأمر ليس بهذه السهولة . أليس كذلك ؟ » .

تبادلا الابتسام . وقال ريكاردو :

- أنت على حق بالطبع . فالطراد هو كل شيء. ولكن وعندما يتم القتل فليس أمامك سوى مجرد لحم ميت » .

فوعده سيد قائلاً :

- توكوتيلا سيحضر حتمًا فهذا هو طريقه المعتاد . وسيكون هنا قبل بزوغ القمر الجديد . إنني أعدك بهذا يا كابو . أما في الوقت الراهن فأمامنا الأسد وسنذهب لفحص الطعم لذي إن كان فرديك الأكبر قد تفضل علينا بزيارة » .

لم يستغرق الوصول إلى ضفة النهر الجاف سوى عشرين دقيقة حيث يوجد المخبأ وجاموسة الطعم. أوقفوا التايوتا على الرمال البيضاء وارتجفت كلوديا عندما تذكرت رعب الليلة الماضية. تم تسلقوا الطرقة المؤدية إلى الضفة الأخرى وشاهدوا آثار أقدام اللبؤة على الأرض وراء المخبأ.

فجأة بدأ سين وحملة البنادق يتحدثون بانفعال شديد وإثارة ، بينما كان متاتو يشقشق وكأنه دجاجة وادي مهتاجة ، وتساءلت كلوديا :

- ماذا هناك ؟

ولكن لم يجبها أحد . بالتالي كان عليها أن تركض للحاق بهم عند إسراعهم خلال الغابة نحو النفق المفتوح وحيث تتدلى من على شجرة الجميز جاموستهم الطعم . وتوسلت إليهم :

- ألا يخبرني أحدكم بما يجري ؟

لكنهم تجاهلوها . فتوقفت بعيدًا عن الجثة ، لأن رائحة العفونة كانت أشد من أن تحتملها . أما الرجال فلم يظهر عليهم أي نفور وهم يحدقون في الجثة أو ينخسونها ويتحسسونها . حتى كلوديا رأت الفرق بين شكل الجاموسة اليوم عن الأمس . فبالأمس كانت الجثة سليمة لم تمس أما الآن فإن أكثر من نصفها قد تم التهامه ما عدا الرأس والأجزاء الأمامية . وكان على سين أن يقف على أطراف أصابعه ليصل إليها . كانت عظام السلسلة الفقرية والأضلع قد تحولت إلى فتات وشظايا ، أما الجلد الأسود الثخين فقد مزقته المخالب والأنياب حتى أصبح كالخرقة البالية.

وأثناء تفحص سين وخملة بنادقه للجثة كان متاتو يبحث في الأرض . تحت الجميزة ، ويطلق نباحًا مثل كلب صيد اشتم رائحة الفريسة . وانتزع سين شيئًا من على أضلع الجاموسة البيضاء الممزقة وعرضها على ريكاردو ثم أخذ كلاهما في الضحك بانفعال شديد وهما يتبادلان ذلك الشيء من يد إلى يد .

وكررت كلوديا رجاءها :

- ألا يتحدث إلى أحد منكم ؟ أرجوكم » .

فناداها سين :

- تعالى إذن ، ولا تقضي بعيدًا » .

وبعد تردد ، وهي ترفع أنفها بحركة مسرحية ، اقتربت منهم . ومد سين يده اليمنى المفتوحة نحوها . كان على يده مجرد شعرة . شعرة واحدة ولكنها طويلة وسوداء ، وكأنها انتزعت من رأسها. فتساءلت :

- وما هذا ؟

تناول ريكاردو الشعرة من يد سين وحملها بين إصبعيه الإبهام والسبابة . ولاحظت كلوديا أن ذراعي والرهاقد تحببتا من فرط الإثارة ، وأن عيونه الإيطالية السوداء قد توهجتا عندما أجابها :

- شعر اللبدة » .

ثم جذبها من يدها وقادها نحو جذع الجميزة وقال لها :

- ألقي نظرة هناك . أنظري ماذا وجد متاتو لنا .

كان قصاص الأثر النحيل مبتسمًا فخورًا وهو يشير إلى الأرض التي تمج

بالعلامات والأثر، آثار أقدام لخمسة أشبال ولبؤتين وقد ضربت الأرض حتى تحولت إلى بدرة كالتلك. لكن أثرًا مطبوعًا واحدًا كان واضحًا على الأرض . كان حجمه ضعف حجم آثار الأقدام الأخرى وكأنه طبق للحساء . وعندما نظرت إليه كلوديا شعرت مرة أخرى برعدة ورجفة . فأي حيوان ترك مثل هذا الأثر لابد أن يكون عملاقًا ضخمًا .

وأوضح لها سين :

ـ ليلة أمس ، وبعد أن ابتعدت اللبؤتان عنا ، فقد جاء توم . لقد انتظر حتى غاب القمر ثم حضر عند استداد الظلام وأكل ما يقارب نصف الجاموسة ثم غادر المكان قبل مطلع الفجر . لقد أخبرتك من قبل بأنه شيطان عجوز ماكر» .

وسألته كلوديا :

ـ الأسد هو ؟

ظلوا صامتين لفترة طويلة . وبالرغم من أن كلوديا لم تفهم معنى (تسليط مصباح الصيد عليه) إلا أنها عرفت بأن سين كان يقترح شيئًا ضد القانون أو أصول اللياقة ، وبأن والدها على وشك السقوط في فخ الإغراء . غضبت لأن سين يغوي والدها ويغريه .

لكنها كانت أعقل من أن تتدخل وظلت صامته متمنية أن يرفض والدها هذا العرض. لكن ريكاردو هز رأسه وقال:

«لا . دعنا نقوم بالعمل بالأسلوب 'الصحيح » .

أجابه سيد بلامبالاة :

«يمكننا أن نحاول . لكن أسدنا لن يكون سهلاً . فقد أطلقت عليه النار من قبل بجوار طعم كهذا . بل إنه جرح مرة » .

صمتوا مرة أخرى لدقيقة ثم واصل سين :

«الأسد حيوان ليلى الحركة . والليل هو مجاله . فإذا أردت حقًا هذا الأسد فلا مفر للأمن أن تأخذه أثناء الظلام » .

تنهد ريكاردو وهز رأسه :

«إنني أريده بأي شكل ، لكن ليس بدرجة قتله بدون احترام ! » .

نهض سين قائلاً :

«إنها رحلة صيدك يا كابو . وإنني أريدك حقًا أن تعرف بأنني لم أقدم هذا العرض كثيرًا لزبائني . وبالقطع فلا أظنني من قبل قد قمت به أبدًا » .

فأجابه كابو :

«إنني أعرف ذلك وأشكرك يا سين » .

توجه سين نحو شجرة الجميز ليساعد رجاله في إنزال ما تبقى من جثة الجاموسة قليلاً ، حتى يستطيع بقية القطيع الوصول إليها .

وبمجرد ابتعاده عن مدى السمع سألت كلوديا والدها :

ـ ماذا يعني «تسليط مصباح الصيد » ؟ . فأجابها :

ـ يعني تسليط ضوء قوى على الحيوان أثناء الظلام وإطلاق النار عليه من خلال الشعاع .

«المجرم !» . رددت بمرارة وضعه .

لكن ريكاردو لم يستجب لهذا الشجب بل مضى قائلاً بلين :

«لقد كان سين مستعداً للتضحية بسمعته من أجلي وهذا قد يكون واحداً من أفضل الأشياء التي قام بها شخص تجاهي » .

ـ إنني فخورة برفضك له يا بابا . لكنه رجل صعلوك !

فقال لها :

«إنك لا تفهمين ! حقاً لا تفهمين » .

ثم نهض ومضى بعيداً . وفي الحال شعرت بتأنيب الضمير وبالذنب فقد فهمت حقا . عرفت أن هذا هو الأسد الأخير في حياته ، وإنها كانت تعوق استمتاعه بهذه اللحظات من السعادة عليه.

شعرت بالتمزق ما بين حبها له وبين طبائعها الغريزية لحماية هذا الحيوان الرائع ، وشعورها بالعدالة وبالواجب . وخاطبت نفسها : «ربما يكون سهلاً اتخاذ القرار الصائب ، ولكن نادراً ما يتم ذلك » .



خلال الأيام التي تلت ، كانوا يستخدمون وسائل «أخلاقية» لصيد الأسد العجوز . كان عليهم تقديم طعوم طازجة له وللبؤات . وكان ريكاردو يقتنص تلك الجواميس التي يشير إليها سين: «أنثى عقيم أخرى» . ثم بعد يومين : «ثور عاجز تحولت قرونه إلى جذوع متآكله بفعل السنين، وقد برزت أضلاعه من خلال جلده ، الملطخ بالطين ، والذي تساقط شعره » .

وكان سين يقوم كل يوم بتحريك الطعم أو بأن يعدل وضع المخبأ أو مكانه بحيث يشعر الأسد ذو اللبدة السوداء بالثقة والأمان ليقترب من الطعم في وضح النهار . وبهذا كانوا يظلون المساء وراء الآخر في مكمنهم بالمخبأ ، حث بعد ساعة من حلول الظلام ، ثم يعودون للمعسكر مرهقين خائبي الأمل . وعندما يتفقدون الطعم صباح اليوم التالي يجدون أن الأسد قد تغذى تاركاً لهم

شعراتًا من لبدته السوداء ، أو علامات أقدامه الضخمة ، ليزيد من عذابهم وخيبتهم ، قبل أن يغادر الموقع مرة أخرى قبيل الفجر .

لعن سين الوحش بمرارة ، وغير تكتيكه التقليدي . فقام بخفض ارتفاع ما تبقى من الطعم المتعفن المعلق بجنزير على الشجرة ، حتى تستطيع اللباء والأشبال الوصول إليه .

لم يتبق من الطعم الآن سوى جلد حاف وعظام مجروشة . ثم قام سين ، على بعد خمسمائة متر من الموقع الأول ، بتعليق جثة أخرى طازجة ، على ارتفاع لا يسمح إلا لأسد ضخم بالوصول إليها ، وذلك على شجرة تقف وحيدة وسط دهمة من الحشائش العالية الجافة . وكان يأمل في أنه، وبدون مضايقة اللباء والأشبال له ، فربما يأتي الأسد مبكرًا هذه المرة لمكان الطعم .

وليجعله يشعر أكثر بالأمان ، فقد أقام المخبأ في عرض مجرى النهر الجاف على شعبة من شجرة تيك ، بشكل مسطبة على ارتفاع خمسة عشر قدمًا من مستوى الأرض .

ومن هذه المسطبة كان يمكنهم مشاهدة المنطقة الرملية لمجرى النهر الجاف وما حولها .

لم يقم سيد بإزالة كل الحشائش والأعشاب من حول شجرة الطعم فقد أراد أن يشعر الأسد بالأمان وسط هذا انغطاء الجيد ، لكنه أقام فتحة صغيرة، لكاد بالكاد تسمح بمرور الأسد ، ليراقب من خلالها الطعم .

وبعد الظهر بساعة توجهوا نحو المسطبة التي أقاموا عليها الخباء لتبدأ فترة الانتظار الطويلة المرهقة في هذا الجو الساخن .

وقال سين لريكاردو :

«إذا ما حضر فعليك بالصبر حتى يتهيأ للقفز على الطعم يـ كابو » كان سين قد سمح لكلوديا بإحضار نسخة ورقية الغلاف من كتاب كارن بلكسن (خارج إفريقيا) لتقرأ فيه وأمرها :

- بشرط الا تهتز الصفحات أو تصدر صوتًا .

حضرت اللباء والأشبال مبكرين . كانوا قد اعتادوا على تناول الطعم لدرجة أنهم كانوا لا يبدون . . أي ذعر أو تردد عند اقترابهم منه . جاؤوا أولاً إلى الطعم الجديد الطازج المعلق على الشجرة وتفحصوه وتشمموه بشغف . وحاولت اللبؤتان أن تتحصلا على قضمة منه لكن الطعم كان دون متناوَلهما .



في الأيام الأخيرة ، كانت عيون اللبؤة الصغيرة (جيرتي الصخابة) ملتهبة

بسبب رمال الشاطئ التي فجرها سين عليهما ، وكانت دموعها تجري سائلة على خديها ، وأجفانها متورمة ملتهبة . لكنها بدأت الآن في الشفاء ، وخف التورم تدريجيًا ولم يكن عليها سوى لطخة مخاطية صفراء بأركان عيونها .

وبعد فترة يئست اللبؤتان من محاولة الأصول إلى الطعم الطازج وقادتا أشبالهما عبر النهر الجاف إلى حيث الطعم القديم المتعفن . ومن مكانهم على المسطبة كان بمقدورهم سماع القطيع وهو يزمجر ويمزق في بقايا الطعم على بعد خمسمائة ياردة منهم .

وبانتهاء فترة الظهيرة توقفت أصوات تناول القطيع للطعام وساد صمت تام بعد أن شبعوا وتوجهوا للاستلقاء في ظلال الأشجار وقبل نصف ساعة من الغروب توقف فجأة ذلك الهواء الساخن الذي كان يلظيهم طوال فترة الظهيرة وهبط على المروج ذلك السكون الذي تتميز به الأماسي الأفريقية . وحتى أوراق الشجر، التي تبقت من الشتاء ، عمها السكون ولم تتحرك أي رقة أو تهتز الحشائش المتناثرة على النهر الجاف ، وتوففت مجاميع البوصي والبردي عن التمايل والانحناء وانتصبت وكأنها تنصت باهتمام . كان كل شيء هادئًا حتى أن كلوديا رفعت عيونها عن الكتاب ثم قفلته برفق وجلست في حالة من الإنصات لهذا السكون المطلق.

وفجأة صرخ وعل شجر من الضفة الأخرى . صرخة واضحة وعالية ومنزعجة لدرجة أن كلوديا قفزت لا إراديًا من مكانها . وفي الحال شعرت بيد سين القوية وهي تمسها برفق ، ولكن بتحذير ، وسمعت صوت تنفس والدها بسرعة وبعمق وكأنه خارج من تدريب عنيف في ملعب للجمباز .

كان الصمت ثقيلاً مشئومًا ينذر بالسوء وكأن العالم بأسره قد أمسك بأنفاسه . ثم سمعت زفير والدها بهدوء فالتفتت نحوه .

كانت تعابير وجهه تدل على الاستغراق في الوجد وكأنه متعبد راكع ليتناول بيديه القربان المقدس وحدثت نفسها : «يا إلهي ! كم هو وسيم » .

فما عدا الخصل الفضية على صدغيه ، فإنه يبدو أصغر كثيرًا مما هو بالفعل . كم لوحته الشمس وكم هو نحيل وأنيق . ولكن ، حتى الآن ، لم تبد عليه أي علامات ظاهرية لذلك الشيء الخبيث الذي يحطم جسمه من الداخل .

كان انفعاله وإثارته معديًا . وشعرت بأن دمائها تجري بسرعة أكبر في شرايينها ، وبإسراع معدل نبضها ، وحولت رأسها ببطء نحو الجهة التي يحملق والدها تجاهها . كان ينظر على يمينه مباشرة عبر النهر إلى حيث تتلاقى الأشجار هناك مع الحشائش الطويلة الباهتة على طرف فرجة في الغابة .

كان المخلوق الوحيد الحي هناك هو طائر رمادي يشبه الببغاء وواقف على

فرع شجرة صفصاف عالية بالغابة . وكان سين قد أخبرها من قبل بأنه يسمى (اللاوري الرمادي) والذي يزعج الصيادين بصرخاته التحذيرية الصخابة . بدأ الطائر فجأة في الزعيق والصراخ وكأنه يقول «ابتعد ابتعد !» ، وصفق بجناحيه وهو على الفرع المرتفع ولوى عنقه وهو يحملق في الحشائش الطويلة تحت شجرة الصفصاف .

همس سين على بعد بوصات في أذنها :

«ها هو يحضر الآن . فالطائر يراه » . وأجهدت كلوديا عينيها تحديقًا في شيء لم تعرف ماهيته.

«راقبي الحشائش» . أشار لها سين فلاحظت ما يحدث . كانت أطراف الحشائش تتمايل وتهتز بحركة خفية متسللة بين الحشائش وباتجاه ضفة النهر . ثم سكنت الحشائش وتوقفت عن الاهتزاز . كان كل شيء يبدو كحركة سمكة سالمون ضخمة في بركة راكدة . لا ترى السمكة لكنك فقط ترى السطح يمور ويتماوج ليدل على مرورها . ثم توقفت أي حركة لعدة دقائق . وأوضح سين منفعلاً وهامسًا :

«إنه يتصنت ويتشمم الروائح » . لم تكن تتوقع أبدًا من سين أن يظهر مثل هذه الانفعالات والعواطف . لكن نبرة همسته كانت واضحة ومخروشة .

ثم تحركت الحشائش من جديد باتجاه شجرة الطعم هذه المرة .

وفجأة شهق والدها مشدوهًا وفي نفس الوقت حذرها سين مجددًا بلمسة على وركها . ربما قصد أن يمس وركها مرة أخرى لكن أصابعه أطبقت على فخذها العلوى بدلاً عن ذلك كانت لمسته كالصدمة لها ، وضاعف من إحساسها بذلك مرأى الحيوان لأول مرة . فقد جاء الأسد من خلال فتحة من الحشائش كانت اللباء قد مهدته . رنظرت كلوديا إلى رأسه وإلى اللبدة الضخمة السوداء الكثيفة المجعدة والتي تتمايل مع خطواته الملوكية البطيئة . وللحظة خاطفة لمحت بريق العيون الصفراء من أسفل اللبدة .

لم تشاهد في حياتها حيوانًا مرعبًا كهذا رغم ملوكيته واعتداده بنفسه . كانت نظرة خاطفة ، قبل أن تطبق عليه الحشائش مرة أخرى ، لكنها تركتها ترتجف وأنفاسها تتقطع . لكن يد سين لا زالت على فخذها .

ورغم أنها عرفت معنى هذه اللمسة وربما تجاوبت معها إلا أنها ظلت تردد في نفسها «وحتى أنني لا أطيقه ! » .

وفجأة رفع يده عنها ولكن وبطريقة فظة بدأ يتحسس جسمها ، وشعرت بحلقها ملتهبًا ووجهها ساخنًا لشدة رفضها لهذه التصرفات منه لكنها نظرت بعيدًا عبر النهر باتجاه تلك الحركة الخفية الشبحية لذلك الحيو ن والتي توقفت

أسفل شجرة الطعم . وحدثت نفسها :

«لم أستجب لمحاولاته . فليس لها ما يفيدني . إنه التوتر وانفعالات اللحظات الماضية التي أثارتني . إنه فاقد الجاذبية وهو قاس القلب عنيف مسيطر . وأنا أحب الإنسان الرقيق الحساس» .

وعبر النهر سمعوا صوت خلخلة وسط الحشائش وصوت جسم ثقيل يرتمي على الأرض. ومن خلفها شعرت بأن سين يهتز في ضحكة خافتة غير مسموعة . وللوهلة الأولى أخذها الشك في أنه يضحك عليها لكنه همس :

«لقد انبطح على الأرض . هل تصدقون ذلك ؟ . إنه يرتاح أسفل شجرة الطعم . هذا المغرور ابن العاهرة ! » .



كان سين يفكر في الفتاة بقدر ما كان يفكر بالأسد . وكان يشعر بالمتعة وهو يبادلها الكراهية وعدم الاستلطاف الذي لم تحاول هي أن تخفيه البتة . لقد كان المخبأ بالطبع المكان المفضل الذي يمكن أن تؤخذ فيه امرأة على غرة . وكم شرع هنا في علاقات غرامية لا تنسى . فعندما يكونون هنا في المخبأ ، فإنهن يظللن نفسيًا تحت سيطرته تمامًا مثل التلاميذ في الفصل الدراسي . هو الأستاذ . وهن مهيأن لإطاعة أوامره . فالتوتر النفسي والإنفعالي العصبي يجعلهن يستجبن ويذعن له ، مثلما يؤدي الخوف والشعور بالخطر المحيط بهن ، والدماء المسفوكة ، إلى حدة في الشعور الجسدي والجنسي . وكم كان مسليًا أن يجد أن هذه الفتاة الأمريكية المغرورة والدلوعة لا تختلف عن أي منهن البتة .

ربما كرهت نفسها في هذه اللحظة لتلك الهفوة منها . ابتسم سين ابتسامة رقيقة وهو يجلس من خلفها وقريبًا منها . لقد نجح تقديره للموقف تمامًا ، واستغل مهارته الفائقة في أساليب الغزل . فقد كانت الفتاة هدية من السماء حقًا . لقد قرأ كثيرًا وباهتمام مذكرات كازانوفا والتي وصف فيها الوغد العجوز ما يجب أن تقوم به في مثل هذه الظروف . فعندما تكون المرأة متجاوبة معك فإن علامات خفيفة تبدو واضحة عليها مثل سرعة التنفس وتورد اللون ، مع نوع من عدم التوازن وحركات خفيفة للجسم . وحتى رائحة العرق ، التي لا يستطيع إلا قلة من الرجال معرفتها ، ناهيك عن تفسير مدلولها . وهي موهبة لا يمتلكها إلا العشاق العظام الذين يعرفون متى يبادرون وإلى أي مدي يمكن التقدم خطوة فخطوة . هذا هو السر ، كما حدث نفسه .

من مكانه حيث يجلس كان بمقدوره رؤية خدها الأيمن والرموش الطويلة السوداء في عينها ، على الرغم من أنها تعمدت إبعاد وجهها عنه.

كانت قد عقصت شعرها الفاحم بشكل ضفيرة تدلت بين لوحي كتفها مما كشف عن نحرها ورقبتها الجميلة الفاتنة ورأسها الأنيق ، وكانت صفحة عنقها وخدودها لا تزال متوهجة من الإثارة. وبدا ذلك واضحًا عليها .

وبينما هو يتفحصها بدأ توهجها يختفي تدريجيًا واستعادت رباطة جأشها . ولكن ، وتحت قميصها القطني القصير الكم برزت حلمة نهدها البناتي الصغير كالظل على صدرها وبلون وحجم ثمرة التوت . لون نبيذي داكن تحت قميصها الشفاف . ثم بدأت الحلمة في التقلص والتلاشي. وقد أثارت هذه الظاهرة فضوله ، وضحك مرة أخرى مخاطبًا نفسه :

- لقد أوقعت نفسك في فخ أعمى ، ولن تستطيع الصمود أمام هذه الساحرة الصغيرة .

ثم حول كل انتباهه من تأمل ظهرها إلى القط الضخم المختفي بين الحشائش عبر النهر .



كان الظلام شبه تام قبل أن يشاهدوا الأسد مرة أخرى . ولم يكن هناك سوى طيف ضئيل يشي بزوال الشمس بـ لأفق الغربي . لكن سين كان قد وضع الطعم بحيث يمكنه أن يرى كل شيء يحدث وحتى آخر ضوء .

سمعوا صوت خشخشة الحشائش واهتزازها عندما نهض الأسد ، ومالوا بأجسامهم للأمام في انتباه شديد . رفع ريكاردو عقب البندقية على كتفه وحدق من خلال أنبوب المنظار أمامه وفجأة تراجع الأسد من بين الحشائش . كتلة ضخمة داكنة غير ذات شكل واضح ترى بالكاد مع خط السماء الشاحب .

وسمعوا قعقعة الجنزير الذي يربط الطعم عندما قفز الأسد عليه بكل ثقله ممزقًا للجثة وهو يتناول طعامه .

وقال سيد لريكاردو :

- يمكنك أن تلتقطه من خلال المنظار .

وأحدث الأسد ضجة كبيرة أثناء أكله حتى أن سين رفع صوته إلى درجة أكبر :

- التقطه !

لكن ريكاردو لم يرد عليه . كان يحرك ماسورة بندقيته الطويلة في دورات بطيئة محاولاً في يأس التقاط الشمرات المتقاطعة للمنظار من خلال آخر بصيص للشمس الغاربة . واضطر للاعتراف أخيرًا : ـ لا أستطيع ! إن الظلام

شديد ».

وشعرت كلوديا بشيء من الارتياح لأنها لن تشاهد المذبحة . لكن سين قال له بهدوء .

- حسنًا سنحاول مواصلة الانتظار والجلوس حتى نجد فيه فرصة في الفجر .

جفلت كلوديا عن تصورها لقضاء الليل بأكمله في المخبأ . واحتجت في حزن كمئيب :

- الليل بطوله ؟!

فابتسم لها سين مستغربًا انزعاجها وقال لها :

- لقد تعهدت بأن تكوني صلبة العود .

فبدا عليها البأس وغمغمت :

- ولكن ، ولكن ، ألن يحضر جوب الشاحنة ؟

- ليس قبل أن يسمع صوت إطلاق النار .

- ساخت في بؤس على كرسيها .

كان الليل باردًا طويلاً وبلا نهاية . وجاءتهم أسراب البعوض من البركة المخضرة الراكدة على ضفة النهر وطنت حول رؤوسهم غير مكترثة بالمرهم الطارد الذي مسحته كلوديا على أجزاء جسمها المكشوفة . وعبر النهر كان الأسد يأكل على فترات ثم يستريح . وبعد منتصف الليل بقليل شرع في الزئير مطلقًا أصواتًا كهزيم الرعد أخرجت كلوديًا من غفوتها غير المريحة وجعلت قلبها يثب بين أضلعها . وانتهى الصوت المرعب بسلسلة من الهدير المتقطع ثم تلاشي تدريجيًا. وتساءلت كلوديا بنفس متقطع :

- لماذا يفعل ذلك ؟

- ليرى العالم من هو السيد هنا !

ثم جاءت الضباع بصراخها ونعيبها ، وكأنها قبيل من الغيلان وهي تغمغم بانفعال شديد لرائحة الطعام . قام الأسد بطردهم بعيدًا وهو يندفع بين الحشائش مزمجرًا مهتاجًا . ولكن سرعان ما تسللت الضباع نحو شجرة الطعم عندما شرع الأسد في الأكل ثانية وأخذت في الصياح والنباح وهي تدور بقلق وانفعال حول الشجرة . وقبل ساعة من الفجر غلب نوم متقطع على كلوديا وهي على كرسيها محنية الظهر وقد مالت رقبتها بزاوية غريبة . لكنها استيقظت فجأة لتجد أن الفجر قد لاح وأمكنها أن ترى السلسلة التي تحمل جثة الجاموسة المعلقة على الشجرة .

وفي الغابة على مقربة منهم كان زوج من طيور أبو قرن السوداء الجميلة ،

والتي تشبه في حجمها وشكل رأسها العاري الديوك الرومية ، يغرد بأنشودة الصباح في ثنائي طقسي بارع .

وبجوار كلوديا كان ريكاردو يمدد رجليه . تثاءبت بينما نهض سين واقفاً وغمغمت متسائلة:

- ماذا حدث ، أين الأسد ؟

فأجابها أبوها :

- لقد غادر المكان منذ ساعة ، وقبل وقت طويل من ظهور الضوء اللازم للصيد . وقال سين:

- طريقة واحدة لنيل هذا الأسد يا كابوه وهي استخدام الضوء ، أو أن يواتينا الحظ ، والحظ فق.

- تعلم بأنني فتى محظوظ !

ابتسم ريكاردو ، وسمعوا الصوت البعيد لمحرك التايوتا وهو يرتفع تدريجيًا حتى حضر جوب لالتقاطهم . ومكثوا في المعسكر ذلك اليوم يعوضون ما فاتهم من سهر الليلة الماضية . لكنهم عندما توجهوا للمخبأ عند المساء ليترقبوا حضور الأسد وجدوا أنه اختفى . كما لم يحضر لموقع الطعم في الليلة التالية . وهكذا وصلت رحلة السفاري إلى مرحلة من الركود والسكون . واجتهد سين وفريقه في عمل كل ما يمكن عمله لجذبه . ولكن بدون جدوى . كما لم ترد أي تقارير من الكشافين الذين أرسلهم سين للتحري عن عبور الفيل لنهر شوبوي ، الذي يقع في شمال حدود امتياز حظيرته . أما ريكاردو مونتيرو فلم يبد أي اهتمام بصيد غزلات السهول ولا الوعل الأسود ولا الكودو أو الظبي الإفريقي الضخم الإلاند ، رغم أن هذه المناشط كانت تكفي لفترة سفاري أخرى للصيد.



لم يبق على ضفة النهر سوى اللبؤتين وأشبالهما حيث اتخذوا من المكان مقرًا دائمًا لإقامتهم . واشتكى سين بهذر :

- فندق كورتني خمسة نجوم ! نقدم وجبات طيبة منتقاة .

اعتاد القطيع على زيارة فريق الصيادين لهم ولم يعد يبدي اكتراثًا بهم . كانت اللبؤتان تتراجعان عند حضورهم لأقل من مائة ياردة نحو الغابة ، مع مظاهر شكلية من الزئير الخافت وهما تراقبان باهتمام بالغ وضع جثة جديدة على السلسلة الحديدية بالشجرة . وكانتا بالكاد تتمسكان بالصبر حتى تبتعد التايوتا . وقبل أن تختفي عن الأنظار تهرولان بشغف لتفحص القربان الأخير

المقدم .

لم يعد فردرك الأكبر مرة أخرى ولم يشاهد الفريق أي أثر لأقدامه الضخمة حول شجرة الطعم أو على الطريق الترابي المؤدي إليها والذي كان سين يتفحصه كل يوم ذاهبًا لأكثر من أربعين ميلاً حول المنطقة . واحتج ريكاردو يومًا :

ـ لماذا يختفي فجأة بهذه الصورة ؟

فأجابه سين ك

ـ لأنه قط ولا كالقطط ! ومن يدري كيف يفكر .



كما تغيرت العلاقة بين سين وكلوديا بصورة حادة ومفاجئة منذ أن حدث بينهما ما حدث بتلك السرعة في المخبأ . وصارت مشاحناتهما أكثر عدوانية وحدة ، وامتعاضهما المكشوف أكثر مرارة، وجهدهما لإقلاق راحة بعضهما البعض متقدًا ومستمرًا.

وعندما وصفته مرة بالعنصرية ابتسم لها وقال:

ـ هذه الكلمة أصبحت مرعبة في بلدكم أمريكا ، بحيث تعتبر أشد إساءة يمكن أن تحطم حياة أي سياسي أو أي رجل أعمال وتنفيه من المجتمع . كلكم ترتعبون فرقًا منها . والسود يعرفون ذلك ويستغلونه تمامًا حتى أن أقوى وأخشن رجال أعمالكم أو سياسييكم يتلوون كالجراء وينتحبون إذا ما وصفتهم بذلك» .

واستمر سين بابتهاج :

ـ هنا لا توجد أمريكا يا عزيزتي . وهنا لا نخاف من هذه الكلمة . فالعنصرية هنا تمامًا مثل القبلية . ونحن كلنا قبليون بدرجة صارخة وخاصة السود . فإذا ما أردتي أن تجربي القبلية والعنصرية التامة فتعالى للعيش في إحدى الدول الإفريقية التي استقلت حديثًا . فإذا ما خاطبتي أحد الساسة السود ووصفتيه بالعنصرية فإنه سيعتبر ذلك منك مدحًا ، وكأنما أسميتيه بالبطل المناضل ! » .

كان احتجاجها بمثابة مكافاة له . وبدأ يبحث عن وسائل أخرى ليزيدها استفزازًا وغضبًا :

ـ هل تعلمن بأنني جنوب إفريقي ؟

بدا عل ىكلوديا الذعر :

ـ ظننت أنك من بريطانيا .

هز رأسه وابتسم لها تلك الابتسامة التي تغيظها :

ـ أعتقد بأنك بالطبع تؤيدين العقوبات التي تفرضها حكومتكم على بلدي».

ـ بالطبع . فأي شخص عاقل يؤيدها .

ـ حتى لو عنى ذلك مليونًا من السود سيتضورون جوعا بسببها ؟

ولم ينتظر إجابتها بل واصل :

ـ ما رأيك في سحب الاستثمارات الأمريكية من بلادي . أظن أنك توافقين على ذلك أيضًا؟

فأجابته بنوع من الفخر :

ـ لقد قمت أنا بحملة مؤيدة لذلك عندما كنت في الجامعة . ولم أتغيب عن أي مسيرة أو مظاهرة .

ـ أي أن خططكم للتبشير في أي دولة تبدأ بسحبكم للمبشرين وتدمير الكتدرائية وحرقها. هذا عظيم جدًا !

ـ إنك تلوي الحقائق .

ـ علينا أن نكون ممتنين لكم لنجاح جهودكم . لقد أجبرتم مواطنيكم لبيع أصولهم لنا مقابل خمسة سنتات لما قيمته دولار واحد .

وبين عشية وضحاها صنعتم مائتي مليونير في جنوب إفريقيا ، وكلهم بيض البشرة . أهنئك ، مع فائق شكرنا يا رائعة ! ».

لكنهما ، وهما يتجادلان ، كانا يعرفنا أن شيئًا ما يوجد بينهما . لقد كان ما حدث بينهما تلك الليلة شيئًا خطيرًا كثعبان سام . لكنه كان مثيرًا.

كانت كلوديا قد ظلت عازبة لأكثر من عامين ، منذ أن انفصلت عن الطبيب الذي عاشت معه لفترة قصيرة انتهت عندما واصل إلحاحه عليها ، وبدرجة لم تطيقها ، بالزواج منها .

لم تكن العزوبية تناسب طبيعتها اللاتينية العاطفية ، لكنها كانت صعبة الإرضاء . وجدت نفسها ، وهي راقدة في خيمتها ليلاً ، تستمع إلى صوت سين يتحادث مع والدها بجوار نيران المعسكر. ذلك الصوت الرجولي الخانث الذي لم تتبين كلماته . ولقد ظنت ذات مرة أنها سمعت اسمها يتردد فوقفت وأرخت أذنيها للحديث . لكنها لخيبة أملها لم تتبين ما قاله عنها .

وأخيرًا عندما فارق سين ريكاردو ، متمنيًا له ليلة طيبة ، كان عليه أن يمر بجوار خيمتها فتصلبت راقدة على فراشها تستمع إلى خطى أقدامه ، وتراقب شعاع مصباحه الكهربائي من خلال قماش الخيمة ، واستعدت ببرود

لإسماعه ما يكره ! لكنها ما لبثت أن أصيبت بخيبة أمل بالغة عندما تجاوزتها خطاه بدون أي تردد .

❖ ❖ ❖

وفي اليوم التاسع للسفاري ، وعندما توجهوا لفحص الطعم بجوار ضفة النهر لاحظوا أن اللبؤة الشابة ، وبعد أن استعادت الآن عافية عيونها ، قد صارت مرة أخرى أكثر عنفًا وعدوانية:

كانت تصرخ وتهدر في وجه سين ، وتتظاهر بالهجوم عليه من على بعد مائة ياردة وهي تحرك ذيلها يمينًا ويسارًا عندما خرج من العربة لتفحص الطعم . وعندما استدارت وتراجعت لاحظ بقعة قرمزية من الدم على الفراء البيجي الناعم خلف ذيلها .

وتهلل سين فرحًا وأخبرهم :

- جيرتي الصخابة تمر بمرحلة شبق . ولدينا الآن الطعم الوحيد الذي لا يمكن لفردرك الأكبر مقاومته . لقد قلت لي أنك فتى محظوظ يا كابو ، فأرني الآن مقدار حظك .

أراد سني أن يحصل على الأسد قبل فوات هذه الفرصة غير العادية لم يكن هناك وقت للبحث عن مكان تواجد قطيع الجاموس بطول نهر شوييوي للحصول على طعم جديد . لذلك اصطاد ريكاردو عجل كودو فتى ، من قطيع كان بجوار المعسكر ، وعلقوا الجثة على شجرة الطعم بين أشجار الغابة في المكان الذي شاهدوا فيه الأسد لآخر مرة . لكنهم هذه المرة علقوا الطعم بحيث تستطيع اللبؤتان الوصول إليه بسهولة ثم تسلقوا مصطبة الصيد في أول النهار .

وبعد ساعة التقطت اللبؤتان رائحة الفريسة والدم الطازج وهرولتا عبر ضفة النهر الجاف نحوها ومن ورائهما تواثب الأشبال وهي تتشاجر وتجري خلفهما . وبينما طعمت اللبوة العجوز بشهية مفتوحة من لحم العجل ، إلا أن الصغرى كانت فاقدة للشهية ولا تأكل إلا من حين لآخر ، وكانت تتقلب على الأرض الممهدة تحت شجرة الطعم بقلق ، صارخة في وجه أشبالها أو متدحرجة على ظهرها ثم تجلس لتلعق لطخة الدم من خلف ذيلها . ومن حين لآخر كانت تقف لتحدق في الغابة ومن ثم تخفض رأسها وتطلق أنينًا حزينًا طويلاً . كان مواءها يحمل شوقًا وحنينًا ولهفة جعلت كلوديا تحس بتعاطف عظيم مع ذلك الحيوان الصقيل الجميل . وهمس سين من وراء كتف كلوديا :

- نعم ! هكذا يا جيرتي ! استدعي دادي العجوز وحدثيه بما لديم له من متع وعذوبة .

وحدثت كلوديا نفسها :

- ليس من الإنصاف استغلالها هكذا ، وبهذا الأسلوب .

وفجأة قفزت اللبؤتان وحدقتا نحو الغابة . وأطلقت اللبؤة العجوز صرخة خافتة . توقف الأشبال بانزعاج وقلق عن ألعابهم اللانهائية وحثموا خلف أمهاتهم . توجهت اللبؤة الشابة من خلال الأعشاب للأمام وهي تتلوى وتتموج بكامل جسدها في استعراض فاضح واضح وأطلقت سلسلة خافتة من أصوات الترحيب والوله . وضع سين يده على ذراع ريكاردو ليمنعه من رفع البندقية وقال له :

- أصبر يا كابو ، ولا تستعجل .

ومن الغابة جاء الأسد . رأوا أولاً طرف رأسه فوق الحشائش ، ثم تقدم للأمام في حيوية مهرولاً تواقاً للقاء اللبؤة ، والتي اندفعت نحوه بدون حياء ولا خجل والتقيا سويًا . وهمس سين:

- انظر يا كابو .

لكنه كان كمن يقصد الفتاة لتنظر . مسحت اللبؤة جسدها بالأسد وضربته بأجنابها الحريرية مرة بعد أخرى ونفش الأسد لبدته حتى بدا في ضعف حجمه مستجيبًا لملاطفتها وأخذ يلعق وجهها الذي دفنته في لبدته السوداء .

ثم تعمدت أن تستدير وتواجهه بمؤخرتها رافعة ذيلها للأعلى ثم أطلقت تحت أنفه سيلاً من البول المصبوغ بالحمرة . تأوه الأسد وعقص شفته العليا كاشفًا عن أنيابه الطويلة الصفراء في نشوة بالغة ثم تقوس ظهره . تلوت كلوديا في كرسيها عندما مد الأسد عنقه وبدأ يلعق أنثاه بلسانه القرمزي الطويل .

أذعنت اللبؤة لمداعباته نحو دقيقة ثم انثنت بغزل نحو الضفة الأخرى للنهر . ومن هناك سمعوا صوتها وهي تبرير كالهرة منادية له . توجه الأسد نحوها بخطوات ملوكية جامدة ، وكانت كلوديا تنظر لما يحدث في انفعال عاطفي لم يفت على سين استغلاله من وراء ظهر والدها . أمسكت كلوديا بإصبع سين الصغير ولوته بعنف حتى كادت أن تحطمه ، وسرى ألم مبرح في ذراعه وحتى كتفيه وكاد سين أن يصرخ احتجاجًا وألمًا لكن ريكاردو كان جالسًا بجواره ولم تغب عنه محاولاته مع ابنته . وبجهد شديد تمالك سين نفسه وجذب يده عنها وهو يدلك إصبعه المعوق كاتمًا لسره . ولاحظ أن ركن فم كلوديا كان ممطوطًا في ابتسامة من أخذ بثأره وانتقم . ومن وراء النهر انتصبت اللبؤة وهزت جسمها وتوجهت بخطى بطيئة نحو ضفة النهر أمامها وتوقفت هناك ونظرت من خلفها للأسد الذي كان قد جثم على عقبيه وقد أخفت الحشائش معظم جسده . كان سين لا يزال يدلك في إصبعه المعطوب حين همس لريكاردو :

- استعد يا كابو .

كانت الساعة الخامسة بعد منتصف النهار ، والشمس في ذاوية ممتازة

مضيئة الضفة الأخرى وكأنها قاعة مسرح للعرض ، وكانت المسافة موزونة على بعد ستة وتسعين ياردة من مسطبة الصيد وحتى شجرة الطعم ، وكان ريكاردو مونتيرو من أبرع الرماة الذين قادهم سين أبدًا في رحلة سفاري للصيد ، ومن هذا البعد كان يستطيع أن يضع ثلاثة رصاصات في بقعة واحدة .

أخذت اللبؤة في المواء وإغواء الأسد والذي وقف ثم توجه إليها وتبعها حتى ضفة النهر . توقف وراءها في مكان مكشوف عبر النهر كان مضاءًا بأشعة الشمس الذهبية ، وهمس سين ، وهو يربت على كتف ريكاردو :

- إنه هدية من السماء يا كابو ، خذه !

وببطء رفع ريكاردو البندقية على كتفه . كانت سلاحًا من طراز ٣٠٠ وزربي ما جنم ، وكانت الخرطوشة المفجرة الضخمة من تحت إبرة ضرب النار محشوة بثمانين جرامًا من البارود بينما كانت الرصاصة نفسها من عيار ١٨٠ فوزير المدببة والمحززة ويمكنها عند إطلاقها أن تمر عبر النهر بسرعة تزيد على ثلاثة آلف قدم في الثانية . وعندما تخترق الجسم الحي فإنها تدفع بموجة صادمة أمامها تحيل الأعضاء الداخلية للجسم الحي المضروب والرئتين والقلب إلى هلام يندفع خارجًا من فتحة هائلة ويتناثر برشاش أحمر على الحشائش التي كان يقف عليها الحيوان . وكرر سين ثانية.

- خذه ! خذه يا كابو !

نظر ريكاردو مونتيرو من خلال منظار البندقية وملأ جسم الأسد معظم مجال العدسة المكبرة ، وأمكنه أن يرى شعرات المنظار المتقاطعة وهي تغطي لبدة الأسد الكثيفة المتموجة ، وأن يرى العضلات المنحوتة من الصخر تحت جلده . وخلف الكتف ببوصة واحدة ، وعلى خط الوسط الجانبي للأسد ، كان هناك أثر واضح لجرح قديم بشكل حدوة الحصان . شكلت هذه الحدوة نقطة تصويب ممتازة وضبط ريكاردو الشعرات على هذه النقطة لكنها اهتزت قليلاً قليلاً من جراء تسارع ضربات قلبه . ثم وضع إصبعه على الزناد وتحسس مقاومته قبل أن يرفع لسان الأمان ويطلق النار .

ويجوار والدها جلست كلوديا متصلبة من الذعر ، ولوى الأسد رأسه ونظر نحوها من وكأنه عبر النهر . لقد مست عملية الزواج شغاف قلبها وأثرت عليها بشدة بالغة . وفكرت في نفسها:

- إنه شديد الروعة والجلال لأن يموت .

وفجأة ، وبدون وعي منها ، فتحت فمها وصرخت بكل ما في رئتيها من قوة:

- اهرب ، لعنة الله عليك ! أهرب .

لقد صعقتها النتيجة . لم تصدق أبدًا بأن مخلوقًا حيًا يمكن أن يكون له رد فعل بهذه السرعة وخفة الحركة . فمن سكون وكسل تامين انطلقت كافة الوحوش الثلاثة هاربة وذابت وسط دوامة من الضباب الذهبي الذي يغشي البصر . كانت اللبوة العجوز أول من اختفى في لمح البصر وسط الحشائش النامية الطويلة ، ووراءها كل الأشبال . أما اللبوة الشابة فتكاد لا تلمس الأرض بل تطويها طيًا ، وتبعها الأسد . ورغم كل جسامته ولبدته الضخمة فقد كان يطوي الأرض بضربات أقدامه ذات العضلات الفولاذية في وثبات طويلة .

استدار ريكاردو من على كرسيه ، والبندقية على كتفه ، وهو يحدق من خلال العدسة الزجاجية اللامعة ، ومال بجسمه باتجاه حركة الأسد . انحرفت اللبوة نحو الحشائش واختفت وتبعها الأسد . لكنه ، وفي اللحظة التي كاد أن يختفي فيها ، دمدم صوت رصاصة الوزربي في طبول آذانهم صامًا لها بهدير كالرعد . ورغم أنهم كانوا في وضح ضياء العصر إلا أن لسانًا طويلاً من اللهب خرج منطلقًا من البندقية صوب ضفة النهر الأخرى .

تعثر الأسد أثناء جريه وسعل بشدة ثم اختفى بين الحشائش . ووسط الصمت المطبق الذي خيم عليهم ، وطنين آذانهم الذي أعقب الانفجار ، توجهوا جميعًا بأنظارهم نحو الفضاء الخاوي أمامهم بروعة وخشوع . وقال سين بنعومة كحد السكين :

- عمل طيب يا رائعة !

فأجابته متحدية :

- لست بآسفة .

وقام ريكاردو بإعادة تعبئة البندقية بطريقة عنيفة أرسلت الظرف الفارغ إلى الفضاء يبرق في ضوء الشمس . ثم وقف على مسطبة إطلاق النار غير ناظر إلى ابنته ، ثم هبط على السلم البدائي الذي أقاموه . تناول سين البندقية ذات الماسورتين ٥٧٧ نيترو ونزل وراءه . ثم توقفوا أسفل الشجرة بينما قام ريكاردو بفك أزرار سترته وقدم لسين سيجار هافانا من داخل العلبة الجلدية . لم يكن أيًا منهم يدخن أثناء النهار لكن سين تناول السجار وتضم طرفه ثم دخنوا لوهلة في وسط صمت ثقيل . ثم تحدث سين بهدوء :

- استلم فريستك يا كابو .

كان ريكاردو قناصًا ماهرًا ذا خبرة ، ويمكنه أن يعرف بالضبط أين هبطت رصاصته في اللحظة التي يطلق فيها النار . لكنه تردد الآن ، ثم قال شاكيًا :

- لقد كان ذلك القط متحركًا ، وكنت أنا متعجلاً جدًا ، ولا يبدو بأنني

أصبته بالطريقة الصحيحة .

فسأل سين بنبرة شؤم :

- إصابة في الأحشاء ؟

- نعم ، إصابة في البطن .

- اللعنة ! اللعنة ! واللعنة مرة أخرى !

ثم نظر كلاهما للحشائش الطويلة عبر النهر وللأشجار الشوكية الملتفة المتناثرة بينها. وفي ظرف عشرة دقائق وصلت التايوتا بعد سماع صوت الطلقة . كان متاتو وجوب وشادراش متهللين مترقبين . فلقد قاموا برحلات سفاري للصيد مع ريكاردو مونتيرو ولم يشاهدوه أبدًا يخطئ في التصويب . فقفزوا نشطين من التايوتا ونظروا عبر النهر . ولكن ابتساماتهم تلاشت ببطء وعدم تصديق وحل محلها انقباض عظيم عندما أخبرهم سين :

- أنتومبي !

إصابة في البطن !

وحدق سين صوب الشمس وقال لهم :

- سيعم الظلام خلال ساعة وليس لدينا وقت ، فقد يتصلب الجرح .

ولكن ريكاردو أشار إلى أن بإمكانهم الانتظار حتى الصباح .

- وسيكون الأسد مريضًا جدًا وقتها .

هز سين رأسه معترضًا :

- إذا مات هناك ، فإن الضباع ستحصل عليه بدون أدنى شك . ولن تجد التحفة التي تنشدها . إضافة لذلك فإننا لا نستطيع ترك الشحاذ العجوز هناك ليكابد الألم طوال الليل .

وصمتوا عن الحديث عندما هبطت كلوديا من السلم . وعندما لمست أقدامها الأرض لم تنظر إليهم بل رمت بشعرها الفاحم المضفور على كتفها بتحد وتوجهت نحو التايوتا . صعدت إلى المقعد الأمامي وأطبقت ذراعيها حول نهديها الصغيرين وحملقت أمامها بكئابة . وقال ريكاردو :

- إنني آسف ياسين . لقد عرفتها لمدة ستة وعشرين عامًا . وكان على أن أخمن بأنها ستطلق صيحة مثل تلك » .

لم يرد سين عليه مباشرة بل قال :

- ليس عليك أن تأتي معنا يا كابو . إبقي مع كلوديا وسأقوم بعبور الضفة والانتهاء من المهمة . هذا مقابل ما دفعته لي من مال » . كان الدور على

ريكاردو ليتجاهل ما قاله سين :

- سأحمل البندقية الرجبي .

فنصحه سين :

- إذن تأكد من تزويدها برصاصات ناعمة الرأس بالطبع » . توجها جنبًا إلى جنب نحو التايوتا ، واستبدل ريكاردو بندقيته الوزربي الخفيفة بالرجبي الضخمة . فتح خزنتها للتأكد من وجود الرصاصات الناعمة الرأس بها ، ثم ملأ حزام الرصاص المعلق على صدره من علبة الذخيرة. اتكأ سين على جانب التايوتا واستبدل رصاصات بندقيته المزدوجة بأخرى من حزام رصاصه المعلق على سترة الصيد وقال كمن يخاطب نفسه :

- يا للحيوان البائس المسكين !

ورغم أنه كان ينظر إلى ريكاردو فقد كان خطابه موجهًا لكالوديا :

- كان من الممكن أن يكون القتل نظيفًا جيدا . لكنه الآن لا زال حيًا هناك بين الحشائش وقد تهرأت نصف أمعائه . إن هذا الجرح من أشد الجروح إيلامًا .

أجفلت كلوديا وشحب لونها ولم تستطع النظر إليه . وواصل سيد حديثه اللاذع بتلذذ غولي:

- سنكون محظوظين جدًا إذا لم يقتل منا أحد . ومن المحتمل أن يكون متاتو هو الضحية ، لأن عليه أن يقود عملية قص الأثر . وهذا الشحاذ الضئيل يرفض دائمًا أن يجري أو يهرب ، فإذا كان هناك ضحايا اليوم فإن متاتو سيكون الضحية » .

على الرغم منها ألقت كلوديا بنظرة عجلى مشفقة على الأندروبو الضئيل . وتدخل ريكاردو بلهجة آمرة .

- كفوا عن هذا ، فهي تعرف كم كانت خرقاء .

لكن سيد سأله بدوره وهو يتناول بندقيته :

- أتعرف هي ؟ أشد في ذلك . حسنًا يا كابو ، أرجو أن ترتدي سترتك الجلدية . فإذا ما ألقاك الأسد أرضًا فقد تحميك لفترة وجيزة . لكن وجيزة لا أكثر .

كان السود الثلاثة في انتظارهما بجوار ضفة النهر . ولم يكن مسلحًا منهم سوى جوب الذي حمل بندقية رش عيار (٨) محشوة بطلقات الأيائل . كان الأمر يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة لتذهب وراء أسد جريح ، وسط غطاء كثيف من الحشائش والشجيرات ، دون أن تحمل سلاحًا. ورغم توترها وهياجها فقد

لاحظت كلوديا نظرات الثقة والاطمئنان التي كانوا يلقونها على سيد . وأحست بأنهم مروا سويًا بأخطار قاتلة لعديد من المرات من قبل لدرجة أن رابطة فريدة قد وحدتهم في هذه المجموعة الفريدة المتجانسة . كان أربعتهم أقرب لبعضهم البعض من الإخوة الأشقاء أو العشاق . وشعرت بلسعة من الغيرة والحسد . فلم تكن في حياتها قريبة مثل هذا القرب مع أي إنسان .



وضع سين يده على كتف كل واحد منهم بلمسة خفيفة دالة على عمق الرابطة التي بينهم . ثم تحدث بنعومة إلى جوب . تغيرت معالم وجه المتابيلي الوسيم . ولبرهة بدا عليه وكأنه سوف يحتج على ما قاله له سين . لكنه أحنى رأسه موافقًا وتوجه نحو التايوتا ليبقى هناك لحراسة وحماية كلوديا ، ببندقية الرش التي معه .

أمسك سين ببندقيته ذات الماسورتين . بمرفق ساعده وهو يقوم بتمشيط شعره الغزير الصقيل وإزاحته عن جبهته بأصابعه ثم ربطه بعيدًا عن عينيه بشريط من الجلد المضفور حول جبهته .

ورغم كراهيتها له إلا أنها أكبرت في سين هذا التجسيد للبطولة الذي صورها أمامها وهو يضع اللمسات الأخيرة لمواجهة الخطر الماحق والموت الشنيع الذي كانت هي ، ولدرجة كبيرة ، السبب المؤدي إليه .

كان قد أزال أكمام سترة الصيد التي عليه وارتدى بنطالاً قصيرًا من الكاكي يظهر أطرافه العارية ذات اللون الأصفر المسمر . كان أطول من أبيها لكن خصره كان أدق وأكتافه أعرض وكان يمسك بسهولة بالبندقية الثقيلة بيد واحدة . توجه سيد ببصره إليها وتفرس فيها بنظرات باردة كلها ازدراء .

وغمرها فجأة إحساس داخلي بكارثة وشيكة وأرادت أن تتوسل إليه ألا يعبر النهر . ولكن وقبل أن تفتح فمها كان قد استدار بعيدًا .

واستفسر سين :

«أجاهز أنت يا كابو ؟» وأومأ ريكاردو برأسه وهو يحمل الرجبي على صدره ، وكان وجهه مهيبًا صارم القسمات .

أشار سين إلى متاتو بإيماءة من رأسه وقال لهم : «حسنًا ، لنتحرك» .

قادهم الرجل الضئيل إلى ضفة النهر وهناك تحركوا بتشكيل الصيد ، والذي يقوده قصاص الأثر متاتو . تبعه سين مباشرة من خلفه وهو يراقب نبات البوص أمامهم . ومن ورائه جاء ريكاردو على بعد عشرة خطوات ، حتى يتلافى أي فوضى قد تنجم عند السير المتقارب . أما شادراشي فقد اتخذ وضع المؤخرة في مسيرتهم .

أثناء عبورهم النهر ملأوا جيوبهم بالحصى المنتشر على النهر الجاف . وعلى الضفة الأخرى توقفوا لتسمع الأصوات . جاوز سين متاتو ومشى أمامه ثم توقف وحيدًا على الأرض التي مهدتها الوحوش ، تحت شجرة الطعم ، لحوالي خمسة دقائق وهو ينصت ثم يحدق بشدة باتجاه الحشائش الطويلة ورائها .

بدأ يرمي الحشائش بالحصى مغطيًا كل المنطقة التي اختفى من خلالها الأسد . ورغم سقوط الحصى على الحجارة أو على سوق الشجيرات إلا أنه لم يسمع أي صوت للدمدمة أو لهدير التحدي.

أطلق سيد صفيرًا خافتًا سمعه الآخرون وتبعوه بنفس التشكيل ثم أومأ سين برأسه لمتاتو ففهم.

ثم تقدموا ببطء للأمام . فقد كانت هناك في إفريقيا العديد من شواهد القبور لرجال كانوا يتسرعون لاقتناص أسد جريح . ركز متاتو كل انتباهه على الأرض من تحت أقدامه ولم ينظر أبدًا نحو جدار الحشائش الذي أمامه . كان يضع كل ثقته في سين . وعلى أطراف الحشائش الطويلة أطلق فحيحًا خافتًا ثم أشار بيده ، من وراء ظهره ، بإشارة خفية :

«دماء» . قال سين لريكاردو بصوت خافت وبدون أن ينظر إليه : «وشعيرات البطن . لقد كنت محقا يا كابو . إنها إصابة في الأحشاء » . لقد شاهد آثار الدماء على الحشائش .

«أكوندي ا» ، أخبرهم متاتو . ثم جذب سين نفسًا طويلاً وكأنه غطاس على رأس صخرة يوشك أن يقفز في بركة عميقة باردة . كتم أنفاسه تلك عندما مضى قدمًا نحو سور الحشائش الطويلة وتوغل فيها قدمًا مما قلل من قوة رؤيته وكأن الحشائش هي مياه في تلك البركة الآسنة المنحوسة .



كانت الصدمة التي سببتها الرصاصة بمثابة ضربة هائلة على خاصرة الأسد ، أدارته حول نفسه وسببت خدرًا في كل جسمه وراء قنصه الصدري .

ثم انطبق جداء الحشائش من حوله وهو يسرع في الهرب . وفي الحال شعر بالأمان وبالثقة . توقف بعد عشرين خطوة ونظر للوراء من فوق كتفه متصنتًا ومتشممًا للروائح من خلال أنفه المنتفخ ، وهو يضرب بذيله على لأرض من جنب لآخر .

لم يكن هناك إحساس فوري بالألم ، بل مجرد خدر وثقل في أحشائه ، وكأنه ابتلع حجرًا ضخمًا، تشمم رائحة دمه واستدار ليتشمم جنبه المصاب . كانت الرصاصة عند خروجها منه قد أحدثت جرحًا بحجم كوب البيض . ومن الجرح انبثق دم أسود قاني ، ومع الدم امتزجت محتويات الأمعاء وسوائلها محدثة

صوتًا متقطعًا وهي تلطخ الأرض من تحته . أخذ يلعق في جرحه وملأ الدن فكوكه .

ثم رفع رأسه وتسمع مرة أخرى سمع أصواتًا أدمية من على البعد من وراء النهر وهدر بصوت خافت بينما أخذ الغضب يتراكم به وهو يربط العلاقة ما بين الدم وثقل أحشائه بوجود الإنسان .

ثم نادته اللبوة الشابة بأنين خافت متقطع فالتفت وتبعها . لم يجر الآن ، فالثقل الذي في بطنه أعاقه عن الجري ، مثلما أعاقه تخدر أرجله الخلفية وثقلها.

انتظرته اللبوة من على بعد منه ثم عادت تتمسح به وتحاول أن تقوده بعيدًا بأن تركض أمامه . تحرك بصعوبة وساءها ثم توقف برهة ليتصنت وليلعق جرحه النازف . استدارت نحوه اللبوة بنفاذ صبر وهي تئن وتلعق وجهه ثم تتشمم جرحه وتلعق الدم النازف مندهشة وكئيبة لسلوكه الغريب .

صارت أرجله ثقيلة كجزع شجرة الآن . وكان أمامه دغل من أشجار الأبنوس البري . استدار الأسد وتوجه نحو الدغل والنباتات والشجيرات الكثيفة النامية من تحته ، ثم تنهد وهو يثني جسمه ، طاويًا الخصلة السوداء لذيله من تحته ثم رقد .

أصاب القلق اللبوة وهي منتظرة على حافة الأجمة ونادته بنداء خافت وهي تموء . لكنها ، وعندما لم يستجب لندائها ، تبعته ورقدت بجواره ، وأخذت تلعق جرحه . وأغمض الأسد عينيه وبدأ يلهث عند ظهور الألم عليه .

الألم الذي انتشر في جسمه صار ، وبسرعة ، كثقل خانقه بدأ ينمو في دواخله وكأنما بطنه تتمدد وتنتفخ حتى أصبحت على حافة الانفجار ، وأن الأسد أنينًا خافتًا وأخذ يعض في جنبه المصاب محاولاً أن يقتل ذلك الشيء الذي بداخله ، هذا العذاب الحي الذي كان يأكل أحشاءه .

حاولت اللبوة مرة أخرى أن تصرف انتباهه . كانت مرتبكة وقلقة فتمعجت حوله والصقت مؤخرتها على وجهه لكن الأسد أغلق عينيه وأدار رأسه بعيدًا عنها مطلقًا زفراتًا وكان منشارًا للخشب يحز في حلقه .

ثم سمع أصواتًا مرة أخرى لهمس الرجال فيما بينهم ، فرفع رأسه وتوهجت عيناه بلهب قاس أصفر عندما وجد ذلك المسبب لمعاناته ، ومن بين العذاب الذي مزق أحشاءه بدأت الكراهية تنمو فيه وصار حنقه وغيظه أسودًا عارمًا .

سقط شيء على فروع أجمة الأبنوس البري فوق رأسه فزأر . زأر بصوت جبار طاردًا الهواء من حلقه المقروح .

❖ ❖ ❖

تقدموا ببطء من خلال الحشائش التي جاوزت في طولها قاماتهم . ولانطباقها عليهم لم يعد بإمكانهم أن يروا أكثر من خطوتين أو ثلاثة أمامهم .

كان دم الأسد يلطخ الأعشاب ، والتي افترقت عيدانها عند مرور جسمه خلالها مما سهل عليهم متابعة الأثر : كمية الدماء على الأعشاب أعطت سين ومتاتو فكرة مضبوطة عن ارتفاع الجرح بينما تبين لهم من البراز الممزوج بالدم أن أمعاءه قد تمزقت ، كان جرحًا قاتلاً لكن الموت سيكون بطيئًا ومكريًا .

وخلال عشرين خطوة ، بعد دخولهم في الحشاءش ، توقف متاتو لبرهة وأشار إلى بركة صغيرة من الدم الأسود كالقطران وهمس لسين :

«لقد توقف هنا» .

أومأ سين برأسه موافقًا وأردف قائلاً :

«لن يذهب بعيدًا على ما أظن . إنه في انتظارنا يا متاتو وأريد منك عندما يأتي أن تجري من خلفي . هل تسمعني ؟ » .

ابتسم متاتو ابتسامة عريضة ، كان كلاهما يعرف أنه لن يطيع سين ، فلم يحدث أن هرب في حياته وسيصمد أمام الهجوم كما يفعل دائمًا ، لكن سين كان متوترًا :

«حسنًا فلتفعل ما تشاء ، أيها الفتى الضئيل الأحمق » .

«الفتى الضئيل الأحمق ! » . رددها متاتو مغتبطًا كان يعلم أن سين لا يناديه بهذه الجملة إلا عندما يكون فخورًا بالذات به أو مسرورًا منه .

تحركوا متتبعين أثر الدم ليتوقفوا كل ثلاثة أو أربعة خطوات ليرمي سين ببعض الحصى على الحشائش التي أمامهم وعندما لا يلحظون أي رد فعل مضاد يتحركون مرة أخرى بحذر للأمام .

ومن خلفه كان سين يسمع طقطقة صمام الأمان في البندقية الرجبي . كان ريكاردو يفتح ويغلق في الصمام أثناء تحركهم بحركة عصبية تفضح توتره الشديد ، ورغم أن صوت الطقطقة ضايق سين وأزعجه إلا أنه شعر بنوع من الإعجاب تجاهه . فقد كان هذا من أخطر المواقف التي يمكن أن يواجهها إنسان ، فليس هناك أسوأ من مواجهة أسد مضروب في بطنه ووسط غطاء من الحشائش . لقد كان هذا من واجب سين فقط ولكن ، وبالنسبة لريكاردو ، فقد كانت تجربة العمر، وهو لم يخذله حتى الآن .

رمى سين بحصاة أخرى على الحشائش واستمع لصوت سقوطها على فرع شجرة قصيرة.

وكلما كانوا يتقدمون ، كان سين يفكر في معنى الخوف . فقد كان

الخوف ، عند بعض الرجال، إحساس بشعور مدمر وعاطفة مزلزلة . لكن بالنسبة لرجال مثل سين فقد كان إدمانيا . كان يحب الإحساس بالخطر وكأنه عقار مخدر يسري في شرايينه مرهفا لكل أحاسيسه حتى أنه كان يحس ويشعر بخطوط المربعات اللونية على خشب الجوز بمقبض بندقيته عندما تمسها أصابعه ، بل حتى باحتكاك أي ورقة عشب على ساقه العارية . كان بعده يتقد حدة لدرجة إنه يرى أي شيء وكأنه ينظر إليه من خلال عدسة مكبرة من الكريستال فيراه مجسمًا واضحًا . حتى الهواء الذي يتنسمه كان يشعر بطعمه ويشتم رائحة الأعشاب وهي تتحطم تحت قدميه ثم ... رائحة دم الأسد الذي كانوا يقتفون أثره .

فسين كان مفعمًا بالحيوية ، نابضًا بالحياة ومن ثم سمح للخوف أن يتخلله، وكأنه مدمن أمام حقنة مليئة بالهروين .

ورمى بحصاة أخرى على أجمة الأبنوس التي ، فجأة ، ظهرت أمامه كجزيرة وسط بحر من الأعشاب . سقطت الحصاة بين الأفرع وهي تقعقع وتخشخش فدمدم الأسد بهرير من وسط أعماق الأجمة .

الخوف من الموت كان ممتعًا لدرجة لا تكاد تحتمل ، كأنه شبق عاطفي، أقوى مما استطاعت أي امرأة أن تعطيه من قبل . أزاح سين لسان الأمان من بندقيته وقال :

«إنه قادم ، اهرب يا متاتو ! » . كان صوته جزلاً متهللاً . وتباطأ الزمن فجأة . ظاهرة أخرى ناجمة عن الخوف.

ومن طرف عينه رأى ريكاردو مونتيرو يتحرك ليقف بجانبه آخذًا مكانه في خط إطلاق النار . وأدرك سين ما سيجلبه ذلك عليه وقال بصوت مرتفع :

«رجل ممتاز» .

ومع وقع صوته اهتزت فروع أجمة الأبنوس عندما اندفع جسم ضخم من خلالها نحوهم ، وهو يهدر ويزأر بشراسة مخيفة . وقف متاتو في مكانه بثبات ورباطة جأش وكأنه الجندي الحارس في استعراض عسكري . لم يهرب متاتو في حياته أبدًا . خطى سين ليقف بجانبه بينما وقف ريكاردو على جنبه الآخر ورفعوا بنادقهم وصوبوها نحو جدار الحشائش ، عندما اندفع ذلك الحيوان نحوهم ، طاويًا تلك الحشائش عند هجومه وهو يزأر هذه المرة بدفقات رعدية هزتهم وزلزلت حواسهم .

انفتح جدار الحشائش في وجوههم وألقى جسم ضخم أسمر مصفر اللون بنفسه عليهم .

أطلقا النار معًا . وغطى صوت الرصاص المنفجر ذلك الزئير الغاضب أطلق

سين مرة ثانية رصاصة من الماسورة الأخرى في نفس الوقت وامتزج صوتهما معًا . ومزقت الرصاصة الضخمة (٧٥٠ حبة) الحيوان المهاجم وأوقفت إندفاعه وكأنه قد ارتضدم بصخرة . كان ريكاردو منشغلاً بمزلاج البندقية الرجبي . وغطى الفضاء صدى إطلاق النار الداوي وملأ الهواء من حولهم .

سقط الحيوان القتيل تحت أقدامهم ووقفوا رافعين بنادقهم يحدقون في الجثة الدامية مصابين بالدهشة والدوار من صوت الرصاص المدمدم في رؤوسهم، وللقسوة والسرعة التي تم بها الأمر.

وفي صمتهم اندفع شادراش للأمام ، وكان قد ثبت في مكانه مثل متاتو . انحنى الآن على الجثة ثم قفز فجأة للوراء وصرخ بصوت عال بما لم تمكنوا من التحقق منه حتى الآن :

«ليس هذا بالأسد ! » .

ولكن ، وما إن نطق بهذا ، حتى هجم الأسد . تقدم نحوهم مباشرة خارجًا من الأجمة مثلما فعلت شريكته ولكن بسرعة أكبر ، مدفوعًا بالعذاب الذي في بطنه وبالغضب الأسود الذي يملؤه. كان يهدر وكأنه قاطرة بخارية في أقصى اندفاعها ، ولم يكونوا مستعدين له ، ولم تكن بنادقهم معمرة . كانوا ملتصقين ببعضهم حول جثة اللبؤة الشابة وكان شادراش بينهم وبين الأسد المندفع .

اندفع الأسد خارجًا من بين الحشائش الطويلة بقوة هائلة وأمسك بشادراش بين فكيه من وركه . حملته قوة اندفاعه ، نحو الرجال المتحلقين في رابطة لصيقة والواقفين خلف شادراش ، أطارت الصدمة الرجال واقتلعتهم من الأرض وانكفأ سين على ظهره واصطدم لوح كتفه وقفاه بقوة صاعقة بالأرض ، كان ممسكًا بالبندقية أمام صدره محاولاً بالغريزة أن يحميها من أن تتحطم عن سقوطه وأصابت ماسورة البندقية عظم صدره عندما ارتطم بالأرض . سرى ألم عنيف في صدره لكنه تمسك بسلاحه وتدحرج على الأرض حاملا له .

وعلى بعد عشرة أقدام منه كان الأسد يهاجم سادراش بضراوة . كان قد سمره على الأرض بمخالبه الهائلة وهو يهرس في وركه وأعلى ساقه . وحدث سين نفسه وهو يفتح ترباس البندقية ليعمرها :

«الحمد لله فهو ليس فهدًا » .

فالفهد عند هجومه على مجموعة من الصيادين لا يقتصر على رجل واحد ، بل يقفز من أحدهما للآخر في ثواني وتتابع سريع مشوهًا وقاتلاً لهم جميعًا وفي سرعة خاطفة . أكثر من ذلك ، فلأن الضحية الأساسية للفهود هو قرد العبلانج الضخم ، فهو يعرف تمامًا كيف يقضي على الرئيسيات ، ومنها الإنسان . فهو

يتوجه مباشرة وبالغريزة نحو الرأس مزيلاً لمقدمة الجمجمة وفروة الرأس بمخالب يديه بينما ترفس أقدامه الخلفية في البطن ، ممزقة الأمعاء بمخالبها المعكوفة الصفراء بسرعة فائقة وبإتقان شديد .

«الحمد لله فهو ليس فهداً» . كان الوحش العظيم ملتصقاً بشادراشي ، مسمراً له على الأرض بمخالبه ناهشاً ساقه ، وعند كل صرخة له كان رشاش من الدم القرمزي ينتشر من فكوكه ، كان شادراش ، حامل البندقية المتابيلي، يستغيث ويضرب في غير طائل ذلك الوحش الضاري وبكلتا قبضتيه .

وتنبه سين لريكاردو الواقع على الأرض وهو يتحامل على نفسه ويزحف على ركبتيه إلى حيث سقطت بندقيته الرجبي ، وصرخ سين فيه : «لا تطلق النار يا كابو» .

ففي التحام كهذا ، فإن رجلاً غير متمرس ، ومزوداً بسلاح ، يمكنه أن يكون أخطر بعدة مرات من الوحش المهاجم . فرصاصات الرجبي يمكنها اختراق جسم الأسد ثم تندفع لتصيب جسد أي شخص وراءه . كان لدى سين رصاصتان يمسكهما بأصابع يده اليسرى . وكانت هذه حيلة الصيادين القديمة للتعمير السريع للسلاح . حشا الرصاصتين بسرعة بداخل البندقية وجذب الترباس قافلاً له .

كان الأسد يمضغ في الجزء الأسفل من شادراش ، وكان سين يسمع صوت العظام المطحونة وقرقعتها وكأنها خبز جاف تطحنه تلك الأنياب البشعة . إمتلأ أنف سين بتلك الرائحة النتنة الكريهة للوحش الرهيب وللتراب ولدم الإنسان ودم الوحش .

ومن ورائهم رأى ريكاردو يحمل البندقية وقد أقعى على ركبتيه ، كان وجهه كالرماد من الصدمة ، وكان يحشو الرصاص بداخل الرجبي ، وصرخ فيه سين مرة أخرى :

لا تطلق النار ! » فقد كان الأسد بينهما مباشرة وأي رصاصة تصيبه ستصيب سين . كان الأمر يتطلب أسلوباً ومهارة خاصة كي تصيب حيواناً مهاجماً وتزيحه عن رجل ممدد من تحته بدون أن تقتلهما معاً ، كما كان خطراً مميتاً أن تجري نحوهم لتطلق النار على جسم الحيوان بينما الرجل يرقد من تحته .

لم يحاول سين أن يقف على قدميه بل تدحرج على الأرض محتضناً بندقيته متقلباً لثلاثة مرات ، وهي المناورة التي كانت جزءاً من تكوينه عندما كان في الماضي في فرقة الكشافة العسكرية . كان الآن راقداً ممدداً بجوار الأسد يكاد يلمسه ، وضع البندقية تحت ضلوع الوحش السفلية ومصوباً للأعلى ثم

أطلق النار ، لم يحتج الأمر لأكثر من طلقة واحدة من عيار ٧٥٠ حبة .

أطارت الطلقة الأسد من على جسد شادراش ، والذي مال على جنبه قليلاً ، طيرانًا واخترقت ما بين كتفي الأسد وانطلقت بعيدًا نحو السماء .

ألقى سين بالسلاح وركع من فوق شادراش وحمله بين ذراعيه ثم نظر إلى رجله ، كانت أنياب الأسد قد ملأتها خروقًا وثقوبًا وكان لحمه الأسود ممزقًا من الورك والفخذ وحتى الكرية ، وصرخ سين :

متاتو ! هناك في التايوتا : صندوق الإسعاف . أحضره ! » .

واختفى قصاص الأثر بين الأعشاب .

زحف ريكاردو إلى جانبي سين وتمعن في الساق ثم قال بنعومة : «يا لأمنا العذراء مريم ! إنه عظم الفخذ ! » كان الدم القاني يندفع في دفقات منتظمة متوالية من الجرح العميق . أدخل سين أصابعه في الجرح الساخن وتمكن من أن يمسك بالعرق اللزج المطاطي ، النابض بين إبهامه والسبابة ، بكل قوته .

وصاح من وراء متاتو :

«أسرع يا متاتو . إجري أيها الضئيل الأحمق . إجر » .

لم يفصل بينهم وبين التايوتا سوى أقل من ثلثمائة ياردة . وجرى متاتو كجدي غزال مذعور وعاد بعد دقائق ، كان جوب قد عاد معه يحمل الصندوق الأبيض بعلامة الصليب الأحمر فوق غطائه وفتحه . أمره سين بفظاظه :

في درج الأدوات . أداة وقف النزيف ـ الهيموستات ! » .

ناوله جوب أداة من الصلب غير القابل للصدأ وقام سين بتثبيت الملزم على الشريان الممزق وربطه بشريط على فخذ الجريح . كانت يداه مبتلتين من الدماء لكنه هو وجوب كانا قد قاما بهذا العمل خمسين مرة أثناء حرب الأدغال وكانت حركاته سريعة وواثقة . وأمر جوب : «جهز سائل لدرب للوريد . سنعطيه كيسًا من لاكتيت رنجرز » وأثناء حديثه كان يفتح في أنبوبة بتادين ثم وضع فتحتها داخل أعمق الجروح في فخه شادراش وعصر عجينة اليود السميكة عصرًا داخل الجرح حتى خرج باقي اليود من فتحة الجرح وكأنه معجون مزيل لصفرة الأسنان . لم يبد على شادراش أي علامة للألم وظل راقدًا بدون تذمر يراقب ما يقومون به ومجيبًا على أسئلة جوب بكلمات متقطعة باللغة السندابيلية ، وقال جوب : «الدرب حلجز بالسائل » .

وبدون كلمة تناول سين قسطرة الوريد (الكانيولا) من جوب ، لقد كان شادراش رجله ومسئوليته ولن يسمح لأحد بأن يقدح نيابة عنه برعايته ولو حتى جوب . ثنى ذراع شادراشي كاشفا عن بطن الساعد وبدأ يبحث عن وريد بمهارة

فائقة وهو يدعك ويدلك بطن الساعد وقام بعد ذلك بإدخال الإبرة في الوريد ثم أشار لجوب كي تتدفق البلازما .

تظاهر سين بالمرح وهو يضع يده الملطخة بالدم على خد شادراشي : «إيه باشادراشي ! أظن أن لحمك أصاب ذلك الأسد العجوز بالتسمم ! يأكل ساقك ثم يموت فورًا ! » .

ضحك شادراش ضحكة خافتة ، مما أدهشت ريكاردو سماعها ، رغم أنه عمل من قبل وقاتل مع رجال أشد ضراوة . وناداه سين :

- أعط شادراش سيجارًا من عندك يا كابو » .

وشرع سين في لف شريط أبيض نظيف حول الساق حتى يوقف النزيف . وعندما انتهى من رباط الساق بدأ يفحص بسرعة باقي جسم شادراش ويعصر معجون اليود في كل الخروق والتمزقات التي سببتها مخالب الأسد . وغمغم لمن حوله :

- لا يمكن أن نتجاهل أي خدش مهما كان ضئيلاً . فالأسد العجوز كان يتغذى على جثث الحيوانات متعفنة ، وأسنانه وفمه وأنيابه عبارة عن بؤر للعدوى والميكروبات . كما أن هناك بقايا لحوم متعفنة بين فجوات أسنانه . لهذا فإن الغرغرينا هي سبب موت الكثيرين من ضحايا هجمات الأسود » .

لم يكتف سين بما فعل بل قام بحقن شادراش بأنبوبة كاملة من البنسلين داخل كيس البلازما ، مما سيملأ جسم شادراش بالمضاد الحيوي ، ثم تنهد سين ووقف ، لم يستغرق الأمر منه أكثر من ثلاثين دقيقة . وعندما تفحص ريكاردو الرباط المتين ومحقن الدرب ، الذي كان جوب ممسكًا به ، تشكك في أن طبيبًا مدربًا ما كان يمكنه أن يقوم بأحسن أو أسرع مما قام به سين . وقال سين :

- سأذهب لإحضار التايوتا ، لكنني سأقودها عن طريق مخاضة النهر ، وهذا قد يستغرق وقتًا أطول ، وعندما أعود سيكون الظلام قد حل » .

كان بإمكانه أن يرسل جوب لإحضار الشاحنة ، لكنه أراد أن ينفرد بالفتاة . ثم قال :

- هناك أغطية في الصندوق وأرجو التأكيد على مراعاة أن يكون شادراش دافئًا ورباطه في محله» .

ثم نظر إلى شادراش :

- خدوش تافهة كهذه ؟ عليك أن تعود سريعًا للعمل وإلا سأخصم أي تأخير من مرتبك !

ثم تناول الـ ٥٧٧ وتوجه عبر الحشائش إلى ضفة النهر . وعندما وصل بعد جهد إلى المجرى الرملي بدأ الغضب يتملكه أخيرًا . ومما زاد من غضبه أنه تأخر أكثر مما يجب . كانت كلوديا جالسة بمفردها في مقدمة التايوتا عندما ظهر سين على ضفة النهر . كانت تبدو وحيدة ومعزولة ، لكنه لم يشعر بأي شفقة نحوها .

نظرت مذعورة مشدوهة إلى يديه التي تجمدت الدماء عليهما وضع سين الـ ٥٧٧ في حامل البنادق بدون أن ينظر إليها وبدأ يصب الماء على يديه الملطختين بالدماء من الصهريج وغسلهما بقوة حتى نظفتا ثم قفز على مقعد السائق وأدار المحرك وقاد العربة بسرعة متوجهًا بها نحو الطريق المحاذي لأدنى النهر . وأخيرًا سألته كلوديا :

ـ ألا تعتزم أن تخبرني بما حدث ؟

حاولت أن تبدو غير نادمة ، وأن تتظاهر بالشجاعة ، لكن سؤالها جاء خفيضًا مقهورًا . ووافق سين :

ـ حسنًا سأخبرك فبدلاً عن القتل الرحيم السريع كان هناك إضطراب وفوضى عارمين . هجمت علينا اللبوة في البداية ، فأرديناها قتيلة وسط الحشائش الطويلة ، وكان ذلك خطأ . لم يكن أمامنا أي خيار آخر لأنها كانت قادمة نحونا بدون تردد .

أنار سين مصابيح السيادة عندما غابت الشمس وأظلمت الغابة ثم واصل حديثه :

ـ أوكي . ماتت اللبوة الشابة . ولأن أشبالها لم يتم فطمهم بعد فإنهم من الضائعين . سيتضورون ثلاثتهم جوعًا حتى الموت في ظرف إسبوع » تأوهت كلوديا بهمس حزين :

ـ أوه ، لا ! لا !

ـ ثم هجم الأسد وراء لبؤته . فاجأنا جميعًا على حين غرة ، ولم نكن مستعدين له أو لملاقاته بأي شكل ، فتمكن من شادراش وثبته على الأرض وكان أن يلتهم كل فخذه وساقه ، وخطم العظام من الورك حتى الركبة ، ولا أدري إن كان سيفقد كل ساقه ولكن ، إن واتاه الحظ ، فسيقضي بقية حياته أعرجًا . ومهما كان الحال ، وعلى أي ضوء تنظرين إليه ، فلن يستطيع أن يكون قصاصًا للأثر بعد اليوم وسأجد له عملاً آخر سواء في سلخ جلود الحيوانات أو كخادم بالمعسكر. لكنه محارب من قبيلة المتابيلي وسيحطم عمل الخدم فؤاده » .

ـ إنني جد آسفة .

فسألها سين بصوت مهتاج :

- آسفة ؟ إن شادراش ليس رفيقي فقط ، بل هو صديقي . لقد أنقذ حياتي مرات أكثر من أن أحصيها ، ولقد فعلت نفس الشيء تجاهه . لقد خضنا حربًا ضروسًا معًا ، ورقدنا تحت نفس الغطاء في ميدان المعركة ، وأكلنا من نفس الطبق . لقد رحلنا سويًا في القفر وفي السهل لعشرة آلف ميل وسط الحر والغبار والمطر . إنه أكثر من صديق . إن لي أخوين من أبي وأمي ، لكن شادراش كان يعني بالنسبة لي أكثر من أي واحد منهما . ثم تقولين إنك آسفة ؟ حسنًا ، شكرًا لك يا رائعتي فهذه مواساة عظيمة منك » .

- لك الحق في أن تكون غاضبًا ، إنني أفهم ذلك .

- أتفهمين ؟ إنك لا تفهمين شيئًا . فأنت صلفة جهولة من نصف كرة آخر . إنك مواطنة من عالم معقد سريع الإيقاع ، ثم تأتين لتطبقي أفكارك وحلولك الساذجة علينا . هنا في إفريقيا تحاولين إنقاذ حيوان واحد من مصيره الحتمي لينتهي الأمر بقتل أنثى وقتله وإلقاء ثلاثة أشبال في وجه الموت ثم ترسلين واحدًا من أعظم الرجال الذين قابلتيهم في حياتك ليعيش حياة الكسيحين؟

- ماذا أقول أكثر من ذلك ؟ لقد كنت مخطئة .

صفعها صوته الصارم الخافت :

- في هذه الساعة المتأخرة ، فإن تواضعك الذي وجدتيه أخيرًا قد مس شغاف قلبي . قطعًا كنت مخطئة مثلما كنت وكان قومك مخطئين عندما عرضوا أمة إفريقية من ثلاثين مليونًا من البشر للجوع ، لا لشيء إلا لعدم قبولهم لواحدة من حلولكم الساذجة . وعندما يصل الضرر الذي أحدثتموه إلى الموت الذي لا علاج له فهل ستقولون : نحن آسفون ، نحن مخطئون ، ثم تتصرفون وتتركون بلدي وشعبي للمعاناة والدمار ؟

فسألته بأسى :

- ماذا أعمل إذن ؟

- باقي من رحلة السفاري ثلاثون يومًا . أريد منك أن تعرفي مكانك مني بالضبط . وحتى ذلك الوقت ليكن معلومًا لديك أن السبب الوحيد الذي دفعني لعدم إلغاء هذه السفاري وإنهائها فورًا . ثم إرسالك مع أمتعتك لجماعاتك من الإسكيمو وحقوق الإنسان ، هو أنني أعرف أن لك والدًا فائق الروعة . ومن الآن فصاعدًا فإنك رهن قبولي . مجرد نقنقة أو احتجاج ، ولو صاحت منك ، فستكونين على الفور على متن أول طائرة عائدة إلى أنكوردج . هل أوضحت لك كل شيء تمامًا ؟

- تمامًا ، تمامًا .

كان في صوتها شيئًا من الشروخ . ومرة أخرى لم يتكلم أحد منهما خلال الطريق الشاق الوعر المجاور للمخاضة وحتى وصولهما للضفة الأخرى وللمكان الذي تقف فيه شجرة الطعم . وخلال تلك الفترة كان جوب ومتاتو قد أوقدا نارًا قاد لهيبها سين إلى حيث يرقد شادراش .

قفز سين من التايوتا وتوجه نحوه مباشرة وتربع بجواره وسأله :

ـ كيف حال الألم ؟

فأجابه شادراش :

ـ إنه شيء ضئيل .

لكن سين رأي الكذبة في لون جسمه الرمادي وفي عيونه الفائرة ملأ حقنة من أمبولة المورفين وحقنه بها وبقي منتظرًا لفترة حتى بدأ مفعول العقار في الظهور عليه . ثم حملوا شادراش بينهم وأرقدوه في مؤخرة السيارة . كان جوب ومتاتو قد قاما بسلخ جلود كل من الأسد واللبؤة عندما كانا في انتظار حضور سين بالسيارة ، وستقوم رياح الليل بتبريدهما . وقال سين لريكاردو :

ـ إنه أسد عظيم . لقد حصلت على تحفة نادرة .

لكن ريكاردو هز رأسه وقال :

ـ لنرجع شادراش للمعسكر .

قاد سين العربة باحتراس ، منحدرًا برقة فوق المقاطعة الوعرة ومحاولاً حماية شادراش من الارتجاج . وأصرت كلوديا على الركوب بجوار شادراش ورفعت رأسه ووسدته حجرها . أما ريكاردو فجلس في المقدمة مع سين ثم سأله بهدوء .

ـ ماذا سيحدث بعد الآن ؟

فأجابه سين :

ـ سأقوم بالاتصال مع هراري بالراديو فور وصلنا للمعسكر ، وسيقومون بتجهيز عربة إسعاف لتكون في انتظارنا بالمطار . سأغيب عنكم لبضعة أيام حتى أتأكد من أن شادراشي سيلقى رعاية واهتمامًا تامين . وسأقوم بكتابة تقرير لإدارة الصيد الحكومية وسأحاول إنهاء الموضوع.

اعترضه ريكاردو بقوله :

ـ لم أقصد ذلك . لقد قتلنا لبؤة ذات أشبال وتسببنا في تشويه أحد الرجال . فماذا ستفعل الحكومة تجاه ذلك ؟

وفي الظلام هز سين كتفيه بلا مبالاة وقال :

ـ الاحتمال الأرجح هو أنهم سيسحبون رخصتي وينتزعون امتياز محمية شيويوي مني .

ـ يا للجحيم يا سين ! لم أكن أعرف . هل بإمكاني عمل أي شيء ؟

ـ لا شيء يا كابو . لكن شكرًا على تفضلك بعرض المساعدة . فأنت خارج الصورة تمامًا . هذا الشأن بيني وبين إدارة الصيد .

ثم هز سيد رأسه وأضاف :

ـ لا فائدة . فليس هناك أي لوم على الزبون ، وهذه هي قوانين الإدارة . فمهما تفعل فإنني أنا الذي يتحمل كامل المسئولية .

ـ لكن ، إذا نزعوا الترخيص منك ... .

تردد ريكاردو ، لكن سين هز رأسه مرة أخرى :

ـ لا يا كابو ، لن يقوموا بإلغاء رحلة السفاري ، وهذا أيضًا من مبادئ الإدارة التي تقول : «أكمل رحلة السفاري . لا تغضب الزبون الذي يدفع المال أو تزعجه » . نعم ، فالحكومة تحتاج للعملة الصعبة التي تجلبونها لها . فقط وبعد تمام عودتك لبلادك ، فسيقع حد فأسهم على رأسي . أنت خارج الصورة ، وسأعود لكم بعد يومين لنقوم معًا بصيد ذلك الفيل العملاق توكوتيلا ، وليس لك أن تقلق » .

ـ إنك بهذا تعاملني وكأنني صعولك وأناني .. إنني قلق عليك وعلى رخصتك ومحميتك ، وليس على متعتي الشخصية ؟

ـ سنستمتع سويًا يا كابو . وعلى أية حال ، فإذا ما فقدت رخصتي فعلاً فالذي سيؤسفني حقًا هو أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي نصطاد فيها سويًا يا كابو .

كان بمقدور كلوديا استراق السمع لمحادثتهما وهي في مكانها بمؤخرة العربة . وعلمت تمامًا لماذا لم يجب والدها على قول سين الأخير . كانت ، كوالدها . تعلم بأنها آخر رحلة له للصيد ، برخصة أم بدونها . وفي الساعات الماضية كانت كلوديا تمر بمرحلة من الصراع الذهني والعاطفي وحدة في مشاعرها . وعندما فكرت الآن في والدها ، بابا ، شعرت بالدموع تملأ عينيها وتحرق أجفانها وحاولت أن توقف الدمع لكنها لم تستطع وبكت . بكت عليهم كلهم . بكت على أبيها وعلى اللبؤة وعلى الأشبال الضائعين وعلى ذلك الأسد الجميل وعلى شادراش وساقه الممزقة . سقطت دمعة ساخنة منها على جبين شادراش فرفع عيونه إليها في قلق واضطراب . مسحت كلوديا الدمعة من على خده بإصبعها وجاء صوتها رقيقًا مفعمًا بالحزن عندما همست له :

- سيكون كل شيء على ما يرام باشدراش .

وحتى هي عرفت بأن قولها لم يكن سوى أكذوبة سخيفة .

كان لسين برنامج منتظم للاتصال بمكتبه في هراري في العاشرة من مساء كل ليلة . كانت عودتهم بطيئة للمعسكر ، حتى أنهم وصلها قبل دقائق من رفع السلك الهوائي وتوصيل جهاز اللاسلكي ببطارية التايوتا لبدء البرنامج الليلي . جاء الإتصال واضحًا جيدًا ، إذ أن واحدًا من أسباب اتصاله الليلي بالمكتب هو جودة الاستقبال في برودة المساء .

أتي صوت ريما ، بلكنتها الفجوراتية ، الهندية واضحًا ، كانت فتاة هندية حلوة ، وكانت تدير مكتب سين بهراري بدقة فائقة . وقال لها :

- لدينا (كيسفاك) يا ريما ... .

استخدم سيد الاصطلاح المعمول به في حرب الأدغال للإخلاء السريع للجرحى :

- وأريد عربة إسعاف في انتظاري عند حضوري .

- أوكي ، حسنًا ياسين .

- وأرجو تجهيز محادثة تلفونية شخصي شخص لشخص مع أخي جاريك في جوهانسبرج العاشرة من صباح الغد .

- سأقوم بذلك يا سين .

- وحدد لي ميعادًا لمقابلة مدير إدارة الصيد بعد ظهر الغد .

- المدير في نيويورك لحضور مؤتمر الحياة البرية . ويقود مقامه نائب المدير جيوفري مانجوزا .

قطع سيد الاتصال بلمسة من يده على المايكروفون ، وأخذ يسب ويلعن في سره . لقد نسي مؤتمر الحياة البرية في أمريكا ، وضغط على الزر مرة أخرى وعاود الإرسال :

- حسنًا يا ريما ، حددي لي ميعادًا مع جيوفري ما يجوز إذن ؛ .

- يبدو الأمر خطيرًا يا سين .

- اخترعنا هذه الكلمة للتو .

- ما هو الموعد المحدد لوصولك ؟ سأقوم بتجهيز خطة طوارئ طيران لك .

كانت سلطات الأمن شديدة العصبية تجاه مطاردات الجنوب أفريقين الساخنة للثوار داخل زمبابوي ، وتجاه غاراتها على تجهيزات المقاومة نفسها مما دفعها لاشتراط ضرورة الحصول على خطة الطيران قبل ٤٨ ساعة من تنفيذها .

وأخبرها سين :

- سنغادر المعسكر خلال خمسين دقيقة . وموعد الوصول لهراري سيكون الساعة ٢٣٠٠ ، طيار واحد مع شخصين .

- أوكي .

قاد سين العربة لنصف ساعة ما بين المعسكر ومهبط الطائرات . وذهب معهم ريكاردو وكلوديا . انتزع سين المقاعد الخلفية من طائرته البيتش كرافت ووضع مكانهم حشية لشادراش ، والذي أصبح الآن ضجرًا متململا من الحمى ووصلت درجة حرارته إلى ١٠١ فهر نهايت وبدأت غدد إربتيه في التورم والتضخم حتى صارت صلبة مستديرة كثمار الجوز . لم يحاول سين أن ينظر للأربطة التي على الساق خوفًا مما قد يراه . لكن واحدًا من الخدوش الصغيرة على جانب بطن شادراش قد بدأ في الالتهاب بالفعل مفرزًا صديدًا مائيًا مع رائحة خفيفة لبداية التعفن . غرز سين جرعة أخرى من البنسلين ، من خلال كيس المحلول الوريدي ، ثم قام مع جوب واثنين من دباغي الجلود بالمعسكر بحمل شادراش برفق إلى الطائرة ومدداه على الحشية . كانت زوجة شادراش امرأة متابيلية قوية البنية ، وكانت تربط طفلها على ظهرها بقماش متين . رفعوا أمتعتها للطائرة ثم صعدت وجلست بجوار زوجها على الحشية ووضعت طفلها على حجرها ثم فتحت قميصها وألقمته ثديًا خصبًا مليئًا باللبن . وفي هذه الأثناء قام جوب بملئ مخزن العفش بالطائرة بأكياس من لحوم الصيد المجففة والتي تعتبر سلعة قيمة في إفريقيا . ثم قاد التايوتا إلى الطرف البعيد من مهبط الطائرات ليضيئه لسين بأنوار العربة القوية . وقال سين لريكاردو :

- سيهتم جوب بشئونك أثناء غيابي يا كابو ، وأرى أن تأخذ بندقية الرش وتذهب لصيد اليمام والقطا هناك على البركة ، فذلك سيكون من أمتع رحلات قنص الطيور ، وأفضل من صيدكم لليمام أبيض الجناح في المكسيك».

- لا تقلق علينا ، سنكون بخير تمامًا .

- سأرجع لكم بأسرع ما يمكنني . توكوتيلا لن يعبر النهر قبل ظهور القمر الجديد ، وسأكون وقتها قد عدت ، وهذا وعد مني يا كابو .

مد سين يده وتناولها ريكاردو بقوة وود . وقال سين مودعًا :

- لقد قمت بعمل رائع مع الأسود يا كابو ، لم يكن صلبك رخوًا ! » .

- ماذا تقصد بكلام بحارة الإنجليز هذا ؟ صلبي ؟

- ما رأيك في كلمة أمريكية يرددها اليانكي إذن ؟ كوجن ؟ ابتسم ريكاردو بود . كانت كلوديا واقفة بجوار والدها فابتسمت بتردد وخجل وتقدمت خطوة للأمام وكأنها ستمد يدها . كانت قد فكت ضفيرتها ومشطت

شعرها الكثيف الفاحم بشكل قبعة حول رأسها . كان وجهها ناعمًا وعيونها واسعة سوداء لامعة وتحت أضواء التايوتا المنعكسة عليها من بعيد كانت معالمها اللاتينية الأصيلة قد فاقت مرحلة الوسامة ، وتحقق سين للمرة الأولى أنها حقًا جميلة . رغم ذلك فقد احتفظ بتعابير وجهه صارمة باردة وأحني رأسه إليها في جفاء ، متجاهلاً يدها المترددة ، وتسلق جناح الطائرة ودخل غرفة القيادة .

كان سين قد قام من قبل بتنظيف مهبط الطائرة بنفسه من الحشائش والنباتات النامية به ، ثم قام بتمهيده مستخدمًا مجموعة من إطارات السيارات القديمة مدحرجًا لها ذهابًا وإيابًا بعد ربطها خلف التايوتا . كان ممرًا خشنًا ضيقًا وقصيرًا ، مع انحدار خفيف باتجاه النهر ، وضع الطائرة ، وذيلها باتجاه الغابة ، وضغط على جهاز الفرامل مواجهًا للمنحدر ولأنوار التايوتا الواقفة في آخر الممر ثم دفع بالمحركين لأقصى قوة وأزاح قدمه عن الكوابح . وقبل وصوله للأشجار في آخر المهبط جذب الجنيح المتحرك وصعد بالطائرة إلى الهواء بعد أن رسم علامة الصليب ، كعادته دائمًا عندما يصعد فوق الأشجار ، وأدار الطائرة باتجاه هراري . وأثناء طيرانه قام بمراجعة إستراتيجية خطته .

فقد كان مدير إدارة الصيد ، الغائب ، صديقًا قديمًا له . وكم تعامل معه سين بنجاح في ظروف مماثلة . لكن نائبه جيوفري مانجوزا كان جحشًا فظًا أسود اللون . كان المدير واحدًا من القلة البيض الذين يعملون في الخدمة المدنية الزمبابوية ، ولا يزال مديرًا لإدارة حكومية ، لكن ما نجوزا سيخلفه قريبًا كأول رئيس إفريقي لإدارة الصيد . وأثناء حرب الأدغال حارب كل منهما في الجانب الآخر حيث كان ما نجوزا أحد قادة العصابات الميزين ومسؤولاً سياسيًا . وكان يشاع عنه أنه يكره أصحاب امتياز محميات الصيد ، الذين كان معظمهم من البيض ، فقد كانت فكرة الحيازة الخاصة أو استغلال موارد الدولة تؤذي مبادئه الماركسية . وكان قد أطلق النار على كثير من البيض وقتلهم أثناء حرب العصابات بحيث لم يكن لديه أي قدر من الاحترام أو الود تجاه المستوطنين . وتنهد سين :

- سيكون لقائي معه شاقًا .

❖ ❖ ❖

كانت ريما في انتظاره بالمطار عندما أوقف طائرته . وكامرأة هندية متحضرة فقد هجرت لباس الساري واستبدلته ببنطلون فضفاض وبلوزة . لكنها لم تكن متمدنة للدرجة التي تختار فيها زوجها . وفي هذه اللحظة كان أبوها ، التاجر الهندي ، وأعمامها مشغولين بأمر زواجها ، وتوصلوا إلى مرشح محتمل يعمل أستاذًا للديانات الشرقية بجامعة تورنتو . وكم كرههم سين لذلك .

كانت ريما حلية على صدر مكتب كورتني للسفاري بهراري ، وكان يعلم بأنه لن يجد بديلاً لها أبدًا .

كانت قد أوقفت عربة الإسعاف على الأسفلت بجوار خطائر الطائرات . وكانت ريما عادة ما ترشو حراس البوابة الرئيسية بالمطار مقدمة لهم أكياسًا من لحوم الصيد المجففة الواردة من المعسكر. ففي إفريقيا فإن اللحم أو الوعد بالحصول عليه يفتح الأبواب .

ذهبوا وراء سيارة الإسعاف حتى المستشفى في كومبي . وبينما كان سيد جالسًا في مقعده بعربة ريما أخذ يلقي نظرة على الرسائل المستعجلة التي أحضرتها ريما معها لعنايته . كانت تحدثه بأهم الأحداث التي جرت أثناء غيابه:

- لا ، كارتر الجراح باطلاطا ، ألغى حجزه . كان مقررًا له واحد وعشرين يومًا للسفاري ....».

نظر إليها سين عابسًا لكن ريما لطفت عليه قائلة :

- لقد تلفت لصانع الصابون الألماني في ميونيخ ، الهر بوخر ، الرجل الذي أجلنا رحلته في ديسمبر الماضي . لقد قفز نحو العرض الذي قدمته له ، لذلك فنحن كاملوا العدد وجهًا لظهر حتى نهاية الموسم .. » .

لكنه اعترضها :

- ماذا بشأن أخي جاري ؟

لم يخبرها بأن الأمر جلل وخطير وأن الموسم سينتهي بالنسبة إليهم نهائيًا .

- أخوك في انتظار مكالمتك . وحتى السادسة من صباح اليوم كان التلفون يعمل .

ففي زمبابوي لم يكن هناك ضمان لأن تعمل التلفونات بصورة مرضية .

وفي المستشفى كان هناك أكثر من خمسين من حالات المرض المستعجلة امامهم ، وكانت المقاعد والأرائك الطويلة ممتلئة بالإنسانية المعذبة البائسة ، كما كانت النقلات تملأ الطرقات والأروقة والبوابات .

لم يكن العاملون بالمستشفى مستعدون لإعطاء شادراشي أولوية للدخول للطبيب ونصحوا بأن يلزم الصبر على نقالته وبدا الانزعاج الشديد على سين إلى أن قالت له ريما :

- اترك الأمر لي .

وتناولت كبير الكتبة من ساعده وقادته جانبًا بابتسامة ملائكية وتحدثت إليه بعذوبة ، وبعد خمسة دقائق كانت أوراق الدخول لشادراش جاهزة ، وشرع طبيب من ألمانيا الشرقية في فحصه.

وسألها سين :

- كم كلف ذلك ؟

فأجابته :

- ثمن رخيص . كيس من لحم الصيد المجفف .

كان سين قد تعلم من زبائنه من اللغة الألمانية ما يكفي لمناقشة أمر شادراشي مع الطبيب . طمأنه الرجل وودع سين شادراش ثم قال له :

- ربما تحتفظ لك ببعض المال ، وستأتي لتراك كل يوم ، وإذا احتجت لشيء فأخبرها .

فأجابه شادراشي بصوت خافت عميق :

- سأكون معكم بالروح عندما تطاردون توكوتيلا .

تنحنح سين قبل أن يجيبه :

- سنصيد الكثير من الأفيال معًا يا صديقي القديم .

ثم أسرع بالخروج . وفي اليوم التالي ، وعندما أفلح أخيرًا في الاتصال بجوهانسبرج كان الخط التلفوني مشوشًا من جراء العوامل الجوية . وحدثته الفتاة العاملة بكبائية التلفون ، بمباني سنتين برئاسة مجموعة أعمال كروتني بجوهانسبرج بأن :

- المستر جاريك كروتني في اجتماع لمجلس الإدارة ، لكنه أصدر تعليماته بتوصيلك له مباشرة.

وفي مخيلته رأى سين مرة أخرى غرفة مجلس الإدارة المغشاة حوائطها بخشب الجوز ، والمعلقة بها لوحات فاخرة للزينة ، وتخيل أخيه جاري جالسًا متصدرًا لطاولة كبيرة ، تحت شمعدان فاخر من الكريستال كانت جدته قد استوردته من مورانو بإيطاليا قبل زمن طويل ، على عرش رئيس مجلس الإدارة . جاءه صوت جاري عبر الأثير جسورًا واثقًا من نفسه . لكم تغير ذلك الولد الضئيل الصغير الذي كان يتبول على فراشه !

كان يمكن لسين أن يحتل هذه الوظيفة إذا ما أراد . وإذا ما كان قد تدرب عمليًا لنيلها . فقد كان سين الإبن الأكبر للمستر كورتني ، لكنه لم يتطلع لهذه الوظيفة قط ، رغم أنه ، وحتى الآن ، كثيرًا ما ينتابه الاستياء والغيظ عندما يفكر في عربة جاري الرولزرويس وطائرته الير النفاثة ومنزله الفاخر المخصص لإجازاته في جنوب فرنسا :

- هاللو جاري . كيف تسير الأمور ؟

- كل شيء على ما يرام هنا . ما المشكلة ؟

كان هذا نموذجًا لملاقاتهما ، حيث إن أي اتصال بينهما كان يعني أن هناك مشكلة ما تتطلب حلاً . وأخبره سين بدبلوماسية :

- ربما أحتاج لإضافة شيء من العسل إلى الجبن .

كان هذا القول بمثابة شفرة خاصة بينهما تعني إرسال مبلغ من أجل شيء ما ، وقد حدث هذا كثيرًا من قبل :

- أوكي يا سين ، فقط حدد لي المبلغ ونمرة الحساب .

لقد كان جاريك شريكًا لسين في شركة السفاري والصيد ، وله أربعون في المائة من أسهمها.

- شكرًا يا جاري ، سأتصل بك في وقت لاحق غدًا . كيف حال بابا والأهل؟

تحادثا وثرثرا لبضع دقائق . وعندما وضع سماعة التلفون دخلت عليه ريما من باب المكتب الآخر:

- لقد استطعت أخيرًا الاتصال بإدارة الصيد .

فقد كانت ريما تحاول الاتصال بهم منذ الصباح .

- وسيراك الرفيق ما نجوزا في الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم .



كان جيوفري ما نجوزا رجلاً من قبيلة الشونا وشديد سواد اللون وكان يضع علي عينيه نظارة ذات إطار فضي ويرتدي بذلة زرقاء داكنة . لكن ربطة عنقه الفاخرة كانت من هيرمز وساعة يده من طراز باتيك فيليب بسوار من جلد التمساح الأسود الرقيق ، لم يكن زيه مواكبًا لزي الماركسيين المتقشف ووجد سين في ذلك تشجيعًا له . وعلى أية حال فإن نائب المدير لم يقف عندما دخل سين ليحييه ، وقال له بدون أن يبتسم :

- كولونيل كورتني .

استخدم رتبة سين السابقة ليريه أنه يعلم بأنه كان يقود فصيلة كشافة بالانتاين ، واحدة من أشهر الفصائل العسكرية الروديسية والتي سميت على بالانتاين ، مؤسس تلك الفصيلة ، والذي قتل أثناء العمليات ضد الثوار . استخدم الرتبة أيضًا لتذكير سين بأنهما كانا عدوين ، وربما يظلا كذلك .

وابتسم سين مشجعًا له :

- إنني أفضل لقب المستر الحاف . أما اللقب العسكري فهذا شأن مضى أيها الرفيق ما نجوزا . أحنى نائب المدير رأسه ، فلا هو موافق أو معترض ، وقال له :

- ماذا أستطيع القيام به لك ؟

- إن علي ، لسوء الحظ ، أن أبلغك بخرق غير مقصود لقوانين الصيد ... .

تصلبت تعابير جيوفري مانجوزا وظلت كذلك بينما وصف له سين إطلاق النار غير المقصود على اللبؤة وما حدث من هجوم الأسد على شادراش وتسبيب أذى بالغ له . وعندما انتهى سين بتقديم التقرير المكتوب الذي جهزته ريما وطبعته على الآلة الكاتبة ، ترك جيوفري مانجوزا التقرير على طاولة مكتبه ، بدون أن ينظر إليه ، بينما وجه لسين بضع أسئلة صفيقة خالية من التعاطف :

- إنك تعلم حقًا ، يا كولونيل كورتني ...

استخدم الرتبة العسكرية مرة أخرى عمدًا .

... بأنني مضطر للنظر بأقصى جدية وصرامة لكل الذي حدث . ويبدو لي بأن ما حدث لا يعني إلا إهمالك الشديد وعدم الاعتبار الخطير فيما يختص بسلامة عملائك والعاملين معك . لم تعد زمبابوي مستعمرة ولا يمكنك معاملة مواطنينا بالأسلوب الذي كنتم تمارسونه من قبل.

فقال له سين :

- قبل أن تقدم توصيتك للمدير ، فإنني أود توضيح بعض النقاط البسيطة لك .

- إنك حر في قول ما تشاء .

نظر سين إلى ساعته وقال :

- الساعة الآن الخامسة عصرًا . ألا تسمح لي بشراء شراب لك في نادي الجولف المجاور وسيتم نقاشنا في جو مريح .

لم يتغير شيء في وجه ما تجوزا وصمت لبضع لحظات يفكر فيها ثم أحني رأسه وقال:

- كما تشاء . ولكن أمامي بعض الأمور التي لابد من أن انتهى منها قبل أن أبارح المكتب . وسنتقابل في النادي بعد حوالي نصف ساعة .

ظل سين منتظرًا في صالة ملعب الجولف لأربعين دقيقة قبل أن يظهر مانجوزا . كان الملعب يومًا ما يسمى (نادي سالسيري الملكي للجولف) . ولكن لمسح ذكريات الماضي الاستعماري فقد ثم حذف كلمتي سالسيري والملكي من الإسم . على كل حال فقد استهل جيوفري مانجوزا الحديث، بعد أن جلس في المقعد المواجه لسين وأمر بإحضار كأس من الجن والتونك له ، بقوله:

- غريب حقًا ، أليس كذلك ؟ قبل بضع سنوات كانت الوسيلة الوحيدة لدخول أي رجل أسود إلى هذا النادي هو أن يكون نادلاً . وتراني أنا الآن عضوًا

في لجنة النادي .

ترك سين التعليق يمر وعمل على تغيير الموضوع إلى عمليات صيد وحيد القرن غير القانونية، من قبل لصوص الصيد ، عبر الحدود مع زامبيا . لكن ما نجوزا لم يبذل أي جهد لمتابعة الموضوع وأخذ ينظر لسين ، من خلال نظارته فضية الإطار ، وعندما توقف سين عن الحديث قال له على الفور :

- لقد أردت إيضاح بعض النقاط لي . وكلانا رجل مشغول يا كولونيل .

هذا المدخل أخذ سين على غرة . فقد كان يرتب لحديث ملتوي بالطريقة الإفريقية للاقتراب غير المباشر . لكنه سيطر على نفسه وغير طريقته وقال له :

- قبل كل شيء يا مستر مانجوزا أود أن أوضح لك مدى ما تحظى به محمية شيويوي من قيمة عالية لي ولشركائي ... » .

استخدم سيد كلمة (قيمة عالية) عمدًا .

... ولقد تلفنت شركائي هذا الصباح وأوضحت لهم تفاصيل ذلك الحدث المؤلم . لقد انتابهم القلق الشديد ووجهوا بحل هذا الإشكال بأي ثمن ...

استخدم مرة أخرى كلمة (ثمن) عمدًا وصمت برهة ليؤكد مغزاها .

هناك اتيكيت خاص على المتباحثين في أمر ما إتباعه . فبالنسبة للذهنية الغربية فإن هذا القول يعني الرشوة . لكنهم في إفريقيا يعتبرونه (اقتحاما مباشرًا) أو ما يتعارف عليه عالميًا ، كأمر مقبول ، ليعني أن يتم إنجاز الغرض والانتهاء من المشكلة . هنا تجد أن الحكومة تعلق لوحات كبيرة على المباني العامة تظهر حذاء ضخمًا يطحن رأس ثعبان سام ومن تحت اللوحة تكتب شعارات مثل «دوسوا بأرجلكم على الفساد» ولكن لا أحد يأخذ هذا الأمر بجدية . وفي الحقيقة فإن الشعارات نفسها تحتوي على اعتراف رسمي لتلك الممارسة .

وحتى اللحظة كان من المفترض على مانجوزا أن يبدي موافقة على العرض المتوقع أو أن يبدي نوعًا من الاستعداد للاستماع لصوت العقل . لكنه لم يقل شيئًا بل اكتفى فقط بالحملقة في وجه سين من وراء نظارته الملتمعة وحتى اضطر سين للحديث مرة أخرى :

- إذا انتهيت من شرابك فلماذا لا نتمشى حتى الممر الثامن عشر ؟ .

كانت ردهة النادي مزدحمة وتعج في ذلك الوقت البهيج بالعديد من الآذان المصفية . ابتلع مانجوزا ما تبقى من الجن والتونك وبدون كلمة قاد الطريق نحو الممر . وقال سين بنعومة :

- لقد أخبرت شركائي بأنك الأقوى نفوذًا في الإدارة . وأما المدير الأبيض

فما هو إلا حبر ختامتك. وأخبرتهم بأن في مقدورك أن تتحي جانبًا أي مساءلة رسمية وأن تشطب أي تهم قد تنجم عن هذا الحدث المؤسف . بل إنني كنت واثقًا لدرجة أنني راهنتهم على ذلك بعشرة ألف دولار. فإذا ما كسبت أنا الرهان فيمكنك اعتبار المبلغ كله لك يا مستر مانجوزا ، يوضع في أي حساب تحدده وفي أي مكان بالعالم .

توقف مانجوزا عن السير والتفت وتوجه صوب سين والذي رأى على الفور ما طرأ على تعابير وجهه . ارتعش صوت مانجوزا بالغضب عندما قال:

- إن افتراضك بأنني إنسان مرتشي هو إهانة لي شخصيًا ، وهذه يمكن أن أغفرها لك . لكنها إهانة أيضًا للثورة ولأبطالها ولشهدائها الذين قضوا أثناء مقاومة حكمكم كي يحرروا هذا البلد من قبضة الإمبريالية والاستعمار . هي إهانة للحزب ولقادتنا وللروح الماركسية ، وقطعًا هي إهانة للشعوب الإفريقية كلها .

- يا هذا ، كل ما اقترحته هو عشرة آلاف دولار حقير ، وليس عودة العرش، بحق الله .

- يمكنك أن تبتسم ابتسامتك المتعالية البيضاء يا كولونيل كورتني . لكننا نعرفك جيدًا ، ونعلم تمامًا بصلاتك مع جنوب إفريقيا العنصرية ومع حفنة المتابيلي الصعاليك الذين حشدتهم حولك. نحن نعلم بأنهم جميعًا قاتلوا معك ضد قوات الثورة الديمقراطية ، وما هم إلا دعاة الثورة المضادة والتوجه الرأسمالي ، وما أنت إلا زعيمهم ... يا كولونيل » .

- لقد قتلت لبؤة خطأ ، وأحد الأفارقة من ذوي التوجه الرأسمالي قد أصيب بجروح بالغة . هذا هو كل ما عندي من مناشط الثورة المضادة .

فأخبره مانجوزا بنبرة مشئومة :

- إننا نراقبك يا كولونيل ، ويمكنك أن تكون واثقًا تمامًا بأنني على الفور سأضع التوصية المناسبة لحالتك هذه ، وإن الإهانة التي ألحقتها بي وبمواطني لن تنسى إطلاقًا .

واستدار مانجوزا وتوجه نحو مبنى النادي . وهز سين رأسه وغمغم :

- إذن نقول وداعًا لامتياز محمية شيويوى الجميلة . لقد دمرتها بنفسي حقًا .

وعلى الرغم من خفته وطيشه فقد أحس بشعور طاغ بالخراب يتسلل إلى أعماق فؤاده .



تقع مكاتب سفاري كورتني في الأفنيوس ، بيد مبني رئاسة الحكومة

وميدان الجولف. كانت ريما في انتظاره في المكتب الخارجي الذي تحلت جدرانه بلوحات كبيرة ملونة للحياة البرية وبصور فوتوغرافية مكبرة للزبائن المغتبطين أمام تحفهم من رئوس الحيوانات التي اصطادوها أو جلودها.

قفزت من مقعدها على الطاولة في اللحظة التي دخل فيها سين وفاجأته بقوله :

- لقد اتصل المستشفى بي قبل ساعة ياسين ، ولقد بتروا ساق شادراش .

وللحظات طويلة لم يستطع سين الحديث أو الحركة . ثم مضى ببطء إلى خزانة الملفات وتناول كأسًا وزجاجة نصف ممتلئة من وسكي شيفاس من الرف العلوي . ثم تهاوي على الأريكة وصب لنفسه ثلاثة أصابع من الشراب . وقال بعد أن تجرع الكأس :

- نهاية ليوم عجيب !

تركته ريما جالسًا على الأريكة ، لم يكن قد تبقى بالزجاجة سوى جرعتين . وعندما شربهما توجه سين إلى فندق المونومتابا . كان الفندق مكتظًا بالسواح ، ومن بينهم فتاة شقراء من تيوتون الفالكيري ترتدي زيًا إفريقيًا كاملا . التقطت عينيه عند دخوله للصالة وابتسمت له . وحدث سيد نفسه :

- يا للجحيم ! إنها لا تكلف ما يتكلفه الوسكي ، ولن يترتب عليها في الصباح آثار السكر البغيضة .

ضحكت الفرولاين الألمانية بحبور على لغة سين الألمانية البدائية ، ولم يمر وقت طويل حتى أسرت إليه إنها تسكن في الجناح الرئاسي لوحدها بالطابق الرابع عشر . طلبت من خدمة الغرف زجاجة من المم وشرباها سويًا على الفراش .

وعند الصباح ، وبينما جهزت ريما له خطة الطيران ، بعد أن أخذت كيسًا كبيرًا من اللحم المجفف لقسم الحركة بالمطار ، عاد سين إلى المستشفى .

لقد بتروا ساق شادراشي على بعد بوصات من مفصل الورك . وقدم الطبيب الألماني لوحات الأشعة لسين وقال له بعد أن أشار إلى فتات العظام :

- لا فائدة ، إنها مثل فتافيت الكعك !

لم يجد مكانًا للجلوس في غرفة الجراحة المزدحمة . لذلك وقف سين بجانب سرير شادراشي لبعض الوقت وتحدثا عن المعارك التي خاضاها سويًا وعن القنص والصيد ولم يشر أي منهما إلى الساق المبتورة ، وعندما انتهيا من الذكريات قام سيد بإعطاء مائة دولار لكبيرة الممرضات بالعنبر لزيادة العناية به ثم توجه للمطار .

سلمته ريما خطة الطيران المصدقة وتم تزويد البيتشكرافت بالوقود

وذودتها بالمؤن اللازمة ابتداء من الفواكه الطازجة والخضروات وحتى أوراق التواليت اللازمة للمعسكر . وقال لها :

- إنك بطلة يا ريما .

- لا يبدو الأمر مبشرًا ومن الأفضل لك البحث عن وظيفة أفضل منذ الآن .

فقالت له :

- إنني آسفة يا سين من أجلك . ولكن لا تقلق بخصوصي . لقد كنت محتارة في كيفية إبلاغك أخباري . فأنا على وشك المغادرة لكندا في السادس عشر من سبتمبر . ولقد تمت ترتيبات زواجي من بروفسور .

فأمرها سين :

- كوني سعيدة !

وقبلها للمرة الأولى . إحمرت وجنتاها وغامت عيناها بالدموع وبدت أكثر عذوبة وجمالاً بلونها اللوزي البني .



طار سين فوق المعسكر ، على ارتفاع منخفض ، لثلاثة دورات . وفي الثالثة رأى التايوتا تنطلق باتجاه المهبط . كان جوب يقودها بينما وقف متاتو على مؤخرتها . هبط وتوجه بالطائرة نحو القفص المصنوع من السلك النملي القوي المجلفن ، والذي صمم خصيصًا لمنع الأفيال من انتزاع الأجنحة ، ولمنع الأسود من مضغ إطاراتها .

وعندما وصل جوب ومتاتو بالتايوتا ، قاما بنقل حمولة الطائرة إليها . ثم حدثهم سين عن ساق شادراش .

كلهم كانوا قد قاتلوا سويًا في حرب الأدغال جنبًا إلى جنب وقد صلبتهم الأحداث والمصائب . رغم ذلك شاهد سين مظاهر الحزن والألم في عيني جوب عندما غمغم :

- نحتاج إلى حامل بنادق ثاني جديد . وأعتقد أن بميولا سالخ الجلود هو المناسب . إنه رجل طيب .

فوافقه سين :

- نعم ، سنستخدمه .

وظلا واقفين لبعض الوقت ، يقدمون المواساة والاحترام لزميلهم الذي تشوه . ثم ، وبدون أي كلام آخر ، صعدوا إلى التايوتا وقادها جوب إلى المعسكر .



بدلاً عن البنطلون ، ارتدت كلوديا فستانًا للعشاء مساء ذلك اليوم ، فستانًا من حرير الشيفون المتموج الأبيض مع حلى من الجواهر والفضة من صنع نافاجو . كان تأثير ذلك صاعقا وخاصة على لونها المسمر وشعرها الفاحم السواد . رغم ذلك فقد أجبر سين نفسه على عدم إظهار أي إعجاب بها ووجه كل اهتمامه ونقاشاته إلى أبيها .

وبعد أن حدث ريكاردو عن شادراش وعن لقائه بمانجوزا تحول المساء إلى جو كئيب قابض خال من المرح . تركت كلوديا الرجال متحلقين حول نار المعسكر لكنهم لم يمكثوا طويلاً عندما حياهم ريكاردو بتحية المساء وتوجه إلى خيمته . تناول سين زجاجة وسكي من خيمة العشاء وتوجه بها نحو قرية الخدم والعمال .

كانت خيمة جوب وخيمتي زوجتيه على مسافة من خيام الآخرين ، وقد نصبها على ضفة النهر أمام بركة عميقة زرقاء تشاهد عليها أفراس النهر راقدة وسط المجرى وكأنها صخور زرقاء ملساء عريضة .

وعندما أجلس سين نفسه على المقعد البلدي المنعوت من الخشب أمام النار التي بينه وبين جوب، قامت إحدى الزوجتين ، فتاة متابيلية شابة جميلة الشكل، تربط طفل جوب على ظهرها ، بإحضار كأسين وركعت بجواره بينما قام بصب كأسين كبيرين لكل منهما . حملت كأسًا لزوجها وقام جوب بتحية النخب لسين عبر لهيب النار المشتعلة .

شربا في صمت ، ونظر سين إلى وجه جوب في ضوء النار عندما كان يحدق أمامه عبر النهر . كان صمتهما رفاقيًا حميمًا ومريحا وسرح خيال سين إلى الماضي ، عبر السنين ، وهو يدير الشراب القوى بلسانه ويسترجع سنوات الماضي.

تذكر ذلك اليوم الذي قابل فيه جوب لأول مرة . كان ذلك فوق تل لا يحمل إلا رقمًا. التل نمرة ٣١ . تل صخري تحيط به أجمات من الأبنوس البري وشجيرات الجسي وحيث كان العدو يمكن لهم .

كان جوب قد ظل على التل ليومين وأصبحت عيناه محمرتين متوحشتين . هبط عليه سين بالمظلة ذلك الصباح ومعه خمسة من أشداء فصيلة الكشافين التابعين له . وقاتلوا جنبًا إلى جنب بقية ذلك اليوم . وعند الغسق ، وعندما تم تطهير التل ، وبعد أن فر من بقي حيًا من العدو عبر المنحدرات الصخرية واختفوا في الغابة ، ساعد كل من سين وجوب بعضهما البعض للوصول إلى المروحية التي كانت في انتظارهم لإخراجهم . هبطا منحدرات التل ببطء وإرهاق شديد وهما يجرجران أسلحتهما ، وذراعاهما متشابكان ، ودمهما يختلط عندما يتسرب

من ضمادات جروحهما. وقال سين بصوت مشروخ :

- أخوان في الدم سواء أعجبك هذا أم لا ؟

وابتسم لجوب من وراء الطلاء المموه والسناج والغبار . وبعد إسبوع ، وعندما خرج جوب من مستشفى القاعدة ؛ كان سين بانتظاره شخصيًا وقد حمل معه أوراق نقله إلى فصيلته ، وقال له:

- لقد تمت إجراءات إعارتك لكشافي بالانتاين ، يا كابتن .

ورشقه جوب بتلك الإبتسامة النادرة العريضة وقال له :

- هيا بنا يا كولونيل .

بعد دراسة ملفه عرف سين بأن جوب قد ولد بجوار ضفة نهر جواي والتحق بمدرسة المبشرين المحلية . ثم نال منحة للالتحاق بالكلية الجامعية لروديسيا ونياسلاند ، ومنها نال البكالوريوس من الدرجة الأولى في علوم التاريخ والسياسة والأنثروبولوجيا الإنسانية . وبعدها ذهب في منحة أخرى إلى كلية براون في شيكاغو وحصل منها على درجة الماجستير في نفس العام الذي أعلن فيه إيان سمت استقلال روديسيا من جانب واحد .



بعد ذلك بوقت طويل ، وبعد أن ترسخت صداقتهما وتوطدت ، علم سين بأن جوب كان يرعى مواشي والده ، أثناء طفولته وصباه ؛ بطول ضفة نهر جواني وأنه عرف جيدًا ، بل عشق ، حياة البراري والفلوات .

كان والد جوب أحد أحفاد الملك لوبنجولا ، ابن الملك العظيم مزيليكازي . بالتالي كان جوب سليلاً مباشرًا للدم الزولو النقي . وكان هذا واضحًا على بنيته القوية المتوازنة وملامحه وفكوكه القوية وجبهته العريضة وعيونه السوداء الذكية ورأسه المقبب الذي تكسوه خصل من الشعر المجعد القوي .

وخلال فترة دراسته وإقامته في أمريكا وصل جوب إلى قناعة برفض التعاليم الشيوعية وكل تبعاتها وأساليب حكمها ، لذا كان من الطبيعي ، عند عودته لإفريقيا ، أن ينخرط في الجيش البروديسي في فصيلة حملة البنادق الإفريقية الروديسية ، وخلال عام تم ترفيعه للرتبة العسكرية المرموقة .

وبعد انتهاء الحرب ، وعندما سلمت إتفاقية لانكاستر هاوس البلاد لروبرت موجابي ولديمقراطيته الشعبية ، جلس جدب ، واجتاز بدرجة الشرف ، كل امتحانات الدخول في الخدمة المدنية ، فقد كانت الخدمة الحكومية والعمل السياسي هما الطريق المباشر للسلطة والثروة .

لكنه ، على أي حال ، لم يعين . بل ثم دفعه بأنه ممن باع نفسه للبيض

وبأنه قد قاتل في الجانب الخطأ ، الجانب الخاسر ، ولأنه كان من قبيلة المتابيلي بينما كانت القوة والسيطرة في أيدي قبيلة الشونا. سدت كل أبواب التقدم أمامه . وبغضب شديد ، وبعد أن تحرر من أوهامه ، توجه لمقابلة سين :

- اللعنة يا جوب . إنك أفضل بمسافات شاسعة لتولي أي عمل قد أعرضه عليك في شركة للسفاري ! .

لكن جوب ألح عليه :

- قصاص أثر ، سلاخ جلود ، حامل بنادق ، وأي عمل متاح لديك سأتولاه .

من هنا قاما سويًا بالقنص والطراد مثلما قاتلا سويًا من قبل ، وخلا سنة كان سين قد جعل منه أحد مدراء سفاري كورتني . وكانا يشيران دائمًا للياليهما الهادئة معًا ، وهما يحتسيان الوسكي حول نيران المعسكر ، بأنها (اجتماعات المدراء) .

كان يحلو لجوب أن يتقمص أدوارًا مختلفة باختلاف الظروف ، فأمام العملاء والزباين كان يتحول إلى ما يسميه (بلغة زنوج المزارع الأمريكية) فينادي سين بلقب (بوانا) و (أنكوزي) ويحاكي لهجة تخاطب العهد الاستعماري الغابر . واحتج سين عليه ذات مرة :

- لا تكن عبيطًا يا جوب . إنك بهذا تهين نفسك لكن جوب أوضح له المبرر لذلك :

- إن هذا ما يتوقعه الزبون . إننا نبيع لهم الوهم يا رجل ! إنهم ما جاءوا هنا إلا للعب دور (كشافة النسر) ودور إرنست همنجواي . فإذا ما علموا بأنني أحمل درجة الماجستير في التاريخ والسياسة فسينتابهم الفزع ويفرون منا ! .

وعلى مضض سايرسين أسلوبه .

أما عندما يكونان على إنفراد ، كما هو حالهما الآن ، كان جوب يتحول إلى ما يسمى بأسلوب الإنسان المتحضر ويصبح مرة أخرى ذلك المفكر الذكي المثقف ، أو جوب الحقيقي .

وأثناء حديثهما ينتقلان بسهولة من اللغة السند بيلية إلى الإنجليزية ، كل منهما متمكن تمامًا من لغة الآخر ويرتاح لها مثلما يرتاحان لرفقة بعضهما البعض . وقال جوب :

- عليك يا سين الا تجزع كثيرًا لفقدان هذا الإمتياز للمحمية ، رغم أن هذا لم يحدث بعد . وحتى لو حدث ذلك فسنجد طريقة للإلتفاف حول القرار .

- قولك يعطيني بعض السلوى . لكنني سأجد وسيلة ما .

- يمكننا التقدم بطلب امتياز لمحمية أخرى ، في وكان ما بأرض المتابيلي ،

حيث لا زال لأسرتي نفوذًا . إما محمية في طريق ما تيسي أو حتى على نهر جواي. وهذا هو موطني ومسقط رأسي» . فهز سين رأسه :

ـ لا أرى ذلك . فبعد ما حدث فستظل تطاردني علامة الوحش » وابتسم جوب متخابثًا وقال:

ـ يمكن التقدم باسمي أنا ، وسأجعل منك أحد مدرائي ، كما يمكنك أن تخاطبني بيا (بوانا) و (أنكوزي) ! .

ضحكا معًا وخف التوتر عنهما . وعندما تركه سين قابعًا أمام ناره ومضى في الظلمة نحو المعسكر الرئيسي ، شعر بمزاجه مرتاحًا مرحًا وبنوع من التفاؤل لأول مرة منذ عدة أيام . لقد كانت لجوب مقدرة فائقة عليه ولتغيير أفكاره .

وعندما اقترب من خيمته . تحرك شبح شاحب في ضوء القمر خرج من تحت الأشجار ، فتوقف فجأة . ونادته كلوديا بصوت خافت دافئ :

ـ أيمكنني التحدث معك ؟

ـ نعم ، تحدثي .

وفكر في نفسه :

لماذا يتوتر عند سماع اللكنة الأمريكية التي تقوم (أتحدث معك) بدلاً عن (أتحدث إليك) المعتادة في اللغة الإنجليزية .

ثم قالت كمن تعترف له ، رغم أنه لم يبذل أي جهد لتشجيعها :

ـ لست بارعة في مثل هذا ، لكنني أريد أن أعتذر .

ـ إنك تعتذرين للشخص الخطأ . أما أنا فلا زلت أحتفظ بكلتا ساقي » .

ارتبكت وارتعش صوتها :

ـ إنك عديم الرحمة . أليس كذلك ؟

ثم رفعت ذقنها وقالت :

ـ حسنًا ، أظن أنني أستحق ذلك . لقد كنت خرقاء ، وكنت أظن بأنني أعرف كل شيء . لكن إتضح لي بأنني لا أعرف إلا القليل ، وبسبب جهلي هذا تسببت في حدوث ضرر بالغ . إنني أدرك أن اعتذاري قد لا يعني الكثير ، ولكنني شديدة الأسف حقًا .

ـ أنت وأنا من عالمين مختلفين تمامًا ولا نشترك أو يجمع بيننا أي نوع من التفكير أو الشعور المشترك ولن نتعشم ابدًا في فهم أي منا للآخر ، ناهيك عن أن نكون أصدقاء . لكنني أدرك تمامًا وأتفهم ما حملك لأن تقولي ما قلته .

فسألته :

ـ أهي هدنة أذن ؟

ـ حسنًا ، فلتكن هدنة .

مد يده إليها فتناولتها . كان جلدها شديد النعومة وكأنه بتلات الورد وكانت يدها رقيقة باردة . أما قبضتها فكانت قوية كقبضة رجل . وودعته متمنية له ليلة طيبة وأطلقت يده من يدها واستدارت نحو خيمتها .

وظل ينظر إليها في طريقها للخيمة . كان القمر مضيئًا مشرقًا ، قبل يومين من تمام اكتماله بدرًا ، وكان فستانها الأبيض أثيريًا ضبابيًا ، وبداخله كان جسمها نحيلاً وأطرافها طويلة أنيقة . وفي تلك اللحظة شعر بالإعجاب بها وبروحها وبأنه الميل إليها أكثر من أي وقت مضى منذ أن عرفها.



كان نوم سين عادة خفيفًا ، كجندي وكصياد . لم تكن تزعجه أو توقظه الأصوات الطبيعية المعتادة من حوله ، ولا حتى صرخات الضباع من حول حظيرة التحف المحصنة ، التي احتفظ فيها بجلدي الأسد واللبوة . ولذلك صحي فورًا عند أول خريشة مست قماش خيمته وأسرع بتناول مصباحه الكهربائي وبندقيته ٥٧٧ المسنودة على رأس سريره . وتساءل بهدوء :

ـ من هذا ؟

ـ إنه أنا ، جوب .

نظر سين إلى ساعة يده الرومكس ، وأشارت عقاربها المضيئة إلى الثالثة صباحًا . وناداه :

ـ أدخل ، ما الأمر ؟

ـ أحد كشافينا الذين تركناهم لمراقبة النهر عاد توًا إلى المعسكر بعد أن جرى لمسافة عشرين ميلا .

شعر سين بدبيب النمل على مؤخرة عنقه وألقى بكلتا رجليه من السرير وقال بانفعال :

ـ ثم ماذا ؟

ـ عند الغروب عبر توكوتيلا النهر خارجًا من الحظيرة القومية .

ـ أمتأكد أنت من ذلك ؟

ـ الأمر مؤكد . لقد شاهدوه عن قرب شديد . أنه توكوتيلا . الفيل الغاضب . ولم يكن على رقبته ذلك الطوق اللعين .

نهض سين وتناول بنطلونه ونادى :

- أين متاتو ؟

وجاءه صوت الاندوروبو الضئيل كالصفارة عند المدخل :

- أنا جاهز يا بوانا .

- حسنًا ، سنتحرك خلال عشرين دقيقة . جهزوا جريندبات الظهر وزجاجات الماء ، وسنأخذ بميولا في مكان شادراش أريد أن أكون في أثر توكوتيلا قبل طلوع الشمس .

ويصدر عاري مضى سين نحو خيمة ريكاردو وسمع صوت شخيره المنتظم عندما تمهل أمام ستارة المدخل . وناداه :

- كابو !

توقف الشخير فجأة :

- أأنت مستيقظ ؟ لدى فيل لك . ارتدى ملابسك ، فقد عبر توكوتيلا النهر، وسنتحرك في ظرف عشرين دقيقة .

تعثر ريكاردو في الظلام ن وهو نصف نائم ، وأخذ يلعن :

- اللعنة ! أين بنطلوني بحق الجحيم ! هاي سين ، أيقظ كلوديا ، أيمكنك التفضل بذلك ؟

كان هناك مصباح مضيء في خيمة كلوديا ، ولابد أنها سمعت الأصوات المنفعلة المستثارة . وسألها سين من وراء قماش الباب :

- أأنت صاحية ؟

رفعت قماش المدخل ووقفت وضوء المصباح من خلفها . كان قميص نومها يصل حتى كاحلها وكان مطرزًا حول عنقها ورسغها . لكن القماش كان ناعمًا شفافًا يتسلل الضوء من خلاله وظهر سلويت جسمها العاري . وقالت له :

- سمعتك تخبر بابا . سأكون جاهزة . هل سنمشي على أقدامنا ؟ هل البس حذائي الموكازين أم حذار برقبة ؟

كان واثقًا من أنها تعمدت أن تظهر بهذا الشكل ، وشعر بنوع من الغضب لم يكن من طبعه أمام إمرأة بهذه الفتنة ، ولم يعرف السبب لذلك . وقال لها بجفاء :

- ستمشين اليوم أبعد وأسرع مما مشيتيه في حياتك من قبل .

ثم فكر في نفسه :

- إنها تظهر نفسها كعاهرة .

متجاهلاً بأن ذوقه الجنسي يميل عادة وبقوة نحوهن .

- في الوقت الذي بدأت أحترمها فيه .

شعر وكأنه سيوبخها لكنه سيطر على نفسه وعض شفته وحاول ألا ينظر لجسدها المثير والذي يبرق مثل فازة من البروسلين صنعها فنان من عصر التانج . أراد أن يبعد عنها ليظهر لا مبالاته بها وأفكاره المتناقضة . لكنه كان لا يزال واقفًا متحيرًا عندما أرخت ستارة الخيمة . وغمغم لنفسه بغضب وهو يتجه نحو خيمته :

- اللعنة على الهدنة ، إنها لا زالت في حلقة اللعب ترمي لك في كراتها .

لكن غضبه ذاك أصابه بحيرة أشد . فمع أي إمرأة أخرى ، حتى لو كانت في نصف جمالها ، فإنه كان بدون شك يشعر بالسرور لمرآها . وأوضح لنفسه :

- إنها أرفع من ذلك .

ثم تذكركم كرهها من قبل وكم احتقرها :

- هذه البمبو رمت بك في أعلى شجرة شوكية وستقودك للهلاك .

ثم ما لبث أن انفجر ضاحكًا . لقد تبخر الآن ذلك الجو القاتم الذي أعقب بتر ساق شادراش والفقدان المتوقع لامتياز المحمية . لقد كان في طريقه لصيد واحد من أعظم الحيوانات الأسطورية في إفريقيا . ولقد أضاف وجود هذه الفتاة، وبدون أن يسعى لذلك ، نكهة التوابل لمائدة الأحداث القادمة المتوقعة .



كان الصقيع يغطي الحشائش التي تملأ المنخفضات التي عبروا من خلالها وأخذت أوراقها المتجمدة تبرق لمعانًا في ضوء مصباح السيارة القوى . كانت الوحوش والحيوانات البرية التي قابلتهم في الطريق قد تبلدت حواسها من البرد ، وكانت بالكاد تتحرك لتفسح الطريق للتايوتا للمرور في عتمة الفجر . وصلوا إلى مخاضة نهر شبويوي قبل ساعة من الفجر وكانت مياه النهر السوداء تلمع ، وكأنها صنعت من فحم الأنثرا سايت ، في آخر ضوء للقمر . أما الأشجار الطويلة التي تحبط بضفتي النهر فكانت تبدو وكأنها جيوش متقابلة لعمالقة الأساطير .

أوقف سين التايوتا بجانب الطريق وترك معها أحد الدباغين لحراستها ثم نظموا أنفسهم تلقائيًا في تشكيل الصيد . كان ريكاردو وكلوديا في الوسط بينما احتل بميولا موقع شادراش السابق في المؤخرة . كان بميولا رجلاً مفتول العضلات له لحية كثة وصمت كثير ، وكان يحمل بندقية ريكاردو ، الرجبي ، معلقة على كتفه .

كان كل الرجال ، بمن فيهم ريكاردو ، يحملون احتياجات الميدان معهم

، وحتى كلوديا حملوها زجاجات الماء الخاصة بها . تناول جوب بندقية ريكاردو الأخرى ، الوزربي ، ورفعها على كتفه . أما سين فكالعادة حمل معه البندقية ٥٧٧ نيترو إكسبرس وكان لا يفارق البندقية عندما يشرع في رحلة القنص .

توجهوا لأعلى النهر سائرين على أقدامهم . وبعد ميل واحد كانت أجسادهم قد دفئت واندفعوا قدمًا أكثر فأكثر ، ولاحظ سين أن كلوديا كانت تمشي جيدًا بساقيها الطويلتين وبدون صعوبة وعندما لاحظت حسن انطباعه عن طريقة مشيها رشقته بابتسامة عذبة طعمة .

كان ضوء الفجر قد عم المنطقة عندما صاح الكشاف ، الذي كان قد أبلغ بعبور توكوتيلا ، وأشار للأمام . كان الضوء كافيًا يشاهدوا لمعة علامة كان قد وضعها على جذع شجرة مهوجني ضخمة تحرس مكانًا منخفضًا على ضفة النهر وقال :

- هناك ! هناك حددت أثر الفيل !

وبنظرة واحدة عرف مارك أن هذا المكان هو نقطة العبور التقليدية للحيوانات الكبيرة . كانت قطعان من أفراس النهر قد مهدت الطريق ، من خلال البوص ، فأصبح صلبًا واضحًا حسن الانحدار .



تعج المروج الإفريقية بالطرق المتقاطعة التي صنعتها الحيوانات الضخمة عبر السنين . كانت معظم هذه الطرق تتلاقى في الغابة ثم تتفرق ، وكأنها دروب ممهدة لدواليب سيارات كثيرة ، ثم تتلاقى كلها في معبر النهر هذا . سارع كل من في الفريق من خطاه عن سماع صيحة الكشاف. لكن متاتو كان أسرعهم وصولاً للممر الرئيسي حيث انحنى عليه محركًا رأسه يستفيد من ضوء الفجر ثم تحسس الأرض بخفة مستخدمًا فرعًا من شجرة صفصاف كان قد قطعه وشذ به . لم يذهب لأكثر من خمسة خطوات حين شد ظهره ونظر خلف كتفه إلى سين وقد تجعدت ملامح وجهه من فرط السعادة الإثارة .

وشقشق بصوته النحيل :

- إنه هو ! هذه آثار أقدام والد كل الأفيال ! إنه توكوتيلا ! إنه الفيل الغاضب !

نظر سين إلى الأثر الضخم ، الذي يشبه الطبق ، على التراب الناعم لممر الحيوانات البرية وأحس بأن مدًا ربيعيًا قد سرى في شرايين جسمه . وما لبث أن تحولت إثارته إلى شعور قدري وكأنه مستغرق في تأمل صوفي ديني . وقال :

- متاتو ، تابع الأثر .

رسميًا أعلن بداية الطراد .

كان الأثر واضحًا وكأنه طريق قاري ، متتبعًا لممر الحيوانات وداخلاً مباشرة إلى الغابة بعيدًا عن النهر .

كان الثور العجوز يمشي بخطى واسعة رشيقة متواصلة ، وكأنه يدرك أن في مثل هذه المعابر يكمن الخطر . وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يعبر النهر عند غروب الشمس حتى يتلفع بالظلمة إلى أن يصل لهدفه .

ولأميال خمسة كان يمشي دون توقف . لكنه استدار فجأة وخرج من ممر الحيوانات وتوجه نحو أجمة شوكية كانت شجيراتها قد اخضرت وظهرت أزهارها . تحرك هنا وهناك متغذيًا على نورات الأزهار وعلى الفروع الغضة الشهية مما أدى لعدم وضوح آثاره واضطرابها بين الأجمة التي طحنها بأرجله ومزق شجيراتها .

توجه متاتو وجوب نحو الأجمة بينما بقى الآخرون في انتظارهما وفتحت كلوديا إحدى زجاجات الماء التي أخرجتها من حزامها ثم قالت :

- إنني عطشي .

لكن سين أوقفها بصيحة منه :

- لا ، لأنك إن شربت عن أول إحساس بالعطش فستحتاجين للشرب طوال اليوم . ونحن لا نزال في أول الطريق .

ترددت للحظة وفكرت في أن تتحداه . لكنها ، على مضض ، أقفلت السدادة على الزجاجة وشبكتها بحزامها وقالت له :

- إنك رجل خشن صعب المراس .

من الجانب الآخر صفر متاتو بهدوء . وعلى الفور أخبرهم سين بأن متاتو قد عثر على درب الفيل مرة أخرى . ثم قادهم سين خلال الأشواك حتى لحقوا بمتاتو. وسأله سين :

- كم كسبنا من الطريق وراءه ؟

لقد بدؤوا الطراد والفيل يسبقهم بعشرة ساعات . ولكنه عندما يتوقف ليتغذى كانوا يقتربون منه أكثر . وهز متاتو كتفيه :

- إنه لم يأكل طويلاً ، وقد عاد الآن إلى مشيه السريع القوي كان الثور قد فارق طريق الحيوانات وإنبع الآن طريقًا وعرًا مليئًا بالحصى والحجارة ، وكأنه يتعمد أن يخفى آثاره . لم يترك وراءه أي أثر يدل عليه أو يكون واضحًا للعيان . لكن متاتو كان وراءه يتتبعه بكل ثقة .

وتساءل ريكاردو بقلق :

ـ هل أنت متأكد يا سين بأنه وراء الأثر ؟

فأجابه سين :

ـ كابو ، لقد قمت بالصيد مع متاتو أكثر من مرة لتسأل مثل هذا السؤال،

لكن كلوديا أرادت أن تعرف ما يحدث . فسألت سين :

ـ لكنه ماذا بإمكانه أن يرى ؟ إنها أرض الظلط والحجارة .

فأجابها :

ـ أخفاف الفيل عادة ما تترك آثارًا غير مرئية لكم على الصخور . فهي تحطم الأشنة وتخلف ترابًا ناعمًا . كما أن هناك أعشابًا ضئيلة تنمو بين الحجارة والصخور وهو يضغطها بأخفافه فتميل أفرعها الصغيرة وأوراقها باتجاه مروره . هذه الأوراق تعكس الضوء بدرجات متفاوتة تدل عليه ولا تخفي على متاتو .

لكن كلوديا ألحت في تساؤلها ، وأرادت أن تعرف :

ـ هل تستطيع أنت متابعة ذلك ؟

فهز سين رأسه وقال لها :

ـ إنني لست بالساحر .

ورغم أنهما كانا يتحدثان بصوت خافت ، يكاد لا يسمع إلا بصعوبة ، إلا أن سين حذرها أمرًا.

ـ تكفي هذه الثرثرة ، ولنخفض أصواتنا من الآن فصاعدًا لمستوى الهمس .

وهكذا واصلوا السير في صمت مطبق وسط المناظر المختلفة التي كانت تشاهد بالغابة وتتغير من آونة لأخرى .

كان بالغابة حوالي أربعين نوعًا من الكمبرتم ذات الأوراق العريضة . رغم ذلك لم تكن هناك غابة خاصة بها حيث إن كثيرًا من الأشجار الأخرى قد اختلطت بها . وكل نوع من الأشجار كان له شكل مختلف للجذع وللأفرع والأوراق ، ومختلف في اللون وفي ملمس اللحاء عن الأخريات . فبعضها له أفرع تساقطت أوراقها في الشتاء ، وبعضها له عرش نباتي غزير . وتتراوح ألوانها بين الأخضر والذهبي والأصفر البرتقالي والأحمر الزاهي .

وأحيانًا كانت الغابة تنطبق عليهم تمامًا ثم ما تلبث أن تنفرج قليلاً بعد لحظات لتكشف تلك الفرجات عن جبال بعيدة وتلال غريبة الأشكال ، أو عن براري وفسحات واسعة تحيطها الأشجار أو عن منخفضات تتجمع بها المياه التي احترقت الحشائش الطويلة من حولها بينما شكلت النموات الجديدة الرهيفة بساطًا سندسيًا فوق الرماد الأسود المختلف عن الحريق . جذبت النموات الجديدة

للحشائش أرتالاً من بقر الوحش حول المنخفضات المائية . وكانت الأبقار الوحشية تقف في العراء بلونها الأسود القاتم ، وبقرونها الطويلة المنثنية مثل السيف المعقوف، وبأعناقها المتينة المنتصبة بكبرياء .

ورغم لون أجسادها السوداء ، كرماد المنخفضات المحروقة الجوانب إلا أن بطونها كانت ناصعة البياض كلون الجليد .

وكانت هناك أيضًا ظباء البوص ذات القرون الحادة الممتدة للأمام وبذيولها التي تشبه البدرة البيضاء . كانت حمر الوحش تبدو بعيدة وقد تعذرت رؤية خطوطها الزاهية فبدا لونها رماديًا متجانسًا . ثم شاهدوا التيتل الإفريقي ذي الأنف الروماني وبلحيته الخشنة يكارد أحدهم الآخر، وكأنهم مهرجون في سيرك ، مثيرين الغبار الأسود من حولهم .

عندما لا تكون الأسود جائعة أو سارحة للصيد ، فإن الحيوانات ، التي تعتبر من ضحاياها المفضلة ، تكون في حالة غريبة من الطمأنينة والثقة ، حتى وهي تشاهده يتمشى على بعد خمسين ياردة منها . وبنفس السلوك هذا فإنها تشعر بأن هذا الطابور من البشر لا يضمر لها سوءًا فتقترب منه بدعة قبل أن تهرول جارية مولية عنهم . وقد ابتهجت كلوديا لما شاهدته وزاد ذلك من قوتها ولم تشعر بأي تعب حتى بعد أربعة ساعات من المشي الشاق .

وفي ممرين تلين كانت بعض المياه محبوسة ، كبركة صغيرة بين الصخور. كانت مياهًا راكدة مخضرة وفقاقيع الغاز تخرج بين النباتات المتعفنة التي بها . لكن الثور العجوز قد شرب منها وترك وراءه كومة من برازه الإسفنجي الأصفر بجانبها . وناداهم سين :

«سنرتاح هنا لمدة عشر دقائق . يمكنكم تناول شربة ماء الآن» .

ثم نظر إلى كلوديا :

«حاولي تقصري شربك على جرعتين إلا إذا أردت أن تجربي شرب هذا الماء الآسن » . وأشار إلى البركة المتعفنة وابتسم .

تركها جالسة بجوار أبيها وتوجه إلى حيث جلس متاتو وحيدًا على جانب البركة وسأله:

«ما الأمر ؟» .

فبعد عشرين سنة كان بإمكانه قراءة أفكار الرجل الضئيل ومعرفة مزاجه . هز متاتو رأسه وارتخت غضون وجهه المتجعد في حزن وأسى وقال :

«أمر غير طبيعي يحدث هنا . هذا الفيل يحس بالتعاسة والقلق . فهو يتجول هنا وهناك على غير هدى . ورغم أنه يسير بسرعة إلا أنه يسير بغير هدف . إنه لا

يأكل . وهو يمشي وكأن الأرض من تحته تحرق أخفافه» .

ـ فإذا يعني هذا يا متاتو ؟

ـ لا أدري . لكنني لا أرتاح لهذا الأمر يا بوانا .

تركه سين وذهب إلى حيث جلست كلوديا وقال لها :

«فلنلق نظرة على قدميك ! » كان قد لاحظ أنها كانت تمشي بصعوبة وخاصة في الساعة الأخيرة.

ابتسمت دهشة وتساءلت :

«أأنت جاد ؟ » .

لكنه تناول أحد قدميها ووضعها على حجره ، وأخذ يفك بهدوء رباط الحذاء ثم نزعه منها ونزع الجورب أيضًا . كانت أقدامها طويلة غير عريضة مثل يديها لكن ملمس جلدها كان ناعمًا وكانت هناك بقعة قرمزية لامعة على كاحلها وأخرى تحت إصبعها الكبير . قام سين بتنظيف البقع المصابة بقطعة من القطن مغموسة في كحول طبي ، وأعطاء ذلك شعورًا حميمًا بالإلفة والمودة، وسرورًا حسيًا وهو يتعامل مع هذه لأقدام البديعة . ورغم ذلك فقد قال لها بخشونة :

«لابد أن تكوني متألمة من قدميك . لا تتظاهري بالشجاعة . بضعة أميال أخرى وسيتحول الأمر إلى دمامل مثل حبات العنب وسيكون ضمن مجموعتنا شخص أعرج .

ثم لف البقع المصابة بشريط وأمرها :

«غيري جواربك ، وعندما تحسين بالألم في المرة القادمة أخبريني في الحال» .

أطاعت أوامره في خضوع ثم واصلوا السير وراء الأثر .

وقبل الظهر بقليل تغير أثر الدرب واتجه مباشرة نحو الشرق . وهمس سين لريكاردو :

«لقد كسبنا ساعة أو اثنتين وراءه لكن متاتو لا يعجبه هذا ، ولا أنا . فالفيل متوتر وجفول وهو متوجه الآن مباشرة للحدود الموزمبيقية » .

أصاب القلق ريكاردو وتساءل :

«أتراه قد أحس بنا ؟ » .

لكن سين هز رأسه نافيًا :

«مستحيل . فلا زلنا على بعد ساعات منه » .

توقفوا مرة أخرى عند الظهر لتناول الطعام وللحصول على بعض الراحة .

وعندما واصلوا السير ثانية ، وبعد أقل من ميل واحد ، وصلوا إلى غيضة لأشجار المارولا . كانت ثمارها الصفراء الناضجة تملأ الأرض من حولها . ولم يستطع الثور العجوز مقاومة الإطعام منها . تغذي بشهية ، ماكثًا بالغيضة لحوالي ثلاثة ساعات ، وهو يهز الأشجار أو ينطحها برأسه لإسقاط المزيد من الثمار. ثم توجه أخيرًا نحو الشرق وكأنه تذكر فجأة موعدًا هناك . قطب سين جبينه وقال لهم:

«إننا على الأقل قد كسبنا ثلاثة ساعات وراءه لكننا الآن على بعد عشرة أميال من حدود موزمبيق . فإذا ما عبرها الفيل فقد ضاع منا » .

وجد سين أنه لا مفر من الجري خلف الأثر . فأثناء حرب الأدغال ، في الأيام الخوالي ، كان هو وجوب وشادراشي لا يمشون قط عند مطاردتهم للثوار بل يهرولون . كان باستطاعتهم أن يقطعوا في اليوم الواحد سنين أو سبعين ميلا جريًا . ونظر بطرف عينه إلى كلوديا . ربما تفاجئهم بقوة تحملها ، فقد كانت تمشي كأبطال الرياضة . وبالرغم من القروح التي أصابتها ، فقد كانت تنقر الأرض بأقدامها وكأنها تثب وثبًا . ثم توجه بعينيه نحو ريكاردو مونتيرو فصرف فكرة الجري في الحال .

كان كابو يذبل تدريجيًا تحت وطأة حرارة الظهيرة بالوادي . ورغم أن ريكاردو كان دون الستين بسنة أو سنتين إلا أنه كان دائمًا ذو لياقة بدنية طيبة ، لكنه الآن أظهر ما يدل على تعبه الشديد . غارت عيناه وسط تجاويف بلون الخوخ الأرجواني الداكن ، وكانت هناك مسحة رمادية على جلده . ونكر سين في نفسه :

«الشحاذ العجوز يبدو مريضًا ولا أظن أنني سأدفعه للأمام بأشد من ذلك » .

لقد سرح بخياله بعيدًا . وعندما توقف متاتو فجأة أمام الأثر كاد أن يصطدم به وتساءل سين: «ما الأمر؟»

كان انزعاج الرجل الضئيل واضحًا وكان يهز رأسه ويغمغم بتلك اللهجة الخاصة بلأندوروبو التي لا يفهمها حتى سين .

«ماذا؟» انفجر سين عندما رأى الأثر الغريب هنا وتمتم بدون تفكير «يا للعنة!» .

كان هناك زوجان مختلفان لآثار أقدام بشرية جاءت من جانب الغيضة وتتبعت آثار أخفاف الفيل الآن . ولما كانت الأرض رملية خفيفة هنا منذ كان الأثر واضحًا مطبوعًا لرجلين يرتديان أحذية مطاطية النعل . عرف سين هذا الطراز المميز من الأحذية فقد كانت هي أحذية باتا المشهورة والتي تصنع محليًا وتباع ببضع دولارات في دكاكين الشوارع أو أي دكان عمومي .

حتى ريكاردو التقط تلك العلامات المطبوعة على الأرض وعرفها فتساءل :

«ما هذا بحق الجحيم ؟ » .

لكن سين تجاهله وانتحى جانبًا مع جوب ينظران لمتاتو وهو يعمل . أخذ متاتو يجرى هنا وهناك وهو يتفحص العلامات كدجاجة عجوز ثم عاد مرة أخرى لزملائه . جلسوا متربعين على الأرض . جوب على أحد جنبي سين ومتاتو على الآخر. مجلسهم للحرب ، والذي لم يكن غائبًا عنه سوى شادراشي . وأخذ متاتو يوضح :

«رجلان . أحدهما شاب طويل ونحيف ويمشي على أطراف أصابعه والثاني أكبر سنًا وأقصر طولاً وأكثر بدانة . كلاهما يحمل صرة على كتفه ومع كل منهما (باندوكي) .

عرف سين أنه استنتج كل هذا من طول الخطوات ومن الطريقة المختلفة التي يطأ كل منهما الأرض تحت ثقل صرته وحمله ، ومن عدم التوازن الناجم عن حمل البندقية الثقيلة بيد واحدة . وواصل متاتوة «إنهم أجانب غرباء عن هذا المكان . فسكان الوادي هنا لا يرتدون أي حذاء وهؤلاء الرجال قدموا من إتجاه الشمال » .

«إنهم لصوص صيد من زامبيا كانوا يتعقبون وحيد القرن لسلب قرونه الثمينة ، لكنهم عثروا على الفيل فانصرفوا إليه فهو أثمن من أن يتركوه وشأنه» .

«أوغاد» قالها سين بمرارة . ففي عام ١٩٧٠ كان يقدر أن هناك حوالي اثني عشر ألفا من وحيد القرن الأسود تبقت في زامبيا وراء نهر الزامبيزي . لكن حاليًا لم يعد هناك أي حيوان واحد منهم . إن بمقدور أحد نبلاء اليمن أن يدفع خمسين ألف دولار لخنجر قبضته من قرن الخرتيت . من هنا فقد نظم لصوص الصيد أنفسهم في جماعات شبه عسكرية . وعلى الجانب الآخر الجنوبي لوادي الزامبيزي كان قد تبقى بضع مئات من وحيد القرن ، لذا كان لصوص الصيد يعبرون النهر، من زامبيا ، أثناء الليل ، ثم يتسللون بعيدًا عن دوريات إدارة حرس الصيد نحو هدفهم كان معظم أولئك اللصوص من محاربي الأدغال ، أثناء حرب العصابات ، وكانوا رجالاً شداء وقتلة للرجال مثلما هم الآن قتلة للوحوش الضخمة من ضحاياهم . نظر جوب إلى سين وقال:

«لابد أنهم يحملون بنادق إي كي . وربما كان هناك أكثر من هذين الرجلين فلابد أن يكون لهما أجنحة تحميهم على الأجناب . إنهم أكثر عددًا منا وأقوى سلاحًا يا سين فماذا ترى ؟» .

فأجابه سين :

«هذه محميتي وتوكونيلا هو فيلي » .

«إذن عليك أن تقاتل من أجلهما معًا » . كانت ملامح جوب المتابيلية النبيلة تبدو وقورة وجليلة . لقد برقت عيونه وإتقدت ولم يكن بمقدوره أن يخفي عن سين شهوته وتلهفه للقتال .

ووقف سين وقال:

«عين الحقيقة يا جوب . إذا ما عثرنا عليهم فسنقاتلهم » .

«إذن علينا أن نسرع» . كان متاتو قد وقف بجانبه «إنهم على مسافة ساعتين منا ولابد لتوكونيللا أن يتوقف قريبًا ليأكل . وسيتمكنون منه قبل أن نصل إلى هناك » .

توجه سين بخطى واسعة نحو كلوديا وريكاردو والذان كانا يستريحان تحت ظل الأشجار وأخبرهم :

«لصوص صيد ! ربما كانوا مسلحين بأسلحة : أوتوماتيكية وهم على الأقل اثنان وربما أكثر. وكلهم قتلة لا يرحمون » .

حدقا في وجه سين في صمت ووجوم . ومضى سين في حديثه :

«علينا أن نتحرك بسرعة حتى لا يصلوا لتوكوتيلا قبلنا . وسأتركك أنت وكلوديا يا كابو مع بمبولا لتلحقوا بنا على مهل . أما أنا وجوب ومتاتو فسنقتضي الأثر جريًا لنحاول طردهم بعيدًا قبل أن يصلوا للفيل . دع معك الرجبي يا كابو أما جوب فسيحمل الوزوبي » .

وعندما استدار للذهاب أمسك ريكاردو بذراعه :

«سين ! إنني أريد هذا الفيل أكثر من أي شيء تبقى لي في حياتي . إنني أريد هذا الفيل».

أومأ سين برأسه فقد كان لديه نفس الشعور وفهم تمامًا كل شيء : «سأبذل جهدي للحصول عليه لك » .

«شكرًا لك» . تدلت يدا ريكاردو على جنبه ثم توجه سين إلى جنب كان جلدب ومتاتو في انتظاره. سلموا بمبولا أمتعتهم وحملوا معهم زجاجات الماء فقط . نظر سين إلى ساعته الرولكسي وعلم أنهم قد أضاعوا دقائق أربعة منذ أن التقطوا أثر اللصوص لأول مرة . وأصدر سين أمره : «مطاردة ساخنة ! وتوقعوا الكمائن » .

ابتسم جوب وقال له :

«كالأيام الخوالي ! إنها تجعلني أشعر بالفتوة والصبامرة أخرى » جذب متاتو أطراف مئزره بين ساقيه وحشا قميصه تحت الحزام ثم انعطف فجأة وذهب وراء الأثر جريًا كالخبب . لقد شاهده سين من قبل وهو يهرول بهذا

المستوى منذ شروق الشمس وحتى غروبها بدون توقف . توجه سين نحو الجناح الأيمن أما جوب ، والذي كان أعسرًا ، فاتخذ مكانه الطبيب على الميسرة . قام سين باستبدال رصاصاته ، كالعادة عندما الشرع في الطراد ، بالبندقية ٥٧٧ وأخذ في الجرى . وفي خلال ثوان اختفت مجموعة ريكاردو عن الأنظار وراء الغابة وركز سين كل انتباهه لما هو قادم.

في مثل هذه الأراضي الوعرة ، كان من الصعب عليهم الحفاظ على التشكيل متماسكًا . ويتطلب الأمر خبرات واسعة ومهارات خاصة . فقد كان على الأجنحة أن تكون على بعد قليل أمام قصاص الأثر ، ويعملون على تخمين الدرب الذي به الأثر ، ويمسحون السهل من حولهم بعيونهم خشية الكمائن ، وفي نفس الوقت يغطون ويحمون ظهر متاتو . مع حفاظهم على مسافة خمسين ياردة بينهم على كل جانبي . ثم يغطون أثر دربهم ويحافظون على اتصال كل منهم بالآخر ، كل هذا وهم يجرون وغالبًا ما لا يشاهدون بعضهم البعض في حين يقطع متاقد المسافات الواسعة وهو في الوسط من التشكيل ، وعندما يدور الأثر المقتفى ، فإن الرجل الذي بالجناح الخارجي يستدير للوسط . أما إذا عبر الأثر أرضًا مكشوفة فإن عليهم زيادة درجة الزاوية التي بالجناح مشكليه رأس حربة مقلوب ، ودائمًا يحمون الوسط ويتواصلون بإطلاق صيحات وصفافير كأصوات الطيور ، مثل نغمة يمام الغاب أو صفير البلبل أو تغريد طائر الصرد أو صيحة الحدأة . وكل له معنى متعارف عليه فإما أمر أو توصيه أو تحذير .

كل هذا بالإضافة لشيئين أساسين هما السرعة والصمت . كان سين وجوب يجريان كزوج من ثيران الكودو بخفة وبدون صوت ينحنون أو يقفزون تحت وفوق أفرع الأجمات والأشجار الشوكية بسرعة ويقظة دمين .

وبعد الساعة الأولى رفع متاتو يده بإشارة خاصة من خلال فجوة بالغابة وفهم سين الإشارة فورًا وكانت تعني : اثنان آخران .

فقد انضم إلى نصوص الصيد اثنان آخران وكانوا يقتربون بسرعة من الفيل.

جروا لساعة أخرى بدون أي إبطاء ثم أشار متاتو مرة أخرى بمباطن يده إشارة فصيحة تعني : إنهم قريبون جدًا . احترسوا .

صفر سين محاكيًا القطاة ، بعد أن هدأ الجرى قليلاً ، بإشارة تعني الاحتكاك الوشيك بالعدو، فخففوا من سرعتهم .

كان الأثر قد قادهم إلى جنب أرض مرتفعة كالطاولة وعبر درب قديم للأفيال مهدته أخفافها على الأرض المطروقة الصلبة . وعندما وصلوا للسطح المستوى من السهل أحسوا برعشة نسائم المساء الباردة القادمة من الشرق وقابل

سين النسمات بوجهه .

كان السهل المرتفع أقل من الميل عرضًا . فقاموا بعبوره بسرعة حتى وصلوا لحافته الأخرى وهم منبطحون على بطونهم ومنزلقون على خط الأفق حتى لا يبدو منهم أي سلويت لظلالهم الموازية للسماء الزرقاء ثم تسللوا نحو الحافة بحذر حتى ظهر أمامهم واد غير عميق ومن خلفه أرض مسطحة مرتفعة أيضًا ومحاطة بأشجار الغابة . كان أمامهم مجرى لنهر متعرج يشق بطن الوادي وكان مجراه محاطًا بشريط أزرق مخضر : للشجيرات النهرية أما بقية الوادي فكان مفتوحًا نسبيًا وعليه لمعت الأعشاب النامية تحت ضوء الشمس وتناثرت به بيوت النمل الأبيض وتلاله العالية بحجم كوخ ، بينما تبعثرت على الوادي شجيرات السلم والكثر ذات القمم المسطحة والجذوع الليمونية المصفرة . مسح سين بعينيه كل ما رآه وبسرعة . ومن على يساره أطلق جوب صيحة يقلد بها صهيل وعلى البوص، وهي من أكثر إشاراتهم أهمية وإنذارًا بالخطر . وكان يشير بيده إلى أسفل الوادي من على يسارهم . تابع سين الإشارة لكنه لم ير شيئًا في البداية ثم فجأة رأى توكوتيلا ، الفيل الغاضب ، أمام عينيه .

كان توكوتيلا مخفيًا عن عين سين بأحد تلال النمل الأبيض الضخمة لكنه تحرك الآن صوب المرعى المكشوف . وشهق سين عند مرآه بصوت عالي . فحتى على بعد ميل منهم ، أدرك سين أنه لم يعرف من قبل حقًا كم هو رائع ومهيب وجليل ... توكوتيلا .

لون توكوتيلا كان رماديًا داكنًا مثل لون الصخور البركانية . وحتى من على هذا البعد كان بمستطاع سين أن يرى طيات جلده العجوز ، وتنياته وفقرات ظهره البارزة من تحت الجلد. كانت أذنيه تتحركان كالمروحة عند كل خطوة يخطوها وكانتا ممزقتين متآكلتين من أطرافهما وكأنهما زوج من الرايات الحربية ، مزقهما رصاص المعارك ، وسودهما دخان المدافع .

كانت أنياب توكونيلا سوداء أيضًا . فقد غير لونهما تقدم السن وعصير الأشجار الطويلة التي كان يحطمها بنابيه . فمن بين شفته السفلى المفتوحة كان النابان يبرزان للأمام ثم ينثنيان مرة أخرى نحو بعضهما البعض ليصل طول الناب من طرفه وحتى الشفة لما يزيد على تسعة أقدام . ولم يكن طرفا الأنياب مستدقان ، بل كانا كعمود صلب من العاج ويتدليان نحو الأرض ، حتى أن حشائش الشتاء كانت تتجاوز في ارتفاعها منتصف الناب ، وبدا وكأن هذان النابان قد أنهكاه وثقل حملهما حتى على هذا الجسد العظيم . وربما لن يوجد بعد الآن زوج آخر من العاج مثل هذا أبدًا . لقد كان هذا الفيل أسطورة وتاريخ .

وأحس سين بلهيب الذنب في نفسه فمهما كانت قانونية صيده فإن قتل هذا

الحيوان سيكون جريمة ضد إفريقيا واعتداء على آلهة القفار وعلى أعماق روح الإنسان نفسه . لكنه أيضًا كان يعرف أنه لن يتردد في ارتكاب ذلك . وأضافت هذه المعرفة حدة وحرارة لشعوره بالذنب . فهو كصياد ، كان يدرك أنه كلما كانت الطريدة نادرة وثمينة كلما ازدادت رغبته للحصول عليها كتحفة وتذكار.

صفر جوب مرة أخرى وهو يشير بيده ، صارفًا إنتباه سين عن الفيل ، فرأى على الفور لصوص الصيد الآن ولأول مرة .

كانوا يقتربون الآن من الفيل وستطاع أن يرى أربعتهم . فقد تركوا الآن منطقة الأشجار في بطن المنحدر وتحركوا الآن في تشكيل الطابور نحو المرج المعشوشب . كانت الأعشاب تغطيهم حتى آباطهم وكانت رؤوسهم وأكتافهم تظهر وتختفي من بينها وكأنهم قطعة فلين في سنارة وسط بحر من الأعشاب . وكان كل منهم يحمل بندقية (إي كي ٤٧) هجومية معلقة على كتفه .

الرصاصات الخفيفة السريعة لهذه البنادق لا تكون صالحة لصيد حيوان ضخم الجسم كالفيل. لكن سين عرف خطتهم ، وبأنهم سيقومون بالاقتراب من الفيل ، ثم يطلق أربعتهم النار معًا ، مفجرين مئات الطلقات على الفيل ، ممزقين رئتيه بالرصاصات المغلفة بظروف النحاس، فينهار على الأرض تحت ثقل نيران الأسلحة : الأوتوماتيكية .

بدأ طابور اللصوص في الالتفاف حول الفيل . لم يواجهوه مباشرة بل حرصوا على أن يكونوا تحت اتجاه الريح حتى لا تؤدي أي نسمة 'حمل أثر رائحتهم للفيل. ورغم هذا الالتفاف فقد كانوا يجرون ويقتربون منه بسرعة شديدة . كان الفيل لا يزال يجهل وجودهم ويمشي بخطوات واسعة باتجاه النهر . وعلم سين بأن الفيل ، إن مشي بهذه السرعة ، فإنهم سيصلون إليه حتمًا ويطلقون عليه النار قبل وصوله هو إليه .

قرارات الحكومة ، والتي أصدرتها إدارة الصيد في المرشد ، ووزعتها على أصحاب امتياز المحميات ، كانت واضحة لا لبس فيها . فأي رجال من غير أصحاب الرخص ، إذا تم اعتراضهم داخل المحميات وهم في تشكيل واضح للهجوم على الوحوش ، فإنهم يعتبرون من لصوص الصيد. ففي خلال السنوات الأربعة الماضية قتل أربعة من حرس الصيد، وأحد أصحاب الامتياز، بواسطة اللصوص لذا فقد جاء في صلب المرشد أن النار يمكن أن تطلق على المعتدين وبدون إنذار . حتى رئيس الوزراء ، روبرت موجابي ، أوضح تلك الأمر أكثر ، وكانت أوامره بالضبط : «أطلق النار لتقتل » .

البندقية ٥٧٧ نيترو إكسبرس تعتبر سلاحًا مدمرًا هائلاً إذا ما أطلقت عن

قرب . ولكن من مسافة تزيد على المائة ياردة فإن طلقتها الثقيلة تسقط على الأرض قبل بلوغها الهدف . وكانت مجموعة لصوص الصيد على بعد ستمائة ياردة منه عبر الوادي . قفز سين واقفاً ثم أحنى ظهره وتسلل عبر صفحة المنحدر إلى حيث كان جوب راقداً بجوار جذع شجرة قد سقطت . رقد سين بجواره وأمره :

«أعطني الوزربي» .

وأخذ البندقية الخفيفة من يده ، كان جوب قناصًا ممتازًا لكن هذا الموقف تطلب مهارة بمعايير بسلي للرماية .

جذب سين رتاج البندقية وفتحه وتأكد من وجود رصاصة في خزانتها . كانت من عيار ١٨٠ فوزلر وأخذ سين يحسب كم ستنحرف الرصاصة عن هدفها إذا كان على بعد ٦٠٠ ياردة ، مع التصويب نحو أسفل التلة ومع وجود رياح خفيفة على جانبه الأيسر . تذكر ما درسه في جدول القذائف من أن انحراف الرصاصة المرمية على بعد ثلثمائة وخمسين ياردة سيكون ستة بوصات، وبالتالي خمن أن الانحراف سيكون حوالي أربعة أقدام أو أكثر على بعد ستمائة ياردة .

وبينما كان مخه يعمل ويحسب خلع قميصه وكوره على شكل حزمة ووضعه على جذع الشجرة الملقي على الأرض حيث كان يرقد هو وجوب وأخبره:

«احم ظهري بالباندوكي الكبيرة وأطلق النار عاليًا بها» .

رقد سين من خلف جذع الشجرة ، وأراح طرف ماسورة الوزربي على قميصه الوسادة ، وأخذ يضبط في عدسة منظار البندقية الموجهة على الهدف ثم نظر خلالها .

التقط رؤوس طابور لصوص الصيد وأمكنه ـ تحت المنظار المكبر ـ التعرف على اثنين منهم ، تمامًا كما وصفهم متاتو عند تفحصه لأثر أقدامهم . كان الرجل الطويل النحيل يقودهم ، وكان مرتديًا سترة من قماش قطن غليظ أزرق اللون ، وهو الزي التقليدي لرجال العصابات أيام حرب الأدغال . ومن خلفه جاء الرجل الأقصر الممتلئ وكان يرتدي قميصًا عاديًا من الكاكي وغطاء رأس بخطوط جلد النمر .

من خلفهم ، كان بمقدور سين أن يرى الفيل . وقد عملت قوة تكبير المنظار على تقصير المسافة التي تفصلهم حتى بدا اللصوص وكأنهم على وشك الإطباق عليه . وهو يراقبهم ، شاهد قائد الطابور وهو يدلي البندقية الأوتوماتيكية من على كتفه ويؤشر بيده الأخرى . ومن خلفه أخذ اللصوص الثلاثة في الانتشار في خط المواجهة وأنزلوا البنادق من أكتافهم وأمسكوا بها

مائلة على أكتافهم اليسرى .

غرز سين رجليه على الأرض وهو منحن على البندقية وأخذ يتنفس بعمق بينما يرقد إصبعه السبابة برفق على الزناد . التقط قائدهم الطويل ذي السترة القطنية وضبط الشعرات المتصالبة بالمنظار لتلتقي فوق رأس الرجل .

اضطربت الصورة وارتعشت بفعل الحرارة ورصد سين خطوط السراب التي تشبه الماء الجاري ، وهي مؤشر لقوة واتجاه الهواء ، فعندما تميل الخطوط فهذا يعني أن الهواء يأتي في دفقات متتالية . لكنها كانت تتجه للأعلى وكأنها الدخان أثناء الهدوء الذي يتخلل دفقات الهواء .

سحب سين نفسًا طويلاً ثم أخرج نصف الهواء وأبقى النصف الآخر في رئتيه. توقف السراب في فترة هدوء الرياح وصوب سلاحه على ارتفاع بطول رجل فوق رأس اللص . ورغم أن الصورة بدت طيبة إلا أنه لم يطلق النار بل ضغط على مقبض البندقية بكامل يده . ارتطم كعب البندقية بكتفه عندما انطلقت قذيفة الوزربي عالية في الهواء واختفى الهدف من أمامه .

وقبل أن يستجمع نفسه صاح جوب : «شايلي ! ضربة مباشرة ! » . وعندما نظر سين مرة أخرى لم يكن هناك سوى ثلاثة رؤوس بترز من فوق الحشائش .

استدار اللصوص الثلاثة وبدأوا في إطلاق نيرانهم باتجاه المنحدر ، حيث اختبأ سين وجوب ، بكامل الرش الأوتوماتيكي وبانفعال وحشي . وكانت زخات سلاحهم تدمدم كضربات الطبول الهادرة . ومن ورائهم رأى سين الفيل وقد أطلق ساقيه للريح مرخيًا أذنيه للوراء ورافعًا أنيابه عاليًا فوق الحشائش وارتطم بالشريط الضيق من الشجيرات حتى اختفى في الجانب الآخر . وزفر سين:

«اهرب يا عزيزي . فإذا لم أصل إليك فلن يصل إليك شخص آخر أبدًا» . ثم تحول بكامل انتباهه نحو عصبة اللصوص . كانوا مجموعة متميزة ومدربة وكان هذا واضحًا من سلوك الثلاثة . فبينما قام اثنان منهما في الحال بتغطية زميلهم الثالث بإطلاق نار مكثفة على السهل المرتفع، جرى الثالث نحو قائدهم الذي سقط على الأعشاب وجره على قدميه . كان القائد قد ألقى سلاحه وكان ممسكًا بجنبه وهو منحني على نفسه . وتمتم سين : «لقد شققت بطنه!» ثم أطلق النار مرة أخرى . رأى الغبار يطير من فوق الأعشاب عندما سقطت الرصاصة بالقرب منهم . وبدأ اللصوص في الانسحاب وهم يجرجرون قائدهم معهم متوارين عن السهل المرتفع ، وراء أحد تلال النمل الأبيض ، وواصل سين وجوب إطلاق النار بانتظام ، رغم أن المدى كان يزداد بعدًا عنهم كل ثانية . كان الغبار يطير من حول اللصوص وهم هاربون لكن سيد لم يستطع أن

يؤكد أنه أصاب منهم أحدًا آخر قبل أن يختفوا بين الأعشاب والشجيرات . وما لبث ضجيج الأسلحة والأوتوماتيكية أن تلاشى ثم صمت .

انتظر سين وجوب ربع ساعة وهما يحدقان بأنظارهم صوب الوادي لكنهما لم يريا أحدًا ثانية ثم وفق سين وقال :

«سنذهب لنلقى نظرة» .

حذره جدب :

«احترس . فربما يكونون قد استداروا لنصب كمين لنا » . كانت هذه إحدى خدع حرب العصابات السابقة التي كانوا يقومون بها . وانحدروا من السهل المرتفع بحذر .

توجه بهم متاتو إلى حيث سقط قائد اللصوص . كانت أرضًا منبسطة نمت عليها الأعشاب وكان سلاح الرجل قد اختفى وربما أخذه معه لص آخر . تناول متاتو ورقة عشب وناولها لسين . كان الدم جافًا عليها . لم يكن الرجل قد نزف كثيرًا ولم يعثروا إلا على أقل من دزينة من نقط الدم على الأعشاب أو على الأرض الجافة .

غمغم سين : «جرح سطحي» . فلابد أن الرياح قد دفعت بالرصاصة بعيدًا عن المناطق الحساسة من جسم الرجل . أراد جوب أن يعرف فتساءل :

«من تتبع الآن ؟ توكوتيلا أم اللصوص ؟ » .

ابتسم سين وأجابه :

«سيكون اللصوص الآن في منتصف الطريق نحو لوساكا . فلنقتفي أثر الفيل» .

قادهم متاتو متتبعًا الأثر على مجرى النهر وحتى الجانب الآخر للوادي . فبعد خوفه وهروبه المفاجئ هدأ الفيل العجوز من جريه وحافظ على المشي بخطاه الواسعة السريعة التي تقطع الأرض قطعًا وبمعدلات كبيرة ، وهي المشية التي يمكنه مواصلتها ولأيام عديدة . كان متجهًا مباشرة نحو الشرق باتجاه حدود موزمبيق ولا ينحرف عن مساره إلا قليلاً ليدخل من فجوة خلال التلال أو ليتسلقها في الأماكن السهلة عندما لا يكون هناك ممر بينها .

وواصلوا الجري بقوة على درب الفيل بدون أن يتخذوا أي إجراء من الكمائن . ورغم جهدهم الخارق إلا أن الفيل كان يبتعد عنهم أكثر فأكثر وكان النهار على وشك الزوال والشمس تلقى بظلالهم الطويلة أمامهم .

لم تكن حدود موزمبيق محددة بدقة فلم توجد أي أسوار أو علامات أو خطوط توضحها وسط الغابة لكن حاسة سين السادسة حذرته بأنهم قد عبروها

بالفعل .

وكان على وشك إصدار أوامره بالتوقف عندما صفر جوب إليه بهدوء ورفع يده بإشارة الوقوف . وقف متاتو وهز رأسه موافقًا وتجمع ثلاثتهم ووقفوا يتطلعون نحو الأثر الواهن أمامهم الذي يؤدي إلى الغابة المظلمة بالجانب الشرقي. وقال جوب :

«موزمبيق . لقد ذهب إليها» . ولم ينكر ذلك الآخرون .

بصق متاتو على أثر الدرب وقال :

«إنه لا يزال يجد في السير . أسرع مما يمكن لأي رجل اللحاق به ، لن نرى توكوتيلا ثانية هذا العام».

فأجابه سين :

«نعم . لكن هناك موسم آخر . في العام القادم سينثني عائدًا للحديقة القومية ثم يعود مع القمر التالي ليعبر نهر شويوي وسنكون في انتظاره » .

أجابه متاتو وهو يأخذ جرعة من السعوط من قرن الظبي الذي يعلقه حول رقبته :

«ربما . وربما سيجده اللصوص مرة أخرى . أو ربما يسير فوق حقل للألغام من بقايا معارك موزمبيق . أو ربما يموت بفعل السن والشيخوخة » .

انقبض صدر سين حزنًا لهذه الأفكار القاتمة . فقد كان توكوتيلا جزءًا من إفريقيا القديمة . ورغم أن سين ولد متأخرًا جدًا ليعيش تجارب ذلك الزمن الغابر إلا أنه عاش ليرى ما تبقى منه. كان لديه توقير عميق وحنين غامر لتاريخ وماضي هذه القارة . لكن كان كل شيء يتلاشى ، وبسرعة كبيرة ، تحت أقدام ذوي الجشع والشره للقوة والتمكن ، وتحت أقدام حشود الدول الناشئة عديمة التفكير ، والصراعات القبلية التي خرجت عن السيطرة ، ولشريعة الغاب التي تسود هذا العصر الجديد . مرة أخرى تنحدر إفريقيا لتصبح القارة السوداء ولكن ، في هذه المرة ، بدون عظمة مواردها وكنوزها الطبيعية . فقد هلك القسم الأعظم من وحوشها البرية وأزيلت غاباتها من أجل الوقود ، وحتى أراضيها أتلفت بالزراعة التشوائية البدائية ، وبتغول الحيوانات الأليفة عليها ، إضافة للزحف الصحراوي المتجه جنوبًا والذي يزداد تغوله عليها كل عام . لقد كان توكوتيلا البقية الباقية النادرة من كنوز إفريقيا .

إستدار سين عائدًا . لقد أراد ذلك الفيل بكل ما في كيانه من قوة وتصميم. لكنه عاد الآن واستدار نحو الغرب وقد أثقلت خيبة الأمل رجليه وفؤاده ومضى يجرجر أقدامه جرًا نحو بقية الجماعة .

وصلوا إليهم قبل قليل من منتصف الليل . كان ريكاردو وكلوديا نائمين على فراش من الأعشاب المقطوعة تحت سقف مؤقت وبجانبهم كانت النار قد تحولت إلى فحم مشتعل . أما بميولا فكان جالسًا بجوارهم لحراستهم على مقربة من نار متقدة .

وعندما لمس سين كتف ريكاردو استيقظ فورًا واندفع واقفًا وهو يتساءل بلهفة :

«هل وجدتموه ؟ ماذا حدث ؟ ماذا بشأن اللصوص ؟ » .

فأجابه سين قائلاً :

«لقد توجه يا كابو عبر الحدود ، ولقد طردنا لصوص الصيد ، لكن توكونيلا هرب بعيدًا» .

جلس ريكاردو منهارًا على الفراش العشبي وأصغى إلى سين في صمت وهو يصف له مطاردتهم لأولئك اللصوص وفرارهم .

جلست كلوديا بجوار والدها . وعندما وصف سين لهم كيف عبر توكوتيلا الحدود الساموزمبيق وضعت ذراعها حول كتفه مواسيه ومشجعة له . ثم نهض سين واقفًا وقال لهم :

«حسنًا على كل حال . هناك طريق كنت أستخدمه أثناء الطراد وبعد خمسة أميال جنوبًا من هنا. سأذهب مع متاتو لإحضار العربة حتى هذا الطريق بينما يقودكم جوب إليه . سنلتقي هناك ولكن ربما بعد أربعة أو خمسة ساعات.

وعلى ضوء النجوم فقط قاد متاتو سين لمدة أربعة ساعات خلال الغابة والشجيرات المتشابكة الكثيفة وأوصله أخيرًا وبدون خطأ إلى حيث تقف العربة.

قادوا العربة ساعة أخرى حتى وصلوا للمكان المتفق عليه ووجدوا ريكاردو وكلوديا والآخرين جالسين بجوار نار بجانبي الطريق الوعر . صعدوا مرهقين إلى العربة واستدار بها سين وتوجهوا نحو المعسكر حيث وصلوا في الرابعة صباحًا ، وبعد أربعة وعشرين ساعة منذ إنطلاقهم أمس ممتلئين بالآمال العريضة لصيد النيل .

كانوا قد قادوا السيارة في صمت بينما نامت كلوديا على كتف أبيها ثم تساءل ريكاردو بعد إمعان الفكر :

«هل تعلم إلى أين توجه توكوتيلا ؟ » فأجابه سين متجهمًا :

«توجه إلى حيث لا نستطيع اللحاق به يا كابو » .

نفذ صبر ريكاردو وقال :

«إنني جاء في سؤالي . هل هناك أي مكان يتردد عليه الفيل بانتظام أو ربما توجه إليه ؟».

غمغم سين :

«إنها أرض وعرة هناك . تعج بالفوضى والخراب . فالقرى مهجورة محروقة وهناك جيشان يقاتلان أحدهما الآخر مع اشتراك بعض جماعة موجابي في الحرب » .

ألح ريكاردو في سؤاله :

«أين ذهب ذلك الفيل ؟ لابد أن يكون له خط إتجاه معلم» .

أحنى سني رأسه موافقًا:

«لقد درسنا هذا الأمر معًا . أنا وجوب ومتاتو . ونحن نعرف أنه يقضي الفترة من يوليه إلى سبتمبر في المستنقعات من خلف سد كابورا باسا . ثم يعبر نهر الزامبيزي في أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ويتجه شمالاً نحو ملاوي وإلى غاباتها المطيرة الغزيرة حول ملانجي ، ويظل مختبئًا هناك حتى توقف الأمطار ليعود ثانية نحو الجنوب ليعبر الزامبيزي بالقرب من تيت ثم ليدخل لحظيرة شيويوي القومية مرة أخرى » .

سأله ريكاردو :

«أي إنه الآن متجه نحو المستنقعات ؟ » . فأجابه سين موافقًا :

«أكثر من محتمل . وسنجد فيه فرصة أخرى الموسم القادم يا كابو » .



وصلوا عند الفجر للمعسكر وهناك كان بانتظارهم الحمام الساخن والملابس المغسولة والمكوية وإفطار هائل على موائد الطعام بالخيمة . وغرف سين كميات كبيرة من شرائح اللحم الممتازة والبيض المقلي في أطباقهم وقال:

«عندما تنتهي من تناول الإفطار سنعوض بعض ما فاتنا من نوم وحتى موعد الغداء » . ووافقت كلوديا في الحال قائلة :

«يناسبني هذا تمامًا» .

«ثم سنعقد مؤتمرًا للنقاش . علينا أن نضع الخطط لباقي فترة السفاري فلا زال أمامني حوالي ثلاثة أسابيع . يمكننا أن نبحث عن فيل آخر لكني لا أستطيع تقديم فيل كتوكوتيلا لك . ولكن ربما قد نتمكن من العثور على فيل بأنياب تزن حوالي ستين رطلاً لك يا كابو» .

«لا أريد فيل الستين رطلاً . أريد توكوتيلا» .

كان توتر سين ظاهرًا على وجهه :

«ألا نريد ذلك كلنا ؟ لكن دعنا من ذلك الآن فلا نستطيع الآن عمل أي شيء . دعنا من هذا الموضوع الآن » .

«ماذا لو عبرنا الحدود وطاردناه في المستنقعات ؟ » لك يرفع ريكاردو عينيه عن البيض واللحم أمامه وتمعن سين في وجهه قبل أن يضحك بدون أي مرح :

«لوهلة أقلقتني تمامًا . فقد كنت أظنك جادًا . سنصل إلى توكوتيلا الموسم القادم » .

أخبره ريكاردو بأسى :

«لن يكون هناك موسمًا قادمًا . فأنت تدرك تمامًا أن جيوفري ما نجوزا سينتزع منك المحمية ويلغي رخصتك » .

«شكرًا يا كابو . إنك حقًا تعرف كيف تجعلني سعيدًا ! » .

« لا داعي لأن نخدع أنفسنا فهذه هي فرصتنا الأخيرة في هذا الفيل » .

هز سين رأسه :

«توضيح ! انتهى هذا الموسم . أتيحت لنا فرصة وأضعناها » .

ألح ريكاردو :

«إلا إذا تبعناه حتى موزمبيق . نتابعه داخل المستنقعات » .

حدق سين فيه باستغراب :

«يا إلهي . إنك جاد في هذا الأمر» .

- أخبرتك أنني لا أريد شيئًا في حياتي أكثر من هذا الفيل .

- إذن فانك تتوقع مني ومن جوب ومتاتو أن ننتحر من أجل إحدى نزواتك ؟

- لا ! لا أتوقع ذلك من أجل نزوة . فلنقل من أجل نصف مليون دولار !

هز سين رأسه لكن الكلمات لم تخرج من فمه . ومضى ريكاردو : «إنني أشعر بالمسئولية لفقدانك رخصتك . لذا فبنصف مليون دولار يمكنك أن تشتري امتيازا لمحمية جيدة في زامبيا أو بوتسوانا أو تشتري خمسين ألف فدان من أراضي الصيد في جنوب إفريقيا . نصف مليون ! فكر في ذلك » .

قفز سين من على مائدة الإفطار بعنف حتى أن الطبق طار وسقط على الأرض ثم خرج بعجلة وبدون أن ينظر وراءه .

وقف وحيدًا بطرف المعسكر يحدق أمامه نحو صفحة النهر حيث كان قطيع صغير من غزال الإمبالا يرتوي من الماء ، وصقر السمك الأبيض الرأس

يجلس على فرع شجرة ميتة فوق المياه الخضراء . ولم ير سين أيًا منهم .

أخذ يتفكر في ما سيؤوله إليه الحال في العام القادم وهو بدون امتياز محميته . لقد كان مدينًا لأخيه جاري بحوالي خمسين ألف دولار ، وحسابه في البنك بهراري مدين بأكثر من عشرة ألف دولار . لقد أخبرته ربما بأن مدير البنك كان يسعى بشدة لمقابلته والتحدث معه عن الأمر لكن سين تجنب الموعد المحدد للمقابلة أثناء زيارته الأخيرة لهراري .

لقد تجاوز عمره الأربعين عامًا ولم يجمع حتى الآن شيئًا . ربما يسعد والده أن يعود سين للعمل بشركة الأسرة ، لكن أخوه جاري يحتمل مقعد رئيس مجلس الإدارة وسيكون أقل حماسًا عن والده فكر في المكاتب المكيفة الهواء وربطات العنق وبذلات رجال الأعمال السوداء اللون والاجتماعات المطولة التي تدعو للسأم مع المحامين والمهندسين وتذكر ساعات الذروة واختناقات المرور في الشوارع ورائحة المدينة .

فكر في الفلسفة التي يؤمن بها والده ، والتي يتبناها أخوه جاري بقوة ، من أن على الإنسان أن يبدأ من القاعدة في أعمال الشركة ويشق طريقه إلى الأعلى. كان جاري يعمل لمدة عشرين سنة بالشركة ويحب عمله بينما يكره سين هذا العمل .

فكر في نصف المليون من الدولارات . فبمثل هذا المبلغ في جيبه الخلفي يمكنه أن يشمخ بأنفه أمام مدير البنك ، وجيوفري ما نجوزا ، وجاري كورتني، وأمام العالم كله ، ويخبرهم بأن يشربوا من المحيط .

عاد من النهر وتوجه عبد الممر إلى خيمة جوب . كان جوب يتناول طعامه وحيدًا بينما تقوم زوجته الصغرى بخدمته . أمرها بهدوء بالانصراف بعد أن رأى سين قادمًا ثم تناول وعاء القهوة من الفحم المشتعل وصب فنجالاً لسين بعد أن أضاف إليه بعض الحليب المكثف من علبة بجواره.

وعلى أحد الكراسي المحلية جلس سين وتناول فنجال القهوة منه وتحدث إليه باللغة السنديبلية :

«ما تقول عن رجل ذهب وراء فيل عظيم مثل توكونيلا ، وحتى مكامنه السرية بمستنقعات الزامبيزي ؟ » .

نفخ جوب على القهوة لتبرد وقال له :

«رجل في مثل هذا الخبال جدير بألا نفكر فيه » . جلسا صامتين لوقت طويل بدون أن يتكلما.

أحس متاتو ، الذي كان نائمًا في كوخه القريب ، بوجود سيده وخرج إليهما وهو يطرف بعينيه ويتثاءب في باكورة الصباح وتربع تحت أقدام سين .

أراح سين يده على كتف الرجل الضئيل لبرهة من الزمن وشعر به ليتمعج سرورًا عندما لمسه . لا يحتاج سين أبدًا لسؤال متاتو فهو يعرف أنه سيذهب معه حيثما يتوجه ، بدون أي سؤال ، وبدون لحظة من التردد . لذلك تحدث سين مباشرة مع وجوب :

«جوب . يا صديقي القديم ولسنوات طويلة . إنني سأخبرك بأمر هام لتفكر فيه . إن مونتيرو يريد المضي وراء الفيل ، وقد عرض على نصف مليون دولار . ماذا تقول عن نصف مليون دولار؟».

تنهد جوب وقال :

«لا أحتاج لوقت طويل للتفكير في هذا الأمر . متى نغادر؟ » .

ضغط سين على ذراع جوب بقوة ونهض واقفًا .

كان ريكاردو جالسًا على مائدة الإفطار وبيده كوب من القهوة وسيجارًا . وكانت كلوديا بجانبه وكانا يتجادلان في الأمر . كان وجه الفتاة محتقنًا ، وعيونها تقدح بالشرر ، لكنها ركنت للصمت عندما دخل سين الخيمة وقال موجهًا حديثه لريكاردو :

«كابو ، يبدو أنه ليس لديك فكرة عما سيكون عليه الحال عبر الحدود هناك . فهي فيتنام تولد من جديد . ولكن هذه المرة بدون مساندة جيش الولايات المتحدة . هل تفهم ذلك ؟ » .

أوما كابو برأسه وقال :

«أريد الذهاب لهناك » .

- حسنًا . هذه هي شروطي . ستوقع إقرارًا بأنني غير مسؤول عن أي شيء يحدث لك .

- موافق .

- ثم إنني أريد وثيقة مكتوبة وموقعة تعترف فيها بالدين الذي عليك كاملاً ، وبضمانة أملاكك ، في حالة موتك .

- أعطني الوثيقة .

- إنك مجنون يا كابو . هل تعلم هذا ؟

- بالتأكيد .

وابتسم ريكاردو وأضاف :

«لكن ماذا عن جنونك أنت ؟» .

- أوه . لقد ولدت مجنونًا !

ضحك سين معه وتصافحا ثم قال في صوت رصين :

« سأقوم بطيران استكشافي بطول الحدود لأطمئن لعدم وجود أي مفاجآت في انتظارنا ، فإذا كان كل شيء على ما يرام فسنعبر الحدود هذه الليلة. سيعني هذا مسيرة شاقة وسفرًا خفيفًا سريعًا إذا أنني أريد أن أدخل وأخرج في أقل من عشرة أيام » .

وافق ريكاردو بإيماءة من رأسه وقال له سين :

«خذ بعض الراحة الآن فإنك ستحتاجها حقًا » .

كان على وشك الخروج عندما رأى الاهتياج في عيني كلوديا فقال لها :

« سأتصل بريما لترسل لنا طائرة مستأجرة لتأخذك غدًا إلى هراري ولإرسالك على أول طائرة تجارية عائدة إلى أنكوردج » .

بدا على كلوديا أنها سترد عليه عندما وضع ريكاردو يده على كتفها وقال : «أوي . ستسافر وسأعمل على ذلك في التو » .

ورد سين :

« تمامًا تمامًا . ستذهب . فهي لن تأتي معنا قطعًا لموزمبيق » .



غطى سين علامات نداء الطائرة البيتش كرافت ، المكتوبة على أجنحتها وعلى جسمها ، بالأشرطة اللاصقة ليخفي علاماتها عن الأعين المتفحصة لأي مراقبيه على الأرض . وتأكد من أن الأشرطة ملتصقة تمامًا وبقوة على معدن الطائرة حتى لا يقوم الهواء المزاح عند الطيران بانتزاعها ، وبينما كان يواصل عمله أخذ جوب في مراجعة المؤن اللازمة في حالة الطوارئ ، إذا ما اضطروا إلى الهبوط ، وشحنها بالطائرة . وبدلاً عن البندقية الثقيلة ذات الماسورتين ، رفع مكانها بندقية سين الخفيفة ٦/٣٠ ذات الدبشك الخفيف المصنوع من الزجاج الليفي . أقلع سين بالطائرة واتجه بها نحو الشرق على ارتفاع لا يزيد على خمسين مترًا فوق الأشجار . كان يضع الخارطة على حجره ويراجع عليها المعالم الأرضية التي يمر فوقها ، وجلس جوب بجواره على المقعد الأيمن لمساعد الطيار بينما جلس متاتو على مقعد وراء جوب . ورغم كل السنوات التي عملوا فيها معًا إلا أن متاتو كان يرتعد فرقًا من الطيران ، ولا يزال يعاني من وقت لآخر من دوار الجو، لذا رفض سين أن يجلس متاتو على المقعد وراءه وقال : «الفتى الضئيل الأحمق سيتقيأ مرة أخرى على عنقي» . لذا كان على جوب القبول بالتضحية !

وصلوا للحدود ثم استداروا للشمال للبحث عن أي تحركات عسكرية أو

أي دليل لوجود آدمي . ولم يجدوا شيئًا ، حتى رأوا بعد نصف ساعة بريق الماء على الأفق لبحيرة داخلية واسعة وراء خزان صناعي على نهر الزامبيزي وغمغم سين :

«خزان كابورا باسا» .

لقد بنى البرتغاليون هذا المشروع العملاق للتوليد الكهربائي المائي ، والذي يعتبر من أكبرها وأغلاها في إفريقيا ، قبل أن يغادروا المستعمرة ويتركوا حكمها لأبنائها .

وبالرغم من أنه كان بإمكان جنوب إفريقيا أن تشتري كل الطاقة التي يوفرها هذا المشروع ، وتنقلها جنوبًا عبر الشبكات إلى مناجمها العظيمة في بلابورا بالترانسفال ، ليعود المال منها لانتشال اقتصاد موزمبيق من محنته اليائسة ، إلا أن كابورا باسا لم يعد يبيع أي كيلوات من الكهرباء . لقد دمرت خطوط النقل الجنوبية وخربت بواسطة قوات الثوار ، أما قوات الحكومة الموزمبيقية فكانت منهارة معنويًا ، وما كان باستطاعتها سوى تقديم النذر اليسير من الحماية لفرق صيانة الشبكة والخطوط الناقلة من الهجوم . هذا هو السبب في أن سنوات عديدة قد مضت منذ آخر محاولة جادة لإصلاح الخط .

ضحك سين ضحكة خافتة وهو يدير جناح الطائرة ١٨٠ درجة ويتجه راجعًا نجو الجنوب:

« ربما تكون التوربينات الآن مجرد كومة من الصدأ ، مسجلة بذلك انتصارًا كاسحًا للماركسية الإفريقية » .

طار سين متعمقًا في قلبي موزمبيق في خطوط متعرجة ليغطي أكبر منطقة ممكنة ويفتش في نفس الوقت على أي قرى مأهولة أو وحدات عسكرية متحركة .

لم يجدوا سوى النماذج المتكررة للأراضي الزراعية المهجورة ، والتي تحولت الآن إلى أراضي للأعشاب والشجيرات ، والقرى المهجورة التي أحرقت . وبدون أي شيء يدل على وجود أي إنسان في هياكل ملك الأكواخ العديمة السقوف .

عبر سين فوق الطريق الذي يربط فيللادي مانيكا وكابورا باسا وحلق فيه لمسافة عشرة أميال. كان طيرانه منخفضًا حتى أنه كان يرى أخاديد الطريق والحفر التي عليه والحشائش التي نمت حول مجاري دواليب العربات . لم تستخدم أي عربة هذا الطريق لعدة شهور ، وربما لسنوات ، وكانت المعابر والكباري مدمرة بالمتفجرات بينما انتثرت على قارعة الطريق هياكل العربات التي دمرتها الألغام وأحرقتها ، والتي تحولت الآن إلى أكداس وأكوام من

الصدأ .

ثم استدار نحو الغرب باتجاه الحدود مفتشًا عن مكان يعرفه كل منهم جيدًا وما لبثوا أن وصلوا إليه . فقد تعرف سين على سلسلة التلال المتناسقة المسماة بتلال إنلوزين ، أو صدور العذارى، والتي على الجنوب منها كان يلتقي نهران صفيران ، تحولا الآن إلى مجرد مجاري وبرك خضراء متناثرة على سهل رملي متسع .

وأشار جوب بإصبعه للأمام :

«هذا هو المكان » .

وعلى المقعد الخلفي نسى متاتو خوفه وقلقه ليقرقع ضاحكًا وهو يقبض كتف سين :

«إنلوزين . أتذكر يابوانا ؟ » .

انحدر سين بالطائرة فوق ملتقى النهرين ودار حوله وهم يحدقون إلى الأسفل. لم يستطيعوا التعرف على أي أثر لمعسكر عصابات الثوار القديم . فقد كانت المرة الأخيرة التي جاءوا فيها إلى هذا المكان هي عام ١٩٧٦م ، ولقد جاءوا ككشافين في فرقة كشافة بالانتاين التابعة للجيش الروديسي :

فتحت الاستجواب القاسي ، كشف أحد الأسرى عن وجود معسكر رئيس لتدريب رجال العصابات في هذا المكان ، فأرسلت القيادة الروديسية العليا في الحال نفاثة فامبير لتصوير المكان من على ارتفاع كبير ، كان المعسكر مخفيًا بعناية وقد استخدم لإخفائه عن الأيمن كل حيل التخفي والتمويه . لكن المسئولين عن تفسير الخرائط والصور الروديسيين كانوا على جانب كبير من المهارة والحذق ، فقد كان معظمهم من رجال الطيران الجري الملكي البريطاني السابقين . فمن المعروف أن من السهل إخفاء المخابئ والملاجئ والأكواخ التي يستخدمها المئات من الرجال والنساء لكن الممرات التي يمشون عليها هي التي تكشف عن وجودها . فالألوف من الأقدام التي تتحرك يوميًا بين المعسكرات وأماكن المحاضرات ، وبين قاعات الطعام ودورات المياه ، وعند القيام بالتحطيب أو جلب حطب الوقود ، أو جلب المياه من النهر : كلها تترك علامات على الأرض الممهدة ، تظهر في الصور الجوية وكأنها العروق في ورقة شجرة جافة .

أوضح قائد فريق التصوير والاستكشاف الجوي الأمر للمسؤولين : « ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمائة من أفراد العصابات . لقد مكثوا هناك لما يقارب الشهور الستة وبالتالي يكاد يكن تدريبهم مكتملاً ، وربما كانوا فقط في انتظار هطول الأمطار قبل شن هجومهم الرئيسي » .

إن هجومًا كاسحًا يشنه ألفان من الثوار المدربين سيؤدي بالقطع إلى التأثير على قدرات قوى الأمن الروديسية ولدرجة مدمرة .

وأصدر الجنرال بيتر وولز ، قائد الجيش الروديسي ، أوامره : «لابد من ضربة مجهضة . أريدكم تسليمي خطة للقتال في ظرف واختير للمعركة الاسم الشفري (بوجي) .

كانت المنافسة ضارية بين فصيلتي كشافة سيلوس وكشافة بالانتاين .

وقد ابتهج سين عندما أوكل إليه الهجوم الأرضي لبوبي بدلاً عن فتيان سيلوسي .

تم إرسالهم للموقع على طائرات داكوتا البطيئة العتيقة ، وكانوا مكدسين على دكك طويلة بالطائرة بواقع خمسين رجلاً بمعداتهم لكل طائرة وجالسين على مظلاتهم . كانوا جنودًا مختلطين سودًا وبيضًا ، وبأعداد متساوية، لكن الطلاء المموه لوجوههم كان واحدًا . فقفزوا من على ارتفاع ثلاثمائة قدم ، وهو بالكاد الارتفاع الذي يسمح بانفتاح مظلاتهم قبل ارتطامهم بالأرض . وكانوا يمزحون ويشيرون لأنفسهم بأنهم (قنابل اللحم) .

كانت منطقة الوثوب تبعد عن معسكر الثوار بحوالى اثنين عشر ميلاً ، وداخل حدود موزمبيق بستة وتسعين ميلاً . هبطوا قبل ساعة من غروب الشمس حيث تجمع الكشافة الثلاثمائة واستعدوا للزحف عند الغروب .

على ضوء القمر تقدموا ، وكل رجل منهم يحمل على ظهره حقيبة تزن حوالي مائة رطل معظمها ذخيرة مدفع المكنة آر بي دي . ووصلوا لمقرن النهرين بعد منتصف الليل ، وجهزوا مواقع الهجوم بطول الشاطئ الجنوبي ، المقابل لمجرى النهر الجاف وبركه الضحلة الخضراء ، وفي مواجهة معكسر التدريب القائم على الضفة الأخرى .

زحف سين ، وبجانبه جوب ، على طول الضفة وتفحصوا بأنفسهم كل موقع ، وتحدثوا مع رجاله في همس فردًا فردًا وبأسمائهم ، ثم رقدوا خلف مدافعهم طوال الليل ، وكانت الأصوات من الجانب الآخر تصل إليهم ضعيفة ، وروائح دخان الحطب والطعام المطبوخ تتسلل إليهم مع نسائم الليل .

وعند الفجر سمعوا صوت البوق يطلق نوبة الاستيقاظ في الغابة السوداء التي تخفى المعسكرات، وشاهدوا تحرك الثوار ، بغير وضوح ، في الظلام بين الأشجار .

وبعد عشرين دقيقة ، وبالضبط في اللحظة التي تسمح بالرؤيا وإطلاق النار، جاءت قاذفات الفامبير الروديسية من الغرب بصفيرها المعروف وألقت على المعسكر قذائف النابالم وسرعان ما ثارت في الفضاء كرات عالية من اللهيب

البرتقالي وسط الدخان الأسود الكريه وغطت الشمس . ووصلت الرائحة الكيميائية الكريهة للنابالم مصحوبة بحرارة عالية حتى إلى حيث ينتظر الكشافة في مكامنهم . كانت طائرات كانت المنافسة ضارية بين فصيلتي كشافة سيلوسي وكشافة بالانتابين وقد ابتهج سين عندما أوكل إليه الهجوم الأرضي لبوبي بدلاً عن فتيان سيلوسي . ثم إرسالهم للموقع على طائرات داكوتا البطيئة العتيقة ، وكانوا مكدسين على دكك طويلة بالطائرة بواقع خمسين رجلاً بمعداتهم لكل طائرة وجالسين على مظلاتهم . كانوا جنوداً مختلطين سوداً وبيضاً ، وبأعداد متساوية ، لكن الطلاء المموه لوجوههم كان واحداً . قفزوا من على ارتفاع ثلاثمائة قدم ، وهو بالكاد الارتفاع الذي يسمح بانفتاح مظلاتهم قبل ارتطامهم بالأرض . وكانوا يمزحون ويشيرون لأنفسهم بأنهم (قنابل اللحم .

كانت منطقة الوثوب تبعد عن معسكر الثوار بحوالي اثنى عشر ميلاً ، وداخل حدود موزمبيق بستة وتسعين ميلاً . هبطوا قبل ساعة من غروب الشمس حيث تجمع الكشافة الثلاثمائة واستعدوا للزحف عند الغروب .

على ضوء القمر تقدموا ، وكل رجل منهم يحمل على ظهره حقيبة تزن حوالي مائة رطل معظمها ذخيرة مدفع المكنة آر بي جي . ووصلوا لمقرن النهرين بعد منتصف الليل ، وجهزوا مواقع الهجوم بطول الشاطئ الجنوبي ، المقابل لمجرى النهر الجاف وبركه الضحلة الخضراء ، وفي مواجهة معسكر التدريب القائم على الضفة الأخرى .

زحف سين ، وبجانبه جوب ، على طول الضفة وتفحصوا بأنفسهم كل موقع ، وتحدثوا مع رجاله في همس فرداً فرداً وبأسمائهم ، ثم رقدوا خلف مدافعهم طوال الليل ، وكانت الأصوات من الجانب الآخر تصل إليهم ضعيفة ، وروائح دخان الحطب والطعام المطبوخ تتسلل إليهم مع نسائم الليل .

وعند الفجر . سمعوا صوت البوق يطلق نوبة الاستيقاظ في الغابة السوداء التي تخفي المعسكرات ، وشاهدوا تحرك الثوار ، بغير وضوح ، في الظلام بين الأشجار .

وبعد عشرين دقيقة ، وبالضبط في اللحظة التي تسمح بالرؤيا وإطلاق النار ، جاءت قاذفات الفامبير الروديسية من الغرب بصفيرها المعروف وألقت على المعسكر قذائق النابالم وسرعان ما ثارت في الفضاء كرات عالية من اللهيب البرتقالي وسط الدخان الأسود الكريه وغطت الشمس . ووصلت الرائحة الكيميائية الكريهة للنابالم مصحوبة بحرارة عالية حتى إلى حيث ينتظر الكشافة في مكانهم . كانت طائرات الفامبير قد ألقت بحمولتها من النابالم

عمدًا على الحزام الشمالي من المعسكر وأقفلت طريق الفرار أمام الثوار شمالاً بجدار من النار .

وبعد عشرين ثانية ، ووراء طائرات الفامبير ، وصلت قاذفات الكانبيرا والقت بقنابلها الإنشطارية والشديدة الإنفجار على المعسكر محدثة ارتجاجًا وصريرًا هائلاً وأطارت في الهواء شلالات من الأوساخ والمخلفات . وسرعان ما خرج من الغابة الثوار الذين بقوا على قيد الحياة وهم يستغيثون ويصرخون في رعب وجنون هائلين .

فلقد قطع النابالم طريقهم نحو الشمال فتدافعوا صوب مجرى النهر وجروا ليقعوا مباشرة في مرمى مدافع المكنة . صبر عليهم سين حتى اقتربوا وأخذ يتمعن في جموعهم بانتباه وبرود . كان عدد الرجال مساويًا تقريبًا لعدد الفتيات، لكن كان من المتعذر التفريق بين الجنسين إذ لم يكونوا يرتدون زيًا رسميًا . فالبعض كان يرتدي سروالاً قصيرًا من الكاكي وقميصًا قصير الأكمام وعلى صدره صورًا مطبوعة لقادة الثوار أو الشعارات السياسية ، والبعض الآخر يرتدي قمصانًا قطنية أو سترات الحرب ، بينا آخرون كانوا عراة الصدور وفي ملابسهم الداخلية . كان معظهم من الشباب في العشرينات من عمرهم أو أقل وكانوا كلهم مذعورون ويجرون على غير هدى للهروب من جحيم النابالم والقنابل المتفجرة .

سقطوا في البرك الراكدة وأمسكت الرمال بأقدامهم مبطئة لحركتهم . وكانوا أثناء الجري ينظرون للخلف من وراء ظهورهم إلى اللهيب المندلع والأتربة الثائرة في جو المعسكر ولم ينتبه أيًا منهم إلى جنود المدافع الذين كانوا ينتظرونهم على الضفة الجنوبية للنهر .

امتلأ النهر بالبشرية المتدافعة ، وكأنه حفرة مليئة بالجرذان ، وعندما وصل أولهم إلى الشاطئ الذي يربض فيه سين ، وبدأ بتسلق الجدار المنحدر ، أطلق سين صفارة عالية سرعان ما طفت عليها وغمرتها أصوات القذائف من ثلاثمائة سلاح أوتوماتيكي أطلقت في وقت واحد معًا.

ورغم أن قلب سين قد صار قاسيًا من جراء الحروب الدموية الوحشية التي كان يخوضها ضد الثوار إلا أن هذه المجزرة أصابته بالذهول . فمن على مسافة قصيرة ، كانت قذائف ودخان رصاص مدافع المكنة تحيل جسم الإنسان إلى أشلاء وتلحق نفس الدمار بمن وراءه ومن وراء ورائه ، كانت الرمال البيضاء على مجرى النهر تغلي وتفور وترتفع في الهواء حتى خاصرة الإنسان وتحول الهاربين إلى أشباح كالظلال وسط الغبار ، وسرعان ما يختفون ويتساقطون على غير هدى من وطأة النيران المسددة من مسافات قريبة .

استمرت الجلبة والضجيج لأربعة دقائق بعدها صمتت المدافع ولم يعد هناك أي هدف لضربه. كانوا قد أطلقوا خمسين ألف رصاصة على من كانوا بمجرى النهر وكانت مواسير البنادق ملتهبة ساخنة وكأنها صحفة فوق نار موقدة ثم بدأت تطقطق عندما أخذت تبرد قليلاً قليلاً. ورغم آذانهم التي أصمها ضجيج المدافع وهديرها إلا أنهم كانوا يسمعون صرخات الجرحى وأنين الذين لا يزالون أحياء في بطن النهر.

نفخ سين مرة أخرى بصفارته وبدأ رجاله في القفز على النهر وتقدموا في طوابير القتال. كانت أوامر سيد لهم .. ألا يأخذوا من الأسرى إلا الضباط والمفوضين السياسيين. وبالتالى كان رجاله، وهم يعبرون النهر ، يطلقون النار على كل من تبدو عليه علامات الحياة ، برصاصة واحدة موجهة على الرأس ، حتى لا يبل أحدهم من جراحه ليعود لمهاجمة أي منزل بمزرعة روديسية أو يقطع أيدي وأرجل القرويين السود الذين يمتنعون عن تقديم الطعام أو النساء لهم.

لم يتركوا أي أحياء على النهر. ثم توجهوا بعد ذلك صوب المعسكر وهم يرمون الخنادق بالقنابل اليدوية ويفتشون على أي أحياء بالأكواخ لكنهم حرصوا على التفتيش على أي خرائط أو وثائق خاصة بالثوار. فمثل كل الماركسيين الطيبين كان الثوار مولعون بالوثائق وتسجيل الأحداث ، وكان العثور على أرشيف وسجلات المعسكر من أهم أهداف عملية بومبي وعلى رأس أولوياتها.

كان سين ، وهو يجري أمام رجاله ، أول من وصل إلى كوخ القيادة في وسط المعسكر وقد تعرف عليه فورًا من العلم المبهرج الذي تدلي من عمود أمامه.

كان المدخل خطرًا ، لذا قام سين بإطلاق مجموعة من مدفعه خلال الحائط المبني من الحشائش والبوصي ، ثم قفز من خلال الشباك منقضًا ، ورأسه أولاً ، على الغرفة.

كان هناك رجل أسود طويل بمقدمة الغرفة ، مرتديًا ملابس قطنية زرقاء منينة وكان يفترق بكلتا يديه أحمالاً من الوثائق من صناديقها المحفوظة بها ويلقى بها وسط الصالة على الأرض. وكان واضحًا إنه ينوي إحراقها. لكنه انتبه عند زخة الرصاص وقفزة سين للداخل فرمى ما بيديه من مستندات ووصل إلى المسدس في قرابة المعلق بحزامه.

رفس سين الأرض برجلين فور هبوطه وضرب الرجل الأسود بقبضة مسدسه ضربة هائلة خلف الأذن في اللحظة التي دخل فيها متاتو ووقف بجانبه متهللاً ، كأقزام الأساطير الحارسة للكنوز ، وانحنى ليقطع عنق الرجل الفاقد الوعي

بسكينه التي يسلخ بها الحيوانات .

وصاح به سين :

«لا . إننا نريد هذا الرجل» .

وبعد ثوان قفز جوب في أعقاب متاتو للغرفة ، وهو يحمل مدفعه الرشاش الثقيل (آر بي جي) جاهزًا للإطلاق . وأصدر سين أوامره لجوب : «حسنًا يا كابتن . أحضر فصيلة لاستلام هذه الوثائق» ثم نظر إلى ساعته وقال :

«ستصل المروحيات هنا في خلال عشرين دقيقة» .

كانت القوات الجوية الروديسية تعاني من نقص حاد في المروحيات . فقد حظرت دول العالم - ما عدا جنوب إفريقيا - توريدها لهم . وكانت إحدى السفن الحربية البريطانية تفرض حصارًا على مرفأ موزمبيق لتمنع وصولها إليهم .

لم يستطيعوا سوى توفير مروحيتين لهذه العملية وإحدى المروحيات حملتي بخمسة أطنان من الوثائق المصادرة : قوائم المتدربين ومنظماتهم ، وأهداف الثوار الرئيسية ، وقوائم الإمدادات ، وقوائم وملفات المعدات والأسلحة ، ومراشد التدريب ، وتقارير استخباراتهم عن وسائل الحكومة الروديسية لمكافحتهم ، وأوراق ومنشورات الدعاية الشيوعية ، وخرائط لمسارات وطرق هجماتهم والملاجئ الآمنة لهم ، وكل ما يختص بالعمليات الحربية لجيش الثوار . كانت كنزًا ثمينًا وكان استيلاؤهم عليه ضربة موجعة للثوار تفوق خسارتهم لمئات المقاتلين الراقدين بلا حراك في بطن النهر . لكن هذه ملأت إحدى المروحيات الثمينة .

استخدم سين مروحية الويت الأخرى لإخلاء حالات جرحى الميدان - كيسفاك - ولنقل الأسرى كانت خسائر العمليات أكثر مما توقع المخططون لها . فثلاثة من المظليين كانوا قد أصيبوا أثناء الهبوط بتمزق الغضروف أو التواء المفاصل ، وخمسة آخرين جرحوا عند إسكاتهم للنيران المضادة ممن استجمعوا شجاعتهم من الفورميلا . كما أن أحد الثوار تظاهر بالموت وألقى بقنبلة يدوية عندما اقترب منه جنود الكشافة فقتل مظليًا أسودًا وجرح اثنين آخرين ، كان من تقاليد الكشافة أن يرفعوا جثث القتلى من زملائهم ليدفنوهم دفنًا لائقًا ، وبالتالي وضعوا جثمان المظلي في كيس من البلاستيك رفعوه إلى الطائرة .

ثم أسر ثمانية من المشتبه بأنهم ضباط أو مفوضين سياسيين ولأن قادة الفوميلا لا يرتدون علامات مميزة للرتب ، كان من الممكن التعرف عليهم من طراز ملابسهم الفاخرة التي يرتدونها أو من نوع النظارات الشمسية وساعات اليد ومن صفوف الأقلام المرصوصة في جيوب قمصانهم.

ولما كان لديهم عدد كبير من الركاب للطائرة ، اضطر سين لاستثناء

خمسة من الأسرى للذهاب معه مشيًا على الأقدام . ثم اختيار الخمسة من الذين تبدو عليهم القدرة على تحمل المشي لشاق مع فصيلة الكشافة ، وكان واحدًا من أولئك الأسرى ذلك الرجل الذي أمسكوا به في كوخ القيادة .

بعد خمسة وأربعين دقيقة من بداية الهجوم كانت آخر الطائرات المروحية قد أقلعت واستعد الكشافة للتحرك . ورغم أنهم كانوا يتوقعون أن يكون الهجوم المضاد عليهم من فريليمو متراخيًا بطيئًا فاقد الهمة إلا أن سين لم يترك أي شيء للصدفة . كان واقفا على ضفة النهر يتمعن في قتلى هذه المجزرة ولم يكن لديهم وقت لحساب عدد القتلى واعتمد على أن القوات الجوية ستوقم تلقائيًا بعد فترة الصباح بإعادة مسح المنطقة وتصويرها وسيصلون لتقدير معقول لأعداد القتلى من الصور الفوتوغرافية التي سيلتقطونها .

قدر سين عددهم بألف وخمسمائة قتيل ، كانوا يرقدون في أكوام متراكمة كالتبن المرصوص. وكان الذباب قد بدأ يحوم فوق رؤوسهم كضباب قاتم .

وغادر سين الموقع ونادى :

« حسنًا . تحركوا وخذوهم معكم» .

قام القسم الأول المكون من خمسين رجلاً بالتقدم ركضًا . كانت العربات العسكرية ستسرع نحو الحدود وتتقدم لأبعد مسافة ممكنة لتلاقيهم ، لكن كان على الرجال أن يركضوا لثلاثين ميلاً أو أكثر قبل أن يصلوا للعربات ، وكأنهم في سباق للماراثون ، تحت السلاح الكامل ، رغم أن معظم الذخيرة كان قد تم إطلاقها وأصبح الحمل عليهم خفيفا .

هرع جوب إلى حيث يقف سين أمام ضفة النهر وقال له : «لقد تعرفت على الأسير الذي أخذته يا كولونيل . إنه الرفيق تشاينا نفسه » «هل أنت متأكد؟ » . لم ينتظر سين إجابة جوب بل صاح : « يا للعنة . إذا ما كنت عرفته لأرسلته على الهلكويتر بلا شك » . كان الرفيق تشاينا في أول قائمة المطلوبين في روديسيا . فقد كان القائد الميداني لكل القطاع الشمالي الشرقي ، برتبة تعادل اللواء ، وكان من أكثرهم نجاحًا بين القادة ، ولديه الكثير من القصص الهامة التي يمكن أن يرويها للاستخبارات العسكرية الروديسية .

وأمره سين بصرامة :

« تأكد من كامل سلامته يا كابتن . عامله كما تعامل زوجتك الجديدة».

لكن جوب أفاده بأن الجنرال تشاينا يرفض التحرك وأضاف : «لا نستطيع رميه بالرصاص ، ولا نستطيع أن نحمله على أكتافنا ، وهو يعرف ذلك » .

ذهب سين بخطى واسعة إلى حيث كان الأسير تحت الحراسة . كان

يجلس متربعًا على الأرض، ينظر إليهم شذرًا ويداه خلف رأسه . وأمره سين : «قف وتقدم» .

بصق الرفيق تشاينا على حذاء سين . ففك سين إبزيم القراب الجلدي وتناول مسدسه الماجنم ٣٥٧ ووضعه بجانبي رأس الرجل وكرر : «على قدميك . فرصتك الأخيرة» .

فأجابه الرجل بسخرية واحتقار :

«إنك لن تطلق النار على ، لن تجرؤ على ذلك » .

وأطلق سين النار ، وجه فوهة المسدس فوق كتف الرفيق تشاينا ضاغطًا ماسورة المسدس على أذنه .

صرخ الرفيق تشاينا وأمسك بأذنه بكلتا يديه . وسال خيط من الدم من طبلة أذنه الممزقة وجرى بين أصابعه . وصاح فيه سين :

«على قدميك » .

لكن الرفيق تشاينا ، وهو لا زال يمسك بأذنه المعطوبة ، بصق عليه مرة أخرى . وضع سين فوهة المسدس على أذنه الأخرى وقال له : «بعد أذنيك سننتزع عينيك بعود مسنون » . فوقف الرفيق تشاينا . وصاح به جوب :

«تحرك . أسرع » . وضع جوب يده بين لوحيْ كتف تشاينا ودفعه بيده متعثرًا مضطربًا نحو ضفة النحر .

نظر سين نظرة أخيرة إلى ساحة المعركة . لقد تم إنجازها بسرعة وإتقان ، أو كما يسميه الكشافة (بالقتل النظيف) . ثم قال لمتاتو بهدوء : «حسنًا يا متاتو كفى ، فلنعد لبيوتنا » . وجرى الأندوروبو الضئيل أمامه .

عندما بدأ الرفيق تشاينا يتداعى ويترنح ، وصارت ركبه سائبة كالمطاط، انهار من وطأة العذاب والألم من جراء أذنه المعطوبة . حقنه سين بحقنة مورفين تحت الجلد وأعطاه جرعة ماء من زجاجته وقال له : «بالنسبة لرجل من الثوار اعتاد أن يطلق النار على الأطفال ويقطع أرجل النساء المسنات فإن هذه تعتبر نزهة في حديقة . استجمع قواك يا تشاينا وإلا أطرت أذنك الأخرى » . ثم أخذ بعضد تشاينا بينما أخذ جوب بالآخر . وبينهما رفعاه على أرجله وشبه حملاه بينهما حتى سرى المورفين في دمائه . لكنهم واصلوا الجرى ، كما يجرى طابور الكشافة ، خلال الغابات والتلال الصخرية . وبعد حوالي ميل من الجري ، وبعد أن أدى المورفين دوره ، صار تشاينا يثرثر ويتحدث مع سين ثم قال له بصوت خشن مرير ، لكنه ملئ بالثقة في نفسه : «ربما تكون قد قتلت بعض رجالنا اليوم . فاليوم كسبت معركة صغيرة واحدة يا كولونيل كورتني . ولكن غدًا

فنحن الذين سنكسب الحرب » .

سأله سين ضاحكًا :

«وكيف عرفت إسمي ؟ »

- إنك مشهور يا كولونيل . أم هل أقول سيىء السمعة . فتحت قيادتك تصبح هذه الجماعة من الكلاب الدموية القاتلة أكثر ضراوة مما كانت عليه أثناء قيادة بالانتاين لها .

- شكرًا على المجاملة اللطيفة يا تشاينا . ولكن ألست تدعى نصرًا قبل أوانه ؟

- إن الجانب الذي يسيطر على الريف في الليل هو الذي يكسب الحرب .

ابتسم سين :

- ماوتس تونج ! إنه استشهاد مناسب تمامًا لاسمك .

- لقد سيطرنا على الريف أخيرًا وحصرناكم في قراكم ومدنكم . مزارعوكم البيض خائفون منا ونساؤهم قد سئموا الحرب . أما المزارعون السود فإنهم يتعاطفون علنًا مع قضيتنا . وبريطانيا وكل العالم ضدكم . حتى جنوب إفريقيا - الحليف الوحيد الذي تبقى لكم - تحررت من أوهام مقاومتنا فقريبًا ... قريبًا ... » .

كانا يتجادلان أثناء هرولتهم . وبالرغم منه ، لم يستطع سين إخفاء إعجابه بل حسده للأسير . لقد كان حاضر البديهة ، ويتحدث اللغة الإنجليزية بصورة ممتازة ، مثلما كان متمكنًا من السياسة والتكتيك الحربي . كان جسمه قويًا وفي لياقة تامة . وأحس سين بعضلات ذراعه القوية عندما كان يسنده أثناء الجري ، الشي الذي قليلاً ما يمكن تحمله خاصة من رجل حطمت طبلة أذنه .

وحث سين نفسه :

«مثل هذا الرجل يمكنه أن يكون من الكشافة الممتازين ، إذا ما استطعنا استمالته لجانبنا ... » . فكثير من أميز رجاله كانوا من أفراد الفورميلا السابقين الذين تم أسرهم ، ثم بمهارة المخابرات الفائقة تمت استمالتهم وضمهم للجانب الآخر .

من هنا أخذ يبحث أمر الرفيق تشاينا باهتمام جديد . ربما كان أصغر من سين ببضع سنوات وكانت له ملامح نيلية جذابة أقرب للملامح الإثيوبيين من ملامح الشونا . كان أنفه رقيقًا بارزًا وشفتاه رقيقه لا تشبه شفاه الزنوج العريضة . حتى المورفين لم يستطع إطفاء بريق وتوهج الذكاء في عينيه السوداويتين الواسعتين . كان رجلاً وسيمًا حقًا ، لكن مثل هذا الرجل يكون

عادة فظًا عنيفًا ولا مباليًا ، وإلا لما وصل لهذه الرتبة الكبيرة .

وقرر سين :

« إنني أريده . يا إلهي . إنه يعني كثيبة كاملة بالنسبة لنا » ثم شدد قبضته على ذراع الرجل وكأنه صار يمتلكه :

«هذا الحبيب الصغير سينال منا رعاية وعناية تامة » .

اصطدمت طليعتهم بدورية للفريليمو قبل منتصف النهار ومزقوهم وشتتوا شملهم بدون أن يبطئوا من خطاهم وتركوا على جوانب الطريق جثثهم بملابس الفريليمو المموهة والملطخة بالبقع.

والتقوا بالقوافل المنتظرة لهم بعد منتصف النهار بقليل وكانت الشاحنات تحت حراسة عربات إيلاند المدرعة وكانت في انتظارهم علب من بيرة كاسل المثلجة بداخل صناديق مبردة . كانوا قد قطعوا اثنين وأربعين ميلاً ، في أكثر بقليل من سبعة ساعات ، وكان للبيرة طعم الرحيق.

ناول سين علبة من البيرة للرفيق تشاينا وقال له :

«إنني آسف بشأن أذنك » . ثم رفع يده بالتحية وهو يحمل علبة البيرة .

وأجابه تشاينا مبتسمًا :

«لو كنت مكانك لفعلت نفس الشيء» . لكن عينيه كانتا غامضتين كاللغز واقترح النخب:

«إلى موعدنا القادم» .

أجابه سين موافقًا :

«حتى نلتقي ثانية » . ثم سلمه لفصيل من الحرس تحت قيادة جاويش أبيض ثم تسلق عربة القيادة المدرعة ليقود المرحلة الأخيرة من الانسحاب .

لقد أنجز سين مهمته وسحب طابوره وعبر بهم الحدود في عشرة ساعات ونصف منذ بداية الهجوم . واتصل به إيان سمث ، رئيس الوزراء ، بالراديو شخصيًا ليهنئه وليخطره بالوسام الجديد : قضيب ، إضافة لصليبه الفضي .

لم يعلم سين بفراء الرفيق تشاينا إلا بعد أن وصل فصيله إلى ثكناته ذلك المساء . كان من الواضح أن تشاينا قد مزق القماش الذي يكسو ناقلة الجنود وهرب من الفتحة عندما كان حرسه يغفو . وبدون أن تعوقه قيوده ألقى بنفسه من الشاحنة المسرعة حيث غطاه الغبار الكثيف المنبعث من العجلات الخلفية للشاحنة ثم تدحرج صوب حشائش الفيل الطويلة التي تنمو بجانب الطريق.

وبعد شهرين قرأ سين تقريرًا للمخابرات وصف تشاينا بأنه قائد الهجوم الناجح الذي أباد قافلة للإمداد في طريق جبل دارون .

ورد سني على متاتو عندما سأله :

«نعم يا متاتو إنني أذكر كل شيء تمامًا » . ثم انحدر بالطائرة مرة أخرى فوق موقع قاعدة الثوار القديم قبل أن يرتفع بالبيتش كرافت ليطير في مسار مستقيم متجهًا جنوبيًا .

لم يطر ، على كل حال ، جنوبيًا حتى خط السكة حديد الذي يربط ميناء بيرا بحدود زمبابوي والتي لا منفذ لها على البحر . فقد كانت هذه المنطقة مركزًا لكل مناشط الحكومة والثوار ، وسيكون ما حولها من الضواحي يعج بطوابير فريليمو والحكومة الزمبابوية ، وكلهم مسلحون بصواريخ آر بي جي ومتشوقون لإسقاط طائرة ، بدون علامات نداء ، تطير على ارتفاع منخفض وبدون تصديق للطيران .

وأخبر سين جوب :

«يبدو أن هنالك إمكانية على الأقل » .

وافقه جوب :

« تبدو الحدود المقابلة لمعسكرنا مهجورة ولا يوجد من يدافع عنها » .

سأله سين :

« أتستحق محاولة بنصف مليون دولار ؟ » . واكتفى جوب بالابتسام في وجهه . ثم قال له سين:

«مهمة أخرى صغيرة قبل أن نعود » .

كان الأمر يحتاج إلى قدرة ملاحية عالية وإلى عين مدربة على التعرف على تضاريس الأرض ومعالمها . عبر سين الحدود الزمبابوية وطار على ارتفاع منخفض حتى وصل للمكان الذي عثروا فيه أمس على أول أثر للصوص الصيد . ومن ذلك المكان ، ومتاتو يمد رقبته وينظر إلى الأرض ويوجه مسارهم ، وجدوا الأرض المرتفعة المسطحة والوادي الذي اصطدموا فيه بعصابة اللصوص ورموهم فيه بالنار . كانت المسافات من الجو تبدو قريبة كل القرب مما هو عليه الحال عند المشي على الأرض .

وجه متاتو سين إلى الطريق الذي قطعه الفيل العجوز باتجاه الحدود . وكان واضحًا أن مواهبه لمعرفة الاتجاهات ومعالم الأرض لم تتأثر من جراء الارتفاع . وكان سين يتابع المسار على الخريطة التي وضعها على حجره . أخذ سين يخربش بملاحظاته على الخريطة ثم قال : «إننا نعبر الحدود لموزمبيق مرة أخرى الآن » .

مد متاتو رأسه من أمام الكرسي وأشار إلى درب يميل أكثر نحو الشمال

وقال لسين :

«اتبع ذلك الطريق » .

كان سين مدركًا لمقدرات متاتو ، لذا لم يجادله بل أدار الطائرة لبضع درجات على يساره . وبعد دقائق طلب منه متاتو أن يتحول قليلاً نحو الجنوب مرة أخرى . وفكر سين في نفسه مندهشً:

«الفتى الضئيل يحس فعلاً بدرب الفيل ويفكر تمامًا مثله » .

وفي تلك اللحظة أطلق متاتو صوتًا صغيرًا حادًا تعبيرًا عن نجاح تتبعه ومد يده بانفعال خارج الشباك .

وعندما عبروا مجرى آخر جافًا رأي سين دروب الحيوانات التي كانت واضحة على الرمال الناعمة . كانت الدروب عميقة ومغطاة بالظلال وكأنها حبات لسبحة سوداء على خلفية بيضاء. حتى سين ، والذي راقب لمدة عشرين سنة ما يقوم به متاتو ، أبدى عجبه ودهشته . فبالغريزة وحدها تتبع متاتو الفيل حتى معبر النهر هذا . كانت أعماله حقًا بطولية وخارقة للعادة .

دار سين حول الدرب دورة حادة وهو يميل بالطائرة ، وطرف جناحها متجهًا نحو الأرض ونادى من خلفه :

«أي اتجاه الآن ؟ » لكن متاتو ربت على كتفه وأشار لأسفل المجرى . وبدون اعتراض منه ، وعلى الفور ، خضع سين للأصابع السوداء المشوهة التي تطرق كتفه . وصرخ جوب فجأة : «هاهوا » في حين أطلق متاتو زعيقًا ضاحكًا وصفق بيديه ووقع على كرسيه وكأنه طفل في تمثيلية بانتوميم .

فأمامهم ، وعلى بعد ميل ، غاضى النهر الجاف في بركة واسعة من التي لا زالت مليئة بمياه الأمطار الأخيرة . وبان واضحًا الظهر المحدودب للفيل من فوق الحشائش الطويلة والبوص التي أحاطت بالبركة ، وكأنه حوت ضخم في بحر واسع أخضر .

وعندما هبطوا قليلاً باتجاهه سمع الفيل صوت محرك البيتش كرافت فرفع رأسه وفرد أذنيه على سعتهم واستدار لمواجهتهم وهنا شاهدوا أنيابه الفريدة كأعمدة أسطورية من العاج الأسود مرفوعة نحو السماء وبهر جمالهما وتناسقهما سين مرة أخرى وسيطر عليه .

لم يتأمل أنياب العاج سوى لحظة وهما مرفوعان لكن صورتهما انطبعت حية متوهجة في ذهنه . نصف مليون دولار وهذان النابان ؟ لقد غامر بحياته مئات المرات مقابل أقل من هذا.

وسأله جوب :

« أنعود لتلقي نظرة أخرى ؟ » ومال برأسه ليحاول رؤية الفيل من ورائه وفوق ذيل الطائرة . لكن سين هز رأسه وقال له :

« لا. لا داعي لإزعاجه أكثر مما هو ضروري . فنحن نعرف الآن أين سنجده. فلنتوجه حالاً إلى بيوتنا » .

❖ ❖ ❖

قالت كلوديا لوالدها :

« إنه لي ، نصف المليون دولار الذي تبدده بكل سرور » .

فسألها ريكاردو :

« وكيف قمت بحساب ذلك ؟ » .

كان راقدًا على سريره مرتديًا بجاما حريرية وكان صدره وأقدامه عارية . لاحظت كلوديا أن معظم شعر جسمه لا زال قويًا مجعدًا وأسودًا ما عدا بقعة في منتصف صدره ذات شعر زغبي رمادي . وأوضحت الأمر له بعذوبة :

« إنه ميراثي . يا بابا : إنك تنسف ميراثي وتبدده » .

ضحك ريكاردو ضحكة خافتة . فهو يعرف أن لها وقاحة وجرأة (محامي الطلاق) كي تأتي مندفعة ثائرة إلى خيمته لتجدد النقاش حول الأمر الذي ظن أنه قد تم حسمه أثناء الإفطار . وقالت له بعذوبة :

- إذن ، وطالما أن هذا المبلغ لن تضمنه وصيتك ، فإن أقل ما تستطيع عمله هو أن توافق على أن أستمتع به معك الآن .

- طبقًا لآخر مراجعة لحساباتي ، يا سيدتي الشابة ، فإنك تنالين أكثر قليلاً من ستة وثلاثين مليون دولار تتسلمينها خالصة وبعد الضرائب . هذا ، وبعد أن سمحت لنفسي ببعض التبذير، فإنني أضيف لك بأن أي سنت مقيد بوديعة لا يستطيع حتى أحذق المحامين تبديلها . إنني لا أرغب في أن تسلمي أسلابي ، التي بذلت جهدي في جمعها ، إلى واحدة من مؤسساتك الخيرية التي تدمي مناشطها القلوب .

- بابا . أنت تعرف أن المال لم يثر اهتمامي يومًا ما . ما يهمني هو أن أرافقك في رحلتك المتهورة هذه وراء الفيل . لقد حضرت معك إلى إفريقيا بمفهوم أنني أكون معك في كل شيء وهذا هو ما اتفقنا عليه .

- سأقول لك مرة أخرى يا تيسورو . يا كنزي . بأنك لن ترافقينا إلى موزمبيق» .

عندما كانت طفلة كان يناديها بتيسورو . وعندما كبرت لم يعد يناديها بهذا الاسم إلا إذا شعر بعاطفة قوية تجاهها ، حبًا كان أم سخطًا عليها .

- هل ترجع عن وعدك الجازم لي ؟

- بدون أي تأنيب للضمير إذا ما كانت سلامتك أو سعادتك هي المحك .

قفزت من كرسي القماش الذي كانت تجلس عليه وبدأت تجوس حول خيمته . كان يراقبها بسرور خفي . كانت تضع ذراعيها على نهديها الصغيرين الأنيقين متجهمة الوجه عابسة . لكن هذا العبوس لم يترك أي خطوط على جسدها البلاستيكي الناعم . فنظراتها كانت تذكره بصوفيا لورين في صباها والتي يعتبرها ممثلته المفضلة . وقفت كلوديا ثانية بجانب سريره ونظرت إليه بغضب :

- إنك تعلم بأنني أجد وسيلتي دائمًا . لماذا لا تسهل الأمر علينا الإثنين وتقول فقط أنه يمكنني الذهاب معكم .

- إنني آسف يا تيسورو . لن تأتي معنا .

جذبت نفسًا عميقًا وقالت له :

- حسنا . لم أكن أريد ذلك يا بابا ، لكنك لم تترك لي أي خيار . لقد بدأت أفهم ماذا يعني هذا لك، ولماذا أنت على استعداد لدفع مبلغ ضخم كهذا لمجرد أن تجد الفرصة لتفعل ما تريد . لكنني إذا لم أرافقك ، كحق لي وكواجب ، فسأمنعك من الذهاب .

ضحك في ضفوت مرة أخرى بارتياح وعدم اكتراث .

- أنا جادة . جادة تمامًا يا بابا . أرجوك ألا تدعني أقوم بما أنوي القيام به .

فسألها :

«وكيف ستمنعينني من الذهاب يا طفلتي الصغيرة ؟ » .

- يمكنني أن أقول لسين كورتني ما أخبرني به دكتور أندروز » .

وقف ريكاردو مونتيرو بحركة سريعة مفاجئة وأمسك بزراعها وسألها بصوت حاد قاطع كالموس :

«وبماذا أخبرك دكتور أندروز ؟ » .

- أخبرني أن بقعة صغيرة سوداء ظهرت على ذراعك الأيمن من نوفمبر الماضي.

وبدون أن يشعر وضع يده اليمنى وراء ظهره . لكنها واصلت :

« إن لها إسمًا جميلاً ، ميلانوما ، مثل أسماء البنات . لكنها لم تكن جميلة قط . وإنك تأخرت كثيرًا في اكتشافها . قام الطبيب باستئصالها لكن أخصائي علم الأمراض صنفها بأنها من مجموعة كلارك (٥) . أي أن أمامك من

ستة أشهر لسنة . وهذا ما أخبرني به يا بابا » .

جلس ريكاردو مونتيرو على السرير وجاء صوته متعبًا جدًا :

« متى أخبرك ؟ » .

جلست بجانبه وقالت :

« قبل ستة أسابيع . لهذا وافقت على الحضور معك لإفريقيا . لم أرد أن أكون بعيدة عنك ولو ليوم واحد مما تبقى لنا من وقت ، ولهذا السبب فإنني سأذهب معك لموزمبيق » .

هز رأسه بأسى وقال :

« لا . لن أسمح لك » .

« إذن سأخبر سين بأن البقعة قد تصل إلى المخ في أي لحظة » . لم يكن هناك داعيًا للمزيد من الجدل أو الحديث عن التفاصيل . لقد كان أندروز واضحًا في شرحه لها عندما وصف لها كل الاتجاهات التي قد يتخذها المرض . فإذا ما ذهب للرئتين فيمكن أن يحدث الموت بالاختناق ، ولكن إذا ما أثر على المخ ، أو الجهاز العصبي ، فقد يحدث إما شلل كامل أو خبل وجنون.

هز رأسه وقال لها :

« لا يمكنك فهذا الشيء الأخير في حياتي ، الذي أريده حقًا ، لا يمكنك أن تحرمينني منه » .

فأجابته مردودة نفسي كلماته :

« بدون تأنيب ضمير ، إذا ما منعتني حقي في أن أكون معك لأي يوم من هذه الأيام الأخيرة ، وأن أكون معك عندما تأتي النهاية ، كواجب محتم على ابنة محبة لك » .

« لا أستطيع السماح لك » . غطى وجهه بكفيه ، دليلاً على الهزيمة ، مما جرح مشاعرها . لكنها استجمعت كل عزمها وقوتها لتحافظ على لهجتها الحازمة وأجابته :

« لكنني لن أتركك تموت وحيداً » .

« إنك لا تفهمين كم أريد أنا ذلك الشيء . إنه آخر شيء في حياتي . سنذهب سويًا أنا والفيل العجوز . إنك لا تفهمين وإلا منعتيني » .

فقالت له برقة :

« إنني لا أمنعك ، بل أريدك أن تحصل عليه إذا ما تركتني أذهب معك » . وعندما قالت ذلك ، انتبه كلاهما لصوت ذبذبة خافتة في السماء ونظرا نحوها

سويًا ، وهمس ريكاردو :

«إنها البيتش كرافت . سين عائد الآن في طريقة لمر الهبوط » . ثم نظر إلى ساعة يده وقال:

«سيكون هنا خلال هذه الساعة » . وسألته كلوديا :

«وماذا ستقول له ؟ هل تخبره بأنني سأذهب معكم ؟ » .

❖ ❖ ❖

أطلق سين صيحة عميقة :

« لا ! مهما حدث . انس هذا الأمر يا كابو . لن تأتي معنا وهذا آخر ما أقوله لك » .

أجابه ريكاردو بهدوء :

« مقابل نصف (جيم) كامل ، فإن من حقي اختيار من يأتي معي . إنني أقول إنها ستأتي ، ولذا فإنها ستأتي » .

كانوا واقفين بجانب التايوتا . فقد قام ريكاردو وكلوديا بلقاء سين عندما وصل للمعسكر. جذب سين نفسًا عميقًا ونظر شذرًا إلى الأب والإبنة والذان وقفا جانبًا لمواجهته . كانت تعابير كل منهما ثابتة ومصممة على ما تريد .

كان سين على حافة الصراخ من جديد لكنه سيطر بعد جهد على نفسه وقال بصوت معتدل:

« كن واقعيًا يا كابو . إنك تعلم باستحالة هذا الأمر » .

لكنهما نظرا إليه بتجهم ، لا يقبلان نقاشًا ولا حجة .

- إنها الحرب هناك . لا يمكن أن نأخذها .

- كلوديا ستأتي معنا .

- الجحيم بما تفعله .

تدخلت كلوديا للمرة الأولى وقالت لسين :

- لماذا كل هذه الجلبة ؟ الأنني امرأة ؟ ليس هناك ما يقوم به الرجال ولا أستطيعه .

- أبمقدورك أن تبولي واقفة ؟

أراد سين أن يريكها لتفقد أعصابها ، لكنها تجاهلت هزاءه وسخريته ووقاحته وواصلت حديثها وكأنه لم يكلمها :

« لقد رأيتني أقوم بالمشي الشاق الطويل . إن بمقدوري تحمل الحرارة الشديدة وذباب التسي تسي . إنني بلياقة تامة مثل أبي » .

التفت عنها عمدًا وخاطب ريكاردو :

« كوالدها ، لا أظنك تسمح لها بذلك . هل تتصور ما سيحدث لها إذا وقعت في أيدي عصابة من الرينامو قاطعي الرقاب ؟ » .

جفل ريكاردو . ورأى سين مثلما رأت كلوديا جفوله لكنها أخذت بيد أبيها ، قبل أن يضعف أمام تلك الحجة ، وتحدثت بحزم :

«إما أن أذهبمعكم وإلا فلن يذهب أحد . ويمكنك أن تقبل نصف مليونك قبلة الوداع يا كولونيل سين كورتني » .

كان هذا هو المفتاح . نصف المليون من الدولارات . لقد تغلبت عليه وكلاهما يعرف ذلك ولم يستطع سين أن يروغ منها لكنه بذل جهدًا أخيرًا :

« هل هي المسؤولة هنا يا كابو ؟ أأتلقي أوامري منك أم منها ؟» فأجابته : «هذا ليس مجديًا أيضًا» . حاولت أن تتحدث إليه بنبرة تصالحية ، رغم اشتياقها لأن تقفز عليه وتمزقه بأسنانها وأظافرها . وواصلت :

« أنا وأبي متفقان على هذا الرأي . كلانا يذهب أو نلغي الصفقة . أليس هذا صحيحًا يا أبي؟».

بدا ريكاردو متعبًا فاتر الهمة وقال :

«أخشى أن يكون هذا صحيحًا وغير قابل للنقاش . إذا أردت مالك فعليك أن تأخذ كلوديا معنا» .

استدار سين على عقبيه وتوجه مسرعًا نحو خيمته لكنه توقف بعد عدة خطوات ووضع يديه على جانبي فخذه .

كانت أصوات المتجادلين ، وصياح سين ، قد جذبت خدم المعسكر فتجمعوا حول خيمة الطعام وصدقوا من خارج الأبواب والشبابيك بالمطابخ ، يختلط الخوف والترقب فيهم مع حب الاستطلاع . وزأر فيهم سين :

«على أي شيء تحدقون ، بحق الجحيم ، أيها المعتوهون . أليس لديكم أعمال تقومون بها ؟ » .

وسرعان ما اختفوا من أمامه .

استدار سين وتوجه ببطء عائدًا إلى حيث كان الاثنان واقفان بجانب التايوتا . نظر إلى كلوديا ببرود وقال موافقًا :

«أوكي . فلتقطعي رقبتك لكن لا تلجئي على لأضمدها لك » .

فأجابته بصوت يقطر منه العسل :

«لن أفعل ذلك . وهذا وعد مني » . ضايقته لهجة حديثه أكثر مما كان

سيضايقه ردها الحانق المتحدي . وعلم كلاهما أن الهدنة المعلنة بينهما قد ولت لغير رجعة .

وقال سين :

«كابوة لدى أعمال على الورق لابد من القيام بها » ثم توجه سين نحو خيمة الطعام من غير أن ينظر وراءه .

وبإصبعين قام سين بطباعة إقرار المسؤولية على آلته الكاتبة العتيقة - رمنجتون - وسلم نسخة إلى ريكاردو وأخرى لابنته . وبدأ الإقرار كالتالي :

(إنني أقر وأعترف بأنني على معرفة تامة بخطورة وعدم قانونية ...) .

ثم طبع إقرارًا بالدين وقدمه لريكاردو للتوقيع عليه ونادى وجوب والشيف ليشهدوا عليه . وضع سين كل الصور بداخل مظروف معنون إلى ريما بمكتب هراري وأدخله في خزانته القديمة الصغيرة المصنوعة من الحديد الصلب والتي يحتفظ بها خلف خيمة الميس وقال :

« لنبدأ إذن » .

❖ ❖ ❖

تشكلت الحملة من البيض الثلاثة ومن جوب ومتاتو ويميولا إضافة إلى الرجل قصاص الأثر الملتحي المفتول العضلات والذي كان أول من التقط أثر توكوتيلا . كان اسمه ديدان.

وشرح سين الأمر لهم :

« إنه عدد كبير . لكن كل واحد من تلك الأنياب يزن ١٣٠ رطلاً . متاتو مثلاً ضعيف جدًا ولا يقدر على عمل الحمالين . لذا نحتاج إلى أربعة رجال أقوياء لحملها معًا أثناء العودة » .

وقبل رفع المعدات في التايوتا أمر سين بوضعها على الأرض لتفحصها .

وبدأ يفتح ويتفحص أي لفافة وحزمة . واحتجت كلوديا عندما فتح صرتها الشخصية :

- هذا اعتداء على خصوصياتي !

- خذيني إلى المحكمة العليا يا عزيزتي .

كان متحديًا لها وهو يبعثر محتويات الصرة بلا مبالاة مخرجًا معظم الزجاجات والأنابيب الخاصة بزينتها ولم يسمح لها إلا بثلاثة زجاجات من مرطب الجلد وواقي الشمس ثم أمرها : «زوج واحد من الملابس الداخلية » . وألقى بنصف دستة منها وواصل : «لكنك تحتاجين لزوج آخر من الجوارب . أحضريهم» .

ثم تناول صندوق زينتها (التامباكس) وعلق ببرود : «أي شيء يقوم به الرجل وأكثر ! إنك لا تحتاجين لهذا الصندوق فهو يحتل مساحة كبيرة لذا ضعي محتوياته سائبة » . وزاده ملاحظة خضوعها الغاضب سرورًا .

وعندما انتهى لم يترك لحمله معهم إلا الشيء الضروري . ثم قام بوزن الصرر وحدد لكل منهم الوزن الذي يقدر على حمله حسب قوته الجسمانية . فقد حمل سين وجوب ويمبولا وديدان ستين رطلاً لكل منهم ، وريكاردو ومتاتو أربعين رطلاً لكل ، أما كلوديا فاكتفى بعشرين رطلاً لها. واحتجت وقالت :

« يمكنني أن أحمل أثقل من هذا . أعطني أربعين مثل متاتو » . لكن سين لم يكلف نفسه حتى الرد عليها فغمغمت :

«ومع ذلك فإنني أكل أقل من نصف ما يأكله أيًا منكم » .

لكن سين كان قد توجه نحو التايوتا ليراقب تحميلها بمستلزماتهم .



كانت قد تبقت أربعة ساعات من ضوء النهار عندما غادروا معسكر شيويوي ، لكن سين قاد العربة للقسم الأول بسرعة شديدة جعلتهم يرتجون في مقاعدهم . كان هذا لسببين : أولهما إظهار اعتراضه على ذهاب كلوديا معهم، والثاني والأهم هو رغبته الشديدة للوصول لنقطة الإنطلاق قبل حلول الظلام .

وأثناء قيادته ، تحدث بلهجة معتدلة معهم :

«قبل أن نبدأ هذه الرحلة إلى الجنة الموزمبيقية للبروليتاريا ، هذه الدرة الغالية للاشتراكية الإفريقية ، فهل تتحملونني حتى أعطيكم بعض الحقائق والأرقام ؟ » .

لم يعترض أحد منهم لذا واصل حديثه :

« حتى عام ١٩٧٥ كانت موزمبيق مستعمرة برتقالية . كانت تحت حكم البرتقاليين لخمسمائة عام وكانت الأحوال حسنة لدرجة معقولة ، بل رغدة ، لخمسة عشر مليونًا من الأنفس . وبعكس الاستعماريين الإنجليز أو الألمان ، كان للبرتغاليين ميل للتزاوج بين الأجناس وكانت النتيجة أن عددًا كبيرًا من السكان صاروا خلاسيين ، وبالتالي تم تبني سياسة رسمية سميت بسياسة (الأسيميلادو) والتي تنص على أن أي شخص ملون ، يحظى بمعايير حضارية معينة ، يعتبر أبيضًا. وبالتالي يتمتع بالجنسية البرتغالية . سار كل شيء على ما يرام مثل ما فعل معظم إداريي المستعمرات الأخرى خاصة المستعمرات البريطانية».

اعترضته كلوديا بنوع من الأدب هذه المرة :

«هراء ! هذه دعاية إنجليزية » .

ابتسم سين ابتسامة واهية :

« إنجليزية ؟ احترس . فإن تحيزك واضح . إن أي هندي أو إفريقي يعيش اليوم في مستعمرة بريطانية سابقة لهو في حال أسوأ بكثير عما كان عليه أيام الاستعمار . أما في موزمبيق فإنه يعيش في حال أسوأ مائة مرة عما كان عليه » .

قاطعته كلوديا :

« لكنهم أحرار على الأقل » . ضحك سين وقال :

« أهذه حرية ؟ اقتصاد يدار على الأسس المعروفة للمبادئ الاشتراكية للفوضى والخراب ، والذي أدى إلى معدل نمو سالب وصل إلى عشرة في المائة سنويًا ، ولكل سنة ، منذ أن انسحب البرتغاليون ، وديون أجنبية وصلت إلى ضعف مجمل الإنتاج القومي ، ودمار وانهيار تام للنظام التعليمي حتى أن خمسة بالمائة من الأطفال هم الذين ينتظمون في المدارس الرسمية ، طبيب واحد لكل خمسة وأربعين لف نسمة ، واحد من كل عشرة أشخاص يشرب ماءًا نقيًا ، وفيات الأطفال بلغت ٣٤٠ لكل ١٠٠٠ مولود .لا توجد دول أسوأ حالاً منها سوى أفغانستان وأنجولا . ولكن ، كما تقولين ، فهم على الأقل أحرار . في بلدك أمريكا ، وحيث يأكل كل إنسان ثلاثة وجبات ضخمة يوميًا ، فإن للحرية معنى أكبر . أما في إفريقيا فإن بطنًا شبعة تعني شيئًا أكبر بكثير » .

احتجت كلوديا :

« لا يمكن أن يكون الأمر سيئًا لهذا الحد » . وافقها سين على رأيها وقال : «لا . فالأمر أسوأ بكثير مما تظنين . إنني لم يشر إلى عاملين آخرين . الحرب الأهلية والإيدز . فعندما خرج البرتغاليون ، فإنهم سلموا السلطة لدكتاتور اسه ساموروا ماشيل ولحزبه فريبمو . كان ما شيل ماركسيًا ملتزمًا ولم يكن يؤمن بالهراء المسمى بالانتخابات . لذا فإن حكمه هو المسؤول عن الحالة الراهنة للبلاد ، ولظهور حركة (المقاومة الموزمبيقية الوطنية) والتي يعرفها أصدقاؤها والمعجبون بها باسم (رينامو) . لا احد يعرف الكثير عنها ، أو ما هي أهدافها ، أو من هم قادتها . كل ما نعرفه هو أنها تسيطر على معظم الريف وخاصة في الشمال ، وأنها مكونة من جماعة قاسية لا تعرف الرحمة » .

أكملت كلوديا وصفه :

«رينامو هو تنظيم أقامته جنوب إفريقيا ويدار ويمون من بريتوريا وتسيطر عليه . هذا التنظيم موجه لقلب حكومة ذات سيادة ، ولإقلاق جنوب القارة وتفكيكها » .

أومأ سين برأسه مسايرًا لها :

«حسنًا فعلت يا عزيزتي فلقد كنت تدرسين وتتعرفين على مقولات وإشراقات منظمة الوحدة الإفريقية ودول عدم الإنحياز بل أنت حازقة حتى في فهم جعجعتهم ورطانتهم . فإذا كان لجنوب إفريقيا من القوة العسكرية أو الإمكانيات التقنية للقيام بنصف الخداع الذي تتهم به فإنها لن تكون ببساطة أقوى دولة في إفريقيا ، بل سيمكنها أن تتحكم في مسيرة العالم كله » .
اعترضته ثانية : «لا أدري لماذا أنسى دائمًا إنك واحد منهم ، مما يدل على بلادتي. فإنك لا تحاول إخفاء تحيزك الواضح. فالحقيقة - ببساطة هي أن حكومتك والأبارتهايد - الفصل العنصري - هما لعنة إفريقيا وسوط عذابها » .

رد عليها سين :

« طبعًا . طبعًا نحن مسئولون عن كل شيء . وباء الإيدز ، مجاعات إثيوبيا وأنجولا وموزمبيق ، إنهيار حكومات يوغندا وزامبيا ، والفساد في نيجيريا وزائير. كل هذا من المؤامرات القذرة لجنوب إفريقيا . حتى إننا أيضًا قتلنا ساموراً ماشيل . لقد أشبعنا الطيارين الروسي ، الذين يقودون طائرته توبلوف النفاثة ، بالفودكا ، وباستخدامنا لآلاتنا التكنولوجية الرهيبة أغريناهم حتى يصلوا حدودنا ، وارتطم ما شيل بأحد جبالنا العنصرية بقوة أطارت مخه ومعظم أعضاء جسمه ، والتي انفصلت عن جسده . على كل حال قام أطباؤنا العنصريون بإبقائه حيًا حتى انتزعوا منه كل أسرار الدولة . هذه هي الحقائق كما جاءت من منظمات الوحدة الإفريقية والأمم المتحدة » .

« كفوا عن هذا الهراء » . صاح فيهم ريكاردو مونتيرو . «لقد أخذت كفايتي . أصمتا أنتما الاثنين » .

فابتسم سين له وقال :

« آسف يا كابو فقد جرفني التيار بعيدًا . لقد أردت فقط أن تعرفا ما نتوقعه عندما نعبر الحدود. نأمل فقط ألا نلتقي مع أي من جماعات فريليمو أو رينامو فليس هناك شيء واضح يميز أحدهما عن الآخر . فهما يطلقان نفس الرصاص » .

كان مجرد تفكيره فيما قد يحدث قد أثاره إثارة شديدة . وشعر بأن مزاجه قد اعتدل ، فهو ذاهب لمواجهة الخطر المميت مرة أخرى ، وباللذة في الشعور بالخطر . وبصورة ما وجد أن حضور الفتاة معهم لم يعد يغيظه بل زاد من حدة شعوره بما سيحدث . وبدأ يحس بأن كراهيته لحضورها قد بدأت تتلاشى، بل كان سعيدًا بأنها هنا ، وأنه لم يرسلها عائدة لألاسكا . قاد سين العربة في صمت خيم عليهم أجمعين ، وحتى على معاونيه الذين تشبثوا بالحاجز

القائم في مؤخرة العربة . وكلما اقتربوا من الحدود كلما ازداد صمتهم عمقًا .

وأخيرًا التفت سين ونزر من فوق كتفه فأومأ جوب برأسه موافقًا . فقال سين بهدوء :

«هذه ، سيداتي وسادتي هي الحدود . علينا التنكر» .

ترك التايوتا تتعثر حتى وقفت عندما تقاطع الطريق مع حجارة بارزة :

وسأله ريكاردو : أين نحن الآن ؟

فأجابه : «أقرب ما نكون للوصول بأمان إلى الحدود . حوالي على أميال . ولكن من هنا فصاعدًا فالمشي على الأقدام» .

ألقى ريكاردو بإحدى رجليه خارج الشاحنة . لكن سين أوقفه بحدة : «مكانك يا كابو . ضع قدمك على تلك الحجارة حتى لا تترك أثرًا» .

هبطوا من العربة ، واحد في كل مرة ، يحملون حزمهم . وتحت أوامر سين كانوا يدوسون بالضبط على آثار أقدام من يمشي أمامهم . أما متاتو فكان آخرهم : يزيل ويمسح أثر الأقدام بحزمة من الأعشاب الجافة ، ومزيلاً لأي أثر لهبوطهم من العربة .

كان الشيف قد حضر معهم ليقود الشاحنة في رحلة العودة للمعسكر . ونادى سين وهو يستدير بها عائدًا : «فلتذهب بسلام ، مامبو !» .

ضحك سين وأرسله عائدًا بحركة من يده وهو يقول : «أمل عظيم» . ثم التفت إلى جوب : «لنذهب . عليك القيام الآن بقيادة تعمية الأثر» .

لم يشاهد ريكاردو أو كلوديا قط من قبل عملية لتعمية الأثر . فعندما يكونون في رحلة للصيد كانوا يطاردون الفريسة بحرية . أما تشكيل تعمية الأثر فكان بشكل (طابور هندي) يقوده جوب ثم يخطو كل من في الطابور على أثر القدم التي أمامه . من خلفهم جميعًا كان المايسترو العجوز متاتو يزيل آثارهم بحذق شديد . يرفع حصاة عليها أشنة ويصفها على جنبها الآخر ، يعيد ورقة عشب إلى وضعها الطبيعي ، يضرب الأرض بحزمته من العشب ، يلتقط من على الأرض ورقة نبات سقطت من فرع متدلي أو يلتقط ورقة عشب داستها الأقدام .

تجنب جوب مسارات الحيوانات البرية كما تجنب الأراضي الهشة وكان دائما يختار خط السير الذي يتسم بالغموض وعدم الوضوح . ورغم ذلك قادهم بسرعة فائقة حتى أن كلوديا ، وفي ظرف نصف ساعة ، شعرت بالعرق البارد بين لوحي كتفيها وتحت صدرها .

قادهم جوب لأعلى تل صغير وأشار إليهم سين لإخفاء أنفسهم تحت خط

الأفق وأن تكون الشمس من خلفهم دائمًا .

علق ريكاردو بصوت خافت وهو يرقب ديدان ويميولا أثناء أداء واجبهم : «إنهما يعرفان - على ما يبدو لي - ما يقومان به » . كان الإثنان قد توجها تلقائيًا لحراسة الأجناب ، وبدون أن يأمرهم أحد بذلك .

«نعم» . أجابه سين ، وهو يتخذ مكانه بينه وبين كلوديا ومستخدمًا نفس الشجيرة القصيرة ليخفي نفسه : «كان كلاهما من ضباط الصف بالكشافة ولقد قاما من قبل بنفس الشيء» .

تساءلت كلوديا : «لماذا نتوقف هنا ؟» .

فأجابها سين : «نحن الآن على الحدود وسنقضي بقية النهار في تفحص ودراسة الأرض أمامنا. وفور بزوغ القمر سنتوجه إلى هناك . لذا يمكنك أخذ قسط من الراحة حتى ذلك الوقت».

تناول سين منظاره (زايس) المقرب ونظر من خلاله . وعلى بعد ياردات قليلة منه كان جوب راقدًا على بطنه ويحدق في نفس الاتجاه بمنظاره الخاص . كان من وقت لآخر يبعدان المنظار عن عينيهما ليمسحوها ، ولاستعادة قوة رؤيتها الطبيعية ، أو لمسح المنظار نفسه وتلميعه . ولاحظت كلوديا كيف يحافظان على مناظيرهما ويعتنيان بها . ولكن ، بخلاف ذلك ، كان تركيزهما على تضاريس السهل الذي أمامهما مطلقًا ، ولم يتوقفا إلا بعد زوال آخر شعاع للشمس ثم وضع سين منظاره في جيب القميص العلوي والتفت لكلوديا :

«حان الوقت لعمل مكياجك » . وللوهلة الأولى لم تفهم ما يقوله سين حتى شعرت بمس الكريم الدهني على خدودها ، وبدون وعي منها تراجعت للخلف . ونهرها سين بحدة :

«قفي ثابتة . فإن لونك الأبيض يبرق كالمرآة ، وجاذب أيضًا للحشرات وللفحة الشمس». ثم لطخ وجهها وظهر يديها بالدهان . وعندما انتهى سين من تمويه وجهه أيضًا أقفل أنبوبة الكريم وقال لهم :

«ها قد بزغ القمر ويمكننا أن نتحرك الآن» .

أعاد سين تشكيل السير مرة أخرى وأرسل جوب ويميولا للجناحين بينما توسط هو الطابور ومتاتو - مرة أخرى - بالمؤخرة ، يكنس آثارهم بحذق وجدارة . توقف سين مرة وراجع معدات كلوديا فقد كان هناك إبزيم سائب في حزمتها يحدث صوتًا منتظمًا ومتوافقًا مع كل خطوة من خطواتها . كان صوتا ضعيفًا لم تنتبه له . وهمس في أذنها وهو يثبته في مكانه : «تحدثين صوتًا كهجمة الفيلق الخفيف » .

قالت في نفسها : «إنه وغد متعجرف » . ومضوا جميعًا في صمت لمدة ساعة

ثم ساعتين بدون توقف . لم تعرف اللحظة بالضبط التي عبروا فيها الحدود . كان ضوء القمر المتسلل خلال الغابة فضيًا وكانت ظلال الأشجار تومض ثم تخبو فوق أكتاف سين العريضة وهو يمشي أمامها. وشيئًا فشيئًا جعل الصمت المطبق وضياء القمر من مسيرتهم شيئًا غير حقيقي كالحلم ، ووجدت نفسها تمشي كالمنومة ميغناطيسيًا ، وأن حركتها كالذي يمشي أثناء النوم . لذا ، فعندما توقف سين فجأة ، اصطدمت به وكادت أن تسقط لولا أنه من نحوها ذراعًا مفتولاً وجذبها من خصرها . ووقفوا جميعًا متجمدين ، منصتين ومحدقين صوب الغابة المظلمة . وبعد حوالي خمسة دقائق حررت كلوديا نفسها بهدوء من ذراعه لكن قبضته عليها اشتدت فاستكانت لذلك . ومن الخيام الأيمن أطلق جوب نداءً كالطبور ، وبهدوء غطس سين في الأرض جاذبًا كلوديا معه ، وتوترت أعصابها بشدة عندما أدركت إنه لابد أن يكون هناك خطرًا حقيقيًا . لم تعد ذراعه حولها تزعجها الآن بل أنها بالغريزة استرخت والتصقت به أكثر وشعرت براحة لذلك .

جاء نداء طيور آخر خفيفًا من بين الظلمة . ووضع سين شفتيه على أذنها وقال من بين أنفاسه: «ثابته ! » . شعرت بأنها وحيدة مكشوفة عندما رفع ذراعه عنها وراقبته وهو يختفي كالشبح في الغابة .

تحرك سين وهو منحنى على الأرض ممسكًا بالبندقية في يد ويمد يده الأخرى نحو الأرض، متفحصًا لها بسرعة ثم ليزيح اي أغصان أو أوراق جافة يمكنها أن تحدث صوتًا تحت قدميه، ثم يخطو ثانية للأمام . رقد على بعد عشرة خطوات من جوب وتطلع نحو شبحه الداكن . أشد جوب بباطن يده الشاحب ، وركز سين اهتمامه نحو الجانب الأيسر الذي أشار إليه . ولعدة دقائق - بدت طويلة - لم ير أو يحس بأي شيء ولكن ، لثقته المطلقة في جوب انتظر في صبر الصياد المحترف . وفجأة التقط أنفه رائحة كريهة جاءت خفيفة مع نسائم الليل فرفع أنفه وتشممها باهتمام . نال جزاء صبره وثقته في جوب . فقد كانت تلك الرائحة الكريهة الحادة هي لتباكو من نوع برتغالى رخيص أسود اللون تصنع به (السجار يللوس) . وتذكر هذا النوع تمامًا ، فقد كان يصرف لأفراد الفوريللا أيام حرب الأدغال ، وربما لا زالت فريليمو تصرفها لهم .

أشر لجوب وتقدموا للأمام بصمت زاحفين كالفهود لمسافة أربعين خطوة حيث التقط سين الوهج القرمزي للسيجارة عندما جذب رجل نفسًا منها . ثم سعل الرجل ، بصوت بلغمي خافت ، وبصق . كان جالسًا وظهره على قاعدة شجرة ضخمة أمامهم واستطاع سين أن يحدد ملامحه وشكله .

«من هو ؟ أمن رجال القبائل المحليين ؟ أمن لصوص الصيد ؟ جامع عسل أم لاجئ؟ » . لا يبدو أنه واحد من هؤلاء . فهذا الرجل كان يقظًا ونشيطًا وغالبًا ما

يكون حارسًا . وعندما توصل سين لهذه النتيجة أحس بحركة أخرى أبعد قليلاً من هذا المكان وفي الحال تمدد تمامًا على الأرض.

خرج رجل آخر من الغابة وتوجه مباشرة نحو الحارس الذي وقف على قدميه ليلاقيه . وعندما نهض واقفاً استطاع سين أن يتبين البندقية إي كي ٤٧ المعلقة على كتفه وفوهتها على الأرض. تحدث الرجلان بخفوت مع بعضهما البعض .

«تغيير الحرس» . هكذا خمن سين عندما رأى الحارس الجديد يتكئ على الشجرة بينما توجه الآخر نحو الغابة حيث توقع سين أن يكون معسكرهم هناك .

وهو لا يزال راقدًا على بطنه تقدم بزحفة الفهد للأمام بعيدًا عن الحارس الجديد والذي سيكون قطعًا مفعمًا بالنشاط ومتيقظًا . وعندما وصل خارج حدود المنطقة نهض منحنيًا وتوجه بسرعة للأمام حتى وصل لمعسكر الحرس . وجد المعسكر في ثنية من الأرض مقابلة للتلال وكان معسكرًا مؤقتًا ، حيث لم تكن به أكواخ ولا مخابئ ، ما عدا نارًا صغيرة في كومتين متقاربتين احترقتا وتحولتا إلى فحم . أحصى أحد عشر رجلاً راقدًا حول النيران وكل منهم مغطى ببطانية حتى رأسه على الطريقة الإفريقية . ربما يكون هناك خمسة أو ستة آخرين في مهام للحراسة ، لكنهم كانوا جماعة صغيرة عمومًا .

ورغم افتقاره للأسلحة الأوتوماتيكية فقد كان بامكان سين ورجاله التعامل مع هؤلاء . فكل رجال سين لا يزالون يحملون معهم أنشوطة من سلك البيانو . أما متاتو فكان لا يفارق سكينه الذي كان حادًا لدرجة أن نصله صار في نصف الحجم الذي كان عليه أولاً . ولو هجم عليهم لما استيقظ أحد الراقدين أو أحس بهم .

هز سين رأسه أسفًا ، فقد كان متأكدًا أن هؤلاء الرجال إما من قوات فريمو المنظمة أو من أفراد الفورميلا التابعين لرينامو . ومهما كان ، فليس بينه وبينهم عداء طالما لم يتدخلوا في مطاردته للفيل . تراجع سين إلى حيث كان جوب في انتظاره وقال سين : .

«إنهم أحد عشر رجلاً حول النار» .

قال جوب : « لقد اكتشفت اثنين آخرين من الحراس »

سأله سين : «فريليمو ؟» .

هز جوب كتفيه بلا مبالاة وقال : «من يدري ؟» . لمس سين ذراعه وزحفا بعيدًا عن المعسكر حتى يتحدثا بحرية ولا يسترق سمعهم أحد .

- ماذا تظن يا جوب ؟

- جماعة صغيرة لا تعني شيئًا يمكننا أن نبتعد من حولهم .

- لكن من الممكن أن يكونوا فصيلة أمامية من جماعة كبيرة .

غمغم جوب بسخط :

«هؤلاء ليسوا من الجماعات المتمرسة . يدخنون وهم في الحراسة . ينامون بجوار النيران . إنهم ليسوا بالجنود فهم سواح ! » .

ابتسم سين للهجة الإذدراء لجوب . كان يعرف أن أحكامه ونظرته للأمور أكثر انجلو ساكسونية مما هي إفريقية وأنه عندما يقرر أمرًا كان من الصعب صرفه عنه . وسأله :

«ألا تزال تريد الذهاب ؟ »

همس جوب :

«من أجل خمسمائة ألف دولار ؟ إنك تعرف حقًا أنني أريد الذهاب » .



كانت كلوديا خائفة . فالليل الإفريقي مشحون بالأسرار والغموض والشك والرعب. وكان الانتظار قد ضاعف من شعورها بالتوجس ، فقد غاب سين لحوالي الساعة حتى الآن . ورغم أن أبيها كان بجوارها إلا أنها شعرت بالوحشة والوحدة والخوف .

ثم فجأة عاد سين . وشعرت براحة جارفة ، وأرادت أن تصل إليه وتتعلق به لكنها خجلت من نفسها ومن ضعفها . كان سين يهمس في أذن أبيها فاقتربت أكثر منهم ، لتتصت إليهم ، ولمست بذراعها ذراع سين العارية لكنه لم يبد عليه أنه لاحظ ذلك . لذا تركتها في مكانها شاعرة بالطمأنينة والراحة والأمان من جراء ذلك .

كان سين يشرح لأبيها :

«إن جماعة صغيرة مسلحة تعسكر أمامنا . ليس أكثر من عشرين رجلاً ، لكننا لا نعلم من هم بحق الجحيم . ويمكننا أن ندور من حولهم ونواصل السير أو أن نرتد على أعقابنا ونعود للمعسكر . الأمر متروك لك يا كابو » .

- إنني أريد ذلك الفيل .

- هذه فرصتك الأخيرة للتراجع يا كابو » .

ورغم تحذير سين له إلا أنه أجابه :

«إنك تضيع الوقت يا سين » . مزق قرار والدها كلوديا . إذ أن الرجوع الآن لا يعني سوى الهبوط من علو شاهق للدرك الأسفل ، رغم أن أول ما تذوقته من

نكهة إفريقيا الحقيقية كان مضطربًا ومشوهًا . أدركت ، عندما عاودوا السير ، ومشت من وراء سين ، أن هذه كانت المرة الأولى في حياتها التي تنسلخ فيها عن دائرة الحضارة ومقوماتها . المرة الأولى التي لا تكون فيها قوة من الشرطة لتحميها ، ولا سبيل لقانون أو عدالة أو رحمة . إنها هنا غير حصينة وعرضة للهجوم ، كالظبي مع الفهد وسط غابة تعج بالمفترسات .

أسرعت في خطاها واقتربت جدًا من سين ووجدت ، لدهشتها ، أنها فجأة وبصورة عجيبة ، أصبحت أكثر حيوية ويقظة مما كانت عليه في أي وقت مضى . ولأول مرة في حياتها شعرت بأنها في أول درجات الوجود ومستوى البقاء . لقد سرت لقرار والدها بعدم الرجوع للوراء .

منذ مدة كانت قد فقدت إحساسها باتجاه مسيرهم ، فقد كان سين يقودهم في اتجاهات لا يمكن التنبؤ بها . كانوا في حالة من تغيير الاتجاه خلال الغابة : يدورون مرة ثم يشقون طريقهم بصورة ملتوية مرة أخرى ، يمشون بسرعة أحيانا وفي أحيان أخرى يزحفون بخفية كالأشباح وثالثة يتجمدون واقفين في سكون وصمت مطلق بإشارة من أحد الأجنحة ، غالبًا ما لم تسمع لها صوتًا . ولاحظت أن سين ينظر مرة بعد أخرى نحو قبة السماء وخمنت إنه يسير مستهديًا بالنجوم، بالرغم من أن الأفلاك والوهج والمجالات كانت مشوشة لها ، وكأنها أنوار المصابيح في مدينة غريبة .

بعد فترة رأت أنهم لم يستديروا ولم يتوقفوا لمدة طويلة . بل كانوا متجهين مباشرة أمامهم في خط مستقيم ومن الواضح أنهم قد خرجوا من دائرة الخطر في الوقت الراهن . هدأت ثائرة ترقبها وترترها وشعرت فجأة بثقل رجليها وبالتعب والإرهاق وآلام الظهر وبدالها أن الحمولة التي على ظهرها قد تضاعف وزنها أربعة مرات ونظرت إلى ساعة معصمها . أشارت عقاربها المضيئة إلى أنهم قد مشوا لحوالي خمسة ساعات متصلة منذ أن داروا حول معسكر الحراس ذاك .

وتساءلت في نفسها : «متى نأخذ قسطًا من الراحة ؟» رغم ذلك فقد اعتبرت أن كرامتها وعزة نفسها هي في مواصلة السير من خلف سين وألا تتأخر خطوة واحدة عنه . هبطت درجة الحرارة، وكأن ثلاجة قد فتح بابها ، وعندما غادروا إلى أجمة أخري كان الندى على الحشائش الطويلة يبلل أرجل سراويلها وكان حذاؤها موحلا . وارتجفت لأول مرة من شدة ارتباكها .

«متى يرتاح هذا الرجل ؟» حدقت في ظهر سين بإزدراء ومتمنية أن يتوقف . لكنه مضى قدمًا وقدمًا وغمرها شعور بأنه يفعل ذلك متعمدًا إذلالا لها ، ليسبب إنهيارها ، وليجعلها تستغيث طالبة الرحمة . وقالت لنفسها: «سأريك من أنا !» . لم تبطئ في خطاها وهي تمد يدها وراءها وتخرج الجاكت من حزمتها .

فقد كانت الدنيا باردة حقًا وبدأ الصقيع يقرقع تحت أقدامها التي بدأت تصاب بالخدر . لكنها واصلت الحفاظ على موقعها منه بل وجدت لدهشتها أنه كان بإمكانها فجأة رؤية أي خصلة من شعر سين تدلت وراء عنقه .

«الفجر . ظننت أنه لن يأتي أبدًا » وما أن حدثت نفسها بذلك إلا وتوقف سين ... وأخيرًا . اقتربت منه وأعصاب رجليها تئن وترتجف تعبًا . وتحدث سين إلى أبيها متجاوزًا لها :

«إنني آسف يا كابو . لقد اضطررت لدفعكم قليلاً للأمام فعلينا أن نبتعد تمامًا عن تلك العصابة قبل شروق الشمس . كيف أنتي الآن ؟ » غمغم ريكاردو: «لا شيء يذكر» ولكن ، وفي ضوء الفجر الشاحب ، كان وجهه يبدو قاتما متجعدًا . كان يعاني مثلما تعاني لكنها تمنت .

ألا تبدو بهذا الشكل البشع . ذهب أبوها ليجد مكانًا يجلس فيه وانحنى على الأرض في تثاقل وجلس .

ونظر سين إلى كلوديا الواقفة بجواره . لم يتحدث أحد منهم لكن كانت ترتسم على شفتين ابتسامة مبهمة . وفكرت : «لا تسألني كيف أشعر. إنني أفضل أن أشرب مسهلاً على أن أخبرك بالحقيقة » . أحنى رأسه قليلاً . ولم تعرف إن كان ذلك تلطفًا منه أم احترامًا لها وقال لها :

«اليوم الأول واليوم الثالث هما دائمًا الأسوأ » فأجابته :

«إنني على ما يرام ويمكنني الاستمرار قدمًا بكل انشراح » . فابتسم لها ابتسامة عريضة وقال لها :

«بالتأكيد . لكن من الأفضل أن تكوني مع بابا الآن وأن تعني به » .

أحضر سين إبريقًا من الشاي إلى حيث جلست مع أبيها ، وكانت متلفعة بحشية نومها الخفيفة المحشوة بالريش من جراء برد الفجر القارس . كان جوب قد غلى الشاي على نار صغيرة عديمة الدخان ثم أطفأها فور غليان الإناء . وكان الشاي قويًا لاذعًا وحلوًا ، ولم تذكر أنها تذوقت في حياتها ألذ منه . كما قدم لها بجانب الشاي كمية من كعك الذرة الشامي وقطع باردة من شرائح لحم الغزال . سيطرت على نفسها حتى لا تلتهمها إلتهامًا أمامه . ثم نبهها قائلا : «سنعاود السير خلال بضع دقائق » . لكنه عندما رأى الفزع في عينيها أضاف موضحًا :

«لا يمكن أبدًا أن ننام بالقرب من نار الشاي فهذا قد يجذب إلينا أولئك البشعين » .

واصلوا السير لخمسة أميال . وعند فترة الضحى ، وعلى أرض مرتفعة في مكان آمن يسهل الدفاع عنه ، شرح لها سين كيف تغترف التراب ، عند

نومها ، من الأرض لتريح أوراكها وكيف تستخدم حزمتها كوسادة . سقطت نائمة وكأنما ألقى عليها كيس من الرمل .

لم تصدق ، عندما هزها سين لتصحو بعد دقيقة من نومها كما ظنت ، أن الساعة تجاوزت الرابعة عصرًا . مد لها إبريقا من الشاي وقطعة أخرى من خبز الذرة الشامي وقال لها :

«لقد نمت ستة ساعات بالتمام والكمال وسنتحرك من هنا خلال خمس دقائق » .

أسرعت بطي كيس نومها ثم نظرت إلى نفسها في المرآة اليدوية المصنوعة من المعدن ـ والتي كانت قد استعادتها سرًا بعد أن أخرجها سين من حقيبتها أول الرحلة وألقى بها بعيدًا . وهمست لنفسها :

« يا إلهي » . كان دهان التمويه قد اختلط بعرقها ولطخ وجهها بالقشور : «إنني الآن أشبه (آل جونسون) في بشاعته » . ثم مشطت شعرها ولفته بوشاحها .

كل ساعتين كانوا يرتاحون قليلاً ، وواصلوا سيرهم طوال الليل . ومنذ استئناف السفر ، كانت كلوديا تشعر بساقيها وكأنهما مجبصتان لكنها سرعان ما نشطت وحافظت على موقعها من الطابور بدون أن يتجاوزها أحد ، رغم أن مشي سين السريع كان لا يقل مشقة عليها من مشي الليلة السابقة .

وفي الفجر شربوا الشاي الذي أصبحت كلوديا معتادة عليه . كانت طوال حياتها من شاربات القهوة ، لكنها وجدت نفسها الآن تتشوق لكوب الشاي القوى التالي . وأسرت في أذن والدها بنوع من المزاح :

«هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أواصل السير » . وواصلت مزاحها :

«يقولون أن الإنجليز غزوا مستعمراتهم من أجل الشاي » .

أومأ ريكاردو برأسه موافقًا ثم عاد سين إليها بعد نقاش عميق مع جوب ومتاتو وقال لهما :

« إننا على بعد ساعات قليلة من السير من مستنقعات وبرك البومي حيث رأينا توكوتيلا لآخر مرة من الجو » . ثم نظر قاصدًا كلوديًا : «سأحاول أن نصل إلى هناك قبل أن نخلد للنوم ، ولكن ... يبدو لي أن بعضًا منا مرهق قليلا». ترك الجملة معلقة في الهواء بينهما في تحد وبنوع من الالتهام . فقالت له بكياسة ولطف :

« بعد هذا الإفطار فإنني أرغب في شيء من الحركة والمشي » .

كانت كلوديا تكره أن تعطيه أي فرصة للنيل منها أو ليرى أن نقطة ضعف فيها . لكنها تمنت لو أن وجهها لم يكن مطلبًا بهذا الكريم البشع

الأسود .

وعندما استدار سين عائدًا التقط والدها أوراق الشاي من كوبه ورماها بعيدًا وقال لها :

« لا تقعي في غرامه يا تيسورو إذ لا يقدر عليه أحد . حتى أنت » .

نظرت إليه بحنق وارتياع :

« أقع في غرامه ؟ هل فقدت عقلك يا بابا ؟ إنني لا أطيق حتى رؤيته » .

ضحك بغبطة وقال لها : «هذا ما قصدت إليه » .

نهضت واقفة وألقت بكيسها على ظهرها بشدة وعنف وقالت لأبيها في ترفع: «بمقدوري التعامل معه ومع خمسة من أمثاله وعيناي مغمضتان وإحدى يدي مربوطة خلف ظهري ! ولكن ذوقي أفضل من ذلك » .

غمغم بصوت خفيض حتى أنها لم تعرف ما قاله جيدًا :

«هذا من حسن حظك » .

قبل الظهر بقليل قادهم متاتو إلى نباتات البردي التي تحيط بالبركة الخضراء التي رأوها من الجو ومنها مباشرة إلى الأثر الكبير كالطبق المطبوع على الوصل وتجمعوا من حوله ليتفحصونه . وأخبرهم متاتو :

«انظروا ! هنا وقف توكوتيلا عندما سمع صوت (الإنديكي) قادمة ! هنا وهناك استدار لينظر إلينا متحديًا » . قلد متاتو حركات الفيل العجوز رافعًا رأسه بنفس الزاوية ومحنيًا ظهره بينما وضع كلتا يديه على أذنيه . كان تقليدًا مدهشًا حتى إنه بدا لوهلة وكأنه الفيل العجوز . ضحكوا جميعًا ونسيت كلوديا تعبها وصفقت في إعجاب .

سأله سين متصنعًا الحزم :

«ثم ماذا فعل الفيل العجوز ؟ »

استدار متاتو على عقبيه ثم أشار بطول الممر الذي يحمل أثر الفيل :

«لقد ذهب بعيدًا بكل سرعة . ذهب بسرعة وبعيدًا جدًا » .

هنا قال سين :

«هذا يجعلنا بالضبط خلفه بثمانية وأربعين ساعة لذا علينا أن ننام الآن . وعندما نستأنف السير سنكون وراءه بخمسة وخمسين ساعة » .

◆◆◆



القسم الثاني

الفيل - توكوتيلا

كانت أم توكوتيلا بمثابة الأم الرئيسة لقطيع من أكثر من مائة من الوحوش . وعندما بلغت الثانية والخمسين من عمرها حظيت بآخر دورة شبق لديها . وخلال الأيام التي استمرت فيها الدورة كان قد امتطاها وخدمها ستة من الأفيال الشابة القوية والتي وصلت لقمة قوتها وحيويتها.

فالطريقة المثلى للحمل بعجل خارق للعادة هو أن تكون البقرة عجوزًا والثور شابًا فتيًا . ورغم إنه لم يعرف الفيل الذي غرس بذوره في أحشائها ، إلا أن الفيلة العجوز قد احتضنت جينات الفيلة العظام كبيرة الأجسام وعظيمة الأنياب ، ذات الذكاء الفطري والرغبة في السيادة والسيطرة . نفس هذه الجينات هي التي جعلت منها قائدة للقطيع وقد نقلتها الآن إلى الجنين الذي تحمله في رحمها .

حملت به اثنين وعشرين شهرًا . وفي السنة التي كان فيها الجنود الألمان ، بقيادة الجنرال (فون لتوف - فوريك) ، يقتحمون شرق إفريقيا ، عام ١٩١٥ ، تركت القطيع واصطحبت معها واحدة فقط من الفيلة المسنة والتي تجاوزت سن التوالد ، رفيقها لأربعين عامًا ، وتوغلت عميقًا في المستنقعات الفسيحة التي تقع على الضفة الجنوبية لنهر الزامبيزي . وهناك ، وفي جزيرة محفوفة بنخيل الجوز العاجي ، والمحاطة بأميال من نباتات البردي ، وبالنسور صائدة الأسماك ذات الرأس الأبيض التي تصدح من فوقها ، قامت بنظافة قطعة أرض رملية اختارتها لمضجعها . وعندما جاء الوقت مددت أرجلها الخلفية وجلست القرفصاء على الأرض تئن من ألم الوضوع وهي تضع خرطومها مطويًا على صدرها .

ليس للفيلة قنوات للدمع في أعينها ، لذا سالت الدموع وتدفقت على خدودها المجعدة وكأنها تبكي ، وأخذت تقلصات الوضع الموجعة تهد في بنيان جسمها الضخم الكالح .

ووقفت زميلتها بجانبها ، كالمولدة ، تربت عليها بخرطومها وتضربها به خفيفًا على ظهرها وتدمدم في تعاطف معها .

خرج رأس العجل ، ثم ارتاحت قليلاً قبل أن يؤدي مجهودها الشاق أخيرًا إلى خروج كيس الجنين القرمزي الأرجواني ، وسقوط العجل على الأرض وقد انقطع حبله السري . وبدأ توكوتيلا فورًا محاولة النهوض رغم انحباسه بداخل الكيس اللامع المكسو بالمخاط . ووقفت زميلتها الفيلة العجوز عليها ، وبخرطومها انتزعت الكيس من حوله وألقته على الأرض .

قامت الأم برقة ومحبة برفع توكوتيلا على قدميه بخرطومها ووضعته بين قدميها الأماميين وهي تصدر هريرًا عميقًا دليل ارتياحها . ورغم أنه كان لا يزال مبللاً ناعمًا يلمع من آثار ولادته ، مغطى بشعر بني غزير ، ويكاد يكون عميانًا ، إلا أنه لوى خرطومه الصغير باتجاه جبهته ووصل بالغريزة لمكان الضرعين الممتلئين بصدر أمه .

وبينما كان يتذوق للمرة الأولى طعم اللبن القوي اللذيذ تناولت أمه الكيس الجنيني والخلاص وحشرتهم في فمها تمضغ وتبتلع ، وفي نفس الوقت استخدمت خرطومها في نثر الرمل على البقعة الرطبة الملطخة بالدم حتى غطتها تمامًا . وظل الثلاثة ، الأم ورفيقتها وتوكوتيلا بالجزيرة لحوالي اسبوعين حتى أتقن توكوتيلا استخدام أرجله وخرطومه واسودت البقع التي بجلده الداكن وتوافقت عيونه مع ضوء الشمس الإفريقي القاسي . وعندما اعتبرت أنه صار قويًا بما فيه الكفاية أخذته ، لتفتش على مكان القطيع ، وهي تدفعه أمامها بخرطومها أو ترفعه به بالأماكن الوعرة أو المنحدرة .

ومن بعيد وصل إليهم من أعماق الغابة ضجيج الأفيال المائة أثناء تناولها للطعام . أصوات تحطيم وتمزيق الشجيرات والأغصان والأشجار والصيحات الحادة ، التي تشبه صراخ الخنازير . لصغار الفيلة وهم يلعبون .

أطلقت أم توكوتيلا صوتًا عاليًا ينبئ بعودتها وسرعان ما اندفع أفراد القطيع لملاقاتها . وعندما اكتشفوا ودود الصغير التفوا من حوله يلمسونه بخراطيمهم وينفثون رائحته داخل أفواههم حتى يتعرفوا عليه بعدها دائمًا .

انكمش توكوتيلا ولجأ إلى تحت قدمي أمه الأمامية وهو مبهور بهذه الأجسام الضخمة التي تحيط به ومطلقًا صيحات طفولية من الخوف . لكن أمه لفت خرطومها حوله وغمغمت مطمئنة له. وفي خلال ساعات ، وليس أيام ، بدأ يتسلل من حمايتها له ويغامر بالخروج للحاق بأقرانه وليبدأ في أن يجعل لنفسه وكانا قياديًا وسط القطيع .

كان القطيع مكونًا من جماعة مترابطة ، ويكادون أن يكونوا جميعًا أقرباء بالدم ، وكانوا بالضرورة يعتمدون على بعضهم البعض ، كما كان تعليم وتدريب الصغار من مسئولية الجميع . كانت الصغار دائمًا ما تحفظ في الوسط . أما مسئولية الإشراف عليهم ومراقبة لعبهم وهرجهم فقد تولتها الفيلة التي جاوزت سن التوالد والتي عينت نفسها بنفسها مشرفة عليهم . كان اهتمامهن بهم عظيمًا لكن لم يكن ليسمح بأي خروج عن قوانين القطيع ، وإلا فإن ضربة بفرع شجرة على ظهر العجل المتمرد أو على مؤخرته كان يقوده للطاعة الفورية وسط العويل والصراخ .

عـرف توكـوتيلا مكانـه ووضعـه في كـل حالـة مـن الحـالات . فيكـون في الوسط إذا ما كان القطيع يتغذى أو يأخذ قسطًا من الراحة ؛ أو بين قدمي أمه الأماميتين عندما يكونون سائرين أو هاربين من خطر . تعلم الاستجابة الفورية لأي إشارة على وجود خطر والتعرف عليها ، حتى لو جاءت من فيل من أقصى أطراف القطيع .

فعندما تجئ الإشارة ، كان الصمت الفوري المطبق ، بعكس الضجيج والصخب الذي كان يلفهم ، هو الاستجابة الغريبة والسريعة لها .

كان نمو توكوتيلا وتطور حياته مشابهًا لمراحل حياة الإنسان وتطوره . فقد استمرت طفولته لعامين طرح خلالهما أسنانه العاجية اللبنية الصغيرة التي ولد بها ثم دخل طور الأحداث الطويل والذي ظهرت فيه أنيابه الحقيقية من خلف شفتيه . ففي البداية كانت مغطاة بطبقة رقيقة ملساء من الميناء ولكن ، وعندما تم فطامه من الرضاعة وبدأ يستخدم نابيه في الأكل ، أو عند ملاعبة أقرانه، بدأت الميناء تزول تدريجيًا وأخذ العاج الحقيقي يبرز من تحتها .

ستستمر أنيابه في النمو طولاً وعرضًا خلال حياته كلها ، وحتى عندما يصل لأرزل العمر ، فقد ورث جيناتها ، التي تتحكم في نموهما الخارق للعادة ، من أمه مع بقية المزايا التي ورثها عنها من القوة وضخامة الحجم والذكاء . وعندما بلغ الثالثة تعلم توكوتيلا أساليب التهديد أو الاستسلام تجاه الآخرين وكان لعبه معها صاخبًا مع رفرفة متواصلة لأذنيه ثم الكر والفر والتي أسرعت في نمو وتطوير هيكله غير العادي .

بدأ اهتمام أمه به يقل بعد فطامه وصار أكثر حرية في التجول رغم أنه كان يسرع ليدخل تحت حمايتها عند ظهور بوادر أي خطر . أما أثناء سير القطيع وتجواله فكان مكانه دائمًا بالقرب منها في مقدمة القطيع ، ومن هنا تعلم منذ باكورة حياته مناطق القطيع ومعالم حدودها .

كانت هذه المناطق شاسعة تمتد من شواطئ بحيرة نياسًا شمالاً وحتى الغابات المطيرة لجبال شيمانيماني جنوبًا ، وإلى الغرب حتى الممر الضيق العميق، والذي يشق نهر الزامبيزي فيه طريقة بين فجوات الحجارة الصماء وهو يهدر أبدا بصوت كالرعد . أما إلى الشرق فيمتد نطاق مناطقه لمسافة خمسمائة ميل إلى حيث ينتشر نفس النهر ويتفرق عبر سهول فيضانية واسعة ومستنقعات ساحلية قبل أن يتدفق النهر ، ومن خلال عدة مخارج له ، إلى المحيط الهندي .

استوعب تمامًا الممرات الجبلية والطرق القديمة العهد التي تسلكها الفيلة ، وعرف أين تقع الأغوار التي تنمو فيها أشهار الفواكه ذات الثمار الفضة الحلوة ومواسم نضجها . قادته أمه الرئيسة إلى سهول السافانا ، التي احترقت بالنار ،

فور بزوغ النباتات الخضراء الرقيقة من بين الرماد بها . وقادته إلى الملاحات التي كانت الأفيال ، ومن آلاف السنين ، تأتي إليها لتقتلع منها قطعًا كبيرة من التربة المعدنية الفنية بأنيابها وتأكلها بلذة ، تفوق لذة تناول الصبيان لقطع الحلوى ، والتي شكلت عبر السنين حفرًا وأخاديدًا في التربة الإفريقية الحمراء .

وصل القطيع إلى جبال مافيرادونا في الجنوب حيث كانت أشجار غابات المساسا قد اخضرت وامتلأت أوراقها بالعصير. ثم كان في الغابات المطيرة الكثيفة لجبل ملانجي عندما ارتد باقي القطيع هربًا من الجفاف الإفريقي الطويل الذي بدأ . كانت الفيلة العجوز تقودهم دائمًا إلى أماكن المياه والتي كانت الأفيال تعتمد عليها تمامًا في تلك الفترة . فإن لم تشرب يوميًا فإنها تعاني مشاقًا عظيمة . فهي تحتاج إلى كميات هائلة من المياه لأجسامها الضخمة ، ولنظافة أجسامها وجلودها ، ثم ببساطة لمتعة ولذة التمرغ في الماء واللهو به . لقد كانت المياه هم أهم مناطق تجمعهم وحيث تقوى الروابط بينهم وحيث يمارس الكثير من سلوكهم وعاداتهم الاجتماعية وحتى التزاوج كان لا يتم إلا في المياه. أما عندما تختار الفيلة الحوامل مكانًا لولادتهم فهو دائمًا ما يكون بجوارها .

وفي بعض الأحيان تكثر المياه وخاصة في الأنهار الإفريقية الخضراء العظيمة ، وعلى لجبال التي تهطل عليها دائمًا الأمطار لغزيرة ، وبأراضي المستنقعات الواسعة حيث تغمس الأفيال أجسامها وتتوغل بداخلها سباحة لتشق مسطحات نباتات البردي المائية وحتى تصل إلى الجزر . وفي أحيان أخرى كان عليها أن تحفر شواطئ الأنهار الجافة حتى تظهر المياه ، أو تنتظر دورها بصبر أمام الحفرة لتلقى بخراطيمها بداخل العين السحرية العميقة للبئر وتمتص من آن لآخر جرعات من الماء المر الكريه . كان مجال مناطقهم واسعًا ولم يكونوا يلتقون إلا قليلاً بإنسان فيه . كانت هناك حرب تدور في بلاد بعيدة وقد امتصت معظم الرجال البيض والقتهم في أتونها . لذا كان الرجال الذين يلتقيهم القطيع نصف عرايا عادة ومن القبائل البد ئية والذين يطلقون سيقانهم الرقيقة للريح عندما يشاهدون القطيع . لكن توكوتيلا تعلم من باكورة حياته أن خطرًا ماحقًا يحيط بهذه الكائنات الغريبة عديمة الشعر والتي تشبه قرود الجبال . وعندما بلغ الخامسة من عمره كان بإمكانه أن يشم رائحتهم الكريهة التي يحملها الهواء من على بعد عدة أميال ويميزها وكانت حتى أضعف رائحة لهم تصلهم تجعله وبقية القطيع في حالة شديدة من القلق والخوف .

لكن توكوتيلا كان في الحادية عشرة من عمره قبل أن يمر بأول تجربة لا تنسى مع الإنسان . ففي ذات مرة ، وعندما كانوا يشقون طريقهم ليلاً بطول الشاطئ الجنوبي لنهر انزامبيزي ، وقفت أمه فجأة أمام القطيع ورفعت

خرطومها فوق رأسها بكل طوله وتشممت الهواء . حاكاها توكوتيلا ، وما لبث أن اكتشف وجود رائحة مثيرة عذبة في الهواء . أدخل خرطومه في فمه ونفخ فيه طعم تلك الرائحة الطيبة التي تدفق بعدها لعابه وسال قطرة قطرة من شفته السفلى . تجمع بقية القطيع من خلفهم وما لبثوا أن غمرتهم أيضًا هذه الرائحة الطيبة وفتحت شهيتهم . لم يحدث أبدًا أن اشتم واحد منهم رائحة قصب السكر من قبل .

قادتهم الأم الرئيسة العجوز وبعكس اتجاه الريح وما لبثوا ، بعد بضعة أميال ، أن وصلوا لمنطقة على ضفة النهر كان قد تم حديثًا نظافتها وريها وزراعتها بقصب السكر . كانت الأوراق السيفية الطويلة تلمع تحت ضوء القمر وكان عبيرها قويًا حلوًا لا يقاوم ، واندفع القطيع نحو الحقول الجديدة منتزعًا النباتات نزعًا وحاشرًا لها في حلاقيمه بشراهة عظيمة .

كان حجم الدمار رهيبًا وفجأة أحاطت بالقطيع صيحات الرجال يحملون شعلاً وكشافاتًا كهربائية ويصرخون أو يطرقون على الأواني المنزلية وعلى الطبول . جن جنون الأفيال وأصابهم الرعب واندفعوا خارجين من الحقول ، ولكن جاءت وراءهم سلسلة من الإنفجارات وبريق نيران رصاص البنادق من خلال الليل . كانت هي المرة الأولى التي اشتم فيها توكوتيلا رائحة دخان الكوردايت المحروق وسيتذكره دائمًا ويقرن بينه وبين الصراخ المكروب لتلك الأفيال التي أصيبت أو قتلت .

هرب القطيع بسرعة في البداية وبعدها واصل مشيه الطويل الخطا والذي يقطع به الأرض بسرعة جواد في خبب . وعند الصباح لم تستطع فيلة شابه ، كان أول رضيه لها تحت بطنها ، مواصلة السير مع القطيع وانهارت على ركبها الأمامية والدم القاني يسيل من جرح أحدثته رصاصة في جنبها .

استدارت الأم الرئيسة لمساعدتها ، وهي تناديها مشجعة لها ، لكن البقرة لم تستطع النهوض . ووقفت الأم الرئيسة بجوارها وقامت مستخدمة أنيابها وخرطومها برفعها على اقدامها ، وحاولت أن تقودها للأمام ، ولكن كان ذلك على غير طائل ، إذ انهارت الفيلة الشابة ثانية وتمددت ، وقد طوت أرجلها من تحتها . أقلقت رائحة دمها بقية القطيع وأرعبته والتفوا من حولها يلوحون بخراطيمهم ويضربون الهواء بآذانهم .

قام فيل شاب ، في محاولة يائسة لإنعاش الفيلة المنهارة ، بالركوب فوقها وكأنه يحاول جماعها لكن دفقة من الدم الشرياني اندفعت من الجرح ثم بأنة عميقة انقلبت على جنبها .

بعكس معظم الحيوانات فإن الفيلة تستطيع تمييز الموت وخاصة موت واحد

من جماعتهم . حتى توكوتيلا الصغير تأثر بشدة بالانقباض الحزين الذي أعقب موت الفيلة . اقترب بعض أفراد القطيع من الجثة ولمسوها بخراطيمهم ، رمزًا للوداع ، قبل أن ينحدروا نحو الغابة وأراضي الأشجار الشوكية ويتوغلوا فيها .

لكن الأم الرئيسة بقيت معها بعد أن ذهب بقية القطيع ، ولزم توكوتيلا مكانه بجانبها . بدأ يراقب أمه وهي تنتزع الأفرع والأغصان من الأشجار القريبة، وتكومها فوق جثة الفيلة الميتة ، ولم تتوقف عن ذلك إلا بعد أن غطتها تمامًا وأخفتها تحت مقدار عظيم من النباتات .

كان رضيع الفيلة الميتة لا يزال واقفًا بجوار جثتها ، وقامت الأم الرئيسة بدفعه أمامها عندما تتبعت باقي القطيع . ومرتين حاول العجل أن يستدير عائدًا لمعرفة أمه لكن الرئيسة كانت تسد الطريق عليه بخرطومها وتدفعه قدمًا .

وعلى بعد ميل كان القطيع منتظرًا في أجمة من أشجار الفيفر المصفرة الجذوع وكان كثير من صغار العجول يرضعون أمهاتهم . دفعت الرئيسة بالعجل اليتيم إلى حيث كان عجل أكبر سنًا ، وموشك على الفطام ، لا يظهر إلا اهتمامًا فاترًا بضروع أمه . دفعت باليتيم حتى وقف تحت أرجل الأم الأمامية ولوى بالغريزة خرطومه على جبهته وتناول حلماتها . لم تعترض الفيلة على ذلك وقبلت أن تقوم بدور الأم المتبنية في رضى ورباطة جأش ، ووقفت الأم الرئيسة بجوارهم تغمغم مشجعة لهم وعندما عادت لتقود القطيع ثانية ، كان اليتيم قد حل محل العجل الأكبر سنًا بين رجلي الأم الجديدة الأمامية .

ومنذ ذلك الحين ، تكرر كل موسم تقريبًا احتكاك القطيع بأناس يحملون الأسلحة النارية وخاصة عندما تكون الذكور متجمعة مع أناثها في موسم التوالد .

كانت الذكور البالغة لتبتعد بقدر الإمكان عن الإناث والعجول ، والتي تسلك بضجيجها وصخبها سلوكًا لا يطيقه الكبار ، إضافة إلى التنافس على الطعام من مرعة وأشجار مورقة . فما أن يقوم فيل بهز الأغصان العالية لشجرة مثمرة شوكية وتهمر ثمارها على الأرض إلا وأسرع إليها وستة من شباب العجول لالتهامها من دونه . أما إذا قام بعد جهد عظيم بالضغط برأسه على شجرة مساسا صلبة الجزع ، واقتلعها من جذورها بدوي كصوت المدافع ، حتى تهجم عليها في الحال أربعة أو خمسة من البقرات الشرهة مندفعة أمامه ، وقبل أن يتذوق طعم عصير أوراقها القرمزية .

لذا كانت العجول الفتية تتجول بعيدًا عن القطيع أفرادًا أو جماعات مكونة من ثلاثة أو أربعة أفيال . وربما كانوا بالغريزة يعرفون أن تجمعهم مع باقي القطيع يساعد على اجتذاب الصيادين ، لذا كا نمن الأسلم لهم أن يبتعدوا

عنه .

كانوا أحيانًا يبتعدون بضعة أميال عن القطيع . وأحيانًا يبتعدون إلى أربعين أو ثلاثين ميلاً عنه لكن كانوا دائمًا على إحساس وإدراك بمكان تجمع القطيع وسرعان ما يعودون إليه ، خاصة عندما تكون الإناث في مرحلة الشبعة . ولكن كان غالبًا ، وعندما تنضم الذكور إلى باقي القطيع، ما يسمع الصوت المفاجئ لإطلاق النار عليهم ، ومن ثم عويل وصراخ الحيوانات الجرحى ، والذي يعقبه إندفاعهم الجنوني ، بأجسادهم الضخمة المرعوبة ، خلال الغابة والبراري .

عندما كان توكوتيلا في أول صباه الباكر ، وعندما أوشك أن يكمل من عمره عشرة سنين ، كان معه في القطيع ستة من العجول الفتية الضخمة تحمل أعمدة ثقيلة من العاج بين شفتيها . ولكن ، وعبر السنين ، والتي نمى فيها لسن النضج ، بدأ عددهم يتلاشى تدريجيًا . كان واحد منهم أو أكثر يسقط ، كلما بدأ موسم الجفاف ، تحت وطأة نيران الصيادين ولم يتبق إلا العجول المتوسطة أو ذات الأنياب المتهرئة أو المكسورة .

في ذلك الوقت نمى توكوتيلا وكبر ليصبح عجلاً ضخمًا بدرجة غير عادية ونمت أنيابه وتطورت إلى أنياب بيضاء نظيفة حادة الأطراف ، ومؤشر لما ستكون عليه في قابل الأيام . وكلما ازداد نضجًا كلما تدهورت حالة أمه الرئيسة . وشيئًا فشيئًا بدأت خطوط عظامها تظهر خلال طيات جلدها الرمادي المجعد حتى تحولت إلى هيكل هزيل كالح . كان ضرسها السادس والأخير قد تهرأ وتآكل وصارت تتناول طعامها بصعوبة وبدأت تتضور من الجوع ومن عدم القدرة على إشباع نفسها . تنازلت عن موقعها القديم في قيادة القطيع إلى بقرة أصغر سنًا وأكثر قوة وبدأت تمشي متعثرة خلفها . كان توكوتيلا ينتظرها في قمة المناطق المنحدرة التي يمر طريق الأفيال بها إلى أعلى الجبال مقرقعًا ومدمدمًا ومشجعًا حتى تتجاوز المناطق الصعبة . أما في الليل فكان يقف بجوارها ليحرسها مثلما كان في أيام طفولته الأولى .

حل موسم الجفاف وصارت حفر المياه والآبار شحيحه المياه . أما ما حولها من الأرض فقد حولته جحافل الأفيال ووحيد القرن والجاموس إلى وحل أسود لزج كان في بعض الأحيان يصل حتى بطن الفيل . وفي هذا المكان بالذات إنفرزت الأم العجوز .

بذلت قصارى جهدها للمروق من هذا الوحل لكنها سقطت على جنبها وابتلعها الوحل حتى لم يظهر منها سوى جزء من وجهها . قاومت محنتها ليومين . ورغم محاولة توكوتيلا مساعدتها إلا أنه ، حتى بقوته الهائلة ، لم يستطع زمعها. فقد أمسك الوحل بها بشدة ولم يجد مكانًا لتثبيت قدمه ليرفعها .

وشيئًا فشيئًا ضعفت مقاومة البقرة العجوز وصارت صيحاتها الوحشية أقل حدة وأكثر ضعفًا حتى همد جسمها أخيرًا ما عدا من هسيس أنفاسها المتقطعة وظلت على هذا الوضع ليومين ولم يفارقها توكوتيلا لحظة واحدة . أما بقية القطيع فقد هجر المنطقة منذ وقت طويل . لم يبد عليها أي علامة خارجية للخروج من الحياة إلى سكون الموت ما عدا ما كان من تنفسها الأجش المخروش الذي توقف . لكن توكوتيلا عرف الموت في الحال فرفع خرطومه عاليًا وأطلق حزنه في صرخة باكية رهيبة أفزعت ما حوله من الطيور البرية المتجمعة على مشارف حفر المياه وأطارتها بعيدًا وسط سحائب من الأجنحة المضطربة .

توجه توكونيلا إلى طرف الغابة واقتلع الأغصان المورقة الغضة من الأشجار وحملها إلى حيث رقدت أمه وبدأ يغطي جثتها الموحلة بها مشيدًا لها قبرًا ضخمًا مخضرًا ثم تركها وتوجه نحو الأشجار المتناثرة بالمروج .

لم يلتق ثانية بباقي القطيع إلا بعد عامين تقريبًا حيث صار في ذلك الوقت فيلا ناضجًا جنسيًا وقويًا ، وما عاد بمقدوره بعد هذا النضج أن يقاوم رائحة الشبق التي يرسلها النسيم إليه . وعندما عثر على أقرانه وجدهم متجمعين على ضفة نهر كافوي ، على بعد عشرة أميال بأعلى النهر ، من المكان الذي يلتقى فيها كافوى بالزامبيزى العظيم . وعندما اقتربت هرع إليه بعض أفراد القطيع لملاقاته وشبكوا خرطيمهم مع خرطومه وضغطوا على جبهته في مودة وتحية ثم توجهوا معه لبقية القطيع .

كانت هناك بقرتان في حالة شبق وكانت إحداهن في عمر مقارب لتوكوتيلا . كانت سمينة وقوية من طيب مرعاها وتناولها للأعشاب التي ترعرعت بعد فصل الأمطار . وكانت أنيابها العاجية رقيقة وشديدة البياض ومستقيمة وحادة وكأنها إبر ضخمة للخياطة وكان لها آذان لم تتعرض بعد لتمزيق الأشواك أو الأغصان الحادة لها . وعندما اختار توكونيلا ليكون شريكا لها فردت أذنيها وأسرعت تلف خرطومها وتشبكه حول خرطومه .

وقفا ووجوههم متقابلة يثرثران ويغمغمان بمودة ورقة ثم فكت خرطومها وبدءًا يداعبان بعضهما البعض ، يلمس كل منهما الآخر بطرق خرطومه من رأسه وإلى ذيله حتى وقفا كل واحد منهما وراء الآخر .

طرف خرطوم الفيل حساس ومرن ، وكأنه أصابع إنسان ومد توكوتيلا خرطومه بين ساقيها الخلفيتين وأخذ يداعبها وبدأت العجلة تتهادى من جانب لآخر وهي تهز جسمها كله لشدة سعادتها وسرورها . وأثناء ملاعبته لها تدفق سائل دورتها النزوية مغطيًا خرطومه وملأت الرائحة خياشيمه . ثم ساقها بلطف

لداخل النهر ، حيث غمرتهم المياه الخضراء مما ذاد في سرورهما وانسجامهما وسبحا في النهر ، ثم امتطاها توكوتيللا وسط فوران الماء المتدفق من حول أجسامهم[1] .

ظل مع القطيع لثلاثة أيام وعندما انتهت دورات الإناث الشبقية أصاب توكوتيللا القلق والضجر . لقد ورث غريزة الشعور بالخطر من أمه ، وها هو يحس به الآن إذا ما بقي مع القطيع . تسلل كالشبح ، في اليوم الثالث ، لأعماق أراضي الأشجار الخفيفة الشوكية ولم يصطحب معه أحدًا من العجول .

كان كل موسم يعود للقطيع وقد ازداد قوة واستطالت أنيابه وذادت ثخانة بينما استحال لونها إلى لون المرمر من عصائر الخضر والنباتات التي كان يتغذى عليها . وكان يضطر أحيانًا للعراك مع الثيران الأخرى ، حتى ينفرد بأنثاه ، ويحارب حفاظًا على مكانته . وفي البداية كانت الذكور المجربة الأقوى تطرده. ولكن ، وبمرور المواسم ، وباستمرار نمو أنيابه وازدياد مكره وبراعته، لم يعد بمقدور أي فيل آخر الوقوف أمامه وصار ينتقي من الإناث ما يشاء . مع كل هذا لم يستمر أبدًا مع القطيع إلا لبضعة أيام . ودائمًا ما كان يفارقه وحيدًا ويتوجه بعيدًا بعيدًا نحو الملاجئ التي علمته أمه لها : المستنقعات التي لا يصلها إنسان ؛ الغابات الكثيفة ونباتات حشيشة النيل الطويلة الكثيفة . بدا وكأنه يعرف مدى الخطر المميت الذي قد تجلبه تلك الأنياب إليه .

وعندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره صار حيوانًا عملاقًا يزن سبعة أطنان ويرتفع عن الارض بأكثر من اثني عشر قدمًا حتى الكتفين . أما أنيابه ، والتي لم تصل بعد لما وصلت إليه في أواخر عمره ، فقد كانت متوازيه وطويلة ومدببة .

ظل لعدة أيام ، ومنذ مفارقته للقطيع ذلك الموسم ، متوترًا وعصبيًا ، وكان يتحرك من مكان لآخر في قلق متشممًا الهواء دائمًا حيث يرفع خرطومه عاليًا ثم ينفخ في فمه . ولمرة أو مرتين عرف سبب القلق وتوصل إليه . لكن الرائحة اللاذعة للإنسان كانت خفيفة كالذكريات القديمة الباهتة. .

على كل حال كان لا يمكن أن يستمر في التجوال بلا نهاية . فإن جسمه الضخم كان يوميًا يحتاج لطن من الأعشاب وأوراق الشجر والثمار واللحاء لتمده بأسباب الحياة وكان لابد له من أن يتوقف ليأكل .

وذات يوم ، وفي الصباح الباكر ، وقف وسط أجمة كثيفة لأشجار الكمبريتم ينتزع لحاءها بغرز أطراف أنيابه في اللحاء ، ثم يزحزحه عن

(١) وصف مطول للعملية الجنسية حذفناه بدون أن يتأثر سياق الرواية (المعرب) .

الخشب، ثم يستخدم خرطومه في جذب عدة أقدام من اللحاء بقوة وانتزاعها من شجرتها ، ثم يطوي اللحاء بشكل كرة ويحشوها بداخل فمه الواسع .

ومع تركيز انتباهه على ما يقوم به ، تراخت يقظته . ولأن الفيل عادة ضعيف البصر فإنه لا يستطيع التعرف على الأشياء الثابتة ، حتى على بعد بضع ياردات منه ، لكنه يستطيع في لمحة تمييز أي شيء متحرك . إضافة إلى ذلك فإن عيون الأفيال موجودة دائمًا وراء الرأس معيقة لرؤيتها الأمامية كما إن بسطها لآذانها يعوق رؤيتها لما وراءها .

باستغلال رياح الصباح الهادئة ، وحتى يتجنبوا حاسة الشم المذهلة للفيل ، ويتحركون كالأشباح حتى يتجنبوا حاسة سمعه المرهفة ، اقترب الصيادون منه من الوراء بخفة وبصورة لا يراهم فيها . كانوا اثنين من الصيادين وقد تتبعاه منذ أن فارق القطيع . زحفا الآن حتى اقتربا منه جدًا.

واستدار الفيل نحوهما وهو متوجه للشجرة التالية وعرض أنيابه الطويلة المنحنية المصقولة أمامهما .

«خذه ! » . قال أحدهما للآخر . ورفع الإسباني ، صاحب أفخر مصانع نبيذ الشرى ، لبندقيته ذات الماسورتين ، المجلدة والمطرزة بالذهب ، وصوبها نحو مخ توكوتيلا .

ومن وراء منظار البندقية التقط الشق الرأسي الأسود أمام أذن الفيل وأرخى البندقية قليلاً للأسفل ، نحو البقعة التي تقع فتحة أذنه فيها . وعندما وجدها رفع تصويبه بمقدار ثلاثة بوصات من أمامها عبر خط وهمي يبدأ من فتحة الأذن وباتجاه عين الفيل .

كانت هذه رحلة السفاري الإفريقية الأولى لصانع النبيذ . لقد صاد من قبل ظباء الشامواة والموفلون والظبي الأحمر في البرفيز الإسباني . لكن الفيل الإفريقي المتوحش ليس من بين تلك المخلوقات الرعديدة ، كما كان قلب الإسباني يدق كالطبل داخل ضلوعه ، وغمرت نظارته سحب ضبابية من جراء تصبب عرقه ، وارتعشت يداه .

ورغم أن الصياد المحترف الذي جاء معه كان قد شرح له بصبر كيف وأين يضع رصاصته ، إلا أنه لم يستطع تسديد تصويبه على الفيل ، وفي كل ثانية تمر كان تنفسه يزداد ثقلا وعناء ، وتصويبه أكثر خطأ . وبيأس جذب زناد بندقيته .

أصابت الرصاصة توكوتيلا على بعد قدم فوق عينه اليسرى ، وخمسة عشر بوصة من الفص الأمامي للمخ . لكن العظام الإسفنجية والتي تشبه قرص العسل ، والتي تغطي جمجمته ، خففت من وقع صدمة الرصاصة عليه . استدار

توكوتيلا على عقبيه ورفع خرطومه عاليًا فوق رأسه وأطلق زئيرًا عميقًا هائلاً من حلقه .

استدار الصياد الإسباني وولى هاربًا ، وتتبه توكوتيلا نحو تلك الحركة وضرب بعقبيه على الأرض. كان الصياد المحترف يقف مباشرة أمام خرطومه الممدود فرفع بندقيته وصوبها على رأس توكوتيلا باتجاه حلقه المفتوح ، وبين قواعد أنيابه العاجية ، وضغط على الزناد .

سقط مسمار التفجير على الطلقة وسمعت لها طقطقة لكنها لم تنطلق .

ولوح توكوتيلا بخرطومه وضربه به ضربة هائلة ، كفأس الجلاد منفذ الإعدام ، وحطم الرجل الواقع على الأرض .

كان الإسباني لا يزال يجري . وتوجه توكوتيلا إليه مقتربًا منه بغير هوادة ثم مد خرطومه ولفه حول خصره . صرخ الإسباني مستغيثًا فرماه توكوتيلا لثلاثين قدمًا في الهواء . وظل يستغيث طوال مدة هبوطه على الأرض من ذلك العلو حتى ارتطم بها وتحطمت أضلاعه . أمسك توكوتيلا به من كاحله بخرطومه وجرى به وخبطه على أقرب جزع شجرة بقوة حطمت وشتتت أحشاء الرجل ، طحاله وكبده ورئتيه . ثم تناول توكوتيلا الجثة وأخذ يجري بها مهتاجًا خلال الغابة يضربها على الأشجار ثم يرفعها عاليًا ويخبط بها الأرض حتى تفككت وصارت نتفًا ولم يتبق سوة جذع الساق يمسكه بخرطومه . ألقى بالساق بعيدًا ثم استدار عائدًا إلى حيث ترك الصياد المحترف .

كانت ضربة الخرطوم قد حطمت عظام ترقوته وكلتا يديه وسحقت صدره . لكن الصياد كان لا يزال حيًا وواعيًا ، ورأى توكوتيلا عائدًا إليه وخرطومه الطويل متدليًا وأذنيه الكبيرتين مفرودتين . وكان دم جرحه يسيل ليختلط مع دم الإسباني الذي لطخ صدره وأرجله الأمامية .

حاول الصياد أن يجرجر جسمه المحطم بعيدًا عنه لكن توكوتيلا رفع رجله الضخمة ووضعها وسط ظهره مسمرًا له على الأرض ثم ، وبخرطومه ، بدأ يقتلع أطرافه واحدة بعد الأخرى ، الأرجل واليدين ، منتزعًا لهم من المفاصل ، مفاصل الأوراك والكتفين ، ويرمي بهم بعيدًا ، وأخيرًا لف خرطومه حول رأس الصياد واقتلعه من كتفه فأخذ يتدحرج ويثب على الأرض كالكرة .

بدأت ثورته تهدأ قليلاً وطغى عليها ألم الجرح في رأسه . ووقف توكوتيلا فوق الأجساد التي حطمها يرفع ساقًا ويحط ساق ويدمدم بحلقه من الألم الذي يحسه ، ثم من وحشة الموت ورهبته التي ملأته .

ورغم ألمه من جراح رأسه ، والدم الذي ينقط منه ويسيل على عينه ، فقد بدأ القيام بمراسم الموت التي تعلمها من أمه في سالف الأيام . وبدأ يجمع أعضاء

ضحاياه ، الجزوع المحطمة والأطراف المشوهة ، ويكومها على الأرض . كما بدأ في جمع عتادهم من بنادق وقبعات وزجاجات المياه من بين الأعشاب ويضيفهم إلى الكومة ثم بعد ذلك بدأ ينتزع الأغصان والفروع المورقة من الأشجار حتى غطاها وأصبحت بقاياهم مثل كومة عالية من الخضرة .



برئ توكوتيلا من جرح الرصاصة لكنه سريعًا ما تعددت القروح بجسمه ، إضافة إلى أثر الجرح الأول فوق عينه . فقد تسببت حربة ثقيلة ، مثبتة في قاع خندق كان قد سقط فيه ، بفتح جرح كبير بجلده الخشن السميك الرمادي من الكتف وحتى الركبة ، وكاد أن يموت من جراء الالتهاب الصديدي الذي أعقب ذلك ، كما أصيبت أذناه المفرودتان بالأشواك وبالأغصان المعقوفة الحادة وصارت أطرافها مشرشرة وممزقة . كان يقاتل من أجل الإناث عندما ينضم للقطيع ، ورغم أن الأفيال الأخرى لم يحدث أن تغلبت عليه إلا أن أنيابهم قطعت جسمه وتركت عليه علامات واضحة للجراح . ثم كانت هناك لقاءاته مع الإنسان :

فرغم الخط المحيط به ، لم يستطع أن ينسى ذلك الطعم الحلو لعصير قصب السكر الذي طال على أكله له الزمن . تحولت رغبته في تناوله مرة أخرى إلى إدمان ، وتحول توكوتيلا إلى غاز للحدائق والجنائن المزروعة . فأحيانًا كان يتربص بجوار المزارع لعدة أيام يستجمع فيها شجاعته، وعندما يختفي ضوء القمر في ساعات الليل الأخيرة ، يتسلل بخفة ، وبدون أي صوت كالقطة ، على وسائد أقدامه المفلطحة . كان يعشق الذرة والدخن والباباي واليام . لكن قصب السكر كان لا يقاوم .

في البداية كان يولي هاربًا من الشعل المضيئة وصراخ الناس وقرع الطبول ، لكنه فيما بعد تعلم أن يواجه ذلك الصراخ والضجيج بصرخاته الهائلة ثم بهجومه على حراس تلك المزارع المحرمة عليه.

وفي خلال العشرة سنوات التي تلت ، كان قد قتل ثمانية رجال أثناء غاراته تلك ، منتزعًا أعضاءهم وكأنه سنور يمزق دجاجة إربًا . أصبح لا يبالي شيئًا في سبيل استطعام القصب اللذيذ. وبينما كان بعد غاراته الأولى يرتحل فورًا لمئات الأميال في ضبب متصل لا يتوقف ، مبعدًا نفسه عن مطارديه وانتقامهم ، إلا أنه عاد هذا الموسم لنفس الحقول مكررًا غاراته لعدة أيام متتالية .

أرسل القرويون رسالة إلى بوما (مكتب) مفتش المركز يناشدونه المساعدة . فأرسل مفتش المركز الأوروبي أحد عساكره مسلحًا ببندقية ٤٠٤ ، وتربص العسكري في انتظار توكوتيلا . كان العسكري مسلحًا ببندقية ٤٠٤ ،

وتريص العسكري في انتظار توكوتيلا . كان العسكري من رجال البوليس ولم يكن صيادًا ولا قناصًا . خبأ نفسه بداخل حفرة وسط الحقول ، وقد ظن في سرور بأن الفيل لن يعود لهذا الحقل الليلة ، فقد اشتهر توكوتيلا وعرف بالمجال الواسع الذي يتجول فيه وبعاداته وسلوكياته المتكررة . كان معروفا بأنه مدمر الحقول ، وبالقاسي الذي قتل العديد من القرويين ، وبأنه من النوع الذي لن يرجع ثانية لمسرح جريمته .

استيقظ العسكري من نوم عميق بداخل حفرته ليجد أن توكوتيلا واقفًا فوق رأسه وقد حجب رؤية النجوم عنه وكان يلتهم قصب السكر إلتهامًا . تناول العسكري بندقيته ٤٠٤ وأطلق رصاصة للأعلى لتصيب توكوتيلا في بطنه . لم يكن جرحًا قاتلاً وبدأ توكوتيلا يبحث عن العسكري بلا هوادة . استدار لمواجهة الريح حتى التقط رائحة العسكري وتتبعها حتى وصل إلى الحفرة التي قبع فيها الرجل وقد شله الخوف . أدلى توكوتيلا بخرطومه إلى داخل الحفرة واقتلع الرجل منها و ....

استغرق شفاؤه من الجرح عدة أسابيع حتى برئ . كان الألم ينهش أحشاءه، وذادت كراهية توكوتيلا للإنسان شدة .

لم يفهم توكوتيلا السبب الذي جعله بعد ذلك يحتك كثيرًا بالإنسان . لقد بدأ مرعاه ومجاله القديم في التمزق ، وفي كل موسم كان يرى المزيد من الطرق والممرات التي تقود حتى إلى مكامنه السرية المجهولة . كانت السيارات بطنينها ورائحتها الكريهة تطن وسط هدوء المروج ، وكانت الغابات العظيمة تباد وتقطع من حوله ، والأراضي تشقها المحاريث . كانت الأضواء تشع في الليل، وأصوات الإنسان تصله أينما توجه . كان عالم توكوتيلا يتهاوى ويتقلص أمام عينيه .

وواصلت أنيابه نموها طوال الوقت وإزدادت طولاً وسمكًا حتى أصبحت ، عندما بلغ الستين ، مثل الأعمدة الضخمة العارمة الداكنة اللون .

وفي عام ١٩٧٦ قتل رجلاً آخر . قرويًا أسودًا حاول الدفاع عن بضع أفدنة له من الذرة الهزيلة ، وألقى على توكوتيلا حربته فأصابته في عنقه . استقر رأس الحربة في عنق توكوتيلا وصار الجرح مصدرًا مزمنًا للالتهاب ، وشكل خراجًا ينز بالصديد .

كان توكوتيلا قد خجر منذ أمد طويل البحث عن الإناث . وكانت روائح الدورات الشبقية ، التي تحملها له الريح ، توقظ فهي مجرد ذكريات عذبة مضى عليها الزمن ، وحنينًا إلى الأيام الخوالي. تلاشت عنده الفحولة الجنسية والتوق إلى الإناث وواصل تجواله وحيدًا على غير هدى فيما تبقى من أدغال .

وفي مجاله القديم ، كانت لا تزال هناك مناطق لم تتغير معالمها ، وبالخبرة عرفها وعرف أنها تشكل ملاذًا آمنًا ، وملجأ له من تغول الإنسان لكنه لم يفهم بأن هذه هي الحظائر القومية ، حيث تتم حمايته فيها قانونيًا . وظل يقيم فيها معظم وقته . وخلال السنوات التالية عرف حدود تلك المناطق بالضبط وصار مترددًا في مغادرتها أو الدخول إلى العوالم الخطرة التي وراءها .

حتى في تلك الملاذات كان قلقًا متوجسًا للشر . يدفعه دائمًا حقده على بني الإنسان وكرهه لهم فأصبح يهاجمهم أينما وجدهم ، أو يلوذ بالفرار حالما تحمل الريح له رائحتهم اللاذعة .

تضعضعت ثقته في سلامته بهذه الملاجئ عندما وجده الصيادون هناك . سمع يومًا صوت إطلاق النار ، وشعر بطعنة القذيفة ، لكنه لم يميز بين صوت السلاح الناري وبين البندقية التي تطلق السهام . وعندما حاول أن يحدد مكان مهاجميه ليحطمهم ، شعر بخدر مفاجئ وبرغبة في النوم وضعف شديد في أعمدة أرجله الضخمة ، فانهار على الارض فاقدًا الوعي . استيقظ على الرائحة الكريهة لعدد من الرجال الملتفين من حوله . روائح كثيفة مثيرة للاشمئزاز تملأ الهواء من حوله بل حتى تغطي جسده عندما لمسوه . وعندما نهض مضطربًا ووقف على قدميه وجد حول عنقه طوقًا ثعبانيًا غريبًا . كما كان ذلك الخراج المزمن، الذي سببه قذف الحربة عليه قديمًا ، يحرقه بنيران المطهرات . حاول أن يرمي بعيدًا بالطوق المعلق به جهاز للإرسال ، لكن الطوق تحدى كل طاقته وخذله . لذا ، وبغضب شديد ، قام بتدمير أشجار الغابة المحيطة به ، ملقيًا بالأشجار الكبيرة على الأرض ، وممزقًا للشجيرات الصغيرة .

أما الرجال الذين كانوا يراقبون ثورته وهيجانه من بعيد فقد ضحكوا وقال واحد منهم :

«توكوتيلا ، الفيل الغاضب ! » .

ومضت على توكوتيلا عدة مواسم قبل أن ينجح أخيرًا في التخلص من ذلك الطوق الكريه على عنقه ، ويلقي به بعيدًا على أعلى فرع لشجرة هناك .

ورغم أنه عرف تمامًا حرمة الحظيرة القومية ، والتي صار يقضي بداخلها معظم أيامه ، إلا أن توكوتيلا لم يتمكن من إخماد غرائزه العميقة للتجوال ، وصار في بعض فصول السنة يعاني من القلق وعدم الاستقرار . عادت إليه شهوة التجوال ، والرغبة الشديدة لتتبع طريق الهجرة الطويل الذي قادته إليه أمه عندما كان صغيرًا . كان يذهب لحدود الحظيرة بتأثير هذا النداء الخفي والحنين له ويتغذى هناك مستجمعًا شجاعته ، حتى ما عاد قادرًا على السيطرة على رغبته ، ثم ينطلق بعصبيه وخوف ، ولكن بتوق شديد ، إلى تلك الأماكن

النائية البعيدة إلى الشرق .

ومن بين تلك الأماكن ، كانت مستنقعات الزامبيزي الفسيحة هي المفضلة لديه . لم يعرف أنها محل ولادته ، لكنه كان يعرف أن الماء هناك أكثر برودة وأشد عذوبة وأن المرى أكثر غزارة وأن إحساسه بالأمن كان أعمق هناك من أي مكان آخر في هذا الموسم ، وعندما عبر نهر شيويوي متوجهًا نحو الشرق ، كان توقه للرجوع إلى تلك المستنقعات قد تملكه تمامًا .

كان عجوزًا الآن ، بعد أن جاوز السبعين من عمره ، وكان مرهقًا . كانت مفاصله توجعه وهو يمشي متصلبًا متثاقلاً . وكانت جراحه القديمة توجعه ، وخاصة تلك الرصاصة التي اخترقت رأسه وربضت في طيات جلده فوق عينه اليمنى ، والتي تحول مكانها إلى ورم متصلب متكيس كالغضاريف ، وكان يلمسها بطرف خرطومه من وقت لآخر وخاصة عندما يشتد عليه الألم .

كانت أنيابه الثقيلة الهائلة تحني رأسه للأسفل ، وكل يوم يمر عليه كان يصبح أقد قدرة على حملهم . هذا العاج كان وحده المعلم الباقي لمجده الغابر . فقد كان الثور العجوز منحدرًا الآن بسرعة نحو النهاية . كان الضرس السادس ، وهو الأكبر حجمًا من بين أسنانه ، والأخير الذي تبقى له ، قد أوشك على التآكل التام . وبدأ تضور الجوع من جراء تقدمه في السن يصيبه . كان كل يوم يزداد ضعفًا وشيئًا فشيئًا اقتصر طعامه على الأعشاب والنباتات الرقيقة والسهلة المضغ ، لكنه لم يكن يجد كفايته منها أبدًا .

صار هيكل جسمه الضخم هزيلاً نحيفًا وتدلى جلده حول عنقه وركبه . كان يغمره إحساس بالسوداوية والانقباض لم يعرفه إلا نادرًا في حياته . نفس الشعور الذي غطاه وغمره عندما انتظر بجوار أمه وهي تموت على جانب حفائر الماء . ولم يتبين أن هذه الأحاسيس ما هي إلا إنذارًا مبكرًا بالموت الوشيك الذي سيلاقيه .

تراءى لتوكوتيلا أنه ، وفور مغادرته للحظيرة ، سواجه المطاردة . وشعر بأن مطاردته هذه المرة ستكون أمضى عزمًا وأشد مثابرة مما حدث له من قبل . وتخيل أن الغابة تعج من حوله بالمخلوقات البشرية التي تطارده ، والتي تنتظره عن كل ركن من أركان الغابة ، وأن عليه ألا يتوجه مباشرة صوب الشرق ، بل أن عليه أن ينعطف ويفر مسرعًا ليتجنب المخاطر الحقيقية أو الوهمية التي تكتنفه.

لذا ، وما أن سمع دمدمة الرصاص المتبادل قريبًا جدًا منه ، حتى ولى هاربًا باتجاه الشرق بدلاً عن أن يستدير عائدًا إلى الحظيرة وملاذها الآمن . كان عليه أن يركض لأكثر من مائة ميل حتى يصل إلى بداية المستنقعات . وكان الطريق

وعرًا ومحفوفًا بالمخاطر . ولكن دافعًا غريزيًا عميقًا كان يشده ويدفعه للأمام وبعد عشرة ساعات توقف ليستحم ويتغذى قليلاً ويشرب في مكان معزول بأحد المستنقعات ، وكان لا زال يبعد كثيرًا عن المستنقعات الحقيقية المستهدفة . كانت هذه إحدى محطات طريق الأفيال القديم التي يتوقف فيها القطيع للاستجمام . ولم يمكث هنا لبضع ساعات إلا وامتلأ الهواء بضجيج وأزيز الطائرة التي سرعان ما حلقت حوله ، مثيرة لفزعه ثم لغضبه الشديد . كان يربط بصورة غامضة ما بين هذه الطائرة والخطر المميت من الصيادين . فقد كانت تترك على الهواء وراءها نفس الرائحة الكريهة التي كثيرًا ما واجهها وعرفها في عرباتهم ومركباتهم . وعلم أنه لن يستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك. فقد كان الصيادون . في تصوره ، على وشك الإطباق عليه .

كانت مستنقعات الزامبيزي العظيمة هي الملاذ له . وانطلق نحوها بدون أن يلوي على شيء.



كان سين جالسًا على الأرض بجوار أثر الفيل ، الذي كان يتفحصه ، ثم قال لريكاردو : «إنه لن يتوقف الآن إلا بعد أن يتوغل في المستنقعات . إنه متوتر ومنزعج للغاية ، ولا أمل لدينا في اللحاق به قبل أن يصل إليها » .

فسأله ريكاردو : «كم يبعد من هنا ؟ » . فأجابه سين وهو يتأمل وجهه : «ثمانون أو تسعون ميلاً يا كبو . مجرد جولة للنزهة » . كانت بقع من العرق الداكن تبلل قميصه وبدا عليه أنه كبر فجأة عشرة سنوات أخرى من الأيام الأربعة الماضية فقط . واحتار سين : «ماذا سنفعل لو أن الشحاذ العجوز تهالك من فوقنا أو فقد قواه ؟ » . ثم طرح هذه الفكرة جانبًا وقال لهم : «حسنًا جميعًا . سنأكل ثم ننام هنا . وسنعاود المسير بعد أربع ساعات » .

قادهم سين إلى حافة المستنقع حيث الأرض صلبة وجافة . كان التعب والإرهاق وحرارة الجو قد أفسد شهوتهم للطعام وكانوا يحتاجون للنوم أكثر من الطعام . وسرعان ما تمددوا على ظلال الأشجار هامدين كالموتى .

واستيقظ سين من نومه بإحساس من يفتقد شيئًا وجلس فورًا واضعًا يده على البندقية ونظر لما حوله متفحصًا :

«كلوديا» . فقفز على قدميه إذ لم تكن معهم . وكانت متعلقاتها ملقاه مكان نومها ، على بعد عشرة خطوات منه . أراد أن يصيح مناديًا لها ، ضد كل معايير التخفي والصمت الذي كان يفرضه على الجميع ، ثم مضى لأطراف المعسكر وصفر بشفتيه صفيرًا خافتًا . فجاءه بمبولا مسرعًا .

سأله سين بالسندبالية : «الدونا . أيد هي ؟ » .

أشار بميولا باتجاه النهر : «إلى ذلك الاتجاه» .

صرخ فيه سين : «أو تركتها تذهب ؟» .

ارتبك بميولا وقال بلهجة الاعتذار : «لقد ظننت أنها ذهبت إلى الغابة ... لتقضي حاجتها ولم أحاول إيقافها» .

وقبل أن يكمل إفادته ، كان سين قد شرع في الجري خلال دروب فرس النهر ، ونحو حشائش البوص الطويلة التي تحيط بأكبر البرك وأعمقها ، عندما سمع صوت رشاش الماء من أمامه.

وحدث نفسه وهو يندفع صوب حافة البركة : «هذه الجروة الدلوعة ستدفعني لحافة الجنون».

كان عرض البركة مائة ياردة وكانت عميقة وساكنة . ورغم منظره المضحك إلا أن فرس النهر قد يعتبر أخطر الحيوانات في إفريقيا وربما كان قد قتل من البشر أكثر ممن راحوا ضحية كل الحيوانات المفترسة مجتمعة .

فالذكور الكبيرة السن عدوانية الطبع ومشاكسة ، أما الإناث ذوات المواليد الجديدة ، فإنها تهاجم أيًا من كان ، وبدون أي استفزاز لها ، كما أن عضة من تلك الفكوك المفتوحة الهائلة ، وبأنيابها المهيأة للقطع والتمزيق ، فإنها قادرة على قطع الإنسان لنصفين . أما التمساح فهو سفاح خبيث وماهر . وهذه البركة هي أكثر ما يناسب التماسيح وأفراس النهر ، وأما كلوديا مونتيرو فكانت غاطسة فيها حتى خصرها .

كانت ملابسها المبللة ، قميصها وبنطلونها وجواربها ، قد غسلت وعلقت لتجف فوق البوص على حافة البركة ، أما هي فقد ولت ظهرها للشاطئ وبكلتا يديها كانت تدعك في شعرها وسط رغوة هائلة للصابون .

بدا لون ظهرها وقد سفعته الشمس وكان خاليًا من العيوب ، ما عدا الخط الرقيق الذي خلفه حزام البكيني على لوحي كتفها .

كانت خاصرتها رقيقة مصقولة ببراعة ، وخاصة حول وسطها ، وظهرت بالكاد مفاصل عمود ظهرها الفقري من بين عضلات ظهرها الجميلة التي أحاطت بجانبي جسمها . وصرخ فيها سين بغضب : « ماذا تفعلين بحق الجحيم ؟» فاستدارت كلوديا لمواجهته ويداها لا زالتا فوق شعرها المغطى بالرغوة ، وعيونها نصف مغمضة من الصابون : «أبهذه الطريقة تنال رغائبك؟» . لم تحاول بذل أي جهد لتغطي صدرها ، وصاحت فيه : «أيها الفاسق ! تتسلل وتسترق النظر إلي؟!».

ورغم أن تعبيرها له قد لسعه إلا أنه لاحظ ، حتى في فورة غضبه ، أن صدرها كان أجمل مما كان يتصور ، وقد برزت حلماتها للأمام من جراء

بـرودة المـاء . لـكنـه صـاح فيهـا : «أخرجـي مـن هنـا قبـل أن يلتهميـك تمـسـاح » . وزعقت بدورها في وجهه : «لا تحقد في كالمعتوه وانصرف إلى الجحيم».

غطست رأسها في الماء ثم انتصبت واقفة مرة أخرى ، والصابون لا يزال يسيل على جسمها ، أما شعرها فعاد لامعًا صقيلاً وكأنه دثار من الحرير الأسود يغطى كتفها .

أمرها بحدة : «أخرجى من هنا ، عليك اللعنة . لن أستمر واقفًا هنا لأجادلك» .

ـ سأخرج حالما أكون جاهزة وبمزاجي .

قفز سين إلى البركة وأمسك بذراعها قبل أن تحاول التملص منه . ورغم أن ذراعها كان زلاقًا من جراء الصابون ، إلا أنه جذبها للشاطئ وهي تركله وتضربه بيدها الأخرى في خنق وغيظ :

ـ أيها الوغد . إنني أكرهك . دعني وشأني .

سيطر عليها بسهولة بيد واحدة بينما كان لا يزال يسمك بالبندقية بيده الأخرى . سال الماء من بنطلونه الكاكي القصير وانزلق حذاؤه الطويل من جراء الطين والوحل وهو يجرها للخارج. تناول قميصها المبلل وألقاه في وجهها :

«ارتدى ملابسك» .

ارتعشت من الغضب ، وهي تمد ذراعها وتريه آثار أصابعه القوية عليها ، بينما ألقت بقميصها المبلل على جانب كتفها :

« ليس لك أي حق في ذلك ، ولن أقبل هذا التصرف منك أيها الوحش ويدك التي كيد الخنزير ! » .

ومن الغريب أن تجتذب سرتها انتباهه . فقد كانت السرة تنظر إليه متحدية من أمام حجابها الحاجز وكأنها السيكلوب ذو العين الواحدة . سرة كالغمازة البهية ، أثارته في هذه اللحظة أكثر مما أثاره مثلث الشعر المبلل من تحتها . وحول بصره عنها . كانت غاضبة لدرجة أنها لم تنتبه لعريها وتوقع سين أن تهجم عليه حقًا فتراجع للخلف فجأة . وهو يفعل ذلك نظر وراءها ورأى الماء مترقرقًا فوق شيء كرأس السهم ، وهو يتسلل بصمت عبر سطح الماء الأخضر للبركة ومتجهًا نحوهما . وفوق الماء المترقرق ظهر زوج من ورم مستدير بشع أسود اللون ، لا يزيد حجمه على حبات الجوز ، قادمة نحوهما بسرعة غريبة .

شدد سين قبضته على ذراعها ، نفس الذراع التي كانت تشكو من إيذائه لها ، وجذبها بشدة إلى الوراء منه ، وبعيدًا عن حافة الماء ، لدرجة أنها سقطت منبطحة على يديها وركبتيها وسط الوحل .

رفع بندقيته الإكسبريس ٥٧٧ وصوبها بين الورمين الأسودين للتمساح المقترب . كانت عيون التمساح تبعد تسعة بوصات على الأقل من بعضهما البعض ووجه نحوهما البندقية . كان تمساحًا عجوزًا ضخمًا .

هز دوي الرصاصة الصاعق هدوء البركة ، وطار رشاش الماء على سطحها كريش النعام المنثور ، بينما أصيب التمساح وسط عينيه البارزتين وانقلب على ظهره متلويًا على سطح الماء وقد تحطم مخه الضئيل .

نهضت كلوديا على قدميها وحدقت من فوق كتفها على التمساح وبطنه القشدية المصفرة . كان طوله ستة عشر قدمًا ، من ذقنه وحتى طرف ذيله الطويل المقبب ، وقد سمع صوت انطباق فكيه على بعضهما عندما تقلصت أعصابه من جراء إصابة مخه . كانت أنيابه وأسنانه طويله وسميكة كأصابع الإنسان ، وبارزة من خلال شفتيه المليئتين بالقشور . غطس في الماء تدريجيًا واختفت في مياه البركة بطنه المصفرة وتلاشت في الأعماق . تبخر سيل الغضب عن كلوديا وهي تحملق نحو البركة . وكان جسمها يرتجف من غير أن تتمالك نفسها وأخذت تنفض شعرها المبلل:

- يا إلهي ! لم أكن أعرف ... يا للبشاعة .

مالت نحو سين وهي منهارة ممزقة : «لم أكن أعرف !» . وكان جسمها باردًا رطبًا بفعل مياه البركة والتصقت به .

صاح ريكاردو مونتيرو من على حافة جرف البوص : « سين . أأنت بخيير ؟ ماذا حدث ؟ أين كلوديا ؟ » .

وما أن سمعت صوت والدها حتى قفزت من جواره شاعرة بالذنب ، ولأول مرة حاولت أن تغطي صدرها العاري وعانتها . وصاح سين مجيبًا :

- كل شيء على ما يرام يا كابو إنها بخير » .

اختطفت كلوديا بنطالها وارتدته بسرعة وهي تدير ظهرها إليه ثم تناولت قميصها ولبسته . وعندما استدارت نحوه مرة أخرى كان قد عاد إليها غضبها وقالت له :

« لقد أصابني الرعب ... ولم أقصد أن أمسك بك بهذه الطريقة . لذا فلا تحاول أن تضخم الأمر يا بطل » .

جذبت سوستة بنطلونها الجينز ثم شمخت بأنفها وقالت لسيد :

«كان بمقدوري الإمساك بالكناس التعس إذا كان في متناول يدي » فأجابها سيد : «أوكي يا دلوعتي . سأتركهم يعضونك في المرة القادمة . تمساحًا كان أم أسدًا أو كائنًا من كان » . فأجابته من فوق كتفها وهي

تتوجه نحو الدرب المؤدي لمكان المجموعة :

« كان عليك ألا تشتكي . لقد ملأت عينك من جسدي ثم صنعت من ذلك أكلة دسمة ... يا كولونيل » .

- أنت على حق في ذلك . لقد اختلست فعلاً منك نظرة خاطفة . لا بأس بك . فقط بعض الهزال لكن ... لا بأس بذلك » .

وابتسم ابتسامة عريضة عندما رأى أن مؤخرة عنقها قد احمرت من الغضب.

وجاء ريكاردو يجري على الدرب المنحدر نحو النهر لملاقاتهم والقلق يملؤه ، وأمسك بكلوديا وضمها إلى صدره في ارتياح شديد :

- ماذا حدث يا تيسورو ؟ أأنت على ما يرام ؟

لكن سين هو الذي أجابه :

« لقد حاولت أن تطعم التماسيح . إننا سنغادر هذا المكان خلال ثلاثين ثانية من الآن ، فهذه الرصاصة قد نبهت لوجودنا أي مسلح على بعد عشرة أميال منا .



« لقد أزلت عن وجهي ، على الأقل ، ذلك الوسخ الأسود القذر » . كانت كلوديا تحدث نفسها عندما انطلقوا مبتعدين عن المستنقعات . كانت ملابسها الرطبة باردة ونظيفة وأعطتها إحساسًا بالراحة والنشاط بعد ذلك الحمام المرعب. وفكرت : « لكن لم يحدث لي أي ضرر سوى نظراته الغرامية ! » .

حتى هذا لم يعد يضايقها الآن . لم تكن نظراته على جسدها عدوانية كلها . وعندما استعادت في ذهنها ما حدث شعرت بالمرح لأنها حرمته ما تصورت أنه يشتهيه :

« أحرق فؤادك أيها الولد العاشق» . ثم نظرت إلى ظهره عندما تقدمها في السير : «لقد رأيت أحسن ما يمكنك أن تراه أو تقع عيناك عليه أبدًا » .

وبعد ميل من السير جفت ملابسها ولم يعد لديها القدرة على بذل أي جهد أكبر كل وجودها تمثل في رفع قدمها ومدها للأمام لترفع الأخرى . كانت الحرارة قاسية عليها واشتدت قسوتها عندما وصلوا لأطراف جرف وادي الزامبيزي وبدأوا الهبوط إليه . حتى الهواء تغيرت طبيعته وكان يبدو على الأرض مثل جداول من فضة شبيهة بالماء ، وكان السراب يرتجف ثم يبرق مثل ستارة من حبيبات البلور تتضخم وراءه الأشياء وتهتز وتتلوى ويتضاعف حجمها معطية أشكالاً عملاقة بين طيات السراب . أو قد يختفي كل شيء أمامهم وتبتلعه تيارات الهواء الساخن .

وكلما تركوا وراءهم ميلاً طويلاً ظهرت أمامهم مشاهد الخيران والوديان

وأخيرًا لام لهم في الأفق الحزام الداكن الخضرة للنباتات النهرية والتي حددت معالم مجرى الزامبيزي العظيم . كان متاتو دائمًا يتقدمهم بخطواته الراقصة ، كالشبح ، متابعًا لدروب لا يستطيع غيره معرفتها ، لا يحس بالتعب ولا تؤثر عليه حرارة الجو ، حتى أن سين كان يضطر لاستدعائه ليرتاح قليلاً عندما يتوقفون عن مواصلة السير .

وحدق ريكاردو من خلال منظاره المقرب ثم علق قائلاً :

« لا يوجد أي أثر للصيد أو الطرائد هنا . لم نشاهد منذ عبرنا إلى موزمبيق سوى أرنب على الأكثر » .

كانت المرة الأولى منذ ساعات التي يتحدث فيها ، وتشجع سين لذلك . فقد كان في أشد القلق على حالة عميله . لذا أجابه في الحال :

« كانت هذه جنة للوحوش الضخمة ذات يوم ، ولقد قمت بالصيد هنا قبل أن ينسحب منها البرتغاليون ، حتى أن الجاموس كان يجري عليها في قطعان بعشرات الألوف » .

- وماذا حدث لهم ؟

- أطعمت فريليمو جنودها من لحمهم . بل أنهم حتى عرضوا على توقيع عقد معهم لإبادة الجاموس ، ولم يتفهموا لماذا رفضت ذلك العرض ، لكنهم في النهاية قاموا بذلك بأنفسهم .

- وكيف فعلوها ؟

- بالمروحيات . كانوا يطيرون على ارتفاع منخفض فوق القطعان ثم يرشونها بالرصاص وقتلوا حوالي خمسين ألف جاموسة خلال ثلاثة أشهر وامتلأت السماء بالصقور حتى أنه بإمكانك أن تشم رائحة مناطق المذبحة من على بعد عشرين ميلاً . وعندما قضوا على الجاموس تحولوا إلى الحيوانات الأخرى، وقضوا على التيتل الإفريقي وعلى الحمير الوحشية » . وقالت كلوديا بصوت خافت : «ما أقساها وأشرسها هذه البلاد » .

فأجابها سين باستفسار :

« بالطبع إنك سوف لا تعترضين على ذلك ، فقد قام بالمهمة رجال سود وليسوا بيضًا . لذا فقد لا يكونون مخطئين . أليس كذلك ؟ » ثم نظر إلى ساعته الرولكسي وقال : «حان الوقت للرحيل. هيا » .

ومد يده ليساعد ريكاردو على الوقوف ، لكم العجوز رفض اليد الممدودة سار سين بجانبه عندما استأنفوا الطراد ، بينما مشت كلوديا خلف متاتو مباشرة ، وأخذ سين يثرثر مع ريكاردو مشجعًا له ومحاولاً إبعاده عن التفكير

في الإعياء الذي يغمره .

حدثه بأقاصيص حرب الأدغال ، ووضح له مكان معسكر تدريب الثوار عندما ساروا على بعد أميال قليلة إلى الشمال منه ، ووصف الغارة التي شنتها فصيلة كشافة بالانتاين عليه . أثارت القصة اهتمام ريكاردو حتى أنه سأله معلقًا على ما حدث :

« يبدو على الرفيق تشاينا هذا إنه من قادة الميدان الممتازين . هل علمت أبدًا بما حدث له بعد فراره ؟ » .

فأجابه سين :

« ظل نشطًا في عملياته حتى نهاية الحرب الروديسية ، وبعدها قام بشحن كل ذخائره ومعداته إلى روديسيا ، ومن بينها أحد الألغام الروسية (تي ٥) المضادة للدبابات ، والذي يزن حوالي سبعين رطلاً . وتقول الرواية أن الرفيق تشاينا أحضر واحدًا منها بعد جهد كبير وبذل للعرق والدم ودفنه في طريق جبل داروين الرئيسي ، لتدمير إحدى عربات دورياتنا المدرعة . لكن حدث أن كان المواطنون السود قد استأجروا باصًا بنهاية الأسبوع ، للذهاب إلى المدينة ومشاهدة إحدى مباريات كرة القدم ، فضغط الباص على اللغم وانفجر . ومن بين خمسة وستين راكبًا لم يخرج سوى ثلاثة وعشرين منهم سالمين بأرواحهم . غضب تشاينا غضبًا شديدًا لضياع لغمه (تي ٥) الثمين حتى أنه أرسل لاستدعاء جميع أقارب الضحايا ، وكذلك الذين نجوا من الحادث ولديهم القدرة على المشي ، وفرض على كل منهم غرامة عشرة دولارات ليغطي ثمن لغم أرضي آخر» .

توقف ريكاردو عن السير وانثنى على نفسه من شدة الضحك والقهقهة ، أما كلوديا فأقبلت عليهم في سخط وهياج :

«كيف تجرؤون على الضحك ؟ ما سمعته هو أكثر قصة شائنة ومفرطة سمعتها أبدًا » .

أجابها سين بهدوء :

«أوه . لا أظن . لا أظن أن عشرة دولارات كانت شيئًا شائنًا أو مفرطًا ، وأعتقد أن تشاينا العجوز كان متسامحًا بالقدر المعقول » .

رفعت رأسها وزادت من سرعتها للحاق بمتاتو . أما ريكاردو ، والذي كان لا يزال يقهقه فسأل :

«وماذا حدث لهذه الشخصية بعد الحرب ؟ » .

هز سين رأسه بلا مبالاة وقال :

« لقد اشترك في الحكومة الجديدة في هراري لفترة من الزمن ثم اختفى بعدها في واحدة من عمليات التطهير السياسية ، وربما تكون قد تمت تصفيته . فهؤلاء الثوار القدامى دائمًا ما ينظر إليهم بعين الشك والريبة بعدما يتولى النظام، الذي حاربوا من أجله ، السلطة . فلا أحد يرضى أن يشترك في فراش واحد مع قاتل محترف مدرب ومعتاد على قلب أنظمة الحكم » .

طلب سين التوقف للراحة لمدة ساعة لتناول الشاي مع وجبة المساء المتواضعة . وبينما قام جوب بإعداد الشاي والطعام على نار صغيرة لا دخان بها ، تناول سين يد متاتو وانتحى به جانبًا وتحدث إليه بصوت خافت . كان متاتو منتبهًا بشدة وهو ينظر لملامح وجه سين أثناء حديثه وكان يومىء برأسه موافقا بحماس على ما يقوله . وعندما انتهى سين تسلل متاتو راجعًا إلى الطريق الذي أتوا منه .

نظر ريكاردو متسائلاً عندما عاد سين للحاق بهم وأوضح له :

« لقد أرسلت متاتو ليمحو أي أثر لنا ، وليتأكد من أن أحدًا لم يتبعنا . فإنني قلق بخصوص تلك الرصاصة ، وربما تجذب نحونا أولئك الخبثاء الذين وجدناهم بالقرب من الحدود » .

أومأ ريكاردو برأسه ثم سأل :

«هل معك بعض الأسبرين يا سين ؟ » .

فتح سين غطاء حزمته الجانبي وأخرج ثلاث حبات أنادين من زجاجتها وناولها لريكاردو متسائلاً :

«صداع ؟ » .

أومأ برأسه وهو يلقى بالحبوب في فمه ويبتلعهم بجرعة من الشاي . وأوضح لسين : «بسبب الغبار والشمس» . لكن سين وكلوديا كانا يتمعنان فيه لدرجة أزعجته فصاح فيهم :

«اللعنة . لا تنظروا إلى بهذا الشكل فإنني على ما يرام » .

جاراه سين بلطف :

«تمامًا . فلنكمل طعامنا ، ثم نذهب للبحث عن مكان مناسب للرقاد » . توجه سين إلى جوب بجوار النار وتربع على الأرض بجانبه ، وتحدثا بصوت خافت أما كلوديا فاقتربت من والدها ولمست ذراعه وقالت :

«بابا . حدثني بأمانة عما تشعر به » .

- لا تقلقي بشأني عما تشعر به » .

- لا تقلقي بشأني يا تيسورو .

- هل بدأ المرض في التحرك ؟

أجابها بسرعة : «لا» .

- لكن دكتور أندروز ذكر أنه ربما يكون هناك شعور بالصداع .

- إنها الشمس يا بنيتي .

- أحبك يا بابا .

- أعلم يا طفلتي وأنا أحبك أيضًا .

سألته : «المحيطات والجبال ؟ » .

فأجابها وهو يلقى بذراعه حول كتفها ويضمها إليه :

«والنجوم والقمر » .



عندما انتهوا من طعامهم أطفأ جوب النار وتحرك بهم سين مرة أخرى . كانت آثار توكوتيلا واضحة وسهل تتبعها على التربة الناعمة ، ولم يعد هو أو جوب في حوجة لماتاو في هذه المرحلة . وعندما عم الظلام اضطروا للتوقف وللنوم.

وعندما رقد كل منهم على حقيبة نومه قال سين لريكاردو مطمئنًا :

« سنبلغ المستنقعات غدًا ظهرًا » .

ظلت كلوديا مستيقظة ، قلقة على صحة أبيها ، لمدة طويلة حتى بعد أن نام الجميع . كان ريكاردو يطلق شخيرًا هادئًا وهو مستلق على ظهره ويداه مفرودتان كالصليب . وعندما اتكأت على أحد مرفقيها لتنظر إليه في ضوء النجوم ، سمعت تنفس سين الهادئ وقد تغير فجأة ، وضمنت أنه ربما أحس بحركتها واستيقظ ، فقد كان نومه خفيفًا كالقطط وهذا ما أخافها في بعض الأحيان .

وأخيرًا تغلب النعاس الشديد والإرهاق على قلقها على أبيها فاستسلمت للنوم وكأنها تحت تأثير لمخدر . لكن إيقاظها بدا وكأنها قد عادت من مكان بعيد نائي :

« استيقظي . هيا استيقظي ! » كان سين يربت على وجهها بلطف . فدفعت يده عنها بعيدًا وجلست مترنحة كالثملة ثم غمغمت : «ماذا ؟ يا إلهي لا زال الظلام مخيمًا » .

تركها سين وتوجه نحو أبيها وأيقظه : «هيا بنا يا كابو . استيقظ يا رجل . قم » .

جاء صوت ريكردو متمتمًا متشكيًا :

«ماذا بحق الجحيم ؟ ما الأمر ؟ » .

أفاده سين بهدوء :

« لقد عاد متاتو للتو . هناك من يتتبعنا » .

أحست كلوديا برياح الخوف الثلجية تهب وتتسلل إلى جسمها :

- متبعون ؟ ممن ؟

- لا ندري .

وسأله ريكاردو :

« أهي نفسي المجموعة التي كانت معسكرة على الحدود ؟ » كان صوته لا زال ثقيلاً غير واضح . وأجابه سين :

« ربما » .

سألته كلوديا : «وماذا تنوي أن تفعل ؟ » وشعرت بالضيق لأن لهجتها كشفت عن خوفها واضطرابها . وقال لها سين :

« سنتسل ولن يردونا . انهضي » .

كانوا قد ناموا مرتدين أحذيتهم وكان عليهم ببساطة أن يطووا أكياس نومهم ثم يواصلون التحرك . وأوضح لهم سين :

« سيقودكم متاتو بعيدًا عنهم وسيعمى آثاركم . أما أنا وجوب فسنقوم بإحداث أثر كاذب في اتجاهنا الأصلي لنضللهم ، وعندما تشرق الشمس سنتسل لنلتف عائدين للحاق بكم » .

« إنك لن تتركنا وحدنا وتذهب ؟ » غمغمت كلوديا بخوف ثم سكتت .

- لا . لن تكونوا وحدكم . فمتاتو وبميولا وديدان سيكونون معكم .

لكن صوت ريكاردو جاء صارمًا ومتسائلاً :

«وماذا بشأن الفيل ؟ هل تريد أن توقف الطراد ؟ أتريد لفيلي أن يضيع مني؟» .

ضحك سين ضحكة خافتة وقال له :

« لا تكن سخيفًا يا كابو . هل نفر من حفنة من الحثالات ، معهم بضع بنادق إي كي ٤٧ ؟ سنهزمهم هزًا ثم نعود إلى توكوتيلا حتى قبل أن تدرك أنت ذلك » .



انتظر سين وجوب في مكانها بينما قام متاتو بضم جماعته إليه ثم قادهم بعيدًا . كان كل من كلوديا وريكاردو قد أتقن الآن فن التمويه وإخفاء الأثر ومضوا سراعًا إلى حيث وجههم متاتو . أما هو فكان وراءهم يخفي كل أثر لهم

ويمحوه . وعندما اختفوا عن الأنظار ، قام كل من سين وجوب بوطء الأرض بأرجلهم والضغط عليها ذهابًا وإيابًا حول المنطقة ، ثم يدوران ويعودان حتى شوشا على أي أثر يدل على الوجهة التي ذهبت إليها بقية المجموعة . ثم قاد سين، ومن ورائه جوب ، الطابور المكون منهما ومضيا جريًا باتجاه معاكس بدون أن يكون أمر خدعتهما بإخفاء الأثر ظاهرًا . لكنهما طبقا كل الاحتياطيات المضللة الممكنة والتي ، رغم ذلك ، لن تفوت على فطنة قصاص أثر ماهر .

هرول سين بسرعة الكشافة عندما يطاردون عدوًا . سبعة أميال في الساعة، ثم بدأ تدريجيًا ينحرف باتجاه الجنوب . أما متاتو فقد توجه شمالاً باتجاه النهر ، حيث سيلحق سين به لقيادتهم ثانية .

وبينما كان سين يجري ، كان يحاول فك اللغز المتعلق بشخصية مطارديهم، وهل هم من جنود الحكومة ، أم من الثوار ؟ لصوص صيد أم مجرد عصابات مسلحة جارية وراء السلب والنهب . كان مستحيلاً عليه أن يخمن رغم أن متاتو كان منزعجًا عندما حدثه عن وجودهم .

كان قد قال له :

«إنهم ممتازون يا بوانا . لقد أثبتوا مهارتهم عند تتبعهم لنا وكانوا مسرعين وراءنا . إنهم يتحركون في تشكيل كالمحاربين في الأدغال وإنهم يستخدمون الأجنحة لحماية أجنابهم » .

- لكن : ألم تلق عليهم نظرة دقيقة ؟

هز الأندوروبو الضئيل رأسه بأسى وقال :

«كان الظلام قد بدأ يطل ، وأردت العودة بسرعة إليكم لأحذركم ، فقد كانوا يقتربون منا بسرعة» . لكن سين طيب من خاطره وقال له :

«إن أفضل قصاصي الأثر لن يستطيعوا تتبعنا أثناء الظلام . إن لدينا الليل بطوله للتملص منهم» .

كان هذا عكسًا للأدوار . فقد تحولوا هم من صيادين إلى مصيدين مطاردين وبلا هوادة . هذا ما كان يجول بخاطر سين ، وهو يركض خلال الغابة المظلمة ، وجوب من ورائه .

كان - وهو يقلب الفكر - قد رأى أن الصواب في ترك مطاردة الفيل وأن يعودوا راجعين للحدود فقد كانت حالة ريكاردو مونتيرو تسبب له قلقًا واضحًا. كما أضاف متاتو المزيد بتحذيره أن مطارديهم على مستوى ممتاز من الكفاءة ويبدو أنهم خطرون عليهم حقًا . لكن سرعان ما تراجع سين عن هذه الفكرة . فقد وصلوا لنقطة اللا عودة أو اللا تراجع . وابتسم سين وبين نفسه بالأسباب

التي دعته لذلك القرار : زوج نادر من الأنياب العاجية ونصف مليون دولار نقدًا. لكنه لم يعرف أيهما كان أكثر إغراء .

كان ذلك العاج يخيم على فؤاده ويثقل عليه . فقد كان نموذجًا لإفريقيا التي كانت . رمزًا للعالم الجميل الذي يختفي الآن . لكنه يريده أكثر مما أراد شيئًا آخر في حياته ، ربما عدا نصف المليون دولار . وابتسم مرة أخرى .

وعند أول بوادرٍ لضوء الفجر كانوا يجرون مباشرة صوب الجنوب مغطين حوالي عشرين ميلاً منذ أن افترقوا من المجموعة .

وغمغم سين بدون أن يبطئ من خطواته المسرعة :

«حان الوقت للاختباء يا جوب » .

كان عليهما ألا يتركا أثرًا وراءهما حتى لا يعرف مطاردوهم بأنهم على وشك الانفصال والانسلال لوجهة أخرى مختلفة . كان جوب جاريًا وراءه يدوس على نفس خطوات سين . وقال له مؤيدًا :

« هناك وكان ملائم أمامنا للاختباء فيه » .

فقال له سين : «هيا بنا » . وعندما كانا يجريان تحت الفروع المتدلية لشجرة جريفيا ، قفز جوب وأمسك بأحد الأغصان وتعلق بها بينما لم ينظر سين وراءه ولم يغير سرعة خطاه الواسعة . فهو يعرف أن جوب سيقفز من شجرة جريفيا لأخرى حتى يجد مكانًا مناسبًا يقفز منه على الأرض مرة أخرى ، ليخفى آثار سين ، مضى سين قدمًا لحوالي عشرين دقيقة وهو يجري ، ثم استدار مرة أخرى ليتجه نحو الجنوب الغربي متجهًا نحو درز بدا شاحبًا في ضوء الفجر من أمامه . عبر ذلك الدرز ، وكما توقع ، رأى وراء السهل نهرًا صغيرًا يخترق الوادي الذي أمامه . شرب من حافة البركة ودار حول نفسه وأخذ يرش الماء حوله على الضفة وكأنه يستحم .

أي قصاص للأثر سيظن أن سين قد اختار هذا الموقع كنقطة انطلاق نحو وجهته ، فإما سيخوض في الماء باتجاه أدنى النهر ، أو أعلاه ، قبل أن يغادر النهر مرة أخرى . وسيرسلون القصاصين بطول مجرى النهر ، وعلى الضفتين ، للبحث عن أي علامات تدل عليهم . لذا خاض سين في النهر متجهًا لأدناه ومستندًا على فروع الأشجار المتدلية عليه حتى يعطيهم أثرًا كاذبًا مؤكدًا لظنهم ، ثم ، وبدون أن يغادر النهر عاد إلى نفس النقطة التي دخل منها أول مرة وجفف قدميه وساقيه على الشاطئ ولبس حذاءه الفلسكوين ، الذي كان جافًا معلقًا على عنقه ، ورجع عائدًا يدوس على نفس دربه الأول .

رجع للخلف بنفس الطريقة حتى قمة الدرز ، يخطو على آثار أقدامه السابقة تمامًا حتى وصل إلى القمة . وهناك استخدام نفس تكتيك جوب .

تأرجح في الهواء من على فرع شجرة قبل أن يلقى بنفسه على حافة صخرة عريضة ثم انسل بعيدًا دون ترك أي أثر .

حدث نفسه بثقة ورضى : « حتى متاتو لا يستطيع حل هذا اللغز » ومضى جريًا نحو الشمال حيث التقى مع جوب بعد ساعتين في المكان المتفق عليه ، وقبل منتصف النهار وصلوا إلى مكان بقية المجموعة والتي كانت بانتظارهم على بعد خمسة أميال من النقطة التي افترقوا منها في البداية .

وقال له ريكاردو وهو يهز يده مصافحًا :

«إنني سعيد برؤيتك يا سين . لقد بدأنا نقلق عليكم» . حتى كلوديا ابتسمت له عندما طرح نفسه على الأرض بجوارها وقال : «لكم مملكتي في مقابل كوب من الشاي !» .

كان يرشف في الشاي الذي أحضره له متاتو ويستمع إلى روايته باهتمام عظيم . تربع متاتو بجواره وبدأ يشقشق متحدثًا بانفعال وشعور بالأهمية وشرع سين يترجم لريكاردو وكلوديا :

« لم يجرؤ على الاقتراب منهم بشدة ، لكنه رأى العصابة التي كانت تتبعنا وهي تعود لمعسكرها . أحصى هذه المرة اثني عشرة رجلاً منهم، وعرف أنهم قد فتشوا المكان الذي كنا فيه ، ثم ابتلعوا الطعم وتتبعوا الدرب الخداعي الذي عملته أنا وجوب » .

فسأله ريكاردو : «يعني أننا أصبحنا بمنجاة منهم ؟ » .

أجابه سين موافقًا : « يبدو ذلك . وإذا ما اندفعنا قدمًا فبمقدورنا الوصول إلى بداية المستنقعات هذا المساء أو باكورة الغد » .

- وماذا بشأن توكوتيلا ؟

- حسنا . إننا نعلم - من آثاره - المكان تقريبًا الذي دخل منه إلى المستنقعات وسنفتش أطراف المستنقع حتى نعرف النقطة التي دخل منها تمامًا . لكننا تأخرنا كثيرًا في الساعات الماضية ، وبالتالي فإن علينا الإسراع وراءه حتى لا يفلت منا . هل تشعر بالقدرة على ذلك يا كابو ؟

- لم أكن أبدًا في حالة أفضل مما أنا عليه الآن . قدنا يا رجل .

❖ ❖ ❖

وقبل أن يستأنفوا سيرهم ، قام سين بمراجعة حمولة كل منهم فقد كانوا قد استهلكوا قدرًا كبيرًا من المون وآن الأوان لإعادة توزيع الباقي عليهم . زاد حمولته هو وجوب بمقدار عشرة أرطال لكل منهما بينما خفض وزن حمولة ريكاردو إلى عشرين رطلا أما كلوديا فأعطاها عشرة أرطال ، كانت عبارة

عن كيس نومها ومتعلقاتها الشخصية فقط .

لاحظ سين ارتياحهما لذلك ومشى سين بجوار ريكاردو يؤانسه ويشجعه على المضي قدما وليراعيه ويراقبه . لم يكن أبداً ليقلق بشأن كلوديا فقد كانت ، لدهشته ، تمشي على أحسن حال ، وكانت تمضي بحمولتها الخفيفة بسرعة ورشاقة ، وشعر سين بالسرور وهو يتمعن في ساقيها الطويلتين ومؤخرتها القوية التي ترتفع وتنخفض تحت بنطلونها الجينز ، وذكره هذا بخدود السنجاب الأمريكي وهو يمضغ ثمار الجوز .

وصلوا الآن إلى بطن الوادي . وكان أمامهم سهل فسيح تتناثر عليه أشجار التبلدي بجذوعها المنتفخة ، ولحائها الشبيه بجلد الزواحف ، وفروعها المعقوفة العارية من الأوراق والتي تتدلى منها ثمارها المتورمة . وذكره هذا بقبائل الزولو عندما قالوا (أن الله زرع التبلدي مقلوبًا ، جذوره في الهواء وفروعه تحت الأرض) .

وعلى البعد منهم رأوا سحابًا من البخار حدد بوضوح معالم المستنقعات ، وبدأت الأرض الغرينية الرملية تميد من تحت أقدامهم وتلين . وأراد سين أن يصرف انتباه ريكاردو عن محنته وإرهاقه :

« تصور يا كابو إنك ربما تكون آخر الرجال الذين سيصطادون فيلاً عظيمًا كهذا ، وبالطريقة التقليدية للطراد والقنص . هذه هي الطريقة الوحيدة التي يصاد بها يا رجل ، وليس بأن تركب اللاندر وفر وتنحني على الشباك لتقتله . طريقتك هي نفس الطريقة التي صاد بها سيلوسي وكرامو جويل وسماكي سالمون أفيالهم » .

رأى وجه ريكاردو ينشرح لمجرد مقارنته بمثل هؤلاء الأساتذة العظام في فنون القنص والطراد . رجال من عصر آخر كانت فيها الأفيال مباحة لمن يصيدها . لقد طارد سماكي سالمون وقتل منفردًا أربعة ألف فيل في حياته ! كانت أخلاقيات الصيد وقيمه تختلف آنذاك عنها الآن . فإذا ما قام رجل في عصرنا هذا بقتل مثل ذلك العدد فإنه يعد من المجرمين الأشرار . لكنه ، وفي أيامه تلك التي خلت ، كان سماكي سالمون مهابًا محترمًا ، بل وموقرًا ، حتى أنه قام بالصيد مع الأمير إدوارد ، أمير ويلز ، كزبون له في السفاري .

كان يعلم اهتمام ريكادو الكبير بأقاصيص صيادي الأفيال القدامى . لذا توسع في رواية حياتهم وأعمالهم :

« إذا أردت أن تطارد فيلك كما كان يفعل كرامو جويل ، يا كابو ، فعليك أن تمشي مثل هذا المشوار . فقد كان بل يبلى أربعة وعشرين زوجًا من الأحذية كل عام ، وكان عليه أن يستبدل الحمالين وحملة البنادق كل بضعة أسابيع ، فقد كانوا لا يستطيعون مواكبة سيره » .

زاد ريكاردو من سرعة خطاه قليلاً وهو مستغرق في الأمر ثم قال : «كان ذاك العهد الذهبي يا سين . فأنت وأنا ولدنا بعد زمننا وكان علينا أن نكون في ذلك الزمن » . فأجابه سين مواصلاً حديثه :

«على الصياد الأصيل أن يقتل فيلاً عظيمًا وهو على أرجله . عليه أن يمشي وراءه بدون كلل حتى يرميه . وهذه هي الوسيلة الصحيحة والمحترمة . وهذا هو ما تقوم به أنت الآن يا كابو . استمتع بكل خطوة تخطوها فإنك تطبق بالضبط ما كان يقوم به بل العجوز » .

لكن ، لسوء الحظ ، لم تجد محاولات سين لتشجيعه كثيرًا . ففي خلال ساعة كان ريكاردو يترنح ثانية ويتأخر عن موقعه في الطابور وبدا عليه عدم توازن في مشيه بل إنه تعثر لولا أمسك سين بزراعه . قاده سين إلى ظل شجرة وقال :

«إننا نحتاج جميعًا لبضع دقائق من الراحة ولكوب من الشاي » .

وعندما أحضر جوب أباريق الشاي غمغم ريكاردو :

«ألديك لي بضع حبوب أخرى من الأسبرين يا سين ؟ » .

فهل له الحبوب متسائلاً :

«أأنت بخير ؟ » لم ينظر ريكاردو إلى وجه سين لكنه قال :

« إنه ذلك الصداع اللعين » .

نظر سين أمامه إلى كلوديا التي كانت تجلس بجوار والدها لكنها هي بدورها قد تجنبت نظرته . واستفسرها سين :

« هل تعلمين بشيء مجهول لدى ؟ يبدو عليكما الإثنان الشعور بالذنب » .

لم ينتظر منهما إجابة ، بل توجه نحو جوب الذي كان مقرفصًا بجوار نار الشاي ، وكان يخبز عليها أقراصًا من خبز الذرة الشامي لوجبة المساء ، وجلس بجانبه .

ويلن ورفق قالت كلوديا لوالدها :

« ستشعر بالتحسن بعد تناول الأسبرين » . فرد عليها موافقًا :

« بالطبع . فالأسبرين علاج ناجع للهيب السرطان عندما يصل إلى المخ » . ثم عندما رأى تعابير وجهها المفجعة عند اعترافه الواضح بما يعانيه قال لها : «إنني آسف ، فلا أدري لماذا قلت ذلك. فليس من طبيعتي الإشفاق على الذات يا بنيتي».

- أهو بهذه الدرجة من السوء .

- يمكنني تحمل الصراع . لكن ما يقلقني هو أنني بدأت أرى الأشياء رؤية

مزدوجة . اللعنة . لقد كنت على ما يرام حتى قبل بضعة أيام لكن كل هذا حدث وبسرعة .

فقالت له في إشفاق :

« إنه الإرهاق ، وربما تسبب في تقدم أعراض المرض ، ويجب علينا أن نعود».

لكنه أجابها بتصميم نهائي :

« لا . وعليك الا تتحدثي مرة أخرى عن العودة » . فأحنت كلوديا رأسها في استسلام وقالت له :

« على كل حال فالمستقعات ليست بالبعيدة الآن وربما نجد فرصة للراحة هناك » ، فقال لها :

« لا أريد الراحة : إنني أعرف كم من الوقت القليل قد بقي لي ولا أريد أن أضيع لحظة واحدة منه » .

عاد سين إليهما وسألهما : « أمستعدان لمواصلة السير ؟ » .

نظر في كلوديا إلى ساعتها . لقد استراحوا لأقل من نصف ساعة ، وهذا لا يكفي ، لكن ريكاردو انتصب واقفا وقال له : «كل شيء على ما يرام » .

كانت فترة الراحة القصيرة تلك قد أنعشته .

لم يمضي على انطلاقهم سوى بضع دقائق عندما قال ريكاردو بانشراح واضح :

« ذلك الهامبرجر الذي أعده لنا جدب كان رائعًا ورائحته شهية . إنه يشعرني بالجوع الشديد».

ضحك سين ضحكة خافتة وقال له :

« هذا الهامبرجر ما هو إلا خبز الذرة . إنني آسف لأخيب أملك » فبادله ريكاردو الضحك وقال :

« لا يمكنك أن تخدعني فباستطاعتي أن أشم رائحة البصل وشرائح اللحم».

«بابا» . قطبت كلوديا وجهها ونظرت من خلف ظهرها بعبوس . وتوقف ريكاردو عن الضحك وبدا عليه نوع من الذهول .

« ... قد تحدث له هلوسة وتخيلات» . كان دكتور أندروس قد حذر كلوديا : «قد يرى أشياء أو يتخيل الروائح المختلفة لها . ليس بمقدوري أن أعطيك وصفا دقيقا لتطور مرضه بالطبع . وربما يمر بفترات من التدهور تعقبها فترات

طويلة من اختفاء الأعراض تلك . فقط تذكري يا كلوديا أن ما يتخيله يبدو واقعيًا جدًا له وقد تعقب نوبات الهلوسة تلك فترات من الوضوح الكامل والصفاء الذهني » .

في تلك الأمسية لم يتوقف سين حتى لتناول الشاي بل قال لهم : « علينا أن نعوض ما فاتنا من زمن ونسرع » . تناولوا خبز الذرة البارد وشرائح من لحم الصيد المملح المجفف وهم ماضون . وداعب سين ريكاردو وهو يناوله نصيبه :

« خذ يا كابو . قطعة كبيرة من الهامبرجر مع البصل الحمر وكل الملحقات » نظرت إليه كلوديا شزرًا ، لكن ريكاردو ضحك بفتور وأخذ يقضم في طعامه غير الشهي أثناء المشي .

لم يعد أمامهم الآن أثر ليتبعوه لذا واصل سين السير حتى بعد هبوط الظلام. وتراجعت الأميال وراء الأميال بمشقة وعذاب وتلألأت أضواء النجوم فوق رؤوسهم . لم يتوقفوا للنوم إلا بعد منتصف الليل ودخل كل منهم في كيس نومه.

تركهم سين نائمين حتى بعد طلوع الفجر ووضوح الرؤيا أمامهم لقد تغير منظر السهل . فأثناء سيرهم بالليل كانوا قد وصلوا إلى المنطقة التي يضمها الزامبيزي العظيم وكانت عبارة عن سهول فيضانية عتيقة تغمرها المياه عندما يفيض النهر على شاطئيه أثناء ذروة موسم الأمطار. لكنها كانت جافة الآن . وبالرغم من أنها تكاد تكون خالية من الأشجار إلا أن بعض أشجار الموبين والسنط الشوكي الميتة ، والتي اقتلعتها الفيضانات ، كانت لا تزال راقدة وفروعها الملتوية العارية من الأوراق متجهة نحو السماء الزرقاء ، منتصبة على السهول الجرداء وكأنها أفراد من الحرس المهجورين .

وعندما تحركوا صوب السهل كان الطمي الجاف قد تشقق وتحول إلى ما يشبه الطوب المحطم تحت أقدامهم ، وكانت مجموعات أعشاب المستنقعات الجافة البنية تفرش الأرض أمامهم .. وعندما كان النسيم يهب عليهم كانت رائحة المستنقعات تصل إليهم . رغم أنهم لم يصلوها حتى الآن . تحمل رائحة الطمي وبخار الماء ورائحة النباتات المتعفنة .

لم يروا الأفق من أمامهم ، فقد غطاه وميض السراب فوق السهل والتقت السماء مع الأرض في خط كخط المياه . وعندما نظروا للوراء كان حزا مالأشجار يتلوى أمام أبصارهم كثعبان أسود طويل تحت السماء اللبنية ، مهتزًا ومتلويًا بخفة في السراب ، بينما أخذت الدوامات الترابية تدور حول نفسها وتتلوى وكأنها راقصات البطن .

وعندما كانوا في السهل المكشوف غمر سين إحساس بعدم الأمن وبأنهم

عرضة للمخاطر فربما تظهر فجأة طائرة دورية للفريليمو ـ ولو أنها فرصة ضئيلة ـ باحثة عن عصابات الرينامو فتكتشف وجودهم . فهم مكشوفون بوضوح ، وكأنهم البراغيث على ملاءة بيضاء . أراد أن يسرع ليغادر هذه المنطقة ، لكنه وعندما نظر إلى ريكاردو ، عرف أنه لابد لهم من الاستراحة مرة أخرى وبدون تأخير .

وإلى الأمام من سين أطلق متاتو صيحة جعلت أعصابه تثب . عرف سين معناها وجرى لملاقاته ، مارًا بكلوديا ، وتوقف بجانبه :

« حسنًا جدًا » ربت على كتف متاتو ثم انحنى على الأرض وجلس على ركبة واحدة وبدأ يتفحص في الأرض . جاءه صوت ريكاردو منزعجًا متسائلاً : «ما الأمر ؟ » .

رفع سين رأسه وابتسم ابتسامة عريضة له وقال :

« إنه هو توكوتيلا . لقد عثرنا على دربه مرة أخرى في المكان بالضبط الذي تنبأ متاتو به » .

ولمس بيده أثر الأخفاف الضخمة والتي أحال وزنها الهائل كريات الطمي الجاف إلى ما يشبه بدرة التلك . كان الأثر واضحًا حتى أن الفرق بين أخفاف الفيل المستديرة الأمامية وأخفافه الخلفية شبه البيضاوية كان واضحًا تمامًا وظاهرًا للعيان . وكانت آثار أطراف الأخفاف على الأرض مشطوفة من جراء أظافر إبهامه .

« إنه متجه مباشرة نحو المستنقعات » . قال لهم سين عندما وقف وظلل عينيه من وهج الشمس وهو يتتبع اتجاه الدرب . وعلى مسافة غير بعيدة عنهم ظهر صف آخر من الأشجار على الأفق وحيث ظهرت بروزات متصلة من الأرض بشكل قوس حتى طرف السهول . وعلق سين بقوله :

« بطريقة ما فنحن محظوظون . فقبل سنوات قليلة كان هناك العديد من قطعان الجاموس والغزلان والصيد على هذه السهول وبالتأكيد فإن آثارها كانت ستطغى على أثر توكوتيلا بعد بضع ساعات من مرورها عليه . والآن وبعد أن حولتهم حكومة فريمو إلى غذاءات للجيش فإن توكوتيلا قد يكون الكائن الوحيد الحي لعدة أميال من حولنا » .

ـ كم نبعد عنه الآن ؟ فأجابه سين :

« لقد كسبنا أرضًا وراءه ولكن ليس بما يكفي . أما إذا ما عثر علينا أولئك الأشرار في هذا المكان المكشوف ... لحسن الخط فإن درب توكوتيلا متجه مباشرة نحو خط الأشجار الذي أمامنا ، مما يعطينا بعض الغطاء ويخفينا عنهم » .

ثم أشار لمتاتو لقص الأثر واتباعه مرة أخرى .

❖ ❖ ❖

كان السهل الفسيح الممتد مرصعًا ببيوت قديمة للنمل ، عبارة عن تلال صغيرة عتيقة من الطين بنتها مستعمرات النمل الأبيض ، وكان بعضها بحجم الكوخ الكبير .. تلوى درب توكوتيلا بينهم . وعلى كل حال ، فقد كان خط الأشجار قريبًا منهم جدًا الآن حتى أنهم كانوا يتبينون الأشجار المنفردة منها . أما بروزات الأرض المتقوسة فقد شكلت طريقًا من طرف الغابة ، وعبر السهول، وإلى بداية المستنقعات الحقيقية . كان بين الأشجار نخيل الجوز ذات الجذوع كالزجاجة ومن بينها أشجار نخيل الإلالا بأوراقها المروحية العريضة والمختلطة بالتين البري . أما على الدروز المرتفعة والدرب الطويل الموازي لها فتبعثرت بعض أشجار التبلدي بجذوعها التي بألو نها تشبه جلود الفيل الرمادية .

ووسط ارتياح كبير تابع سين أثر أقدام الفيل العجوز حتى خروجه من السهل وتوغله بين أشجار ذلك البرزخ . لقد توقف الفيل هنا ليحفر بأنيابه الجذور المليئة بالعصارة لشجرة من نخيل الإلالا وخلف وراءه كومة من البراز الإسفنجي الأصفر .

وشرح لهم متاتو الموقف قائلاً يهمس :

« لقد استراح الفيل هنا . إنه رجل عجوز الآن وصار يتعب سريعًا . هنا وقف لينام . أنظروا كيف كان يجرجر أقدامه بين التراب ، وعندما استيقظ عفر نفسه بالتراب . وهناك المكان الذي اغترف منه التراب بخرطومه وألقاه فوق ظهره » .

سأله سين : «وكم مكث هنا ؟ » .

أمال متاتو رأسه جانبًا وهو يفكر في السؤال :

« لقد مكث هنا حتى وقت متأخر من بعد ظهر الأمس عندما كانت الشمس هناك » . وأشار بيده نحو الأفق الغربي بارتفاع عشرة درجات . « لكنه عندما تابع مسيرته كان يمشي ببطء ملحوظ، فقد بدأ يشعر بالأمان كلما اقترب من المستنقعات . إننا قطعنا شوطًا طيبًا في اللحاق به».

أخذ سين يترجم ما قاله متاتو لكل من كلوديا وريكاردو ، مع بعض المبالغة في تقديرات متاتو والاحتمالات التي وضعها . فقد أراد أن يبث روح الحماس والتشجيع لهم . وقال مضيفًا :

« لقد حققنا إنجازًا طيبًا جدًا في اللحاق به » . ورسم على وجهه علائم البشر والثقة . «وربما نتمكن من اللحاق به ، قبل أن يتوغل بداخل المستنقعات العميقة، إذا لم نضيع الوقت » .

اتجه أثر الفيل نحو البرزخ . وعاد الفيل للأكل مرة أخرى وهو يتحرك عبره ومجاوزًا دائمًا لقمم الدروز المنخفضة ، حيث تكون الأشجار أكثر غزارة والتفافا . برزت من أمام المجموعة شجرة تبلدي عملاقة أخرى وكان لحاؤها رماديا متجعدًا مشققا كجلد الفيل العجوز .

كان سين قد غادر ريكاردو ليتجه لموقعه الأصلي في الطابور من خلف متاتو . أراد أن يبطئ قصاص الأثر من سيره مراعاة لحالة ريكاردو ولكن ، وقبل أن يتحدث مع متاتو ، سمع صرخة متحشرجة من خلفه فاستدار بسرعة .

كان وجه ريكاردو متورمًا ومحتقنًا بالدم وعيونه ملتهبة وكأنها على وشك أن تبرز من محاجرها. تخيل سين أن صاحبه قد أصيب بنوع من النوبات ، لكن ريكاردو كان يشير بيده للأمام وهو يرتجف بانفعال عظيم .

صرخ ريكاردو بصوت غير طبيعي : «إنه هناك . بالله عليك ألا تراه ؟ » . استدار سين وتوجه بعينه إلى حيث أشار بيده وقال :

«ماذا هناك يا رجل ؟ » .

كان يحدق أمامه . ولم يعرف أن ريكاردو قد التف حول بميولاً وانتزع من على كتفه بندقية الرجبي . لكن سين سمع صوت الترباس عندما حشاها ريكاردو برصاصة ضخمة .

صاح في وجه ريكاردو ليتوقف «ماذا بحق الجحيم أنت فاعل ؟ » . لكن ريكاردو دفعه بيده بقوة إلى الخلف . لم يكن سين متوقعًا لذلك وفقد توازنه وترنح وكاد أن يسقط على الأرض .

جرى ريكاردو للأمام ووقف في مقدمة الطابور ورفع بندقيته . كان سين يعدو بسرعة لإيقافه وهو يصيح : « كابواه لا تطلق النار » . لكن الرجبي انطلقت وقد قفزت ما سورتها للأعلى دافعة ريكاردو للوراء خطوة من شدة ارتدادها «هل حنبنت يا كابو ؟ » لم يتمكن سين من الوصول إليه قبل أن يطلق النار مرة أخرى . مزقت الرصاصة الثقيلة اللحاء الرطب لجزع شجرة التبلدي وشتته كالريش في مهب الرياح ودوى صوت الصدى عبر السهول وتردد فيها .

«كابوا » وصل سين إليه وأمسك بالبندقية وحولها بقوة نحو السماء في اللحظة التي أطلق فيها كابو الرجبي للمرة الثالثة . انتزع سين الرجبي منه بالقوة وقال مهتاجًا : «باسم كل ما هو مقدس يا رجل . ماذا تظن أنك تفعل ؟ » .

كانت آذانهم قد صمت من دوي الرجبي وبدا صوت سين المهتاج الغاضب صغيرًا وخاويا بعدها . وغمغم ريكاردو :

« توكوتيلا ... ألا ترى ؟ لماذا أوقفتني ؟ » . كان وجهه لازال محتقنا محمرًا وكان يرتجف وكأنه مصاب بالملاريا . حاول مرة أخرى انتزاع الرجبي من

قبضة سين ، لكن سين أبعدها عنه وصاح فيه بغضب ، وهو يلقي بالبندقية إلى جوب : «تمالك نفسك يا رجل » . ثم أشار لجدب « لا تدعه يتناولها مرة أخرى » . ثم استدار نحو ريكاردو وأمسك بكتفيه :

« هل فقدت عقلك ؟ إن صوت هذه الرصاصات سيصل إلى عشرات الأميال».

حاول ريكاردو الفكاك من قبضته وقال له : «دعني وشأني . ألا تراه ؟ » . لكن سين هزه بعنف :

« أوقف هذا الهراء . إنك تطلق النار على شجرة . لقد كشفت عنا الغطاء الآن» .

«أعطني بندقيتي! » كان ريكردو يتوسل إليه ، لكن سين هزه مرة أخرى، وبعنف أداره ليرى شجرة التبلدي الممزقة :

« أنظر إليها أيها المجنون الدموي . أهذا هو فيلك ؟ » . ثم دفعه نحوها وقال : «انظر إليها جيدًا » .

هرعت كلوديا إليهما وحاولت أن تهدئ من انفعال سين وقالت له : «دعه وشأنه . ألا ترى أنه مريض ؟ » دفعها سني جانبًا وقال لها : « لقد جن الرجل . لقد استدعى إلينا أي فريليمو أو رينامو سفاح من على بعد خمسين ميلا ، كما أنه طرد أي فيل هنا » . فأجابته : «أتركه » . فأزاح قبضته من على كتف ريكاردو ورجع للوراء قائلاً :

« حسنًا يا دلوعتي . كله لك » .

اندفعت كلوديا نحو أبيها واحتضنته قائلة :

« لا تقلق يا بابا . لا تقلق . كل شيء سيكون على ما يرام » . كان ريكاردو يحملق نحو الجروح الرخصة العميقة في لحاء شجرة التبدلي ، والتي كانت تنز بالعصارة التي تسيل منها ، وهز رأسه بضعف وقال :

« لم أفهم ما حدث ... لقد ظننت أنه ... لماذا فعلت ذلك ؟ لقد ظننت أنني رأيت الفيل » .

« نعم يا بابا . نعم . لا تقلق نفسك » . كانت كلوديا لا زالت تحتضنه وتضمه إلى صدرها . أما جوب وباقي الفريق فكانو هادئين ، غير سعداء ، يراقبون هذه المحنة التي لم يفهم أيًا منهم سببًا لها . أما سين فوقف بعيدًا شاعرًا بالاشمئزاز والقرف لكنه سيطر على نفسه بعد بضع ثوان وسأل متاتو: « أتظن أننا قريبون جدًا من توكوتيللا بحيث يكون قد سمع صوت الرصاص ؟ » هز متاتو رأسه وقال :

« المستنقعات قريبة جدًا منا وصوت الرصاص ينتقل فوق هذه الأرض

المنبسطة مثلما ينتقل على الماء . وربما يكون الفيل قد سمع . من يدري ؟ ، نظر سين وراءه صوب المكان الذي جاءوا منه وكان بإمكانه أن يرى ، من فوق الدرز ، السهول الفيضانية والأراضي البعيدة المتربة من ورائها.

- جوب : ما هي احتمالات أن يكون المسلحون قد سمعوا صوت الرصاص ؟

- سنعرف ذلك بالطريقة الصعبة ، ويعتمد هذا على مدى قربهم منا .

نفض سين جسمه ، محاولاً التخلص من مشاعر الحنق التي تملكته ، كما ينفض الكلب جسمه من الماء وقال لجوب :

« سنرتاح هنا . فالمامبو مريض . جهز لنا إبريقًا من الشاي ثم سنقرر ما نفعله» .

عاد إلى حيث كانت كلوديا لا زالت محتضنة والدها . واجهت سين متحدية وأدارت جسمها وكأنها تحمي أبيها منه . لكن له بلين « إنني أسف يا كابو لأنني دفعتك بيدي . لقد أخفتني حقًا » . غمغم ريكاردو وقال له :

« إنني لا أفهم حتى الآن ما حدث . يمكنني أن أقسم بأنه هو . لقد رأيته بكل وضوح » .

فأجابه سين :

« على كل حال سنرتاح قليلاً لتناول كوب من الشاي لكنت أعتقد بأنك أصبت بضربة شمس وهي قد تحيل مخ الإنسان إلى هلام » .

قالت كلوديا بثقة : «سيكون على ما يرام في بضع دقائق » . وأومأ سين نحوها ببرود وقال:

« من الأفضل أن يرتاح تحت الظل » .

اتكأ ريكاردو على جزع التبلدية وأغمض عينيه . كان يبدو شاحبًا مرتبكًا ، ولمعت حبات من العرق على ذقنه وشفته العليا . انحنت كلوديا وجلست بجواره ومسحت العرق بطرف وشاحها. وعندما نظرت إلى سين هز رأسه مناديًا لها بإشارة آمرة فوقفت وتبعته . وعندما كانا على مسافة لا يسمعهما فيها أحد قال سيد لها بلهجة الاتهام :

« لا يبدو أن ما حدث كان مستغربًا لديك . أليس كذلك ؟ » . ولما لم تجبه واصل قائلاً : «أي ابنة أنتي على كل حال ؟ لقد كنت تعلمين بأنه مريض ورغم ذلك وافقت على أن يحضر في هذه الرحلة» .

كانت شفتاها ترتجفان . وعندما نظر إليها وجد أن عينيها العسليتين كانتا مغرورقتان بالدموع . لم يكن يتوقع أبدًا رؤية الدموع في مآقيها ، وتراجع عن هجومه عليها ، وشعر بأن غضبه نحوها قد تبخر ، وأن عليه أن يجتهد

ليطيب خاطرها . ووجد نفسه يقول لها :

«لاوقت لدينا للنحيب يا عزيزتي لذا علينا أن نجد وسيلة لإرجاعه إلى وطنه».

« إنه لن يعود للوطن » . جاء صوتها خافتًا حتى أن سين التقط كلماتها بالكاد . كانت الدموع تغطي رموشها الغزيرة الداكنة ونظر إليها في صمت . ابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت له :

« إنه ليس رجلاً مريضًا يا سين . إنه يحتضر . إنه السرطان . لقد قام أخصائي بالتشخيص قبل أن نغادر الوطن وتنبأ بأن المرض قد يهاجم المخ مثلما حدث قبل قليل » .

انهار غضب سين وتلاشى تمامًا وصاح :

« لا . ليس كابو » .

« إذن لماذا تظن بأنني وافقت على حضوره وألححت على أن آتي معه ؟ لقد كنت أعلم بأن هذه هي رحلة صيده الأخيرة . وأردت أن أكون معه » . ظلا لبرهة صامتين ينظران لبعضهما البعض ثم قالت لسين :

« إنك مهتم به . إنني أرى أنك مهتم به حقًا ولم أكن أتوقع ذلك» .

فقال سين ، وقد دهش للحزن العميق الذي يغمره فعلاً :

«إنه صديقي » .

فقالت له بعذوبة :

« لم أكن أظن أنك قادر على أن تكون بمثل هذه الرقة . وربما أخطأت في الحكم عليك » .

فأجابها :

« ربما أخطأنا في الحكم على بعضنا البعض » . فأومأت برأسها وقالت :

« ربما كنا كذلك . ولكن شكرًا لك على أي حال . شكرًا لك لاهتمامك بأمر والدي » .

شرعت في الذهاب لأبيها لكن سين أوقفها :

« لم نتوصل إلى أي قرار ولم نقرر ماذا سنفعل » . فأجابته :

« سنواصل المضي قدمًا بالطبع . تمامًا حتي النهاية المرة وهذا ما وعدته » . فقال لها سين بصوت خافت : « إنك شجاعة حقًا » .

فأجابته وهي تستدير ذاهبة إلى أبيها :

« إذا كنت حقًا شجاعة فإنني حصلت عليها منه » .

❖ ❖ ❖

أنعش كوب الشاي ، ونصف دسته من حبوب الأنادين ، ريكاردو وبدأ يتحدث ويتصرف بطريقة عادية مرة أخرى ، في حين لم يشر أي واحد منهم لتصرفاته المخبولة تلك ، رغم أنها ألقت بظلالها القاتمة عليهم جميعًا . وقال له سين : «علينا أن نتحرك الآن يا كابو فإن توكوتيلا ليتوغل للأبعد في كل دقيقة نتوقف فيها هنا » .

تابعوا المشي بجوار الدرز المحيط بالأرض المرتفعة وسرعان ما جاءتهم رائحة المستنقعات القوية ، حملتها إليهم زخات الرياح التي تهب عليهم مرة بعد أخرى . وبدأ سين يشرح الأمر لريكاردو : « هذا هو واحد من الأسباب العديدة التي تجعل الفيل يفضل المستنقعات ويحبها . وهناك نجد أنه دائمًا ما تغير الرياح اتجاهها مما يجعل من الصعب الوصول إليه » .

كانت هنالك فجوة بين الأشجار المواجهة لهم . توقف سين وحدق من خلالها وقال :

« ها هي مستنقعات الزامبيزي » .

كانت سلسلة التلال التي يقفون عليها ذات لون وشكل كظهر ثعبان البحر وبدت وكأنها سابحة على سطح السهول الفيضية ، ثم تنحدر حتى السفح لتختفي في النقطة التي يلتقي فيها السهل المكشوف مع المساحات اللانهائية للبوص ونباتات البردي .

رفع سين منظاره المقرب ومسح المستنقعات أمامه . بدت مساحات البوص وكأنها لا نهاية لها. لكنه كان قد حلق فوقها بطائرته وهو يعرف أن البحيرات الضحلة والأهوار تقطعها وتتناثر عليها بشكل قنوات مائية وممرات لولبية ضيقة. وبعيدًا في الأفق كان يمكنه أن يرى ، وبشكل غير واضح، مجاميع متناثرة من الجزر الصغيرة والرقع الداكنة القاتمة التي لا تخترق لجزائر محاطة بالشجيرات المورقة المخضرة . ومن خلال عدسات المنظار تبين بالكاد السوق المحنية للنخيل برؤوسها الضخمة الكثة . كان الموسم الماضي موسم جفاف بالذات ، وانخفض مستوى المياه ليصل في بعض المناطق لما دون الخصر . لكن الضفاف الطينية كانت قد اسود لونها وصارت لزجة زلاقة بينما كانت القنوات بالداخل أكثر عمقًا . وقلب سين الأمر مرارًا في نفسه . فالدخول سيكون شاقًا صعب المرتقى ، وحتى باستبعاد الوحل والماء ، فإن النباتات المائية والبوص ستعوق أي خطوة يخطونها وستلتف حول سيقانهم عندما يتحركون خلالها . سيكون كل ميل يقطعونه في المستنقعات معادلاً لخمسة أميال في البر بالنسبة لهم بينما سيكون الفيل في بيئته الطبيعية ، يتجول كما يشاء ، فهو يعشق الطين والماء واللذان يدعمان كتلته الضخمة . كما أن أخفاف أقدامه مهيأة

طبيعيًا للتمدد عندما يضع ثقله عليهم ومحدثة لفجوات واسعة من تحتها . أما عندما يرفعها فإنها تنكمش ويقل حجمها ويسهل عليه بالتالي التخلص من قبضة الطين والوحل .

يمكن لتوكوتيلا أيضًا أن يلتهم من الطعام ما يشاء ، من البوص والنباتات المائية الرهيفة وحشائش المستنقعات . أما الجزر المكتظة بالشجيرات فإنها ستوفر له تنوعًا مما يشتهي من الغذاء . أيضًا فإن رشاش الماء أو حركة الأقدام في الوصول سوف توفر له إنذارًا مبكرًا عند اقتراب أي عدو منه ، بينما تعمل النسائم المتقطعة والرياح التي تهب على المستنقعات ، بنقل رائحة أي صياد يطارده له ، ومن أي اتجاه كان . هذا المكان ، من بين المجال الواسع الذي يتنقل فيه توكوتيلا ، هو أصعب مكان لصيد توكوتيلا فيه .

أنزل سين منظاره وقال لريكاردو :

« سيكون الأمر سهلاً وكأنه رحلة الأحد المدرسية يا كابو . وهذا العاج الثمين سيكون معلقًا قريبًا فوق المدفأة لبيتك » .

اتجهت آثار أقدام الفيل حتى وصلت لنهاية الأرض المرتفعة . ومن هناك مباشرة إلى نباتات البوص بالمستنقعات ، وبعدها عملت أوراقه المتمايلة الغزيرة على ابتلاع أي أثر لتقدمه فيها .

وقف ريكاردو حيث انتهت الأرض الهشة وبدأت المستنقعات والطمي الذي يحفها وقال :

« لا يمكن لأحد أن يتتبع أثر أي درب هنا . ولن يجد أحد توكوتيلا هناك» .

ثم كرر ثانية وهو يجدن صوب الحشائش المائية التي تفوقه طولاً : «بالتأكيد لن يستطيع أحد» .

فأجابه سيد مؤيدًا :

« أنت على حق . فلن يستطيع أحد العثور عليه هناك . أعني لا أحد بخلاف متاتو» .

على الشاطئ كانت هنالك بقايا لقرية أقيمت على ضفة البرزخ وكان واضحًا أن سكانها الذين هجروها كانوا من القرويين من صيادي السمك ، وهم عادة أفراد من بعض القبائل التي تسكن بطول ضفاف الزامبيزي وتعيش على ما يوفره لها ماء النهر الوافر من الطعام . لم يتبق من القرية سوى الرفوف التي كانوا يجففون عليها صيدهم من سمك التلابيا والشبوط والبني . لكن أكواخهم كانت قد احترقت وسويت بالأرض .

كان جوب يفتش في أنحاء القرية وأطرافها حينما صفر بفمه لسين .

وعندما جاءه سين وجده واقفًا أمام شيء ملقى وسط العشب القصير. للوهلة الأولى ظن سين أن هذا الشيء عبارة عن حزمة من الخرق البالية ثم رأى العظام الخارجة منها والتي كانت مغطاة جزئيًا بمزق من الجلد واللحم. وسأله سين :

«متى حدث هذا ؟»

فأجابه جوب :

« قبل ستة أشهر على ما أظن » .

- وكيف مات ؟

تربع جوب بجوار الهيكل العظمي البشري وعندما أدار الرأس انفصل عن فقرات عنقه وكأنه حبة ناضجة من الفاكهة . رفع جوب الرأس بين يديه ورأى الجمجمة وكأنها تبتسم في وجهه بمحاجر عينيها الخاوية وقال :

« برصاصة على مؤخرة الرأس . أما مكان خروجها فمن الجانب الآخر» . كان ثقب الخروج بمثابة عين ثالثة بمقدمة الجبهة .

أعاد جوب الجمجمة لمكانها وعاد ليجوس ويتوغل أكثر وسط الأعشاب ثم نادى : «وهنا ميت آخر » .

أبدى سين أريه قائلاً :

« قطعًا كانت رينامو هنا . إما يبحثون عن مجندين أو عن السمك المجفف أو عليهما معًا» . وأضاف جوب :

« أو بالعكس . فقد يكونون من الفريليمو مطاردين لثوار رينامو ويبدو أنهم قرروا استجوابهم بطلقات الإي كي » .

قال سين :

« يا للتعساء المساكين . إنهم يضربون من الجانبين . وأعتقد أن الكثيرين منهم سيكونون مبعثرين هنا ويبدو أنهم من الذين هربوا من أكواخهم قبل أن تحرق » .

عادا إلى بقايا القرية وقال سين :

« لقد كانوا صيادي سمك ، وقطعًا ستكون لديهم قوارب (كنو) هنا ، وربما يكونون قد أخفوها ، وسنستفيد من أحدها بالتأكيد . إذهب إلى البردي وفتش خلاله وخلال الشجيرات التي خلف القرية » .

ثم توجه سين إلى ريكاردو وكلوديا حيث كانا جالسين معًا . وعندما اقترب منهما نظر متسائلاً إلى كلوديا ، فأحنت رأسها وابتسمت ابتسامة متفائلة وقالت : «إن بابا في تحسن كبير. ما هذا المكان ؟» .

شـرح سـين لهمـا مـا رأى ومـا حـدث للقريـة . كانـت كلوديـا مرتاعـة وهـي تسأله:

« ولكن لماذا يقتلون هؤلاء الأبرياء ؟ » .

ـ إنك لا تحتاجين لسبب للقتل في أفريقيا هذه الأيام ، أكثر من أن يكون لديك بندقية ، ثم مزاح لإطلاقها » .

ـ لكن ماذا فعلوا من أذى لهم حتى يقتلوا ؟

هز سين رأسه وقال :

« إيواء المتمردين مثلاً ، أو إخفاء المعلومات أو الطعام ، أو رفضهم لتقديم خدمات نسائهم ، أو أي واحد من تلك الجرائم ، أو حتى بدونها جميعًا » .

بدت الشمس لهم ككرة حمراء من خلال الضباب الذي غطى المستنقع ، وقد انحدرت حتى قمم نباتات البوص ، حتى أن سين كان ينظر إليها مباشرة بدون أن يقي عينيه . وقال لهم :

« سيعم الظلام قبل أن نغادر هذا المكان . لذا علينا أن ننام هنا الليلة ، ثم نواصل مشوارنا غدًا مع أول ضوء . عزاؤنا أن توكوتيلا قد وصل للمستنقعات وسيبطئ من حركته وربما لا يبعد عنا الآن لأكثر من بضعة أميال » .

لكنه ما أن قال ذلك حتى تذكر تلك الرصاصات التي أطلقها ريكاردو فإذا ما سمعها الفيل فإنه سيكون لا يزال جاريًا . لكن لم يكن هناك داع على أية حال ليقول هذا لريكاردو ، فقد كان يبدو مرتبكا وجزءًا ويكاد يكون قد أخلد للصمت منذ تلك الحادثة .

« إنـه قد أصبح مجـرد قشرة لكابو الـذي عرفتـه . يا للشيطان العجـوز المسكين . إن آخـر مـا أستطيع عملـه لـه هـو أن أحصل لـه علـى ذلـك الفيـل » . هكذا سرح خيال سين . كانت عاطفته نحوه صادقة لم تغيرها الأحداث . جلس بجواره وبدأ يشغله ويؤانسه ووصف له ما سيلاقون أمامهم وكيف سيحصلون على الفيل وسط أحراش البردي تلك .

لم يكن هناك شيء يثير اهتمام ريكاردو الآن سوى القنص وحكاياته . ولأول مرة خلال ذلك اليوم عاد إلى طبيعته المفعمة بالحيوية ، بل حتى ضحك مرة ضحكة صافية .

رشقت كلوديا سين بابتسامة عرفان ثم وقفت وقالت مستأذنة : «لدى أمر خاص أود القيام به» . وفي الحال طلب منها سين إفادته إلى أين تنوي الذهاب فأجابته:

«إلى المكان الخاص بالبنات . وبالطبع فإنك لست مدعوًا للمشاركة » .

فاوما برأسه آمرًا :

« لا تتجولي هنا وهناك . ولا سباحة هذه المرة . فستنالين غدًا ما تريدين » . فقالت له باحترام يشوبه بعض التهكم :

« سمعًا وطاعة : أيها البوانا الأبيض العظيم » ثم تركتهم متوجهة لأطراف القرية . أخذ سين يرمقها بقلق ، وكان على وشك أن ينبهها لتكون أكثر حذرًا عندما انطلقت صيحة من بين أحراش البوص وتحول انتباهه عن كلوديا وقفز صارخًا :

« ماذا حدث يا جوب ؟ » ثم جرى نحو حافة البركة .

كان هناك مزيدًا من الصيحات المتداخلة وأصوات المياه المتساقطة من أعماق البردي ، ثم ظهر جوب ومتاتو من خلال الماء وهما يجران ورائهما شيئًا أسودًا طويلاً مشربًا بالماء . وتهلل وجه سين بابتسامة نحو ريكاردو وربت على كتفه قائلاً : «أول ضربة للحظ تواتينا » .

كان الشيء عبارة عن (موركورو ـ كنو) مجوفًا ويصل طوله لسبعة عشر قدمًا ومنحوتًا من جزع شجرة سجق واحدة (**Kigelia Africana**) .

كان جسم الطوف يسع بالكاد لشخص واحد جالس عليه لكن استخدامه عادة يكون بواسطة رجل يقف على الدفة مستخدمًا مجدافًا بشكل عمود طويل يدفع به الطوف للأمام .

أزاح جوب الماء من الطوف وبدأوا تفحصه بدقة واهتمام . كان جسم الطوف قد أصلح من قبل وملئت الشقوق في بضع مناطق منه بنوع من القار . لكنه بدا عموما بحالة لا بأس بها . وطلب سيد من جوب أن يبحث في أنحاء القرية عن المزيد من القار وقال له:

«لابد أن يكونوا محتفظين بشيء من هذه المادة هنا . حاول أن تجدها ، ثم أرسل ديدان ويميولا لقطع بصفة عمدان طويلة لنستخدمها » .

في هذه اللحظة صرخت كلوديا مستغيثة واستداروا جميعًا نحو مصدر الصوت ، والذي بدا غريبًا مكتومًا وبعيدًا . أخذ سين يجري بعد أن اختطف بندقيته من المكان الذي تركها فيه بجوار أقرب كوخ محروق وصاح :

« كلوديا ! أين أنت» .

لم يسمع سوى رجع الصدى لصوته يأتي متهكمًا من الغابة : أين أنت ؟ ... أنت ؟



عندما وقفت كلوديا وشدت حزام بنطلونها لاحظت أن الإبزيم قد تجاوز

الثقب القديم باثنين آخرين حول خصرها . ابتسمت ونظرت لبطنها في رضى فلم تعد بطنها الآن مسطحة ، بل تقعرت من جراء المشي المتواصل ، والوجبات الفقيرة التي كانوا يتناولونها والتي أزالت عن جسدها أي أثر للشحم . وابتسمت محدثة نفسها :

«من الغريب ، ونحن في عصر الوفرة ، أن نتضور جوعًا . حتمًا سأستمتع بتعويض ما فقدته من وزن ، بالمزيد من المكرونة والنبيذ الأحمر ، عندما أعود للوطن» .

توجهت نحو القرية . لكنها تنبهت إلى أنها ، وأثناء بحثها عن مكان لخلوتها ، قد ذهبت لأبعد مما كانت تنوي ، كما وجدت أجمة من الشجيرات الشوكية تسد طريق عودتها . تراجعت لتدور حول أجمة الشوك ، ورأت أمامها ممرًا عريضًا متجهًا خلال الغابة ومباشرة نحو طرف البركة. وتبعت ذلك الممر بارتياح .

لم تكن تعرف أنها تمشي على طريق مهدته أقدام أفراس النهر لمدة طويلة، وهي في طريقها من المستنقعات إلى الغابة وبالعكس . لم يكن الطريق قد استخدم لعدة شهور ، فقد تم استئصال فرس النهر من المنطقة ، مثله مثل بقية الحيوانات البرية الأخرى . ولما كانت متعجلة للوصول إلى والدها ، وغير مرتاحة لانعزالها عن بقية المجموعة ، فقد هرولت على الممر ، تكاد تجري .

وجدت أمامها على الممر حصيرة عتيقة من البردي المضفور مفروشة على أرض الممر من جانب للآخر . وبدا واضحًا أنها قد وضعت هنا بواسطة القرويين الذين كانوا بالمنطقة . وبالرغم من أن كلوديا لم تعرف الغرض من وضعها بهذه الطريقة ، خاصة لأنها لم تكن تمثل عقبة أمامها ، فقد داست عليها بدون أن تبطئ من سرعتها .

كان الشرك قد تم حفره بغرض صيد فرس النهر . وكان عمق الخندق المغطى بالحصيرة عشرة أقدام بينما اتسعت أجنابه للخارج بشكل القمع بحيث لا يستطيع فرس النهر الذي يسقط فيه من الخروج ويبقى محصورًا بين الحوائط الترابية . كانت فتحة الشرك (الخندق) مغطاة بدعائم من فروع الأشجار تسمح لرجل أو لحيوان أخف وزنًا من المرور عليه لكن ليس بوزن فرس النهار . وعلى هذه الأفرع طرح القرويون تلك الحصيرة .

وبمرور الزمن تهرأت الدعامات والحصيرة وضعفت . لذا إنهارت تحت أقدام كلوديا ، وصرخت برعب أثناء سقوطها بداخل الشرك . واستغاثت ثانية عندما ارتطمت بالسطح المائل ووقعت في الحفرة . كان قاع الحفرة مغطى ببضع بوصات من المياه الآسنة التي تسربت بداخله، وسقطت كلوديا مرتبكة وقد

التوت ساقها من تحتها ، ثم تدحرجت على ظهرها وسط الماء المتعفن.

كادت أنفاسها أن تتقطع وشعرت بألم ممض في ركبتها اليسرى ولعدة دقائق لم تتمكن من إجابة النداءات الخافتة التي تجيئها من أعلى الخندق . ثم وقفت كلوديا وهي تمسك بركبتها المصابة ورفعتها إلى صدرها وبدأت تلهث بشراسة لتملأ رئتيها المكروبتين بالهواء . وأخيرًا تمكنت من أن تصرخ صرخة مختنقة : «أنا هنا ! أنا هنا ! » .

برز رأس سين من فوقها وقال وهو يحدق لأسفل الخندق بقلق :

« أأنت بخير ؟ » .

شهقت وهي تجيبه : «أعتقد ذلك» . حاولت أن تقف على قدميها لكن الألم سرى كالتيار الكهربائي خلال ركبتها وسقطت ثابتة ، وأنت بكرب : « ركبتي » .

«أصمدي . أنا قادم إليك حالاً » . قال لها سين وهو يتراجع ثم سمعت أصواتًا من حولها لجوب ومتاتو وأبيها ، ثم رمى عليها لفة من حبل النايلون انفردت حين وصلت إليها ، ثم تولى سين بخفة وحذر إلى الحفرة وهو ممسك بالحبل وقفز قاطعًا بقية المسافة ، ومطيرًا للماء الآسن عليه وعليها .

وقالت بندم وحزن :

« إنني آسفة يا سين . لقد فعلتها مرة أخرى » .

فابتسم لها مشجعًا وقال :

« لا تعتذري ، فأنا غير مكيف على ذلك . لكن ، ولأول مرة ، فأنه ليس خطئك . دعيني ألقي نظرة على ساقك » .

تربع بجانبها وقال :

« حركي قدمك . عظيم ! هل تستطيعين أن تثني ركبتك ؟ ممتاز ! على الأقل لا توجد عظام مكسورة ، وهذا طيب . لنخرجك الآن من هذه الحفرة » .

عقد أنشوطة بطرف الحبل ولفه من فوق رأسها وكتفيها وأدخله بين إبطيها ثم نادى :

« أوكي جوب . أرفعها للأعلى . على مهلك يا رجل على مهلك » .

وعندما استقروا على الأرض خارج الحفرة شرع سين في فحص أكثر دقة لركبتها ثم كفكف رجل بنطلونها وقال : «اللعنة !» .

كان لديه - كقائد لفرقة كشافة عسكرية - خبرة واسعة بأنواع الإصابات التي يتعرض لها رجال المظلات ، من عظام مكسورة ، وغضروف ممزق ، وأربطة الكواحل والركب الملتوية . وكانت ركبة كلوديا قد تورمت وانتفخت

وبدأت أول بوادر الخدوش التي أصابتها تلون جلدها الناعم المسمر. وقال لها محذرًا :

«قد يؤلمك هذا قليلاً ». وبدأ يدلك على ساقها برفق .

«أوخ ! » قالت له ، «هذا مؤلم حقًا » .

فأومأ برأسه :

« أوكي . إنه الرباط الوسطي ولا أعتقد أنه تمزق وإلا لكنت تعانين من ألم شديد ، وربما التوى فقط » .

سألته : «لكن ماذا يعني هذا ؟ » .

أجابها : «ثلاثة أيام ، لن تستطيعي أن تمشي خلالها » .

ثم وضع ذراعه حول كتفها وسألها : «هل تستطيعين الوقوف ؟ » . وعندما أومأت برأسها بالإيجاب ، ساعدها على الوقوف على قدميها . استندت عليه وهي واقفة على ساقها السليمة . وقال لها : «حاولي أن تضعي بعض ثقلك عليها» . وفي الحال صاحت بألم :

« لا . لا أستطيع استخدام رجلي » .

توقف وتناولها بين ذراعين وكأنها طفلة صغيرة وحملها متوجهًا بها نحو القرية . دهشت لقوته وأيضًا ، ورغم أن ركبتها قد بدأت ترتجف ، لإحساسها بالراحة بين ذراعيه . كان شعورًا طيبًا. لقد حملها بابا أيضًا بهذه الصورة عندما كانت فتاة صغيرة . وحاولت أن تقاوم رغبتها في أن تسند رأسها على كتف سين.

وعندما وصلوا للقرية وضعها برفق على الأرض ، وهرع متتو لإحضار حقيبة سين . كانت إصابتها قد حولت انتباه ريكاردو عن متاعبه الشخصية وجاء لابنته باهتمام وحنو وجلبة كانت ستصيبها بالضيق في غير هذه الظروف . لكنها الآن استسلمت له وشعرت بالراحة لعودة والدها إلى حيويته واهتمامه بها.

ربط سين ركبتها برباط مرن أحضره من حقيبة الإسعاف الأولى وأعطاها حبة مضادة للالتهابات ابتلعتها مع كوب من الشاي . وقال لها بعد أن جلس بجانبها : «هذا هو كل ما يمكن عمله لك الآن . والشيء الوحيد الذي سيشفيك هو الزمن » .

- لماذا حددت الزمن بثلاثة أيام ؟

- لأن شفاءك يستغرق هذه المدة . لقد شاهدت المئات من الركب المصابة مثل ركبتك ما عدا أنها كانت أكثر خشونة وشعرًا ، ولم تكن أنيقة كركبتك» رفعت حاجبها وقالت :

«هذا ثناء جميل . يبدو أنك بدأت تلين ... يا كولونيل » .

فرد عليها ضاحكاً :

« إن هذا جزء من العلاج ، ولكن بالقطع غير صادق . السؤال الوحيد الآن هو يا عزيزتي ، ماذا سنفعل بخصوص وضعك الراهن ؟ » .

فأجابته في الحال :

« أتركوني هنا » . سألها باستغراب ، وسانده ريكاردو في الحال :

« هل فقدت عقلك ؟ لا مجال لمجرد التفكير في ذلك » .

أبدت له مبررات قرارها بهدوء :

« سأشرح لك الأمر بطريقة أخرى . فلن أتمكن من الحركة لثلاثة أيام وحينئذ سيكون الفيل قد اختفى تماماً . بابا ... » . رفعت يدها معترضة أبيها : «لا يمكننا الرجوع ولا يمكنكم أن تحملوني معكم وعلينا بالتالي أن نبقى هنا بدون طائل » .

- لا تكوني ساذجة . لن نتركك هنا وحدك .

- أبداً . يمكنكم ترك أحدهم ليرعى شئوني بينما تذهبون أنتم وراء توكونيلا .

هز ريكاردو رأسه : لا . لا .

فالتفتت نحو سين وناشدته :

« سين . أرجوك . دعه يعرف أن هذا القرار المعقول هو الأنسب في مثل هذه الظروف » .

نظر نحوها . وأعطاها التقدير الذي رأته في عينيه شعوراً دافئاً ملأ فؤادها . وقال سين بلين:

«اللعنة على هذه الظروف . إنك مصيبة تماماً » .

- إذن أخبره ياسين ، بأنها ستكون بضعة أيام فقط . إننا جميعاً نعلم كم يعني هذا الفيل لبابا . إنني أريد أن أعطيه هذا الفيل كعطيتي الـ .... » .

كادت أن تقول «كعطيتي الأخيرة » ثم استدركت : «كعطيتي الخاصة جداً له » .

وجاء صوت ريكاردو أجشاً غير واضح ومبهماً :

« لا يمكنني أن أوافق يا تيسورد » . وأحنى رأسه حتى يخفي مشاعره . أمسكت كلوديا بذراع سين بقوة وألحت عليه :

« أرجوك أقنعه بالذهاب . أخبره بأنني سأكون آمنة هنا تماماً مع جوب

ليرعى شئون أكثر مما سأكون عليه معكما في المستقعات » .

- إنها نقطة وجيهة يا كابو ... ولكن ... يا للجحيم ، إن هذا ليس من شئوني وإنما هو أمر بينكما أنتما الاثنان .

تدخلت كلوديا قائلة :

« أتسمح بأن تتركنا وحدنا يا سين ؟ » ثم ، وبدون أن تنتظر منه إجابة التفتت نحو أبيها وقالت:

« تعال واجلس بجواري هنا يا بابا » وأخذت تمهد الأرض بيدها . وقف سين ومضى بعيدًا عنهما وتركهما وقد بدأ الظلام في الهبوط .

جلس بجانب جوب . كانا صامتين بطريقتهما الرفاقية القديمة ، يحتسيان الشاي ويدخنان آخر سجارة (شيروت) تبقت لسين ، يتناوبانها بينهما جيئة وذهابًا.

مضت قرابة الساعة وعم الظلام تمامًا عندما جاءهما ريكاردو حيث جلسا. كان واقفًا وقال بصوت أجش يفيض بالشجن :

« حسنًا يا سين . لقد اقنعتني لأتركها تفعل ما تريد . أرجو أن تشرع في إجراءات الطراد لنبدأ صباح الغد الباكر . وأنت يا جوب : هل تبقى هنا لتعني من أجلي بطفلتي الصغيرة ؟ » .

فأجابه جوب :

« سأرعاها وأعنى بها من أجلك يا سيدي . ما عليك إلا أن تذهب لتقتل ذلك الفيل . وسنكون هنا في انتظارك عندما تعود » .

❖ ❖ ❖

على ضوء القمر ذهبوا لتشييد معسكر مؤقت ، يبعد بضع مئات من الأمتار عن القرية ، بداخل الغابة . وشيدوا لكلوديا كوخًا فرشوا أرضيته بحشيشة من الحشائش والأعشاب اللينة . ترك سين لها صندوق الإسعافات الأولية ومعظم المؤن التي تبقت لهم وعين كلا من جوب وديدان للبقاء معها . ترك مع جوب البندقية الخفيفة (٦/٣٠) المصنوع مقبضها من الزجاج المغزول. أما ديدان فاكتفى بفأسه وسكينه التي يسلخ بها الفرائس ثم أصدر تعليماته لجوب :

« أرسل ديدان ليراقب مدخل البرزخ إذ أن أي طوف للفريليمو أو رينامو لابد أن يمر بتلك النقطة . عند أي بوادر للخطر خذ كلوديا إلى المستقع وأخفها بإحدى الجزر هناك » .

فرغ سين من تعليماته ثم توجه إلى حيث كان ريكاردو يودع ابنته وسأله : «أجاهز أنت يا كابو؟» .

نهض ريكاردو بسرعة وابتعد عن كلوديا بدون أن ينظر للوراء . ثم قال سين لها :

«أرجو ألا تقعي في مشكلة أخرى» .

نظرت إليه وقالت :

« وأنت أيضًا » . ثم ... « سين : أرجوك أن تهتم ببابا من أجلي» . تربع سين على الأرض بجوارها ومن يده لها كما يفعل مع الرجال وحاول أن يفكر في شيء طريف يقوله لها ، لكنه لم يجد شيئًا بل قال بدلا عن ذلك :

- إذن أوكي . إلى اللقاء .

- أوكي - إلى اللقاء .

ثم توقف ومضى نحو حافة المستنقعات حيث كان متاتو ويمبولا وريكاردو في انتظاره بجوار طوف جذع الشجرة المجوف .

أخذ متاتو مكانه في مقدمة الطوف بينما بقي سيد وريكاردو في وسطه ، جالسين على حزم متعلقاتهما وممسكين بالبنادق على حجورهم . أما بميولا فكان واقفا بمؤخرة الطوف ممسكا بالعود الطويل ، مستخدمًا له كمجداف. وأخذ يدفع الطوف حسبما يوجهه متاتو بإشارة من يدهز

بعد ثوان من ابتعادهم عن الضفة وجدوا أنفسهم محاطين بأسيجة عالية من البردي ، واقتصرت رؤياهم على جدران البوص ، وعلى السماء من فوقهم ، والتي بدأت بوادر الفجر الليموني المصفر تطل عليهم . وكلما تقدموا للأمام كانت الأطراف الحادة للبوص تندفع نحو وجوههم وتهدد عيونهم مثلما عملت بيوت العنكبوت وخيوطها ، التي تملأ أفرع البوص ، على الإلتصاق بوجوههم بلزوجتها وملمسها الكئيب . كان البرد شديدًا قارسًا بالمستنقع . وعندما خرجوا فجأة إلى بحيرة فسيحة ، كان سطحها مغطى بضباب كثيف بينما طارت من حولهم أسراب منزعجة من البط البري ، مطلقة أصواتًا اختلطت مع خفقات أجنحتها ، ممزقة لهدوء البحيرة في الفجر .

كان الطوف محملاً فوق طاقته بالرجال الأربعة الذين على سطحه . ولم يكن هناك مسافة خالية إلا بضع بوصات تفصل بينهم فإذا ما تحرك أيًا منهم فجأة تسلل الماء في الحال إليه ، مما يجبرهم على نزحه مستخدمين غلاية الشاي في ذلك ، وبصفة شبه مستمرة ، ورغم ذلك كان متاتو يقودهم بدون هوادة للأمام .

أشرقت الشمس فوق نباتات البردي وسرعان ما تحول الضباب إلى خيوط سحابية صاعدة نحو السماء ثم اختفت بعد ذلك وصفا الجو . تفتحت أذهار زنابق الماء واتجهت نحو الشمس بأفرعها الطويلة وشاهدوا ، لأكثر من مرة ، تماسيح

ضخمة راقدة لا يبرز على سطح الماء منها سوى محاجر عيونها وسرعان ما كانت تختفي عند مرور الطوف باتجاهها ... كانت المستنقعات من حولهم تعج بأنواع الطيور ، مثل مالك الحزين والبشون الجاثم على أجمات البوص ، وبطائر اليقنة طويل الساقين ، بألوانه الشيكولاتية ، يرقص فوق زنابق الماء محلقا فوقها ، بينما كانت طيور أخرى عملاقة تطارد الأسماك في المياه الخلفية الضحلة . وفوق رؤوسهم حلقت تشكيلات جميلة من طيور البجع ، والبلشون الأبيض ، والفاقه بجرابه الذي يخزن فيه الأسماك الصغيرة ، والزق بأعناقها الطويلة الثعبانية ، وأسراب ضخمة من البط البري من عديد الأشكال والأنواع .

بدأت الحرارة ترتفع بسرعة وانعكست من على سطح الماء على وجوههم ، وسرعان ما كان العرق يغطي ملابس الرجلين الأبيضين . كان الماء في بعض الأماكن ضحلاً لا يتجاوز عمقه بضع بوصات مما كان يجبرهم على مغادرة الكنو ودفعه بأيديهم للأمام حتى البحيرة أو القناة التالية ، وكانت الأعشاب والبوص تفرش القاع الضحل كالحصائر ومن تحتها كان الطين المسود اللون المتعفن الرائحة يصل إلى ركبهم .

في المناطق الضحلة تلك ، كانت أخفاف الفيل تترك وراءها حفرًا عميقة دائرية ممتلئة بالماء الآسن . وكان درب الفيل واضحًا ويقودهم باستمرار إلى أعماق المستنقع . وقد سرى عنهم أنهم ما أن يتجاوزون المناطق الضحلة ويتوغلون في مياه المستنقع إلا ويقطعون المسافات بسرعة أكبر ، دافعين طوفهم بالعمود الطويل . كان سين يساعد بميولا في دفع الطوف ، لكن بميولا لم يطق ضربات مجداف سين الخرقاء وسرعان ما كان يحل محله .

ولما لم يكن هناك وكان إلا لشخص واحد ليمدد رجليه في قاع الطوف ، فقد استغله ريكاردو للنوم فيه تلك الليلة ، بينما جلس الباقون على حافة الطوف ، وسيقانهم غارقة في الوحل ، وأخذوا حظا من الراحة كلما أمهلتهم سحائب البعوض من حولهم .

وفي صباح اليوم التالي الباكر، وعندما أخرج سين ساقيه من الوحل ، وجد أن سيقانه العارية كانت تعج بالعلق الأسود ، وكانت تلك الديدان الكريهة قد ألصقت جسمها بجلده وقد انتفخت من الدم الذي امتصته منه . اضطر سين لاستخدام شيء مما تبقى لهم من الملح الثمين ليخلص نفسه منها إذ أن أي محاولة لنزعها باليد ستترك جرحًا ينزف باستمرار ، من جراء المواد المضادة لتجلط الدم التي حقنتها تلك الديدان ، وقد يلتهب الجرح من جراء ذلك . أما عند مسها ببعض الملح فإنها سرعان ما تنكمش وتتلوى بألم ثم تسقط تاركة جرحًا عاديًا غير نازف على لجلد .

وعندما فك سين سرواله وجد أن بعض الديدان قد زحفت نحو أسفل بطنه وتحت فخذيه وصلبه وأعضائه الذكورية وتعلقت عليها وكأنها حبات طويلة من العنب الأسود . ارتعد من الخوف وهو يبذل كل جهده للتخلص منها بينما كان ريكاردو ، في مرقده الآمن بقاع الطوف ، يراقبه باهتمام مثير وداعبه قائلاً : «هاي سين . ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي لا تقبل فيها مداعبة من هذا القبيل وفي مثل تلك المناطق ! » .

❖ ❖ ❖

غرز سين طرف العمود الطويل في الوحل وثبته بقوة بينما قام متاتو بتسلقه كالقرد وأخذ يحدق فيما حوله . وعندما تدلى من العمود قال لسين :

« لقد رأيت الجزر ونحن قريبون جدًا وسنكون هناك قبل الظهر . وإذا لم يشعر توكوتيلا بنا فإنه سيكون هناك في إحداها » .

كان سين يعلم ، من جراء طيرانه في هذه المناطق ، ومن دراسته للخريطة الكبيرة المقياس التي يحتفظ بها ، أن هذه الجزر تشكل سلسلة ما بين المستنقعات وبين القناة الرئيسية المؤدية للزامبيزي . ثم قاموا بسحب الطوف ودفعه خلال المياه الضحلة : سين يجره بواسطة حبل النايلون المربوط على مقدمته ، بينما يقوم بميولا ومتاتو بدفعه من الدفة . وعندما عرض ريكاردو المساعدة قال له سين :

« اركب مجانًا يا كابو فإنني أريد منك أن ترتاح تمامًا حتى لا يكون لك عذر إذا ما أخطأت في إصابة توكوتيلا» . ومن على البعد شاهد سين أخيرًا أوراق وجريد النخل الذي أطل عاليًا فوق البردي . ثم زاد عمق الماء فجأة ووصل إلى ذقنه فصعدوا جميعًا على الطوف . جدف بميولا بهم حتى وصلوا للجزيرة الأولى . كانت النباتات فيها غزيرة حتى أنها غطت الماء على أطرافها وكان عليهم أن يدفعوا بالطوف مرة أخرى حتى يصلوا للشاطئ .

وكانت الأرض رمادية رملية غسلتها ملايين الفياضانات . ولكنهم أحسوا بارتياح كبير عندما وضعوا أقدامهم على اليابسة مرة أخرى . وقام سين بنشر ملابسهم المبللة وكذلك معداتهم كي تجف ، بينما تسلل متاتو ليدور حول الجزيرة ، وعندما عاد إليهم كان الماء قد بدأ يغلي في القدر وقال لهم :

« نعم . لقد مر من هنا باكرًا بالأمس ، عندما كنا نغادر القرية . لكنه استقر الآن بعد أن طوقه هدوء النهر ، وتغذي بارتياح وهدوء وغادر الجزيرة عند شروق شمس صباح اليوم » .

سأله سين :

« وإلى أين اتجه ؟ » فأشار متاتو :

- هناك إلى الجزيرة الأخرى المجاورة .
- فلنلق إذن نظرة عليها .

صب سين كوبًا من الشاي لريكاردو وتركه مع بميولا ، بينما قام هو ومتاتو . بالطواف في الجزء الشمالي للجزيرة شاقين طريقهم خلال النموات المتشابكة حتى وصلوا إلى شجرة طويلة بطرف الجزيرة ولتسلقاها حتى وصلا لفروعها العلوية .

تربع سين على فروع متشعبة بأعلى الشجرة وأزال بهدوء بعض الأغصان المورقة التي كانت تعوق رؤيته وحدق أمامه نحو آفاق لا حدود لعزلتها ووحشتها .

كان متربعًا على علو ستين قدمًا فوق الجزيرة وكان يرى ما أمامه ، حتى الأفق المغطى بالضباب. كان نهر الزامبيزي يمر أمام الجزيرة . وكانت مياهه شفافة خضراء كالزجاج ، وكان النهر الزامبيزي يمر أمام الجزيرة ، وكانت مياهه شفافة خضراء كالزجاج ، وكان النهر عريضًا حتى أن بعد المسافة من الشاطئ الآخر جعل الأشجار العملاقة عليه تبدو وكأنها شريك داكن بفصل ما بين المياه الخضراء والسحب الركامية التي بدت كرؤوس السندان وارتفعت حتى غابت واختفت في السماء الإفريقية الزرقاء .

كان النهر يجري مسرعًا وقد تغطى سطحه بالدوامات والتيارات المتعاكسة المضطربة ، وقد طفت على سطحه أفواج من الأعشاب التي انتزعها التيار من المياه والمستنقعات التي مر بها وسار بها وسط مجراه ، فبدت وكأنها جزر أخرى مترحلة . فكر سين في عبور هذا النهر الرهيب باستخدام الطوف رغم ضعفه ، وأنه لابد من القيام بأكثر من رحلة حتى يتم عبورهم جميعا ن لكنه طرح هذه الفكرة جانبًا إذ بدا واضحًا أن ليس أمامهم سوى طريق واحد وهو الرجوع من حيث أتوا .

صرف كل انتباهه نحو سلسلة الجزر التي برزت كالخفير الحارس بين النهر الأم وبين مستنقعاته الواسعة . كانت أقرب جزيرة تبعد عنهم بحوالي ثلاثمائة متر ، وكانت القناة التي تفصلهم عنها مختنقة بأحراش البوص وزنابق الماء وأعشاب الياسنت ، وكانت أزهار زنابق الماء تبدو كبقع زرقاء تبرق من وسط المياه المخضرة ، وكان بإمكانه ، حتى وهو على مكانه بأعلى الشجرة، أن يلتقط زخاتًا من رائحتها العطرية الخفيفة .

رفع سين منظاره المقرب ومسح به القناة وحتى أقرب شاطئ للجزيرة وأخذ يتفرس جيدًا وبدقة ، حيث إن الفيل ، ومهما كان ضخمًا ، يمكنه أن يختفي بين هذه المستنقعات والفيافي الشاسعة.

وفجأة اهتزت أعصابه حين رأى حركة متثاقلة في البوص وشاهد لمعة الجلد

المبلل يبرق تحت وهج الشمس . لكن انفعاله سرعان ما تلاشى ليعقبه خيبة الأمل المريرة عندما تعرف على الرأس الضخم القبيح لفرس نهر يطفو فوق المستنقع في سبيله للخروج .

رأى من خلال عدسات منظاره عيونه الخنزيرية الملتهبة بالحمرة ، ورأى الشعيرات التي على أذنيه الصغيرتين . رفرف فرس النهر بأذنيه ونفضهما كطائر يرفرف بجناحيه ، ونفض الماء الذي كان يبرق عليهما كقطع من الماس، ومحيطًا لرأسه بهالة وبريق . مشى متهاديًا ببطء على الوحل، من بحيرة لأخرى ، لا يتوقف إلا ليطلق دفقة مدوية من البراز السائل والذي كان يبعثره من حوله بتحريك ذيله المشعر بقوة ذات اليمين والشمال حتى أن أجمات البوص من حوله كانت تتقلطح وترقد من قوة الدفق .

وبارتياح شاهد سين فرس النهر وقد مضى قدمًا ثم غطس تحت ماء البحيرة البعيدة إذ لا شك في أن جسم الطوف المتهرئي ما كان سيوفر لهم أي حماية من تلك الأنياب الغليظة المقوسة وتلك الفكوك الضخمة لذلك الحيوان .

وأخيرًا توجه سين ببصره إلى متاتو الذي كان قابعًا بجواره فوق الشجرة لكن الأندوروبو الضئيل هز رأسه وقال :

« لقد مضى قدمًا وعلينا أن نمضي أيضًا » .

هبطا على الأرض وتوجها إلى حيث كانا قد تركا ريكاردو . كان ظاهر الحيوية والنشاط بعد تلك الرحلة على الموكورو ونوم الليل بطوله . وقف على قدميه نافذ الصبر متطلعًا للطراد ، مثلما كان في الماضي ، وسأل : «أي شيء؟».

هز سين رأسه وقال :

« إن متاتو يقول بأننا قريبون منه . أرى أن نلوذ بالصمت التام من الآن فصاعدًا » .

وعندما ركبوا على الطوف كان سين قد ابتلع كوبًا من الشاي وغطى النار بالرمل . جدفوا مستخدمين العود الطويل ودفعوا الطوف حتى الجزيرة التالية مرة أخرى تسلق سين شجرة أخرى طويلة ، أما متاتو فتسلل خلال النموات الخضرية الكثيفة ليتابع التقاط أثر الفيل . وعاد بعد ربع ساعة فنزل سين من الشجرة ليلاقيه :

همس متاتو :

« لقد تحرك قدمًا . لكن الرياح لا تعجبني » . بدا متاتو كئيبًا ومديدة وتناول خرجا من مئزره به رماد ونثره في الهواء لإثبات نظريته وقال لسين : « أنظر كيف يدور الرماد ويتحرك كمؤخرة عاهرة شنقانية ! » .

وافق سين على رأيه ، وقبل أن يعبروا للجزيرة التالية خلع سين قميصه العاري من الأكمام . وبعد أن تعرى من خصره فما فوق شعر في الحال بتقلب النسيم وأحس به خلال جلد صدره الحساس .

وعلى الجزيرة التالية وجدوا المكان الذي خرج منه توكوتيلا من الماء صوب الشاطئ . وكان الطين والوحل الذي لطخ به الأحراش ، عندما مر بها ، لا زال رطبًا . ارتجف متاتو من فرط الإثارة وكأنه كلب صيد شم أول رائحة للطير الذي يطارده .

غادروا الطوف وزحفوا للأمام ، من خلال الأحراش الكثيفة ، وسعدوا بالنسيم الذي اصطفقت بسببه أوراق النخيل من فوقهم وغطت على صوت وقع أقدامهم على الأوراق الميتة والأغصان الجافة . عثروا على المكان الذي هز فيه الفيل ثمر الدوم من أشجاره ثم ابتلعه بدون أن يمضغهما بما تبقى له من آخر ضروسه المتهالكة . لكن الفيل كان قد مضى قدمًا .

وتساءل سين بهمس : « هل جرى ؟ » . كان خائفًا من أن يكون الفيل قد أحس بقدومهم . لكن متاتو طمأنة بهزة سريعة من رأسه وأشار إلى الأغصان الخضراء التي جردها الفيل من لحائها وبعثرها على طول الطريق . لم تكن تلك الأغصان قد جفت تمامًا . لكن أثر الفيل قادهم عبر طريق ملتوي عبر الجزيرة ثم اختفى مرة أخرى في مجرى الماء على الجانب الآخر . أرسلوا بميولا لإحضار الطوف إلى حيث ينتظرون ، وعندما رجع به أركبوا ريكاردو عليه ودفعوه عبر المجرى غاطسين حتى خصورهم في الماء بجوار ، ومتحركين بخفة وصمت حتى وصلوا إلى الجزيرة التالية.

وهنا وجدوا كومة أخرى من البراز ، إسفنجية القوام ، ورطبة ومليئة بالبوص والياسنت الذي أكله الفيل ، وبجوارها كان أثر بوله المتناثر وكأنه رشاشة حديقة يلعب بها طفل . كان لبول لا زال لينًا واغترف سين بيده التراب المبلل به وضغطه بشكل كرة وكأنه طفل يلعب بكرات الطين . أما كومة البراز الرطبة فقد اكتست بقشرة جافة ولكن ، وعندما ضغط عليها متاتو بقدمه ، وجدها لنية كالعصيدة فتهلل وجهه فرحًا عندما شعر بحرارتها التي لا زالت محتفظة بها . وهمس بانفعال :

« إنه قريب . قريب جدًا » .

علينا أن نتركه يعبر المجرى للجزيرة التالية قبل أن نقترب منه » .

رجع مع ريكاردو للوراء مسرعين ثم توقف تحت الفروع المنتشرة لشجرة جميز ضخمة وطويلة وقال :

« فلنلق نظرة» . ركزوا بنادقهم على جزع الشجرة ، وساعد سين ريكاردو

ليتسلق أول فرع للشجرة ، ثم تبعه واستمرا يصعدان من فرع لفرع .

وبجوار القمة وجدا مكانًا مريحًا يمكن الجلوس عليه وأقعده سين عليه بضغطة على كتفه ، وأخذا يحدقان باتجاه أحراش البردي .

رأوه في الحال . فقد برز ظهر توكوتيلا من بين الحشائش ، وكان مبللاً وأسودًا كالفحم من جراء الماء الذي صبه على نفسه بخرطومه . كانت فقرات ظهره مقوسة وبارزة من خلال جلده الخشن المجعد ، وكان متوجها للجهة البعيدة عنهم ، وآذانه الكبيره المفرودة تتروح وترفرف بتكاسل وطمأنينة ، بأطرافها الممزقة الرثة ، وقد برزت الأوردة الغليظة الملتوية والمعقدة وكأنها وكر للثعابين من أسفل الجلد الرقيق الناعم الذي كانت تغطيه الآذان .

قفزت أربعة من طيور البلشون الأبيض على ظهره وانتشرت على سلسلته الفقرية ، بلونها الأبيض البراق ومناقيرها الصفراء ، منحنية عليه ولكن بيقظة وانتباه . حرس براق الأيمن هذا سيقوم بلا شك بتحذير الثور العجوز عند أول بارقة للخطر .

لم يكن في إمكانهم الوصول إليه ، وهو في الماء على بعد ثلاثمائة ياردة منهم ، بعيدًا تمامًا عن المرمى الفعال للسلاح ، لذا ظلوا يراقبونه من أعلى الشجرة وهو يخطو بخطاه الملوكية البطيئة عبر المجرى المائي متجهًا للجزيرة التالية .

وعندما وصل توكوتيلا للمكان العميق في المجرى غطس تمامًا رافعًا خرطومه فقط من فوق سطح الماء ، وهو يحركه ثم يلويه في الهواء وكأنه رأس ثعبان مائي ضخم ، ثم خرج إلى الشاطئ الآخر ، والماء يسيل على جوانبه الضخمة السوداء .

وهما متربعان على قمة الجميزة ، كان سين وريكاردو يستمتعان بهذه الصورة التي لم تتكرر أبدًا في حياتهما كصيادين . يستحيل أن يوجد فيل مثل هذا مرة أخرى ، ولن يحدق آخر قط بنظراته على فيل كهذا . هو فيلهم . وبدا وكأنهم قد قضوا كل حياتهم في انتظار هذه اللحظة التي خسفت شهوة الصياد وأحاسيسه وعواطفه أي شيء آخر في حياتهم وجعلته بلا طعم ولا قوة . كان أمامهما هنا شيء بدائي قفز من أعماق الروح وأصابهما بحالة من النشوة الصوفية فكأنهما عشاق فن يستمعون لأعظم الموسيقى .

رفع الثور العجوز رأسه والتفت لبرهة من حوله ، وأتاح لهما الفرصة ليشاهدوا العاج ذو اللون الداكن . وسرت فيهما ، بدون وعي ، رعدة قوية أثارها مرأى تلك الأعمدة الطويلة المنحنية بإتقان عظيم ، وكأنها لوحة رسمها الفنان ما يكلنجلوا ، أو كأنها جسد لامرأة فاتنة . في تلك اللحظة لم يعد

هناك شي آخر في عالمهما . كانا منسجمين تمامًا وقد ربطت بينهما رابطة الصحبة ولحمتها بلحام الهدف المشترك . وهمس ريكاردو :

« إنه فائق الجمال ! » .

لم يرد عليه سين ، إذ لم يكن لديه ما يضيفه .

نظرا للثور العجوز وهو يدخل الجزيرة وينفض الماء من على جسمه ثم يصعد على الضفة ويتوقف لبرهة ، طويلاً ، نحيلاً ، مبللاً ، يبرق جسمه تحت وهج الشمس ، قبل أن يشق طريقه خلال الشجيرات والتي سرعان ما ابتلعت جسمه الكبير .

فرت طيور البلشون وحلقت في الجو وكأنها مزق من الورق الأبيض الناصع في قلب دوامة هواء . وربت سين على كتف ريكاردو ، والذي اهتز جسمه وكأنما استيقظ من حلم طويل . وهمس سين في أذنه بعد أن أرسل بميولا لإحضار الموكورو : « سنعبر على ظهر الكنو» .

جلسوا داخل الموكورو وقد أحنوا رؤوسهم حتى لا تظهر من خلال الأعشاب والبوص والبردي ودفعوا القارب قدمًا بهم عن طريق جذب سيقان البردي وعبروا عنق المستنقع الضيق وانزلقوا في سكون تام خلال تجمعات البردي والبوص . وكانت الرياح ، لحسن حظهم ، ثابتة مستقرة وأحس سين بمس النسيم على كتفه العاري .

وصلوا للشاطئ . وساعد سين ريكاردو في الخروج من القارب ، الذي جذبوه إلى جانب الضفة ، محترسين من إحداث أي صوت . وهمس سين : « راجع سلاحك» . وأدار ريكاردو رتاج البندقية الرجبي وشده للوراء للحد الذي يرى فيه فقط الرصاصات النحاسية اللامعة بداخل الخزانة . أومأ سين برأسه برضي وأعاد ريكاردو الرتاج لمكانه بهدوء ومضوا قدمًا .

كان لابد لهم التحرك في طابور متتبعين الممر الذي فتحه الفيل وسط النباتات الملتفة الكثيفة . وقادهم متاتو ليسيروا بضع خطوات ثم يتوقفوا التسمع أي صوت .

وفجأة سمعوا صوتًا عاليًا يقرقع في الغابة وأصوات تحطم الأشجار ، ورأوا فروع الأشجار تتمايل وتهتز أمامهم . رفع ريكاردو الرجبي ، لكن سين أوقفه بعد أن أمسك بذراعه وحول اتجاه الماسورة نحو الأرض .

وقفوا متحجرين يحدقون أمامهم وقلوبهم تخفق كالطبول ، وانصتوا لصوت الفيل أثناء تغذيته . فعلى بعد لا يتجاوز الثلاثين خطوة منهم كان الفيل العجوز يمزق الأغصان والفروع وهو يحرك أذنيه للوراء وللأمام في تناغم وتمهل ويغمغم بارتياح شديد ، لكنهم لم يرو أي لمحة من جسمه الرمادي .

كان سين لا يزال ممسكًا بذراع ريكاردو ، لكنه الآن دفعه قدمًا للأمام. وخطوة فخطوة تسللوا من خلال الأوراق المعترشة والأغصان المتشابكة الغزيرة الخضرة والأفرع المتدلية . عشرة خطوات ثم توقف سين وأرخى قبضة يده عن ذراع ريكاردو ودفعه ليتقدمه ومشيرًا بيده لمكان الفيل .

لعدة ثواني لم يتمكن ريكاردو من التعرف على أي تفاصيل لما أمامه سوى النموات المتشابكة الملتفة والظلال المتداخلة . ثم حرك الفيل أذنيه مرة أخرى ورأى ريكاردو ، من خلال فتحة بين النباتات ، إحدى عينيه . كانت عينًا صغيرة تغشاها الدموع ، وقد ألقى عليها عبء السنين ظلالاً زرقاء معتمة . وكانت الدموع تتحدر على وجنته المجعدة من تحتها ، يبدو على وجهه قدر عظيم من الحكمة ، وحزن عميق لا نهاية له .

هذا الحزن كان معديًا . لقد غمر ريكاردو بموجة سوداء ، هبطت ثقيلة على روحه ، وأحالت مشاعره فجأة من الحماس المتقد لصياد على وشك الانقضاض على الفريسة ، إلى شعور بأسى مدمر وبنواح كالثكلى على هذه الحياة التي توشك على الفناء . ولم يرفع لبندقيته .

طرف الفيل بعينه وكانت الرموش التي تحيط بها طويلة كثيفة . نظرت تلك العين عميقًا إلى عين ريكاردو ، وبدا أنها تخترق أعماق فؤاده ، تنوح على حياته مثلما ينوح هو على الفيل العجوز . لم يدرك ريكاردو أن ذلك الجرثوم الخبيث في خلايا مخه قد تحرك مرة أخرى ، وعاد ليلوي الأشياء لغير حقيقتها وليعيد تشكيل الحقائق أمام ناظريه . أدرك فقط أن هذا الحزن العميق الذي غمره قد خرج عن سيطرته وأصبح كالهدوء الحالك للموت .

بدأ سين يربت على كتفه بهدوء ، مواريًا تلك الحركة عن الفيل . كان يأمره بالإسراع في إطلاق النار ، لكن بدا وكأن ريكاردو قد فارق جسمه وحلق من فوق نفسه . أخذ ينظر إلى نفسه ويرمق كلاً من الرجل والحيوان ، والموت فيهم ، والموت يحيط بهم . وغمرته وكبلته المأساة ، وسلبت منه إرادته وقدرته على الحركة .

ومرة أخرى لكزه سين . كان الفيل لا يبعد عنهم بسوى خمس عشرة خطوة ، واقفًا وثابتًا في مكانه ، كظل لشبح رمادي وسط الشجيرات القصيرة. وفطن سين في الحال إلى أن ثبات توكوتيلا الفجائي ما هو إلا استجابة الفيل العجوز لإحساسه الداخلي بالخطر ، وإنه سيظل ثابتًا لبضع ثواني أخرى قبل أن يندفع كالإعصار بين الشجيرات .

أراد أن يقبض على ذراع ريكاردو ويهزه هزًا . أراد أن يصيح : « أطلق النار يا رجل ! أطلق ! » . لكنه عجز عن ذلك إذ أن أقل حركة ، وأوهى صوت ،

سيدفع الفيل العجوز نحو الفرار .

ثم حدث ما كان سين يخشاه ويعرف إنه سيحدث . بدا وكأن توكوتيلا فجأة قد انتزع من مكانه . لقد اختفى في غمامة من الدخان الرمادي . إن من المستحيل على مثل هذا الفيل العملاق أن يتحرك بتلك السرعة الخارقة ، وبذلك الصمت الغريب ، ومن مثل هذه الغابة الكثيفة . لكنه اختفى .

أمسك سين بذراع ريكاردو وجذبه معه للأمام وهو يكاد يجره جرًا وراء الفيل المختفي . كان وجهه متغضنًا من الغضب الأسود الذي ملأ صدره وكاد أن يكتم أنفاسه . أراد أن يفرغ ذلك الغضب على رأس ريكاردو ، فلقد غامر بحياته حتى يقوده إلى هذا الموضع ، ويمكنه من الفيل ، ورغم ذلك لا يقوم الرجل حتى يرفع بندقيته .

جرى سين قدمًا وهو يقبض بقوة خانقة على ذراع ريكاردو ، وجره وراءه خلال الأحراش والشجيرات والأشواك متجاهلاً قسوته عليه . كان واثقا من أن توكوتيلا سيحاول الوصول إلى الجزيرة التالية في سلسلة الجزر ، وأمل أن يجد فرصة أخرى فيه عندما يكون عابرًا للمجرى المائي المفتوح ، حيث سيجبر ريكاردو على إطلاق النار عليه ، حتى ولو من مسافة بعيدة ، ليعطله على الأقل أو ليحد من سرعة فراره . ثم يكمل العملية بنفسه ويقضي على الفيل .

ومن ورائه جاءه صوت متاتو فزعًا صائحًا ويصرخ بقول غير واضح . ربما كان يصيح طالبًا النجدة . توقف سين وأخذ يتصنت . فمن الواضح أن هناك شيء يحدث وغير متوقع بالمرة ، وهو غير مستعد لمواجهته . سمع صوت التحطيم الفجائي للشجيرات ثم الصراخ المدوي للفيل الغاضب المهتاج . لكن الصوت كان يجيء من خلفه وليس من المكان الذي اختفى فيه توكوتيلا . وللوهلة الأولى لم يفهم سين ما حدث . ثم برزت الحقيقة الناصعة أمام عينيه واقشعر جسمه وشعر بارتعاش شديد :

فقد قام توكوتيلا بفعل شيء لم يعرف أن فيلاً قد فعله من قبل . لم يكن الثور العجوز قد لاذ بالفرار ، بل قام عوضًا عن ذلك بالاستدارة والالتفاف باتجاه الريح حتى يجد رائحتهم . شعر سين بالهواء بمس ظهره العاري ويحمل رائحته إلى حيث اندفع العملاق ، من خلال الأحراش الكثيفة ، مطاردًا له . وصرخ سين : «متاتو . أهرب ! أهرب عبر اتجاه الريح . . . ودفع ريكاردو بخشونة على جذع شجرة تيك عملاقة وصاح فيه : «إصعد إليها» . كانت الفروع السفلية سهلة على التسلق ، وبالتالي تركه سين [illegible]

اندفع خلال الغابة يقفز من فوق كتل الأشجار الساقطة على الأرض ، [illegible]

الحانقة . كان يقترب بسرعة وكأنه كتلة ضخمة من الصخر الرمادي تدحرجت كالتيهور الهائل ، تدوس وتحطم ما تحتها وما يقابلها من الأشجار الصغيرة التي تقف في طريقها . كان توكوتيلا يفتش عن مصدر الرائحة اللاذعة للإنسان، متتبعًا لمصدرها حتى ينزل عليهم مرة أخرى ركام غضبه وكراهيته التي تراكمت به على مدى عمره الطويل .

وفجأة برز متاتو خارجًا من الغابة على بعد خطوات أمام سين . إنه سيقف لمواجهة أي أهوال طالما سين بجانبه . والآن ، وبدلاً عن أن يفر عبر الرياح كما فعل بميولا ، فقد قادته غريزته مباشرة إلى حيث يقف بجانب سيده .

وعندما رآه سين ، غير اتجاهه في منتصف خطاه وأشار لمتاتو حاثًا له ليتبعه. جرى جانبًا لحوال مائة خطوة عبر الريح ومحاولا تضليل الفيل عند مصدر رائحتهم ، ثم وقف وإنحني الأرض وبجانبه متاتو . وأصاب النجاح تكتيكه . أما بميولا فغالبًا ما يكون قد اختفى برائحته عن توكوتيلا . وللحظة فقد توكوتيلا رائحتهم . كانت الغابة ساكنة للغاية والصمت كثيفا حتى أن سين كان يسمع صوت عروقه تنبض وتدق في رأسه .

شعر بأن الفيل لابد أن يكون قريبًا جدًا منهم وواقفًا بنفس السكون والثبات الذي وقفا فيه وقد فرد أذنيه ليتصنت لأي صوت ، في حين كان خرطومه الطويل نعتشى عن رائحتهم . لم ير في حياته أبدًا فيلاً مثل هذا . فيل يطارد مطارديه ! وتمنى سين أن يعرف كم مرة طورد فيها هذا النيل؟ وكم مرة سبب له الإنسان الأذى حتى يهاجمه توكوتيلا بهذه القسوة فور إحساسه بوجوده؟

« توكوتيلا ، أيها الغاضب . الآن عرفت لماذا أسموك بهذا الاسم » .

ثم سمع صوتًا يأتيه من الغابة لم يكن يتوقعه . كان صوتًا بشريًا عاليًا . واستغرق سين لحظة حتى عرف فيه صوت ريكاردو مونتيرو .

كان ريكاردو ينادي الفيل :

« توكوتيلا ! نحن إخوة ! نحن وحدنا الذين بقوا من الدهور السالفة ! إن مصائرنا متشابكة مرتبطة مع بعضها ، ولن أستطيع قتلك ! » .

سمع الثور صوته ، وصرخ بعويل عميق مرة أخرى وبصوت عال حاد وقع على طبوال آذانهم كالمطرقة المسددة وهجم توكوتيلا على مصدر الصوت البشري وكأنه دبابة عظيمة ، واندفع من خلال الشجيرات والحشائش متجهًا مباشرة نحو الصوت . وقبل خمسين ياردة منه ملأت رائحة الإنسان الكريهة المغيظة رأسه مرة أخرى وتابعها حتى مصدرها .

لم يبذل ريكاردو مونتيرو أي مجهود ليستلق شجرة التيك التي تركه سين

بجوارها ، بل إتكأ ببساطة على جذعها واقفل عينيه . لقد هبط عليه فجأة الألم المبرح في رأسه ، وكأنه ضربة من فأس ، وأعمت عيونه ، وملأتها ببريق كالنجوم المتناثرة . ووسط ألمه المبرح سمع عويل الفيل العجوز وملأه صون العويل بندم شديد وبيأس مرير .

ترك البندقية الرجبي تنزلق من يديه وتسقط على الأوراق الجافة تحت قدميه ، ومد يديه للأمام، وترنح كالمخمور ليلاقي الفيل ، متخيلاً بيأس إنه سيسترضي الوحش الضخم ويصالحه ومناديًا له :

« إنني لا أقصد إيذاءك ، فنحن إخوة !». ومن أمامه إضطربت الشجيرات وقعقعت وانفتحت وخرج منها توكوتيلا ، مندفعًا نحوه ، وكأنه صخرة كبيرة من الجرانيت سقطت من أعلى الجبل .

كان سين يجري بجنون إلى حيث ترك ريكاردو وهو يقفز فوق الأحراش ، ويروغ منحنيًا أمام الأفرع المتدلية في طريقه . وسمع الاندفاع المفزع للثور العجوز، وصوت الرجل الذي أوشك على الوصول إليه ، وأخذ يصرخ في وجه توكوتيلا : « إلى هنا يا توكوتيلا تعالى إلي»، محاولاً أن يصرف انتباه توكوتيلا عن ريكاردو ليتحول إليه. لكنه كان يعرف عدم جدوى تلك المحاولة . فقد ركز توكوتيلا على ضحيته ولن يصرفه شيء عنها وسيواصل هجومه حتى الموت .

وفي صحوة مفاجئة عاد البصر صافيًا لريكاردو ثم تحولت الرؤيا في رأسه وأحاطتها أضواء متناثرة ، وكأنها نيران تدور وتلتف حول نفسها أمامه . رأى رأس توكوتيلا الرمادي العريض لينـدفع من خلال جدار الغابة الخضراء ، ورأى الأنياب الضخمة المصبوغة تتدفع صوبه وكأنها دعامات سقف على وشك السقوط عليه .

في تلك اللحظة جاءه الفيل مجسدًا لآلاف الحيوانات والطيور التي أبادها ريكاردو أثناء حياته كصياد . وتصور في عقله المشوش أن هذه الأنياب ، وذلك الخرطوم الطويل الذي يهوم من فوقه ، ما هما إلا رمز للبركة ، التي يمنحها كاهن من أتباع ديانة غامضة ، والتي يمكنها أن تعطيه الخلاص والغفران ، وتمسح خطاياه والدماء التي سفكها ، وكل الأرواح التي حطمها في حياتهن ومد كلتا يديه لهما بشعور من البهجة والعرفان ، وتذكر عبارة إنجيلية من أيام طفولته ودراسته للدين فصاح : « يا أبانا . اغفر لي ... ! ، ... فقد أخطأت » .

رأى سين رأس الفيل وهو يندفع من خلال الأجمة المقابلة له . كان متجهًا مباشرة للجانب الآخر البعيد عنه وقد نصب آذانه وتجاوزت قمة رأسه . وسمع صوت ريكاردو ، رغم أنه لم يتعرف على ما يقوله ، وعرف أن ريكاردو لابد أن يكون أسفل تلك الأنياب المشرعة والخرطوم الممدود .

توقف سين عن الجري فجأة وأرخى بندقيته الإكسبرس (٥٧٧) ، فقد كانت زاوية الرمي صعبة لإصابة الفيل في مخه ، فقد كان الفيل موليًا ظهره له، وغطت أكتافه الضخمة عموده الفقري.

لم يكن الهدف أكبر من تفاحة ناضجة ، ولا يعرف أحد أين يرقد ذلك الهدف بين عظام الجمجمة الضخمة . وكان عليه أن يتكل على خبرته الشخصية وعلى الغريزة . وللحظة ، بدا عليه وهو ينظر من خلال مؤشر البندقية، إنه يرى ما بداخل الجمجمة في خياله ، حيث بدا له المخ متوهجًا كاليراعة في أعماق عظامها .

وبدون وعي منه سدد رميته عندما تلاقى المؤشر مع تلك النقطة المتوهجة ، وانطلقت الرصاصة داخل الطبقات الإسفنجية لعظام الجمجمة ، وكأنها لم تخترق سوى الهواء ، وشقت دماغ الفيل العجوز والذي لم يشعر بشيء . فلقد انتقل في لحظة خاطفة من الاهتياج الرهيب إلى سكون الموت ، وانهارت أرجله وانطبقت أسفل منه ، وسقط على صدره بقوة هزت الأرض من حوله وأطارت الأوراق من أغصانها المطلة عليه ، بينما انطلقت من حوله دوامة من الغبار الشاحب لفت جسده العملاق ، وسقط رأسه مندفعًا للأمام .

اندفع نابه الأيمن نحو جسم ريكاردو مونتيرو ، مخترقًا بطنه على مسافة قبضة يد من حجابه الحاجز ، ومر من خلالها بجوار كليته ، وخرج من ظهره من منطقة الحوض . ذلك العمود من العاج، طالما اشتهاه ريكاردو ، وخاطر بحياته وثروته للحصول عليه ، هو الذي ثبته على الأرض كالسفود أو كأنه حربة صائد الحيتان . نظر ريكاردو إلى الأنياب في دهشة . لم يكن لديه أي إحساس بالألم ، ولا حتى شعور بأي شيء في جسمه الأسفل ، الذي التوى تحت خرطوم الفيل الملتف ، ولا حتى بأي ألم في رأسه .

ولبرهة عاد إليه صفاء الرؤية ، وكأنما أضاءت الأنوار الكاشفة كل ما حوله ، ثم بدأ كل شيء في التلاشي وغمره الظلام . وقبل أن تطبق عليه الظلمة للأبد رأى وجه سين كورتني يطفو من أمامه وسمع صوته خافتًا وكأنه غارق في لجة لا قعر لها . وجاءه صدى الصوت : «كابو ! ، كابو !» وبذل ريكاردو جهدًا خارقًا ليقول له :

«إنها تحبك . أرعى شئون فتاتي الصغيرة» . ثم ابتلعه الظلام ، ولم يعد ير أو يسمع أي شيء آخر ، للأبد .



كان أول ما فكر فيه سين هو إخراج جسد ريكاردو مونتيرو . جذب بقوة الناب الذي خوزقه. لكن الناب كان ضخمًا وسميكا ولم تجد قبضة يديه

سبيلاً للإمساك به . كان دم ريكاردو يسيل من ذلك الجرح الهائل ، وملأت الدماء يدي سين ، وتركت بصمات يديه حمراء لزجة على الناب.

ثم اتضح له خواء ما يقوم به وعدم جدواه فأوقف جهوده . كان رأس توكوتيلا ووزنه الهائل مرتكزًا على تلك الأنياب ، فبعد أن اخترق الناب جزع ريكاردو ، دخل طرفه في الأرض الناعمة الرملية ، ودفن نفسه عميقًا فيها . لذا أوقف سين جهده عندما تبين له أن إخراج الجثة قد يستغرق منه نصف اليوم على الأقل .

حتى في الموت كان جسد كل من الرجل والوحشي مشتبكين مرتبطين . وفجأة اتضح لسين أن هذا هو الوضع المناسب لهما ، وقرر أن يتركهما على هذا النحو .

ثم ظهر متاتو ومن بعده بميولا خارجين من الغابة ، ووقفا بجوار سين يحدقان في رهبة على ذلك المنظر البشع ، وانتهزهما سين : «أغربا عني لا انتظراني في القارب » .

لكن بميولا لم يتحرك وسأله بتردد : «والعاج؟» .

أجابه سين منتهرًا «قلت لك إذهب عني » . وبعد سماعهما لهذه اللهجة الحادة تسللا عنه بهدوء وانصرفا .

كانت عينا ريكاردو مفتوحتين فقام سين بإغماضهما بلمسة من إبهام يده، ثم فك الوشاح القطني من حول رقبة ريكاردو وربط به فكه المفتوح ، حتى لا يبدو كالأبله . كان وسيمًا حتى في سكون الموت . واتكأ سين على رأس الفيل وأخذ يتمعن في وجه صديقه ويحدثه :

« لقد تم كل شيء في الوقت المناسب تمامًا يا كابو ، قبل أن يحيلك المرض إلى عجينة ، وفي الوقت الذي احتفظت فيه بمعظم حيويتك وحماسك . ولا شك أنها نهاية مناسبة لرجل مثلك. لحسن الحظ إنك لم تمت بين أغطية مبللة ملوثة ، ويا ليتني أكون محظوظًا مثلك » .

وضع سين يده على أحد النابين وطرقه بها . كان له ملمس اليشم الكريم تحت أصابعه وقال:

« سأتركهم لك يا كابو ، وسيكون هذا العاج كالشاهد لضريحك . الله يعلم كم دفعت فيهما من ثمن».

نهض سين وتابع أثر خطوات كابو ، عندما كان في الغابة ، حتى وجد البندقية الرجبي ملقاة على أوراق الشجر الجافة . أحضرها معه ووضعها على باطن ذراع ريكاردو المنحنية وغمغم :

« المحارب دائمًا ما يدفن مع سلاحه » . ولكن كان هناك شيئًا قد غاب عنه ، إذ لا يمكنه أن يعود تاركًا ريكاردو بهذا الشكل ، أو ملقى تحت وهج الشمس الحارقة ، ويجب عليه أن يدفنه كما يليق به .

ثم تذكر سين الأساطير التي تحكي عن هذا الفيل وكيف يتصرف مع ضحاياه فأخرج سكينه الثقيلة من غمدها المعلق بحزامه وتوجه إلى أقرب شجيرة خضراء وانتزع غصنًا مورقًا وغطى به وجه ريكاردو . وخاطبه : «نعم . هذا حسن . هذا مناسب تمامًا».

ثم أخذ يقوم بسرعة بقطع المزيد من الفروع والأغصان ، وغطى كل جسم ريكاردو ، ورأسي الفيل العجوز ، بكومة هائلة من الخضرة .

ثم وقف أخيرًا وتناول البندقية ٥٧٧ وأمسكها تحت ذراعه ، واستعد للعودة وودعه قائلاً:

«لا أسف يا كابو . فبالنسبة لك كانت حياتك طيبة حتى النهاية . فلتذهب بسلام أيها الصديق القديم » .

ثم استدار وتوجه إلى حيث كان القارب مودعًا .





القسم الثالث

الجنرال تشاينا

احتكت أعواد البوص بقارب الطوف عندما كان بميولا يدفعه بعوده الطويل ، في رحلة العودة ، ولم ينطق أحدهم بشيء .

جلس سين في وسط القارب ، وقد أحنى رأسه ووضع ذقنه على باطن كفه كان يشعر بالخدر وبالخواء والعدم وبخلوه م نأي أحاسيس سوى الحزن شعر وكأنه عائد من إحدى الغارات ، عند اشتداد أوار حرب العصابات ، عندما يكون الرجال حزاني وصامتين .

نظر إلى يده اليمنى التي على حجره ، ورأى أظافره مغطاة بدم قاتم قاني ، وحدث نفسه: «دم كابو» ثم دلى يده من القارب إلى مياه المستنقع لتغسل ما فيها من دماء .

وأخذ يستعرض في ذهنه كل عملية الطراد التي قاموا بها وكان شريطًا للتسجيل كان يلعب في رأسه . رأى كل شيء واضحًا حيًا أمامه ، منذ أول لخطة شاهدوا فيها الفيل العجوز ، وحتى اللحظة التي اندفع فيها سين ليجد ريكاردو مونتيرو وقد تخوزق تحت الرأس الضخم الرمادي للفيل.

ثم سمع ، للمرة الأولى ، صوتًا . جاءه صدى صوت ريكاردو خافتًا متهدج الأنفاس ن ثم يتلاشى بسرعة ، كان قد قال له شيئًا بينما لم يتمكن من فهم بقية الكلام :

« إنها تحبك . إنها تحبك » .

أهي كلمات لا معنى لها لرجل محتضر ؟ أم سبحات عقل مريض ؟ ربما كان ريكاردو يستعيد من ذاكرته واحدة من مئات النساء اللائي ملأن حياته .

ورفع سين يده من الماء ، وكانت نظيفة تمامًا وقد غسل الدم عنها : «إنها تحبك» . هل كان يحاول أن يحدث سين عن امرأة بعينها ؟ انصرف سين عن النظر إلى يده المبللة وحدق أمامه . لم تغب ذكراها عنه في الأيام القليلة الماضية، وكانت دائمًا في أعماق نفسه ، رابضة هناك ، لكنها طفت إلى السطح الآن ، وفي هذه اللحظة غير المتوقعة . كان كلما فكر في الفيل العظيم يتسم فجأة عندما يتذكر شيئًا قالته . حتى في القارب صباح هذا اليوم ، وهم في المراحل الأخيرة للمطاردة ، كان قد مد يده في الماء والتقط ذهرة من ياسمين

الماء وقربها من أنفه وتشمم عطرها وتحسس لمسة أوراق الزهر ة الحريرية ... وفكر في كلوديا مونتيرو .

والآن ، وهو يحدق بعيداً أمامه ، اعترف لنفسه لأول مرة كم هو متشوق لرؤيتها مرة أخرى . لقد بدا له إنها الوحيدة التي يمكن أن تمحو حزنه لفقد أبيها . تذكر صوتها وتذكر كيف ترفع رأسها وتشمخ بأنفها لتتحداه ، وابتسم عندما تذكر لهيب الغضب ، والذي كان يوقد ناره فيها كلما أراد ، وتذكر الطريقة التي كانت تزم بها شفتيها لتمنع نفسها من الضحك على إحدى نكاته.

فكر في طريقة مشيها وفي شعورها عندما حملها على ذراعيه وتذكر ملمس جسمها ، وكأنه أوراق بتلات زهرة ياسمين الماء ، عندما لمسه متظاهراً بأنه يساعدها أو يوجهها . ثم تذكر:

«إننا ، على الإطلاق ، لا نتوافق مع بعضنا البعض » . فابتسم ، وقد تراخى حزنه الذي كان مطبقاً عليه قبل وقت قليل :

«إذا كان كابو يتحدث عنها ، فإنه بدون شك قد نظر للأمر من زاوية بعيدة » . وإزداد ترقبه للقائها حدة ولهفة .

نظر إلى السماء بعد أن غربت الشمس وسيحل الظلام بعد قليل . وفجأة برقت الزهرة ، نجمة السماء ، وتلألأت على الأفق الغربي . ثم واحدة بعد الأخرى جاءت النجوم الثابتة الأخرى ، خارجة من قبة السماء الداكنة وفي ترتيب ونظام بديع .

نظر سين إلى النجوم وفكر في كلوديا وتعجب من المشاعر المتناقضة التي تثيرها فيه . قارنها بنساء أخريات عرفهن في سالف الأيام ، وعرف كيف كانت علاقاته بهن سطحية وعابرة حتى زواجه المنهار لم يكن منطقياً ، بل كان مجرد رغبة متعجلة بنيت على شهوة ساذجة . لقد انتهت تلك التجربة بسرعة بعد أن أرضى نزواته المتعجلة ثم انتهت . كانت غلطة كارثية بالنسبة له ولم يحاول أن يكررها مرة أخرى . بل إنه الآن لا يكاد يتذكر ، وبصعوبة ، حتى شكل المرأة التي كانت يوماً زوجة له .

عاد مرة أخرى ليفكر في كلوديا . واستغرب عندما كانت صورتها واضحة تماماً في ذهنه ، حتى يكاد يحسب عدد شعرات الرموش من حول تلك العيون العسلية الواسعة ، والخطوط التي ترتسم على أركان فمها عندما تبتسم. أراد أن يكون معها بأي شكل مرة أخرى ولكن ، وعندما اعترف لنفسه بهذه الحقيقة ، انتابه القلق والتوتر وقال لنفسه :

«لابد أنني كنت قد جننت حتى أتركها وحدها » . وعندما نظر أمامه

صوب المستقعات الداكنة ، بدأت عشرات الصور من الاحتمالات البشعة التي يمكن أن تصيبها تنتابه وتمزقه . لكنه وجد بعض العزاء :

« إن جوب معها ، ولكن كان على أن أبقى معها لأعتني بها وأرسل جوب مع كابو» . ورغم أنه استدرك أن هذا كان مستحيلاً إلا أنه امتلا بالغيظ والغضب من نفسه .

شعر بالقارب يبطئ عندما توقف بميولا لبرهة وجيزة ، وملمحًا للإذن بالتوقف أثناء الليل . فقال له :

« سأدفع القارب بنفس . فلابد أن نستمر في طريقنا حتى نصل للقرية » . وبينما قبع متاتو وبميولا في جوف القارب ، وقف سين على مرخرة القارب وأخذ يضرب بالعود على الماء ويدفع القارب للأمام ، ومستعينًا بعلامات النجوم ومتجهًا للجنوب ، باتجاه تقاطع كواكب الصليب مع نجمتي الدب الأكبر .

كان لأعواد البردي هسيس خفيف عندما يحتك جسم القارب بها في رتابة وثبات مع كل ضربة من عود المجداف ، وسرعان ما صار الأمر مكررًا وتلقائيًا حتى أنه سرح بخياله ما سيصيبها من جزع وأسى لفقدان أبيها . ورغم أنها كانت متوقعة لذلك ، إلا أن النبأ سيدمرها . وبدأ يستعرض الكلمات التي سيقولها لها معزيًا ومواسيًا عندما يبلغها بالنبأ . كانت تعرف عمق مشاعره نحو أبيها ، والصحبة التي جمعت بينهما في ساحات القنص ، وكانت تعرف مدى تقدير كل منهما للآخر :

« أعتقد أنني الشخص المناسب للوقوف بجانبها فور انطلاق حزنها إذ أنني أعرفه حق المعرفة. سأساعدها لتتذكر كل شيء طيب بشأنه » .

كان يمكن أن يخشى من نقل هذا النبأ الحزين لها لكنه ، بالعكس ، وجد نفسه يتطلع للقيام بدور المواسي والحامي لها :

« ربما تمكنا من التخلص من التناقضات التي اندفعنا كلانا نحوها . وبدلاً عن تصعيد خلافاتنا فربما كان بإمكاننا التعرف على ما يجمع بيننا » .

وجد نفسه لا شعوريًا يسرع ويطيل مدى ضرباته بالمجداف الطويل ثم بدأ يبطئ قليلاً منها وقال لنفسه :

« لن تستطيع الاستمرار بهذا الاندفاع طوال الليل » . لكن رغبته في أن يكون معها دفعته لمواصلة السير ، رغم أن التعب الذي تملكه كان يستدعى منه التوقف والراحة .

وساعة بعد ساعة ظل ماضيًا حتى استيقظ بميولا من تلقاء نفسه وتوقف للاستلام منه . نام سين نومًا مضطربًا حتى أطل صباح اليوم التالي ، فعاد إلى مؤخرة القارب بعد أن امتلأت السماء في الشرق وتلألأت بلون الياقوت ، ثم إلى

الليموني الشاحب ، وبدأت طيور الماء تحلق من فوقهم وتخفق بأجنحتها بنعومة وهي تسبح في فضاء الفجر وبعد ساعتين أرسل سين متاتو ليصعد على العود الطويل بعد أن أوقف القارب . لكنه لم يكمل تسلقه حتى أطلق صيحة فرح وأشار بيده أمامه .

وأخيرًا ، وقبل منتصف النهار ارتطم جانب القارب بآخر أجمة للبردي ووصل للشاطئ بجوار الرمال التي تطل عليها القرية المحروقة .

قفز سين على الأرض الجافة ومضى بخطى سريعة خلال أنقاض القرية ممسكًا نفسه من أن يجري ، وفكر في نفسه بغضب :

«كان على جوب أن يكون أكثر يقظة . فطالما وصلنا هنا ولم يرنا أحد...». ولم يكمل ما يفكر فيه. فأمامه مباشرة ظهرت الأجمة التي بنوا فيها المأوى المؤقت لكلوديا . وتوقف سين بغتة ، فقد كان الهدوء تامًا . وحذرته حاسته السادسة من خطر مرتقب . لابد أن هناك خطأ ما . مضى قدمًا بسرعة واندفاع : يرقد على بطنه ويزحف ثم ليتدحرج ليجد غطاء له ، والبندقية ٥٧٧ معه .

وقد أنصت . وكان الصمت ثقيلا . بلل شفتيه وصفر محاكيا شقشقة طائر الحجل ، وهي واحدة من نداءات الجمع الكشافة ، يعرفها جوب حق المعرفة ، لكن أحدًا لم يجاوبه . زحف على بطنه بزحفة الفهود ، ثم توقف ثانية ، فقد كان هناك شيء يلمع بين الأعشاب القصيرة المواجهة له . التقاط ذلك الشيء وشعر بالصقيع في بطنه .

كان ظرفًا فارغًا لرصاصة (٧،٦٢) ملمتر وكانت منقوشة بكتابة روسية مما يعني أنها رصاصة سوفيتية تستعمل في بنادق (إي كي) الهجومية . رفعها سين نحو أنفه وشم رائحة البارود المحروق الذي تفجر حديثًا . تلفت من حوله بسرعة ونظر ورأى ظروفًا أخرى فارغة ملقاة على العشب ، دليلاً على حدوث اشتباك خطير بالنيران منذ وقت قريب .

استدار على قدميه وبدأ يجري ثم يغطس ويتمايل أثناء جريه للأمام نحو الأجمة ، محاولاً بمناوراته هذه أن يطيش رمية أي قناص قد يكون مختبئًا وعندما بلغ حافة الأجمة انبطح ثانية على الأرض ورفع رأسه وفي الحال رأى الجثة. كانت ملقاة ووجهها على الأرض تحت شجيرة وقد جرد جسمه من الملابس والحذاء . خرج النداء من حلق سين وكأنه يشقه بسكين : «جوب !» . ثم مضى نحو الجثة زحفًا حتى وصل إليها . كان على مؤخرة ظهرها أثر خروج لرصاصة واحدة وبدأ الذباب يدور حول الجرح والذي تجلط الدم عليه وتحول إلى قشرة سوداء ، وبدأت رائحة خفيفة لتعفن تخرج منه .

قدر سين أن الموت قد حدث قبل أربعة وعشرين ساعة ، فنهض على ركبتيه حيث لم يعد هناك حوجة للمزيد من الحذر الآن . وبرقة شديدة رفع رأس القتيل . كان الرأس قد بدأ عليه تصلب الموت ، وتنهد سين بارتياح عظيم ، وترك الرأس يسقط بصوت مسموع ، فقد كان القتيل رجلاً غريبًا .

وبدأ ينادي : «جوب ! كلوديا ! » . كانت صرخة يائسة . وأخذ يجري نحو الملجأ المؤقت الذي كان قد تركها فيه . كان مهجورًا . نظر من حوله بوحشية ونادى « جوب ! كلوديا ! » .

كان هناك قتيلاً عاريًا آخرًا ملقى على طرف الفسحة التي أمامه وجرى نحوه . كان رجلاً غريبًا آخر ، هزيلاً ضئيل الحجم ، وكان مصابًا برصاصة أطارت مقدمة جمجمته ، وكان قد بدأ يتعفن أيضًا ، وقد انتفخت بطنه وكأنها بالون أسود لامع .

وقال سين لنفسه بمرارة : « اثنين من الأوغاد . رمى طيب يا جوب » .

كان متاتو قد تبع سين وبدأ الآن يتفحص الملجأ المؤقت لكلوديا . ترك الملجأ وأخذ يدور من حوله وكأنه كلب صيد متمرس يتمعن في دجاجة برية جاثمة . وقف سين ويميولا يراقبانه ولم يشتركا معه في البحث حتى لا يعميا على أي آثار موجودة .

وخلال دقائق رجع إليهما متاتو وقال :

« إنهم نفس الشفتة (العصابة) التي تابعتنا من قبل . وهناك خمسة عشر منهم أحاطوا بالكوخ واندفعوا نحوه في هجوم سريع . وقد صرع جوب هذان الرجلان بباندوكته (٦/٣٠) » . ثم ناول سين الرصاصات الفارغة : «كان هناك صراع عنيف لكنهم أخذوا جماعتنا معهم» .

«وماذا حدث للمصاحب ؟ - الفتاة » . سأله سين وهو يرتعد سلفا من الإجابة.

أجابه متاتو بالسواحيلية : «أنديو . نعم . أخذوها أيضًا معهم ، وهي لا تزال تعرج في مشيتها، لكنهم قادوها معهم ، وواحد منهم على كل جانب منها . كانت تقاومهم طوال الطريق . أما جوب وديدان فكانا جريحين وربما ضربا بقسوة وأعتقد أن ذراعيهما مربوطتين إذ أنهما يمشيان بنوع من عدم الإتزان » ثم أشار متاتو نحو الجثث : «لقد جردوا موتاهم من الملابس والأحذية والباندوكي وتوجهوا صوب هذا البرزخ » . وأشار إليه بيده ...

فسأله سين : «متى ؟ » .

فأجابه : «باكرًا أمسى . وربما هاجموهم في الفجر » .

أحنى سيد رأسه عابسًا ، لكنه صرخ في نفسه : «كلوديا ! يا إلهي ! إذا ما لمسوك فسأنتزع أمعاءهم من بطونهم » . ثم قال بصوت عال :

«مطاردة سريعة . هيا بنا » .

هرع بميولا لإحضار معداتهم وزجاجات الماء من القارب . وكان سين يربط حزمته على ظهره عندما بدأ يجري . زال عنه الإرهاق الشديد ، من التجديف ودفع القارب طوال الليلة الماضية ، وشعر بأنه في حالة من القوة والغضب وعدم التعب التام .

وخلال الميل الأول استقروا على هرولة الكشافة التي درجوا عليها عندما كانوا يقومون في الماضي بالغارات . كان الأثر واضحًا ولم يتخذ سين أي إجراء للتحوط من أي مداهمة أو كمين، واعتمد تمامًا على متاتو للتعرف والتنبه لأي علامة للشراك أو الأنعام المضادة للأفراد ، ربما يكون المعتدون قد زرعوها في الطريق لتعطيلهم . رغم ذلك أسرعوا في طريقهم وكأنهم في سباق محموم لأمبياد المراثون .

كان طيف كلوديا يلوح أمامه ويدفعه وكأن على أقدامه أجنحة . وحدث نفسه : «خمسة عشر رجلا ، كما قال متاتو ، ولا شك في إغراء جسد كلوديا الحلو الأبيض لهم» . لم تكن هناك "ي إشارة تدل على توقفهم أو على محاولة منهم معها . وقبل بدون تحفظ تفسير متاتو بأن الرجال قد زحفوا عليهم في الفجر واستولوا عليهم في اندفاعة هجومية سريعة ، وهم مستعدون لتحمل أي خسائر بدون أن يلحقوا بالمقابل أي أذى يذكر بضحاياهم . يبدو أنهم كانوا في حوجة للأسرى أكثر من رغبتهم في قتلهم . فبخلاف بضع ضربات من عقب البندقية فلا يبدو أن جوب أو ديدان قد تعرضا لأشد من ذلك . لكنها كانت كلوديا التي استولت على كل اهتمامه .

لقد أجبروها على السير معهم برجلها المصابة وهذا ما سيؤثر قطعا على ركبتها وربما سيسبب لها ضررًا دائمًا . فإذا ما تسببت في إبطاء سيرهم فسينفذون صبرهم ويلجأون لتهديدها . فكل شيء يتوقف على مدى رغبتهم في الحصول على أسير أبيض ليحتفظوا به كرهينة ؛ ربما للمساومة به مع الحكومات الغربية . نعم . كل شيء يتوقف على من هم : فريليمو أم رينامو ، أم عصابات تعمل لحسابها ؟ كل شيء يعتمد على من يسيطر عليهم ، أو على من يقودهم وعلى مدى سلطته عليهم وقوته .

لكن ، كلما قلب سين الأمر كلما عرف أن كلوديا تتعرض لخطر عظيم.

هل علموا بأننا سنطاردهم ؟ لابد أن يكونوا قد تفحصوا أثرنا بداخل

القرية وعلموا أن ثلاثة منا - لا ، أربعة بكابو - كانوا غائبين عن بقية المجموعة . نعم - ستكون الإجابة بنعم . ربما توقعوا أن تطاردهم هذه المجموعة الغائبة وهذا ما سيجعلهم متوترين وفي حالة انفعال ملموس .

لن تكون كلوديا خير محامٍ عن نفسها وعن سلامتها . عليه فقط أن يتخيل جدالها معهم ولجاجها ومطالبتها بحقوقها القانونية والإنسانية ورفضها الخضوع لأوامرهم . ورغم همومه ، وجد نفسه يبتسم رغم تعكر مزاجه عندما يفكر في ذلك . ربما ظنوا أنهم أمسكوا بقطة مدللة لكنهم سريعًا ما سيجدون في قبضتهم نمرة ناضجة وشرسة .

لكن ابتسامته تلاشت . فقد كان متأكدًا من أنها ستتعامل معهم بالضبط بالطريقة التي تستفز كراهيتهم وعدائهم لها ، مما سيعوق من فرص بقائها على قيد الحياة . فإذا ما كان قائد الجماعة رجلاً ضعيفًا ، فإنها ستدفعه للنقطة التي يقرر فيها استعادة هيبته وسط رجاله . فالمجتمع الإفريقي هو مجتمع أبوي وسيذدري هذا القائد ويضطهد أي امرأة ترفض الانصياع لمشيئته .

وإذا ما كانت هذه الجماعة هي نفسها التي اجتاحت القرية ، فلا شك في أنهم قد أثبتوا قسوتهم وشراستهم .

وتوسل إليها في دخيلة نفسه :

« مرة واحدة فقط يا عزيزتي أقفلي شفاهك الحلوة تلك » ومن أمامهم توقف متاتو عن الهرولة وأشار بيده ، فهرع سين إليه . أشار متاتو إلى مكان تحت شجرة موبين ظليلة :

«هنا استراحوا» .

كان على الأرض أعقاب السجاير الأسود الذي وطئته النعال . وأشار متاتو إلى شجرة الموبين وإلى آثار القطع الحديث لبعض فروعها وقد أزيلت منها ، بسكين ، بعض الأغصان الصغيرة وألقيت على الأرض . كانت الأوراق قد ذبلت عليها مما أكد تقدير متاتو للزمن الذي تمت فيه : أمسى صباحًا .

قطع الفروع أثار دهشة سين لوهلة ، لكن متاتو أوضح له : «لقد بنوا (موشيلا) للميم» .

وأومأ سين برأسه في ارتياح شديد . فقد كانت كلوديا برجلها المعطوبة تعوق سرعة سيرهم . وبدلاً من أن يتخلصوا منها بالأسلوب المناسب ، برصاصة على مؤخرة عنقها ، بنوا لها نقالة من أعواد الموبين ليحملوها عليها . كان هذا تطورًا محمودًا . وغير ذلك من تقديرات سين الخاصة بفرص بقائها على قيد الحياة . لقد وضعوا تقييمًا عاليًا لها ، مما كان سين يخشى عدم حدوثه .

عمومًا ، فإن المرحلة الحرجة قد جاءت مساء الأمس ، عندما قرروا ، التوقف لقضاء الليل . فقد ظلت مع آسريها يومًا كاملاً درسوها فيه تمامًا وتمعنوا في جسدها وسرحوا بخيالهم وجمعوا شجاعتهم . لم يتحمل سين مواجهة ما قد يكون حدث لها إذا ما فقد قائدهم السيطرة على رجاله.

ونادى متاتو بخشونة :

«هيا بنا يا متاتو فإنك تضيع الوقت» .

فإذا حدث ما خشي منه سين على أية حال ، فسيكون ذلك قد تم مساء أمس . لقد تأخر عنهم كثيرًا ولكن ، ورغم ذلك ، فإن ّي ثانية يضيعونها كانت تشوكه وترعبه .

قادهم الأثر مرة أخرى باتجاه البرزخ راجعين على نفس دربهم عبر السهول الجافة والمتجهة نحو الجنوب . كان الدرب واضحًا وعريضًا ليتبعوه . خمسة عشر رجلاً مع أسراهم ، ولا يبذلون أي جهد لإخفاء أثرهم . قرأ متاتو الأثر وأبلغهم أن الجماعة قد أجبروا جوب وديدان لحمل النقالة التي بها كلوديا وانشرح صدر سين لأن الرجلين كانا قادرين على حملها ، فمهما كانت جراحهم التي أصيبوا بها ، فلابد أن تكون سطحية . لذا كان واثقًا من أن جوب سيستغل أي حيلة ليؤخر بها سيرهم ، ليسمح لرفاقه باللحاق بهم .

وهو سارح في تفكيره ، سمع صيحة متاتو وهو يشير إلى آثار على الأرض الناعمة ، حيث كان جوب قد أنزل طرف النقالة وانبطح بحركة تمثيلية على يديه وركبتيه ، ثم زحف بعد ذلك بعد أن أحاط به آسروه وتوعدوه . وغمغم سين بدون أن يبطئ من خطاه الواسعة : «رجل ممتاز . لكن لا تدفعهم لأكثر من ذلك» . فهو يعرف إنها لعبة حساسة كان يلعبها جوب . كانوا بإسراعهم هذا قد اقتربوا من الجماعة التي يطاردونها ، والتي تسير بسرعة أقل كثيرًا من سرعة مطارديهم ، وبدأ سين يأمل في اللحاق بهم قبل هبوط الظلام :

«لكن هذا سيكون أمرًا مثيرًا» . حدث نفسه : «ثلاثة منا مع بندقية واحدة (٥٧٧) مقابل خمسة عشر سفاحًا مسلحين بالبنادق (إي كي) ؟»

لم يواجهوا حتى الآن أي شراك خداعية منصوبة لهم ، فإن من طبائع رجال العصابات تلغيم الدروب التي يمشون عليها . ودهش سين وساءل نفسه عن أسباب عدم قيامهم بذلك . ربما كانوا رجال عصابة غير مدربين ، أو ربما كان ينقصهم الحصول على الألغام البلاستيكية الخفيفة المضادة للأفراد ، أو ربما كانوا يجهلون أنهم مطاردون . لكن الأسوأ من ذلك هو أنهم ربما كانوا يعدون لمفاجآت قادمة .

- سنتعامل مع هذه المشكلة عندما يجيء وقتها .

جاء متاتو مرة أخرى وأشار بيده وقال :

«لقد طبخوا طعامهم هناك مساء الأمس» . وأشار بيده إلى بقايا النيران حيث توقفوا لتلك الليلة. كانت هناك علامات وآثار لأماكن جلوسهم عندما كانوا يستريحون ويتناولون طعامهم، وكانت بعض جماعات من النحل تحوم حول ذلك المكان تلتقط بقايا الطعام الذي انتثر منهم ، كما كان هناك المزيد من أعقاب السجائر .

طلب منه سين أن يفتش ثانية إذ كان لديه شعور بأن جوب سوف ينتهز الفرصة ويترك رسالة لهم. وبينما توجه متاتو ويميولا للبحث بسرعة ودقة نظر سين إلى ساعته . كانت الرابعة بعد الظهر وقد مضى عليهم أكثر قليلاً من ثلاثة ساعات منذ أن غادروا القرية ، ولا زال أمامهم ما يكفي من ضوء النهار للحاق بأعدائهم قبل حلول الظلام :

«هنا وضعوا النقالة التي عليها الميم » . أشار متاتو لعلامات الحمالة على الأرض : «وهنا توقفوا» .

بدأ سين يتفحص آثار أقدامها الصغيرة الأنيقة التي لا تشبه آثار أقدام خاطفيها وبدا عليها عندما تمشي إنها تمشي بطريقة معينة وتجر إبهام قدمها على الأرض . وسألهم سين :

«هل وجدتم أي شيء ؟ ألم يترك جوب رسالة ما ؟ » . فأجابه متاتو بهزة من رأسه أن لا .

ـ حسنًا . سنشرب الآن .

ثم تناول بعض أقراص الملح من صرته . لم يكن هناك داع لتحذيرهم من الإفراط في شرب الماء فهم يعرفون . تناول كل منهم ثلاثة جرعات ماء من زجاجته ثم أحكموا إقفال السدادات . استراحوا لأقل من خمس دقائق عندما أمر سين بمواصلة السير .

وبعد ساعة وجدوا المكان الذي ناموا فيه تلك الليلة وكان واضحًا من تصرف تلك الجماعة، ولأنهم غادروا المكان الذي تناولوا فيه طعامهم ، وإنهم لم يناموا بجوار نيران معسكرهم ، أنهم جماعة حسنة التدريب . وأمرهم سين بمواصلة البحث هنا عن أي معلومة قد تركها لهم جوب والتي ستكون قطعًا ذات قيمة لهم ، لكن متاتو عاد بعد فترة بدونه أي نتيجة .

وشعر سين بوخزة خيبة الأمل في أعماقه . أمرهم بمواصلة السير وكان على وشك أن يستدير عندما تذكر شيئًا جعله يتوقف فجأة ويتلفت في أنحاء المكان ثم سأل متاتو :

«أرني المكان الذي نامت فيه الميم صاحب » . فأشار متاتو بيده : «هناك» .

كان شخص ما ، جوب غالبًا ، قد وضع لها كومة من الأوراق الخضراء والعشب لتكون مثل حشية لها ، وكان جسمها قد مدد تلك الكومة تربع سين بجوارها وبدأ يتفحص بعناية شديدة تلك البقايا باحثًا عن أي معلومة ، ويرفع الأوراق ورقة ورقة . لم يجد شيئًا . ثم أزاح آخر الأوراق ، وكان على وشك أن ينهض على قدميه ، وخيبة الأمل تملأ جوانحه ، لأن إحساسه الشديد بأنها تركت شيئًا له كان طاغيًا . ثم لاحظ وجود زر نصف مدفون بالتراب تحت الحشية .

تناول الزر ونهض واقفًا . كان زرًا نحاسيًا من حزام الجينز الذي كانت ترتديه وكان يحمل علامة (مارك هتون) الشهيرة :

«صانعوا الجينز لعزيزتنا » . وضع الزر في جيبه : «لكن لا فائدة منه فلم يوضح لي أي شيء ... إلا إذا ... » . عاد لمكان الزر مرة أخرى ، وأزاح بعناية التراب الذي كان يرقد عليه نصف مدفون فيه . لقد كان مصيبًا . فقد استغلت الزر كعلامة لشيء . فتحت المكان وجد قطعة صغيرة من الكرتون مقطوعة من غطاء علبة السجار يللوس البرتقالي الرخيص . لم تزد على نصف بوصة عرضًا وبوصتين طولاً . كانت قطعة صغيرة لتسع الكلمات التي خطتها عليها مستخدمة عودًا متفحمًا من بقايا نار المعسكر :

«خمسة عشر ريناموا» . هذه معلومة عديمة النظير تؤكد تقدير متاتو لأعدادهم . لقد عرف الآن مع من يتعامل . ريناموا .

لكن الكلمات الأخيرة حيرته : «كيف ؟ـ كهف» . وأخذ يتأمل فيما تعني. ثم فجأة تذكر إنها كلمة (احترس) التي يستخدمها طلبة المدارس والمأخوذة من اللاتينية (كيفيات) بمعنى احترس .

وابتسم بالرغم منه : «من أين تعلمت هذا التعبير الإنجليزي من قبل ؟ » ثم تذكر أنها كانت محامية ، وواصل قراءته :

«كيف . إنهم يتوقعونك » . لابد إنها وجوب قد استرقوا السمع بينما كان الريناموا يناقشون موضوع المطاردة . هذه معلومة في غاية الأهمية . «كلنا بخير» . ووقعت بالحرف (ك) .

أمسك بالورقة على باطن يده وأخذ يتأملها ، وكأنها من بقايا الصليب المقدس ، وهمس : «أنت أيتها الجميلة الصغيرة . أنت ! لابد أنك أصفاهم ذهنًا وأربطهم جأشًا ... » . وهز رأسه بتعجب وقد شعر باختناق في حلقه . اعترف لنفسه وللمرة الأخيرة بالحنين والشوق إلى لقائها ، لكنه سيطر على عواطفه ونهض على قدميه ، فلم يكن لديه وقت ولا فرصة للإنغماس في عواطفه وأهوائه .

وأخبر متاتو ويميولا : «إنهم رينامو . لقد كنت مصيبًا يا متاتو فهم خمسة عشر رجلا ويعرفون إننا نتتبعهم . علينا توقع كمين ينصبونه لنا » .

بدأ على الرجلين الأسى . ونظر سين إلى ساعته وقال : « يمكننا اللحاق بهم قبل حلول الظلام».

وفي خلال ساعة اصطدموا بأول كمين نصبه لهم الرينامو . فقد كمن أربعة رجال بجانب الطريق في النقطة التي يلتقي فيها الدرب ، عبر السهل الفيضاني ، مع الغابة الرئيسية على الأرض المرتفعة . وضع الكمين بعناية على الطرف البعيد لحفيرة مياه صغيرة ، وعبر ساحة فسيحة منبسطة ذات مجال جيد لإطلاق النيران . لكن الكمين كان قد تم هجره قبل وقت قصير من وصول جماعة سين إليه .

وقال سين : «يبدو أنهم يخلفون وراءهم حرسًا متحركًا كمؤخرة » . وأحس سين باضطراب لمدى الخطر الذي عرض رفاقه ونفسه له بهذه المطاردة الخرقاء اللامبالية .

على الأرض من حولهم ظهرت آثار قائمتي مدافع المكنة الخفيفة من طراز (آر بي دي) واضحة على التراب . هذه المدافع ذات القائمتين ، والتي تعتبر رغم بساطتها من أمضى أسلحة الفوريللا وأشدها فتكًا . فإذا قاد رجاله إلى تلك الحفيرة ، بينما ذلك السلاح يحرسها ، فإن الأمر لن يستغرق سوى ثوان للقضاء عليهم . لقد دفع رجاله بكل عنف للطراد ولم يتبع أي خطوات احترازية ، ولو على المستوى الأدنى . فلقد أفقده اهتمامه بأمر كلوديا كل قدراته على التفكير المتوازن والحكم السليم وحسن تقدير الوضع .

لقد انسحبت رينامو قبل وصولهم للحفيرة بوقت وجيز . وقامت رينامو، بتقدير ممتاز وصائب ، بتحديد الوقت الذي سيصلون فيه إلى الحفيرة بدقة تامة. ولما لم يكن هناك وقت ، فلابد أن رجال مدفع الـ (أر بي دي) قد تراجعوا وأعادوا نصب الكمين على مسافة من الدرب الذي سارت عليه رينامو ، حتى لا يبعدوا كثيرًا عن جماعتهم الرئيسية . وأمر سين جماعته بنوع من التردد :

«حماية الأجنحة » ، واستعدوا لاحتمال وجود كمين » .

لاشك أنهم بهذا الإجراء سيبطئون من سرعتهم لنصف معدلها وسيكون من المستحيل عليهم اللحاق برينامو قبل حلول الليل . ثلاثة رجال عدد قليل بلا شك ، فإذا ترك متاتو لقصي الأثر فلابد أن يكون بميولا وسين على الأجنحة . وليس لديهم سوى سلاح ناري واحد من عيار ثقيل وغير سريع عند إطلاق النار منه . وهم ذاهبون وراء جماعة من محاربي الأدغال ، مسلحين بأسلحة أوتوماتيكية ، وكانوا أيضًا ليتوقعون وصولهم إليهم .

وحدث سين نفسه : « إن ما نقوم به هو اسم آخر للانتحار » . لكن ، ورغم العقبات ، كان عليه أن يسيطر على نفسه ويبطئ من خطاه ، ومن أمامهم صفر متاتو . كان في تلك اللحظة بعيدًا عن نظر سين ورغم أنها لم تكن إشارة للخطر ، إلا أن سين انبطح على بطنه وتفحص ما أمامه ونظر إلى الجناحين قبل أن ينهض مرة أخرى ويتوجه إليه .

كان متاتو متربعًا بجوار الدرب وقد ألقى بملحفته بين رجليه ، وكانت على وجهه تعابير القلق والاستغراب . مد إصبعًا نحو الأثر الذي أمامه بدون أن يفتح فمه بكلمة ، وعرف سين في الحال ما أزعجه وقال منفعلاً : «من أي جحيم أتى هؤلاء أيضًا ؟ » . كان احتجاجًا أكثر منه تساؤلاً. لقد تضاعفت العقبات من أمامهم ولعدة مرات . وللمرة الأولى شعر وكأن على كتفه أثقال عارمة من رصاص اليأس .

فلقد تم دعم المجموعة الأصلية لرينامو بعدد أكبر . وبدا لوهلة أن فصيلة مشاة كاملة قد جاءت مددًا لهم . وسأل متاتو :

«كم عددهم ؟ » .

وفي هذه المرة لم يستطع حتى متاتو أن يعطي رقمًا حقيقيًا ، فلقد تداخلت آثارهم واختلطت تمامًا .

أخذ متاتو نشقة من السعوط ، وهو عرف يقوم به عندما تختلط عليه الأمور. ثم عطس وسالت الدموع من عينيه فمسحها بإبهام يده . رفع متاتو أصابع يديه العشرة وقبضهم أربعة مرات .

- أربعين ؟

عبس متاتو معتذرًا ومد يديه مفرودتين الأصابع مرة أخرى .

- بين أربعين إلى خمسين ؟

تناول سين زجاجة الماء ورشف منها جرعة . كان الماء ساخنًا كالحساء فمضمض فمه به قبل تناول جرعة . ووعده متاتو :

« سأعطيك العدد بالضبط بعد قليل عندما أتعرف عليهم جميعًا . لكن الآن... » ثم بصق على آثار الأقدام المختلطة والحزن يكاد يقتله لشعوره بفشله . وسأله سين ثانية :

- كم نبعد عنهم ؟

واستخدم متاتو أصبعه السبابة محاكيًا عقرب الساعة وأشار للسماء . ترجم سين هذه الإشارة : «ثلاثة ساعات . لن نلحق بهم قبل حلول الظلام » .

وعندما غربت الشمس أخبرهم سين :

« سنتناول بعض الطعام وننتظر حتى بزوغ القمر » ، لكن ، وحتى بعد أن بزغ القمر ، كان خيطًا من فضة سرعان ما غطاه السحاب . ولم يكن هناك أي ضوء يكفي لاستئناف مطاردتهم أو متابعة ذلك الأثر الواضح لرينامو . وبدأ سين يقلب في رأسه فكرة متابعة السير ـ كالعميان ـ أثناء الليل حتى يتجاوزهم آملاً أن يجد فرصة ، بضربة حظ ـ ليصل إلى كلوديا وجوب ويطلق سراحهما . لكنه قال لنفسه متهكمًا : « لاشك أن هذا حلم ملون بالألوان الطبيعية ! » .

كانوا قد ظلوا ، طوال الأيام الماضية ، سائرين بشدة واندفاع ، وقد وصلوا الآن لقمة الإرهاق والتعب . فإذا ما واصلوا متخبطين في الظلام ، سيرهم ، فلا شك في أنهم إما سيقعون فريسة لدوريات رينامو الليلية أو يتخطونهم تمامًا . ووجد سين نفسه مجبرًا على أخذ قسط من الراحة ينامون فيها . ولأن رينامو تعرف بأنهم يتابعونهم ، فربما أرسلوا فصيلة منهم لتفاجئهم .

ذهب سين لمكان مناسب لقضاء الليل فيه ، بعيدًا عن الدرب ، في وسط أجمة شوكية يمكن أن تعطل أي مهاجم يحاول التسلل إليهم . كانوا في حالة سيئة ومحتاجون لأي قسط من الراحة ، لذا اعتمد على حاجز الشوك ليحميهم بدلاً من استنفار جماعته للحراسة . كان الليل قارس البرودة .

فرقدوا متلاصقين يستدفئون بدفء أجسامهم . وكان سين على وشك النوم عندما ناداه متاتو هامسًا :

«هناك واحد منهم ...» بدأ متاتو همسة ثم توقف . أما سين ففتح عينيه في إذعان وقال له نصف نائم :

«أخبرني» .

ـ هناك واحد من أولئك الرينامو كنت قد رأيته من قبل .

استيقظ سين تمامًا :

«أتعرف واحدًا منهم ؟ » .

ـ أعتقد ذلك . لكن كان ذلك منذ وقت من الزمن ولا أتذكر أين كان ذلك .

صمت سين وهو يقلب في ذهنه هذا التصريح البسيط وما يعنيه بالضبط . إنه قطعًا لا يستطيع أن يتذكر إلا بصعوبة شديدة وجوه الأشخاص الذين التقى بهم ، مثلاً ، في السنوات العشرة الأخيرة . وها هو متاتو يتحسر لأنه لم يتعرف في الحال على أثر قدم واحد من تلك الأقدام ، والتي لم يرها إلا قبل سنوات عدة ، ووسط غابة من آثار الأقدام .

ورغم أنه كثيرًا ما شاهد متاتو وهو يتعرف بصورة فذة خارقة على أثر

كهذا ، إلا أنه هذه المرة شعر بشيء من الشك فيما يقوله . ابتسم في الظلمة وقبض على عنق متاتو وهز شعر رأسه الصوفي وخلله بأصابعه بعاطفة جياشة وقال له :

« اذهب لتنام أيها الشحاذ المخبول الضئيل وستحلم باسم الشخص غالبًا أثناء نومك » .

امتلأت أحلام سين بكلوديا . كانت تجري عارية خلال غابة مظلمة أثناء نومك » .

امتلأت أحلام سين بكلوديا . كانت تجري عارية خلال غابة مظلمة وكانت الأشجار سوداء خالية من الأوراق وذات فروع ملتوية ، وكانت الذئاب تطاردها . كانت ذئابًا سوداء مثل الليل ، ذات أنياب بيضاء مشرعة ، والسنة حمراء متدلية من فكوكها ، وكانت كلوديا تنادي عليه أثناء فرارها ، وكان جسمها شاحبًا براقًا كالقمر . حاول أن يصل إليها لكن أرجله ساخت وكأنه سقط في حفرة مليئة بالمولاس اللزج ، وحاول أن ينادي على اسمها لكن لسانه كان مكبلاً ثقيلاً كأنه صنع من الرصاص ولم يخرج أي صوت من فمه.

استيقظ ويد تهز كتفه بعنف ، وحاول أن يصرخ مناديًا لها مرة أخرى ، لكن صوته خرج مشوشًا كالثمل .

هزه متاتو مرة أخرى : « استيقظ فإنك كنت تئن وتصرخ وستسمعك جماعة الرينامو » .

جلس بسرعة على الأرض ويدا وكأن البرد قد جمد عضلات ساقيه ، وكان الفزع من ذلك الحلم لا زال عليه . لعدة ثوان لم يستطع أن يركز على ما حوله أو يتذكر أين هو : ثم شعر بالضعة والهوان وخاطب نفسه :

« لقد تجاوزك الزمن يا وليد » . فالجندي الكشاف عندما ينام لا يحدث صوتًا ، ويستيقظ لأقل حركة ، وإلا قطعت رقبته أثناء دمدمته وشخيره . وهمس متاتو :

« بعد قليل سينقشع الظلام ويبدأ الضوء» . كانت شقشقة الطيور قد بدأت بالفعل وملأت أركان الغابة وصار ممكنًا أن يرى أغصان الشوك المتشابكة على الأفق .

نهض سين وقال لهم : «هيا بنا »

وبينما كانت الشمس لا زالت على الأفق الشرقي ، والندى يبلل أوراق العشب ، وصلوا إلى مجرى النهر الجاف الذي قضت فيه رينامو الليلة الماضية لقد تحركوا مع أول شعاع للفجر ولابد ألا يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا عنهم .

التقط متاتو آثار أقدام كلوديا على الرمل الناعم لمجرى النهر الجاف وأوضح لسين إنها تتحرك بألم بسيط الآن وقال له :

«يبدو أن ساقها قد شفيت لكن جوب وديدان يواصلان حملها . فهنا ، في هذه البقعة من الأرض، صعدت إلى نقالتها ».

ترك متاتو الأثر الأنثوي الواضح وحوم حول آثار أقدام أخرى أكبر حجمًا ، لم يميز سين أحدها من الآخر ما عدا أن من تركوا هذه الآثار كانوا يرتدون بوتات عالية وعلى أسفل النعال علامة مزدوجة بشكل عظام الساردين .

وقال متاتو بهمس :

« إنني أعرفه . إنني أعرف الطريقة التي يمشي بها هذا الشخص » . ثم هز رأسه محبطًا واستدار بعيدًا .

واصلوا سيرهم ولكن بمزيد من الاحتراس والحذر . قادهم الدرب مباشرة باتجاه الأرض المرتفعة المحاذية لجرف الوادي وسرعان ما وصلوا لحافة التلال . وفي هذا الموقف ، فإن أي قائد يقود طابور الدينامو لابد أن يكون عارفًا لوجهته تمامًا .

كان سين يتوقع في أي لحظة الاحتكاك بمؤخرة طابور الدنيا مو ، وكان يرتق من مجرد التفكير بأن أول إنذار سيتلقاه سيكون على صورة الطقطقة الملعونة لقذائف مدافع المكنة الخفيفة (آر بي دي) ، والتي ستطلق عليهم بمعدل ستمائة طلقة في الدقيقة . فهنا وسط الجبال فإن أي صخرة ناتئة ، أو أي منخفض بالأرض ، قد يكون مخبأ للعدو ، وبالتالي عليه أن يستكشفه جيدًا قبل أن يتجاوزه.

ورغم نفاذ صبر سين وتميزه بالغيظ إلا أنه سيطر على نفسه وأبطأ من اندفاعه نحو تلك المناطق الوعرة .

دار حول منعطف لتل صغير آخر . ومن خلال أشجار المساسا الزاهية رأى أمامه سهلاً مفتوحًا يؤدي مباشرة إلى الجرف المحيط بسفح السلاسل الجبلية . وغمغم سين : «هذه هي . فهناك سيكونون في انتظارنا » .

كان أثر دربهم يقود مباشرة صوب ممر يخترق الجرف ، وكان مدخل الممر محاطًا بصخور من حجر أحمر . أما قلب الممر فكان خاليًا من الأشجار ومن أي غطاء للتستر والحماية ، رغم أن جوانبه كانت محاطة بشجيرات كثيفة. لقد كان فخًا مثاليًا وأرضًا للقتل غير عادية .

صفر متاتو من الوسط . واستدار سين منحنيًا ومبتعدًا عن القمة وهو يجري للحاق به . ومن منتصف المسافة كان منظر قلبي الوادي واضحًا ورأى سين تحركاتًا غامضة تحت غطاء من الحجارة والأعشاب المصفرة اللون . رفع منظاره

إلى عينيه ورأى أن تلك التحركات ما هي إلا طابورًا من الرجال .

كانوا يكافحون للوصول إلى أعلى المنحدر في طابور واحد وكان معظمهم يرتدي لباسًا مموهًا بخطوط كجلد النمر وقبعات الأحراش ، أما بعضهم الآخر فكان يرتدي أردية من الكاكي أو القطن بدون تمويه . كانت مقدمة الطابور قد وصلت إلى أجمة الأشجار من على بعد ثلاثة أميال على الأقل من مقدمة الوادي . ومن خلال منظاره وجد سين أنهم اثني عشرة رجلاً .

كانت النقالة في وسط الطابور وكان يحملها أربعة منهم ، اثنين في الأمام واثنين من الخلف . وحاول سين التقاط وجه كلوديا ولكن ، وقبل أن يضبط عدسات منظاره ، كانت النقالة وحاملوها قد وصلوا لمنطقة الأشجار واختفوا هناك .

أنزل سين منظاره ومسح عدساته بمنديله . كان بميولا قد عاد من الجناح الآخر وجلس هو ومتاتو على الصخور التي تتخللها الشجيرات يدرسون الأرض المقابلة لهم بصمت وعبوس . ومرة أخرى رفع سين منظاره وأخذ يتفحص تلك المنحدرات الكثيرة الشجر . إنه أفضل مكان لنصب كمين لهم ويمكن لرينامو أن تحصر سين وجماعته بين النيران الموزونة الثابتة وبين النيران المتقاطعة إذا ما حاولوا لتسلق جانب الوادي .

وتساءل سين بدون أن ينزل منظاره :

« كم رأيت منهم ؟ وهل توجهوا جميعهم إلى الأشجار التي على مدخل الوادي ؟ » .

فأجابه بميولا مغمغمًا :

«لقد رأيت قلة منهم » .

بصق متاتو على الأرض وقال : «ماسيش» . كان يشير إلى التفل الذي يتخلف في الوعاء الذي تصنع منه بيرة الذرة (المشك) والتي بعد تخمرها ، يقوم صيادو السمك من قبيلة الباتولكا باستعماله كطعم لاجتذاب أفواج سمك البلطي ، لتدخل في المياه الضحلة لبحيرة كاريبا .

ويصق مرة أخرى وقال :

« ما هذا الوادي إلا فم تمساح . إنهم يريدوننا أن نضع رؤوسنا بداخله » .

عاد سين لدراسة الوادي وجوانبه ومدخله مرة أخرى ولكن بتأن شديد هذه المرة . لا ينزل المنظار من عينيه إلا ليريحهما وليمسح العدسات . بدأ بقمة المنحدر وأخذ يمسح ما تحتها حتى وصل إلى القاع ثم عاد مرة أخرى ليفحص القمة معيدًا نفس العملية ومكررًا لها مرات ومرات . حاول الا يفكر في صورة النقالة

أو في تلك الهيئة الصغيرة التي ظن إنه رءاها عليها صب جل اهتمامه على تفحص المنطقة تلك وبعد عشرة دقائق جوزي صبره .

فقد رأى وميضًا خاطفًا لضوء الشمس وقد انعكس على عدسة نظارة ، أو زجاجة ساعة يد ، أو زوج من عدسات نظارة ميدان .

دلى منظاره وخاطب متاتو :

«ها هم هناك . نعم يا متاتو . أنت على حق . لقد وضعوا الطعم تمامًا كما قلت ، وهم الآن في انتظارنا » .

جلس خلف الصخرة ، وبدأ في التفكير في الحالة التي هم فيها بعقلانية وتمهل . لكن صورة كلوديا ظلت تتخلل تفكيره وتشتت تعقله . وصل إلى استنتاج واحد مؤكد ، وهو أنه لا فائدة من مواصلة تتبعهم .

كان متاتو وبميولا ينظران إليه بعيون متقدة بالثقة العمياء فيه . فلحوالي عشرين سنة مضت لم يروه أبدًا في مثل هذه الحالة من الضياع . كانا ينتظران بصبر أن يقوم سيدهما بمعجزة أخرى .

كان الأمر مثيرًا لغيظ سين وحنقه فقام من مكانه وذهب عبر التلة ليقلب الأمر بعيدًا عن هذه العيون الوفية المصوبة عليه . ووجد مكانًا مخفيًا بعناية ، وفي نفس الوقت يمكنه منه أن يرى ما حوله بوضوح ، وحيث لا يمكن لأحد أن يتسلل إليه دون أن يراه ، وجلس هناك والبندقية (٥٧٧) عبر حجره وأخذ يقلب الفكر في جميع الخيارات المتاحة له .

كان أول خيار استبعده من القائمة التي في رأسه هو في قيامه بهجوم على طابور الدينامو . فحتى وبدون القوة الضئيلة التي معه ، كان عليه أن يأخذ في الاعتبار الرهائن التي بأيدي الرينامو. فحتى لو كان معه فرقة من جنود الكشافة بكامل سلاحهم فإنه أيضًا لن يستطيع الهجوم .

وسأل نفسه : «إذن ماذا أؤمل نيله بمتابعتي لهم ؟ أهي فقط لإرضاء هذه النزوة الصبيانية ، لأكون بقدر الإمكان مع كلوديا مونتيرو ؟ » .

ربما كانت أفضل وسيلة لإنقاذ الأسرى من قبضة رينامو لا تكمن في تدخله هو ، بل في مباحثات دبلوماسية يقوم بها أصدقاء رينامو المعروفين وخاصة حكومة جنوب إفريقيا في بريتوريا . وحتى الجنوب إفريقيين لن يتمكنوا من تحقيق أي شيء طالما كانوا يجهلون أن مواطنة أمريكية هي أسيرة لدى الرينامو .

وتوصل سين لقراره الأول : «حسنًا . يجب على توصيل رسالة إلى السفارة الأمريكية في هراري» . وفي الحال تبين له أن إرسال الرسالة تلك سيزيح عن كاهله همه الرئيسي الآخر . فمتاتو وبميولاهما من مسؤوليته . كان يقودهما

حتى الآن إلى وضع انتحاري ، ولقد ظلا باستمرار يؤرقان ضميره كلما اقتربوا من خطوط ريناموا . أما الآن فقد وجد العذر المناسب الذي كان يبحث عنه :

«سأرسلهما عائدين إلى شيوبوي برسالة إلى ريما » . فتح غطاء الكيس على ظهره وتناول النوتة المغلفة بالجلد وبدأ يفكر فيما سيكتبه .

كانت ريما محتفظة بكل ما يتعلق بالمعلومات الخاصة بريكاردو وكلوديا في ملفات السفاري لديها. كل شيء بدءًا من أوصافهم وحتى أرقام جوازات سفرهم . كان ريكاردو رجلاً مهمًا وذا نفوذ في بلده . لن يخبرها سين بأنه قد مات ، ولكن سيشير ضمنًا في رسالته لها أن كلا من الأب والإبنة أسرى لدى ريناموا . كان واثقا من أن سفارة الولايات المتحدة ستتصرف بسرعة وستكون على اتصال مع بريتوريا خلال ساعات من تلقيها النبأ .

كان يعلم بالطبع ، ومنذ فرضت الولايات المتحدة العقوبات على جنوب إفريقيا ، أن العلاقات بين واشنطن وبريتوريا كانت في أدنى مستوياتها في التاريخ ، وأن نفوذ حكومة الولايات المتحدة على جنوب إفريقيا لم يعد بالقوة التي كان عليها من قبل . لكن ، وعلى أية حال ، فيمكن الاعتماد على توسط بريتوريا مع ريناموا على أسس إنسانية بحتة .

وقع سين على الرسالة : « أوكي . بهذه الطريقة أكون قد أخرجت متانو وبميولا من هذه الورطة» . قطع الورقة من دفتره وطبقها . ثم ، وبعد أن فكر ثانية ، كتب ورقة أخرى ملأها بالتعليمات لريما والخاصة بنصف المليون دولار المستحقة له على حساب أملاك ريكاردو . كان عليها أن ترسل هذه التعليمات لمحامي سين .

ثم كان عليه أخيرًا أن يتخذ القرار الخاص به شخصيًا . كان يمكنه أن يجري عائدًا للحدود ويحمل الرسائل بنفسه وخلال يومين أو ثلاثة سيكون مرتاحًا بفندق مايكلس بهراري يحتسي البيرة ، ويتأمل في كيفية إنفاقه لنصف مليون كابو . هذا هو الشيء المعقول والمنطقي . لكنه كان قد استبعد هذا الافتراض تمامًا من مخيلته وقبل أن يوليه أي اعتبار :

« سأتابع الطابور بمفردي وأصبر حتى أجد فرصة فيهم » . ابتسم لسخف قراره وساءل نفسه مستغربًا : «أي فرصة ؟ أهي فرصة لأشق طريقي وسط معسكر مكتظ بأكثر من خمسين إرهابيًا ومعي بندقيتي ٥٧٧ العتيقة ، لأحرر الأسرى الثلاثة ، ثم أقوم بدورة هائلة لأعود بهم مائة ميل إلى الحدود ، حاملا كلوديا ، برجلها المعطوبة ، على كتفي ؟! » .

أصلح الحزمة وسدها على ظهره ووقف ثم عاد إلى المنحدر حيث كان متانو وبميولا يراقبان الجرف وهما راقدان على بطونهما . انبطح بجوار متانو متسائلا:

«أي شيء؟» . هز متاتو رأسه . وظلا صامتين لعدة دقائق استجمع فيها سين شجاعته ليخبر متاتو بأنه سيرسله إلى شيويوي . وقبل أن يتم ذلك أخذ يحدق خلال المنظار على تلك النقطة عبر الوادي الطويل والتي يعرف أن رينامو قد أعدت لهم كمينها فيه . كان متاتو قد أحس بأن نبأ غير سار يختمر في عقل سين ، وظل ينظر إليه وتعابير التوجس والقلق في عينيه لكن ، وعندما استدار سين أخيرًا نحوه ، انفجر متاتو فجأة وتهلل وجهه بابتسماة مشرقة ، واهتز جسمه كله برغبة عارمة لكسب رضي سين ، ولإبعاد شبح النبأ الذي كان سين على وشك أن يخبره به . وقال لسين بحماس شديد : «لقد تذكرت . لقد تذكرت من هو الرجل » .

قطب سين جبينه مندهشًا ، وقد أخذ على غرة : «من . من الذي تتحدث عنه ؟ » .

رد عليه متاتو مسرورًا : «قائد الدينامو . أخبرتك بالأمس أنني تعرفت على آثار أقدامه وقد تذكرت الآن من هو » .

سأله سين متشككًا ومستعدًا لرفض المعلومة قبل النطق بها : «من هو إذن؟» . فومضت عينا متاتو ونظر إلى سين :

«أتتذكر عندما هبطنا بالمظلة من (الإنديكي) لنهاجم معسكر التدريب عند ملتقى النهرين ؟».

أومأ سين برأسه مترقبًا . وواصل متاتو :

«أتذكر كيف قتلناهم في مجرى النهر الجاف ؟ » .

قهقه متاتو للذكرى المبهجة تلك :

« أتذكر ذلك الشخص الذي أمسكنا به عندما كان يحاول إحراق كتبه؟ الشخص الذي رفض السير وقمت بتحطيم أذنه ؟ » .

تهلل وجه متاتو ضاحكًا على هذه النكتة العظيمة :

« وخرج الدم من أذنه وأخذ يصرخ كالعذراء ليلة زفافها » .

- أتقصد الرفيق تشاينا ؟

«تشاينا . نعم هو ذاك » . أجابه متاتو وهو يعاني من صعوبة نطق ذلك الاسم .

هز سين رأسه متشككًا :

« مستحيل . إنه ليس تشاينا . هذا ليس ممكنًا أبدًا » .

اضطر متاتو لتغطية فمه ليكتم صرخات السرور والضحك . كان يحب أن يثير إعجاب سيده ودهشته ولم يكن هناك نكتة ألذ من هذه عنده .

«تشاينا !» . أخذ يبقبق بطرب ووضع إبهام يده بداخل أذنه وقال : «باو !». وكاد أن يختنق من شدة ابتهاجه : «الرفيق تشاينا» .

نظر إليه سين وكأنه لا يراه ، بينما كان يهيئ ذهنه لاستيعاب هذه المعلومة الاستخباراتية غير المنتظرة . كانت كل حواسه ترفض القبول بها . لكن متاتو كان لا يقع في مثل هذه الأخطاء .

وتنفس سين بهدوء : «الرفيق تشاينا ! سيؤثر هذا بلا شك على ميزان القوى».

رجع بذاكرته إلى ذلك اليوم البعيد . لقد ترك الرجل انطباعًا عليه لدرجة إنه ، وسط الأحداث المتلاحقة والمتداخلة لتلك المعركة الدموية السريعة ، كان لا يزال يحتفظ في ذاكرته بصورة واضحة للرفيق تشاينا . تذكر تقاسيم وجهه النيلية الوسيمة وعيونه السوداء الذكية . لكن معالمه الجسمانية كانت ضبابية مقارنة بما يتذكره سين عن قدرة ذلك الرجل على التعبير عن الإحساس بالثقة ووضوح الهدف . كان رجلاً خطرًا وقتذاك وتوقع سين أن يكون الآن أكثر خطورة ومنعة وحنكة .

هز سين رأسه . فعندما كان في فرقة الكشافين كان يطلق عليه لقب (كورتني المحظوظ) ، وبدا الآن وكأنه قد استنفذ كل مخزونه من الحظ . فلو ترك له الخيار ، لما اختار أبدًا رجلا لقيادة طابور الرينامو مثل الرفيق تشاينا .

أما متاتو فقد بدأ طربه يخف قليلاً ودخل الآن في طور السعال الذي أعقب ذلك الضحك ثم ضغط على بطنه العارية وعلى حلقه بينما دخل ثانية في نوبة تلو أخرى من الضحك ، والذي كان يقطعه بسعال شديد . لم يشفق عليه سين بل أخبره بخشونة :

«سأرسلك عائدًا إلى شيويوي» . وتلاشت في الحال ضحكات متاتو ونوبات سعاله . حدق في سين بيأس شديد وبعدم تصديق . ولم يستطع سين أن يواجه تلك الأعين ولا الاتهام التراجيدي الذي بدا عليهما .

التفت إلى بمويلا وقال له بجفاء : «عليك أن تسلم هذه المذكرة للشيف بالمعسكر . أخبره أن ينقلها بالراديو إلى ريما في هراري . سيقودك متاتو إلى هناك . لا تتوقف في الطريق ولو لتنظيف أنفك . هل تفهمني ؟» .

- مامبو !

كان بميولا من قدامي جنود الكشافة ، وهو يطيع أوامر قائده بدون جدل أو سؤال . وأمرهما سين :

« حسنًا . لتذهبا . إذهبا الآن» . مد بميولا يده اليمنى وصافح سين بالطريقة الإفريقية : يتصافحان بالأيدي ثم بالإبهام ثم الأيدي مرة أخرى . تسلل بميولا

زاحفًا على الجرف وعندما ابتعد عنه قفز على قدميه وهرول بعيدًا ولم ينظر للوراء مرة أخرى .

وأخيرًا أجبر سين نفسه على النظر إلى متاتو . كان قد انطوى متربعًا على الأرض ، محاولاً أن يجعل من جسمه الضئيل أكثر ضئالة حتى يتفادى عيون سين . وأمره سين بغلظة :

«قلت لك إذهب . قد بميولا إلى شيويوي » .

نكس متاتو رأسه وارتجف وكأنه جرو قد ضرب .

زأر فيه سين : «أغرب عن وجهي قبل أن أرفس مؤخرتك السوداء ! » ، رفع متاتو رأسه ، وكان على عيونه حزن مأساوي وتعبير عن القنوط لا يوصف . أراد سين أن يضمه ويحتضنه لكنه بدلاً عن ذلك قال له ووجهه ينطق بالشر :

« قلت لك اذهب من هنا ، أيها الوغد الضئيل المخبول ! » .

وزحف متاتو لعدة خطوات ثم توقف ونظر متوسلاً نحو سين . رفع سين يده مهددًا وصاح فيه : إذهب !

وتقبل الرحل الضئيل أخيرًا ما تحتم عليه ، وانسل نازلاً من المنحدر . وقبل أن يختفي خلال أجمة الأشجار أسفل المنحنى أبطأ قليلاً ثم نظر وراءه مرة أخرى ليرى أي ملامح على سين من ضعف أو تشجيع . كان صورة مجسمة للإحباط والهزيمة .

أدار سين ظهره إليه متعمدًا ، ورفع منظاره متفحصًا للأراضي من حوله ، وبعد بضع ثوان غامت الصورة ومسح عينيه من الدموع . وبالرغم منه نظر خلف ظهره بسرعة . كان متاتو قد اختفى . وانتابه شعور غريب بالوحشة لعدم وجوده معه . وبعد بضع دقائق رفع سين منظاره مرة أخرى وعاود النظر فيما حوله ، وأبعد متاتو من مخيلته .

وعلى جانبي مدخل الوادي الطويل ، كانت الصخور الحمراء تمتد لأبعد مدى يمكن لسين أن يراه . كانت مرتفعة لحد ما ، لكنها تصل في أدنى ارتفاعها إلى بضع مئات من الأقدام وكانت راسية منتصبة وبعض صخورها متدلية ، ومن تحتها طبقات خفيفة من الصخور التي نحرتها مياه الأمطار ، مشكلة كهوفا أفقية صغيرة .

كان مدخل الوادي مغريًا وكأنه نبات مفترس للحشرات ، فاتح فمه لافتراسها . أما الصخور فكانت وعرة كالحة غير قابلة للاختراق . وركز سين منظاره عليهم ماسحًا كلا الجانبين لأبعد مدى يمكن أن يشاهد ، فربما كان من الضروري أن يتحرك لعدة أميال عبر الصخور ، عله يجد وسيلة لتسلقها ، رغم أن ذلك سيأخذ منه وقتًا ثمينًا . واستمر في مسحه لها بالمنظار عائدًا لنفس

النقطة مرة بعد أخرى . فعلى بعد ربع ميل ، على الناحية اليمنى لأقرب ممر بين صخور الوادي ، كان هنالك طريق يبدو أنه قد يصلح للتسلق إليه . لكن لن يكون الأمر سهلاً بدون رفيق معه وبدون أي أدوات لتسلق الجبال ولو في حدها الأدنى . سيعاني أيضًا صعوبة من جراء البندقية التي يحملها والحزمة التي على ظهره ، كما أن عليه أن يبدأ محاولته تلك خلال الظلام ، إذ أن محاولته لتسلق ذلك الجانب من الجبل ، في وضح النهار ، سيجعله منصة لتدرب على إطلاق نيران بنادق (إي كي) عليه .

ثم رأى ، من خلال منظاره ، دعامة صخرية تشبه الكتف على الجبل وكأنها مخرج للهروب من الحرائق بمبنى عال . وبدا أنها تتيح له طريقًا ليلتف حول الصخور المعلقة على شفا الهاوية . من فوقها رأى أنها تؤدي إلى إفريز أفقي يمتد لمئات الأقدام ، في كلا الاتجاهين . ومن على الدهليز بدا أن هناك ممرين يؤديان إلى قمة الجبل ، أحدهما كالمدخنة بشكل شق ضيق على جانب الجبل، والثاني بشكل حافة امتدت على جوانبها جذور مكشوفة ، متشابكة كالثعابين ، لشجرة جميز ضخمة طويلة غطت الأفق من ورائها وقد زحفت جذورها وتلوت على جانب الصخور الحمراء، وكأنها عش لأصلات تتزاوج ، وهيأت شكلاً كالسلالم يؤدي إلى قمة الصخرة .

نظر سين إلى ساعة يده ووجد أن لديه حوالي ثلاثة ساعات يرتاح فيها قبل أن يكون الظلام كافيًا ليبدأ محاولته . وشعر فجأة بإرهاق شديد ، لم ينشأ فقط من مواصلة الطراد ومشاقه ، بل أيضًا من جراء إنفعاله العاطفي الشديد ، عندما لمح كلوديا وجوب وهما بين طابور الدينامو ، ولفراقه لمتاتو .

تراجع عن الجرف وأخذ يزيل في آثار أقدامه ، وبحث عن مكان آمن يختبئ فيه لما تبقى من النهار . وعندما وجد مخبأ مناسبًا وسط الصخور والأحراش ، وبه منفذ للانسحاب عند اللزوم ، أرخى رباط حذائه ليريح أقدامه لكنه احتفظ بالبندقية على حجره ورقد من فوقها . تناول قطعة من خبز الذرة وصباعًا من البروتين من صرته وشرب جرعات من الماء من زجاجته بعناية ورقد . كان يعرف إنه سيستيقظ عندما تمس الشمس حافة الأفق الغربي . وأقفل عينيه، وسقط نائمًا في الحال .

❖ ❖ ❖

في رحلة العودة إلى شيبيوي ، قاد متاتو بميولا بسرعة وثبات وظلا يهرولان طوال الليل ولم يتوقفا إلا ظهر اليوم التالي ليملأ زجاجات مائهم من البركة التي كانا قد عثر فيها على توكوتيلا عند الاستكشاف الجوي بالطائرة .

أراد بميولا الاستراحة قليلاً لكن متاتو لم يكترث له بل توجه نحو الغرب

ومضى بتلك الهرولة مطرقعًا برجليه المغضنتين على الأرض ، وما كان من بميولا إلا متابعته . عبر الحدود بين موزمبيق وزمبابوي خلال اشتداد ظلمة الليل ووصلا إلى معسكر شيويوي في منتصف نهار اليوم التالي .

أثار وصولهم للمعسكر هلعًا عظيمًا . وحتى الشيف ، نسي في غمرة اضطرابه ، أن يلبس طاقيته الطويلة وجلبابه الأبيض قبل أن يهرع نحوهما ، خارجًا من كوخه ، لحييهم وليسأل عن أخبار المامبو .

ترك متاتو لبميولا مهام تسليم رسائل سين والإجابة على سيل أسئلتهم ومضى لكوخه ودخل في فراشه وتمدد فيه كالجرو ؛ ذلك الفراش العتيق من الليف الكثيف على سرير من الحديد كان قد أهداه سين إليه ، والذي يعده متاتو من أقيم ممتلكاته الشخصية . نام رغم كل الضجيج والصخب الذي انتاب المعسكر ، وحتى صراخ الشيف في الميكروفون ، محاولاً الوصول إلى ريما في هراري ، فقط برفع صوته لأقصى مداه عبر حوالي ثلاثمائة ميل عنه ، لم يوقظه .

كان قد نام لخمسة ساعات عندما استيقظ ، وكان كل شيء في المعسكر صامتًا ومظلمًا . أعاد ترتيب متعلقاته الشخصية في جرابه الجلدي ، والتي كانت كل ما يملك ، ثم تناول ما تبقى من مخزونه من السعوط الثمين من تحت مرتبته وملأ به القرن المدلي على عنقه .

ثم زحف بهدوء متسللاً من المعسكر وقاطنيه النائمين . وعندما ابتعد عنه لمسافة معقولة اعتدل واقفا وواجه الشرق وقال محدثًا نفسه بسعادة :

«أيها الشحاذ المخبول الضئيل ! » .

وبدأ يجري عائدًا إلى مكانه الطبيعي ، وبجانب الرجل الذي أحبه أكثر من أبيه وأمه .



استيقظ سين ، وهواء المساء قد انخفضت حرارته لدرجة البرودة . وعلى البعد بدأت ألوان منحدرات الجرف الصخرية تتحول إلى اللون الشاحب الداخني للفسق . تمطى سين وتلفت حوله لمتاتو لكنه تذكر إنه قد عاد لشيويوي ، وشعر بانقباض في أعماق فؤاده . ربط سيور حذائه وشرب جرعة أخرى . وعندما أقفل سدادة الزجاجة رفعها لأذنه وهزها . لا زالت نصف ممتلئة .

فتح بندقيته (٥٧٧) وأخرج الرصاصات من غرفتيهما واستبدلهما باثنتين من حزام رصاصه المعلق على سترته . واعتصر حوالي بوصة من كريم التمويه من أنبوبته المغضنة ومسح به وجهه وظاهر يديه ، وبهذا اكتملت استعدادته ، فوقف وذهب بهدوء إلى أعلى المنحدر .

أمضى العشرين دقيقة التي تبقت من ضوء النهار يتأمل بمنظاره مدخل الوادي وقمم المنحدرات الصخرية ، ولم يجد أن شيئًا قد تبدل . ثم بدأ يدرس ويحفظ في ذاكرته ذلك الطريق الوعر الصاعد إلى الصخرة .

وعندما أسدل الليل ستوره على الجرف تسلل بهدوء على الصخور ، وأخذ يزحف باتجاه قاعدة المنحدرات الصخرية . كانت الأشجار غزيرة ومتشابكة بها مما أخذ منه وقتًا أكثر مما قدره ليصل إلى الحائط الصخري .

كان الظلام تامًا في ذلك الوقت ، لكنه كان قادرًا على التعرف على نقطة البداية التي سيصعد مها ، وذلك عن طريق شجيرات قصيرة ، كانت بارزة من شق على المكان الذي كان قد حدده واستوعبه تمامًا .

لم يستعمل سين أبدًا علاقة لحمل بندقيته . فالعلاقة الحاملة قد تؤدي إلى خطر قاتل إذا ما تعلق الحزام بفئ شجرة مثلا في اللحظة التي يهجم عليه فيها جاموس هائج أو فيل جريح . ربط بندقيته القصيرة مع كيس نومه ومتعلقاته وشدهما على ظهره ، وبرز مؤخر البندقية من جانب ن والمراسير من الجانب الآخر ، مشكلة حملا غير متوازن على ظهره . توجه صوب صفحة الصخرة ووضع يديه عليها متحسسًا ملمسها وقوامها . كانت الصخرة لا زالت دافئة ، وكان ملمسها ناعمًا يشبه الصابون من تحت أصابعه .

في الماضي ، وقبل حرب الأدغال ، كان تسلق الجبال من أحب الرياضات إليه . كان يعشق المغامرة والخطر الماحق الذي يكمن وراء انجدار المكشوف للجبل ، وبانزلاق عقب قديمه عليه لقد تسلق الجبال في أوروبا وفي جنوب إفريقيا مثلما تسلق جبال دراكنسبرج وجبل كينيا . كان يمتلك الحس المناسب ليوازن جسمه ، وكانت أصابع يديه وذراعاه قوية بما فيه الكفاية . كان ممكنًا أن يكون أحد أبطال تسلق الجبال الدوليين لولا حرب الأدغال في روديسيا ، والتي قطعت عليه إجازته . رغم ذلك فإنه لم يجرؤ أبدًا على تسلق مثل جبال هذه الليلة.

كان يلبس حذاء فلسكوين ناعمًا وبنعل خفيف ، ولم يكن لديه معدات تساعده على التسلق : لا حبالٍ ولا خطاطيف ولا أوتاد لدقها في الصخور ولا كرابين ، وعليه أن يشق طريقا خطرًا كهذا في الظلام ، لا يكاد يرى إلى بصعوبة مكان القبضة التالية ليده ، ومتتبعًا لشق كان قد رآه على بعد ميل ، وسائرًا كالأعمى على صخور رملية حمراء ، وهي من أخطر أنواع الصخور عند تسلقها .

بدأ في الصعود مستخدمًا أصابع قدميه ويديه متكئًا على الصخر ومحافظًا على توازنه بمهارة ، واستمر بدون توقف وبدون أن يتردد أمام ما يقبض عليه

بيديه ، وقد كانت أحيانًا لينة كالشوكولاته، ومنسابًا للأعلى . وفي البداية كانت الصخور قوية وبها ما يمسك به ، أو ما يسميه متسلقوا الجبال (بمسكة الإبريق) ، ثم بدأت تدريجيًا تتحول إلى مجرد رقائق ونقر بينما ازداد انحدار صفحة الجبل . كان يتجاوز هذه الرقائق بالإمساك بها بخفة وسرعة ، بلمسة من يده أو بضغطة من أصابع قدمه ثم يصعد قدمًا . ورغم أنه كان يضع عليها أقل ثقل ممكن من وزنه إلا إنه كان يشعر بها تتصدع تحت أصابعه وتهدده وتخيفه ، ثم يتجاوزها قبل أن تخذله يداه .

في بعض الأماكن لم يكن يرى حتى ما فوق رأسه ، وكان يتسلق وقتها معتمدًا على غرائزه ، متحسسًا ما فوقه أثناء الظلام بأصابع حساسة ، وكأنها أصابع عازف بيانو ، يتلمس بها الصخور ثم يطبق بيده عليها بدون أن يتوقف أو يستجم ، أكمل تجاوز المنحدر الأول ووصل إلى الإفريز على ارتفاع مائة قدم من الأرض .

كان الإفريز رفًا أضيق مما بدا عليه عبر المنظار ، ولا يزيد عرضه على تسعة بوصات . وكان من الصعب على سين ، وحزمته مربوطة على ظهره والبندقية بارزة على جانبي كتفه ، أن يدير ظهره للصخرة أو ليستخدم الإفريز كمسطبة يجلس عليها .

وجد نفسه مضطرًا ليقف مواجهًا الصخرة ، وأصابع قدميه معلقة على حافتها ، وحمولة ظهره تضغط على كتفه وتكاد تدفعه للوراء . كان أقل ارتياحًا على الإفريز مما كان عليه في مواجهة صفحة الجبل ، وبدأ يجرجر رجليه عليه مادًا يديه كالمصلوب ليحتفظ بتوازنه ، بينما أصابعه تفتش على أي ثغرة على صفحة الصخر ، وبينما كان الحجر الرملي يكاد يمس طرف أنفه ، وعلى بعد بوصة منه .

تحرك على يساره قليلاً باحثًا عن الشق العمودي الذي رآه بالمنظار ، والذي كان يمثل الخيار الأفضل من بين اثنين . فقد كانت لسين عدم الثقة الغريزية لمتسلقي الجبال في أفرع النباتات وجذورها أو حزم الأعشاب النامية ، والتي لا يعتمد عليها أبدًا ، ولا يخاطر المتسلق بروحه بالاعتماد عليها .

أخذ يحصي عدد خطواته المتثاقلة ، كأنها خطوات سرطان البحر ، عبر الإفريز ، وعندما أحصى مائة خطوة ضاق الإفريز تحت أصابع قدميه لدرجة خطيرة ، والتهبت عضلات فخذيه وأخذت ترتعش من جراء العبء غير العادي الناجم عن محافظته على توازن البندقية وباقي الحمل على كتفه .

وبعد عشرين خطوة أخرى بدأ جانب الصخرة يبرز تجاهه كالكرش المنتفخ ، مما أجبره على التراجع . وكان عليه أن يدفع بأوراكه للأمام حتى

يحمي نفسه من السقوط على تلك الهوة التي ترتفع حوالي مائة قدم من الأرض ، لكنها كافية لتحطيم وسحق من يسقط فيها ، كمن يسقط من على قمة جبل أيجر بالألب .

لم يعد توتر رجليه وإجهادهما محتملاً الآن . وفكر في التراجع ومحاولة تجرية جذور الجميزة المعلقة ، ولكن حتى ذلك الخيار لم يعد متاحًا . أراد أن يتوقف ، فقط لإراحة رجليه للخطة ، وليستجمع شتات نفسه ، لكنه كان يعلم أن في هذا النهاية لكل شيء . فقد كان التوقف في مثل هذا المنحدر لا يعني سوى الفشل والموت المؤكد .

بذل جهدًا ليخطو خطوة واحدة ، ثم أخرى ، لكن وجد نفسه مضغوطًا للوراء حتى تقوست حزمة ظهره وتخدرت رجلاه حتى الكاحل وشعر بهما تهتزان من تحته وأيقن أنه ضائع . وفجأة لمست أصابع يده اليسرى الشق ، وكأنما حقن فجأة بجرعة ضخمة من الأدرنالين في شرايينه .

اعتدلت رجلاه من تحته وخطا خطوة أخرى وأخذت أصابعه تتحسس الشق وتتعرف عليه بسهولة . لم يكن لشق عريضًا بما يكفي لإدخال كتفه فيه ، بل بدأ يضيق بالفعل .

أدخل سين يده فيه لأقصى عمق يمكن أن تصل إليه ثم ضم قبضة يده مثبتًا لها بقوة في الشق . وبهذا تمكن من أن يتعلق معتمدًا على يده ومن ثم يريح رجليه وظهره ، ولو إلى حين .

أخذت أنفاسه تفح وكأن منشارًا يقطع في صدره ، وبدأ العرق يسيل على جسمه ويبلل قميصه . أذاب العرق كريم التمويه من على وجهه وألهب عينيه وغمم قدرته على الإبصار .

طرف بعينيه عدة مرات ورفع رأسه . فوجئ بأن بإمكانه أن يرى وجه الصخرة من فوقه ، ومن تحت قبة السماء ، وأن بإمكانه أن يرى الشق وهو يمتد رأسيًا على جانبها .

ثم أدار وجهه ورأى أن القمر ، أثناء صعوده ، قد بزغ وأنار صفحة الأفق الشرقي ، كما حولت أشعته الفضية إلى لون الفضة المتجلدة .

لم يستطع الانتظار لأكثر من ذلك وعليه أن يواصل تحركه . مد يده الأخرى وأمسك بالشق من فوق الأول ثم قبض يده وثبتها في الشق ثم رفع قدمه ثلاثة أقدام للأعلى وثبتها بقوة . وبدأ يكرر في نفسه العملية يدًا فوق يد وقدما فوق قدم . كان كأنه يمشي في الشق وقد استعاد توازنه وزال التوتر عن ساقيه وظهره .

صار بإمكانه الآن أن يرى قمة الصخرة على بعد مائة قدم فوق رأسه ، ثم

بدأ الشق في الإتساع، ولم يعد يجد لقبضة يده أو لرجله مكانًا تتشبث به . إنزلقت إحدى رجليه من تحته وتسلخت عند إرتطامها بحافة الشق ثم استقرت عليه .

والتفت محاولاً تثبيت ظهره على الشق ، لكن مواسير بندقيته رنت عند اصطدامها بالحجر وعاقت عودته لوصفه السابق . وظل معلقًا لعدة ثواني ثم تمكن من الإلتفاف والحفاظ على توازن رجليه ، ثم مد يده من فوق رأسه باحثًا في عمق الشق عن قبضة أخرى لها . لم يجد سوى الحجر الرملي الناعم وعرف إنه قد انفرز في هذا الموضع .

لم يعد أمامه سوى خمسة عشر ثانية وتزوغ أرجله ، وعرف بوضوح ما عليه أن يفعله ، رغم أن ذلك الفعل كان ضد كل غرائزه ورغائبه . وطن صوته في أذنيه : «إفعلها . قم بذلك وإلا فستموت» .

من يده وفك الإبزيم الذي يمسك بحمالة الصرة على كتفه ، ثم شد إحدى يديه ومدها للخلف وللأسفل حتى انزلق الحزام من على كتفه ونزل على صفحة ذراعه واستقر على كوعه. كادت الحمولة التي أزيحت عن ظهره فجأة أن تفقده توازنه وكافح حتى استقر على وضعه .

حشر رأسه في الشق محاولاً تثبيت نفسه بذقنه وبمؤخرة رأسه ، فقد كان الحزام حاجزًا ليده من خلفه . جمع كل قواه وثبت عضلات عنقه ورأسه في الشق ، ثم مد زراعيه خلفه بطولهما ، وللوهلة الأولى اشتبك الحزام في إحدى ثنيات سترته ثم انزلق من فوق ذراعه .

سقطت الحزمة بكامل محتوياتها من على ظهره وإلى أعماق الهاوية المظلمة وبعد أن تخلص من تلك الحمولة الثقيلة تمايل سين مترنحا ثم أمسك بتوحش ، وبعد أن حرر كلتا يديه ، بأطراف شق الصخرة وتمكن من حماية نفسه من السقوط في الهاوية وراء حزمته .

تشبث بالصخرة ، واستمع لصوت متعلقاته وهي تتخبط في الصخور أثناء سقوطها ، وكانت مواسير لبندقيته المصنوعة من الحديد الصلب تطرق الصخر بصوت كالأجراس ، وصدى الصوت يرن مرددًا صوتًا مفزعًا أثناء الليل . وحتى بعد فترة من استقرار المتعلقات على الأرض كان رنين الصدى لا يزال يتردد عبر الجبال .

أدار سين جسمه جانبًا وتمكن أخيرًا من تثبيت كتفه في الشق . استراح في هذا الوضع قليلاً وهو يلهث بشدة ، وقد فقد أعصابه من طول الفترة التي كان يصارع فيها رعب الموت . ثم بدأ تنفسه ينتظم تدريجيًا وحل محل الرعب التدفق اللطيف للأدرنالين في دمه . وفجأة أحس بارتياح شديد لأنه لا زال حيًا .

وهمس لنفسه بصوت مشروخ : «تمامًا حتى النهاية . لقد عدت ثانية لمثل هذا يا ولد ! » . فكلما إزداد الخطر ، كلما اشتدت الإثارة . لم يعد يندهش مما يلاقيه ، فها هو الآن قد اقترب حتى حافة النهاية ثم خرج منها .

لكن الإثارة لم تستمر طويلاً وبدأت في التلاشي الآن ليحل محلها معرفة الوضع السيء الذي هو فيه . لقد راحت متعلقاته ، البندقية وزجاجات الماء وكيس نومه وطعامه وكل شيء . فقد كل شيء ما عدا ما كان بجيوبه ، وحقيبة الطوارئ الصغيرة ، وسكين القنص المتدلية من حزام بنطلونه . وهمس لنفسه : «لن أقلق على شيء فقدته أو أفكر فيه إلا بعد أن أصل للقمة » . ثم بدأ يتسلق مرة أخرى . وبكتف واحد مثبت بالشق كان بإمكانه أن يدفع نفسه ويجرها قدمًا بوصة بعد بوصة دافعًا ضريبة ذلك من الجروح والكدمات التي أصابت جلده وعظام أصابعه وركبه العارية .

ورويدًا رويدًا بدأ الشق يتسع من فوقه حتى صار كالمدخنة العظيمة واتسع لكل جسمه ، كما تمكن من رفع إحدى رجليه للأعلى ثم رفع جسمه ، بعد أن يضغط بها على الجدار ، حتى وصل لقرب نهايتها . كانت القمة متآكلة ومتهرئة وأحد جوانب جدارها كان منهارًا ولكنه ينتهي بسطح قصير . تمكن سين من رفع جسمه عبر المدخنة حتى وصل أخيرًا إلى تلك القمة الخطرة . كان سطح الصخرة لا يزال ليبعد عنه بعشرة أقدام ، وعندما مد يديه لأقصى مدى ووقف على أطراف أما بعد ، كان السفح لا يزال بعيدًا عن الوصول إليه . كان جدار المدخنة قد تهرأ تاركًا جدارًا ناعم الملمس ، وبدون أي بروز أو فجوة به وتمكن سين من القبض عليها . في مثل هذه الحالات فإن أي متسلق خبير لن يجرؤ على مواصلة الصعود إلا إذا تحرك من مسكة يد إلى أخرى ، كما إنه لا يقوم بذلك إلا بعد قيامه بدق الوتد الخاص بالصعود على الجدار ومن ثم يمسك به .

وحدث سين نفسه بعبوس :

« أنظري يا ماما ! لا توجد أوتاد لدقها . علينا محاولة القفز إلى السطح ! » .

إذا ما فعل ذلك فإن أمامه فرصة واحدة : فإذا لم يمسك بالحافة بعد قفزه عليها فإن المحطة التالية له ستكون قاعدة الصخرة وسيكون حتمًا في العالم الآخر .

ركز قدميه بقوة وغطس محنيا ركبتيه ، لكن العقال والتشنج أصابهما حتى أنه لم يستطع الانحناء كما يريد قبل أن يلمس رأسه الجدار ويشتبك كتفه وظهره فوق الهاوية .

جذب سين نفسًا عميقًا ثم ، باستخدام يديه ورجليه ، دفع نفسه للأعلى

بقفزة واحدة . كانت مغامرة خطيرة لكنه تمكن من الوصول للارتفاع المناسب الذي يمكنه منه الإمساك بحافة الإفريز بكلتا يديه . انزلقت يداه في البداية لكنه تمكن من التشبث بها بكل أصابع يديه .

ومعتمداً على قوة ذراعيه ، رفس سين الجدار برجليه وجذب نفسه للأعلى حتى حست حافة الإفريز طرف ذقنه ورأى ، على ضوء القمر وأمام وجهه كومة بدت كالقبة الصغيرة ثم قباباً أخرى متناثرة هنا وهناك على الإفريز . كانت مستعمراتاً عامرة بحيوان الوبر الذي يعيش بين الحجارة والصخور . وكادت رائحة برازهم ومخلفاتهم الحادة ، المشبعة بالنشادر ، أن تخنق أنفاس سين بعد أن ملأت رئتيه . كانت تلك الحيوانات قد اختفت داخل أحجارها ، وبدا الإفريز مهجوراً ، عندما رفع سين نفسه للمرة الأخيرة بسهولة ، ضاغطاً على الإفريز بكوعه ، ثم رفس الجدار برجله مرة أخرى، بكل ما تبقى له من قوة ثم ... ثم تجمد في مكانه .

فلقد قطع صمت الليل فحيح عميق عالي النبرة ، وكأنه ثقب بأنبوة داخلية لعربة نقل . فالكومة التي بدت في ضوء القمر كقبة صغيرة وسط أحجار الوبر أمام وجهه أحذت تغير هيئتها كأنها على وشك أن تذوب وتسيل .

وفي لمحة البصر تبين لسين أنه أمام ثعبان ضخم . واحد من ثعابين الصل الإفريقية ، والوحيد الذي رآه في حياته بهذا الحجم .

كان الثعبان ملتفاً حول نفسه ، حلقة فوق حلقة على جسده الخشن المغطى بالقشور اللامعة الخشنة . مد الثعبان عنقه ولوى رأسه في مواجهة سين ، وعيونه، التي عكست ضوء القمر ، تنظر إليه ببرود وسخرية . كان الرأس الأفطح الضخم ، الذي يشبه المسماة - الكوريك - نموذجاً لصل الجابون ، وهو أضخم أنواع الثعابين الإفريقية وأشدها فتكا بين كل الأنواع السامة من الثعابين .

وفكر سين في التراجع ، وأن يحاول في نفس الوقت الحفاظ على وضعه على حافة الإفريز الضيقة . لكن الفرصة في النجاح كانت ضئيلة ، وإذا لم ينجح في المحافظة على توازنه ، فلا شك أنه سيسقط في الهاوية ويتحطم . فإذا ما كانت أمامه أي فرصة للنجاة فهي بلا شك في محاولة الصمود والثبات .

اعتمد على ذراعيه وحرر رجليه مسيطراً على أنفاسه وأخذ يحملق بزعر شديد في المخلوق الكريه المواجه له والذي كان قد استعد للوثوب . كان لا يبعد بأكثر من قدميه عن وجه سين ، وكان يعلم أن الثعبان قد يقفز عليه بكل طوله الذي يزيد على السبعة أقدام ، إذ أن أي حركة قد تستفزه لذلك .

اعتمد سين على ذراعيه وكانت أي عضلة بجسمه قد تصلبت ، وأخذ

يحدق في عيون الثعبان محاولاً السيطرة عليه بقوة الإرادة فقط . مرت الثواني ببطء كالمولاس المندلق ، وظن أنه شعر بتراخي في عنق الثعبان المشدود المتحفز.

وفي تلك اللحظة زلت يده اليسرى وتخرشت أصابعها على الصخر وضرب الثعبان ضربته بقوة مطرقة الحداد .

ثنى سين رأسه جانبًا وكأنه ملاكم يروغ من لكمة . وارتضدم الأنف البارد الملئ بالقشور للثعبان بالفك السفلى لسين ، وشعر بشدة وجذبة عنيفة على عنقه وكتفه وبقوة حتى إنها أزاحت إحدى يديه التي كان يمسك بها على الصخر وأدارت جسمه كله للإتجاه الآخر . كان الآن على جانب من الصخرة يمسك بها فقط بيده اليسرى .

عرف أن الثعبان قد غرز أنيابه إما على كتفه أو على جانبي عنقه ، وبدأ يتوقع سريان لهيب نار السم في جسمه . كان الثعبان قد أطبق عليه ومتدليًا أمام جسمه ، ضخمًا كأنه قطعة سجق سلامي ، وأخذ يتلوى ويتقلب ويضرب جسمه وهو يفح بصوت كالرعد في أذنه وكان ملمسه البارد الكريه وقشوره الزلاقة تمسح جلده وتحكه حكًا .

أراد سين أن يستغيث صارخًا من هول الرعب الذي يلاقيه . وكان الثعبان الثقيل الوزن قد أنهك قواه وهو يجلده من جنب لآخر وقد أصم فحيحه أذنيه . شعر بأن قبضة يده اليسرى ، التي لازلت تحميه ، على وشك التملص ورأى أن السقوط في الهاوية ربما يكون أرحم من هذا المخلوق الخبيث المتشبث برقبته .

ثم أحس بالسائل الثلجي الذي قذف على جانب رقبته وبالقرب من فكه ، والذي بدأ يسيل على جاكتته المفتوحة . وبعاصفة من الشعور المريح علم أن الثعبان قد أخطأ رقبته وأنه أنشب أنيابه عل ياقة سترته . كانت أنيابه بطول لا يقل عن بوصتين ومنحنية للخلف ، مصممة لاختراق ضحيتها والتعلق بها . ولما اشتبكت الأنياب بياقته كان الثعبان يكافح بشدة وعنف ، دافعًا للسم من خلال عظام أنيابه الإبرية المجوفة ليرشح على رقبته وجلده العاري .

معرفته لحقيقة أن الأنياب لم تنشب في جلده جعلته يستجمع قواه وشددت من قبضته على الإفريز وأوقفت انزلاقه المحتوم نحو الهاوية . كانت يده اليمنى لا زالت حرة فمدها وأمسك بعنق الثعبان خلف مؤخرة رأسه تمامًا . أطبقت أصابعه بالكاد على مؤخرة الرأس الغليظة وأحس بعضلات الثعبان الفائقة القوة من تحت قشور جلده الزجاجية .

حاول أن ينتزع الثعبان ويحرر نفسه منه ، لكن الأنياب كانت مغروزة على قماش ياقته كصنارة السمك وأطلق الثعبان هسيسه وفحيحه بأعلى مما كان عليه وأخذ جسمه البشع ، المطرز بزخارف خرافية ، في الالتفاف حول ساعد

سين . استخدم كل قوته ، وهو يمسك بحافة الإفريز بيده اليسرى ، ليسحب الثعبان ويجره منه ثم ليمزق أنيابه ، المتشبثة بالياقة الثخينة ، ويقتلعها من فكوكه المفتوحة ، حتى أن دم الثعبان الداكن اختلط بالسموم الفزيرة التي أطلقها ، وقذف بقوة ذلك الجسم الملتوي الملتف بعيدًا إلى الهاوية ثم استدار وأمسك بيده اليمنى على حافة الإفريز .

أخذ ينتحب بصوت خفيض مشبع بالإرهاق وبالرعب . ومضت نصف دقيقة قبل أن يستجمع شتات نفسه للدرجة التي أمكنته من أن يرفع جسمه لأعلى الرف ثم يزحف على القمة المسطحة .

ركع على الأرض الصخرية وخلع جاكتته بعناية . كانت واجهتها مبللة بالسم وكان أحد نابي الثعبان قد غرز على الياقة بعد أن انخلع من فكه العلوي. انتزعه بحرص وألقاه من فوق الصخرة متجنبًا طرفه الإبري الحاد ثم إخراج منديله ومسح به جسمه وجففه تمامًا .

فكر في الخطر الذي تحمله الجاكتة إذا ما لبسها مرة أخرى ، فربما يتسرب السم منها إلى جلده عن طريق الثغور ، وقد تسبب له قروحًا أو ما هو أسوأ من ذلك . لكن أن يتخلص من سترته فإن هذا يعني تعريض جسمه للشمس الأفريقية القاسية غدًا . تردد قليلاً ثم طوى سترته وربطها على حزامه ليغسلها فيما بعد عند أول فرصة .

فكرة غسيلها جعلته يتذكر عطشه الشديد . فلقد جفف التسلق الوعر الماء من جسمه ، وفقد زجاجة مائه عندما ألقى بها في الهاوية . ولابد من العثور على ماء قبل نهار الغد . أما الآن فإن اهتمامه الأساسي إنصب في كيفية الخروج من هذه الواجهة الصخرية المكشوفة وإيجاد مخبأ مناسب له.

وقف على قدميه وشعر بالبرودة القارسة لليل على جسمه العاري المندي بالعرق . من هذا الإفريز الذي يقف عليه كانت عملية الوصول للقمة سهلة نسبيًا ، كفاح وزحف شاق نسبيًا أكثر منه تسلقًا . قام بذلك بحرص ، وعندما وصل للقمة انبطح على الأرض لبضع دقائق ، رافعًا رأسه منعمًا النظر فيما حوله.

كانت سحابة عابرة قد حجبت القمر ولم يكن يرى سوى القليل . وكانت الأشجار النامية على جوانب الوادي قد طال بعضها حتى قارب أو تجاوز قمم الصخرة مكونة جدارًا قائمًا أمامه وكان يفصل بينهم حوالي أربعين ياردة ثم يصل إليها ويجد الغطاء المناسب للاختباء .

نهض على قدميه وجرى نحوها منحنيًا ومطأطئًا بقدر الإمكان ، وكان قد قطع نصف المسافة إليها عندما اكتسحه ضوء قوى باهر .

توقف كالميت ، وكأنه أمام حافة الهاوية ، ورفع يديه بالغريزة نحو عينيه ليحميهما من الشعاع القوى المسلط مباشرة نحو وجهه ، ثم ألقى بنفسه ووجهه على الأرض المعشوشبة وتمدد على السطح المفروش بالحجارة وقطع الصخور .

ألقى شعاع الضوء ظلالاً طويلة سوداء خلف جلاميد الحجارة والصخور الكبيرة المتناثرة ، وعكس وهجًا باهرًا متلألئًا على الحشائش والأعشاب الشتوية ، ولم يجرؤ سين على رفع رأسه ، بل ضغطه على الأرض عاجزًا مكشوفًا عديم الحيلة في مواجهة هذا الشعاع الرهيب .

تمهل انتظارًا لحدوث شيء ما . لكن السكون والصمت ظل كما هو . وحتى الأصوات المعتادة للطيور الليلية ونصرير الحشرات ما كانت تسمع ، حتى إن الصوت عندما جاءه أخيرًا من خلال الأشجار ، عبر مكبر للصوت ، صدمه وكأن ضربة قوية هبطت على وجهه :

« مساء الخير يا كولونيل كورتني» . كان الحديث بلغة إنجليزية ممتازة تشوبها بالكاد لكنه إفريقية :

« لقد حققت رقمًا قياسيًا . بالضبط سبعة وعشرين دقيقة وخمسة عشر ثانية من السفح إلى قمة الجبل» .

لم يتحرك سين بل ظل راقدًا يتفجر من الغيظ من الإهانة المرة التي لقيها. لقد كانوا يستهزئون به أثناء كل معاناته التي مر بها ويسخرون :

« لكنني لا أستطيع أن أعطيك درجات عالية للتخفي . ما ذلك الشيء الذي ألقيته على الهاوية؟ بدا لي إنه كومة من علب الصفيح القديمة » .

فهقه المتحدث بسخرية ثم واصل كلامه :

« والآن يا كولونيل ، إذا ما ارتحت تمامًا ، فهل تتكرم لتقف على قدميك ولترفع كلتا يديك فوق رأسك ؟ » .

ولم يتحرك سين .

«أرجوك يا سيدي . لا تضع وقتك ولا وقتي » .

ظل سين منبطحًا كما هو يقلب فكرة الاندفاع السريع نحو الإفريز الذي من ورائه.

« حسنًا . حسنًا . أرى أن علينا إقناعك » .

ولوهلة خيم الصمت تمامًا . ثم سمع سين أمرًا خافتًا يصدر بلغة محلية . مزقت إنفجارات رصاص النيران الأوتوماتيكية الأرض على بعد ثلاثة خطوات من المكان الذي يرقد عليه سين ، ورأى بريق اللهب يخرج من أسلحة بالغابة المظلمة ويضيئها وسمع الصوت المميز لزخات مدافع المكنة الخفيفة (آر بي دي)،

وكأن ستارة من قماش ثقيل تتمزق إربا . حرث سيل الرصاص المندفع الحشائش من حوله وأثار زوبعة من الغبار الأصفر تحت ضوء الشعاع الباهر .

نهض سين متثاقلاً على قدميه . ورغم الشعاع القوي المسلط على وجهه إلا أنه رفض أن يدير رأسه أو أن يقي عينيه . وجاءه الأمر :

« إرفع يديك لأقصى حد فوق رأسك يا كولونيل » .

أطاع الأمر . كان جسده العلوي العاري قد ازداد بياضًا تحت الأنوار . « إنني مسرور لأراك محتفظًا بقوامك على أحسن ما يرام يا كولونيل » .

خرج شكلان داكنان من خلال جدار الأشجار . ابتعدا عن شعاع الضوء ودارا حول سين ووقفا وراءه . ومن طرف عينه رأى سين أنهما يرتديان ملابس ميدان بخطوط النمر وكانت بنادقهما (إي كي) مصوبة عليه . تجاهلهما حتى شعر بكعب بندقية يقرعه على عموده الفقري بين لوحي كتفه وسقط على الأرض .

وجاء الصوت من الميكروفون اليدوي آمرًا بصوت حاد ، بلغة محلية ، لهما ألا يضربوه ثانية ، فإنصاعا وأطبقا على جانبيه وأجبراه على النهوض . قام واحد منهم بتفتيشه بسرعة منتزعًا سكينه وحزامه وعلبة الطوارئ وجرد جيوبه مما فيها ثم تراجعا تاركين سين عاريًا إلا من بنطلونه الكاكي القصير وحذائه الفلسكوين . لكنهما ظلا مصوبين لبنادقهما (إي كي) على بطنه .

تمايل الضوء عندما تقدم الرجل الذي يحمله خارجًا من جدار الغابة . وعرف سين أن مصدر الضوء عبارة عن جهاز إنارة عسكري ، يحمل على اليد ويتم شحنه ببطارية قوية حملها الرجل على ظهره . ومن ورائه بقليل ، متسترًا بالظلام، جاء الرجل صاحب الميكروفون .

وحتى من خلال الضوء الباهر للجهاز العسكري فقد رأى سين أن ذلك الرجل كان طويلاً نحيلاً وكان يمشي برشاقة كالقطة .

« لقد مضى زمن طويل يا كولونيل كورتني » . كان قد اقترب من سين لدرجة لا يحتاج فيها لاستخدام الميكروفون . وعرف سين صوته وأجابه موافقًا : «نعم . عدة سنوات » .

« عليك أن ترفع صوتك » . وقف الرجل على بعد خطوات من سين وبنوع من الدعابة وضع إحدى يديه على أذنه وقال :

« إن إحدى أذنيَّ صماء كما تعلم » . ابتسم سين ساخرًا بوجه ملطخ بكريم التمويه الأسود وقال:

« كان علي أن أنجز عملي على الوجه الأفضل ، وألحق الأذن الأخرى

بأختها عندما كان بمقدوري ذلك . أيها الرفيق تشاينا » .

أجابه تشاينا موافقًا :

« نعم . علينا أن نناقش الأيام الخوالي مع بعضنا » . وابتسم تشاينا وبدا أنه أكثر وسامة مما يتذكره سين . كان يبدو مرتاحًا جذابًا وعليه هالة من الكياسة والاعتداد بالنفس .

« على أية حال فإنني أخشى أن تكون قد عطلتني قليلا يا كولونيل . وبالرغم من سروري لتجديد تعارفنا ، فإنه ليس بإمكاني أن أظل أكثر مما ينبغي بعيدًا عن مركز قيادتي وستكون أمامنا مجالات أوسع للحديث فيما بعد. أما الآن ، فعلي أن أفارقك وسيهتم رجالي بك تمامًا » .

استدار واختفى خلال الظلام وراء شعاع الضوء . أراد سين أن يناديه : «رجالي والفتاة . هل هما بخير ؟ » . لكنه سيطر على نفسه . فمع مثل هذا الرجل فإن من الأفضل ألا تبدي أمامه أي ضعف أو تعطيه أي شيء قد يستغله لصالحه فيما بعد . أجبر سين نفسه على الصمت عندما جاء الحراس ليدفعوه بأعقاب بنادقهم بصورة تدل على حسن تدريبهم . وآس سين نفسه :

« سنلحق بالطابور الرئيسي قريبًا وسأرى بنفس حال جوب وكلوديا » .

جاءه ذكرى كلوديا كشراب منعش اشتاق له أكثر من شوقه إلى كوب من الماء العذب البارد.

❖ ❖ ❖

كانت المفرزة المخصصة لحراسته مكونة من عشرة رجال بقيادة رقيب ، وكان واضحًا أنهم مجموعة منتقاة يتميزون بالقوام النحيل الرشيق وبالقوة البدنية ، مثل جماعة الذئاب الذين رعاهم في كابوسه . وسرعان ما وصلوا إلى درب مطروق جيدًا ، وهنا أحاطوا به وحثوه على العدو الوئيد معهم ، في الإتجاه الجنوبي ، أثناء الليل .

لم يتحدث أيًا من آسريه أبدًا ، وكانت تجربة غريبة عليه ألا يسمع من الجنود سوى وقع أقدامهم على الأرض وأنفاسهم الخفيفة ثم قرقعة سلاحهم وأمتعتهم والرائحة المنكرة لأجسادهم وهم محيطون به .

وبعد ساعة أشار الرقيب لهم بالتوقف فوقفوا على جانب الدرب ثم مد سين يده لأقرب جندي ودق بيده على زجاجة الماء المعلقة على حزامه .

أبلغ الرجل الرقيب بذلك . كانت أول كلمات سمعها سين منذ أن تحركوا وفهم سين الحديث . كان يتحدث بالغة الشنقانية .

الشانقاني كانوا بقايا إحدى قبائل الزولو الصغيرة التي هزمها الملك شاكا

في معركة نهر ملانزوي عام ١٨١٨ . وبعكس كثير من زعماء القبائل الصغيرة فإن الزعيم سوشانقاني قوام دمج قبيلته في إمبراطورية شاكا وفر شمالاً مع بقايا جنوده ليؤسس مملكته الخاصة على طول الحدود بين ما يعرف اليوم بزمبابوي وموزمبيق .

لذا فإن لغة الشانقاني تستند على أسس لغة الزولو وقواعدها . كان كثير من العاملين مع سين من الشانقاني لأنهم كانوا ، مثل أسلافهم الزولو ، يتميزون بالرقة والنبل . كان سين يتحدث لغتهم بسلاسة ، فقد كانت تحتوي على كثير من أوجه الشبه مع اللغة السنديبلية .

لكنه لم يقع في الخطأ بإعلام آسريه الشنقانيين بهذه الحقيقة ، ولم تبد عليه أي علامة بأنه فهم شيئًا عندما قال الجنيد للرقيب :

« المامبو يريد أن يشرب» .

فأجابه الرقيب :

« دعه يشرب . فأنت تعلم إن (الإنكوزي) يريده حيًا » .

ناول الرجل زجاجة الماء لسين . ورغم أن الماء كان راكدًا مشوبًا بطين المستنقعات ، إلا أن سين وجد طعمه وكأنه شراب الفوف كليكو يقدم إليه في كأس من البللور .

فكر في قول الرقيب (إلا نكوزي يريده حيًا) ، وقلب سين في ذهنه ما يعني هذا القول ، وهو يعيد الزجاجة لصاحبها . فالإنكوزي أو الزعيم هو الرفيق تشاينا بلاشك ، وأن الجنود مأمورون بالعناية به . شعر بنوع من الارتياح لهذا والاستنتاج لكنه لم يستمتع بذلك طويلاً . فبعد بضع دقائق أصدر الرقيب أمره بالرحيل فعاودوا تلك الهرولة ميلا بعد ميل متجهين صوب الجنوب .

جروا حتى الفجر وتوقع سين أن يلاقوا الطابور الرئيس الذي به كلوديا وجوب لكن ميلاً جاء بعد ميل بدون أي علامة تدل عليهم . والآن ، وبعد أن عم ضوء النهار ، حاول سين أن يكشف أثرٍ وريهم على الطريق لكنه لم ير أي أثر لهم واستنتج أنهم لابد قد ذهبوا من طريق آخر .

كان الرقيب المسئول عن الطابور متمرسًا . فقد أرسل بعض رجاله على الأجنحة وعلى جوانب الدرب من أمامهم تحوطا من أي كمين تنصبه لهم فريليمو. لكن بدا أن ما كان يشغله ، أكثر من مواجهة هجوم أو كمين من الغابة ، هو خوف غريب قد يأتيه من الجو . كانوا دائمًا ما يحاولون اتخاذ الغابة ساترًا لهم . وكلما كان عليهم أن يعبروا سهلاً مكشوفًا كانوا يتوقفون ثم يمسحون السماء بعناية ، متنصتين لسماع صوت الطائرات ، قبل أن يجرؤا على الخروج من الغابة ثم يشرعون في الجري بأقصى سرعة .

وذات مرة في صباح ذلك اليوم الأول سمعوا صوت توريينة محرك طائرة ، بعيدًا جدًا عنهم وخافتًا ، لكن الرقيب أمرهم بالانبطاح أرضًا وإخفاء أنفسهم . رقد جندي على كل جانب من سين وأجبراه على خفض رأسه أرضًا حتى تلاشت دمدمة محرك الطائرة تمامًا .

تحير سين من هذا الرعب من الهجوم الجوي . فكل ما يعلمه أو قرأه من قبل هو أن قوة فريليمو الجوية كانت ضعيفة ومبعثرة لدرجة تكاد فيها أن تكون غير ذات جدوى ، كانت أنواع الطائرات التي تمتلكها حكومة فريليمو عتيقة وغير صالحة للقيام بالهجوم على قوات أرضية ، وضاعف العجز أعداد الفنيين المهرة ، وفي قطع الغيار ، من عدم جدواها . لكن هؤلاء الرجال الذين معه كانوا يأخذون الأمر بمنتهى الجدية بالتأكيد .

وفي منتصف النهار أمرهم الرقيب بالتوقف . قام أحد الجنود بإعداد الطعام على نار صغيرة ثم أطفأها فور نضج الطعام ثم تحركوا لبضع أميال قبل أن يتوقفوا مرة أخرى لتناول طعامهم . أعطوا سين نصيبًا كاملاً من خبز الذرة ، والذي كان غليظًا منتفخًا ومملحًا بعناية ، وبعض اللحم الذي بدت عليه رائحة العفن والتزنخ . فبالنسبة للرجل الأبيض . عمومًا . فإن مثل هذا اللحم يسبب له التهابًا معويًا على الفور . لكن معدة سين كانت مهيئة ، مثلها مثل معدة أي إفريقي ، لهذا النوع من الطعام . أكل بدون شهية ولكن بدون قرف أيضًا .

تحدث الرقيب مع سين باللغة الشنقانية بجانبه : « طعامنا جيد . هل أزيدك منه ؟ » وضع سين على وجهه قناعًا من عدم الفهم وقال له بالإنجليزية :

« إنني آسف لعدم فهم ما تقول » .

هز الرقيب كتفيه وواصل تناول طعامه . وبعد دقائق التفت نحو سين وقال له بحدة : « أنظر من خلفك فهناك ثعبان ! » . قاوم سين الدافع الطبيعي للقفز على قدميه . وبدلاً عن ذلك ابتسم للرقيب متملقًا وكرر قوله : « آسف . لا أفهم ما تقول » .

استرخى الرقيب بارتياح وعلق واحد من رجاله قائلاً :

« إنه لا يفهم اللغة الشانقانية ويبدو أننا نستطيع التحدث بحرية في وجوده » .

تجاهلوه حتى انتهى تناول الطعام وبدؤوا يثرثرون مع بعضهم وعندما انتهوا من الحديث أخرج الرقيب من حقيبة ظهره زوجًا من الأصفاد الخفيفة وقيد أحد رسغي سين بطرفها وقيد الطرف الثاني على رسغه هو وبعد ذلك عين اثنين من الجنود للحراسة ثم رقد وباقي الجنود وناموا على الأرض .

وبالرغم من شدة إرهاق سين ، لأنه ظل سائرًا لعدة أيام ولا ينام إلا للحظات خاطفة ، فقد ظل مستيقظًا . وأخذ يقلب الرأي في كل ما شاهده وسمعه حتى

الآن ، وحاول أن يجد الحلول لهذه الألغاز المحيرة . كان لا زال غير واثق من أنه في أيدي الرينامو ، ما عدا ما جاء في رسالة كلوديا المختصرة التي تشير لذلك . من الناحية الأخرى فقد كان الرفيق تشاينا أحد مفوضي جيش روبرت موجابي الماركسي (زانلا) . أما رينامو فهي منظمة معادية بشراسة للنظام الشيوعي وقد نذرت نفسها لتقويض نظام حكومة فريليمو الماركسية في موزمبيق . ولم يتوصل لشئ بتاتًا .

أكثر من ذلك ، فقد حارب تشاينا جيش روديسيا التابع لإيان سمث . فماذا يفعل عبر هذه الحدود ويستغرق في حرب أخرى بدولة أجنبية ؟ هل ، يا ترى ، يقوم تشاينا بدور المرتزقة الباحث عن الثروة ، هل هو من النوع الذي يغير رداءه حسب الظروف أم أنه أحد لوردات الحرب الذين يعملون لحسابهم والذي يستفيد من الفوضى الضاربة أطنابها في موزمبيق لتحقيق أهدافه الخاصة؟ سيكون أمرًا مثيرًا إن عرف الإجابة .

ومع كل هذا التفكير ، وقبل أن يجيئه النوم ، كان مشغولاً أيضًا بكلوديا مونتيرو ويفكر في أمرها. فإذا ما كان تشاينا يريده حيًا فإن الاحتمال الأكد هو أنه يريدها أيضًا حية . وعندما وصل لهذه النتيجة استغرق في نوم عميق وابتسامة خفيفة على شفتيه .

استيقظ وجسمه يوجعه وعضلاته مرهقة من آلام أعقاب البنادق على ظهره المقروح . لكن الرقيب دفعه نورًا لاستئناف في الجري جنوبًا مع بداية برودة المساء . وبعد ميل أحس بالدفء في عضلاته وبزوال تصلب جسمه وواصل الجري بنفس سرعة حراسة وبسهولة . كان دائمًا ينظر للأمام آملا أن يرى في أي لحظة مؤخرة الطابور الرئيس وقد برز من خلال الظلمة المحيطة بهم وليرى جوب وديدان يحملان نقالة كلوديا .

وظلوا يهرولون خلال الليل . وعندما توقفوا مرة أخرى لتناول الطعام ، بدأ آسروسه في التحدث عنه وأفواههم مليئة بالخبز وباللحم القوى الرائحة . وتحدث إليهم الرقيب :

« يقال إنه في تلك الحرب الأخرى كان كالأسد يأكل الرجال أكلاً . إنه هو الذي قاد الهجوم على إنلوزين ، معسكر التدريب بجبال نهود العذراء » . فنظر إليه الجنود باهتمام وبنوع من الاحترام :

« ويقال إنه هو شخصيًا الذي حطم إحدى أذني الجنرال تشاينا » أخذوا يقهقهون ويهزون رؤوسهم . لقد كانت هذه نكتة جميلة . وقال واحد من الجنود:

« إنه له جسم محارب » . وأخذوا يتفرسون فيه ويناقشون بنية جسمه وهيئته

وكأنه شيء عجيب غير بشري . وسأل جندي آخر :

« ولماذا أمر الجنرال تشاينا بهذا ؟ » . ابتسم الرقيب ونكت قطعة من اللحم، تعلقت بضرسه الخلفي ، بضفر من أصابعه وقال : « علينا أن ننتزع منه كبرياءه وغضبه . فالجنرال تشاينا يريد منا أن نحوله من أسد إلى كلب يهز ذيله ويسهل قياده » .

قال الرجل الأول مكررًا :

« إن له جسم محارب . إذن علينا أن نعرف إذا كان له قلب المحارب » . وضحكوا جميعًا مرة أخرى .

احتفظ سين بوجهه هادئًا جامدًا وقال لنفسه :

« إنه تحد إذن . حسنًا أيها الأوغد . سنرى أي كلب سيهز ذيله أولاً » .

وبنوع من العناد بدأ سين يشعر بنشوة التحدي والذي هو أقرب إلى مزاجه . كانوا عشرة رجال وكلهم في العشرينات من عمرهم . أما هو ، فقد جاوز الأربعين بقليل . ورغم هذا العائق فقد شعر سين باللذة ، وخاصة لأن ذلك سيساعده على تحمل الرتابة والمصاعب التي تحملها له الأيام القادمة . كان حريصًا على الا يتركهم يعرفون بأنه عل ىعلم بهذا التحدي فقد كان خطرًا عليه أن يعارضهم أو يلحق بهم الإهانة والهوان ، لأن احترامهم له وحسن نيتهم تجاهه سيكون أكثر فائدة له من كراهيتهم أو إذدرائتهم له .

كان سين قد قضى كل حياته ، بعد أن شب عن الطوق ، برفقة الرجال السود . وكان يعرفهم جيدًا كخدم أو كرجال متساوين معه ، كصيادين أو كجنود ، كأصدقاء أوفياء خلص أو كأعداء قساة وحاقدين . كان يعرف نقاط ضعفهم وقوتهم ويعلم كيف يستفيد من ذلك . كان يفهم تقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم الاجتماعي ويعرف كيف يطيب خاطرهم ويملأهم بالسرور وكيف يؤثر عليهم وكيف يكسب حترامهم ورضاءهم وقبولهم له .

أبدى لهم فقط القدر المعقول من الاحترام ، ولكن ليس بالقدر الذي يجلب له الإذدراء أو الاستخفاف . وحرص كثيرًا على الا يستفز أو يتحدى سلطة الرقيب أو يعمل على أن يفقد ماء وجهه أمام رجاله . استغل تمامًا قابليتهم للمزاح والدعابة والتلطف .فباستخدامه لغة الإشارة مع مسحة المهرج كان يثير ضحكهم ، وعندما ضحكوا معه تغيرت علاقاتهم وتلطفت . صار رفيقًا لهم أكثر منه أسيرًا وما عادوا يستخدمون أعقاب البنادق كأدوات لدفعه قدمًا . أهم من كل هذا هو أنه كان يلتقط منهم كل يوم شذرات من المعلومات والأخبار المتفرقة :

عبروا في طريقهم مرتين على قرى محروقة تمامًا حيث تحولت الأراضي

الزراعية المحيطة بها إلى ساحات للحشائش والأعشاب ، وكان الرماد الأسود يتطاير في الجو .

أشار سين إلى الخرائب وسألهم :

« رينامو ؟ » . اغتاظ آسروه من هذا الاتهام وسارع الرقيب بالنفي : « لا ! لا ! . فريليمو ! فريليمو ! » . ثم ربت على صدره وقال بتعاظم وهو يشير إلى رفاقه :

« أنا رينامو . رينامو ! رينامو ! » .

رددوا من ورائه باعتزاز : « رينامو ! » .

ضحك سين : « حسنًا هذا يوضح ذاك » ثم رفع صوته :

« فريليمو ، بانج ! بانج ! » وشرع يقلد إطلاق النار على الفريليموه ابتهج الجنود وشاركوا في التمثيلية الصامتة للمعركة بحماس شديد . تحسنت نظرتهم إليه لأكثر مما كانت ، وعندما حل موعد الوجبة التالية أضاف الرقيب إلى نصيبه كمية أكبر من اللحم المتعفن . وبينما كانوا يأكلون، أخذوا يتحدثون عن سلوكه وأدائه حتى الآن واتفقوا جميعا على أن أداءه كان مثيرًا للإعجاب . لكن الرقيب تساءل :

« نعم إنه يجري جيدًا ونعلم إن بإمكانه أن يقتل الرجال ويسحقهم ، ولكن هل بإمكانه أن يقتل الهنشو ؟ » .

هنشو هي كلمة شنقانية تعني (الصقر) . وكان سين قد سمعهم يرددونها كثيرًا في الأيام الخمسة الماضية من رحلتهم . وكانوا كلما يرددون هذا الاسم ينظرون إلى السماء بقلق وانزعاج . والآن ، وعند ذكر ذلك الطائر ، الصقر ، بدت عليهم التعاسة ، وكرد فعل لا شعوري تطلعوا جميعًا نحو السماء .

وواصل الرقيب تساؤله وإجابته على نفسه :

« الجنرال تشاينا يرى ذلك . لكن من يدري ، من يدري ؟ » .

أطمأن سين الآن إلى أن وضعه آمن تمامًا وإلى أن صلاته مع هذه الجماعة قد تتيح له أن يقوم بتجربة معها حتى يصل إلى حل لهذا الاختبار والاستنزاف .

ففي المرحلة التالية بدأ يسرع من خطاه . فبدلاً من أن يكون مكانه في الطابور على بعد خطوتين وراء الرقيب الشانقاني ، قائد الطابور ، اقترب منه وشرع يجري على أعقابه ، يحاول ألا يمسه برجليه ويبالغ في إطلاق أنفاس زفيره حتى يحس بها الرقيب بمؤخرة عنقه الغليظ المتصبب عرقا . وتلقائيًا زاد الرقيب من تسارع خطاه وجاراه سين محافظًا على اقترابه منه جدًا وهو يدفعه لا شعوريًا قدمًا .

نظر الرقيب وراء كتفه بترق لكن سين ابتسم له وزفر في وجهه . ضاقت

عيون الرقيب عندما تحقق مما يجري وابتسم بدوره لسين وزاد من خطاه المهرولة إلى الجري الكامل . وقال سين بالإنجليزية :

« هذا بذاك يا صديقي . سنرى الآن من سيهز ذيله » .

تخلف باقي الطابور وراءهما وصرخ فيهم الرقيب للحاق بهما فأسرعوا وراءهما بصورة قاتلة . وفي خلال ساعة لم يتبق وراءهما سوى ثلاثة من الجنود ، أما الباقون فقد تناثروا على مسافة ميل وراءهما بين شجيرات الغابة . ثم تحول الطريق ليصعد في منحدر حاد يقودهم إلى سفح هضبة مستوية أخرى .

كان سين يتحرك بخفة حتى كان يجري كتفاً لكتف مع الرقيب الطويل لكنه كلما حاول أن يسبقه لحقه الرجل . كانت صفحة الجبل شديدة الإنحدار وكان الدرب يمر بمناطق ضيقة جدًا . انطلق الرقيب أمام سين عند المنحنى الأول لكن سين لحق به وتجاوزه على المضيق .

كانوا يجرون الآن بأقصى سرعة لهم وكانت المقدمة تتبادل بينهما ، أما الرجل الثالث فكان قد انهار قبل أن يصلوا لمنتصف القمة . جروا عابسين يغسلهم العرق المتصبب وكانت أنفاسهم مشروخة كأنها تخرج من عادم آلة بخارية .

وفجأة اندفع سين خارج الممر وصاعدًا مباشرة لأعلى الهضبة ، بعد أن تجاوز منحنى الدرب ، وسبق الشنقاني بخمسين خطوة . صرخ الشنقاني بغضب لهذا التجاوز وقطع المنحنى الآخر . هجر كلا الرجلين الدرب المطروق وأخذا يجريان نحو المنحدر الحاد ، يقفزان فوق الصخور وجذور الأشجار ، وكأنهما زوج هارب من ثيران الكودو أمام الصيادين .

وصل سين إلى السطح متجاوزً الرقيب بثلاثة أقدام وألقى بنفسه على الأرض الوعرة وتدحرج على ظهره محاولاً التقاط أنفاسه . ارتمى الرقيب بجواره وصدره مقروح الأنفاس . وبعد دقيقة جلس سين متحيرًا وتبادلا النظرات برهبة واندهاش .

ثم شرع سين في الضحك بصوت متقطع مخروش ومؤلم وبعد بضع ثوان ضحك الشنقاني معه ، رغم أن كل دفقة من الضحك خرجت منه كانت كالعذاب . وبعد أن استعادت رئاتهما قوتهما ازداد صوت ضحكهما قوة وصفاء. وعندما ظهرت طلائع الجنود المتخلفين وراءهما على سفح الهضبة وجداهما لا يزالان جالسين على العشب بجوار الدرب يزأران في وجه بعضهما البعض وكأنما أصابهما مس من الجنون .

وعندما استأنفوا السير بعد ساعة ، تحول الرقيب من الدرب اللانهائي وانحرف بالطابور نحو الاتجاه الغربي ، وظهر على وجوههم نوع من العزم

والتصميم ووضوح الهدف وبدا ذلك على قائد الطابور الشنقاني .

وتيقن سين أن الامتحان قد انتهى وأن النتيجة قد وضحت .



قبل هبوط الظلام ، وصلوا لأول خطوط رينامو الدفاعية الدائمة . كانوا متحصنين بداخل خنادق ، على جانب نهر عريض بطئ الجريان . وكان النهر محاطا بالرمال والصخور المستديرة اللامعة ، وأيضًا كانت المخابئ والتحصينات محاطة بكتل الأشجار وأكياس الرمل ومموهة ببراعة تامة لإخفائها من الاكتشاف من الجو بينما كانت مدافع المورتر ومدافع الماكينة الثقيلة ، المخبأة بعناية تسيطر بنيرانها على ضفتي النهر والمناطق الشمالية كلها. وأول ما انطبع على سين هو أن هذه التحصينات كانت واسعة ممتدة وخمن أن هذه هي الحدود الخارجية لمنطقة عسكرية كبيرة ، كتيبة بالتأكيد إن لم تكن بقوة فرقة . وعندما عبروا النهر ومروا من خلال الدفاعات، أثار ظهور سين وسط حراسه ضجة واهتمامًا . وكان الجنود الذين انتهوا من عملهم يتركون خنادقهم ويحتشدون حولهم ، وشعر حراسه بالسرور لارتفاع قدرهم الذي أضفاه الأسير الأبيض عليهم . لكن حشد النظارة والمتسكعين سرعان ما تناقص وتفرق عندما وصل للمكان ضابط قصير بدين يرتدي نظارة وتوجه نحو الحراس . حياه الحرس بحركة نشطة مسرحية رد عليها الضابط أن لمس طرف البيريه الأحمر على رأسه بعصاه العسكرية . وحيا الضابط سين بإنجليزية لا بأس بها :

« كولونيل كورتني ، لقد تم التنبيه علينا لاستقبالك » .

أما بالنسبة لسين فقد ارتاح لرؤية الرينامو يرتدون علامات الرتب العسكرية ، المستندة إلى إلى تقاليد الجيش البرتغالي . كان هذا الضابط يضع على سترته علامات ضابط الميدان الحمراء وعلى كتافيته تاج دليل رتبته كرائد ، أما أثناء حرب الأدغال فقد كان الثوار قد لفظوا الرتب والتقاليد الرأسمالية والإمبريالية واستغنوا عن شارات طبقة الصفوة من الضباط .

وأخبره الضابط بقوله :

« إنك ستقضي الليلة معنا ، وإنني أتطلع لموافقتك على الحضور للميس هذه الليلة كضيف لي » .

كانت هذه معاملة غريبة عليه ، وحتى حراس سين أصابهم الذهول ، وكانوا يحسون بالفخر لذلك حتى أن الرقيب بنفسه ، قاد سين إلى النهر ، وحتى إنه أعطاه قطعة من الصابون الأخضر ليغسل جاكتته وردائه القصير .

وبينما كانت ملابسه تجف فوق صخرة ساخنة من حرارة الشمس ، دخل

سين عاريًا في البركة واستخدم باقي قطعة الصابون لغسيل رأسه وشعره وليخلص وجهه من آثار كريم التمويه والأوساخ التي عليه . لم يكن قد حلق ذقنه منذ غادر شيويوي قبل حوالي اسبوعين وكانت ذقنه كثة ضخمة . غسل جسمه وإبطيه وما بين رجليه برغوة غزيرة من الصابون ونظر إلى جسمه . لم يكن على جسمه أي أثر للشحم وكانت كل عضلة من جسمه واضحة المعالم من تحت جلده الذي لوحته الشمس . لم يصل إلى هذه الحالة منذ انتهاء حرب الأدغال وكان يبدو الآن وكأنه جواد سباق أصيل ، وصل إلى قمة اللياقة ، بجهود مدرب ماهر ، عشية سباق هام .

أعاره الرقيب مشطا من الحديد ليمشط به شعر رأسه ، والذي استطال حتى وصل لكتفيه، وبدا شعره غزيرًا ناعمًا متموجًا يتوهج من آثار النظافة والغسيل . ارتدى ثيابه الرطبة وتركها تجف فوق جسمه وشعر براحة تامة وبشعور بأنه في قمة لياقته البدنية .

كان ميس الضباط محفورًا تحت الأرض وخاليًا من أي زينة وكان الأثاث بدائيًا محليًا . أما مضيفوه فكانوا الرائد ونقيب واثنين من الملازمين الأوائل .

كان الطعام وفيرًا ، مكونًا من سلطانية كبيرة من حساء السمك المجفف والفلفل الحراق المسمى بالبري برى ، والذي كان من بقايا الاستعمار البرتغالي، وتلال من عصيدة الزرة التي يأكلونها في كل مكان .

كانت أطيب وجبة تناولها سين منذ غادر معسكر شيويوى . لكن تحفة تلك الأمسية كانت في الشراب الذي وفره له الرائد : كميات كبيرة من البيرة الأصلية في علب معدنية وكان عليها شارة (بيرة كاسل) ومن تحت الشارة ، وبحروف صغيرة ، كلمات (صنع في جنوب إفريقيا) . كانت إشارة للدولة التي هي من أخلص أصدقاء الرينامو .

وكضيف على الميس اقترح سين النخب الأول فوقف ورفع علبته وقال : « رينامو وشعب موزمبيق » .

فأجابه الرائد :

« نخب الرئيس بوتا وشعب جنوب إفريقيا ! » . هذا سوّى الأمر تمامًا . فقد كانوا يعرفون أن سين من جنوب إفريقيا ، وكان بالتالي ضيف الشرف لديهم .

شعر بأنه آمن في رفقتهم وبإمكانه أن يكون على سجيته وسمح ، للمرة الأولى منذ شهور ، لنفسه بأن الثمل قيلاً .

كان الرائد قد حارب في صفوف الروديسيين أثناء حرب الأدغال . وحدث سين بأنه ، مثل جوب بيكاني ، كان ملازمًا أول في كتيبة البنادق الإفريقية الروديسية ، وهي صفوة الكتائب السوداء التي حاربت ببسالة في صفوف

الحكومة ، وألحقت المذابح وسط ثوار زانلا . وسرعان ما وثقوا بينهم زمالة رفاق السلاح القدامي وترابطهم . وبدون أن يملأه سين بالشراب ، استطاع أن يدير مسار النقاش ويلتقط نتفاً من المعلومات التي سمح الرائد بتسريبها ، وخاصة بعد توالي تجرع علب الشراب .

كانت تقديرات سين صحيحة . فهذا المكان هو جزء من الحد الشمالي لإحدى فرق الدينامو . كانت تحصيناتهم عميقة وموزعة بعناية تحوطاً من القصف الجوي . ومن هذه القاعدة ، كانوا يغيرون على الجنوب ، يضربون معسكرات فريليمو ، ويهاجمون ويسلبون ويدمرون خط السكة الحديد الذي يربط ميناء بيرا على شاطئ المحيط الهندي بهراري عاصمة زمبابوي .

وبينما كانوا يعبون في علب البيرة شرع سين والرائد في النقاش بجدية حول خطورة وأهمية ذلك الخط الحديدي . فزمبابوي دولة لا شواطئ لها وكانت شرايينها الوحيدة التي تربطها بالعلم الخارجي هما خطان للسكة الحديد ، والخط الرئيسي منهما كان يتجه جنوبًا نحو جنوب إفريقيا ، مارًا بجوهانسبرج ، للموانئ الرئيسية في ديربان وكيب تاون .

كرهت حكومة موجابي ، الماركسية ، بشدة أن تكون معتمدة على دولة هي ، بالنسبة لهم ، تجسد كل ما هو شرير في إفريقيا ومعقل الرأسمالية ونظام السوق الحر . تلك الدولة والتي ظلت في الإحدى عشر سنة من حرب الغابات تدعم نظام حكم البيض بقيادة إيان سمث . ورغم كره موجابي الهستيري لجادته الجنوبية إلا أن يده كانت مغلولة ، فتلك الجارة تقبض بيدها العنصرية على شريان حياته . كانت ميوله الطبيعة هي في الاتجاه شرقًا لإيجاد الخلاص المتمثل في موزمبيق . فخلال نضاله من أجل الاستقلال قامت فريليمو ورئيسها سامورا ما شيل بمساعدته بنبل وتجرد والذي أدى نضاله للحصول على الاستقلال مؤخرًا من البرتغال والتحرر من قبضتها .

كان زملاؤه الماركسيون في فرييمو قد دعموه بالمتطوعين وبالسلاح وبكل ما يحتاجه رجاله. وبدون أي تحفظ ، أتاحوا لموجابي حرية استخدام قواعدهم على الحدود كي يشنوا منها هجماتهم على روديسيا . لذا كان من الطبيعي الآن ، وبعد أن حصلت موزمبيق على الاستقلال ، أن يلتفت إليها مرة أخرى لتخرجه من الورطة والهوان الذي يلقاه من بقية دول إفريقيا ومن إخوته في منظمة الوحدة الإفريقية عندما يجدونه يتعامل مع الوحش العنصري في الجنوب ، ليس مجرد تعامل وحسب بل باعتماده الكلي على جنوب إفريقيا للحصول على أي لتر من الوقود وأي أوقية من الإمدادات التي يحتاجها يوميًا .

كان الخط الحديدي ، المؤدي لميناء بيرا على قناة موزمبيق ، هو الحل

الطبيعي لإخراجه من محنته . وكانت تسهيلات الميناء وتجهيزاته ، حتى الخط الحديدي ، قد تدهور تحت الإدارة الاشتراكية الجديدة لدرجة الانهيار . وكان الحل السهل والمجرب هو في المساعدات الكبيرة التي قد تتيحها الدول الغربية المتطورة له . وكما يعلم أي ماركسي إفريقي طيب القلب ، فقد كانت الدول الغربية على استعداد لدعمهم ، وأي محاولة من تلك الدول للانسحاب أو التراجع سيقابل من الأفارقة بسيل من اتهاماتهم للغرب بالعنصرية والتحيز ، وهي التهمة التي تدفعهم للمساعدة بلغت تقديرات إعادة الميناء لما كان عليه ، وإصلاح خط السكة الحديد وتأهيله ، قد بلغت أربعة مليارات من الدولارات فقد أعيدت التقديرات بواقعية ، وضوعف الرقم تمامًا ليصل إلى ثمانية مليارات . شيء تافه يستحقونه ، وثمن يدفعه الغرب من أجل أن يسعد موجابي ويشمخ بأنفه أمام الوحش الجنوب إفريقي .

لم تكن أمام إتمام الصفقة سوى عقبة واحدة هي جيش رينامو والذي يجلس متربعا على هذا الخط الحيوي ويهاجمه يوميًا تقريبًا مثلما يفجر الكباري والمعابر ويمزق الخطوط ويطلق النار على أي قاطرة تتحرك .

ربما كانت الأضرار الحقيقية أمرًا ثانويًا مقارنًا بالذريعة المناسبة ، التي قدمت مجانًا ، والتي تذرعت بها الدول الغربية لتنسحب من مشاريع إعادة تأهيل الخط الرئيسي ، حتى يتمكن من نقل وترحيل كل صادرات وواردات زمبابوي، بحجة عدم الأمن .

عجزت حكومة فريمو عن حماية الخط وتعثرت خططها مما دعى حكومة زمبابوي للتدخل لمساعدتهم عسكريًا . وأرسست أكثر من عشرة آلاف من جنودها للدفاع عن الخط وحمايته من هجمات رينامو . وكان سين قد سمع بأن تقديرات تكلفة هذه العمليات كانت تستنزف من اقتصاد زمبابوي ، والذي صار واحدًا من أضعف اقتصاديات الدول الإفريقية جنوب الصحراء، حوالي مليون دولار يوميًا . ومما يدعو للسخرية ، أن موجابي والذي كان من الثوار في يوم من الأيام، أجبر الآن ليقوم بدور الدفاع السلبي عن منشئات ثابتة ومراكز دائمة . صار يعاني من نفس لسعات البراغيث التي كان يقوم بها تجاه أعدائه الروديسين ويلسعهم .

ضحك سين والرائد الرينامو على هذه المفارقة وبدأوا في تجرع المزيد من البيرة من جديد ثم رجعوا بذكرياتهم إلى الأيام السعيدة من حرب العصابات الروديسية . وسرعان ما اكتشفا أنهما كانا في نفس المجموعة بالمافورادوناس في اليوم الذي أبادوا فيه ستة وأربعين رجلًا من رجال جنود العصابات : « قتل طيب » كما كانوا يطلقون يومها على العمليات الناجحة . كان كشافة سين قد اختبأوا في مداخل الجبل وأخاديده وربضوا هناك بينما قامت القوات الجوية

بإنزال رجالها بالمظلات على الجانب الآخر، ودفعوا الثوار باتجاه الكشافة . وتذكر سين الحادثة وقال للرائد:

« لم تدفع نحونا بالإرهابيين فقط ، وإنما كذلك بالكثير من الظباء والتياتل . ولم أعرف وقتها على أيهم أطلق النار أولاً » . ضحكا سويًا وواصلا تبادل ذكريات الحرب والمخاطر التي تعرضا لها وعن العمليات الجنونية والمطاردات الشرسة وعن القتل الطيب .

وشربا نخب إيان سمث وكشافة بالانتاين وفرقة البنادق الروديسية . كانت البيرة متوفرة فشربوا نخب رونالد ريجان ومارغريت تاتشر وعندما انتهوا من أنخاب كل القادة المحافظين اقترح سين نخبا جديدًا : « اللعنة على قوريا تشوفا» .

شرب هذا النخب بحماس وقابله الرائد في الحال بنخب مضاد : « اللعنة على فريليمو وتشيسانو» .

كانت قائمة اليساريين أطول من قائمة المحافظين ، لكن سين وصديقه مضيا قدمًا في لعناتهم، لم يتركوا نيل كنوك ولا تدي كندي أو جسي جاكسون .

وعندما افترقا أخيرًا احتضنا بعضهما كالإخوة الأشقاء . ملأ سين كل جيوبه بعلب البيرة وعندما عاد إلى حراسه الشنقاني حيوه بعاطفة ومودة وهو يوزع عليهم العلب .

وفي الصباح ، أيقظه الرقيب الشنقاني في ظلمة الفجر من النوم . كان يعاني من صداع شديد وكان . فمه كريه الرائحة وكأن ضبعًا قد نام فيه . فعندما تكو في حالة بدنية ممتازة وقوية فإن رد فعل الجسم على الكحوليات يكون عكسيًا وصداع الصباح أشد عنفا . ولم يكن معه حتى حبة من الأسبرين لتخفف عنه كربه .

وعندما انتصف النهار ، كان سين قد تخلص من آخر آثار الشراب بعد أن أفرزه عرقًا متصببًا أثناء الطريق . كانوا لا يزالون متجهين نحو الجنوب والغرب. وهم يجرون ، كانوا يشاهدون العديد من التحصينات والنقاط القوية وكانت، كما أخبره الرائد ، مشتتة ومخبأة بعناية . رأى مدافع ميدان خفيفة في مواضع محاطة بأكياس الرمل ، ومدافع المورتر في الخنادق ، وفصائل من الجنود مسلحة بقاذفات (آر بي جي) والتي تعتبر من أقوى الأسلحة المحمولة يدويًا في ترسانتهم . بدا على كل الجنود الذين قابلهم المرح والمعنويات العالية وأضاف إلى ذلك طعامهم وسلاحهم الجيد . كانوا في معظمهم يرتدون البزات المخططة كجلد النمور ويرتدون أحذية عسكرية ذات نعل مطاطي ومصنوعة من قماش

متين .

جدد حراسه تعييناتهم من مخازن الحامية . وعندما توقفوا لتناول الطعام ، أثناء فترة الراحة ، وجد أن الدقيق معبأ في عبوات بوزن كيلو جرامين تحمل ماركة (المطاحن الكبرى) وأن الكبريت من ماركة الأسد والصابون من ماركة سنلايت وكلها كانت تحمل علامة (صنع في جنوب إفريقيا) وابتسم سين لنفسه وحدثها :

« كل شيء يبدو وكأنني عدت لوطني مرة أخرى » .



كانت الخطوط الدفاعية لرينامو تبدو كحلقات متراكزة ، وكأنها أمواج في بركة ، وسرعان ما اتضح لسين أنهم يقتربون من رئاسة الرينامو . عبروا على ساحات بدا واضحًا إنها ساحات للتدريب حيث كانت مكتظة بشباب أسود متحمس ، من رجال وفتيات . وكان بعضهم في العشرينات من عمرهم وجالسين في صفوف ، على رواكيب مظللة لهم من الشمس ، مقوفة بالقش ، وكأنهم تلاميذ في حصة درس ممتعة . كانوا مشدودي الإنتباه نحو السبورة السوداء المعلقة حتى إنهم لم يعيروا ، إلا بالكاد ، أي انتباه لسين ومن معه عندما مروا بهم .

ورأى سين ، مما على السبورة ، أنهم كانوا يدرسون أساليب المشاة ، وحتى النظريات السياسية.

ومن وراء ساحات التدريب وصلوا إلى ما يبدو أنه سلسلة من المرتفعات المنخفضة وعليها أعداد قليلة من الجنود . وعندما اقترب على بعد بضعة أمتار منها تمكن سين من أن يلمح فتحة الخنادق التي أمامها . كانت مشيدة بصورة أفضل ، ومموهة بذكاء ، عن كل شبيهاتها التي مروا عليها أثناء النهار . وكان من الصعب أن ترى هذه لتحصينات من الجو ، وقد كانت منيعة تمامًا أمام القصف الجوي . وكان بمقدور سين أن يستشف ، من سلوك حراسه الذي اختلف عما كان عليه ، ومن خشونتهم نحوه الآن ، أنهم قد وصلوا لمركز قيادة مجموعة جيوش الرينامو .

وفوجئ بأن حراسه قد استداروا جانبًا واقتربوا من أحد مداخل الغرف المحصنة تحت الأرض . وبعد تبادل بعض الحديث ، قام الرقيب بتسليم سين لحراس المدخل ، والذين دفعوه بخشونة عبر السلالم ، ونحو شبكة من الدهاليز والممرات المحفورة تحت الأرض . كانت المنطقة مضاءة بمصابيح كهربائية عادية ، ومن على البعد ، ومن مكان ما ، مع صوتًا رتيبًا لمولد كهربائي. كانت الحوائط مكسوة بأكياس الرمل المتراصة وقد وضعت دعائم

خشبية قوية لحماية السقف.

ووصلوا إلى غرفة الإتصالات . ورأى سين بلمحة خاطفة أن جهاز الإرسال كان معقدًا ومعتني به تمامًا . وكانت تغطي أحد الحوائط خريطة ذات مقياس رسم كبير لكل مديريات شمال ووسط موزمبيق ، زامبيزيا ومانيكا .

اختلس سين نظرة متفحصة للخريطة ورأى في الحال أن سلسلة الجبال والسهول التي يتمركز بها جيش رينامو هذا هي جبال (جور ونجوسا) ، وأن النهر الذي عبروه ، والذي كان يشكل خط الدفاع لرينامو ، هو نهر (بنجوى). كان الخط الرئيسي للسكة الحديدية يقع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً إلى الجنوب من هذه القاعدة . لكنه ، وقبل أن يختلس المزيد من المعلومات من الخريطة ، وجد نفسه وقد سبق بسرعة نحو ممر آخر قصير ، والذي انتهى بباب عليه ستارة مسدلة.

استأذن حارسه بأدب للدخول . وجاءته الإجابة بصوت حاد صادر عن رجل ذي سلطة وهيبة . دفع الحارس سين للدخول ، بعد أن نحى الستارة جانبًا ، حيث دخل سين إلى الغرفة من أمامه . وابتسم وقال :

« الرفيق تشاينا ، يا للمفاجأة السارة » .

وفي الحال جاءه الرد :

« هذا اللقب لم يعد مناسبًا ، يا كولونيل كورتني . وفي المستقبل ، أرجو منك أن تخاطبني بالجنرال تشاينا أو ، ببساطة ، بسيدي » .

كان جالسًا على مكتب في منتصف غرفة الخندق ومرتديا البزة العسكرية المخططة ، لكنها كانت مزينة بشعار الأجنحة الخاص برجال المظلات ، وبأربعة صفوف من الشرائط المبهرجة على صدره الأيسر . وكان معقودًا على رقبته وشاح من الحرير الأصفر ، أما البريه العسكري ، وحزامه المضفور ، فقد علقا على مشجب من خلفه ، أما مقبض مسدسه الأوتوماتيكي، بداخل جرابه المزركشي ، فكان من العاج . وبدا أن الجنرال تشاينا قد تحول فعلا من الماركسية إلى الرأسمالية :

« لقد علمت بأنك أبليت بلاء حسنًا خلال الأيام الماضية ، وأنك متعاطف مع رينامو وحلفائها وأهدافها » . كان في أسلوبه لطف ورقة ، وهذا ما جعل سين يحس بالقلق فسأله :

- « وكيف علمت ذلك ؟ » .

- « لدينا بالطبع جهازًا حديثًا للإرسال والاستقبال كما تعمل ، إننا لسنا متوحشين تمامًا » . وأشار تشاينا إلى جهاز (في إتش إف) الموضوع على ظهر الكنبة الممتدة بطول جدار الخندق: «لقد أمضيت ليلة طيبة مع الرائد

تاكاويرا ، بناء على اقتراح مني » .

فخاطبه سين بنوع من الحدة :

« والآن هل تخبرني ماذا يعني كل هذا يا جنرال ؟ لقد اختطفت مواطنين من دولتين قويتين وصديقتي لكم : « جنوب إفريقيا وأمريكا » .

رفع الجنرال تشاينا يديه قاطعًا حديثه :

« أرجو أن توفر عليَّ غضبك وحنقك يا كولونيل ، فقد تسلم زملاؤنا في لشبونة وعواصم أخرى شكاوي كل من أمريكا وجنوب إفريقيا . وبالطبع أنكرنا اختطاف أي شخص واتخذنا أسلوب المتهم البريء » . صمت تشاينا لبرهة كان أثناءها يتفحص وجه سين ثم قل :

« إنه لأمر مثير للاهتمام أن تكون قد أبلغت السفارة الأمريكية بهذه السرعة ، لكنني أعلم أنني لا أتوقع منك شيئًا دون ذلك » .

وقبل أن يرد عليه سين تناول تشاينا سماعة تلفون الميدان من على مكتبه وتحدث بصوت خافت وبلغة بدت لسين أنها برتغالية رغم أنه لم يفهم منها حرفا ، ثم أعاد بسماعه ونظر باتجاه السباب المغطى بالستائر . وبدون أن يدري ، أدار سين عينيه مثله .

أزيحت الستارة جانبًا ، ودخل منها إلى الغرفة ثلاثة أشخاص . إمرأتان ترتديان البزة العسكرية للرينامو ويحملن بنادق (إي كي) ، ووسطهن ، محروسة تمامًا ، ومرتدية قميصًا من الكاكي المغسول والمكوي ، والذي لوحته الشمس ، وبنطلونًا قصيرًا فضفاضًا ، نفس الملابس التي كانت ترتديها عندما رآها لآخر مرة ، كانت كلوديا مونتيرو .

كانت نحيلة ، وهذا أول ما صدم سين . وكان شعرها منسدلاً خلفها ومربوطًا في ضفيرة تدلت وراء رأسها وقد لوحتها الشمس بلون الخبز المحمص . لكن عيونها بدت واسعة في وجهها الناحل ولم يتبين سين إلا هذه اللحظة مدى جمال خدودها ووجهها . وعندما شاهدها كاد قلبه أن يتوقف ويكاد يخرج من بين ضلوعه ثم يخفق ثانية وناداها :

- كلوديا !

تحولت بوجهها نحوه ، واختفى الدم منها ، وبدا لونها شاحبًا كأنه لون مزيج القهوة باللبن وهمست :

« يا إلهي ، لقد كنت خائفة جدًا ... » ، ثم سكتت وأخذا ينظران إلى بعضهما البعض ، ولم يتحرك أيًا منهما لاثنتي عشر دقة من قلبه ، ثم نطقت باسمه : « سين » . وخرج الإسم منها بصوت كالنشيج . مالت نحوه وقد رفعت

يديها فاتحة كفيها وكأنها في معبد بوذي وامتلأت عيناها بكل معاني الشقاء والمكابدة والحنين الذي مر بها في الأيام الأخيرة . وبخطى واسعة تقدم سين نحوها وألقت بنفسها عليه مغمضة عينيها وضغطت بوجهها على وجهه . أمسكت بيديها على صدره وعنقه وكادت أن توقف تنفسه . وهمس لها :

« يا حبيبتي ! » .

وربت على شعرها الغزير الناعم وهمس : « يا حبيبتي . كل شيء على ما يرام الآن» .

رفعت رأسها نحوه وارتجفت شفتاها . عاد الدم إلى وجهها وجلدها الأسمر الناعم وأشرق وجهها ، وتحول لون الضياء من عيونها ليبرق مثل التوباز الكريم ، وهمست في أذنه :

« لقد ناديتني بيا حبيبتي ! » .

انحنى عليها وقبلها قبلة عذبة طويلة . ومن على مكتبه قال الجنرال تشاينا للحارستين باللغة الشنقانية :

« حسنا . الآن خذوا هذه المرأة بعيدًا » .

أمسكت الحارستان بكلوديا وانتزعتاها من أحضان سين ، فأطلقت صيحة يائسة وحاولت أن تقاوم ، لكن الحارستان كانتا قويتى البنية ورفعتاها من على الأرض ودفعتاها إلى ما وراء ستارة الباب .

وصرخ سين : «إتركنها ! » وجرى من خلفها لكن إحدى الحارستين سحبت مسدسًا من حذامها وصوبته نحو بطنه ، وحجزت الستارة الثقيلة بينهما ، وأخذت صيحات احتجاج كلوديا تصل إليه خافتة مرة بعد مرة ، وهي تقاد بعيدًا عنه . وفي وسط السكون الذي عم بالغرفة استدار سين وواجه الرجل الجالس على المكتب هامسًا بغضب : «أيها الوغد الزنيم . كل هذا من إخراجك» .

سلم تشاينا بهذا وقال :

« لقد جرت الأمور بأحسن مما توقعت رغم أنني ، ومن نقاش سابق لي مع الآنسة مونتيرو ، خاص بك ، تكونت لدي قناعة بأنها مهتمة بك كرجل أكثر من اهتمامها بك كصياد محترف » .

- كم أتمنى أن أنتزع رأسك من بين كتفيك . إذا سببت لها أي أذى ... .

- مهلاً مهلاً يا كولونيل كورتني . إنني لا أنوي إيذائها فهي أقيم من أن تؤذي . إنها كرت للمساومة وأنت تعلم ذلك حقًا .

ورويدًا رويدًا بدأ إنفعال سين وغضبه يزول وأحنى رأسه بعناد وقال : «أوكي تشاينا ، ماذا تريد؟» .

أحنى تشاينا رأسه وقال :

« حسنًا . لقد كنت في انتظار هذا السؤال منك . اجلسي » . وأشار إلى مقعد مواجه لمكتبه وقال:

« سأمر بإحضار إبريق من الشاي ثم يمكننا التحدث » .

وبينما هما في انتظار وصول الشاي ، شغل الجنرال تشاينا نفسه بالأوراق على مكتبه ، وقرأها ووقع مجموعة من الأوامر . استعاد سين في هذا الوقت ثباته ورباطة جأشه . وعندما أحضر أحد الجنود المراسلات الشاي أشار إليه الجنرال تشاينا بحمل الأوراق التي أمامه .

وعندما صار لوحدهما ، رشف تشاينا من كوبه ونظر إلى سين من فوق إطارنظارته وقال : «لقد سألتني عما أريد . حسنًا . على أن اعترف لك قبل كل شيء بأنه ليس هناك ما هو أشد تعقيدًا من الانتقام . على كل حال يا كولونيل، فإنك أنتي الذي دمرت مركز قيادتي في معسكر إنلوزين ذلك اليوم ، والوحيد الذي لطخ سمعت العسكرية . إنك أنتي أيضًا الذي تسببت في إعاقتي شخصيًا » . ووضع يده على أذنه : «سبب كاف لي للانتقام منك وأنا متأكد من أنك توافقني على ذلك» .

ظل سين صامتًا . ورغم أنه لم يشرب شايًا لعدة أيام ويتوق إليه ، إلا أنه لم يمد يده نحو الإبريق الذي أمامه .

وواصل الجنرال تشاينا حديثه دون أن يدعوه : «كنت بالطبع أعلم بأنك صاحب امتياز الصيد بشيويوي . وفي انحقيقة فبنني ، كوزير ثانوي في حكومة موجابي ، كنت واحدًا من الذين وافقوا على منحك ذلك الامتياز . وحتى في ذلك الوقت ، كنت أرى أن من الأفضل أن نراك أقرب ما تكون من الحدود » .

أجبر سين نفسه على الاسترخاء ، وعلم بأنه قد يعرف الكثير مما خفي عليه ويجني مزيدًا من الثمار إذا ما أبدى نوعًا من التعاون بدلاً عن التحدي . ورغم صعوبة ذلك التصنع عليه، فلا زال مذاق قبلات كلوديا بفمه ، فقد تناول إبريق الشاي وصبّ كوبًا لنفسه ورشف منه . ثم ابتسم وقال:

« يبدو أنك نجحت في القيام بدورة كاملة . يومًا رفيق ويومًا جنرال . يومًا وزيرًا في حكومة ماركسية وفي التالي من زعماء الدنيامو ، وأحد لوردات الحرب » .

لوح تشاينا بيده باستنكار :

«لم يشدني الجدل الماركسي يومًا إليه . وإذا ما نظرت الآن للماضي فإنني أعرف إنني ما انضممت إلى جيوش الثوار والعصابات إلا لتحقيق مآربي الرأسمالية فقد كان الانضمام للعصابات الماركسية يومذاك هو أفضل وسيلة

للتقدم والوصل . هل فهمت ما أعنيه يا كولونيل ؟ » .

«فهمته تمامًا » . قال سين مبتسمًا وكانت ابتسامته حقيقية هذه المرة : «من الحقائق المعروفة إن الوسيلة الوحيدة لبناء الشيوعية هي عندما يقوم الرأسماليون بدفع الفواتير وإدارة العرض » .

أومأ تشاينا موافقًا لما يقوله سين وقال :

« لقد عبرت عن ذلك بطريقة جيدة ولقد اكتشفت هذا فيما بعد ، عندما أزاحت (زانلا) نظام إيان سمث وأطاحت به وتسلمت السلطة في هراري . اكتشفت أنت ، كأحد رجال العصابات السابقين ، كانوا يخشونني ولا يثقون في ، وخاصة القطط السمان الناعمة الذين تهربوا من القتال ثم عادوا الآن ليسيطروا على الوضع . علمت إنني ، وبدلاً من الحصول على مكافآتي العادلة ، كنت سأنتهي غالبًا في سجن شكاروبي ، ومن ثم تركت العنان لغرائزي الرأسمالية لأن تقودني للطريق الصواب . ومع بعض الذين يشاركونني الرأي من المواطنين قمنا بترتيب خطة لتبديل الحكومة واستطعت أن أقنع بعض قدامى رفقاء السلاح ، الذين يحتلون مواقع قيادية في جيش زمبابوي ، بأنني سأكون البديل المناسب لروبرت موجابي » .

إعترضه سين موافقًا :

«تعني بالطريقة الإفريقية العريقة الطيبة للإنقلاب العسكري ثم الإنقلاب المضاد» .

أجابه تشاينا وقد أومأ برأسه مؤيدًا :

« من المنعش أن تتحدث إلى شخص يتفهم المبررات ويقدرها . لكنك أنت إفريقي أيضًا ، وإن كنت بلون أقل تلاؤمًا » .

قال سين :

« لقد أرضيت غروري باعتبارك لي كواحد منهم ولكن ، لنعد إلى رغبتك الشريفة لوضع الرجل الأفضل في قيادة الدولة .... » .

- آه . نعم . حسنًا ، أحدهم تباهي بما سيحدث أمام امرأة . هذه المرأة قامت بدورها بالتحدث إلى عشيقها ، والذي تصادف أن يكون مديرًا لجهاز أمن موجابي ، مما أجبرني على الإسراع نحو الحدود بشيء من العجلة ، حيث التقيت هنا بآخرين من رفاقي القدامى والذين انضموا - وأنا معهم - لرينامو » .

- ولكن لماذا رينامو ؟

- إنها ملاذي السياسي الطبيعي . فأنا أجيد القيام بعملي ولهذا رحبت رينامو بي . وكما ترى ، فإنني نصف شنقاني . وكما تعلم فإن قبيلتنا تتمدد على كلا

جانبي الحدود من الخط الاصطناعي الذي حدده مساحو العهد الاستعماري والذين لم يأخذوا في الاعتبار الحقائق الديمغرافية للسكان عندما اتفقوا على رسم الحدود » .

ـ حسنًا . طالما أصبحت الآن رأسماليا ، يا جنرال تشاينا ، وكما تقول ذلك بنفسك ، فلابد أن يكون هناك شيئًا نجنيه أكثر مما ذكرت . مكافأة سخية مثلاً في انتظارك مستقبلاً » .

ـ إنك لا تخيب ظني فيك . فإنك حاد الملاحظة مثلما أنت مراوغ ، كأي إفريقي . طبعًا هناك شيء لي في هذا الأمر . فعندما أساعد رينامو لتشكيل الحكومة الجديدة في موزمبيق ، بجنوب إفريقيا كحليف لها ، فإنهما معًا سيتمكنان من فرض ضغوط لا تقاوم على زمبابوي ، وسيكون بمقدورهما معًا فرض التغيير في حكومة هراري ... وفرض رئيس جديد ليحل محل موجابي».

قاطعه سين :

« أي : من الجنرال تشاينا ، إلى الرئيس تشاينا ، بقفزة هائلة واحدة . سأقول لك شيئًا يا جنرال: إنك لا تفكر فيما دون الثريا » .

ـ لقد حركت مشاعري بحسن تقديرك لتطلعاتي .

ـ لكن : أين مكاني في كل هذا . فلقد تحدثت قبل قليل عن الانتقام لأذنك المعطوبة ، فما الذي ملأ قلبك بالصفح والغفران ؟

تجهم وجه تشاينا ولمس أذنه ثم قال :

« أصدقك القول بأنني كنت سأستمتع بالانتقام ، وأقول لك حقًا إنني كنت قد خططت لشن غارة ليلية على معسكرك في شيويوي ، وحركت بالفعل وحدة من رجالي إلى الحدود المقابلة لامتياز صيدك ، وكنت فقط أتحين الفرصة للهروب من واجباتي هنا لبضعة أيام ، أسجل فيها زيارة لك بنفسي ومعي رجال وحدتي ، عندما أجبرتني الظروف لتغيير خططي تجاهك » .

رفع سين حاجبه إشارة لاهتمامه وانتباهه التام .

«ففي الفترة الأخيرة حدث تغيير خطير في ميزان القوى ، هنا في المحافظة الوسطى . فقد كنا في رينامو قد حاربنا حتى حصلنا على هذا المركز القوى الدائم . وفي الحقيقة فإننا نسيطر على كل الريف ، ما عدا المدن الرئيسية ، ولقد أوصلنا إنتاج الغذاء في هذا البلد إلى النقطة التي تحتم على مزيليمو أن تعتمد تمامًا على المعونات الخارجية لتوفيره . لقد خنقنا طرق مواصلاتهم . إننا نغير على الطرق وعلى السكة الحديد كما نشاء وتتحرك قواتنا بكامل حريتها في أنحاء الريف لتجنيد سكان القرى في صفنا . بل إننا في الحقيقة

شكلنا حكومتنا القادمة ... ولكن كل هذا تغير منذ وقت قريب » .

ـ لكن ماذا حدث ؟

لم يرد عليه تشاينا على الفور ، بل وقف وتوجه نحو الخريطة المعلقة على الحائط وقال لسين:

« بصفتك مشهورًا في مكافحة رجال العصابات ، كولونيل كورتني ، فإنني لا أحتاج لشرح استراتيجيتنا لك ، ولست محتاجًا لأحاضرك عن أسلحتنا في حرب البراغيث هذه . إننا لا نخشى القنابل النووية ولا المدفعية الثقيلة أو الطائرات المطاردة الحديثة . لقد ضحكنا عندما اشترى موجابي سربين من المقاتلات من أصدقائه السوفييت : طائرات عتيقة من مقاتلات الميج ٢٣ ـ التي سعد الروس بالتخلص منها ، والتي لا يستطيع موجابي أن يشغلها في الجو . لكن هناك القليل، القليل جدًا من الأسلحة الحديثة التي نخاف منها ونخشاها ما عدا ـ » .

تردد تشاينا لبرهة ثم التفت مواجهًا سين :

« لكنك أنتي الخبير يا كولونيل ، وأنت تعرف أكثر من أي شخص آخر بأساليب مكافحة رجال العصابات . ما الذي تعتقد بأننا نخشاه أكثر من غيره؟» .

لم يتردد سين في الإجابة وقال :

« طائرات الهيلوكبتر الحربية » .

جلس تشاينا على مقعده مثقلاً بالهم وقال :

« قبل ثلاثة أسابيع سلم السوفييت سربًا كاملاً من مروحيات (هايند) لسلاح فريليمو الجوي».

صفر سين بفمه وقال :

«مروحيات الهايند ! كانوا يسمونها في أفغانستان بالموت الطائر » .

ـ هنا نطلق عليها لقب (هنشاو) أو الصقور .

ـ لكن ليس هناك قوات جوية في إفريقيا تستطيع إبقاء سرب من الهايند في الجو لأكثر من بضعة أيام ، فليس لديهم الإسناد اللازم .

وهز سين رأسه . لكن تشاينا عارضه بهدوء :

« لقد وفر لهم الروس كل الفنيين والذخائر وقطع الغيار مثلما وفروا لهم الطيارين . لقد خططوا لسحق رينامو في خلال ستة مشهور » .

ـ لكن هل سينجحون ؟ أبإمكانهم الفوز ؟

«نعم» . قالها تشاينا بلهجة التأكيد . «هم بالفعل قد حدوا بشدة من قدرتنا على التحرك . وبدون أن يتحرك فلا يمكن لجيش عصابات أن ينتصر » .

ثم أشار للخندق : «إننا هنا نختبئ مثل فيران الخلد خوفًا ، لا كالمقاتلين . فمعنوياتنا ، التي كانت في القمة قبل شهر من الآن ، قد تهاوت وتحطمت . وبدلاً عن النظر بكبرياء وشموخ للأمام، فإن رجالي صاروا ينظرون للسماء بمذلة وهم منكمشون » .

أخذ سين يواسيه وقال له :

« إنها ليست بالحياة السهلة يا جنرال وأعتقد جازمًا أنك قد وصلت لشيء » .

فأومأ تشاينا برأسه وقال :

« فعلا . لقد تصولت لحل ما ... أنت ! »

ضحك سين :

« أنا أعمل ضد سرب من الهايند ؟ لقد أطريتني حقًا ، ولكن أخرجني من الصورة » .

- ليس هذا ممكنًا يا كولونيل . وكما يقول الأمريكيون فأنت مدين لي بواحدة » .

ثم لمس أذنه المعطوبة وقال :

« كما إنني مدين لك بواحدة أيضًا : الآنسة مونتيرو » .

أومأ سين برأسه بإذعان وقال :

« حسنًا . قل ما عندك » .

« الخطة التي وضعتها تحتاج إلى رجل أبيض من الضباط المدربين والذين يفهمون الجنود السود ويعرفون كيف يتعاملون معهم ويتحدثون لغتهم » .

«واضح يا جنرال تشاينا إنك تشير إلى نظرية الجنرال لغابر (فون لتوف فوربك) التي يقول فيها : إن أفضل محاربي الأدغال في العالم هم الجنود السود الذين يقودهم ضباط بيض لماذا بحق الجحيم لا تقوم بهذا بنفسك ؟

أجابه تشاينا :

« إنني أعرف قدراتي الخاصة . إنني كإداري أفضل مني كجندي . بجانب ذلك ، فقد أبنت لك إنني أحتاج لوجه أبيض » .

ثم رفع يده ليمنع سين من اعتراضه مرة أخرى :

« قبل كل شيء فستقوم أنت بالعمل مع مجمرعة صغيرة . عشرة رجال » .

استبقه سين وقال :

« حراسي من الشنقاني طبعًا . هذا هو السبب الذي أرسلتني معهم في تلك الرحلة الممتعة».

ـ تمامًا . تمامًا يا كولونيل . نعم . يبدو أن شهرتك قائمة على أسس متينة . فخلال بضعة أيام كسبت احترامهم . هل أقول ولاءهم ؟ أعتقد أنهم سيسيرون معك ، مهما كانت الأخطار والأهوال ، ولأي مكان .

ـ لكنني سأحتاج لأكثر من العشرة الشنقاني . فهناك اثنان آخران أريدهما معي .

استجاب تشاينا في الحال قائلاً :

« بالطبع . رجالك المتابيلي . هما بالفعل جزء من حساباتي » .

كانت هذه هي الفرصة التي انتظرها سين لسؤاله عن جوب وديدان :

ـ هل هما بخير ؟

ـ أؤكد لك أنهما بخير وعلى ما يرام .

ـ لكنني لن أناقش معك أي تفاصيل أخرى حتى أراهم وأتحدث إليهم .

ضاقت عينا تشاينا :

« أرجو منك عدم تبني هذا الأسلوبِ معي يا كولونيل » فهذا لن يؤدي إلا لجعل علاقاتنا صعبة وغير سارة مستقبلاً » .

لكن سين كرر بعناد :

« إنني أقصد ما قلته لك . أريد التحدث إلى رجالي » .

نظر الجنرال تشاينا إلى ساعة معصمه ثم تنهد بحركة مسرحية :

ـ حسنًا جدًا .

تناول سماعة التلفون وتحدث فيه لبرهة ثم نظر إلى سين وقال له :

« ستحتاج للرجلين ليعملا معك ، وعليك أن توضح ذلك لهم . وهناك فرصة ممتازة هو أنني ، بتعاونكم المطلق ،سأجد نفسي مدفوعًا لإعطائكم حريتكم. هذا العرض يشمل بالطبع الفاتنة مونتيرو » .

رد عليه سين ساخرًا :

« هذا كرم فياض منك » .

التفت الجنرال تشاينا إلى الملازم ، الذي دخل استجابة لندائه ، وقال لسين: «انتظر حتى تسمع كامل شروطي فقد تظن إنني أعقد صفقة قاسية معك » ثم تحدث مع الملازم بالشنقانية :

«خذ هذا الرجل لزيارة السجينين المتابيلي . يمكنك أن تسمح لهم

بالحديث... » ثم نظر ثانية إلى ساعته : «... لمدة عشر دقائق . ثم أحضره لي هنا» .

قاد ثلاثة من الحرس سين عبر الممرات التحت أرضية حتى خرجوا إلى خارج الخندق المتوهج بضوء الشمس .

كانت عنابر السجن تتكون من أكواخ متراصة من الطين المجصص بالزبالة والمسقوفة بالقش، ومحاطة بسور دفاعي مكون من الأعمدة والأسلاك الشائكة ، ومغطى تمامًا بشبكة هائلة للتمويه. فتح أحد الحراس بوابة السور ودخل سين منها ثم توجه إلى باب الكوخ .

وعلى نار موقدة وسط الكوخ كان هناك إناء ثلاثي الأرجل وكان الأثاث الوحيد بالكوخ هو حشيتان من البوص المضفور (شرقانية) رقدت واحدة على كل جانبي منه . كان ديدان نائمًا على حشية ، بينما جلس جوب القرفصاء على الأخرى ، وكان يحدق في الفحم الملتهب .

ونادى سين بالسندبالية بصوت خافت :

« إنني أراك يا صديقي القديم» . نهض جوب ببطء على قدميه وبنفس البطء بدأ يبتسم وقال له:

« إنني أراك أيضًا » . ثم ضحكا واحتضنا بعضهما البعض وهما يربتان على الظهور . قفز ديدان من على الحشية الأخرى وهو يتهلل سرورًا رأمسك بين سين وضغطها بقوة . وسأله جوب:

« ما الذي أخرك عنا طوال هذه المدة ؟ هل وجدتم توكوتيلا ؟ أين الأمريكي ؟ كيف أمسكوا بك؟ » .

قطع عليه سين انفعاله الشديد : «سأخبركم بكل شيء فيما بعد . أما الآن فأمامنا أشياء أكثر أهمية . هل تحدثت مع تشاينا ، وهل عرفت أنه الرجل الذي أسرناه في إنلوزين ؟ » .

- نعم . الرجل صاحب الأذن المعطوبة . ما هي فرصنا معه يا سين ؟

- لا زال الوقت مبكرًا لأعرف التفاصيل . لكنه يتحدث عن صفقة من نوع ما . وفجأة صاح جوب : «ماذا ؟ » .

واستدار كلاهما نحو باب الكوخ .

وهناك ، في الخارج ، سمعت فجأة صفارات الإنذار ، مختلطة بصراخ وحشي . وسألهم سين مستفسرًا : «ماذا يجري ؟ » وهرعوا جميعًا نحو الباب . كانت بوابة السور لا زالت مفتوحة على مصراعيها لكن حراسها تبعثروا وقد أمسكوا ببنادقهم وهم ينظرون بهلع نحو السماء . كان الملازم ينفخ في صفارته بهستيريا وهو يجري . وقال جوب لسين من وراء ظهره : «غارة جوية بمروحيات

فريليمو . كما كانت هناك غارة أخرى قبل يومين » .

ثم سمع سين صوت المحركات التي جاءت خافتة من بعيد ، ونحيب وصفير مراوحها الذي أخذ يرتفع تدريجيًا ويصبح أكثر عويلاً وأثرًا على الحواس .

قبض سين على ذراع جوب وصاح فيه :

« جوب ! أتدري أين يحتفظون بكلوديا ؟ » . أشار جوب بيده باتجاه البوابة : «من هناك . في سور محاط بالأسلاك الشائكة مثل هذا » .

- كم يبعد ؟

- خمسمائة متر .

- البوابات مفتوحة والحراس قد ذهبوا . علينا أن نقتحم [illegible] السور .

- لكننا في وسط هذا الجيش . ثم ماذا نفعل مع الطائرات الحربية ، وإلى أين تذهب ؟

- لا تجادلني . هيا بنا .

جرى سين من البوابة وخرج من السور الحصين ، وكان جوب وديدان يجريان وراءه . وسألهم سين بصوت أجش :

- بأي طريق ؟

- من هناك . وراء تلك الأجمة من الأشجار .

أسرع الثلاثة جريًا . كان المعسكر شبه مهجور بعد أن هرع الرينامو إلى خنادقهم وغرفهم الحصينة تحت الأرض . لكن سين لاحظ أن هناك جنودًا يحرسون المدافع الخفيفة المضادة للطائرات من مراكزها الثابتة كما مروا بفصيلة صغيرة مسلحة بمدافع (آر بي جي) الصاروخية المحمولة يدويًا ومتجهين لأقرب منطقة مرتفعة ، حيث يمكنهم من هذا المرتفع أن يكونوا أكثر تحكمًا في نيرانهم . لكن سلاح آربي جي لم يكن محجزًا بالجهاز الذي يجعل صواريخه لتتبع الأشعة تحت الحمراء ، كما كان لها مدى قصيرًا من الأرض للجو .

كان الدينامو مشغولين لدرجة أن أيًا منهم لم ينظر لوجه سين الأبيض وهم جارون لاتخاذ مواقعهم . ثم بدأت أصوات نيرات المقاومة الأرضية تختلط بعويل المروحيات القادمة نحوهم.

لم ينظر سين من ورائه أبدًا . وعلى مسافة أمامه شاهد لمعان السلك الشائك . كان معسكر النساء مموهًا أيضًا بالشباك وأغصان الشجر ، وبدا إنه ، بدوره ، كان مهجورًا وقد اختفت النساء اللائي يحرسنه . وصاح سين عندما وصل للسور وأمسك بالسلك :

« كلوديا ! أين أنت ؟ » .

صاحت كلوديا بدورها : «هنا يا سين . هنا ! » . كان بداخل هذا المعسكر كوخان . كانت أبوابهما مقفولة ولم يكن بهما أي منافذ . جاء صوت كلوديا من المبنى القريب وسرعان ما أغرقه صوت الرعد الصادر من المحركات ، وعويل المراوح ، وزئير النيران الأرضية .

صاح سين في رفاقه :

« استعدوا لإلقائي من فوق السور » . تراجع للوراء ، وقدر ارتفاع السور بسبعة أقدام . أما جوب وديدان فقد جثما بجوار السور . قفز سين باتجاههم مباشرة ثم دفع قدميه في قبضات أيديهم التي شكلاها بشبك أصابعهما معًا بقوة . وفي توافق دقيق نهضا فجأة رافعين أيديهم المشبوكة للأعلى وألقيا بسين من فوق السور . تجاوز السلك الشائك بسهولة وتشقلب في الهواء ثم هبط على قدميه . امتص الصدمة كرجال المظلات بأن تقلب ثم تدحرج على الأرض ووقف على قدميه ، بعد أن استغل قوة الدفع تلك ، للوصول إلى باب الكوخ وصارخًا لكلوديا وهو يندفع نحوه :

« ابتعدي عن الباب » . واصطدم بأحد ألواح الباب بكتفه .

كان الباب صلبًا وخشبه ثقيلاً ولم يتحطم أمام صدمة كتف سين عليه ، لكن المفصلات انخلعت من الحائط المجصص ، مخلفة وراءها سحابة من الغبار والقطع المتناثرة من الطين الجاف.

كانت كلوديا ملتصقة بالجدار ا بعيد عن الباب . وعندما اندفع سين داخل الكوخ وراء لوح الباب المنفصل جرت نحوه . أمسك بها بين زراعيه ثم استدار معها جاريًا للخارج . شهقت كلوديا وسألته :

« ماذا يجري ؟ » .

- إننا نحاول التسلل من هنا .

وعندما هرعوا نحو السور وجد أن جوب وديدان قد أمسكا بقوة بالسلك الأسفل للسور وكانا يجرانه معًا ، بكل قوة وصلابة أذرعهما وأيديهما للأعلى . ظهرت فتحة ضيقة بين السلك الشائك والأرض الطينية الجافة . انحنى سين على نفس السلك وقبض عليه وبدأ يرفعه معهم للأعلى . وبتضافر جهود ثلاثتهم ، تصدعت الأرض من تحت العمود الذي يشد عليه السلك وتفتتت وارتفع العمود لبضع بوصات خارج الحفرة التي كان مدفونًا فيها وبقى السلك مقوسًا فوق أيديهم . وصاح سين في كلوديا : «انبطحي أرضًا على بطنك وتسللي من خلال الفتحة » .

كانت كلوديا نحيلة خفيفة الحركة وتمكنت من التسلل تحت السلك

وهي تتلوى زاحفة . وصاح سين في رفاقه :

«أمسكا بالسلك» . وشد الرجلان السلك لأعلى مدى وعضلاتهما السوداء قد تكورت وتفضنت وجوههما من شدة المجهود المبذول .

انبطح سين على الأرض ودفع نفسه قدمًا تحت السلك الشائك . وفي منتصف الطريق أحس بأحد النتوءات المعدنية بالسلك تطعن لحم ظهره ، وتجمد في مكانه . أمر رفاقه فورًا بأن يجراه جرًا. وبينما أمسك ديدان بالسلك وشده بكامل قوته ، انحنى جوب وشبك يده بيد سين ، مثل رجال المطافئ.

ثم أمر سين :

«أجذب! » . وجذبه جوب . شعر سين بلحم ظهره يتمزق وبالدم يسيل على كتفه ... ثم تحرر تمامًا .

وعندما نهض على قدميه شهقت كلوديا : «ظهرك!» لكنه قبض على ذراعها وسأل جوب : «أي طريق ؟ » . كان يدرك تمامًا أن جوب لابد أن يكون قد تفحص المنطقة بعين الجندي خلال أيام سجنه هنا ، وسيكون رأيه قاطعًا . أجاب جوب في الحال : «إلى النهر ، إذا ما استطعنا الإفلات من هذا المعسكر» . كان على سين أن يرفع صوته كي يأمر جوب بقيادتهم صوب النهر . فقد كان كل ما حولهم يضج بطقطقة البنادق الأوتوماتيكية الخفيفة ثم القعقعة العميقة للمدافع الرشاشة الثقيلة ، بصوت بدا وكأن عمودًا حديديًا كان يجرجر على صفحة من الحديد المموج . ثم غرق ذلك الضجيج وسط صوت راعد ، وكأنه صوت شلالات فكتوريا عن قمة الفيضان ، وعرف سين في الحال مصدر هذا الصوت ، رغم إنه لم يسمعه من قبل . كان صوت مدافع (جاتلنج) ذات الفوهات المتعددة ، والمركبة على مقدمة مروحيات الهايند ، والتي تطلق رصاصها الضخم عيار (١٢٫٧) ملمتر ، وكأنه تدفق الماء من خلال خرطوم للحريق وكالشلال المنهمر .

شعر بكلوديا تترنح بجانبه لشدة ذعرها من ذلك الصوت الرهيب فجذبها من ذراعها مزمجرًا : «هيا . إجري » . كان لا يزال بها عرج خفيف من جراء أربطة ركبتها المصابة . وتبعا جوب وديدان نحو النهر وهما تحت غطاء من فروع الأشجار . أمامهم مباشرة كانت هناك أرض مكشوفة جاء منها ، باتجاههم ، فصيل لجنود الرينامو مكون من ثمانية أو تسعة رجال في طابور ، واحد وراء الآخر ، وكان كلا منهم يحمل قاذفة صواريخ آر بي جي . كانوا يجرون ولكن وجوههم متجهة دائمًا صوب السماء ، باحثة عن هدف لصواريخهم . كان حاملوا القاذفات الصاروخية على بعد مائتي ياردة منهم عندما تزلزلت الأرض من تحت أقدامهم . لم يكن سين قد رأى في حياته ، رغم كل خبراته

العسكرية ، مثل هذا الشيء . نقد ذابت الأرض وكأنها تحولت إلى سائل يغلي وسط سحاب رهيب من الغبار ، بعد أن أصابها تدفق قذائف ١٢,٧ ملمتر للجاتلنج .

فبطول الصف الذي أصابته قذائف المدفع كان كل شيء مدمرًا ، حتى أن الأشجار اختفت وسط دوامة من الأخشاب المتطايرة والأوراق الممزقة . وصارت الأرض أشبه بالخطوط على الحقول المحروثة ، وتناثرت عليها بقايا ذلك الفصيل من حملة ال (آر بي جي) . لقد تمزقوا إربًا إربًا وكأنهم قد خرجوا من خلال مفرمة هائلة .

كان سين لا يزال ممسكًا بذراع كلوديا ، فجذبها للأسفل ، على الحشائش التي تحيط بالطريق. في اللحظة التي حوم من فوقهم ظل متقطع للطائرة ، بسبب الأشجار التي كانت تغطيهم عن عيون المدفعجي بالمروحية . أما جوب وديدان فقد أسرعا وغضسا تحت الحشائش بجوار الطريق وتجنبا اكتشاف وجودهما .

حلقت الهايند على بعد خمسين قدمًا من فوقهم أعلى الأشجار . ولمحوا المروحية من خلال أفرع الأشجار بوضوح ، وهي تحوم حول الأرض المكشوفة حيث تناثرت جثث فصيل الصواريخ عليها .

أصيب سين بالصدمة عند مرأى المروحية إذ لم يكن قد تصور أنها بهذه الضخامة ، وبهذا القدر من البشاعة . كان طولها خمسون قدمًا . ومن فرط بشاعتها أطلق عليها الروس أنفسهم بسم (ستي موفتش) أو الحدباء الظهر . كانت كالمسخ العملاق المشوه . شيء شاذ غير عادي . وكانت مموهة بلطخات متماوجة من اللون الأخضر والبني مما أعطاها مظهر المصابة بالبرص . رأي سين الغطاء المتكرش من الزجاج المزدوج والمحصن ضد القذائف ، فوق مقعد الطيار ، وكأنه عيون شريرة حاقدة تحدق نحوهم بغل وضغينة ، حتى أن سين انبطح تلقائيًا على الأرض المعشوشبة ، ومد يده على ظهر كلوديا ، وكأنه يحميها من هذه النظرات .

وأسفل جسم المروحية الضخم ، برزت صفوف من تجاريف الصواريخ ، وعندما تجرأوا ونظروا برهبة إليها ، حومت الطائرة ودارت حول محورها ثم أحنت أنفها الأفطس القبيح للأسفل وأطلقت عاصفة من القذائف والصواريخ .

انطلقت القذائف وسط عاصفة رهيبة من الدخان الأبيض وانفجرت فوق الغرف تحت الأرض والمماطة بأكياس الرمل وأصالتها إلى شلالات من الغبار والدخان . أصابهم الصوت بالصمم ، وكأن أزيز المراوح وعويلها الحاد قد صار كالمخارز تثقب داخل أذانهم . وغطت كلوديا كلتا أذنيها وهي تنتحب :

«يا الله!».

دارت الهايند ببطء ، تفتش عن أهداف جديدة . ومرة أخرى تهاووا على الأرض فزعين وتواروا عنها . ابتعدت عنهم وأخذت في اصطياد أهدافها على ضفة النهر وأطلق مدفع الجاتلنج المركب على أنف الهايند ، عاصفة من المعدن المتفجر على الغابة ودمر أي شيء في طريقه .

صاح سين وسط الضجيج ، وهو يجر كلوديا على قدميها : «هيا بنا!». جرى جوب وديدان أمامهما على الأرض الرخوة ، التي هرتها مدافع الهايند ، حتى صارت ناعمة اسفنجية تحت أقدامهم .

وعندما مروا بالجنود القتلى انحنى جوب ، بدون أن يبطئ من جريه ، واختطف قاذفة غير مدمرة لصواريخ (آر بي جي) . وعند الخطوة التالية انحنى مرة أخرى وتناول شنطة من الزجاج المغزول (فايبر جلاس) تحمل بالسهر وبها ثلاثة من قذائف (آر بي جي) المجنحة ثم مضى في طريقه نحو ضفة النهر . لم تتمكن كلوديا من مواكبة سرعة عدوهم من جراء ركبتها المصابة . وحتى مع سين ، الذي كان يدفعها دفعًا للأمام ، كانوا على بعد مائة ياردة من رفاقهم .

وصل جوب وديدان للضفة والتي كانت صخرية شديدة الإنحدار وقد غسلت الأمواج المتعاقبة صخورها وحولتها لحجارة محطمة لامعة السواد ، وأحاطت بالشاطئ الأشجار النهرية الطويلة والتي تدلت فروعها على المياه سريعة الجريان بالنهر والتي بدا لونها أخضرًا تفاحيًا.

نظر إليهم جوب بقلق فقد كانوا لا يزالون في العراء . وفجأة تغضن وجهه وهو يصرخ محذرًا لهم وألقى بشنطة القذائف قرب قدميه ورفع الماسورة القصيرة الثخينة للآربي جي على كتفه وصوبها على السماء من أعلى كتف سين .

لم ينظر سين فوقه فقد علم ألا وقت لذلك . لم يكن قد ميز بين عويل مراوح الهايند الأخرى القادمة نحوهم وبين الصوت الراعد المصمم لآذانهم الذي أحدثته الطائرة الأولى ، ولكن الضجيج الآن كان يتزايد لدرجة رهيبة من حوله . بالقرب منه وجد أخدودًا ضيقًا ، حفرته مياه الأمطار ، لكنه كان جافًا الآن وحاد الجوانب . دفع سين بكلوديا إلى قدميها وقفز بها ، بما أن جملها بين ذراعيه ، إلى داخل الأخدود . كان عمق الأخدود ستة أقدام . وارتطم سين بالهاوية بعنف كاد يحطم أسنانه وذلك في اللحظة التي ذابت فيها جوانب الأخدود تحت وابل من نيران المدفع .

اهتزت الأرض من تحتهم وكأنها كائن حي ، وكأن سين وكلوديا كانا كحشرات نفضها جواد ضخم من على أجنابه . سقط التراب عليهما كالسيل المنهمر بعد أن مزقت قذائف المدفع حافة الأخدود وتدفق التراب على ظهريهما

وكاد يخنق أنفاسهما ويدفنهما أحياء .

استفاقت كلوديا وصرخت محاولة إخراج نفسها من بين طبقات التراب المتراكم عليها ، لكن سين أجبرها على السكون وصرخ في وجهها أن تستمر راقدة :

« كوني في مكانك ولا تتحركي أيها العصفور المدلل » رمن فوقهم هومت الهايند تفتش عنهم بينما المدفعجي يحرك ، من مكانه المرتفع ، مواسير مدفع الجاتلنج لتصويبه على ذلك الهدف .

أدار سين رأسه بحركة خفيفة ونظر من طرف عينه التي قتمها الغبار . وعندما صفت رؤيته شاهد أنف الهايند الملطخ والعريض مهمومًا في الهواء فوقهم مباشرة وعلى ارتفاع لا يزيد على خمسين قدمًا . لابد أن المدفعجي قد التقط لونهم الأبيض مما جعل منهم أهدافًا مختارة . لم ينجهم منه إلا طبقة الغبار والتراب الخفيف الذي غطاهم وحماهم من رؤيته لهم من خلال نيشان المدفع .

وصاح سين متوسلاً بصوت مرتفع :

« أضربه يا جوب . أضرب ذلك الوغد » .

ومن فوق صخرة مرتفعة على شاطئ النهر ، ارتمى جوب على ركبة واحدة . لقد كان سلاح (الآربي جي سبعة) من أسلحته المفضلة . كانت المركبة الضخمة تحلق فوق الخور على بعد خمسين ياردة منه . صوب سلاحه منخفضًا باثنتي عشرة بوصة دون مستوى سقف الطائرة ، فقد كان (الآربي جي ٧) سلاحًا غير دقيق ، وحتى إذا ما أطلقته مباشرة فعليك أن تعمل حسابًا للارتفاع، فقد ينطلق الصاروخ بعيدًا عن هدفه . شدد على ضبط الشعرات المتقاطعة على مكان الهدف الذي حدده ثم ضغط على الزناد . هب دخان العادم الأبيض على كتفه وانطلق الصاروخ مباشرة ليضرب الطائرة ، على بعد بوصات أعلى مما كان قد حدده ، على الحافة التي يتصل بها السقف الزجاجي المدرع بسقف الطائرة المعدني المموه .

- انفجر الصاروخ بقوة كان يمكن أن تقتلع الماكينة من على شاحنة ضخمة أو تفجر قاطرة حديدية وتمزقها إربًا . ولوهلة غطى اللهيب والدخان مقدمة الهايند وصرخ جوب وهلل قافزًا على قدميه وانتظر ليرى ذلك الوحش البشع وقد سقط متحطمًا على الأرض وسط سحابة من اللهيب والدخان . لكن العكس قد حدث تمامًا . قفزت المروحية الضخمة للأعلى وكأن الطيار قد جفل عندما انفجر الصاروخ بالقرب منه ، ولكن ، وعندما تلاشي الدخان ، رأى جوب بعيون غير مصدقة أن شيئًا لم يحدث لجسم الطائرة فلم يكن بها سوى اسوداد على معدنها المموه بالطلاء في المكان الذي ارتضدم به الصاروخ .

وعندما نظر إليها ثانية تحول أنفها القبيح نحوه وأخذت عيون مواسير المدفع العديدة تبحث عن مكانه . ألقى جوب بالأربي جي وقفز من فوق الصخرة نحو الماء من على ارتفاع عشرين قدمًا ، في اللحظة التي مزق المدفع فيها الأفرع الضخمة للشجرة التي كان متواريًا تحتها. التهمت قذائف المدفع جزع الشجرة وقطعتها كمنشار ضخم ومالت الشجرة على جنبها ثم انهارت أسفل الصخرة وسقطت على صفحة الماء في سحابة من الرذاذ والرشاش .

ابتعدت الهايند عنهم ، ترتفع وتنخفض تمسح ضفة النهر ، حيث لم تتأثر من ضربة الصاروخ ، وبكل عنفوانها القاتل أخذت تفتش عن هدف جديد . وزحف سين على ركبتيه داخل الأخدود وهو يشهق ويسعل وصرخ بصوت مخروش : «أأنت بخير ؟ » . لكن كلوديا لم تستطع لوهلة أن ترد عليه . كانت عيونها معماة من الرمال التي ملأتها ، ودموعها قد حفرت مجاري لها وسط خدودها المكسوة بالطين . وقال لها سين وهو يرفعها على قدميها :

« علينا أن نصل للنهر بسرعة» ثم أخذ يدفعها ويجرها ليخرجا من جانب الخور . جريا سويًا للصخرة المرتفعة ونظرا منها إلى الماء من تحتها . كانت الشجرة التي مزقتها القذيفة قد بدأت تطفو مع التيار كالرمث الهائل والمغطى بالفروع المورقة . وأمرها سين بالقفز . لم تتردد كلوديا وألقت بنفسها في الماء وسقطت في النهر على قدميها ثم تبعها سين حتى قبل أن تمسي الماء . طفا على السطح ، ورأس كلوديا بجوار رأسه ، وقد غسل الغبار والطين من وجهها وغطى جزء من شعرها عينيها ، لامعًا والماء يسيل منه .

اتجها سويًا نحو تلك الكتلة الخضراء العائمة والمشحونة بالفروع والورق الأخضر . كانت كلوديا سباحة ماهرة . ورغم ارتدائها لحذائها الطويل الرقبة وملابسها الكاملة إلا أنها كانت تركل الماء بقوة برجليها وتدفع بنفسها للأمام بضربات يديها .

وعندما وصلت لجزع الشجرة العائم من جوب يدًا طويلة قوية لها وجذبها أسفل الفروع . كان ديدان هناك أيضًا وما لبث سين أن وصل . تعلقوا على أفرع الشجرة وقامت الأغصان والأوراق بحمايتهم تمامًا عن الأنظار .

اشتكى جوب غاضبًا : « لقد ضربته . لقد ضربت الوغد على أنفه بصاروخي ، وكأنني ضربت ثور جاموسى بمقلاع ، لكنه استدار وتوجه نحوي مباشرة » .

مسح سين الماء من عيونه ووجهه بصفحة يده وأوضح لجوب بهدوء :

« إنها صفائح التيتانيوم التي تدرعها . هذه الدروع منيعة وغير قابلة للتدمير بالنيران التقليدية . فكل من غرفة القيادة وغرفة الماكينة محصنة تمامًا .

الشيء الوحيد الذي بإمكانك عمله ، عندما يتوجه نحوك أحد هؤلاء الأوغاد ، هو أن تلوذ بالفرار وتختبئ » .

ثم أزاح شعره المشبع بالماء عن عيونه وقال له :

« على كل حال ، لقد أبعدته عنا بتصرفك هذا . لقد كان الوغد على وشك تحطيمنا بذلك المدفع الهائل القذر » . ثم سبح سين باتجاه كلوديا .

هي بدورها واجهته باتهام :

« لقد صرخت في وجهي ! كنت جلفًا تمامًا معي ! وحتى إنك وصفتني بالعصفور المدلل! » .

ابتسم لها وقال :

« أن أكون جلفًا فظًا معك خير من أن تكوني ميتة وقتها » . وابتسمت بدورها وقالت :

« أهذه دعوة منك يا سيدي ! لا مانع لدى من بعض الجلافة ... منك » .

ومن تحت الماء مد زراعه حول خصرها وضمها إليه وقال لها :

« يا إلهي . كم افتقدتك » .

قالت له بهمس :

« لم أتحقق من أنني ... إلا بعد أن فارقتني » .

اعترف لها :

« وأنا أيضًا . فحتي ذلك الوقت ظننت إنني لا أطيقك . ثم تأكدت إنني لا أستطيع شيئًا بدونك » .

- أشعر بضعف عندما تقول لي ذلك . حدثني هل تعني ذلك حقًا ؟

فضمها إلى صدره وقال :

« فيما بعد . علينا الآن أن نحاول الخروج من هنا أحياء » . تركها وعبر سباحة إلى جوب المختبئ تحت الغطاء الورقي للشجرة وسأله :

« هل ترى الشاطئ ؟ » .

أومأ جوب برأسه وقال : «يبدو أن لغارة قد انتهت . فهم يخرجون الآن من خنادقهم » .

نظر سين من بين الأغصان التي تغطيه ، ورأى أرتالاً من الجنود تتحرك بحذر حول الشاطئ القريب . وقال لجوب :

« إنهم مشغولون الآن بلملمة أنفسهم ، وسيظلون كذلك لفترة قبل أن يعلموا بفرارنا . ولكن انتبه جيدًا لهم » .

ثم سبح نحو ديدان الذي كان يراقب الشاطئ البعيد وسأله :

« ماذا ترى ؟ » . فأجابه مشيرًا بيده :

« إنهم مشغولون بأنفسهم » . كان فريق من حملة النقالات يتجول بطول الشاطئ ، يلتقط الموتى والجرحى ، بينما كانت مجموعات أخرى تقوم بترميم تحصيناتهم المحطمة وتبديل شباك التمويه الممزقة . ولم ينظر أحد منهم باتجاه النهر ، ومع التيار طفت على النهر ، بجوارهم ، أكوام من الحطام : فروع لأشجار مبتورة ، ومعدات معطوبة ، وبراميل للزيوت فارغة ، مما قد يساعد على جذب الأنظار بعيدًا عن ملجئهم المهلهل بالشجرة العائمة . وقال سين متحدثًا مع ديدان :

« إذا ما تجنبنا اكتشافهم لنا حتى الليل فسنكون قد ابتعدنا عن جيشهم ، ما عليك إلا أن تفتح عينيك جيدًا يا ديدان » .

أومأ ديدان مطيعًا : « مامبو» . وركز كل انتباهه على الشاطئ .

سبح سين بهدوء عائدًا إلى كلوديا وتعلق على فرع من الشجرة الطافية . اقتربت منه في الحال وهمست له :

« لا أحب أن تكون بعيدًا عني ولو للحظة . هل عنيت حقًا ما قلته لي ؟ » قبلها وقبلته لكنها تملصت من أحضانه وسألته من جديد :

« هل كنت تعني ذلك ؟ » فأجابها :

- إنني لا أستطيع العيش بدونك .

- أليس هناك قول أفضل من ذلك ؟

- إنك أروع امرأة عرفتها في حياتي .

- لا بأس . لكنه ليس ما أريد سماعه .

- إنني أحبك .

- هذا هو ما أريد . هذا هو . وأنا أحبك أيضًا .

تبادلا القبلات وقد نسيا العالم من حولهما ولم يعلم سين كم استغرق نسيانه حتى سمع صوت جوب :

« إننا متجهون نحو الشاطئ » .

كان تيار النهر قد دفع بالشجرة الطافية إلى مخرج النهر الآخر المنحني عميقًا وسرعان ما كانوا يتعثرون على الشاطئ الرملي . وعندما دلى سين قدميه لمس القاع بهما . طلب سين من جوب أن يقوم مع ديدان بدفع الشجرة نحو الماء العميق ، ثم قاموا جميعًا بدفع الشجرة بعزم شديد حتى تحررت من الرمال ،

والتقطها التيار مرة أخرى ودفعها إلى نهاية المنحنى . كان سين يلهث من التعب عندما تعلق بأحد فروعها ولم يكن غير رأسه فوق الماء . سبحت كلوديا إليه وتعلقت على نفس الفرع . كان وجهها متغيرًا وبدا عليها الكدر وهي تسأله :

« سين ، لم أكن قادرة على ان أسألك ، أغلب الظن لأنني لا أريد الاستماع للإجابة » . ثم توقفت فجأة وجذبت نفسًا عميقًا وسألته :

« أبي ؟ » .

التزم سين الصمت وهو يفتش عما سيقوله لها . لكن كلوديا هي التي تحدثت إليه :

« إنه لم يرجع معكم . أليس كذلك ؟ » .

هز سين رأسه وتأرجحت خصل من شعره المشبع بالماء على وجهه . فسألته برقة :

« هل عثر على فيله ؟ » .

أجابها سين ببساطة : « نعم » .

قالت : « أنا سعيدة بهذا . فلقد أردت أن يكون ذلك آخر هدية مني له » .

ألقت بذراعيها حول رقبة سين ولم تحاول النظر إلى عينيه عندما سألته ثانية :

« هل مات أبي يا سين ؟ لن أصدق ذلك إلا إذا سمعته منك » .

ضمها إلى صدره بقوة مواسيًا واستجمع نفسه ليجيبها :

« نعم يا حبيبتي . لقد مات كابو ، لكنه مات كما يموت الرجال . نوع الميتة التي كان يريدها . وذهب معه أيضًا توكوتيلا ، فيله . هل تريدين سماع التفاصيل ؟

هزت رأسها وهي تمسك به بشدة : « لا . ليس الآن . وربما ليس أبدًا . لقد مات ومات معه جزء مني ومن حياتي » .

لم يجد سين ما يقوله ليواسيها واحتضنها وهي تبكي أبيها . بكت بصمت وهي متعلقة به والحزن يهزها هزًا واختلطت دموعها مع ماء لنهر الذي كان يسيل على وجهها وقبلها سين وقلبه يذوب من أجلها .

ظلوا طافين على صفحة النهر الأخضر العريض ، ودخان المعركة ورائحتها تتسلل إليهم من الضفة التي دمرتها القنابل . وتسللت إلى مسامعهم صرخات الجرحى وأنينهم عبر صفحة الماء. تركها سين تندب حزنها الصامت حتى بدأت تنهداتها التي كانت ترج جسمها رجًا تخف ، وخمست له أخيرًا بصوت حلقي مشروخ :

« لست أدري كيف كنت سأتحمل هذا لولم تكن بجواري . كنتما أشبه بالبعض . أنت وهو وأعتقد أن هذا ما جذبني نحوك مني المقام الأول » .

ـ إنني أعتبر هذا مجاملة منك لي .

ـ لقد قصدت ذلك . لقد أعطاني أبي ذوقًا وميلاً نحو الرجال ذوي القوة والمقدرة .

جاءت بجوارهم جثة طافية . ملأ الهواء المحبوس جاكتة الجندي القتيل الذي كان يرتدي ذي الرينامو ، وكان الجسد طافيًا على ظهره ويحمل وجهًا شابًا لصبي قد لا يزيد عمره على خمسة عشر عامًا . كانت جراحه قد غسلت من الدم تقريبًا ما عدا إفراز قرمزي خفيف كالدخان يسيل من جروحه على الماء الأخضر . لكن هذا كان كافيًا .

فقد رأى سين الرؤوس ذات العقد المتورمة لتماسيح ، بدت حراشيفها وكأنها لحاء شجرة بلوط عتيقة ، تسرع مع التيار ومتابعة لبقع الدم ، والمياه تتساقط من أخطامها البشعة وهي تهز ذيولها . كانا تمساحين ضخمين يتسابقان للحصول على الجائزة .

أحد التمساحين وصل للجثة رافعًا رأسه فوق الماء ، وفتح فكيه المليئين بصفوف من الأسنان الصفراء المختلفة الطول والأحجام ثم أطبق على ذراع الجثة، هبطت أسنانه على اللحم الميت بصوت طاحن ، وصل بوضوح إلى أسماعهم ، فشهقت كلوديا وأدارت وجهها بعيدًا .

وقبل أن يجذب التمساح الجثة ليغوص بها أطبق التمساح الآخر ، الأضخم حجمًا ، فكيه على بطن الميت واشتبك الاثنان في صراع بشع عنيف على الضحية .

فكوك التماسيح عادة غير مجهزة لتقطع اللحم والعظم مباشرة . لذا كان كل منهما مطبقًا بكفيه على الجزء الذي أصابه من الضحية ، مستخدمين ذيليهما المليئين بالقرون المشطية بطريقة لولبية لضرب الماء يمينًا ويسارًا وسط رغوة بيضاء كثيفة للماء ، وهما يتجاذبان الجثة ويمزقانها تمزيقًا، حتى أن جماعة سين تمكنوا من سماع صوت أوتار العصب وهي تتمزق وصوت الأطراف على الكتف والأربتين وهي تنفصل عن الجثة .

ووسط الهلع والدهشة نظرت كلوديا وراءها وتقيأت عندما ارتفع أحد التمساحين عاليًا فوق الماء وهو يمسك بفكيه ذراع الضحية ثم بدأ يبتلعها بحركات وتقلصات متشنجة ، وانتفخت حراشيف حلقه الأصفر عندما انزلقت الذراع داخل بطنه ، ثم ما لبث أن استدار ليقتطع لقمة أخرى من اللحم .

وهما يتحاربان على بقية الجثة ويتجاذبانها بينهما ، ابتعدت عنهما الشجرة

الطافية بمن عليها من ركاب وشعر سين بارتياح بالغ عندما تذكر الجرح الطويل الذي شق لحم ظهره من جراء السلك الشائك . فقد كان دمه هو ، بلا شك ، يطلق رائحته على المياه الخضراء من حوله .

وهمست كلوديا : «يا إلهي . هذا شيء مخيف . لقد صار كل شيء مثل كابوس بشع » .

أمسك سين بها محاولاً بث الشجاعة فيها وقال لها : « هذه هي إفريقيا . لكنني معك الآن وسيكون كل شيء على ما يرام » .

ـ أتظن ذلك يا سين ؟ أتعتقد بأننا سنخرج أحياء من هنا ؟

ـ ليس لدى ضمان بنكي لذلك إذا ما كان هذا ما تقصدينه بسؤالك !

شهقت باكية للمرة الأخيرة ثم عادت إلى ذراعيه ونظرت بعمق إلى عينيه وقالت .

« إنني آسفة إذ أتصرف كالأطفال . لقد كادت روحي تزهق قبل قليل لكنني أعدك بألا يحدث ذلك مني مرة أخرى . على الأقل أنتي معي ، ولحسن الحظ ، قبل أن يفوت الأوان » . ثم ابتسمت له متصنعة المرح والماء ليتدفق تحت ذقنها وقالت :

« سنعيش يومنا هذا أو ما تبقى منه » . ابتسم لها مشجعًا وقال : «نعم يا فتاتي . فمهما حدث فسيكون بمقدوري أن أقول بأنني أحببت كلوديا مونتيرو».

قاطعته بلهجة التوكيد : « وكانت في المقابل تحبه أيضًا » . ثم قبلته ودموعها تسيل وكان ذلك بالنسبة لهما عهدًا وتأكيدًا . شيء حقيقي في عالم مليئ بالمخاطر والشكوك والمجهول .



سبح سين نحو جوب وسأله إن كان يرى شيئًا فأجابه جوب : «أعتقد أننا قد تجاوزنا خطوط العدو» . فقال له سين وهو ينظر نحو ساعة يده الرولكسي :

« عندما يحل الظلام سنقوم بتعويم الشجرة باتجاه الشاطئ ونغادر المكان . لم يبق إلا ساعتان للغروب وأرجو أن تفتح عينيك جيدًا » .

ثم سبح نحو ديدان ليكرر تحذيره له .

حاول تقدير سرعة التيار عن طريق متابعته لضفة النهر بعينيه وقرر أن سرعتهما لا تتجاوز الميلين في الساعة مما يعني أنهم لا زالوا قريبين لدرجة الخطر من خطوط الرينامو ، حتى لو حل الغروب. ولأن النهر كان يجري شرقًا نحو المحيط فسيكون لزامًا عليهم أن يشقوا طريقهم نحو زمبابوي في الغرب إما بالالتفاف حول خطوط رينامو أو باختراق جبهة قوات الجنرال تشاينا بأي ثمن .

كانت مهمة هائلة مرعبة لكن سين كان لا يزال محتفظًا بتفاؤله وثقته بقدراته . ترك ديدان وسبح عائدًا لكلوديا وقال لها :

« إنك تمنحينني إحساسًا بالارتياح والثقة » . فأجابته :

« وسيكون هذا هو واجبي في المستقبل ولكن ماذا سنفعل الآن ؟ » .

- لا شيء قبل حلول الظلام ما عدا أن نقود هذه (الباخرة) لأدنى النهر . بعد فترة من الصمت قالت له : « إنني أحس بالبرد » .

لقد مكثوا بالماء قرابة الساعتين . ورغم أن حرارة الماء لم تزد على درجتين بأقل من حرارة أجسامهم إلا إنها كانت كافية ليشعروا بالبرد والقشعريرة .

عندما غربت الشمس تحول سطح النهر لما يشبه الثعبان الضخم المضاد بألوان قشوره البرتقالية والقرمزية المتوهجة وأصدر سين أوامره : «علينا الآن أن نعمل للوصول إلى ضفة النهر» . شرعوا جميعًا في تعويم الشجرة ودفعها عبر التيار للناحية الأخرى . كانت ثقيلة صعبة المراس وكان معظمها يغوص تحت الماء . قاومت الشجرة جهودهم لدفعها والاقتراب بها نحو الشاطئ ، رغم قيام أربعتهم بدفعها وهم يضربون الماء بأرجلهم بقوة . وشيئًا فشيئًا بدأت تندفع نحو صفحة الماء العريض .

غابت الشمس تحت الأفق الغربي ، وتحولت صفحة الماء إلى لون أسود كزيت البترول الخام ، بينما ظهرت أشباح الأشجار على الشاطئ قاتمة شاحبة تحت آخر ضوء للغروب لكنهم كانوا على بعد ثلاثين مترًا من الشاطئ الجنوبي. واتخذ سين قراره :

« سنسبح من هنا نحو الضفة . كونوا قريبين من بعضكم البعض حتى لا تتفرقوا خلال الظلام. أأنتم جاهزون ؟ » .

اقتربوا من بعضهم متشبثين بالفرع نفسه واقترب سين من كلوديا وفتح فمه لإصدار تعليماته لكنه سرعان ما أقفله وبدأ يصغي بكل حواسه للصوت الغريب .

أصابته الدهشة لأنه لم يتبينه من قبل . ربما غطت ضفاف النهر والأشجار المرتفعة ذلك الصوت وأضمدته لكنه ، على أي حال ، صار عاليًا فجأة ولا تخطئه الأذن . صوت واضح لمحرك خلفي لقارب منطلق بسرعة قصوى . « يا للعنة! » . همس سين بمرارة ونظر إلى الضفة القريبة التي لا تبعد عنهم بأكثر من ثلاثين مترًا والتي بدت الآن وكأنها ثلاثون ميلاً .

كان أزيز المحرك يرتفع وينخفض لكنه كان مندفعًا باتجاه التيار بسرعة قادمًا من اتجاه خطوط الرينامو . أخفى سين رأسه بين أغصان الشجرة ليحدق من خلال فجوة منها نحو القارب ورأى خلال الظلام وهجًا قويًا . شعاعًا من

الضوء الباهر يرتفع للخطة نحو السماء المظلمة ثم يمسح الأشجار القائمة بطول الضفة ثم ينعكس على صفحة الماء ثم يعود ثانية لمسح الضفتين .

وقال سين لهم :

« إنه قارب دورية رينامو . وهم بلا شك يبحثون عنا » .

شددت كلوديا قبضتها على يده ولم ينبس أحد منهم بكلمة . وقال سين : « سنحاول أن نختبئ تحت هذه الشجرة رغم إنني لا أرى أنهم سيخطئون استعدوا للغطس تحت الماء عندما يتجه شعاع الضوء نحونا » .

تغير صوت المحرك وأخذ القارب يبطئ من سرعته ثم استدار إلى أعلى النهر عند المنحنى ، وعلى بعد بضع مئات من الياردات عنهم ، لكنه استدار ثانية باتجاه التيار ... نحوهم .

أخذ شعاع ضوء الاستكشاف يتوالى بالتناوب من ضفة للأخري مضيئًا لها كضوء النهار . كان ضوءًا قويًا جدًا وغالبًا ما يكون كشافا كهربائيًا محمولاً على اليد مثل الكشاف الحربي الذي واجه سين من قبل عندما كان بأعلى صفحة الجبل .

وعندما تحرك شعاع الضوء من ضفة لأخرى أضاء لبرهة القارب . وعرف سين أنه قارب من طراز (زودياك) بطول ثمانية عشرة قدمًا ، من النوع المطاطي الذي يملأ بالهواء ، يدفعه محرك (ياماها) بقوة خمسة وخمسين حصانًا . ورغم أنه لم يستطع إحصاء عدد من فيه إلا أنهم كانوا لا يقلون عن سبعة أو ثمانية جنود ، مسلحين بمدافع مكنة خفيفة مركبة على حوامل بمقدمة الزورق. وكان الرجل الذي يحمل الكشاف الكهربائي القوي يقف في منتصفه تقريبًا .

سلط الضوء على ملجئهم وجهر أبصارهم بعض الوقت بعينه البيضاء البشعة التي تطل عليهم وأعمتهم بقوتها ، ثم انزاحت عنهم قبل أن تعود ثانية إليهم وتضعهم تحت رحمتها . سمع سين شخصًا يصدر أمرًا غير واضح باللغة الشنقانية فغير الزورق اتجاهه وتوجه نحوهم بينما ضوء الكشاف الحربي لا يزال مسلطا عليهم .

غطس أربعتهم تحت الماء ولم يعد بارزًا سوى فتحات أنوفهم وجثموا مرتعبين خلف أفرع الشجرة التي تشبثوا بها

تراجع قائد الدفة للوراء وحول تروس المحرك إلى حالة اللا تعشيق وانداح القارب المطاطي على صفحة الماء بلونه الأسود على بعد عشرين قدمًا منهم وأخذ الكشاف يمسح تلك الكتلة من الأغصان والأوراق التي تطفو على سطح الماء .

طلب سين هامسًا من كلوديا أن تدير رأسها بعيدًا وأحاطها بذراعيه تحت الماء . فوجوههم ستبرق لامعة تحت الضوء مهما كان لونها . غطاها بجسمه ثم

التفت بمؤخرة رأسه نحو الزودياك.

ونادي رجل باللغة الشنقانية : « لا يوجد شخص هنا» . ورغم أن حديث الرجل كان بمستوى المخاطبة العادية إلا أن الصوت انتقل بوضوح على صفحة الماء ووصل إليهم في خبائهم . لكن رجلاً آخر أصدر أمرًا بلهجة مسيطرة : « در حولها » وعرف سين في الحال صوت السيرجنت الشنقاني الذي قاد عملية حراسته من قبل . تحركت الزودياك دائرة من حولهم مخلفة وراءها دربًا أبيضًا على الماء .

أخذ الضوء الباهر يلقي ظلالاً سوداء أمام أفرع الشجرة وينعكس على عيونهم ويجهرها عندما كان يمس سطح الماء . وعندما دارت الزودياك سبحوا بهدوء إلى الجانب الآخر من الشجرة العائمة ، أما عندما سطع الشعاع باتجاههم فقد غطسوا تحت السطح بهدوء محاولين عدم الزفير أو رفع أنوفهم لشهقة من الهواء .

استمرت لعبة (الاختفاء والبحث) القاتلة لمدة أبدية في نظرهم قبل أن يسمعوا صوتًا من القارب يقول : « لا يوجد أحد هنا . إننا نضيع وقتنا » .

فأجابه صوت الرقيب الشنقاني امرأ : «استمر في الدوران» . ثم بعد دقيقة أصدر أمره :

« أيها المدفعجي ! أطلق زخة من الرصاص على الشجرة » ومن مقدمة الزورق برزت فوهة مدفع المكنة (آر بي جي) لامعة كأضواء الجن ثم انطلقت عاصفة من الرصاص مزقت الشجرة تمزيقا وبقسوة صاعقة عديمة الرحمة صمت آذان المختبئين ، وأطارت فوق رؤوسهم سيلاً من الأغصان والأوراق ، واقتلعت شرائحًا ضخمة من اللحاء ، ونثرت الماء كالشلال من على صفحة الماء . وكانت أصوات الرصاص ترتد في الظلمة وتولول وكأنها أرواح مخبولة .

جذب سين كلوديا تحت الماء وهو يسمع صوت الرصاص على الماء من فوقهم وعلى جذع الشجرة . ظلا تحت الماء حتى كادت رئته أن تحترق ، وكأنها ملئت بحامض قوى ، ورفع رأسه إلى السطح لجذب أنفاسه ولو لمرة .

كان المدفعجي بالزودياك يطلق النار بزخات متقطعة لا دفعة واحدة . كان مثل خبير باشارات المورس يحرك يده على المفتاح بلمسات رشيقة . كان مدفعجيًا متمرسًا له أسلوبه الخاص الذي يمكن للآخرين التعرف عليه . هذا الرجل أطلق زخاته مرتين : خمس طلقات في الرشة الواحدة . وهذا ما لا يقدر عليه إلا رجل له أصابع عازف البيانو ، حتى يلمس الزناد ويحقق مثل هذه المهارة الفائقة .

عندما أخرج سين وكلوديا رأسيهما فوق الماء لخطف نفسي حلو للهواء ،

رفع ديدان رأسه أيضًا على بعد ثلاثة أقدام أمامهما ، وانعكس ضوء الكشاف على رأسه بوضوح . كانت لحيته الصوفية القصيرة يسيل منها الماء وبدت عيناه مثل كرات من العاج على وجهه الأبنوسي وكان فمه مفتوحًا على سعته يشرب الهواء ويعبه عبًا .

وفي الحال أصابته رصاصة في صدغه فوق أذانه مباشرة . جفل رأسه من الصدمة وأطارت الرصاصة جمجمته وكأنها ضربت بسيف بتار . وبدون إرادته صرخ ، وكأنه فحل جاموس أصابته رصاصة في قلبه ، ثم سقط رأسه للأمام وغطس ، ووجهه للأسفل ، داخل المياه المظلمة .

قفز سين نحوه وامسك بزراعه جاذبًا له نحو السطح قبل أن يدفعه التيار لكن رأسه أخذ يتلوى وعيونه أخذت تدور في محاجرها لا يبدو منها سوى بياضها .

سمع الرجال على الزودياك تلك الصرخة . وصاح الرقيب الشنقاني بأحد رجاله : «استعد لإلقاء قنبلة يدوية عليهم » . ثم التفت نحو من بالشجرة : « أخرجوا من مكمنكم فليس أمامكم سوى عشرة ثوان » .

لم يجد سين مفرًا سوى أن يأمر جوب ، بلهجة مستسلمة ، أن يرد عليهم : «جاويه ياجوب . أخبره بأننا قادمون إليه » . استجاب جوب في الحال وصاح بهم الا يطلقوا النار ثانية . فالمتابيلي والشنقاني يفهمان لغة بعضهم البعض .

ساعدت كلوديا سين للاحتفاظ برأس ديدان فوق الماء ثم جذباه معًا نحو الزورق . كان الضوء القوى قد أعشى عيونهم لكن أيدي عديدة امتدت من الزورق نحوهم ورفعوهم واحدًا بعد الآخر إليه .

انهاروا على الزورق متلاصقين وهم يرتجفون كالقطط نصف الفارقة ، ومدد ديدان على الزورق وسطهم : ورفع سين رأسه ووضعه في حجره . كان فاقدًا للوعي وبالكاد يتنفس . وبرفق دار سين رأسي ديدان ليتفحص الجرح على صدغه .

للوهلة الأولى لم يعرف سين الشيء الذي ينظر إليه . فمن الجرح العميق الطويل برز انتفاخ أبيض يلمع تحت الضوء . أما كلوديا والتي كانت بجانبه تنظر لديدان فقد اهتز جسمها بعنف وهمست :

« سين ! إنه ... إنه ... » ولم تستطع أن تكمل جملتها فقد عرف سين الآن أن الانتفاخ ما هو إلا مخ ديدان والذي كان محاطًا بفشاء (الأم الجافية) الأبيض . برز المخ من فتحة الجمجمة وكأنه أنبوب داخلي لعريه ، وقد خرج من فتحة بالإطار .

أمر الرقيب قائد الزورق بالعودة فاستدار عائدًا بسرعة لأعلى النهر وبكامل قوة الزودياك متوجهين صوب خطوط الرينامو .

ظل سين جالسًا على أرضية الزورق ورأس ديدان على حجره . لم يكن في استطاعته عمل أي شيء له ما عدا جس نبضه والذي أخذ يضعف ويذبل من تلاشي أخيرًا .

وقال بهدوء : «لقد مات» . لم يقل جوب شيئًا أما كلوديا فأدارت رأسها بعيدًا .

طوال رحلة العودة ظل سين محتفظًا برأس ديدان على حجره ولم ينظر للأمام إلا عندما أوقف قائد الزورق المحرك ووصل إلى الشاطئ حيث كان هناك عديد من فوانيس الإنارة وأشباح داكنة لرجال كانوا في انتظارهم .

بفظاظة أصدر الرقيب الشنقاني أمرًا فقام اثنان من رجاله برفع جثة ديدان من على حجر سين وألقياه على الضفة الطينية . قام جندي آخر بالإمساك بزراع كلوديا ورفعها على قدميها ثم دفعها بخشونة للشاطئ . وعندما استدارت مهتاجة لتواجهه رفع عقب بندقيته (الإي كي) ليضربها وسط صدرها .

كان سين قريبًا منه فقبض على ذراع الجندي وأوقف الضربة وقال للجندي بصوت خافت باللغة الشنقانية :

« افعل ذلك مرة أخرى يا بن الضبعة المصابة بالذهري ، وسأجتث خصيتك بالسكين وأجعلك تأكلها بدون ملح » .

حملق الجندي في وجهه بدهشة بالغة ، ليس من التهديد الذي تلقاه ، ولكن من اللغة الشنقانية المتقنة التي خاطبه بها سين . ومن على الضفة بالشاطئ انطلقت من الرقيب الشنقاني ضحكة مدوية طروبة وقال للجندي: « خيرًا لك أن تنفذ ما أراد ... إلا إذا كنت جائعًا حقًا . هذا الرجل يعني ما يقول » . ثم ابتسم لسين :

« أي أنك تتحدث الشنقانية مثل أحد منا ، وأنك قد فهمت كل ما تحدثنا به من قبل ! » . ثم هز رأسه بأسى وحزن : «لن أدعك تخدعني مرة أخرى » .



جرجروهم ، وهم يعانون من البلل والبرد وسوء المظهر ، بصورة فظة تعوزها الكياسة، نحو غرفة الجنرال تشاينا تحت الأرض وأوقفوهم أمام مكتبه . وبنظرة واحدة نحو وجهه عرف سين أن الرجل كان في حالة غضب بارد ضاري .

ولأكثر من دقيقة ظل يحدق في سين بدون أن يتحرك من مقعده ثم قال: «سيتم نقل الفتاة إلى معسكر آخر ، بعيدًا تمامًا من هنا ، ولن تكون أمامك

فرصة أخرى لرؤيتها إلا إذا أمرت أنا بذلك».

احتفظ سين بتعابير وجهه الجامدة . أما كلوديا فقد أطلقت صيحة احتجاج صغيرة وأمسكت بذراع سين ، وكأن بإمكانها منع الفراق الوشيك . أومأ الجنرال تشاينا ، بارتياح شديد لحالة الكرب والبؤس التي بدت عليها ، وواصل حديثه بهدوء :

« إنها لم تعد تستحق المعاملة الخاصة التي لقيتها مني حتى الآن . ولقد أمرت بأن توضع عليها كلابيش الحديد حتى نمنع أي محاولة أخرى للهرب ، كما أنها ستكون في الحبس المنفرد » .

كانت سجانتان واقفتين بجوار الحائط بالقرب من مكتبه . نظر تشاينا إليهن وأحنى رأسه . كانت الطويلة منهما تضع على أكمامها علامات الرقيب وقامت بإصدار أمرها إلى الجندية القصيرة ذات الوجه الضفدعي والتي تقدمت نحوها وقد تدلي من يدها القيد اللامع ، من الصلب الذي لا يصدأ .

شددت كلوديا من قبضتها على ذراع سين وراغت مبتعدة عنها . ترددت السجانة لكن الرقيبة الطويلة نهرتها وأصدرت أمرها ثانية بلهجة صارمة ، قبضت السجانة على رسغ كلوديا وبدون جهد يذكر انتزعتها بعيدًا عن سين .

وبخبرتها الناجمة عن المران الطويل ، أدارت كلوديا ودفعت برأسها نحو الجدار المغطى بأكياس الرمل ، بينما أقفلت طرف القيد على رسغها ، ثم جذبت كلتا ذراعي كلوديا وراء ظهرها وأغلقت طرف القيد الثاني على رسغ يدها الأخرى .

تراجعت للوراء بينما تقدمت الرقيبة الطويلة وأمسكت بيدي كلوديا ورفعتهم عاليًا فوق لوحي كتفها . شهقت كلوديا من الألم وهي تجبر على الوقوف على أطراف أصابعها وقامت الرقيبة بفحص القيد الذي أطبق بإحكام حول رسغي كلوديا لكنها لم تكتف بذلك . وباصرار قامت لرقيبة بزيادة ضغط القيد لدرجتين وشهقت كلوديا مرة أخرى وصاحت : «إنه يؤذي يدي بشدة ويدخل فيهما » .

صاح سين في الجنرال تشاينا :

« قل لهذه العاهرة أن ترخي هذه القيود» .

ابتسم الجنرال تشاينا للمرة الأولى في هذا المساء وأراح ظهره على المقعد : «كولونيل كورتني: لقد أمرت بأن لا تعطي هذه الفتاة أي فرصة أخرى للهرب . فالرقيبة (كارا) تؤدي واجبها فقط».

ـ لكن هذا القيد المضغوط قد يقطع دورتها الدموية وقد تفقد الآنسة مونتيرو يديها من الغرغرينا .

أجابه تشاينا مؤيدًا قوله :

« سيكون هذا من سوء الحظ لكنني ، على أي حال ، لن أتدخل إلا ... » وصمت .

سأله سين بوحشية : « إلا إذا ... ماذا ؟ » .

- إلا إذا ضمنت تعاونك التام ، وإلا إذا وعدتني بشرفك بأنك لن تحاول الهرب مرة أخرى .

نظر سين إلى يدي كلوديا واللتين بدأتا في التورم وبدأ لونهما يتغير وتأخذان لونًا رصاصيًا قاتمًا. كان القيد الحديدي يضغط على رسغيها وانتفخت أوردتها من أمام القيود واتخذت لونًا أزرقًا قاتمًا .

وعلق الجنرال تشاينا قائلاً :

« الفرغرينا حالة خطيرة ، ولسوء الحظ فإن إمكانياتنا لبتر الأطراف ممعنة في التخلف والبدائية» .

فقال سين بصوت مشروخ :

« حسنًا . أنني أعدك بشرفي .... » .

- وبتعاونك التام .

- وبتعاوني التام .

أصدر الجنرال تشاينا أمره للرقيبة ، والتي استخدمت مفتاحًا لإرخاء القيد لدرجتين لكل رسغ . وفي الحال تلاشى انتفاخ يديها وعاد لون الجلد إلى اللون الكريمي الطبيعي بعد أن تراجع الدم المحبوس به .

أمر الجنرال الرقيبة بأخذها للسجن . وأشارت هذه بدورها لمساعدتها السجانة . أمسكت كل واحدة منهن بأحد ذراعي كلوديا ودفعتاها نحو الباب . وصاح سين : «انتظروا ! » . لكنهن تجاهلنه . وعندما حاول أن يتقدم نحوها أمسك الرقيب الضخم بذراعيه من الوراء بقبضة حديدية وثناهم وراء ظهره بطريقة المصارعة .

وصاحت كلوديا بنوع من الهستيريا :

« سين ! لا تدعهم يأخذونني ! » . لكن الحارستان دفعنها خارج الغرفة تحت الأرضية وأرخين الستارة من خلفين .

وعاد صوت كلوديا إليه ثانية : «سين ! » .

فصاح وراءها وهو يحاول التخلص من قبضة الرقيب : « إنني أحبك وسيكون كل شيء على ما يرام . فقط تذكري أنني أحبك وسأفعل كلما

ينبغي فعله لإخراجك من هنا » .

تردد رنين وعده لها خاويًا بلا معنى في أذنيه ، وجاءه صوتها من بعيد كولولة يائسة : «سين!» ثم مرة أخرى خافتًا للغاية : «سين !» ، ثم خيم الصمت خلف ستارة الباب .

وجد سين نفسه يلهث من شدة انفعاله ، لكنه سيطر على نفسه وأوقف مقاومته للرقيب ووقف بهدوء . أرخى الرقيب قبضته عليه فدفعه سين عنه والتفت للجنرال تشاينا وقال له :

« أيها الوغد ! أيها الوغد المتعفن ! » .

ورد عليه تشاينا ببرود :

« أظن أنك في حالة لا تسمح لك بالنقاش الموضوعي » . ثم نظر إلى ساعته وأضاف: «والساعة الآن تجاوزت منتصف الليل . سنتركك لتهدأ قليلاً » ثم نظر إلى الرقيب وخاطبه بالشنقانية مشيرًا إلى سين وجوب : «خذهما وأطعمهما وأعطهما ملابسًا وأغطية جافة ودعهما ينالان قسطًا من النوم ثم أحضرهما لي غدًا في الفجر » .

حياة الرقيب بالطريقة العسكرية ودفع سين وجوب نحو لباب بينما جاءه صوت الجنرال تشاينا :

« لدى عمل لهما غدًا . قم بما يمكن ليكونا في حالة مناسبة لأداء هذا العمل» .

❖ ❖ ❖

نام سين وجوب جنبًا إلى جنب على أرضية أحد الخنادق بينما جلس أحد الحراس أمامهما . كانت الأرضية الترابية صلبة ورطبة والبطاطين قذرة . لكن حتى عدم الراحة ، أو قرصات الحشرات الزاحفة فوق جلده ، ولا حتى التفكير في كلوديا ، استطاعت أن توقظه .

لكن الرقيب أيقظه في عتمة الفجر ، من نومة عميقة صافية بدون أحلام ، بأن رمى بكومة من الملابس على جسده الممدد وأمره :

« ارتدى ملابسك » .

جلس سين وهو يحك أثر عضات بق الفراش وسأله :

« ما إسمك ؟ » . قالها باللغة الشنقانية وهو يحس بالارتياح لأن يتحدث بها بحرية .

«ألفونسو هنريكس مباسا ! » . قالها الرقيب فخورًا . وابتسم سين لتركيبة الإسم العجيبة: اسم إمبراكور برتقالي مضافًا إليه اسم شنقني يعني (الرجل

الذي يضرب بالهراوة) . وسأله سين متفكهًا :

« أي : هراوة على رؤوس أعدائك واستمتاعًا بنسائهم ؟ » . قهقه النونو باستمتاع لهذا الإطراء ، بينما جلس جوب مكشر الوجه لنداءة نكتة سين وقال له محتجًا : «أفي الخامسة صباحا ، وحتى قبل الإفطار ؟ » وهز رأسه بأسي . لكن سين سمع الفونسو يردد النكتة بسعادة على رجاله خارج الخندق .

وغمغم جوب مخاطبًا سين بالسنديبلية وهما ينتقيان ما يناسبهما من كومة الملابس التي ألقاها عليهم الفونسو :

« مع هؤلاء الشنقاني ، فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً لتؤسس سمعتك كمضحك لهم».

كانت كل الملابس مستعملة من قبل لكنها نظيفة لحد ما . وجد سين طاقية عسكرية وبذلة مخططة بخطوط النمر وألقى بجاكتته القديمة وردائه القصير الممزقين والمتهرئين ، لكنه احتفظ بحذائه (الفلسكوين) المريح له .

كان الإفطار مكونًا من حساء (الكابنتا) وهو حساء مصنوع من السمك الصغير المجفف، مع عصيدة من دقيق الذرة . وسأله سين :

« ماذا عن الشاي ؟ » فضحك الفونسو قائلاً :

« أتظن أنك في فندق (بولانا) بما بوتو ؟ » .

بدأت إطلالة الفجر عندما قادهم ألفونسو إلى شاطئ النهر حيث وجدا الجنرال تشاينا وأركان حربه يتفقدون آثار غادرة طائرات الهايند بالأمس .

وحيا تشاينا سين قائلاً :

« لقد فقدنا ستة وعشرين قتيلاً وجريحًا بالأمس ، ومثل عددهم من الذين فروا من المعسكر أثناء الليل . لقد هبطت الروح المعنوية بسرعة » .

كان يتحدث بالإنجليزية وبدا واضحًا أن لا أحد من رجاله قد فهم ما قاله . ورغم هذه الظروف فقد بدا نشيطًا رشيقًا واثقًا من نفسه ، وه ويضع على رأسه البيريه مع بذلته العسكرية المكوية بعناية ، وشرائط الميداليات تملأ صدره ، ونجوم وعلامات رتبة الجنرال على كتافيته . كان المسدس ذو القبضة العاجية ليتدلى من حزامه ، كما غطى عيونه بنظارة من التي يستخدمها الطيارون محاطة بإطار ذهبي . وقال لسين :

« إذا لم نتمكن من إيقاف هذه الطائرات الحربية فسينتهي كل شيء خلال الشهور الثلاثة القادمة ، وقبل أن تنقذنا الأمطار » .

فالأمطار هي الفترة التي تقوم الحشائش الطويلة والطرق الوعرة والأنهار المتدفقة والفيضانات لتعطيل أعدائهم وإتاحة الأمن والإخفاء للثوار . وقال سين

بحذر :

« لقد راقبت الهايند أثناء هجومها بالأمس . وقد استعار كابتن جوب واحداً من راجمات صواريخك آر بي دي (٧) وسجل ضربة مباشرة بصاروخ إي بي .

نظر تشاينا إلى جوب باهتمام واضح وقال له : « حسناً . لم يستطع أيًا من رجالي القيام بذلك حتى الآن . ماذا حدث بعد ذلك ؟ » .

أجاب جوب ببساطة : « لا شيء» .

وأضاف سين مؤيداً : «لم يحدث أي ضرر » .

أومأ تشاينا برأسه وقال :

« كل المحرك والهيكل مدرع بصفائح التيتانيوم » . ثم نظر نحو السماء بحركة عصبية وكأنه يتوقع أن واحدة من تلك العمالقة محدودبة الظهر ستقدم عليهم :

« لقد عرض علينا أصدقاؤنا في الجنوب تقديم نظام لصواريخ (دارتر) ، لكن لدنيا صعوبة في إحضار الشاحنات التي تحمل منصات الإطلاق ، وهي شاحنات ثقيلة من الصعب إحضارها على هذه الطرق الوعرة ، وخلال المناطق التي تسيطر عليها فريليمو » . وهز رأسه وأضاف :

« إننا نحتاج لسلاح يحمله المشاة : حيث يمكن للجندي الراجل أن يحمله ويستخدمه » . فقال سين :

« على حسب علمي فليس هناك سوى سلاح فعال واحد من ذلك الطراز فقد طور الأمريكيون أسلوبًا لاستخدام صاروخ (ستجر) ، بعد تعديله ، في أفغانستان وتوصلوا إلى الطريقة التي يمكنه بها اختراق درع الهايند . لكن ليس لدى فكرة عن التفاصيل» .

علم سين أنه كان من عدم الحكمة أن ينصب نفسه كخبير . لكن المشكلة كانت تثير اهتمامه ووجد نفسه وقد إنساق بعيداً عندما قال له الجنرال تشاينا :

« إنك مصيب تماماً يا كولونيل . فصاروخ ستجر المعدل هو الوحيد الذي ثبتت فعاليته ضد الهانيد . وهذه هي مهمتك وهي ثمن حريتكم . إنني أريد منك إحضار شحنة ستجد لي ! » .

وقف سين كالمصعوق على ضفة النهر وحملق في وجهه ثم بدأ يبتسم وقال له متهكماً :

« مضبوط ! قطعة من الكعك اللذيذ . هل لديك مزاجًا للون أو النكهة . أم تريدها زرقاء بلون خصي قرود الطلح أو بلون ثمار الكيوي ؟ » .

ولأول مرة منذ لقائهم ابتسم تشاينا له وقال بثقة :

« صواريخ ستنجر موجودة هنا بالفعل . المشكلة فقط هي التقاطها وإحضارها لنا » .

تلاشت ابتسامة سين وقال : « أرجو ، وبكل جدية ، أن يكون ما قلته مجرد دعاية . إنني أعلم أن (سافمبي) قد استلم صواريخ ستنجر من اليانكي . لكن أنجولا هي في الطرف الآخر للقارة».

فقال تشاينا بلهجة التوكيد :

« صواريخنا الاستنجر أقرب من تلك بكثير . هل تذكر مركز المطافئ الروديسي بقاعدة فراند ريف ؟ » .

«بالتأكيد» . أجابه سين «لقد عملت فصيلة الكشافة من هناك لعام كامل» . لمس تشاينا فص أذنه من تحت البيريه وقال :

« بالطبع أتذكر . فمن تلك القاعدة قمت أنت بشن الهجوم على قيادتي في إنلوزين » . ثم كست تعابير وجهه كآبة فجائية . وقال سين مذكرًا له : « تلك كانت حربًا أخرى » .

ارتخت تعابير وجه تشاينا وقال : «كما حدثتك من قبل فإن الاستنجر الذي نريده موجود في قاعدة فران ريف » . هز سين رأسه بريبة :

« لا أفهم معنى هذا . فاليانكي لن يسلموا الإستنجر لموجابي . فهو ماركسي ولا يوجد حب جارف بين زمبابوي والولايات المتحدة . هذا ليس معقولاً » .

اعترضه تشاينا مؤكدًا :

« أبدًا . يوجد هذا الحب ! فبالطريقة الإفريقية للالتفاف حول الأمور فستجد أن هذا معقول جدًا » . ثم نظر إلى ساعته : «موعد الشاي . وأظن أنك سألت عن الشاي هذا الصباح . ومهما كان الجانب الذي نقف فيه فإن الحرب جعلتنا من المدمنين للشاي كلنا » .

قاد تشاينا الجميع إلى غرفة قيادته الحصينة تحت الأرض . وقام أحد المراسلات بإحضار الشاي في الحال . وواصل تشاينا تفسيره :

« الأمريكان لا يحبون موجابي لكنهم يكرهون جنوب أفريقيا أكثر . وموجابي يأوي ويدعم ثوار المؤتمر الوطني الإفريقي ، والذين يعملون عبر حدود زمبابوي بداخل جنوب إفريقيا » .

أومأ سين بعبوس . لقد رأى صورًا للخراب الذي سببه أحد الألغام بمحل سوبر ماركت في جنوب إفريقيا . انفجر اللغم في آخر يوم جمعة من الشهر ،

وهو يوم صرف الأجور للعاملين ، عندما كان المتجر مكتظًا بربات المنازل وأطفالهن من السود والبيض .

وقال تشاينا :

« لقد أقسم الجنوب إفريقيين على مطاردة ثوار المؤتمر أينما توجهوا ، وعززوا قولهم بالفعل أكثر من مرة عن طريق المطاردة الساخنة عبر حدود كل جيرانهم . ولأن الثوار أوضحوا نواياهم لتصعيد عملياتهم ، حتى ضد الأهداف المدنية ، فقد عرف موجابي ماذا ستكون العواقب ، لذلك عمل للحصول على سلاح يستطيع به التعامل مع مروحيات (البوما) التي تستخدمها جنوب أفريقيا عند عبورها الحدود لاجتثاث الثوار » .

ـ لكنني لا أزال لا أصدق أن اليانكي سيمدونه بالاستنجر .

ـ ليس مباشرة . ولكن لأن البريطانيين هم الذين يدربون جيش موجابي فقد صاروا هم الوسطاء . حصلوا على الاستنجر من الأمريكان ويدربون عليها الآن أميز ألوية موجابي ـ اللواء الثالث ـ في قاعدة قراند ريف » .

ـ وكيف بحق الجحيم عرفت كل هذا ؟

ـ عليك أن تتذكر إنني كنت يومًا ما أحد الوزراء ، ولو حتى وزيرًا ثانويًا ، في حكومة موجابي. ولا زلت أحتفظ بعلاقات ممتازة مع من هم في أعلى المواقع هناك » ؟

فكر سين في الأمر ثم قال له :

« إنتي على حق . هذه هي الطريقة الإفريقية المضبوطة . إذن فالإستبخر لا زالت في قراند ريف ؟ » .

ـ نعم . أحضرتهم طائرة هيركيوليس تابعة للقوات الجوية الملكية قبل أربع عشرة يومًا وقد تقرر توزيعها على طول الحدود بين زمبابوي وجنوب إفريقيا ببداية الشهر القادم وستصوب نحو مواطنيك يا كولونيل كورتني » .

شعر سين بالغضب والحنق في صدره لكنه احتفظ بتعابير وجهه الجامدة .

ـ ويقوم بالتدريب رجال المدفعية الملكية وهم نقيب واثنان من ضباط الصف . من هنا يمكنك أن تفهم لماذا أحتاج لوجه أبيض لتنفيذ خططي » .

غمغم سين :

« ما ذكرته ينذر بالشؤم . أخبرني ماذا بالضبط تريد مني » .

ـ أريدك أن تعود لزمبابوي لتحضر لي هذه الصواريخ .

لم يبد على سين أي انفعال عندما سأله بدوره :

« مقابل ماذا ؟ » .

ـ عندما تسلمني تلك الصواريخ سأقوم بإزالة القيود عن المس مونتيرو وأنقلها إلى المكان الذي يمكنك فيه أن تزورها بانتظام .

ثم صمت وبدت عليه ابتسامة العارفين بخفايا الأمور :

ـ ويمكنك قضاء بعض الوقت معها يوميًا أو أن تخلو معها ليلاً .

ـ ولكن ماذا عن إطلاق سراحنا ؟

ـ نعم . سيتم إطلاق سراح ثلاثتكم بعد أن تقوم بخدمة إضافية أخرى لي ، بعد أن تسلمني الاستنجر أولا .

ـ وما هي هذه الخدمة ؟

رفع تشاينا كلتا يديه :

ـ مهلاً . كل واحدة على حدة وتتلوها الثانية يا كولونيل كورتني . الصواريخ أولاً . عندما تسلمني لها سنناقش الجزء الآخر والنهائي للصفقة .

قطب سين وجهه بعبوس وهو يقلب الأمر في رأسه ومحاولاً أن يجد له مخرجًا لكن الجنرال تشاينا قطع عليه تفكيره :

« كولونيل ! إن أي دقيقة تضيعها ستطيل من عذاب الآنسة مونتيرو أو لنقل عدم راحتها . وحتى أتسلم هذه الصواريخ ستظل القيود عليها ليلاً ونهارًا ، في صحوها ونومها ، أثناء الطعام أو أثناء قيامها بضروريات الحياة . وأقترح أن نبدأ في الحال بوضع خططك لإحضارها لي » .

نهض سين وتوجه نحو الخارطة المكبرة وراء مكتب تشاينا . لم يكن في الواقع محتاجًا لدراستها ، بل يمكنه إغماض عينيه ويرى ببصيرته أي وادي أو مرتفع أو أي معلم من معالم الحدود بين زمبابوي وموزمبيق . كان خط السكة الحديد يعبر الحدود بالقرب من مدينة (أم تالي) الصغيرة ووراءها بعشرين كيلو مترًا ، على الجانب الزمبابوي ، كانت هناك علامة حمراء اللون ، لطائرة ، في مكان قاعدة قراند ريف الجوية ومطارها .

لمس سيد علامة الطائرة بإصبعه ، وجاء جوب ووقف بجواره وأخذا يتفحصان سويًا الخارطة بعمق شديد . فكم من مرة انطلقوا بدورياتهم من هذا المكان يمشون متثاقلين نحو طائرات الداكوتا العتيقة تحت حمل المظلة والجريندية والسلاح . كل منهما كان بإمكانه ، مغمضًا عينيه ، أن يعرف مكان كل مبنى أو عنبر أو الثكنات أو دفاعات القاعدة التي تحيط بها .

وقال جوب بصوت خافت :

« عشرون كيلو مترًا من نقطة الحدود ، أي خمس عشرة دقيقة بالعربات .

لكن يستحيل علينا الوصول إلى هنالك راجلين » .

وسأل سين بدون أن ينظر من حوله :

« لقد تحدثت عن خطة ما يا جنرال تشاينا . ماذا يدور في رأسك؟ هل تستطيع إمدادنا بشاحنات؟ » .

فأجابه تشاينا وسط تنهيدة ارتياح من سين :

« قبل فترة من الزمن قام رجالي بأسر ثلاثة من شاحنات الينموق العسكرية، تحمل أوراق وألوان الجيش الزمبابوي الحقيقية ، وقمنا بإخفائها عن الأعين تمامًا . خطتي هي أن تعبروا الحدود متخفين في زي الجنود الزمبابويين » .

ـ أراهنك بأن على الحدود ستوجد تحركات عسكرية وحشو ضخمة للجنود .

ـ نعم . تمامًا .

ـ إذن نحتاج لأزياء الجيش الزمبابوي لكل الجنود السود مع زي خاص لي . لمس سين الخارطة بإصبعه وأضاف :

« علينا أن نشق طريقنا إلى القاعدة بدون طلقة واحدة » .

فأجابه تشاينا بنعومة :

« لدى زيّ خاص بأحد ضباط الجيش البريطاني يصلح لك تمامًا ومعه كل الأوراق والبطاقات الثبوتية » .

ـ وكيف حصلت عليها بحق الجحيم ؟

ـ قبل ثلاثة أشهر قمنا بمهاجمة طابور زمبابوي بالقرب من (فيلادي مانيكا) ، كان مع الطابور ضابطٌ بريطاني ، كمراقب ، وسقط وسط النيران المتبادلة ، كان برتبة رائد في فصيلة الحرس ومنتدبًا للقيادة العليا في هراري ، كملحق عسكري . طبقًا لأوراقه . ثم نظافة الزي العسكري للضابط تمامًا كما تمت رفاية التمزيق الذي أحدثته شظايا القنبلة بعناية فائقة . فالخياط الذي قام بهذه المهمة هو الذي يخيط لي ملابس » .

وملس تشاينا بذلته العسكرية بنعومة وانشراح وواصل : «وسيقوم بتعديل بذلة الضابط لتلائم مقاسك تمامًا يا كولونيل ، فقد كان طوله مثلك تمامًا لكنه أثخن منك في الوسط والظهر.

ابتسم سين وقال :

« سرية الحرس ! وماذا بشأن لهجتي ؟ فأي إنجليزي يمكنه في الحال معرفة لهجتي الجنوب إفريقية فور أن أفتح فمي » .

- أؤكد لك أنك ستتعامل فقط مع حرس اللواء الثالث في بوابة القاعدة ، وهم من تعوزهم مثل هذه الآذان المرهفة .

- حسنًا . ربما نستطيع الدخول للقاعدة ، ولكن كيف بحق الجحيم سيتسنى لنا الخروج ؟ بدأ سين يستمتع بالمغامرة المقبلة . واستغرق أكثر فأكثر فيما سيحدث بعد ذلك . كان جوب لا زال يتفحص في الخريطة وقال له :

« رويدًا ياسين ، ليس بهذه السرعة . لن يكون الأمر سهلاً لنحط أمام القاعدة بدون دعوة موجهة لنا ومن ثم نطلب منهم إدخالنا إليها . فمع وجود الاستجر هناك فسيكون التأمين والحراسة على أشدها » .

اتفق معه الجنرال تشاينا في الرأي وقال :

« هذا صحيح . لكنني على كل حال أحمل أنباء طيبة لك ـ ـى في الواقع واحدًا من رجالي بداخل القاعدة وهو ابن أخ لي - فنحن من أسرة كبيرة » . بان عليه الرضا وواصل : «إنه يعمل في الإشارة كضابط صف ، وهو القائد الثاني لمركز إشارات قاعدة قراند ريف . سيكون بمقدوره أن يزور رسالة من القيادة الزمبابوية العليا ، تأمر فيها بالسماح للملحق العسكري بأن يتفقد برامج الاستجر . لذا فسيكون حراس القاعدة متوقعين لقدومكم ، ولن يدققوا كثيرًا في إذن دخولك».

وتساءل جوب بحماس:

«طالما لديك رجل بداخل القاعدة ، فلابد أن يعلم بالضبط مكان تشوين وتخزين صواريخ الاستجر » .

أومأ تشاينا برأسه وقال :

« تمامًا . فالصواريخ مشونة بداخل الحظيرة رقم ثلاثة ، وهي الثانية على اليسار » .

أجابه سين مؤكدًا :

« نحن نعلم بالضبط أن تقع الحظيرة رقم ٣ » . ثم قطب وجهه وهو يحاول أن يتصور المشاكل الأخرى التي سيواجهونها . «وأريد أن أعرف كيفية حزمها والصناديق التي تحويها ، حجمها ووزنها » .

أخذ تشاينا يسجل بعض النقاط على نوتته . وواصل سين :

« ولابد أن يكون هناك (دليل الاستخدام) الذي يغطي كافة وسائل تشغيل الاستجر ، والذي سيكون حتمًا في مكتب كابتن المدفعية الملكية ، ويجب أن أعرف أين المكتب بالضبط» .

كان سين يثني احد أصابع يده كلما عنت له فكرة أو سؤال . وأضاف

جوب أفكاره أيضًا :

« إننا نحتاج إلى القيام بهجوم خداعي تشنه فصيلة أخرى على الجانب البعيد من طرف القاعدة وبعيداً عن الحظائر ومركز التدريب ، مستخدمين قذائف دخانية ومضيئة وصواريخ آر بى جى والقنابل الفوسفورية البيضاء . لذا نحتاج لفصيل آخر لهذا » .

بدا كل شيء كما كان فى الأيام الخوالى . فكم عملا سوياً بهذه الطريقة . كل منهما ينشط الآخر ويوحى إليه بشيء جديد . رغم أن إنفعالهما كان على أشده إلا إنهما سيطرا عليه ، ورغم إنه كان واضحاً فى عيونهم المتألقة اللامعة .

ومرة علق جوب :

« إنني سعيد بأننا سنواجه اللواء الثالث . تلك العصابة من قتلة الراهبات ومغتصبى الأطفال. هم الذين قاموا بتطهير موطنى فى (المتابيلى لانه) وأبادوا أهلي » .

كانت ذكريات المذبحة والجرائم التي صاحبت إكتسح اللواء الثالث لمناطق القبيلة ، والتي كان يعمل منها المنشقون على الحكومة من المتابيلى ، لا زالت حية في ذاكرة كل من جوب وسين . وجاء صوت جوب في صورة همس قاتل :

« اثنان من إخوتي ... وجدتي ... ألقى اللواء الثالث بجثتهم في هاوية مناجم أنتلوب .... ».

فقاطعه سين محذراً :

« هذه العملية ليست للانتقام أو الثأر الشخصي . كل ما نريده هو تلك الإستتجر يا جوب » .

كانت الكراهية المتبادلة بين القبائل الإفريقية تفوق في عنقها عمليات الثأر والانتقام في كورميكا ، وكان على جوب أن يهز جسمه وينفضه عمليًا حتى يتخلص من مشاعره تلك . وقال لسين :

« أنت مصيب يا سين . لكن حصولي على فروة بضع رؤوس من اللواء الثالث سكون مكسبًا جانبيًا لي » .

ابتسم سين . ورغم توبيخه لجوب إلا أن فكرة ضرب (زانلا) مرة أخرى أرضته تمامًا . فكم من الرجال والنساء الطيبين ، وكم من الأصدقاء قد راحوا ضحية لهم خلال الأحد عشر سنة من حرب الأدغال ، وكم كانت خطوط الكراهية تتقاطع مع خطوط الولاء في ذات النسيج الإفريقي. لن يستطيع سوى

رجل إفريقي أن يفهم هذا الخلط .

وقال سين راجعًا لهم إلى الواقع الصعب الذي يواجهونه :

« حسنًا . دخلنا القاعدة وحصلنا على صواريخ الاستنجر ، حمولة عربتي ينموق مثلاً ، ووجدنا مراشد الاستعمال ، واستعددنا للخروج بينما اجتذب الهجوم التضليلي معظم الحرس إلى المحيط الجنوبي للقاعدة على الجانب الآخر من المطار . علينا إذن أن نخرج ، لكنهم لن يكونوا سعداء بالسماح لنا بالمغادرة بهذه السهولة » .

قال جوب :

« لنقتحم البوابات ونستخدم إحدى عربات الينموك لاختراق المتاريس » .

« نعم » . قال سين وأضاف : « ثم ماذا بعد ؟ لن نستطيع الخروج من البلد من نقطة الحدود بأمتالي . ففي ذلك الوقت سيكون كل جيش زمبابوي وفريليمو مطاردًا لنا » .

عاد الاثنان للتمعن في الخارطة المعلقة على حائط المكتب . مد سين إصبعه وتابع الطريق الذي يتفرع شمالاً قبل أن يصل إلى مدينة أمتالي ، ومن هناك يسير الطريق موازيًا للحدود ويعبر المرتفعات الشرقية باتجاه حظيرة (إيناني) القومية ، وهي مرتفعات ذات قمم يغطيها الضباب وتحتها الوديان الرطبة الغزيرة الأشجار . وضع يده على أحد الوديان : واد أخضر مغروز كالوتد وسط حزام الجبال . وقرأ مفتاح الخارطة :

« وادي هوندا» .

يعبر الطريق رأس الوادي ، والذي هو نفسه كان كالقمع يقود إلى الحدود وإلى المرتفعات الموزمبيقية . كان يشكل مدخلاً طبيعيًا للمرتفعات ، وبوابة كانت في يوم من الأيام من أهم مناطق تسلل عصابات الزانلا من قواعد تدريبهم في موزمبيق . وعبر المواجهات الصعبة عرف كل من سين وجوب أسرار المنطقة وطرقها المموهة ومراكزها الحصينة والمعسكرات الوهمية الخداعية والممرات الخفية .

وقال سني ، وهم ينظرون إلى حيث أشار :

« الطرقة المؤدية إلى إرسالية سانت ميري . هذا هو أقصى ما يمكن لعربات الينموق الوصول إليه» .

غمغم جوب :

« ومن هناك حتى الحدود ما لا يزيد على ستة كيلو مترات » .

صحح سين المعلومة :

« ستة كيلو مترات صعبة . ولن نكون سالمين لمجرد أننا عبرنا الحدود لموزمبيق . سيكونون من خلفنا حتى نصل إلى الأراضي التي تسيطر عليها رينامو» .

والتفت سين إلى الجنرال تشاينا .

« أريد من تزويدي بحمالين يكونون في انتظارنا بإرسالية سانت ميري . إلى أي مدى يمتد نفوذك في تلك المناطق ؟ » .

تقدم الجنرال تشاينا ووقف بين سين وجوب وأشار إلى نقطة في الخريطة مكتوب عليها (مافونيلا) وقال :

« يمكنني إحضار شاحنات تنتظركم في هذه القرية . وعندما تصلون إلى ما فونيلا سأعتبر أنكم سلمتموني الصواريخ تمامًا » . فتدخل جوب قائلاً :

« أقترح ألا تحاول إحضار أربعين صاروخًا بطابور واحد من الحمالين ، فسيكونون هدفًا ممتازًا لطائرات موجابي (الميج) وتكفي شحنة واحدة من النابالم لإنهاء كل الأمر » .

وأضاف سين : « وبالطبع ستستدعي فريليمو مروحياتها الهايند . أنت على حق يا جوب ، فعقب ظهور ضوء الفجر مباشرة سيتم قصفنا » . كان يشير إلى أساليب العصابات فيما مضى عندما كانوا يجزئون طوابيرهم ولا يتيحون لمهاجميهم سوى أهداف صغيرة متفرقة ، بدلاً عن هدف واحد شامل ثم سأل تشاينا :

« هل تستطيع ترتيب عدة مواقع للالتقاء بدلاً عن موقع واحد بقرية ما فونيلا؟ » فأومأ تشاينا موافقا :

« نعم بإنكاني . سنقوم بتوزيع الحمالين بطول طريق مافونيلا » وتابعه بإصبعه « شاحنة واحدة بكل كيلوا متر من الطريق ومخبأة تحت شباك التمويه ، ثم يتم تحريك الاستنجر في المرحلة الأخيرة تحت غطاء الظلام » .

«حسنًا» قال سين . « فلنضع جدولاً زمنيًا لذلك ولنكتب كل ذلك . أرجو إعطائي بعض أدوات الكتابة » .

فتح تشاينا أحد أدراج مكتبه وتناول دفترًا رخيصًا وقلمًا جافًا . وأثناء قيامهم بعملهم استدعى تشاينا ضابط الإمداد والتموين ، وهو رجل قصير سمين كان يدير محلاً لبيع معدات الرحلات في بيرا ، قبل أن تجبره الظروف الاقتصادية - وليست الإيديلوجية - لترك الميناء والبحث عن عمل في أعماق الأدغال مع عصابات تشاينا .

وصل حاملاً زي ضابط أركان الحرس الأيرلندي الميداني بكل مستلزماته

من علامة الرتبة وغطاء الرأس والحزا م وحتى الحذاء . ارتدى سين الزي بدون أن يقطع نقاش خططه . كان الجاكت والبنطلون يحتاجان لتضييق . أما الحذاء فكان أوسع بنمرة واحدة وقرر سين ملاءمته له قائلاً :

« من الأفضل أن يكون الحذاء واسعًا عنه ضيقًا وسأرتدي جوربين حتى نياسبن تمامًا » .

أخذ الترزي يضم الملابس ويفرز الدبابيس عليها ودار حول سين وأنزل البنطلون لحوالي بوصة . تفحص سين أوراق الضابط الثبوتية التي وضعها تشاينا على مكتبه وأبدي موافقته عليها. من الصورة بالبطاقة عرف سين أن الضابط كان لحيمًا وله شعر جميل وكان في أواخر الأربعينيات من عمره . وقرأ سين إسم الرجل عاليًا : « جافن دي في . عليك تغيير الصورة بصورتي »

كان ضابط الدعاية خلاسيًا نصف برتغالي ونصف شنقاني وكان مزودًا بآلة تصوير بولارويد. التقط أربعة صور لسين ثم أزاح صورة الضابط القتيل ليقوم بتعديل البطاقة . وقال سين لتشاينا:

«حسنًا . أريد الآن تولي قيادة الرجال الذين سينفذون الهجوم ، وأتأكد من ملاءمتهم تمامًا ومن سلامة معداتهم . وعليك أن توضح لهم بأن يطيعوا تعليماتي في المستقبل » .

ابتسم تشاينا ونهض من مقعده وقال له :

« اتبعني يا كولونيل سآخذك لمقابلة جنودك الجدد » .

قاد الطريق خارجًا من الغرفة تحت الأرض . وعندما كانوا في الممر داخل الغابة الذي يؤدي إلى النهر جاء سين إلى جانبه وواصلا النقاش حول الغارة وقال : «من الواضح أنني احتاج لأكثر من الرجال العشرة لفصيلة الرقيب الفونسو ، وعلى الأقل أحتاج لفصيلة أخرى للقيام بالهجوم الحذاعي على القاعدة » . وفجأة توقف سين عن الحديث عندما انطلق عويل صفارات الإنذار من أنحاء المعسكر من حولهم وفي الحال كان كل ما حولهم في حالة رهيبة من الفزع والإضطراب. وصاح تشاينا :

« مروحيات الهانيد ! احموا أنفسكم ! » . وقفز نحو أقرب خندق محاط بأكياس الرمل وسط الأشجار المجاورة . كان على الخندق مدفع ١٢,٧ ملمتر بماسورتين مضاد للطائرات . وبدون شك سيكون المدفع هدفا مفضلاً لمدفعجي الهانيده وقام سين بالنظر حوله وبسرعة باحثًا عن مخبأ آخر .

لمح في الأعشاب الطويلة على الجانب الآخر للطريق حفرة للقنابل أقل وضوحًا للناظرين ، وقفز نحوها ، وعندما سقط فيها سمع زئير الطائرات القادمة وضجيج المقاومات الأرضية التي تزداد كل لحظة شدة وعنفا . قفز جوب

بجانبه وتربع معه داخل الحفرة . ثم ما لبث أن ظهر شخص ضئيل مطلاً عليهما ، وبخفة أرنب بري قفز إلى الحفرة .

وللوهلة الأولى لم يعرف سين من هو الشخص إلا بعد أن انفرج الوجه المغضن كالقرعة القديمة عن ابتسامة عريضة وقال بسعادة ومرح : « إنني أراك يابوان» .

حملق سين فيه وهو غير مصدق :

« أنت ! أيها الشحاذ المخبول الضئيل ! ألم أرسلك إلى شيويوي ؟ ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟» .

أجابه متاتو بحب ووله :

« لقد ذهبت إلى شيويوي حسب أوامرك وها أنا قد عدت الآن لأرعى شئونك» كان سين لا يزال يحدق في متاتو بتقدير وانبهار ، وهو يفكر فيما عناه بقولته تلك ، ثم هز رأسه وابتسم . وفي الحال رد عليه الرجل الضئيل بابتسامة أوشكت أن تشق وجهه إلى نصفين .

وسأله سين بالسواحيلية :

« ألم يرك أحد ؟ أحضرت مخترقًا خطوط رئاسة هذا الجيش ولم يرك أي أحد ؟ » .

فأجابه بتعاظم :

« لا أحد يرى متاتو عندما لا يريد متاتو أن يراه أحد » .

اهتزت الأرض من تحتهم وأجبرهم صوت الصواريخ والمدافع ليقربوا وجوههم نحو بعضهم البعض ويصرخون عندما يتخاطبون .

ـ منذ متى جئت إلينا هنا ؟

نظر متاتو إليه بأسى وأشار إلى السماء حيث كانت مروحيات الهانيد تحوم وقال : «منذ أن قامت هذه الآليات بالهجوم بالأمس . كنت أراقبكم عندما قفزتم إلى النهر ، وتتبعتكم بطول الشاطئ عندما استخدمتم الشجرة كقارب . أردت أن أصل إليكم وقتها لكي شاهدت التماسيح. وفي المساء شاهدت الرجال الأشرار ، الشفتة ، وقد حضروا في الزورق وأعادوكم لهذا المكان ثم انتظرت وأخذت أراقب كل شيء » .

سأله سين :

« هل عرفت أين ذهبوا بالمرأة البيضاء ؟ » .

لم يبن متاتو اكترائًا يذكر لكلوديا لكنه قال :

« رأيتهم يأخذونها بعيدًا ليلة أمس لكنني فضلت انتظاركم » .

فسأله سين :

«أيمكنك أن تعرف أين أخذوها ؟ » .

تلاشت ابتسامة متاتو وبدا عليه السخط وأجابه بكبرياء :

« بالطبع ! باستطاعتي أن أتتبعهم لأي مكان ذهبوا إليه» .

فك سين زر جيب جاكتته وأخرج دفتره الجديد وقبع في قاع الحفرة ، وزئير المعركة يئز من فوقه، وبدأ يكتب أول خطاب غرامي منذ سنوات عديدة . ملأ الورقة الصغيرة التي انتزعها من الدفتر الرخيص بكل ما يمكن لبث الطمأنينة والثقة والبهجة في فؤادها واختتم خطابه : «كوني قوية . لن يستغرق الأمر طويلاً. وتذكري إني أحبك . ومهما حدث فإنني أحبك » .

طبق الورقة جيدًا وسلمها لمتاتو قائلاً :

«خذ هذه الورقة إليها وتأكد من استلامها لها ثم عدلي ثانية » .

خبأ متاتو الورقة في مئزره وانتظر يترقب .

« هل رأيت الخندق الذي نمت فيه ليلة أمس ؟ » .

أومأ متاتو برأسه وقال : « رأيتك خارجًا منه هذا الصباح » . فقال له سين :

« سيكون هذا مكان لقائنا . تعالِ لي هناك عندما ينام (الشفتة) » .

نظر سين إلى السماء . كانت الغارة الجوية شديدة الوطأة ، لكنها لم تستمر لوقت طويل. كان صوت المحركات ونيران المدافع قد بدأ يخفت ، لكن الغبار والدخان لا زال يهومان من فوقهم .

وأمره سين : « إذهب الآن» . وقفز متاتو على قدميه في طاعة وحماس . أمسك سين بذراعه . كانت نحيلة كأذرع الأطفال وهزها سين بحب شديد وقال له : « لا تدعهم يمسكون بك يا صديقي القديم » . قالها بالسواحيلية .

هز متاتو رأسه وومضت عيناه سرورًا لسخافة الفكرة ثم ، وكأنه دفقة من الدخان خرجت من مصباح الجني ، اختفى من أمامهم .

انتظروا لعدة دقائق حتى يتسلل متاتو من المنطقة ثم خرجوا من الحفرة . كانت الأشجار ممزقة من حولهم من جراء القذائف ونيران الصواريخ . وعبر النهر كان مخزن للذخيرة يحترق ، وكانت صواريخ آر بي جي والقنابل الفوسفورية تتفجر مطلقة دخانًا أبيضًا كثيفًا يصل إلى عنان السماء.

جاء الجنرال تشاينا مسرعًا على الطريق باتجاههم . كان كم سترته ملطخًا بالسناج وغطى الغبار ركبه وساعديه وتغضن وجهه بالغيظ والاهتياج

وقال وكأنه يخرج لهبًا من فمه :

« إن وضعنا هنا ميئوس منه تمامًا . إنهم يغيرون علينا حسب مشيئتهم وبدون رد فعل منا».

هز سين كتفه وقال له :

« عليك أن تتراجع بقواتك الرئيسية إلى مكان خارج نطاق مروحيات الهايند» .

هز تشاينا رأسه وقال :

« لا يمكنني ذلك . فهذا يعني إننا لن نتمكن من الاحتفاظ بقبضتنا على الخط الحديدي . سيعني ذلك أيضًا أن نسلم السيطرة على الطرق الرئيسية إلى مزيليمو ، ومن ثم كأننا ندعوهم لأخذ المبادرة والهجوم علينا » .

هز سين كتفه مرة أخرى وقال له :

« على أية حال فإنهم سيضربونك ضربًا مبرحًا إذا ما واصلت البقاء هنا » . فقال تشاينا بصوت كفحيح الأفاعي :

« سلمني صواريخ الاستنجر . احصل عليهم .. وبسرعة ! » . ثم مضى ، عبر الطرقة ، إلى شاطئ النهر .

مشى سين وجوب وساءه حتى الخنادق التي على الشاطئ ، وحيث كان فصيل من رجاله مكون من حوالي أربعين رجلًا ، وواضح إنهم تنبهوا لقدوم الجنرال ، واقفين على أرض ممهدة جيدًا وبحجم ملعب للتنس بشكل طابور للاستعراض . بدا عليهم عدم الاهتمام بما أحدثته الغارة من أضرار أو متنبهين للدخان والركام أو لرجال الإسعاف المهرولين أو لفرق الترميم من حولهم.

عرف سين الرقيب القونسوو رجاله لشنقاني وقد وقفوا في الصف الأول . جاء الرقيب وحيا الجنرال بتحية عسكرية ثم استدار وأمر الطابور بالوقوف براحة . لم يضع الجنرال تشاينا وقته ولم يسرف في الحديث ، بل رفع صوته وخاطبهم بفظاظة باللغة الشنقانية :

« لقد تم اختياركم أيها الرجال لأداء مهمة خاصة . وستتلقون تعليماتكم في المستقبل من هذا الضابط الأبيض » . وأشار إلى سين بجواره . « وستطيعون هذه الأوامر منه حرفيًا . إنكم تعلمون جيدًا عواقب فشلكم في تنفيذ هذا الأمر» . ثم التفت إلى سين :

« واصل الحديث يا كولونيل كورتني » . ثم عاد أدراجه عبر الطرقة وإلى غرفة قيادته تحت الأرض . كاد سين لا شعوريًا أن يحييه لكنه تمالك نفسه وغمغم بصوت خافت : «عليك اللعنة» ، ثم أولى كل اهتمامه لجنوده الجدد .

بالطبع كان يعرف من قبل كل رجال الفونو . لكن الرجال الإضافيين الذين أمده تشاينا بهم ما كانوا يختلفون عمن رآهم . في صفوف الرينامو . لقد أعطاه تشاينا خيرة جنوده . تقدم سين ببطء نحو الصف الأول وتفقد كل فرد منهم . كانوا كلهم مسلحين ببنادق (إي كي إم) الهجومية ، وهي أحدث طراز للبندقية العتيدة (إي كي ٤٧) بعض البنادق فقدت لونها الأزرق المعدني من كثرة الاستخدام ، لكن الأسلحة عمومًا كانت منظفة بعناية وجاهزة تمامًا وكانت حمالاتها ممتازة . كانت ملابسهم العسكرية ، رغم قدمها وبلاءها ، مخاطة أو مرقعة بعناية وشديدة النظافة. وقال سين في نفسه :

« احكم دائمًا على العامل طبقًا لحالة معداته وأدوات الشغل » . كانوا جنودًا من الدرجة الأولى ، شديدوا الصلابة والكبرياء ، وقد رأى ذلك في عيونهم عندما كان ينظر إلى كل منهم على حدة . كان سين ، بطبيعته ، يحس بالألفة والإنسجام وسط القبائل المنحدرة من أصل الزولو : الأنجوني والمتابيلي والشنقاني . ولو كان له أن يختار جنوده بنفسه لما اختار سوى هؤلاء .

وعندما أكمل عملية التفتيش رجع إلى الصف الأمامي وواجههم مخاطباً لهم لأول مرة باللغة الشنقانية .

« أنا وأنتم معاً سنقوم بتحطيم عظام أكلة البراز الفريليمر » . كان يتحدث بهدوء بينما إبتسم ألفونسو ، قائد الطابور ، ابتسامة وحشية كالذئب .



بعد أن وضعنا القيود على يديها ، وراء ظهرها ، قامت الحارستان ومعهما خمسة من الجنود باقتياد كلوديا سيراً على الأقدام في طريقة وعروض الظلام الحالك .

وكثيراً ما تعثرت ورقطت ممددة على الأرض ، غير قادرة على استخدام يديها لحماية نفسها من الأرض الصخرية . وسرعان ما أصابت ركبتيها الجروح وأخذت تنزف ، وصارت المسيرة بالنسبة لها مثل كابوس رهيب .

لم تلمح في الأفق نهاية لهذا العذاب . وساعة بعد ساعة استمرار في المشي ، وكلما سقطت على الأرض لعنتها الحارسة بلغة لم تفهمها . وفي كل مرة تسقط فيها كانت مبتذل جهداً خارقاً لتقف على رجليها ثانية إذ لم تكن قادرة على إستخدام يديها وذراعاها لحفظ توازنها .

عطشت حتى أن لعابها حار مثل العجينة اللاصقة في فمها . وأوجعتها آلام ساقيها ، أما يداها وذراعاها فقد أصابها الخدر وصارا باردين . كانت من حين لآخر لتسمع أصواتاً من حولها في الظلام ، ومرة أو مرتين اشتمت رائحة الدخان ورأت لبعض الأضواء لمسكر ما أو ضوء لشمعة بعيدة . وعرفت أنها لا تزال بين

خطوط الدينامو .

توقفت المسيرة فجأة وخمنت إنها لا تزال بجوار النهر فقد أحست ببرودة مياهه في الهواء ورأت ظلال وأشباح الأشجار على ضفافه تحت ضوء النجوم وشمت رائحة الإنسان ومخلفاته من حولها : الرماد الباهت لنيران الطبخ ودخان الحطب ورائحة العرق والملابس المتسخة ومخلفات الإنسان والرائحة الكريهة للأوساخ والزبل . وأخيراً ساقوها خلال بوابة محاطة بالأسلاك الشائكة إلى مجمع آخر للسجود وجرجروها إلى أحد الخنادق وسط خندق منها .

قامت الحارستان بمسكها من ذراعيها وهبطا معها سلماً طينياً ودفعتاها في الظلمة حتى إنها تعثرت ورقطت مرة أخرى على ركبتها المصابة . ومن ورائها سمعت صوت باب يقفل بإحكام ، وكان الظلام حالكاً وشاملاً .

استندت على قدميها بعد صراع شديد لكنها عندما حاولت الوقوف أصطدم رأسها بالسقف الواطئ المصنوع من عمدان خشبية خشنة اللحاء . تراجعت للوراء ومدت أصابعها وراء ظهرها حتى لمست الباب المصنوع من ألواح خشبية مليئة بالشظايا الحارة . ضغطت بكل ثقلها عليه لكنه كان صلباً ولم يتزحزح .

انحنت لتحمس رأسها وأخذت تدور حول زنزانتها الضيقة . كانت لا تزيد على ستة أقدام ومربعة الشكل وتعثرت كلوديا في الطرق الآخر منها بالأثاث الوحيد بها . كان مصنوعاً من المعدن وبدأت تتحسسه بقدمها ووجدت إنه جردلي من الحديد . لم تترك الرائحة التي إنبعثت منه أي شك لديها في الفرص الذي يستخدم من أجله . أكملت دورانها وعادت إلى الباب .

وتحول عطشها الآن إلى عذاب مؤلم . فنادت من خلال الباب :

«أرجوكم . أريد ماء لأشرب» . كان صوتها خشناً وشفتاها جافتين حتى ظننت إنها سينشقان وصاحت : «ماء» ثم تذكرت : لإسم الإسباني للماء وأملت أن يكون نفس الإسم باللغة البرتغالية أيضاً ونادت مرة أخرى : «أقوا ! أقوا !» ولكن لم يجد صراخها ، وبدا أن الحوائط الطينية قد إمتصت وقتلت صوتها . وذهبت إلى الركن الآخر البعيد وتهاوت على الأرض . ووقتها فقط عرفت كم هي منهكة بالفعل ، ورغم ذلك كانت قيود يديها تمنعانها من الإستلقاء على ظهرها أو على جانبها . حاولت أن تجد وضعاً مريحاً لها وأخيراً نجحت بأن اتكأت ، وهي واقفة ، على ركن الزنزانة .

أيقظها البرد وشيء آخر . وكانت مضطربة مرتبكة فاقدة الإحساس بالزمان والمكان . ظننت في البداية أنها في منزل والدها بأنكود دج وصرخت تناديه :

«بابا ! أأنت هنا ؟» .

ثم شمت رائحة الرطوبة وجردل المخلفات الآدمية وشعرت بالبرد في مفاصلها وذراعيها المكبلين وتذكرت . غمرها اليأس كموجة سوداء وشعرت بأنها تغرق في مياهه . ثم - سمعت مرة أخرى نفس الصوت الذي أيقظها فتصلب جسمها وشعرت بالعرق البارد يتصبب من عنقها وجبهتها .

عرفت السبب في الحال . لم يكن لكلوديا أي قدر من ذلك الخوف المرضي الذي ينتاب النساء إذ لم تكن تخشى الثعابين أو العناكب ، لكنها كانت تخاف شيئاً واحداً . جلست متجمدة وأنصدتت لصوت ذلك المخلوق الذي يعدو ويتحرك بداخل زنزانتها وحولها . وذلك الصوت كان كابوساً يقض عليها مضاجعها . وحدقت خلال الظلمة تحاول بمشيئتها وحدها طرد ذلك المخلوق .

ثم فجأة شعرت به فوقها ومخالبه الصغيرة الحادة تطعن جلدها وملمسي أرجله الباردة على لحمها . كان جرذاً ، وزنه الكبير على جسمها فلاق أن يكون جرذاً ضخما بحجم الأرنب ، وصرخت كلوديا مستغيثه بوحشية وقفزت على قدميها وأخذت ترمل برجليها بدون أن تراه . وعندما توقف صراخها أخيراً انكمشت في ذاوية الزنزانة وكانت ترتعد وترتجف بتقلصات عنيفة هزت جسدها هزاً .

خاطبت نفسها : «توقفي عن هذا ! تمالكي نفسك!» وبعزيمة جبارة استعادت وباطة جأشها . خيم الصمت الشديد مع الظلام بعد أن أفزعت بعد أن أفزعت صرخاتها ذلك المخلوق وطردته عنها في الوقت الراهن ، لكنها لم تجرؤ على الجلوس على الأرض الترابية مرة أخرى ، فقد خافت أن يعود الجرذ إليها .

ورغم إرهاقها فقد ظلت واقفة في الركن وظلت حتى انقضاء الليل واقفة . شعرت بالنعاس وكادت تستسلم للنوم في وقفتها ثم انتفضت مستيقظة مرة أخرى . تكرر الأمر على هذا المنوال عدة مرات وعندما استيقظت للمرة الأخيرة شعرت بأن الظلام لم يعد حالكاً وأن باء كانها أن ترى ما حولها .

بدأ الضياء يتسلل داخل الزنزانة وأغمضت ثم فتحتهم وعرفت من أين جاء الضوء كان بالسقف الواطئ عدة شقوق وفتحات بين الدعائم الخشبية وقد غطيت بالطين والقش ، ولكن في مكان أو مكانيه كان الطين قد جف وسقط من بين الشقوق تاركاً نتفاً من الضوء لتدخل الزنزانة وكانت بعض سيقان خشبية الفيل تتدلى من السقف والشقوق .

حملت فيما جولها بخوف ، لكن الجرذ كان قد اختفى يبدو أنه قد تسلل من خلال إحدى الفتحات بين الدعامات الخشبية .

توجهت كلوديا باضطراب نحو جردل الحديد المجلفن ذي الرائحة المنفرة

وعندما وقفت فوقه تحققت من مدى الورطة التي هي فيها . فقد كانت يداها مغلولتين خلف ظهرها وهذا ماذا من حرج حالتها ورغبت التي لا تقاوم الاستخدام الجردل .

كادت أصابعها أن تفقدن الإحساس لكنها ، وفي عجلة يائسة ، إستطاعت أن تمسك بحزامها الجلدي وتديره حول بطنها حتى وصل الإبزيم لمؤخرة ظهرها .

وكانت تلهث من الجهد الذي بذلته للسيطرة على رغبتها الطبيعة وأخذت تفك حزام بنطلونها .

كان وزنها قد نقص كثيراً حتى أن بنطلونها سقط عنها بمجرد فك الحزام واستطاعت أن تجلس على الجردل بعد جهد . ورغم المصاعب والمشاق التي قابلتها في الأيام الأخيرة إلا أن محاولتها لتنظيف نفسها كانت أكثر صعوبة وألماً ، ووجدت نفسها تبكي من الهوان الذي لاقته ، حتى استطاعت أخيراً أن ترتدي بنطلونها . كان رسغاها قد امتلئا بالفرح وأوجعتها يديها من الجهد الذي بذلته لأداء تلك المهمة البسيطة . انهارت في ركن من الكوخ وشعرت بأن رائحة الجردب قد تسللت لأعماق روحها .

ومن ثقب في السقف جاء شعاع من الضوء وسقط بشكل العملة الفضية على الحائط المقابل للثقب . أخذت تنظر لبقعة الضوء المستديرة وهي تتحرك للأسفل ببطيء شديد وبدا أن هذا المنظر قد أدفأها ورفع معنوياتها وخفف من حدة يأسها .

وقبل أن تصل دائرة الضوء للأرض - سمعت خربشة على الباب ، وصوت المزلاج وقد أزيح رتاجه ، ثم فتح الباب محدثاً صريراً من مفصلاته البدائية . إنحنت الرقيبة الطويلة داخل الزنزانة ، وقفزت كلوديا على قدميها وهمست :

«أرجوك اسمحي لي بالاغتسال» . قالتها باللغة الإسبانية بمستوى تلميذات المدارس الثانوية . لكن الحارسة لم تظهر أي قدر من الفهم لما تقول .

كانت تحمل في إحدى يديها وعاء معدنياً به ماء وبالأخرى سلطانية من عصيدة الذرة الخشبية . وضعت وعاء الماء على الأرض والفت بسلطانية العصيدة على الأرض بجانب الماء .

العطش الذي أصابها ، والذي أفلحت في السيطرة عليه مؤقتاً ، عاد إليها بدرجة رهيبة ، وكادت تلهث عند رؤيتها لوعاء الماء الذي احتوى على حوالي لترين من الماء النقي .

ركعت على ركبتيها أمام الوعاء كأنها تتعبد ونظرت إلى الحارسة :

«أرجوك . يجب أن أستخدم يداي . أرجوك» .

قهقهت الحارسة ورفست الإناء بمقدمة حذائها الطويل واندلق بعض الماء منه. صرخت كلوديا بصوت أحبشي : «لا . لا تدلقي الماء» .

ركعت على ركبتيها وانحنت فوق الإناء وحاولت أن تصل بطرف لسانها للماء ومدته لأقصى طوله وشعرت بطعم الماء على طرف لسانها لكن طرف الإناء المعدني الحاد كان يجرح وجهها .

ونظرت نحو الحارسة ثانية وتوسلت إليها : «أرجوك ساعديني» .

ضحكت الحارسة مرة أخرى واتكأت على الحائط تراقب معاناة كلوديا في انشراح .

إنحنت كلوديا ثانية وأمسكت بطرف الوعاء بين أسنانها . وبحرص شديد رفعت رأسها وانساب بعض الماء إلى فمها وسال بين شفتيها . كان سرورها طاغياً ورفعت عيونها . أخذت تتناول جرعة بعد الأخرى حتى هبط مستوى الماء بالإناء إلى الدرجة التي لم تستطع أن تدخله في جوفها . كان الإناء لازال ممتلئاً لحوالي نصفه لكن عطشها لم يزد إلا شدة ، حتى بعد أن تمكنت من شرب تلك الكمية .

ورفعت راسها بحرص وهي تقبض على الإناء بأسنانها ، ثم أمالته للوراء ، ولكن سرعة إمالة رأسها كانت أكبر مما قدرت ، وشرقت عندما ملأ الماء فمها وسقط الإناء من بين أسنانها وتدفق الماء على صدرها ثم إلى الأرض التي إبتلعته في الحال .

صرخت الحارسة من فرط سرورها . وملأت دموع اليأس عيون كلوديا واستطاعت أن تسيطر على نشيجها عندما رأت الحارسة وهي تدوس على القصيدة برجلها وتسويها بالأرض ثم شخرت ضاحكة مرة أخرى وتناولت الأواني الفارغة وغادرت الزانزانة ، وسمعتها كلوديا وهي تقهقه أثناء إغلاقها للباب .

من خلال ميلاد الشمس قدرت كلوديا الوقت الذي مر عليها وهي تراقب تسلل الشعاع من بين الشقوق بالسقف . وبدا اليوم الأول وكأنه بلا نهاية . وبالرغم من القيود التي أقلقت راحتها إلا أنها استطاعت أن تنام نوماً متقطعاً . لكنها عندما تستيقظ كانت تشغل نفسها بالخطط والوسائل التي تساعد على بقارئها على قيد الحياة .

كان الماء هو شغلها الشاغل والمقدار الضئيل الذي شربته قد يكفي خلال اليوم . لكنها بدأت فعلا تحس بأعراض فقدان السوائل والجفاف . وحدثت نفسها : «لابد لي من إيجاد وسيلة لأشرب بها من ذلك الإناء» . قضت بقية النهار تقلب في الأمر . وعندما إستلهمت الحل قفزت على قدميها بسرعة حتى أن رأسها

إصطدم بألواح السقف . تجاهلت الألم وبدأت تتفحص في سيقان حشيشة الفيل التي كاد بعضها يتدلى من سقف الزنزانة . إختارت واحداً من أعواد القصب وأخذته بين أسنانها وألقته على الأرض ، ثم إنحنت عليه ، وبجهد تمكنت من الإمساك به بين أصابعها . ولحسن الحظ كان العود جافاً هشاً وإنكسر بين أصابعها . قسمته إلى أربعة أقسام متساوية كل واحد منهم بطول تسعة بوصات تقريباً . ومرة أخرى ، عن طريق بعد تلويها ودحرجة جسمها ، تمكنت من غرسهم على أرضية الزنزانة ، ثم إستدارت وإنحنت وقبضت على قضبة منهم بين شفتيها وحاولت أن تتضح الهواء بداخلها . لكن العود كان مليئا باللب وبالتراب، فألقته جانباً وتناولت الثاني .

وعندما نفخت هذا الفص ، طارت منه قطعة صغيرة من الفلين وصار فارغاً مجوفاً . مالت على جنبها وجلست وسط الأرضية الترابية ، والبوصة لا زالت في فمها ، وهي تضحك لإنتصارها . غطى شعورها بالانتصار ، وإنجاز ما أرادت ، على مشاعر يأسها والتي كادت أن تدمر حتى إرادتها للحياة ، ثم زحفت نحو ركن الزنزانة وأخفت قصبتها الثمينة بعناية فائقة . وإستمرت بقية النهار تفكر في كيفية استخدامها .

لم تعد أشعة الشمس تتسلل إليها وبدأ المساء الكئيب يطل قبل أن تسمع صوت الحارسة أمام الباب . إنزوت في ركنها عندما إنحنت الحارسة للداخل وبلا مبالاة ألقت بوجبة الذرة المغلية على الأرض ووضعت إناء الماء بجوارها ، ثم اتكأت على ضلفة الباب مترقبة أن تزحف كلوديا نحو الطعام ولتشرب من الماء كالحيوان .

تعرضت كلوديا بركن الزنزانة بدون حراك ولم يبد على وجهها أي تعبير لكن حلقها تقلص عندما ابتلعت ريقها لا إرادياً وشعرت بالعطش الشديد ، وكأنه حيوان مفترس ينهض في أحشائها.

وعندما لم تتحرك لبضع دقائق قالت الرقيبة شيئاً بالبرتغالية وأشارت رأسها ومرة أخرى داست على الطعام برجلها وواسته بالتراب ثم أطلقت ضحكة كالشخير وتراجعت نحو الباب وأقفلته من ورائها . لكن إناء الماء كان في وكانه .

سيطرت كلوديا على رغبتها في الوصول للماء ، حتى تأكدت من أي الحارسة قد ذهبت بالفعل ، ولم تعقد تتجسس عليها خلال أي ثقب بالزنزانة . وعندما تأكدت من أن أحداً لا يراقبها زحفت كلوديا في عجلة محمومة إلى الركن الذي خبأت به البوصة ولتقطتها بين أسنانها وإنحنت على إناء الماء . جذبت الجرعة الأولى خلال البوصة وتركها تسيل على حلقها وقد أغلقت عيونها

من السرور . كانت كأنها تشرب من دواء سحري ، وشعرت الآن بالقوة ، وسرت روح العزيمة التصميم في شرايينها .

شربت معظم محتويات الإناء بلذة وسرور حتى بدأ الظلام يعم أرجاء الزنزانة، لكنها لم تجد في نفسها رغبة في تناول العصيدة اللزجة المتسخة والمختلفة بالتراب .

إدخرت باقي الماء وتناولت الإناء من مقبضه بأسنانها ووضعته بعناية في الركن البعيد من الزنزانة ، حيث يمكنها أن تتناول جرعات منه حسبما تريد وخاصة خلال ساعات الليل الطويلة القادمة واستسلمت لقدوم الليل شاعرة بنوع من الفرح وبخفة في رأسها وكأنها إحتست شمبانياً بدلاً عن ماء النهر الفاتر . وهمست لنفسها :

«بمقدوري أن أتحمل أي شيء يفعلونه لي ، ولن يستطيعوا تحطيمي ، ولن أتركهم ليفعلوا ذلك . لن ...» .

لكن مزاجها لم يستمر طويلاً . فعندما أظلمت زنزانتها تماماً تبينت غلطتها الجسيمة لتركها العصيدة ، التي لم تتاولها ، على الأرضية .

فبالأمس كان هناك جرذ واحد ، وقد هرب عندما صرخت ستغيثه . أما هذه الليلة فقد جذبت رائحة الطعام أرتالاً منهم خلال فتحات السقف ، وبدا لخيالها المرتبك أن سقف الزنزانة كان يعج بأجسادها المليئة بالشعر . ملأت رائحة الجرذان أنفها وكأنها روائح القرون والأظلاف المغلية في وعاء للغراء ، فتراجعت نحو الركن خائفة ترتجف من البرد والرعب .

وبدأت الجرذان تتمسح بأرجلها وتجري فوق أقدامها وهي تصرخ وتصر بصوت حاء أثناء صراعها على باقي الطعام .

انهارت كلوديا أخيراً من فرط رعبها وأخذت تصرخ مستغيثة وهي على حافة الهيستيريا وأخذت تضرب الجرذان وترفسها بقدميها وتركها بوحشية . إستدار جرذ منهم وعضها في كاحلها العاري وكانت لأسنانه الصغيرة الحادة وقع شفرة الحلاقة عليها . وصرفت مرة أخرى ، وركلته محاولة نفضه بعيداً عنها لكن الجرذ تشبث بأسنانه لعدة ثواني بها حتى استطاعت أخيراً إلقائه بعيداً عنها .

اصطدم الجرذ الضخم الذي ركلته باناء الماء الثمين الذي إدخرته وسمعت صوت الإناء المعدني وهو يرن مصطدماً بالحائط وصوت الماء يندلق على الأرض الترابية زحفت نحو الإناء المقلوب ، وبكت من شدة اليأس .

وبعد عدة ساعات من الخوف والرعب الأسود كانت الجرذان قد إلتهمت آخر ما تبقي من الذرة وبدأت تخفي من خلال الشقوق . انهارت كلوديا على

ركبتيها وقد حطمها الإرهاق البدني والنفسي :

«أرجوك يا إلهي أوقف هذه المحنة ، فلن أقد على الإستمرار هكذا يا إلهي».

سقطت على جانبها ورقدت على الأرض ترتجف وتبكي بكاء خافتاً وأخيراً سقطت في غياهب النسيان الأسود في نوم محموم .

استيقظت عندما شعرت بشيء ينتزع شعرها وصوت طاحن غريب بالقرب من أذنها . مرت عدة ثواني ، وهي تغالب النوم ، قبل أن تعرف ما كان يحدث لها . كانت قد إنهارت راقدة على جنبها ، وأحد خديها ملتصق بالأرض ، ومضى بعد الوقت وهي متحملة للجذبات الحادة لشعر رأسها والصوت الطاحن فوق أذنها ثم ، فجأة ، عاد الرعب إليها بكل قواه .

كان جرذ بعضهم في شعرها ويقطع فيه بأسنانه الحادة المحنية . ويبدو إنها كانت جرذاً أنثى تجز مهداً من الشعر لضمارها . شل الرعب كلوديا ولم تعد تستطيع الحركة ، وشعرت بجسمها كله وكأن إبراً تغرز فيه ، وتقلصت معدتها وتجعدت أصابع يديها ورجليها من شدة إشمئزازها .

وفجأة لم تعد خائفة . تحول خوفها إلى غضب جارف ، وبحركة خاطفة تدحرجت ووقفت على قدميها وبدأت تطارد المخلوق البشع .

طاردته بدون هوادة حول الزنزانة متتبعة إياه من صوت هرويه وخربشة مخالبه واقدامه على الأرض . لم تعد تركل برجليها بتلك الصورة المهتاجة العشوائية ، لكنها كلما سمعت الصوت رفسته برجلها . حاول الجرذ مرتين أن يتسلق الحائط للنجاة بنفسه لكن كانت كلوديا تحس به وتستخدم كل جسمها لإلقائه على الأرض ثانية .

لم تعرف في حياتها مثل هذا الغضب القاتل فقد أرهف إحساسها وزادت قوة سمعها حدة ، حتى أنها كادت أن ترى تحركات الجرذه كما تسارع رد فعلها وصارت ركلاتها سريعة وقوية . وعندما هبطت قدمها على الجسم الدافئ المغطي بالشعر ألهبتها صيحات وأنين الجرذ ورعبه .

حاصرته بجانب باب الزنزانة ووطئته مرة أخرى وأحست بالعظام الرهيفة تتحطم من تحت كاحلها . وركلته مرة وأخرى وأخرى وهي تنشج من المجهود الذي بذلته ، وظلت تضرب وتدوس عليه حتى تحول إلى عجينة هشة تحت قدميها .

وعندما تراجعت أخيراً وجلست في ركنها كان جسمها يرتجف ، لكن ليس من الخوف هذه المرة . وقالت لنفسها :

«لم أقتل شيئاً في حياتي من قبل» . وشعرت بالدهشة من نفسها ومن هذه القساوة الخفيفة الدفينة في أعماق نفسها التي لم تظن يوما إنها تمتلكها .

انتظرت حتى يغمرها الإحساس بالذنب أو بالقرف . لكن شيئاً من هذا لم يحدث بل شعرت ، بالعكس ، بأنها قوية وكأنها قد خرجت لتوها من منحة عظيمة أمدتها وسلحتها بقوة تتغلب على أي مصاعب أو مخاطر المستقبل .

وهمست بنفسها :

«لن أستسلم . لن أستسلم مرة أخرى . سأقاوم وأقاتل وأقتل إذا اضطررت لذلك . وسأعيش ! » .

❖ ❖ ❖

عندما عادت الحارسة في الصباح لأخذ إناء الماء ، واجهتها كلوديا بحزم وتصميم ، ورفعت رأسها واقتربت من رأس الحارسة السوداء وقالت لها بصوت حازم :

«أخرجي هذه الجثة» . وأشارت للجرذ الميت برجلها . ترددت الحارسة لكن كلوديا أمرتها : «خذيها .. الآن» . والتقطت الحارسة الجثة الممزقة من طرف ذيلها وبدا على عينيها شيء من الاحترام لكلوديا .

غادرت الزنزانة حاملة الإناء الفارغ ، والجرذ الميت ، وعادت بعد بضع دقائق، بعد أن ملأت الإناء بالماء ، ومعها قرعة مليئة بعصيدة الذرة . كتمت كلوديا رغبتها في الشرب ، وواصلت الحفاظ على دورها الجديد بغرض سيطرتها ـ بهدوء ـ على الحارسة . وأشارت إلى جردل البراز :

«يجب أن ينظف هذا الجردل» . لكن الحارسة شخرت فيها بغضب باللغة البرتغالية . لم تتردد كلوديا بل قالت لها وهي تنظر في عينها حتى أرضتهما الحارسة : «سأقوم أنا بذلك» . ثم أتبعت قولها بإدارة ظهرها للحارسة ومدت يديها المقيدون لها وأمرتها :

«فكي هذه القيود !» . ثم أطاعت الحارسة وأخرجت المفتاح المعلق في حزامها . كادت كلوديا تصرخ عندما فكت قيودها فقد عاد الدوم متدفقا في عروق يديها وضمتهما كلوديا إلى صدرها وأخذت تمدهما برقة وهي تعض شفتيها من الألم وعمها الزعر من رؤيتها ليديها المتورمتين ورسغيها المقدوحين .

لكزتها الحارسة على ظهرها وأصدرت لها أمرًا بالبرتغالية . تناولت كلوديا الجردل من طرفه وصعدت السلم متجاوزة الحارسة ورأت في الدفء وضوء الشمس والهواء النقي من حولها راحة كأنها تتلقى بركات القديسين .

تطلعت كلوديا للمعسكر من حولها ، وكان واضحًا أنه سجن للنساء ، فقد كانت بضع نسوة كئيبات المنظر يتمرغن على التراب أو يجلسن تحت ظل شجرة الأبنوس الوحيدة في وسط الساحة. كن يرتدين ملابسًا أو مآزر لستر العورة ممزقة ومتهرئة ، وكانت صدورهن العارية نحيلة وقد برزت عظام

صدورهن من تحت جلودهن القاتمة المعفرة بالتراب وكانت أثداؤهن ، حتى أثداء صغيرات السن منهن ، فارغة متدلية وكأنها آذان الكلاب . واستغربت كلوديا وتساءلت عما ارتكبن من جرائم أم أن مجرد وجودهن هو الذي أغضب من أسروهن .

رأت أن زنزانتها التي تحت الأرض كانت واحدة من صف به أكثر من اثنتي عشرة أخرى ، وكان واضحًا أن هذه الزنازين كانت مخصصة لأكثر السجينات أهمية أو أخطرهن .

كان يحرس بوابة المعسكر اثنتان من الحارسات قويات البدن ، ترتدي كل منهما ملابس الرينامو بخطوط النمر ، ويحتضنا بنادق إي كي الهجومية . نظرت الحارستان إلى كلوديا بفضول وبدأتا تتحدثان عنها بانفعال . ومن وراء البوابات تطلعت كلوديا إلى نهر بنجوى العريض ومياهه الخضراء المتدفقة ، وداعب خيالها للحظة رغبة شديدة لإلقاء نفسها في النهر والاستحمام وترطيب جسدها المنهك وغسيل ثيابها المتسخة . لكن الحارسة دفعتها دفعة مؤلمة في ظهرها وحثتها للتحرك نحو المراحيض المحاطة بالحصائر والموجودة في مؤخرة المعسكر .

وعندما وصلت للمراحيض قامت الحارسة بأمرها ، بإشارات من يدها ، لإفراغ الجردل في الحفرة العامة ، ثم رجعت لتدردش مع حارسة أخرى جاءت لتلحق بها وهي تعلق بندقية إي كي على كتفها .

كان الحائط الخلفي للمرحاض جزءًا من سور المعسكر ، ولكن لم يكن به أي مجال للهرب . فقد كانت أعمدته غليظة مربوطة بعضها بعضًا بحبال مثبتة من اللحاء ومرتفعة جدًا حتى لا يستطيع أحد أن يصل لأعلاها .

استبعدت فكرة الهروب ، حتى قبل أن تختمر في رأسها ، وقامت بتفريغ الجردل في الحفرة العميقة ، وسرعان ما خرجت من أعماق الحفرة جيوش من الذباب الذي أخذ يطن ويدور حول راسها . جعدت أنفها من شدة اشمئزازها وتراجعت نحو باب الخروج ثم تجمدت حينما سمعت صفارة خافتة ، كنواح الثكلى ، كادت تتجاهلها لولا أنها تذكرت إنها سمعتها مرارًا من قبل . كانت إحدى الإشارات الخفية التي كان يستخدمها سين وقصاصي الأثر من قبل . وكان سين قد شرح لها أن هذه الإشارة الحزينة هي تقليد لنداء نوع من الطيور يسمى (دغناش الباو باو) لذا، وبسبب من ارتباط الصوت بالماضي ، أكثر من النغمة نفسها ، تكهرب جسمها .

نظرت بسرعة بتجاه باب الخروج من المرحاض ووجدت أنه غير مراقب وسمعت صوت الحارسة ورفيقاتها يثرثرن في الخارج . لوت شفتيها وحاولت تقليد

الإشارة بصفير خافت غير متقن .

وفي الحال تكررت الصفارة من وراء حائط المرحاض مباشرة والتهبت آمال كلوديا ومشاعرها ، فألقت بالجردل وجرت نحو عمدان الحائط ونظرت خلال أحد الشقوق به وكادت تصرخ عندما رأت عينًا تطل عليها من وراء الشق ثم جاءها صوت هامس تتذكره جيدًا :

« جامبو ميمصاحب » .

شهقت كلوديا :

« متاتو ؟ » .

أجابها متاتو بالكلمات الإنجليزية الوحيدة التي يعرفها :

« الشحاذ الضئيل المخبول ! » .

استماتت حتى تمنع نفسها من الإنفجار ضاحكة من فرط إحساسها بالراحة والأمل والسرور لهذا الترحيب المتناقض الغريب بها . وتهدج صوتها :

« أواه يا متاتو . كم أحبك ! » . وفي الحال دس من خلال الشق ورقة مطبقة أمام وجهها . وفي اللحظة التي أطبقت أصابعها عليها ، كانت عين متاتو قد اختفت من الشق . ونادته يائسة : «متاتو» لكنه كان قد تلاشى كالدخان . ويبدو أنها تحدثت بصوت عال ، فقد سمعت نداء الحارسة لها للخروج ، وخطى أقدامها على المدخل .

وفي الحال استدارت كلوديا وتقرفصت فوق الحفرة النتنة . وعندما نظرت الحارسة نحو الباب المصنوع من القش صاحت كلوديا في وجهها بغضب :

« أخرجي من هنا . ألا ترين أنني مشغولة ! » .

وهزت الحارسة رأسها لا شعوريًا وتراجعت . كانت كلوديا ترتجف من شدة انفعالها عندما فضت الورقة وتعرفت على الخط وكانت في نفس الوقت خائفة من أن تنتزع منها قبل أن تقرأ محتوياتها . طبقتها بسرعة ودستها في جيب بنطلونها الخلفي حيث يمكنها إخراجها حتى لو قيدت يديها ثانية خلف ظهرها .

تشوقت للعودة لزنزانتها لتخلو لنفسها . جاءت الحارسة ودفعتها أمامها على السلم، ولكن ليس بالخشونة التي درجت عليها .

وضعت كلوديا جردل المخلفات في ركن الزنزانة . وعندما أشارت الحارسة إلى رسغيها مدت كلوديا يديها بكل طاعة ، لكن ملمس القيد المعدني فوق جلدها المقروح صار أكثر إيلامًا عما كان عليه، وتوترت عضلات وأوتار ذراعيها وأكتافها رفضًا للقيد .

وعندما تم تقييدها استعادت الحارسة مزاجها العدواني ورغبتها في فرض سيطرتها على السجينة ، فألقت بمحتويات كزرولة العصيدة على الأرض ورفعت قدمها لتدوسها .

خرج صوت كلوديا كالفحيح وهي تتقدم نحو الحارسة وتدفع برأسها أمامها متحدية لها وحدقت في وجهها بعيون تطلق الشرر :

« إياك أن تفعلي ذلك ! » . وتراجعت الحارسة لا شعوريًا .

وصرخت كلوديا في وجهها باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية :

« أخرجي من هنا ! جت أوت : أللى : فاموز ! » .

فتراجعت الحارسة نحو الباب وهي تبرطم متحدية كلوديا وجرت الباب من ورائها وأغلقته.

دهشت كلوديا لهذه الشجاعة التي واتتها واتكأت على الباب ترتجف من فرط الجهد الذي بذلته في صراع الإرادات مع الحارسة ، وعندها فقط تذكرت مدى خطورة مواجهتها لها ، فربما كان ذلك قد أدى إلى ضربها ضربًا مبرحًا أو إلى حرمانها من حصتها من الماء الثمين .

لقد كان في خطاب سين لها ما أعطاها القوة والشجاعة لتتحدى الحارسة . ووقفت متكئة على الباب ومدت يدها المغلولة لجيب بنطلونها ولمست الورقة المطوية ، واطمأنت لوجودها . لن تقرأها الآن بل ستؤخر ذلك وتستمتع بلذة ما ستجلبه قراءتها لها من سرور . بدلاً عن ذلك استعادت بوصتها ، التي تشرب بها ، من مكان مخبأها .

وبعد أن شربت حتى ارتوت تناولت شيئًا من عصيدة الذرة وكانت تميل بفمها نحو الأرض وتلتقط قطعة منها بأسنانها وتنفضها من التراب الذي التصق بها كانت مصممة على الا تترك أي بو قي من الطعام ، ليس لأنها جائعة ، بل لأنها تعلم بأنها محتاجة لكل قوتها وطاقاتها في الأيام المقبلة ، ولأنها تعلم أن بواقي الطعام هو الذي يجتذب تلك الجرذان البشعة . وبعد أن شربت وأكلت تمامًا سمحت لنفسها بالتمتع والتلذذ بقراءة خطاب سين .

تناولت الخطاب من جيبها وفردته بحرص بين أصابعها المتورمة ثم جلست على الأرض ووضعته تحت شعاع الشمس الذي تسلل إلى أحد أركان الزنزانة ثم استدارت وانحنت عليه.

أخذت تقرأ ببطء وهي تحرك شفتيها ، كأنها شبه أمية ، وتلوك كل كلمة بفمها وكأنها تتذوق بلسانها حلاوة مذاقها :

« كوني قوية . لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً وتذكري بأني أحبك . ومهما

يحدث فإنني أحبك».

امتلأت عيناها بالدموع وهي تقرأ كلماته الأخيرة . ثم جلست وهمست لنفسها بنعومة:

« سأكون قوية . أعدك بأن أكون قوية فقط من أجلك . وأنا أحبك أيضًا ، وكل وجودي هولك ولحبك » .



قال الرقيب ألفونسو وهو يتفقد أكوام المعدات التي استلبوها من الجيش الزمبابوي :

« ربما يقاتلوننا كالنساء لكنهم ، على الأقل ، يرتدين ملابس المقاتلين » . كانت تلك الملابس العسكرية قد جاءت من بريطانيا كجزء من التزامهم بدعم موجابي ، وذلك بعد استسلام نظام إيان سمث الأبيض . كانت من أغلى الأنواع. وسرعان ما قام ألفونسو ورجاله بخلع أزيائهم القديمة الباهتة والمرقعة والمخططة كجلد النمور بحماس واستبدلوها بالملابس الجديدة .

كانوا مبتهجين بالذات بأحذية رجال المظلات الجلدية اللامعة السوداء والتي أراحتهم من أحذيتهم القديمة المتهرئة ، والتي كانت خليطًا من أحذية الجري وأحذية التنس المطاطية .

انتقى كل واحد منهم الزي المناسب له من بين تلك الكومة الرائعة ثم توجهوا جميعًا إلى أرض الاستعراض الممهدة جيدًا . مر سين وجوب من خلال صفوفهم وشرحوا لهم كيفية ارتداء الزي الجديد وملحقاته ثم جاء ضابط الإمدادات من ورائهم ، يصحح ويعالج أي خلل سواء في المقاس أو الحجم . وقال له سين :

« ليس من الضروري أن يكون كل شيء متقنًا تمامًا لأنهم لن يكونوا في طابور الاستعراض ، بل عليهم فقط أن يمروا بدون ريبة عند النظرة العادية لهم . ليس لدنيا أيضًا وقتًا نضيعه في تحسين الزي أو التلميع » .

وبعد أن اكتمل لباسهم ، تفرغ جوب وسين لدراسة خطة عملية (قاعدة قراند ريف) بقية ذلك النهار وجزءًا من الليل . بدأوا أولاً بالجلوس متقابلين على طاولة بغرفة اتصالات القيادة ودققوا خلال كل تفاصيل القاعدة التي أمكنهم تذكرها من معلوماتهم القديمة . وعندما جاء الليل شعروا بالارتياح لحصولهم على صورة دقيقة للحد الأقصى للقاعدة ، وبأكثر مما أملوا . لكن سين كان يعلم ، من سابق تجاربه مع الأميين ، بأن من الصعب على جنوده تصور الوضع في القاعدة بمجرد رؤيتهم لرسومها . بل إنه علم بطريقة غير مباشرة أن كل جنوده الجدد ، رغم تمرسهم في القتال ، كانوا لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة .

لذا قضى سين وجوب معظم تلك الليلة وهم يشيدون مجسمًا للقاعدة ، وذلك بأرض الاستعراض، مستعينين بأضواء الفوانيس . كان جوب بارعًا في تصميم النماذج والمجسمات وقام ببناء نموذج للقاعدة مستعينًا بلباب التبلدي الهش كما أحضر كمية من الحصى المختلف الألوان ، من ضفة النهر ، وحدد بها ممرات المطار والطرق الداخلية بالقاعدة والسور الذي يحيط بها.

وفي صباح اليوم التالي قام سين وجوب ، ومعهم ألفونسو ، باستعراض الجنود ثم أجلسوهم في حلقة على الأرض حول نموذج القاعدة . أثبت النموذج نجاحًا باهرًا وأثار تعليقاتًا وتساؤلاتًا مليئة بالحيوية والذكاء .

بدأ سين بشرح الغارة لهم ، محركًا علبًا للكبريت عبر الطرق المعلمة بالحصى الملون كمثال لحركة عربات الينموق . وأوضح لهم خطة الهجوم الخداعي على محيط القاعدة ، ثم انسحاب العربات المحملة بهم ، ونقطة اللقاء على طريق أو متالي . وعندما انتهى . لم المؤشر ، الذي كان يستخدمه ، إلى الرقيب ألفونسو وقال له :

« حسنًا يا سيرخبت . اشرح لنا هذه الخطة مرة أخرى » .

ابتهج الجنود ، المتحلقون حول المجسم باهتمام شديد ، بتصحيح الأخطاء البسيطة لألفونسو أو تذكيره بما قد نسيه . وعندما انتهى ناول المؤشر لكبير العرفاء ليعيد نفس المحاضرة . وبعد إعادتها خمس مرات كانوا جميعًا قد حفظوا الخطة واستوعبوها لدرجة أنه ، حتى الجنرال تشاينا ، كان منفعلاً وشديد التأثر . وقال لسين :

« بقى فقط أن نرى إذا كنت ستنفذها بمثل ما شرحتها » طمأنه سين وقال له : «سلمني فقط شاحنات الينموق » .

فأوضح تشاينا له :

« الرقيب ألفونسو كان مع الوحدة التي أسرت تلك العربات . وهو يعرف أين خبئت . ولمعلوماتك ، فقد قتل ضابط الحرس ، الرائد الإنجليزي الذي ستستخدم زيه العسكري، بالصدفة في نفس العملية » .

- متى كان ذلك ؟

- قبل شهرين تقريبًا .

قال سين بمرارة :

« يا للجمال ! هذا يعني أن تلك العربات ظلت بالغابة طيلة تلك الفترة . ما الذي يجعلك تظن بأنها لازالت هناك أو إنها لا زالت بحالة جيدة صالحة للاستخدام ؟ » .

ابتسم تشاينا ابتسامة باردة واهنة ، سيعرف سين الكثير منها فيما بعد ويذدريها ، وقال له :

« كولونيل : أرجوك ، من أجل الآنسة مونتيرو ، أن تصلي لله لتكون العربات هناك» . ثم تلاشت ابتسامته وأضاف : « والآن ، وبينما يستلم الرجال ذخائرهم وتعييناتهم ، سنقوم أنا وأنت بالنقاش الأخير. تعال معي يا كولونيل » .

وعندما وصلا لغرفة الاتصالات بمركز القيادة تحت الأرض ، التفت تشاينا نحو سين ، وعلى وجهه تعبير كئيب ، وقال له :

« أثناء الليل تلقيت إشارة بالراديو من مندوبي بقاعدة قراندريف . وهو لا يرسل إشاراته لي إلا عند حدوث طارئ ، إذ أن ذضه للخطر . ولكن هذه حالة طارئة . فلقد انتهى التدريب على نظم تشغيل الاستجر ، وصدرت التعليمات لترحيل وإعادة توزيع الاستجر خارج قاعدة جراند ريف في خلال الاثنين وسبعين ساعة القادمة حيث يعتمد ذلك على تجهيز طائرة النقل » .

أطلق سين صفارة خافتة وقال :

« اثنين وسبعين ساعة ؟ في هذه الحالة لن نستطيع إنجاز المهمة » .

نظر تشاينا إليه ببرود وقال :

« كولونيل : كل ما أستطيع قوله هو أن من الأفضل لك أن تنجز هذه المهمة . فإذا لم تستطع، فلن تكون لك أي فائدة أخرى لي وسأبدأ في التفكير في الأحداث القديمة » . ثم لمس أذنه المعطوبة عن قصد .

حملق سين في وجهه بصمت حتى قطعه تشاينا مواصلاً الحديث : « عمومًا فليست كل الأخبار سيئة يا كولونيل . فعميلي هناك سيقابلكم في أومتالي ، وسيبلغكم بكل المعلومات الإستخبارية الخاصة بالمباني التي تحفظ فيها صواريخ الاستجر ، والغرفة المستخدمة للمحاضرات ومراشد التدريب . كما أنه سيصحبكم إلى القاعدة ، فهو معروف تمامًا لدى حراس البوابات ، وسيساعدكم على الدخول ويقودكم إلى مركز التدريب » .

وجاء صوت سين هادرًا :

« هذا شيء جديد . أين سنقابل الرجل ؟ » .

أجابه تشاينا :

« هناك ملهى ليلي في أومتالي يسمى (ستاردست) . وهو مكان لتجمع المومسات والقوادين. سيكون عميلي هناك كل ليلة من الثامنة مساء وحتى منتصف الليل .

والفونسو يعرف الملهى وسيأخذكم إليه » .

ـ وكيف سأتعرف على عميلك هذا ؟

ـ سيكون مرتديًا قميصًا قصير الكمين وعلى صدره صورة كبيرة للشخصية الهزلية المشهورة في الروايات ، سوبر مان » .

أغمض سين عينيه وكأنه يشكو من ألم بهما . وواصل تشاينا :

« واسم الرجل هو كوثبرت» .

هز سين رأسه وهمس :

« لا أصدق أن هذا يحدث لي . سوبر مان وكوثبرت ! » . ثم هز رأسه مرة أخرى كمن يوقظ نفسه :

« وماذا عن الحمالين في إرسالية سانت ميري ؟ » .

فأجابه تشاينا مؤكدًا :

« تم ترتيب هذا الأمر . سيعبر الحمالون الحدود ليلة الغد ، وفور حلول الظلام ، وسيختبئون في كهوف الجبال المطلة على الإرسالية في انتظار وصولكم» .

أومأ سين برأسه وسأله :

« إذا تحركنا الآن . فكم يستغرق الوقت حتى نصل إلى المكان المخبأة به عربات الينموق ؟ » .

ـ عليك أن تكون هناك قبل ظهيرة الغد .

ـ هل هناك أي شيء آخر للبحث فيه معك ؟

هز تشاينا رأسه بالنفي . ووقف سين وعلق بندقيته (إي كي إم) على كتفه وبيده الأخرى تناول الحقيبة الكتانية الصغيرة التي احتوت على الزي العسكري للرائد الإنجليزي القتيل وصندوق عدته لصغير وقال :

ـ حتى نلتقي مرة أخرى يا جنرال تشاينا .

ـ حتى نلتقي مرة أخرى . سأولى عنايتي الخاصة بالآنسة مونتيرو . فلا تقلق يا كولونيل .

❖ ❖ ❖

كان الطابور العسكري مثقلاً بالأحمال . فقد حمل كل رجل منهم ما يكفيه من الماء والطعام ليومين إضافة للذخيرة وأحزمة الرصاص الإضافية لمدافع المكنة (آر بي دي) والقنابل اليدوية وصواريخ قاذفات (آر بي جي ٧) .

ولأنهم لن يستطيعوا الهرولة تحت هذه الأحمال ، فقد دفعهم الرقيب الفونسو للمشي السريع بخطى واسعة وقبل حلول الظلام كانوا قد غادروا

خطوط الرينامو ودخلوا مناطق (التدمير) ، وهي منطقة تتصادم فيها قوات الجانبين ، حيث هناك احتمال لمواجهة دوريات الفريليمو . لذلك أمر سين بتغيير تشكيلة الطابور ، حيث جعل المسافة بين كل رجل والآخر عشرة أمتار في الطابور المتصل ، بينما وضع كشافة بالمقدمة والمؤخرة للإنذار في حالة أي هجوم مفاجئ .

وظلوا يقطعون الأرض مشيًا سريعًا طوال الليل ، مع عشرة دقائق للراحة كل ساعتين . وعندما أطل الفجر كانوا قد قطعوا حوالي أربعين ميلاً . وخلال الراحة في الفجر تحرك سين إلى مقدمة الطابور وجلس على الأرض بين جوب والفونسو وسأل :

« كم بقي علينا للوصول للشاحنات ؟ » .

فأجابه الفونسو وهو يشير بيده للأمام :

« لقد قطعنا شوطًا لا بأس به . والعربات هناك في ذلك الوادي » .

كانوا قد وصلوا لبداية منحدر على أرض محاطة بالتلال التي تغطيها الغابات ، وعلى الأسفل منهم كانت الأرض صخرية وعرة . وعرف سين حسن تقدير الجنرال تشاينا عند اختياره لهذه المنطقة من جبال (سييرا دا قورونقوسا) كخط لدفاعه . لم يكن في تلك الفيافي أي طرق ، وبالتالي كان على أي جيش يهاجمهم أن يشق طريقة خلال سلسلة من القلاع والنقاط الطبيعية الحصينة.

وكان الوادي الذي أشار إليه ألفونسو يبعد عنهم بضعة أميال ، أما من ورائه فإن طبيعة الأرض لم تمد بتلك القسوة بل أصبحت ممدودة بشكل سهل عريض ناعم ، كما تناثرت أشجار الغابة بها وغطت الحشائش والأعشاب الفراغات التي بينها .

وأشار الفونسو إلى الأفق وقال :

« هناك يقع خط السكك الحديدية والطريق إلى الساحل ... » . ولم يكمل حديثه إذ أمسك سين بذراعه ليصمت ولوى راسه في وضع من يتصنت .

مرت عدة ثوان قبل أن ينفصل صوت هواء الفجر وصريره من خلال الغابة ، عن الصوت الآخر ، الذي بدأ يعلو شيئًا فشيئًا ، ليظهر صوت عويل محركات التيربو ، وصوت ريش مراوح الهايند الرهيبة الدوران .

وصاح جوب : « هاهي ! » . كانت حدة نظره غير عادية والتقطت عيونه البقع القادمة باتجاههم رغم ما وراءها من خلفية داكنة من جراء التلال والغابات . عرفها أيضًا سين وصاح : «مروحيات الهايند ! » . وفي نفس الوقت أطلق الفونسو صيحة تحذير : «خبئوا أنفسكم» .

تبعثر الطابور للاختفاء ونظروا إلى الطائرات القادمة : تعلو وتهبط وهي تطير على ارتفاع منخفض فوق التلال متجهة شمالاً صوب خطوط الرينامو في تشكيل متصل .

دقق سين النظر إليهم من خلال المنظار الروسي الذي حصل عليه من مخازن الرينامو . وكانت هذه هي أول فرصة تتاح له لدراسة الهايند على مهل . كانت هناك أربع طائرات ، واستنتج سين أنه ستكون هناك ثلاثة طلعات ، بكل منها أربعة طائرات ، مما يجعل من مجموعهم سربًا مكونًا من اثنتي عشرة طائرة .

وغمغم منفعلاً :

« يا إلهي . إنها بشعة » . بدا له من المستحيل أن يحطم مثل هذا الشبح الثقيل المشوه الجاذبية الأرضية ويرتفع في الهواء . كانت المحركات موضوعة فوق جسم الطائرة وتحت الروتور الدوار معطية الشكل الأحدب الذي أعطى الطائرة اسم شهرتها (ستورموفيتش) أو الحدباء . أما مدخل الهواء إلى التوربينات فقد وضع فوق كبينة الطيار مباشرة . تدلت بطنها المتورمة وكأنها بطن خنزيرة حبلي ، أما مقدمة أنفها فقد شوهها البرج المعلق به والذي يحتضن مدفع الجاتلنج . أما على الأجناب الخشنة والبطن المنتفخة فقد رصت صفوف للصواريخ وقواعد للمدفعية وأجهزة الرادار .

وعلى مؤخرة حوامل المحرك زادت بشاعة شكلها بإضافة تركيب غريب عليها بدا وكأنه أضيف إليها بعد تفكير خاطف من مصمم الطائرة . وتذكر سين مقالاً كان قد قرأه في إحدى مجلات الطيران التي يشترك فيها :

«أجهزة كبت العادم» .

مهمة هذه الأجهزة هي أن تخفي دخان العادم من التربينين بالمحرك وتحميهم ، كالدرع ، من تعرف أجهزة الأشعة تحت الحمراء ، للصواريخ المعادية ، عليها . كان كاتب المقال قد أثنى على درجة كفاءة تلك الأجهزة الكابتة لكنها ، ورغم أنها جعلت هذه الطائرة منيعة تمامًا ضد الصواريخ التي تنجذب نحو مصدر الحرارة ، إلا أن وزنها ، مضافًا إلى وزن دروع التيتانيوم التي تغلف الطائرة ، قد تسببت كثيرًا في تقليل سرعتها وتقصير مدى طيرانها . تمنى سين لو كان قد قرأ المقال باهتمام أكبر إذ أنه لم يتذكر الأرقام الخاصة بسرعة الهواء أو بالمدى الذي تصل إليه الطائرة والتي كان المؤلف قد أوردها .

تحركت الطائرات شمالاً على بعد ميل تقريبًا إلى الشرق منهم . وعلق جوب عندما نهض من مخبئه ليعيد تنظيم الطابور والاستئناف السير :

« سينال الجنرال تشاينا مفاجأة قاسية ساعة إفطاره » .

ورغم مواصلتهم السير الشاق بدون هوادة طوال الليل إلا أن خطاهم لم

تتقاصر وحتى أن سين أبدى تأثره بحالة جنود ألفونسو وكفاءة تدريبهم وقرر في نفسه إنهم لا يقلون كفاءة عن جنود كشافته السابقين . ثم ابتسم لنفسه مستدركا : « لا أحد يمكنه أن يتفوق على الكشافة! » .

ولأكثر من مرة كان سين يعود للمؤخرة ليتأكد من أن رجالها كانوا يواصلون مسح آثارهم وإخفائها . فقد صار الآن ماثلاً أمام عينيه الخطر الماحق الذي قد يواجهونه إذا عثرت عليهم إحدى دوريات فريليمو . كان قد رجع للخلف بضع مئات من الأمتار وراء جنوده ثم ركع على ركبته وأخذ يتفحص الأرض من حوله باهتمام شديد عندما أحس بأنه ليس وحيدًا وأن شخصًا ما يراقبه .

وفي الحال ألقى سين بنفسه على الأرض رافعًا البندقية من كتفه بسرعة خاطفة وهو يتدحرج مرة أو مرتين باتجاه جزع شجرة واقع على الأرض بجوار الممر ثم تجمد ، ويده على الزناد ، وأخذت عيونه تمسح الأرض والغابة التي ظن أنه لمح فيها حركة خفية خاطفة .

لقد كان من يراقبه أقرب إليه مما ظن . فمن بين أجمة من الحشائش على مقربة من جاءت مضحكة عابثة ورفع سين رأسه وهمس بغضب :

« لقد حذرتك مرارًا من أن تتسلل نحوي بهذه الطريقة » . خرج رأس متاتو من بين الحشائش وتهلل وجهه مرحًا وقال :

« إنك صرت عجوزًا يا سيدي البوانا فلقد كان بإمكاني أن أستولي على حذائك وجواربك بدون أن تعرف » .

- وأنا كان بإمكاني أن أملأ جسمك البني بالثقوب . هل وجدت الميم صاحب ؟

أومأ متاتو برأسه وتلاشت ابتسامته .

- أين هي ؟

- على مسيرة نصف يوم أعلى النهر ، في معتقل مطوق بالأسلاك الشائكة ، ومع كثير من النساء الأخريات .

- وهل هي بحالة طيبة ؟

تردد متاتو وهو ممزق بين إخباره بالحقيقة المرة أو أن يقول له ما يسره . لكنه حزم أمره أخيرًا. تنهد ثم هز رأسه بأسى :

« إنهم يحتفظون بها في حفرة تحت الأرض . وعلى ذراعيها ورجليها علامات وقروح . وهم يجبرونها على أن تعمل في تفريغ جرادل البراز ... » توقف عن كلامه عندما لمح تعابير وجه سين ثم مضى متحدثًا بسرعة : « لكنها ضحكت عندما رأتني ! » .

- هل سلمتها الورقة ؟
- أنديو ! وخبأتها في ملابسها .
- ألم يرك أحد ؟

كانت الإجابة أكثر مما تتحمله كرامة متاتو وكبريائه وابتسم سين له قائلاً : «إنني أعرفه لا أحد يرى متاتو إلا إذا أراد ذلك متاتو ... » . ثم قطع سين حديثه فجأة ونزر كلاهما صوب السماء.

ومن بعيد ، وفي صوت بد' واهنًا خافتًا ، جاء الآن صوت ذلك الصفير لمحركات التيربو ومراوح الهايند . وهمس سين بصوت خفيض :

« إنها الهايند عائدة بعد أن ضربت بقسوة دفاعات الرينامو » . كانت المروحيات بعيدة عن مدى بصرهم والذي ظللته ظلمة الغابات . لكن أصواتها اتجهت بسرعة صوب الجنوب .

وفكر سين في نفسه : « بما لها من مدى قصير ، فلا يمكن أن تكون قاعدتها بعيدة جدًا » . ثم نظر إلى متاتو وهو مستغرق في التفكير :

« متاتو : هذه (الإنديكي) : أبإمكانك معرفة المكان الذي تأتي منه ، وإليه تعود ؟ » .

رمشت عيون متاتو وبدا عليه التشكك للحظة ثم ابتسم مرة أخرى مترعًا بالشجاعة وقال متفاخرًا واثقًا من نفسه :

« بإمكان متاتو أن يتتبع أي شيء ، إنسان أو حيوان أو إنديكي ، وأينما توجهت » .

«إذن إذهب .... » . أمره سين ، « رحدد مكانه . سيكون هناك شاحنات ورجال بيض كثيرون وستكون الحراسة مشددة عليهم . لا تدعهم يمسكون بك» .

شعر متاتو بالإهانة لكن سرعان ما ربت سين على كتفه بحنو شديد وقال له : « عندما تجد المكان عد مرة 'خرى إلى معسكر الجنرال تشاينا على نهر بنجوى وسأقابلك هناك» .

وبدون أي تساؤل ، وكأنه كلب حسين قد أرسل لإحضار طائر حجل تم صيده ، وقف متاتو على قدميه وطوى إزاره وقال لسين :

« حتى نلتقي مرة أخرى ... اذهب بسلام يا سيدي البوانا » .

- اذهب بسلام يا متاتو .

قالها سين بهدوء بعد أن أسرع الرجل الضئيل مهرولاً متجهًا صوب الجنوب . ظل سين ينظر إليه حتى اختفى ثم أسرع للحاق بطابور الفونسو . وأخذت

كلمات متاتو تتردد كالصدى في رأسه ملهبة خياله وغضبه وتصميمه :

« إنهم يحتفظون بها في حفرة في باطن الأرض وهناك علامات وقروح في يديها ورجليها » .

- أصمدي يا حبيبتي وكوني قوية . سآتي لآخذك معي ... وقريبًا » .

عاهد نفسه وعاهدها للالتزام بهذا الوعد .



عبروا أطراف تلال متفرقة أخرى وقد أخفوا أنفسهم مستخدمين فروعًا وأغصانًا من شجيرات (الجسي) وتحت ذلك الغطاء ، وعلى المنحدر الأمامي ، أشار ألفونسو إلى الوادي الأسفل منهم :

« إلى هناك أحضرنا الشاحنات» . ورأى سين أن مجرى النهر الجاف هو الوحيد الذي يمكن للشاحنات المرور فيه عبر هذه الفيافي الصخرية والوعرة . ورغم ذلك فلابد أن يكونوا قد بذلوا جهدًا خارقًا للمرور خلال العقبات والشلالات والمنحدرات التي تتناثر في مجرى ذلك النهر ووسط رماله وعمق بطنه.

ويدون أن يدلي سين منظاره المقرب سأل الفونسو :

وأين خبأتم الشاحنات ؟

ابتسم ألفونسو ثم قهقه وقال :

« إذا لم تكن فرييمو أكثر ذكاء منا فسأريك » .

وزعوا الحراس على أنحاء سلسلة التلال لينذرونهم عند اقتراب أي دورية للعدو ، ثم قاد ألفونسو بقية الطابرو إلى بطن المجرى . وكلما هبطوا كلما زاد انحدار جوانب الضفة حتى وصلوا إلى منطقة لا تغطيها سوى الصخور الحادة المتناثرة ،مما أجبرهم على تركها وتحولوا إلى طريق مهجور للحيوانات البرية يقودهم للنهر . كان الجو ساخنًا والهواء خانقا وسط المجرى الضيق العميق ولم تكن هناك أي نسمة من الهواء بينما امتصت الصخور حرارة الشمس وعادت لتطلقها عليهم . وتساءل سين بفراغ صبر : « وأين الشاحنات ؟ » .

فأشار ألفونسو إلى التلال المواجهة لهم : « هناك . بداخل الجبل » .

وأراد سين أن يصرخ في وجهه ، قبل أن يدرك أن الرياح قد حفرت كهوفًا في الجبال زادتها مياه الأمطار والسيول ، عبر القرون ، عمقا وسعة وسأل :

«كهوف ؟ » .

لم يرد ألفونسو ، بل قاده خلال الرمال التي غطست ركبهم فيها ، حتى صفحة الجبل . كانت بعض مداخل الكهوف محفورة . طحيًا وسط الصخور الحمراء ، وأخرى إما انهارت أو غطتها الأوساخ والركام التي جاءت مع مياه

الفيضان . أشار الفونسو إلى أحد تلك المداخل وأصدر أمرًا لرجاله . وضعوا أسلحتهم في كومة وبدأوا في إزالة الركام والطين من فم أحد الكهوف .

خلال ساعة كانوا قد فتحوا ما يكفي لسين وألفونسو للتسلل لداخل الكهف ، وفي عمق الحفرة المظلمة رأى سين شكل الشاحنة الأولى . وبعد أن تعودت عيناه على الظلام تحرك نحوها' ثم رأى أخريات واقفة وراءها . وسأل غير مصدق :

- كيف بحق الجحيم أدخلتموهم هنا ؟

- دفعناهم دفعًا ثم حملناهم بأيدينا .

- أرجو بحق نار جهنم أن نستطيع إخراجها من هنا .

ثم صعد سين إلى مقعد السائق في العربة الأولى . كانت العربة مغطاة بطبقة ثخينة من التراب الأحمر . عطس سين وهو يعاين العربة ثم ، بارتياح شديد ، رأى أن مفتاح العربة في مكانه بالسوتش.

أدار المفتاح بالعربة ولم يحدث أي شيء . فقد ظل كل شيء ساكنًا ولم تضيء إبرة أي جهاز. جاء ألفونسو وأخبره بأنه كان قد فصل البطاريات بعد إدخال العربات للكهف . وغمغم سين :

« يا لك من رجل ذكي ولكن كيف قررت على ذلك ؟ » فأجابه الفونسو : « كنت أعمل كسائق حافلة للركاب قبل الحرب في (فيلادي مانيكا) » . ورغم استغراب سين لذلك إلا أنه قال:

« حسنًا . إذن ساعدني على تشغيل محرك هذه العربة . هل هناك صندوق للمعدات ؟ » .

كانت كل عربة مجهزة بزوج من الإطارات الإضافية وبمنفاخ هوائي وبصندوق للمعدات ، بالإضافة لمشمع وخزان إضافي للمزيد من لوقود . وعندما أعاد سين توصيل البطارية بالعربة الأولى وأدار المفتاح ، خرج من لمبة الإضاءة الداخلية نور ضئيل أحمر بينما تحركت إبرة الوقود لتشير إلى أن الخزان نصف ممتلئ . لكن لم تكن البطارية بالقوة التي تدير المحرك وقال سين لألفونسو :

« أبحث عن المنفلة لإدارة الكرنك يدويًا » .

وجدوا المنفلة خلف مقعد الركاب بالعربة وقام إثنان من الشنقاني الأقوياء بإدارة المنفلة بقوة حتى دار المحرك متعثرًا في البداية ثم استقر دائرًا في هدير متصل . ملأ الدخان الأزرق الكثيف الكهف من حولهم ورفع سين قدمه عن دواسة الوقود . وجد أن عجلين يحتاجان للهواء وقام أحد الجنود بنفخهما بالمنفاخ اليدوي . وهم يقومون بتجهيز العربة الأولى ، كان الجنود قد أزالوا كل

الركام الذي غطى فتحة الكهف وأزالوا جذوع الأشجار التي كانت تغطيه . وباستخدام الدفع الخلفي رجع سين بالعربة للوراء وخرج بها من الكهف وإلى الأرض الوعرة الصخرية .

وعندما تعلقت العربة على صخور ضفة النهر ، ودارت عجلاتها في الهواء بدون أن تندفع ، قام عشرون رجلاً قويًا بدفعها حتى تمكنوا من تحريكها ثم اصطدم الينموق بحافة الشاطئ وتوغل في مجرى النهر الجاف ، وقاده سين حتى الشاطئ الآخر وأوقف الشاحنة تحت صخوره . ترك المحرك دائرًا حتى يتم شحن البطارية ثم عادوا إلى الكهف وبدأوا العمل في العربات الأخرى .

وما عدا العجلات العابطة والبطاريات الضعيفة لم يجدوا أي مشاكل أخرى بالعربات . وواحدة بعد الأخرى أعادوها ومحركاتها للحياة ودفعوها إلى النهر . وعندما انتصف النهار كانت العربات الثلاثة مصطفة على رمال النهر البيضاء جاهزة لإتمام مهمتها .

وأصدر سين تعليماته :

« على الجميع أن يرتدوا الأزياء الجديدة وأن يتركوا القديمة في الكهف » وهم يضحكون ويتبادلون النكات ، قاموا بخلع أزياء الدينامو المخططة وبدؤوا في ارتداء الأزياء البريطانية المستخدمة في جيش زمبابوي . وأثناء انشغالهم عاد سين إلى الشاحنات مرة أخرى ووجد كافة مستنداتها وأوراق تسجيلها محفوظة في أكياس بلاستيكية في أدراج كل عربة منها . وتحدث بصوت خفيض إلى جوب :

« آمل ألا نضطر لإبراز هذه المستندات ، فهي في الغالب مرصودة ومسجلة على أنها لعربات مسروقة أو مدمرة » .

ثم فتح غطاء خزانات الوقود وفحصها للتأكد من محتوياتها وقال :

« تكفي لتوصيلنا حتى قراند ريف ثم العودة إلى سانت ماري ... ولكن بدون وقود احتياطي يذكر» .

ثم أمر بتنظيف الزجاج الأمامي وزجاج الشبابيك والأبواب الجانبية مع ترك جسم العربة بما عليه من غبار وطين مما أعطي العربات مظهر عربات الدورية العائدة من مهمة ميدانية في الأدغال . الأهم من ذلك فإن ترك الأتربة والطين عليها يغطي العلامات والنمر العسكرية فلا تستدعي اهتمامًا أو تدقيقًا من الحراس .

وعندما انتهى الجنود من ارتداء الأزياء الجديدة ، وإخفاء القديمة ، قام سين وجوب بتفقد الجنود واحدًا واحدًا وفحص أسلحتهم ومعداتهم ، قبل أن يأمرونهم بالركوب على العربات .

كانت الساعة الخامسة عصرًا عندما صاروا جاهزين للتحرك . كان لكل من جوب وأنفونسو خبرة بقيادة العربات الثقيلة كما أن أحد الرينامو ، الذي يحمل الاسم الفخم ، فرديناند داكوستا ، ادعى خبرة في القيادة . ركب سين بجواره ليتأكد من قدرته وأدائه .

قاد جوب الشاحنة الأولى في المقدمة وتبعه ألفونسو أما سين والسائق الجديد فقد كانا في مؤخرة الركب . وبخلاف وضع قدمه الضخمة على دواسة السرعة فقد أثبت فردناند جدارته في القيادة . لكن سين كان يقود العربة بنفسه في الأماكن الصعبة .

وفي طابور منتظم تابعوا القيادة في نفس الدرب الذي صنعه جوب على الرمال بعربته الينموق وداروا حول النهر لنصف ميل قبل أن يواجهوا العقبة الأولى.

فقد احتاج الأمر إلى قوة الرجال الأربعين لدفع العربات خلال الأرض الصخرية بطول مجرى النهر كما استعانوا أيضًا بسقايل وفلنكات من جزوع أشجار الموبين ليستخدمونها كروافع أو سقالات لدفع العربات فوق الصخور الكبيرة وفوق المنحدرات .

ارتفع صوت هدير المحركات القوية وأطلقت وراءها سحبًا من دخان العادم الأزرق وعلق سين لجوب :

« هذه دعوة مفتوحة لأي فريمو على بعد عشرين ميلاً ليلحق بحفلنا هذا » . ثم نظر إلى ساعته وقال : « لا زلنا متأخرين عن موعدنا » .

حاولوا أن يعوضوا ما فاتهم من وقت بالإسراع على الطرق السهلة الموازية للنهر . لكن المساء والظلام حلا قبل وصولهم لنقطة تقاطع الطرق ، شرقًا وغربًا ، بحوالي عشرين كيلو مترًا ، وهي الطرق التي تربط بين المحيط الهندي ونقطة الحدود في أمتالي . أضاف الظلام صعوبة أكثر لتحركهم ولم يجرؤ على استخدام أنوار العربات . وكان عليهم أن يعتمدوا في السير في الظلام على انعكاس أضواء النجوك وعلى ضوء القمر الباهت وهو في ربعه الأخير .

وأخيرًا ، وقبل منتصف الليل ، تمكنوا من مغادرة مجرى النهر بعد أن تغلبوا على آخر عقبة على الشاطئ . وبالاستعانة بأربعة جنود كانوا يمشون أمام عربة القيادة ويرشدونها للدوران حول الحفر والأخاديد والعقبات الخفية الأخرى، استطاعوا أن يشقوا طريقهم جنوبيًا. وفي خلال ساعتين كانوا قد وصلوا للطريق المهجور الذي غطته الحشائش والذي كان النونو قد وصفه لسين.

أمر سين بالتوقف وقام بنشر خارطة الميدان على غطاء محرك العربة

وبالإستعانة بكشاف كهربائي صغير بدأوا في دراسة الخريطة . وأشار الفونو إلى نقطة فيها :

« نحن الآن هنا . وهذا الطريق يقود إلى مناجم الإسبستوسي القديمة التي هجرها البرتغاليون عام ١٩٦٣ عند بداية حرب فريليمو » .

قرر سين التوقف لبعض الراحة هنا وطلب من السائقين إبعاد العربات عن الطريق وتغطيتها بأغصان الأشجار وأضاف :

« علينا أن نتوقع أن تجئ مروحيات الهانيد من فوقنا غدًا صباحًا . لذا لا تشعلوا أي نيران للطبخ ولا يدخن أحد منكم » .

استيقظوا من نومهم في الرابعة من ظهر اليوم التالي وتناولوا وجبة باردة على عجل. أمر سين باستئناف الرحلة ، فأزالوا الأغصان من على العربات وركبوا جميعًا ما عدا الأربعة الذين كانوا يمشون على أقدامهم في المقدمة ، ويفحصون آثار الدروب القديمة للعربات خوفًا من أن تكون مزروعة بالألغام ، ويجسون أي حفرة أو مرتفع رملي بحراب بنادقهم قبل أن يشيروا للعربات بالتقدم .

كانت الشمس على وشك الغروب عندما شاهدوا الطريق الرئيسي ، كان سطحه الأسفلتي يتعرج كالثعبان خلال الغابة ويدور من حول التلال الصغيرة المتناثرة . أوقف سين الطابور بعيدًا عن الأنظار ، وعن الطريق ، وتقدم للأمام مع جوب تاركًا ألفونسو في القيادة ومن قمة أحد التلال المسيطرة على ما حولها ، ظلا يراقبان سير الحركة على الطريق الرئيسي حتى حلول الظلام . وخلال تلك الفترة عبرت دوريتان للجنود باتجاه الشرق . كانت كل دورية مكونة من ثلاثة أو أربعة عربات يتموك قديمة مليئة بالغبار وعليها أعداد من الجنود يرتدون أزياء الميدان لجيش زمبابوي وعلى كل شاحنة نصب مدفع مكنة خفيف ، من طراز آر بي دي ، فوق الكبينة واصلت الشاحنات العسكرية سيرها وبين كل منها والأخرى مائة ياردة . وأثناء مراقبته لها من خلال منظاره المقرب علق سين قائلاً :

« حسنًا . فعلى الأقل فإننا نبدو كشيء حقيقي » . لكن جوب عارضه : «ما عدا وجهك الأبيض الشاحب » . اعتذر سين له قائلاً : « خلل وراثي ! لكني سأحاول إخفاءه لحين الحوجة إليه» . هبطا من قمة التل وذهبا إلى أماكن عرباتهم المخبأة . وأخبر سين فردناند :

« من الآن فصاعدًا عليك الاعتماد على نفسك . تذكر دائمًا أن تدوس على الكلتش قبل أن تعشق للرجوع للخلف وستجد في هذا راحة كبيرة لك ! » .

وبعد أن ارتدى سين زى الضابط البريطاني القتيل ، صعد خلف العربة التي يقودها جوب ، وراء مقعده . كان المكان يكاد يسعه وبصعوبة وكان عليه أن يطأطئ رأسه ويحني كتفيه على فخذيه وهو جالس على الأرضية إلى عذاب بعد

بضع ساعات من الآن . لكن عزاؤه هو أنه كان بعيدًا عن الأنظار ، وأن بإمكانه التخاطب مع جوب برفع صوته عاليًا .

وبأنوارهم غير المضاءة ، وصل الطابور إلى الميل الأخير لالتقاء التقاطع مع الطريق الرئيسي . صفر الكشافون الذين أرسلوهم في المقدمة موضحين أن الطريق خالي فأسرعوا جميعًا للأمام متجهين غربًا نحو الحدود .

وعندما وصلوا سالمين إلى الطريق العام أضاءوا أنوار العربات وحافظوا على معدل سرعة في حدود خمسين كيلوا مترًا في الساعة كما انتظموا في سيرهم محتفظين بمسافة مائة ياردة بين كل عربة والأخرى . كانوا يبدون ، لأي مراقب ، وكأنهم طابور ميكانيكي زمبابوي آخر .

ونادى جوب سين الذي كان قابعًا خلفه :

« حتى الآن ، كل شيء على ما يرام » . وسأله سين عن الوقت فأجابه : « الثامنة وسبع دقائق» .

- ممتاز . سنصل إلى نقطة الحدود بعد العاشرة بقليل، وعندما يكون الحراس على وشك الانتهاء من نوبات حراستهم » .

بدت الكيلوا مترات المائة إلى الحدود وكأنها بلا نهاية بالنسبة إلى سين . وكان حديد أرضية العربة متماوجًا وسبب لأردافه ألما لا يطاق . وكانت أي حفرة أو مطب تواجهه العربة تنقل الألم عبر عموده الفقري وإلى رأسه . وأخيرًا ناداه جوب :

« اختفى تمامًا . فنقطة الحدود أمامنا الآن » .

غطى سين نفسه بالمشمع وغطس لأقصى ما يمكنه وراء المقعد . أحس بتوقف العربة . قام جوب بإبطال المحرك وفتح باب الينموق مغمغمًا لسين : «تمنى لي حظًا سعيدًا» . ثم نزل من العربة.

لم يعرف أيهما ما سيتوقع حدوثه لكن بدا أن الإجراءات الرسمية على الحدود لابد أن تتراخى قليلا في هذا الوقت الذي يتم فيه تغيير الجنود الذين يحرسون خط السكك الحديدية واستبدالهم بغيرهم . كان جوب مرتديًا الذي المناسب للدور ، كما كان يحمل مستندات ثوبتيه ودفتر مواهي الجيش الذي ذود به ، كما كانت أوراق العربة سليمة تمامًا . لكنه رغم ذلك كان متوجسًا خيفة أن يحدث ما ليس في الحسبان أو أن يكون أحد الحراس نشيطًا مدققًا في عمله .

فإذا ما حدث أي شيء على غير ما يرام فسيطلق جوب صفارة طويلة وسيشقون طريقهم للوراء. كانت كل بنادقهم ومعدات إطلاق صواريخهم جاهزة ومعمرة كما وقف رجالهم أمام مدافع المكنة الخفيفة آربي دي على

منصاتهم فوق الكبينة .

توترت أعصاب سين كلما مرت الدقائق والثواني وكان في كل لحظة يتوقع أن يسمع صفارة جوب ثم الصراخ وإطلاق النيران .

وأخيرًا سمع صوت أقدام على الحصى وصوت جوب متحدثًا مع رجل غريب كان يتقدم نحوه. انفتح بابا السيارة مرة واحدة وانزوى سين عندما هبطت العربة قليلاً تحت ثقل أكثر من شخص كان قد صعد فيها . وسمع صوت جوب متسائلاً بلهجة عادية بلغة الشونا :

« إلى أين تريدني أن أوصلك ؟ » ورد الرجل الذي لم يعرفه سين من قبل قائلاً :

« إلى طرف المدينة وسأخبرك وقتها » .

رفع سين رأسه حوالي بوصة بخفة متناهية . ومن خلال فجوة بين المقاعد الأمامية رأى البذلة الزرقاء التي يرتديها مفتشو الجمارك . وبارتياع شديد أدرك أن جوب كان يقوم بتوصيل مفتش الجمارج إلى أمتالي بعد انتهاء ورديته .

تحركت العربة للأمام وقام مفتش الجمارك بإنزال زجاج النافذة وصاح في حرس الحدود:

« كل شيء على ما يرام . افتحوا البوابة ! » .

وعندما اندفعت الشاحنة للأمام شاهد سين البوابة المفتوحة على مصراعيها، وكان عليه أن يغطي فمه بيده لمنع نفسه من الضحك بصوت عال من جراء شعوره بالراحة وبالانتصار .

وعلى ظهر الينموق بدا وكأن جنوده قد أصابتهم عدوي اللامبالاة والاستهتار . كانوا يغنون ويمزحون والعربة تشق طريقها إلى أمتالي هابطة من الهضبة المرتفعة . وكان جوب يناقش بمودة مفتش الجمارك عن مباهج ملهى ستار دست الليلي وعن الثمن المناسب لقضاء بعض الوقت مع فتياته . ونصح مفتشي الجمارك جوب قائلاً وهو يهبط من العربة عند طرف المدينة : « أخبر (بودو) ، ساقي البار ، بأنك صديقي وسيحصل منك على ثمن قليل كما سيخبرك أي الفتيات مصابة بالتعقيبة وأيتهن نظيفة » .

وعندما انطلقوا للأمام تمكن سين أخيرًا من الزحف إلى المقعد الأمامي وألقى بنفسه عليه بارتياح شديد وقال معاتبًا جوب :

« ما هذه الحيلة بحق الجحيم . لقد كدت تصيبني بالفتاق » . فأجابه مقهقهًا : الديك وسيلة أفضل للحصول على معاملة (الشخص المهم للغاية) أكثر من أن يكون دليلك هو مفتش الجمارك نفسه ؟ كان عليك أن ترى

حرس الحدود وهم يحيوننا ! » .

- أين هذا النادي الليلي ؟

- ليس بعيدًا . سنكون هناك قبل الحادية عشرة .

تقدموا في صمت لعدة دقائق راجع فيها سين ما سيقوم بإصداره من أوامر بعد ذلك . انتظر حتى دار جوب بالعربة في شارع جانبي خافت الإضاءة وأبطل المحرك . ومن المرآة الجانبية لاحظ سين اقتراب العربتين الأخريين وتوقفهما خلف العربة الأولى ثم إبطال المحركات وإطفاء الأنوار . وعلق جوب بابتسامة :

«عدنا ثانية للوطن وكأن شيئًا لم يكن » .

فأجابه سين مؤيدًا :

«نعم عدنا للوطن . وهذا الوطن هو الذي ستبقى به » .

خيم عليهما صمت عميق . ثم التفت جوب نحو سين وقد ملأه تفكير عميق:

« ماذا تعني بهذا الكلام ؟ » .

أجابه سين :

« هذا هو نهاية طريقنا يا جوب . لن تأتي مَعِيَ لفراند ريف ، ولن تشارك في اختطاف أي صواريخ استنجر ، ولن تعود معي إلى موزمبيق مرة أخرى » .

وسأله جوب : « أي إنك تطردني من الخدمة معك ؟ » .

- نعم يا صديقي . لم أعد محتاجًا لخدماتك .

تناول سين ربطة صغيرة من دولارات زمبابوي ، وهي جزء من النثرية التي دعمه بها الجنرال تشاينا وقدمها لجوب قائلاً :

« تخلص من هذا الذي في أقرب فرصة لأنهم إذا أمسكوا بك فسيعدمونك رميًا بالرصاص. خذ القطار القادم وتوجه إلى هراري ثم إلى ريما بالمكتب حيث ستسلمك أربعة ألف دولار كحافز لك وكجزء من حسابك . سيكفيك هذا المبلغ لحين قيام إدارة شركات مونتيرو بتسديد المبلغ المستحق لنا وسيقوم محامي شركتي بمعالجة الأمر حيث إنكَ تستحق نصف المبلغ .... » .

تجاهل جوب المبلغ الممدود له وقال بهدوء :

« أتتذكر ذلك اليوم على الجبل الى ؟ » .

- جوب ! لا تجرب معي هذه الألاعيب !

- لقد عدت لي وقتها .

- لأنني أكون أحيانًا مغفلاً كبيرًا .

- وأنا أيضًا .

ابتسم جوب وأضاف : « وكثيرًا ما أكون كبير المغفلين » .

- أنصت لي يا جوب . هذا ليس دورك وليس لك في الأمر من شيء . إذهب إلى قريتك واشتر لنفسك بضع زوجات شابات جميلات بدولارات كابو . اجلس تحت الشمس واحتسى بضع علب من البيرة » .

- لا بأس بمحاولاتك إغرائي . للأسف فهي ليست على مزاجي . أنا قادم معك: أي قادم معك.

- هذا أمر مباشر لك .

- إنني أرفض إطاعته . شكل لي مجلسًا عسكريًا لمحاكمتي .

ضحك سين وهز رأسه :

« إنها امرأتي . لذا فمن الأمور العادية أن أضحى بحياتي من أجلها » .

فأجابه جوب وهو يفتح باب العربة للخروج :

« لقد قمت بدور الممرضة لك لحوالي عشرين عامًا ولن أسلمك لممرضة أخرى . هيا بنا نذهب للقاء كوثبرت وقميصه السوبر مان » .

ترك سين الكاب العسكري والجاكتة على مقعد العربة . فعلامات الرتبة لفصيل هام ، كالحرس، لا تتناسب والدخول إلى مثل هذا الملهي الرخيص . يقع ملهي ستار دست في نهاية شارع ضيق ، وفي مكان كان مصنعًا للأثاثات يومًا ما ، وكان للملهي شكل مخازن الغلال ، وكانت كل نوافذه مقفولة . جاءهم صوت الموسيقى الصاخبة من على بعد مائة ياردة . موسيقى ذات طابع رقيب تمثل الموجة الجديدة للجاز الإفريقي .

تجمعت النساء حول المدخل . وتحت الضوء القوي بدت أزياءهن متعددة الألوان كالفراشات ، وكانت شعورهن ممشطة على طريقة الأفرو ومطرزة بقلائد الودع والصدف . وكانت وجوههن ممكيجة بألوان الأحمر والبنفسجي وعيونهن وشفاههن محاطة أو مطلية بخطوط براقة بلون سحالي إقوانا .

التفت النسوة حول سين وجوب وأخذن يتمسحن بهم كالقطط وهن يتوسلن إليهم :

« هاي يا رجل ! خذني معك للملهى » . أو : « أعطني خمسة دولارات للدخول يا حبيبي وسأرقص معك وأسعدك يا رجل . أي شيء تريد » .

وجاءت صبية ذات جسم طفولي غير ناضج مرتدية فستانًا رخيصًا من النايلون . كان لها وجه العذراء الأسود وعيون متعبة حزينة . أمسكت بذراع سين وقالت له :

« تعال يا أبيضي . خذني معك وسأعطيك شيئًا لم تره في حياتك » مدت

يـدها وأرادت أن تداعبـه لكـن سـين أمسك بـذراعها وأوقفهـا قـائلاً : «مـاذا ستقدمين لـي ممـا لم أره في حياتي يا حلوة . الإيدز ؟ » . شـقوا طـريقهم وسـط هفهفة ثياب النايلون وضباب العطور الرخيصة ودفع كل منهما خمسة دولارات . قام حارس الملهى بوضع ختم على رسغيهما ، بدلاً عـن تـذكرة الـدخول ، ودخل خلال ستارة الباب السوداء .

كانت الموسيقى صاخبة مزعجة وكأنها لسع السياط ، وكانت الأنـوار تضيء وتنطفئ بلونها البنفسجي القاتم ، وضجت الصالة بنبض الإنسانية الـتي اندمجت وصارت كائنًا راقصًا واحدًا يشبه الأميبا العملاقة .

وصرخ سين في أذن جوب :

« أين البار ؟ » . فأمسكه جوب من ذراعه قائلاً : «أنا أيضًا غريب هنا » . ثم سقا طريقهما خلال الضجيج والصخب وأفواج الراقصين وأجسادهم المهتزة .

كانـت وجـوه مـن حـولهم تبـدو وكـأنهـا مـصابة بهـوس ديـني . العيـون بـارزة بيضاء من محاجرها تحتها الأضواء ، والعرق يلمع على أذرعهـم المرفوعـة ويـسيل على خدودهم الشديدة السواد كالجداول.

وصلوا للبار وصاح جوب في أذن سين : «إياك أن تجرب الوسكى . أما البيرة فيجب أن تفتح علبتها أمامك » .

شربا مباشرة من العلب وهما واقفان في ركن من المشرب ومجاميع الـراقين تعصرهم عصرًا .

كانت هناك بضع وجوه بيضاء ، رجال مـن الـسواح أو مـن فيـالق الـسلام أو مـن المستشارين العـسكريين . لكـن معظـم الزبـائن كـانوا مـن الجنـود الـسود الذين يرتدون بزاتهم العسكرية مما سـهل على سين وجوب الاندماج وسطهم .

« أين أنت يا كوثبرت في قميص الـسوبر مـات ! ؟ » . دفـع سـين بيـده إحـدى الفتيات المتشبثات به وحملق فوق رؤوس الراقصين : «لن نجده هنا أبدًا» . واقترح جوب : « أسأل أحد السقاة» .

ـ يا للتفكير الممتاز . ـ

تحرك سين للأمام وأمسك بمقدمة قميص أحد السقاة ليلفت انتباهه ثم دس في جيب قميصه ورقـة مـن خمس دولارات وصـاح في أذنـه بالـسؤال : تهلل وجـه الساقي وصاح بدوره : « انتظر . سأجده لك » .

وبعد عشرة دقائق شاهدوا كوثبرت يشق طريقـة مـن البـار نحوهمـا . كـان رجلاً نحيلاً ضئيلاً وكان قميص السوبرمان يبدو واسعًا عليه . حياه سين قائلاً :

« هـاي كـوثبرت ! هـل أخبـرك أحـد مـن قبـل بـأنـك صـورة طبـق الأصـل مـن

سامي ديفز ؟ » .

بدا على وجه كوثبرت السرور . فقد حس سين غروره بوضوح وقال :

ـ دائمًا ينادونني به يا رجل . يا رجل .

صافحه سين وقال له :

« عمك يرسل لك تحياته وحبه . فلنذهب إلى مكان نتحدث فيه » .

فأجابه كوثبرت :

« هنا أفضل مكان للحديث حيث لن يسمع أيّ أحد ما تقوله . أسقني علبة من البيرة. فلا أستطيع الحديث بحلق جاف » .

ابتلع كوثبرت نصف العلبة في جرعة واحدة ثم سأل وسط أنفاسه المتقطعة من جهد ابتلاع هذه الكمية :

« كان المفروض أن تكون هنا مساء الأمس . أين كانت يا رجل ؟ » .

ـ لقد تعطلنا في الطريق .

ـ كان يجب عليك أن تكون هنا مساء أمس حيث كان الأمر سهلاً يا رجل. أما الليلة . حسنًا. فالأمر مختلف .

سأله سين وهو يبتلع ريقه خوفًا من الإجابة :

ـ ما الذي تغير ؟

ـ كل شيء قد تغير . لقد وصلت الهيركيوليس في الساعة السابعة عشرة لكي تنقل إليها البضاعة :

سأله سين بقلق :

« وهل أقلعت ؟ » فأجابه :

« لست متأكدًا من ذلك بالضبط . لقد كانت جاثمة على المطار عندما غادرته في الساعة عشرين . جاثمة أمام الحظيرة رقم ثلاثة وربما تكون هناك حتى الآن وربما تكون قد غادرت المطار. من يعلم يا رجل ؟ » . فقال سين :

« شكرًا جزيلاً . هذه مساعدة طيبة منك ! » .

بدا على كوتبرت إنه يستمتع بتوصيل الأنباء غير الطيبة :

ـ ليس هذا كل شيء يا رجل ....

ـ أقذفنا بالنبأ يا كلوثبرت .

شرب باقي الجعة في شفطة طويلة ورفع يده بالعلبة الفارغة . أمر له سين بعلبة أخرى وانتظر كوثبرت حتى أحضرها النادل وهو يتلذذ بحالة الترقب التي

بدأت على وجه سين . ثم قال بتلذذ :

- جاء على الهركيوليس كتيبتين من رجال كوماندوز المظلات ، تابعين للفرقة الخامسة ، قادمين من هراري . إنهم رجال باردون من أشرس قطط الفرقة الخامسة ، وهم منحطون أدنياء - لا أخدعك.

بدا على سين القلق لكنه خاطب كوثبرت بتشكك :

« كوثبرت . يبدو أنك أدمنت على مشاهدة مسلسل (خطايا ميامي) على التلفاز» .

يعرف سين تمامًا أن الفرقة الخامسة هي صفوة الجيش الزمبابوي وقد تحولوا ، تحت إشراف وتدريب الكوريين الشماليين ، إلى أدوات متقنة للقتل بدون رحمة . فكتيبتين كاملتين من كوماندوز المظلات ، بقوة مائة رجل ، إذا ما أضيفت إلى حامية المطار من رجال الفرقة الثالثة ، فإن مجموعهم سيصل إلى ألف رجل من عتاة المقاتلين بالقاعدة .

- يقول عمك بأنك ستعمل على إدخالنا للقاعدة يا كوثبرت وتدخلنا عبر بواباتها .

- لا توجد طريقة يا رجل . ليس وقطط الفرقة الخامسة الشرسة هناك .

- لكن عمك لن يغفر لك يا كوثبرت وهو نفسه ، كما تعلم ، قطة باردة أيضًا . هكذا هو العم تشاينا .... يا رجل !

بدا على كوثبرت القلق وأوضح لسين بعجلة :

- يا رجل ... لقد جهزت لك أوراق المرور ولن تجد صعوبة في الدخول فالحراس يتوقعون قدومك . لن تحتاج لي يا رجل ولا داعي لألقى بنفسي إلى التهلكة . لا داعي على الإطلاق .

- هل إذن المرور معك هنا ؟

- تمامًا . وأيضًا كلمة السر . لن تقابلك أي مشكلة .

تناول سين ذراع جوب وقاده نحو باب الملهى قائلاً :

- فلنذهب . فتلك الهيركيوليس قد تقلع في أي وقت .

أسرع كوثبرت للحاق بهما في الشارع الضيق حيث كانت عربات اليئموق الثلاثة في الانتظار ، وناول سين بطاقة مغلفة بالبلاستيك عليها صليب قرمزي يشير إلى السماح بالدخول للقاعدة (لأمر هام وعاجل) : وقال :

« كلمة السر هي رقم (سبعة وخمسين) وستكون إجابتك هي (سامورا ميشيل) . ثم تبرز الكرت للحراس وتوقع على دفتر الدخول . أرأيت كيف أن الأمر ساهل ما هل يا رجل . مثل إيرول فلين ؟!

ـ سأخبر عمك بأنك لم تتمكن من الحضور معنا .

ـ هاي ! أمهلني قليلاً . أرجوك . لا معنى لأن يقوم بتصفيتي يا رجل . فأنا أكثر فائدة له حيًا أركل رجلي عن أن أكون لحمًا ميتًا .

ـ كوثبرت . لقد ضيعت عمرك في سلاح الإشارة وكان مناسبًا لك أن تعمل في التلفزيون .

مد سيد يده مودعًا له وراقبه وهو يسرع عائدًا إلى ملهى ستار دست .



خلف عربات الينموق ، كان هناك عددًا من النسوة تجمعن وهن يتبادلن الضحكات مع جنود سين الذين دلوا أرجلهم خارج اعلربات . وكانت إحدى الفتيات تحاول الصعود إلى العربة ، وعدة أيدي امتدت لرفعها ، وقد تكرمشت تنورتها وارتفعت فوق أرجلها النحيلة السوداء . وصاح جوب في الفونسو : « أبعد هؤلاء العاهرات من هنا يا سيرخبت » . تفرقت النسوة من حول العربات بينما أسرعت أربعة أو خمسة منهن بالنزول من العربات في عجلة وبدون نظام .

صعد سين وجوب في عربة القيادة وعندما تحركت قام سين بارتداء الجاكت بعلامات الرتبة ووضع الكاب على رأسه بزاوية غطت إحدى عينيه . وسأله جوب :

« ماذا سنفعل الآن ؟ » . فأجابه سين :

ـ « الحظيرة الثالثة في قراند ريف ستكون ظاهرة للعيان من الطريق الرئيسي .

سنقود العربات في الطريق العام . فإذا ما كانت الهيركيوليس هناك فسندخل . أما إذا لم تكن هناك فسنعود أدراجنا من حيث أتينا » .

ـ ماذا بشأن الفرقة الخامسة ؟

ـ إنهم حفنة من رجال العصابات السابقين . لم تكن تخشاهم من قبل . فما الذي استجد ؟

ابتسم جوب وقال له :

« مجرد سؤال لتضييع الوقت . هل أخبر ألفونسو عنهم ؟ » .

ـ مالا يعرفه ألفونسو فلن يؤذيه . واصل مشوارك .

تحرك الطابور المكون من العربات الثلاثة عبر مدنية أمتالي النائمة . كانت الشوارع مهجورة . لكن جوب التزم حرفيًا بقواعد وإشارات المرور حتى وصلوا إلى الطريق العام . ونظر سين إلى ساعته وقال :

« الساعة الحادية عشر واثنتي عشرة دقيقة » . ثم قرأ ، على ضوء مصابيح السيارة، اللافتة التي أمامه :

(قاعدة قران ريف العسكرية - خمسة عشر كيلو مترًا) شعر بتقلص في معدته ويضيق في نفسه . سيطر على نفسه وأبطأ من تنفسه . كان يعاني نفس الأعراض قبل أي مواجهة كبيرة . وفجأة قال جوب بصوت خافت عندما وصلوا لجزء مرتفع من الشارع :

«هذه هي ! » .

كان المطار مضاءًا تمامًا وكانت لمبات الإرشاد بالمنارة تتوهج باللون البرتقالي بينما ظهرت الخطوط المنقطة باللونين الأزرق والأخضر ، والتي تشير إلى مدرج هبوط الطائرات وإقلاعها ، من ورائهم .

ووسط الأنوار الساطعة ، وحتى من تلك المسافة التي لا تقل عن ميلين منها ، جثمت الهيركيوليس كالعملاق في مكانها ، وقد ارتفع ذيلها الذي يصل طوله إلى أربعين قدمًا ، ويرز من فوق سطح الحظيرة نمرة ثلاثة . عرف سين في الحال إنها إحدى طائرات مارشال المعدلة من طراز هيركيوليس لوكهيد الأصلي (س إم كي ٣) لأغراض التنقل بالقوات الجوية الملكية ، وكانت علامات (آر إي إف) - القوات الجوية الملكية . مكتوبة على جسم الطائرة الفضي الضخم وعلي زعنفة الذيل المرتفعة .

وأمر سين بالتوقف . أعطى جوب إشارة التوقف وسار بالعربة حتى أوقفها على جانب الطريق . أطفأ جميع الأنوار ثم تبعته العربتان الأخريان وتوقفتا وراءه .

وقطع سين الصمت الذي خيم عليهم قائلاً بهدوء :

« الهيركيوليس إذن لا زالت هناك وبالتالي سندخل » .

فأجابه جوب موافقًا : « فلنقم بذلك » .

قفز سين من العربة وجرى نحو ألفونسو الذي كان نازلاً من العربة الثانية وقال له : « أنت تعلم يا سيرجنت ما ستفعله . سأمهلك خمسة وأربعين دقيقة لتحتل موقعك المحدد . وبعد ذلك أريد منك عشرة دقائق من إطلاق النار التضليلي . ولديك كل ما يلزم بالطبع .

- لكن الخطة الأصلية كانت عشرين دقيقة من النيران لتحويل إنتباههم .

- لقد تغير هذا . فنحن نتوقع رد فعل أقوى بكثير مما قدرناه من قبل . عشرة دقائق فقط ثم انسحب بعد ذلك ، وبسرعة . توجه مباشرة بعدها لإرسالية سانت ماري ، وليس إلى ممر أمتالي كما قررنا من قبل .

أضربهم بشدة ثم انسحب . مفهوم ؟

- يو هو !

- أمض إذن .

قفز الفونسو إلى العربة . ومن الشباك المفتوح حيا سين بالتحية العسكرية وابتسم له ابتسامة عريضة . ورد عليه سين قائلا :

« أسرع » . انطلق الينموت وتوجه إلى الطريق العام نحو القاعدة الباهرة الضوء. ولاحظ سين أضواء العربة وهي تتخذ طريقها نحو درب جانبي مواز للسور الخارجي للمطار ثم اختفت الينموك وغطتها الأشجار . ضبط سين الزمن على ساعته الرولكسي ومش باتجاه جوب الذي كان في انتظاره بعربة القيادة .

رقد على كرسيه وأزاح كابه العسكري وراء رأسه قليلاً وضبط منظاره المقرب ، من خلال شباك العربة ، باتجاه الطائرة الضخمة التي تربعت على أسفلت المطار تحت ضياء الأنوار الباهرة.

كان الباب الخلفي للطائرة ، تحت ذيلها ، متدليًا على الأرض كالكبرى، وكان باستطاعة سين أن يرى ما في عنبر البضائع الضخم بالطائرة .

كان أربعة أو خمسة رجال يتحركون داخل العنبر كما كان هناك رجلان أمام الباب المتدلي على الأرض. وبينما كان يراقبهم رأى رافعة شوكية الذراع تخرج من الحظيرة رقم ثلاثة ، وكان ذراعها الشوكي محملاً بحزم مستطيلة من أربعة صناديق خشبية ، واحدًا فوق الآخر . كانت الصناديق مصنوعة من خشب طرى أبيض اللون وقد كتب عليهم بلون أسود حروفًا وأرقامًا لم يستطع فهم معناها . لم يكن يحتاج لفهمها ، فقد كان شكل الصناديق وطولها لا يخفى معناها على أحد .

وقال سين لجوب : « إنهم يشحنون الإستنجر » . كان هذا واضحًا لجوب والذي اعتدل على مقعده جالسًا بانتباه شديد .

دارت الرافعة الشوكية حول دفة الهيركيوليسي ثم صعدت على الباب - الكبرى . واختفت داخل عنبر الشحن . وبعد دقائق عادت للظهور خارجة من الطائرة واتجهت نحو الحظيرة . نظر سين إلى ساعته . لقد مرت خمس دقائق على ذهاب الفونسو للقيام بالهجوم الخداعي .

قامت الرافعة برحلتها من وإلى الطائرة مرتين . تدخلها مشحونة وتغادرها فارغة . ثم استدارت الرافعة جانبًا وتوقفت على الطرف البعيد من الحظيرة . خرج سائقها ن الذي كان مرتديًا أوفرولاً برتقالي اللون ، منها وعاد للإلتحاق باثنين من زملائه الذين كانوا يحملون الصناديق ويرصونها بداخل الطائرة ووقفوا بجوار باب الشحن .

همس سين لجوب : « لقد انتهت عملية الشحن » . ثم نظر إلى ساعته ثانية

وقال : « سنتحرك خلال سبع دقائق من الآن » .

فك جوب زرار جراب مسدسه التوكاريف ٧,٦٢ وجذب الترباس متفحصًا لشحنة الرصاص به ثم أرجع الترباس لمكانه ووضع المسدس في الجراب .

من خلال المنظار رأى سين مجموعة الرجال الذين كانوا بداخل العنبر وهم يتحركون للخروج من الطائرة . كان ثلاثة منهم من الأوروبيين البيض منهم اثنان مرتديان لأفرولات الطيران أما الثالث فكان مرتديًا زي ضباط الميدان البريطانيين . وحدس سين بأنهم طياران وأحد مدربي المدفعية الملكية .

أمر جوب بالتحرك . فأدار العربة وتمتم سين بصوت منخفض لجوب : « لابد لنا من إطفاء كل هذه الأنوار إذ لا يمكن أن نشحن كل هذه الصناديق في عربتنا وسط هذه الأضواء الباهرة ووسط الفرقة الخامسة التي تزفر أنفاسها خلف أعناقنا » .

ثم كرر النظر إلى ساعته وقال لجوب :

« أوكى جوب . هيا بنا » . تقدم النيموك للأمام . وعلى المرآة شاهد سين العربة الأخرى التي يقودها فردناند تسير من ورائه .

غمرت سين سيول من الذكريات ، وهم يقودون عرباتهم بموازاة مهبط الطائرات فقد بدا له كل شيء مثلما كان عليه قبل عشرة سنوات . لم يتم بناء أي حظائر أو مباني خلال فترة الاستقلال . نظر إلى نافذة مكتبه القديم وسط مباني الإدارة ، ووراء برج التحكم بالمطار . وعندما أبطأ جوب من سرعة العربة واتجه نحو الممر القصير ، الذي يؤدي إلى البوابات من الشارع العام ، تخيل سين إنه يرى شعار كشافة بالانتاين ، تحتل مكانها بين شعاري فرقة المشاة الخفيفة الروديسية وفرقة البنادق الإفريقية الروديسية ، على قمة بوابة القاعدة .

أوقف جوب العربة تحت الأضواء المقابلة للبوابة المغطاة بالسلك النملي القوي وجاء اثنان من الحراس واتجه كل منهما إلى أحد أبواب الينموق . كانا يحملان بنادق إي كي معلقة وراء ظهورهم وحدقا في وجهي سين وجوب .

أنزل جوب زجاج الباب وتبادل كلمة السر مع قائد الحرس وسلمه إذن المرور المغلف بالبلاستيك . ذهب الرجل بالإذن نحو غرفة الحرس وسجله في الدفتر ثم قام اثنان من الجنود بفتح البوابة الرئيسية على مصراعيها وأشار للينموك للدخول محييًا لهم بالتحية العسكرية .

رد سين على التحية بإشارة عادية من يده وكذلك على تحية حرس البوابة وقال لجوب بهدوء:

« تمامًا كما أخبرنا كوثبرت . الأمر ساهل وما هل ! . توجه الآن مباشرة نحو مباني الإدارة ولكن التف حول برج المطار عندما تصل إليه » .

قاد جوب العربة ببطء منفذًا بدقة نظم القيادة بالقاعدة بعدم تجاوز السرعة لخمسة عشر ميلا في الساعة . فك سين زرار جرابه وتناول مسدسه . جذب الترباس وتفحص خزانة الرصاص وأخرج منها رصاصتين وضمهما على راحة يده ثم أعاد شحنهما - الثانية قبل الأولى - وأعاد المسدس إلى جرابه بعد إرجاع الترباس . وسأله جوب وهو يتابعه باهتمام :

«لماذا تفعل ذلك دائمًا ؟ » فأجابه :

« لجلب الحظ فقط » . أراد جوب أن يعرف فسأله :

« وهل يجري ذلك ؟ » .

ابتسم سين باقتضاب وقال له :

« حسنًا . لا زلت حيًا . أليس كذلك ؟ » .

ثم قال لجوب : « توقف خلف الحظيرة الثالثة » .

دار جوب بالعربة وتوجه ، تحت الأضواء الباهرة ، إلى الظل خلف الحظيرة حيث تواريا عن أنظار من في مباني الإدارة أو برج التحكم .

وعندما توقفت العربة قفز سين منها بخفة وتلفت من حوله . توقفت الينموك الأخرى وراء عربة جوب وخرج منها رجال مسلحون ، في زي القتال ، ووقفوا وراء العربتين .

وبثلاث خطى سريعة وصل سين إلى الباب الخلفي للحظيرة المشيدة بالحديد المتموج . كان الباب مفتوحًا وتسلل سين للداخل وتبعه جوب مباشرة .

كانت الحظيرة خالية ما عدا من طائرة خفيفة واحدة تقف على الركن البعيد منها . وكانت أرضيتها الخرسانية سوداء اللون من جراء بقع الزيت التي تلطخها . كانت حظيرة واسعة بحجم نصف ملعب لكرة القدم وقد سقفت بعوارض وكمرات من الحديد الصلب كانت تلمع فوق الأضواء .

كان سائق الرافعة والحمالون ، في أفرولاتهم البرتقالية الزاهية ، في منتصف ساحة الحظيرة ، متجهين مباشرة صوب سين ، يثرثرون ويدخنون السجائر في تحد واضح للإعلانات المعلقة في كل مكان ، وعلى جدران الحظيرة ، باللون الأحمر القاني مانعة التدخين نهائيًا . توقفوا مرتبكين عندما شاهدوا سين قادمًا من الباب الخلفي ومن ورائه رجال مسلحون .

وأصدر سين أمرًا باعتقالهم وسرعان ما أحاط جوب بهم ورفعوا أيديهم . نظر سين وراءهم . كان على طول الحائط المقابل له بالحظيرة صف من المكاتب ذات جدران خشبية مطلية ولها نوافذ زجاجية . ومن خلال نافذة مضاءة رأى سين رأس وأكتاف أحد الطيارين في أفرول السلاح الجوي الملكي الأزرق

وكان موليًا ظهره لسين ويشير بيده وهو يتحدث مع شخص آخر لم يستطع سين أن يراه .

في تلك اللحظة كان الجنود الحمالون راقدين على الأرض وأيديهم ممدودة كأجنحة النسور على الأرضية الخرسانية وأمام كل منهم وقف أحد جنود سين شاهرًا بندقيته إي كي ومصوبها نحو أعناقهم . كان كل شيء حتى الآن يسير بسهولة وسرعة وصمت .

جدي سين نحو باب الغرفة المضاءة ، ومسدسه في يده ، وأدار المقبض . كان اثنان من البيض ، أحد الطيارين ونقيب المدفعية الملكية ، يتأرجحان على كراسي عتيقة ووراءهما حائط معلق عليه مجموعة من الصور عن حرب العصابات القديمة . أما كبير الطيارين فكان جالسًا على كرسي مكتب أمام النافذة المضيئة . حدق ثلاثتهم في دهشة بالغة نحو سين والذي قال لهم بهدوء :

« هذه غارة كوما ندوز . عليكم أن تظلوا في أماكنكم بالضبط ولا تتحركوا » .

كانت على الأرض ، وبين قدمي كابتن المدفعية البريطانية ، ترقد حقيبة سوداء مربعة الشكل ذات قفل متين وعليها شعار المدفعية الملكية . وضع المدفعجي يده تلقائيها عليها ، وكأنه يحميها ، وأدرك سين في الحال ما تحتوي عليه .

كان المدفعجي في منتصف العشرينات من العمر ، وكانت له بنية قوية ونظرات مليئة بالثقة في نفسه . وعلى صدره تعلقت بطاقة عليها اسم (كارليل) . كانت عيونه زرقاء وشعره غزير رملي اللون.

كبير الطيارين كان بدرجة الملازم ، لكنه كان في منتصف العمر وتبدو عليه السمنة ، أما المهندس ، مساعد الطيار ، فكان أصلعًا ومن ضباط الصف وقد ظهر الهلع في عيونه وهو يحملق في المسدس الذي يحمله سين . توقع سين عدم حدوث أي مشاكل من قبلهما وبالتالي حول كل انتباهه نحو ضابط المدفعية والذي عرف بالغريزة إنه هو الرجل الأول . كان له كتفي ملاكم وكان يبرزهما بنوع من العدوانية وهو ينظر عابسًا إلى سين . كان شابًا فتيًا يبدو عليه الطيش والتهور، لذلك حدق سين في وجهه وقال له محذرًا :

« انسى الموضوع يا كارليل فقد ولى زمن البطولات » .

زأر كارليل عندما تعرف على لهجة سين :

« أنت جنوب أفريقي . في أي جانب أنت ؟ » .

فأجابه سين :

« إنني ألعب لحسابي وقد نصبت نفسي بنفسي » . ثم نظر إلى الحقيبة السوداء بين قدمي كارليل ، والذي قام بجذبها نحوه بقدمه . وقال له سين ببرود :

« كابتن كارليل . إنك قد ارتكبت خطأ وإهمالاً لا يغتفر في أداء واجباتك» كان رد فعل المدفعجي تجاه الإلتهام مليئًا بسخط وغضب الجندي المحترف :

- ماذا تعني ؟

- كان عليك أن تكثف الحراسة أثناء تحميلك للصواريخ وهذا الإهمال هو الذي سهل أمر دخولنا إلى هنا .

وبالضبط ، كما قصد سين ، فقد حول انتباه تحميلك للصواريخ وهذا الإهمال هو الذي سهل أمر دخولنا إلى هنا .

- وبالضبط ، كما قصد سين ، فقد حول انتباه المدفعجي لثوان كان جوب يحتاج إليها للوصول إليهم برجاله . وأمرهم سين :

« قفوا » .

فأطاع الطيار ومساعده في الحال ورفعوا أيديهم بينما أسرع جوب باقتيادهم لخارج الغرفة. أما كارليل فقد بقي في مقعده وهو يحتضن الحقيبة برجليه . وكرر سين الأمر له : « قف ! » .

- عليك اللعنة أيها البوير .

توجه سين نحوه وأمسك بيد الحقيبة . تشبث كارليل بها ليمنعه من أخذها ، في اللحظة التي ضربه سين على مفاصل أصابع يده بقبضة التوكاريف فمزق جلد يده وكسر أحد أصابعه . شعر بأنه تسرع إذ لم يقصد إلحاق مثل هذا الأذى بالرجل . لكنه احتفظ بصرامة تعابيره . وقال له : «لقد حذرتك وستكون الضربة التالية رصاصة في رأسك » .

كان كارليل قد ضم يده المصابة إلى صدره ، لكن وجهه كان جامدًا وقد ازرق لونه من الغضب، وهو يرى سين يرفع الحقيبة ويضعها على المكتب . وأمره سين : « المفاتيح » . فأجابه بصوت أجش من فرط الألم :

« في ستين داهية ! » .

رأى سين أن أصبعه المكسور قد تورم وبرز من بين أصابعه بزاوية شاذة وبدأ ينتفخ كالبالون البنفسجي .

وجاء جوب إلى باب المكتب وقال لسين :

« كل شيء مؤمن تمامًا » . ثم نظر إلى ساعته مذكرًا سين :« باقي أربع

دقائق على الهجوم الخداعي» .

طلب منه سين أن يناوله سكينه فأخرجها جوب من غمدها وناولها له . قطع سين جلد الحقيبة بطول إطارها الحديدي ثم فتحها . كان بالحقيبة حوالي دستة من الملفات وتناول واحدًا منها. كان الملف مغلفا بالبلاستيك الأحمر المستخدم في مركز العمليات الحربية البريطانية ومكتوبًا عليه (سرى للغاية) . نظر إلى عنوان الملف :

(مرشد استخدام قوات المشاة)

(لصواريخ استنجر)

(موديل جي ٤ إكس)

(صواريخ أرض - جو) .

أدارسين الملف كي يراه جوب وقال له : كنز عظيم !

كانت غلطة لا تغتفر من سين فقد تركز انتباههما نحو الملف الموضوع على المكتب وكانا يتفحصانه .

نهض كارليل كالبرق من كرسيه . كان شابًا وسريعًا ولم تتأثر حيويته إطلاقًا بيده المصابة ، وجرى في الممر الضيق قبل أن يتحرك أيًا منهما لمنعه وقفز، ورأسه للأمام ، على الشباك الزجاجي في منتصف الحائط المقابل . تحطم الزجاج وتناثر كالمطر بينما تشقلب كارليل في الهواء كالأكروبات وسقط على قدميه . قفز سين نحو الشباك ورأى كارليل وهو يتشقلب ثم يجري على الطريق السمفلت . دفع جوب سين جانبًا وتوجه إلى النافذة ورفع بندقيته إي كي إم وصوبها نحو ظهر كارليل العريض أثناء جريه على الأرض المكشوفة باتجاه برج المراقبة .

أمسك سين بالبندقية ووجهها نحو الأرض قبل أن يطلق جوب النار ، وزمجر جوب في وجهه:

« ماذا تفعل بحق الجحيم ؟ » .

- لن تطلق عليه النار .

- ولماذا لا ؟

أجابه سين بضعف : « لأنه رجل إنجليزي » .

ولبرهة حدق جوب في وجهه بذهول غير مستوعب لما قاله سين . في هذه الفترة قطع كارليل الياردات القليلة المتبقية وغطس من خلال باب برج المراقبة بالقاعدة .

ورغم أن جوب حاول السيطرة على غضبة من تصرف سين إلا أنه قال له :

«إنجليزي أم إسكيمو . كل الفرقة الخامسة ستكون فوق حلاقيمنا قبل مرور عشرة ثوان من الآن . أخبرني ماذا نفعل الآن ؟ » .

لم يجد سين إجابة لسؤال جوب لكنه سأل بدوره كسبًا للوقت : « كم بقي على الهجوم الخداعي؟» .

ـ أربع دقائق . ويمكن أن تكون أربعة ساعات أيضًا ... وقبل أن يكمل كلامه انطلقت صفارات الإنذار تصرخ كالذئاب المسعورة وأصبحت كل القاعدة في حالة الاستعداد التام . كان واضحًا أن كارليل قد وصل إلى غرفة عمليات القاعدة ببرج المراقبة .مال سين برأسه على النافذة المحطمة ورأى الجنود والحرس خارجين من ثكناتهم على الجانب الآخر من مهبط الطائرات وكانوا يدفعون أمامهم ، على الطرقات ، ألواحًا مليئة بالمسامير الطويلة الحادة ، وخاصة على الطرق المؤدية للبوابات ، ليتم تمزيق إطارات أي عربة مولية الأدبار وتحويلها إلى مزق متهرئة. رأى سين أيضًا مواسير مدافع الممكنة الثقيلة من عيار ١٢,٧ ملتمر وهي ترتفع وتنخفض لتغطي كل المداخل والمخارج ، في تصميم لمنع أي شاحنة من الهروب .

وأرعد جوب :

« كان عليك أن تتركني لتصفية ذلك المعتوه » . لم يجد سين جوابًا مقنعًا فقد كان كار ليل ، في نظره ، رجلاً شجاعًا يؤدي واجبه . ورغم أن شعوره بالولاء لوطن الجدود قد صار ضبابيًا الآن، إلا أن سين كان يحمل نفس الدماء في عروقه ، وكان يرى أن تصفية كارليل ما هي إلا عملية اغتيال دنيئة أو هي نوع من قتل الإخوة الأشقاء .

ومن خارج الحظيرة ، وبطول محيط القاعدة ، غمرت الأضواء الباهرة كل شيء وخاصة الأسوار وما حول المهابط والممرات وأصبحت كل القاعدة مضاءة وكأنها في منتصف النهار.

« إذا ما كان رجال الفرقة الخامسة نائمين في ثكناتهم عندما أطلقت صفارات الإنذار فكم يستغرق نهوضهم وتمام جاهزيتهم للصدام ؟ » حاول سين أن يصل إلى تقدير للزمن ثم ، وهو ممتعض من نفسه ، عرف إنه ، وببساطة ، كان يتهرب من مواجهة عجزه الشخص وعدم قدرته على وضع أي خطط معقولة . لقد فقد السيطرة تمامًا وكان كل شيء متفجرًا في وجهه .

فبعد بضع دقائق من الآن سيتم إجتياحه هو وجوب والعشرين شنقانيا التابعين له . المحظوظون منهم هم الذين سيقتلون فورًا وبالتالي يتجنبون محنة استجوابهم بواسطة جهاز الاستخبارات الزمبابوي الرهيب .

« فكر ! فكر! » . أخبر نفسه في يأس شديد . كان جوب يحدق فيه

مترقبًا ومستعدًا لتنفيذ أوامره . لم ير في حياته سين يمثل هذه الحيرة والضياع . كانت ثقته العمياء في سين قد أربكته أكثر وجعلت وصوله إلى أي قرار أمرًا صعبًا للغاية .

واستحثه جوب قائلاً :

« ماذا أقول لرجالنا ؟ » .

« أحضرهم ... » ثم توقف سين عندما انطلقت أصوات المدافع من محيط القاعدة الجنوبي وعلى الجانب المقابل لحظيرة الطائرات بعيدًا عن مدى رؤيتهم لمصادرهم . لقد كان ألفونسو بارعًا للغاية ليدرك أن الخطة الموضوعة قد تعثرت ومن ثم بدأ هجومه قبل الوقت المتفق عليه .

سمعوا أصوات (الوووش ... بوم) لصواريخ (آر بي جي ٧) قادمة من خارج سور القاعدة، والصوت المكتوم لمدافع المورتر وقذائفها التي إنهالت على القاعدة . فتحت مدافع المكنة ١٢،٧ ملمتر الموجودة على البوابات نيرانها مطلقة قذائف استكشافية ، وبطريقة تدل على تدريب راق ، عالية في السماء .

وتساءل جوب في إلحاح :

« كيف يمكننا الخروج من هنا ؟ » .

نظر إليه سين بحيرة . كان يشعر بالإضطراب وعدم استقرار رأيه على شيء. اجتاح الإحباط والرعب أعماق نفسه ولم يظن طوال حياته إن مثل هذه الخيبة ستصيبه . ولم يعرف ما سيصدره من أوامر أمسك جوب بذراعه وهزه قائلاً :

« فلننس موضوع الاستنجر الملعون هذا . أخرجنا فقط من هذه الورطة . هيا يا سين . استيقظ ! أرني ماذا أفعل؟ » .

« فلننس موضوع الاستنجر» . كانت هذه الكلمات كالصفعة بظاهر اليد على وجهه . طرف سين بعينه وهز رأسه . ننسى الاستنجر ؟ وأنسى كلوديا مونتيرو ؟ بدون الاستنجر فستظل كلوديا داخل حفرتها تحت الأرض وحيث رآها متاتو لآخر مرة .

نظر سين من النافذة مرة أخرى . رأى الذيل العملاق للهيركيوليس وجزءًا من جسمها أما بقية الطائرة فقد غطته جدران الحظيرة . وكان جسم الطائرة المعدني يتلألأ في هالة من النور .

شعر سين بالإحباط الذي كاد أن يغرق فيه يتلاشى شيئًا فشيئًا . ثم صرخ قائلاً : « الأضواء الكهربائية» . تلفت حوله بسرعة ورأى صندوق الفيوزات على جدار المكتب بجوار لباب وأسرع نحوه بخطوات سريعة وفتح الصندوق .

كانت الحظيرة قد أنشئت أيام حرب هتلر ، عندما اتخذ السلاح الجوي الملكي من روديسيا واحدة من مراكز التدريب لما وراء البحار . وكان نظام تشغيل الكهرباء قديمًا يعود إلى تلك الفترة التي كان يستخدم فيها السراميك في الفيوزات وحواملها . وصاح في جوب :

« أعطني رصاصة إي كي » كان صوته واضحًا مسيطرًا وأطاعه جوب في الحال وسحب رصاصة ٧,٦٢ ملمتر من الخزنة الإضافية التي كانت في جيبه . بحث سين عن الخط الرئيسي في علبة الفيوزات . فالتيار الداخل إليها يتم إعادة توزيعه مباشرة من المحول الموجود أمام البوابة ، إلى مختلف أنحاء القاعدة . فإذا استطاع أن يزيد من حمول «التيار فإن فيوزات المحول ستنفجر بلاشك وينقطع التيار .

جذب الحامل السيراميكي للفيوزات وانطفأ نور الحظيرة لكن الأنوار التي جاءت من خارج النافذة أمكنته من رؤية ما يقوم به . أدخل رصاصة إي كي داخل تجويف حامل الفيوزات السيراميكي وصرخ في وجه جوب : «تراجع للخلف» .

كانت آخر ذرة من الإحباط قد زالت عنه . شعر بأنه بارد ومرن كحد السكين . كان عقله صافيًا وكان يعرف تمامًا ما سيقوم به .

أعاد بضربة قوية حامل الفيوز المشحون إلى تجويفه وفي الحال غمر الفرقة انفجار رهيب مصحوب بضوء أزرق يعمي الأبصار ، وكأنه فلاشي جهاز تصوير قوى ، حول ظلام الفرقة إلى نهار. وطار سين للخلف واصطدم بحائط المكتب كالمصون . هز رأسه وامتلأ بصره بالنور الخاطف الساطع .

لم يشعر بأن كل الأضواء قد انطفأت إلا بعد برهة من الزمن ، ولم يعد يرى إلا الضوء المنبعث من مسار قذائف المدفعية التي تشق السماء ، أو الوهج المؤقت المنبعث من القنابل والصواريخ . كان الظلام تامًا في القاعدة . وصرخ مناديًا جوب :

« فليصعد جميع الرجال إلى الهيركيوليس » .

كان جوب مثل ظل قاتم يكاد يكون كالأعشى من الضوء الذي لطمه قبل ثوان .

ونمنم : «ماذا ؟ لا أفهم ما تقول » .

أمسك سين بكتفه ودفعه من خلال الباب:

« سنخرج من هنا على هذه الطائرة . تحرك وأحضر فرديناند ورجاله بداخل الطائرة» . جرى جوب ونظر إليه سين كنصف أعمى ثم بدأت الرؤية تعاوده تدريجيًا . توجه نحو الباب وسمع جوب يناديه :

« وماذا بشأن الأسري ؟ » . صرخ سين فيه وهو يجري نحو الباب : «أطلق سراحهم جميعًا».

ورغم أنه غير حائز على رخصة قيادة الهيركيوليس ، إلا أن سين قد طار بهذا الطراز من قبل . وبالفعل كان قد جمع أكثر من مائتي ساعة طيران كمساعد طيار على المقعد الأيمن ، عندما كان يعمل مع قوات جنوب إفريقيا الجوية ، في أنجولا وناميبيا ، في عمليات مطاردة رجال العصابات. عاد كل شيء إليه الآن . فكم كان قد استمتع بقيادة الهيركيوليس . وتذكر تعليقًا لأحد كبار الطيارين القدامى لها :

« إنها كالحمل الوديع . كم أتمنى لو كانت زوجتي مطيعة مثلها ! » .

وأمام باب الحظيرة توقف سين فجأة محدثًا نفسه وموبخًا لها :

«متاتو فعلا على حق . لقد صرت هرمًا يا كورتني » .

عاد مسرعًا إلى الحظيرة المظلمة وكاد أن يصطدم بجوب الذي سأله :

- إلى أين أنت ذاهب .

- لقد نسيت الحقيبة . أسرع بإدخال الرجال في الطائرة .

وجد حقيبة ضابط المدفعية على المكتب ، حيث كان قد وضعها ، وحشرها تحت إبطه . كان جوب في انتظاره أمام باب الشحن الخلفي للهيركيوليس . وحيا سين وقال له :

« كل الرجال داخل الطائرة . كان عليك أن تتركني أحتفظ بالطيار » . شخط فيه سين وقال:

« لم يكن لدينا وقت لإقناعه بالتعاون معنا . الوغد المسكين كان في حالة يرثي لها » .

- أتنوي أن تطير بنا ؟ !

- بالتأكيد ! إلا إذا أردت أن تجرب بنفسك .

- هاي سين ! هل سبق لك وأن حلقت بمثل هذا الشيء ؟ !

- هناك اللحظة الأولى لأي شيء . تعال ساعدني على إزاحة سواند العجلات

أسرعوا إليها وأزاحوا الحواجز من أمام عجلات الطائرة وخلفها ثم صعد سين على سلم الباب الخلفي ووقف أمام عنبر الشحن متفحصًا ثم قال : « ها هنا زر فتح وقفل الباب » . أشار إلى جدب لمكان زر التشغيل على جانب جدار جسم الطائرة وقال له :

« حرك الزر إلى (فوق) عندما أدير المحرك الأول ويضيء اللون الأحمر في

تلك اللوحة . وعندما يرتفع الباب ويقفل تمامًا سيتحول إلى اللون الأخضر .

تركه سين وجرى بطول بطن الهيركيوليس مخترقًا صفوف الشنقاني الذين تململوا في أماكنهم وقد ملأتهم الحيرة وسط ظلمة جسم الطائرة . وصاح سين :

« فرديناند . ليجلس الرجال عن الكنبات الجانبية وساعدهم على ربط الأحزمة » .

شعر سين طريقة إلى قمرة القيادة . كانت الصناديق الخشبية للصواريخ مرصوصة بعناية وسط الطائرة ، في مركز الجاذبية ، وبين أجنحتها . كانت على أرضية الطائرة فوق عوارض خشبية ومغطاة بشبكة البضائع القوية المثبتة . وصل إلى باب القمرة ، الذي كان مفتوحًا ، وألقى بحقيبة المدفعجي في صندوق الخرائط تحت طاولة مهندس الطائرة . ومن نافذة القمرة لاحظ أن الهجوم الخداعي لا زال في أوجه لكن النيران المضادة المنطلقة من القاعدة كانت أكثر كثافة وضجيجًا منها . وغمغم سين :

« لقد استيقظت الفرقة الخامسة » . ثم صعد إلى المقعد على اليسار وأضاء أنوار لوحات وعدادات وأجهزة الطائرة . عشرات العدادات واللوحات والمؤشرات والمفاتيح المضيئة أصابته بحيرة لكن سين سيطر على نفسه ولم يحبط بل حدق مليًا في تلك الأجهزة ورأى أن تشغيلها يبدو أسهل من تشغيل طائرة البارون . ولم يكن عليه إلا أن يدير مفاتيح التشغيل وأن يمر بأصبعه على صفوف مفاتيح تشغيل وقطع الدائرة الكهربائية ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام .

وقال لنفسه وهو يضرب مفتاح تشغيل المحرك نمرة واحد : « إلى الجحيم بإجراءات الفحص والمراجعة » . أصدر المحرك طنينًا عاليًا وأخذ يراقب الإبرة وهي تتحرك برتابة في عداد دورة المحرك. وتوسل إلى الطائرة :

« هيا بنا . أرجوك» . وعندما وصلت إبرة الدورات إلى ١٠٪ قامت الطائرة تلقائيًا بضخ الوقود في غرفة الإحتراق واشتعل المحرك . رفع سين درجة قوتها إلى ٧٠ ٪ وهو يعدل من وضع سماعات الأذن لجاز الراديو فوق رأسه :

- جوب . هل تسمعني ؟

- عاليًا وبوضوح يا رجل .

- أقفل الباب الخلفي .

- جاري قفله الآن .

انتظر سين بفراغ صبر ريثما يتحول لون لمبة الباب الخلفي من الأحمر للأخضر . وفي اللحظة التي تم فيها ذلك ، قام بإزاحة كابح الفرامل برجله ،

وتدحرجت الهيركيوليس بتثاقل إلى الإمام .

كان يدرج بالطائرة بمحرك واحد لذا كان عليه أن يستخدم مهارته للتحكم في الدفة ولمواجهة قوة الدفع غير المتماثلة للطائرة . على كل حال كان يدرج بالطائرة على الطريق المؤدي للمر الإقلاع ، وفي نفس الوقت قام بتشغيل المحركات الثلاثة الأخرى . وواحدًا بعد الآخر عادت لهم الحياة ، وبدأ في تعديل جهاز القيادة وضبطه بعد أن تغيرت قوة دفعها .

لم تكن هناك رياحًا تذكر لذا كان بإمكانه أن يقلع من أي إتجاه شاء .

كان مدرج الإقلاع الرئيسي قد تمت صيانته وزيادة طوله ليناسب العدد الكبير للطائرات التي تهبط وتقلع وخاصة للنفاثات الحديثة التي تحتاج إلى مدرج أطول مما كان عليه في السابق . لكن من أهم مميزات الهيركيوليس هي قدرتها على الإقلاع والهبوط على مدرجات أكثر قصرًا أو حتى على جزء من الممر المتاح أمامها ، لذا دار بها سين نحو التقاطع الرئيسي المواجه لبرج التحكم.

لم تصب الطائرة حتى الآن بالنيران المتبادلة . كانت مدافع المكانة الثقيلة ، على البوابات ، لا زالت تطلق نيرانها الكثيفة العشوائية عالية في السماء المظلمة. كانت القدرات الضعيفة للتحكم في النيران من أهم المشاكل التي تقع فيها الجيوش الإفريقية . لكن ، بخلاف ذلك ، فإنهم يعتبرون من خيرة الجنود . ولكن ، ومن ناحية أخرى ، ومن الطرف الجنوبي للقاعدة ، كان الجنود المتمرسون من الفرقتين الثالثة والخامسة يظهرون مدى قدرات لجنود الأفارقة إذا كان تدريبهم ممتازًا ، فقد كانت نيرانهم تطلق في مجموعت منتظمة قاتلة ، وقد كادوا بالفعل أن يخمدوا نيران ألفونسو وهجومه الإبتدائي . وبخلاف بضع قذائف متفاوتة للمورتر ، لم يكن هناك أي هجوم مضاد من جماعة ألفونسو المتمترسين خلف الغابة المظلمة والشجيرات التي تتخللها من خارج سور القاعدة.

لم يمر وقت طويل قبل أن يفلح كارليل في استنفار كل من بالقاعدة من الجنود . كما أدرك مراقبوا الطيران في برج التحكم المظلم ، أن هنا كعملية إقلاع غير مرخص بها ، في الطريق .

كان سين يجري بالطائرة بسرعة ولا مبالاة حتى أن الطائرة بدأت تتهيأ للارتفاع رغبة في الإقلاع . وكان يعرف إنه إذا حاد عن الطريق ، أو اصطدم بالإفريز الخرساني الذي يحيط بالممر ويحول دون دخول الحشائش والأعشاب المحيطة به إليه ، فإن هناك احتمالاً لأن تنفرز الطائرة أو تزحف على بطنها ، هذا غير احتمال إصابتها بقذائف ١٢,٧ ملمتر إذا ما تأخر عن الإقلاع ولو للحظة

أطول مما يجب .

وتحدث في الراديو مع جوب :

« جوب . سأضيء لك الكبينة وجسم الطائرة للتأكد من أن كل الجنود جالسين في مقاعدهم وقد ربطوا أحزمتهم . سأقلع في ظرف أربعين ثانية » .

أدار مفاتيح الإضاءة ليتجنب حدوث أي فوضى داخل الطائرة ثم ضبط موجة الراديو على موجة برج التشغيل ١١٨,٦ .

كانوا ينادون عليه بصوت حاد منفعل :

« الطائرة العسكرية هيركبوليس فكتور سييرا وسكي (في إس دبليو) . ما هي نواياك . أكرر: الطائرة العسكرية ... » .

فرد عليهم سين :

« هذه طائرة الهيركيوليس فكتور سييرا وسكي . أريد تصريحاً لأجنب الطائرة هذه النيران المعادية » .

- سييرا وسكي . كرر مرة أخرى . ما هي نواياك ؟

- إلى برج التشغيل . هذه هي سييرا وسكي : أرجو منكم .... » أخذ سين عمداً في التمتمة ، وكأنه مخمور ، في حيلة لكسب الوقت ولإجبار برج التحكم لإعادة السؤال . كان في تلك الأثناء يراقب درجة حرارة المحركات بقلق ، بينما مؤشر الحرارة يتحرك ببطء لا نهاية له نحو اللون الأخضر .

- إلى برج التشغيل . إنني أجد صعوبة في الاستماع لإرسالكم . أرجو تكرار التصريح لي بالتحرك .

ومن خلفه ، فتح جوب باب غرفة القيادة وطمأنه أن جميع الرجال جاهزون للإقلاع . طلب منه سين أخذ المقعد اليمين وربط حزامه بدون أن ينظر إليه . كانت مؤشرات درجات حرارة المحركات قد اقتربت من اللون الأخضر وكان المدرج الرئيسي للإقلاع يقترب بسرعة . ضغط سين على الفرامل وأبطأ الطائرة ليستدير ويتخذ وضع الإقلاع . وجاءه صوت البرج :

« الطائرة الحربية هيركيوليس . لم يتم الترخيص لك لتحريك الطائرة أو لاتخاذ وضع الإقلاع. أكرر . ليس لديك تصريح من البرج . توقف فوراً واتجه لشمالك ، وعد لمكانك الأول . أكرر عد لمكانك الأول » .

لعنه سين في سره بينما جذب الجنيح المتحرك (الغلاب) لعشرة درجات وأدار عجلة توازن الطائرة ، بينما جاءه الصوت مزمجراً :

« الطائرة الحربية هيركيوليس . توقف في الحال وإلا أطلقنا عليك النار » فتح سين مفتاح إضاءة الممر وحول الطائرة العملاقة إلى المدرج الرئيسي وأطاعته

الطائرة بخفة وسهولة طائرته البيتش كرافت وبدأ سين في تدليلها :

« يا عزيزتي ! يا قطتي البدينة ! » . كان يعرف أن الطائرات تستجيب ، كالنساء ، للإطراء والتملق . دفع ذراع الصمام الكابح للأمام بلطف . وفي تلك اللحظة فتح مدفع المكنة الثقيل نيرانه عليهم من وراء البرج .

كانت سرعة اندفاع الطائرة في الممر كبيرة جدًا ، ويبدو أن المدفعجي لم يتدرب على رمي المتحركات السريعة ، فقد كان يقذف المكان الذي كانت به الطائرة قبل ثوان ، وربما كان فاقدًا لأعصابه إذ أن نيرانه كانت متأخرة بقدر ما كانت عالية . وجاءت أولى القذائف الاستكشافية الطويلة عالية فوق ذعنفة الذيل . وعلق جوب بهدوء :

« يحتاج هذا القط إلى دروس في الرماية » . كان سين يتعجب دائمًا من برود أعصاب جوب وسلوكه المتسم برباطة الجأش وتحت النيران الرهيبة .

جاءت الدفعة الثانية من القذائف منخفضة وأمامية وحطمت الإفريز الخراساني تحت مقدمة الطائرة مباشرة . وغمغم جوب معترفًا بعد تردد منه : «لكنه يتعلم بسرعة » .

كان سين مائلاً على مقعده ، للأمام قليلاً ، ويده اليمنى تمسك بصف الكوابح الأربعة ، وهي مفتوحة للآخر ، أما يده اليسرى فكانت تتلمس عجلة التحكم متحسسة إشارة عودتها للحياة ، ويراقب في نفس الوقت مؤشر سرعة الهواء وهو يدور برصانة حول قرصه المدرج .

وفجأة قال جوب وهو يشير إلى زجاج النافذة :

« ها هو صديقك قد عاد إليك » . ونظر سين من حوله بسرعة . كانت عربة لاندروفر بكب مسرعة باتجاههم ، ممزقة الأرض المعشوشبة وراء الإفريز الخراساني ، وبمحازاة مدرج المطار ، وكانت أنوارها الرئيسية تلقى ظلالاً وأشكالاً شاذة وهي تتوهج في ظلمة الليل الحالك ، وتتقافز فوق أرض الحشائش غير الممهدة . كانت العربة تحاول قطع الطريق عليهم ، واستطاع سين بالكاد أن يتعرف على ملامح الرجل الذي كان يقف في مؤخرة العربة المسرعة .

وعلق سين قائلاً لجوب وهو يركز على الهيركيوليس :

« إنه لا يسلم بسهولة . أليس كذلك ؟ » .

من الواضح أن كارليل قد استخدم إحدى عربات لاندروفر الحرس بسائقها الأسود . فقد كان واقفًا على ظهر العربة المكشوف ، وقبضًا بيديه على حوامل مدفع مكنة آر بي دي . كان وجهه شاحبًا مفضضًا ، وقد أضاءته الأنوار السفلية للطائرة ، وهو يستحث السائق للمزيد من السرعة .

مال جوب للأمام وهو يلاحظ باهتمام كارليل الذي كان يدير المدفع في محور حوامله ويصوبه نحو ركن الطيار في القمرة وقال لسين :

« إنه يعتبر الأمر قضية شخصية » .

مال سائق العربة فجأة بها على عجلين حتى كادت أن تحاذي الطائرة المسرعة ، وعلى بعد منها لا يتجاوز الخمسين ياردة ، وبمستوى طرف جناحها . وهز جوب رأسه وقال لسين :

« هيه يا رجل . إنه يصوب نحونا بالذات » .

وقف كارليل باستعداد وراء المدفع ثم انطلقت فوهة المدفع بوهج الرصاص الذي اندفع نحوهم . اخترقت الرصاصات غطاء البلاستيك القوي المغلف لقمرة القيادة وظهرت عليه ثقوب كبيرة كالعملة المعدنية وغطس كل من جوب وسين لحماية رأسيهما من الرصاص .

غمغم جوب وهو يمسح بيده نقطة دم من على خده ، سببتها شظية : « إنه أكثر دقة من ذلك القط» .

شعر سين بجهاز التحكم وقد عاد للحياة عندما بدأت الهيركيوليس على وشك الصعود والطيران . ونادى طائرته :

« هيا ياقطتي السمينة » وفي هذه اللحظة أطلق كارليل مجموعة أخرى ، لكن اللاندروفر اصطدم بالحاجز الخراساني وارتد بقوة رهيبة وطار الرصاص عاليًا في الهواء وتشتت . إستعدل مرة أخرى وبدأ في التصويب من جديد . وعلق جوب ، بدون أن تطرف عينه ، وهو يتابع تصويب المدفع عليهما :

« لقد صار أقل الشخصيات الكرتونية حظوة عندي . أوكي ! ها هي الرصاصات تنطلق ! » .

ومن البوابات ، أطلقت مدافع المكنة الثقيلة عليهم مجموعة أخرى من سيل القذائف ١٢,٧ مللمتر كشطت بطن الطائرة وانصبت على اللاندروفر المسرع بجوارها . مزقت الرصاصات العجلات الأمامية للعربة وأطارتها ، فانقلبت العربة المسرعة على وجهها وتشقلبت للأمام وهي تتدحرج وتتقلب في وسط سحابة من الغبار والدخان . ومن ركن عينه شاهد سين جسر كارليل وهو يطير عاليًا في الهواء . وقال بأسى :

« وهكذا نقول وداعًا لواحد من آخر الأبطال الحقيقيين » ثم أرخى عمود التحكم . استجابت الطائرة العملاقة ورفعت أنفها للأعلى .

أطفأ سين الأنوار السفلية للطائرة وأنوار الكبينة دافعًا الطائرة خلال الظلام الحالك حتى لا تكون هدفًا للنيران الأرضية مرة أخرى . ثم ضغط على

المفتاح المفصلي ليرفع جهاز الهبوط وأنزل الجنيح المتحرك . وفي الحال تصاعد معدل سرعة الهواء فأمال أحد الجناحين ودار بالطائرة متهيئًا للصعود .

جاءت دفعة أخرى من النيران من ورائهم وتجاوزت طرف الجناح . أمال سين الطائرة جانبًا على الجهة الأخرى متخذًا سبيلاً متعرجًا ليتجنب القذائف . وسأله جوب : « أتريد أن تصيبنا بدوار البحر ؟ » . تجاهله سين وهو يتفقد عدادات الطائرة للتأكد من عدم تعطيل أي جهاز بها .

بدا مستحيلاً أن يكون مثل هذا الهدف لضخم قد تلقى بضع طلقات من بين السيل المنهمر من الذخيرة التي صويت نحوه . فقد كانت كل الإبر والمؤشرات عاملة بطريقة عادية ، واستجابت أجهزة الطائرة في الحال لسين وهو يجذب زراع الدفع ويثبت دورة الصعود على سرعة خمسمائة قدم في الدقيقة . كان الهواء المزاح يصفر خلال الفتحات التي أحدثها الرصاص على غطاء القمرة، ناكشًا شعر رأس سين وجاعلاً الحديث مع جوب صعبًا ، لذا كان على سين أن يرفع صوته عندما طلب من جوب الذهاب للعنبر وإفادته إن كان أحد الجنود قد أصيب كما عليه أن يتفقد جسم الطائرة للتأكد من سلامتها .

كانت أضواء مدينة أمتالي قد أطفئت من الجنوب ووراءها استطاع سين بالكاد أن يرى بشكل غير واضح الجبال المجاورة لها . كان يعرف أن قمة أعلى جبل من هذه السلسلة تصل إلى ارتفاع ٨٥٠٠ قدم فوق سطح البحر لذا حلق لارتفاع عشرة آلف قدم ثم راجع خط سيره .

لم يكن قد فكر حتى الآن في خطة طيرانه ولم يكن يعرف كيف يعود إلى خطوط (سييرا دا قورونقوسا) . وابتسم وقال لنفسه :

« لن نجدها موضحة على أي خريطة لكننا سنحاول لتوجه على درجة ٣٠»ثم وجه الطائرة نحو ذلك الاتجاه .

كان الأدرنالين لا زال متوقدًا في شرايينه ، وغمرته النشوة التي تنتابه عند الخوف ، وضحك مرة أخرى شاعرًا برجفة بسيطة ومحاولاً الاستمتاع لأقصى مدى بتلك النشوة .

تراجعت قمم الجبال المظلمة من ورائه ولم يكن يشاهد منها ، تحت أضواء النجوم ، سوى أشكال كالحيتان الضخمة على سطح المحيط . حاول أن يلتقط الضوء الخافت للوديان واستطاع أن يتعرف على بعض المزارع المعزولة أو مراكز الإرساليات وأكواخ المزارعين . وعندما عبر الحدود إلى موزامبين لم ير شيئًا سوى الظلام الدامس من أمامه . وحدث نفسه :

« لا شيء سوى الظلمة » . وبدا له حديثه لنفسه كالرمز وكالنبوءة . لقد كان عائدًا بالفعل إلى الأرض الخراب .

قلل سين من سرعة الطائرة وبدأ في الانخفاض تدريجيًا باتجاه غابات الأراضي المنخفضة . فالآن ، وبعد أن ترك الجبال من خلفه ، فإن عليه ألا يرتفع عاليًا بالطائرة حتى لا يجعل منها هدفًا سهلاً لرادارات مقاتلات الميج المطاردة أو لأي مروحية هايند قد تقطع عليه الطريق .

وعاد جوب من جولته وأغلق باب الكبينة من ورائه . وسأله سين :

« أي مشاكل ؟ » .

ابتسم جوب وقال له :

« لقد امتلأت أرضية عنبر البضائع حتى الركبة بالقيء . فهؤلاء الشنقانيي لم يسعدوا بطيرانك يا رجل وهم يغمغمون أو يتقيئون في كل الاتجاهات » .

مد سين يده للدرج الجانبي لمقعد الطيار وأخرج منه علبة من السيجار الهولندي الفاخر ، من أملاك سلاح الجو الملكي ، وقال لجوب :

« انظر ما لدينا هنا » . والقى بسيجارًا إلى جوب ودخنا بمتعة لعدة دقائق قبل أن يسأله جوب:

« كم بقى أمامنا قبل أن تلحق بنا طائرات الميج ؟ » .

هز سين رأسه وقال :

« إن قاعدتهم في هراري . ولا أظن أنهم سيلحقون بنا حتى لو تحركوا فورًا . لا . لست خائفا من الميج . لكن لمروحيات الهايند قصة أخرى » .

عادا للصمت مرة أخرى يتأملان في قبة السماء والنجوم والكواكب المتلألئة ، والتي بدت لهما ، من كبينة القيادة ، وكأنها في متناول يدهما . ثم قطع جوب ذلك الصمت متسائلاً :

« اتجيبني على سؤالي يبدو محرجًا ؟ » .

- أقذفني بما في جوفك .

- حسنًا : لقد جئت بنا هنا . كيف بحق الجحيم ستنزلنا على الأرض ؟

أطلق سين دخان سجاره في دوائر سرعان ماشتتها تيار الهواء الداخل إليهم من أخرام الرصاص على غطاء قمرة القيادة وقال مذعنًا :

« سؤال مثير حقًا . وسأرد عليك عندما أعرف بنفسي الإجابة عليه . في الوقت الراهن عليك أن تهتم فقط بمعرفة أين نجد خطوط الرينامو ومركز قيادة الجنرال تشاينا بالذات .

ظل سين طائرا على ارتفاع خمسمائة قدم فوق الأشجار وأخذ يراجع قراءة عدادات الطائرة ويقارنها بالتعليمات المنقوشة فوق كل عداد . وقال لجوب :

« أمامنا ساعتان قبل أن نجد ضوءً كافيًا يمكننا من العثور على مهبط اضطراري . وحتى ذلك الوقت علينا أن نحاول لعثور على نهر بنجوى » .

وبعد ساعة لمحا لمعة الماء وسط بساط الغابة الأسود من تحتهم وبعدها بثوان شاهدا انعكاس النجوم على صفحة واسعة من المياه .

وقال سين لجوب محذرًا :

« إنني عائد للتأكد من ذلك » . أدار سين الطائرة بعد تخفيض سرعتها ، وهو يراقب البوصلة الجيروسكوبية ، في علبتها المواجهة له ، وهي تدور ١٨٠ درجة قبل أن تستقر مرة أخرى .

أدار مفتاح لمبات الهبوط ورأى قمم الأشجار واضحة تحت أضواء الطائرة القوية كما رأى النهر : طويلاً أسودًا متلويًا كالثعبان ومختفيًا في ظلمة الليل . دار سين بالطائرة نحو اليمين ثم استقر وتابع مجرى النهر ثم قال لجوب :

« يبدو إنه هو » . وأطفأ الأنوار ثم أضاف : « وحتى لو كان هو النهر المقصود فلن نستطيع أن نعرف هل نحن طائرون لأعلى النهر أم لأدناه حتى ينبلج الصبح .

فسأله جوب :

- إذن ماذا سنفعل ؟

- سنطير حول موقعنا هذا .

اتبع القول بالعمل ، وأخذ يدور بالطائرة في سلسلة رتيبة حول نفس الموقع بشكل حرف (8) الإنجليزي . ظل يدور ويدور على ارتفاع ٥٠٠ مترفون الأشجار عابرًا النهر جيئة وذهابًا في نفس المكان وهو يحسب في الزمن في انتظار الفجر . وعلق جوب على هذا التصرف :

« أصبحنا كالبطة الراقدة في انتظار مروحيات الهايند » .

عبس سين في وجهه :

« لا تتمنى ذلك لنا ، فإذا لم يكن لديك شيئًا نافعًا تقوم به متاولني حقيبة المدفعجي . ستجدها في درج الخرائط » .

تناول جوب الحقيبة ووضعها على طاولة لكبينة بجوار مقعده ثم أراح ظهره على كرسيه . وقال له سين :

« اقرأ لي شيئًا يسليني حتى يمر الوقت » .

تناول جوب الملفات المغلفة بالبلاستيك الأحمر والمكتوب عليها (سرى للغاية) وشرع في فحصهم وفي قراءة عناوينهم ورؤوس المواضيع على كل فهرست .

كانت الملفات الثلاثة الأولى عبارة عن مراشد للإستخدام الميداني لصواريخ أرض جو ستنجر . وكانت تغطي استخدامات الصاروخ في كافة الظروف المحتملة ، بدءًا من سطح السفن بالبحار وحتى استخدامها بواسطة جنود المشاة ، وفي مختلف أنواع الطقس على الكرة الأرضية ، وذلك على جداول ورسومات بيانية موضحة كافة احتمالات الإستخدام من الغابات الاستوائية وحتى القطبين المتجمدين .

وعلق جوب وهو يتناول الملف الرابع من الحقيبة :

« موضح هنا كل ما أردت أن تعرفه وكنت خائفًا من أن تسأل عنه » . ثم قرأ عنوان الملف :

« نظم تشغيل صواريخ ستنجر الموجهة » .

« اختيار الهدف ووسائل التشغيل » .

« تقارير العمليات » .

وبصوت عال أخذ يقرأ ، ثم قلب الصفحة للفهرست وعناوين الفصول :

١ - في جزر فولكلاند .

٢ - في الخليج العربي (بحر هرمز) .

٣ - الهبوط في قرينادا .

٤ - يونيتا / أنجولا .

٥ - أفغانستان .

وهنا صاح سين : « أفغانستان ! انظر هل هناك أي شيء بخصوص الهايند؟» .

وضع جوب الملف الضخم على حجره وضبط لمبة القراءة ، المعلقة على سقف الكبينة فوق رأسه ، وقلب صفحات المرشد وقرأ :

« هنا ! هنا ! أفغانستان ! أنواع الهلكوبترات وطرزها ..... » . أمره سين بنفاذ صبر : « فتش على الهايند ! » .

« أنواع المروحيات السوفيتية » .

« تصنيف الناتو (هـ) » .

صاح سين : « هذه هي ! . فتش على الهايند » .

بدأ جوب يقرأ : « هير - هوبلايت / هاوند / هوك / هيز / هانوك ..... هذه هي .. هايند» .

- اقرأ لي التفاصيل .

- « هذه القطعة الطائرة للمدفعية ، التي يطلق عليها السوفييت اسم الشهرة

ستورموفيتش (أو الحدباء) ، والتي يطلق عيها الناتو اسم (الهايند) ، والتي يسميها الثوار الأفغان وكثير من الذين واجهوها في ميادين المعارك باسم (الموت الطائر) ، اكتسبت شهرة منيعة رهيبة ، ربما كانت غير مبررة تمامًا ...... » .

قطع عليه سين قراءته متحمسًا :

« أيها الأخ ! أرجو أن تكون قد عرفت هذا الذي تتحدث عنه ! » .

واصل جوب :

« غير مبررة تمامًا لأنها :

١ ـ لها قدرة ضعيفة على المناورة رعلى التحليق الثابت وسرعة الصعود نتيجة لكتلة الدروع الثقيلة التي تغلفها .

٢ ـ مدى محدود للطيران في حدود ٢٤٠ ميل بحري عند كامل تحميلها وهذا يعود أيضًا لثقل وزن دروعها .

٣ ـ سرعة ضعيفة لا تتجاوز في حدها الأقصى ١٥٧ عقدة ، وأثناء الرحلات ١٤٧ عقدة في الساعة .

٤ ـ تحتاج إلى عمليات صيانة وخدمات أرضية باستمرار » .

قطع عليه سين قراءته :

« هذا مثير للاهتمام حقًا » وربت على عمود القيادة للهيركيوليس : « أحتى هذه الطفلة أسرع من الهايند ؟ سأتذكر ذلك إذا ما قابلنا واحدة منها » .

سأله جوب :

« أتريد مني أن أقرأ لك ؟ إذا كان كذلك فاقفل فمك وانصت » .

ـ آسف . إنني أقدم اعتذاري . أرجو أن تواصل .

ـ « يقدر أن عدة مئات من هذه المروحيات قد استخدم في أفغانستان وقد لاقت عملياتها نجاحًا كبيرًا ضد الثوار رغم أن أكثر من ١٤٠ طائرة منها قد دمرت بواسطة الثوار المسلحين بصواريخ ستقر أرض جو . هذه الأرقام وحدها تثبت أن بإمكان صواريخ ستنقر ضربها بنجاح إذا ما اتبعت التكتيكات التالية...... » .

استمر جوب في القراءة المفصلة لطراز المحرك وأدائه ونوع الأسلحة واحصائيات أخرى حتى أوقفه سين أخيرًا وهو يشير للسماء :

« توقف يا جوب . لقد بدأ الفجر ينبلج » .

بدت السماء أمامهما شاحبة ممتدة حتى أطراف الأرض وشيئًا فشيئًا بدأت الرؤيا تتضح . وقال سين لجوب :

« ضع الكتاب واستدع لي فرديناند لنرى إذا كان بإمكانه أن يعرف أين نحن الآن وليرينا الطريق إلى البلد » .

أحاطت راتحة القيء القوية بفردناند وهو يتعثر في مشيته نحو كبينة القيادة وكانت مقدمة بزته العسكرية ملطخة متسخة . استند على مؤخرة مقعد الطيار وتحرك سين ليبعد نفسه لأقصى ما يمكن عنه . وأشار سين خلال سقف ونوافذ الطائرة التي ثقبتها الرصاصات :

« انظر يا فردیناند من حولك . هل ترى أي معالم تعرفها ؟ » .

حملق الشنقاني بتردد فيما حوله وهو يتمتم بعبوس ثم صفى وجهه فجأة وصاح وهو يشير إلى الشباك :

« تلك الجبال . نعم إنني أعرفها . فالنهر يخرج من بينهما في شلال هادر » .

- وأين الطريق إلى المعسكر ؟

- من هناك - بعيدًا هناك .

- كم يبعد ؟

- يومين من المشي الشاق .

ترجم سين الوقت إلى مسافة وقال :

« أي سبعين ميلاً بحريًا . لسنا بعيدين . شكرًا يا فردناند » .

توقف سين عن دورات طيرانه الرتيبة ذهابًا وإيابًا وعدل من مسار الطائرة إلى خط مستقيم .

اتجه نحو الغرب ، حيث أشار فردیناند ، وهو على ارتفاع منخفض فوق الاشجار . ومن ورائه أطل الفجر وحول السماء الشرقية إلى لون ضبابي قرمزي .

وجه سين الطائرة إلى الفجوة بين الجبال ، التي أوضحها له فردناند ، وضبط ساعته على ساعة الطائرة وقال وهو يحرك مؤشر الراديو :

« حان موعد نشرة الأخبار الإفريقية من إذاعة البي بي سي » . ثم سمع اللحن المميز لها على الموجة ١٥,٤٠٠ميجا هيرتز :

« هنا إذاعة البي بي سي . فيما يلي موجز النشرة . في الولايات المتحدة نجح الحاكم دوكاكيس في كسب أصوات ولاية نيويورك ضد السناتور جسي جاكسون في السباق للفوز بترشيح الحزب الديمقراطي له لمنصب الرئاسة . قتلت القوات الإسرائيلية اثنين آخرين من المتظاهرين الفلسطينيين في قطاع غزة المحتل . قتل مائة وعشرين راكبًا في حادثة سقوط طائرة بالفلبين . ثوار رينامو يختطفون إحدى طائرات الهيركيوليس التابعة للسلاح الجوي الملكي ، من قاعدة جوية بزمبابوي بالقرب من مدينة أمتالي . وقد طاروا بها إلى موزمبيق

حيث تتم مطاردتها بواسطة الطائرات الحربية التابعة لكل من زمبابوي وموزمبيق . وصرح ناطق رسمي بأن كلاً من الرئيسين موجابي وتشيسانو قد أصدرا أوامرهما بتدمير الطائرة ، والتي لا تحمل على ظهرها أي رهائن ، لكنها تحتوي على أسلحة حديثة بالغة التعقيد كانت ستستخدم ضد الثوار ، تدميرها مهما كلف الأمر ...... » .

قفل سين الجهاز وابتسم لجوب :

« هل فكرت يومًا بأنك ستكون الخبر الرئيس لنشرة لندن ؟

ـ يمكنني الاستمرار بدون هذه الشهرة . هل استوعبت الجزء الخاص (بمطاردتنا وتدميرنا مهما كلف الأمر) ؟

كانت الهيركيوليس تقترب بسرعة نحو الفجوة بين الجبال . وكان الضياء قد انتشر حتى صار باستطاعة سين أن يرى بوضوح الضياء المتلألئ في جوف الممر وحيث تسقط مياه النهر هادرة على الصخور السوداء .

وفجأة صرخ جوب :

« قادمة نحونا ! بارتفاع الساعة الواحدة ! » .

فبقوة إبصاره الخارقة للعادة ، رأى جوب الطائرة قبل لحظة من رؤية سين لها .

كانت الهايند مختبئة ناصبة كمينًا لهم ، وهي متربعة مثل حشرة عملاقة في فراغ من الغابة ، تحرس ممر النهر من بين الجبال .

وعندما رآها سين ، فهم بوضوح تكتيكات الفريليمو التي سلكتها لتقطع عليه الطريق نحو خطوط الرينامو . لذا توقع أن يكونوا قد أرسلوا سرب الهايند بالكامل ، أثناء الليل ، وبعد أن وضعوا تصورًا للطريق الذي سيسلكه وإلى أين سيتجه .

ولكي تعمل المروحيات في حدود مداها الأقصى وقدراتها ، فلابد أن تكون قد كمنت في خطوط دفاعية على الأرض ، لتوفر الوقود ، ومختبئة وسط الغابة ، بينما راداراتها النابضة تمسح الفضاء من حولها لتلتقط صوت محركات الهيركيوليس .

وبالتأكيد فإنهم قد خمنوا بدقة بأن سين سيستخدم مجرى النهر كمعلم ملاحي له . لذا فربما كانت هناك المزيد من الطائرات كامنة في أعلى النهر ، مشكلة حزامًا اعتراضيًا حول خطوط الرينامو . ولكن ، ولأن سين قد تقول كثيرًا نحو الجنوب فقد وقع في مصيدة هذه الهايند .

قفزت الطائرة الهايند من وسط الغابة وارتفعت رأسيًا في السماء وقد تدلى

أنفها المشوة (كالمينوتور) الخرافي الذي أحنى رأسه متهيئًا للهجوم ، وكان جسمها المموه كالأبرص يلقى جوًا قبيحًا قاتمًا قاتلاً عليهم .

كانت لازالت أسفل الهيركيوليس ، لكنها صاعدة للأعلى بسرعة وحجمها يكبر كلما اقتربت منهم . وتوقع سين أن تنطلق عليهم قذائف الجاتلنج خلال لحظات . وبالفعل بدأت تصوب مدافعها إلى الأعلى وقام سين على الفور ، وبدون أي تفكير ، باتخاذ قرار خطير :

فتح كل كوابح الوقود للآخر وزأرت التوربينات الأربعة عندما اندفع بالطائرة للأسفل متجهًا مباشرة نحو المروحية .

رأى الصواريخ تنطلق من تحت أجنحة الهايند ، كل واحد منها كنقطة سوداء وسط سحابة كثيفة من الدخان الأبيض . تذكر الإحصائيات التي قرأها جوب عليه قبل دقائق ، حيث إن الهايند تحمل صاروخين (أ . ت . ٢ سواتر) وأربعة صواريخ ٥٧ ملمتر أخرى .

غطس بطائرته نحو الهايند وسط سيل الصواريخ والتي طارت فوق رأسه بعاصفة من الدخان والموت . كانت الهايند على بعد مائتي متر منه ، ولازالت صاعدة متقدمة لتلاقيه وهي تطلق صواريخها عليه عن كثب غير مبالية بمناورته العنيفة . وصاح سين في جوب :

« كن ثابتًا يا جوب . سأقوم بنطح هذا الوغد » . غمرته رغبة عارمة في القتل وشعر بهذه الرغبة حلوة ساخنة في دمائه . لم يشعر بأي خوف بالمرة ، وإنما بمجرد الدافع القوي للتدمير والقتل .

وفي اللحظة الأخيرة أحس طيار الهايند بنواياه . كانوا قد اقتربوا من بعضهما البعض حتى إن سين أمكنه رؤية ملامح الطيار تحت غطاء رأسه . كان وجه الطيار الروس أبيضًا كالعجين أما فمه فكان أحمرًا ثانيًا وكأنه جرح نازف .

قام الروسي بقلب الطائرة على جنبها ، أشبه برأس على عقب ، وتركها تسقط نحو الأرض ، بسرعة وكأنها كتلة من المعدن الثقيل ، محاولاً أن يغطس تحت أجنحة اليهركيوليس المشرعة . وصاح سين مهتاجًا :

« أمسكت بك يا بن العاهرة » . وبجناح الهيركيوليس ضرب ذيل المروحية . ألقت قوة الصدمة بسين للوراء ثم للأمام حتى كاد حزام الأمان أن يشقه نصفين، وارتجفت الهيركيوليس وترنحت وفقدت سرعتها الديناميية الهوائية ، وأخذت تهتز مرتجفة وأوشكت على الانهيار ، وهي لا تبعد بأكثر من مائتي قدم عن قمة الغابة . وأخذ سين يهمس لها وكأنها عاشق :

« هيا انهضي يا قطتي السمينة » .

كان يخاطب أجهزة الطائرة وكأنها طفلة ويتلمسها برقة بأصابعه . كان جناحها المعطوب قد تدلى للأسفل وصار قطعًا ممزقة من المعدن تتطاير وتتصادم مع تيار الهواء المزاح القوي وبدت رؤوس الأشجار في الغابة مثل مخالب حيوان مفترس تكاد تصل للطائرة وتمسك بها وتمزقها . وعاود سين توسله لطائرته :

« طيري من أجلي يا حبيبتي ! » وهدرت المحركات الأربعة من فرط الجهد ثم ارتفعت شيئًا فشيئًا للأعلى .

أخذت إبرة مؤشرة الصعود تتأرجح ، وبدأت الطائرة في الارتفاع بمعدل مائتي قدم في الدقيقة . وارتفع صوت سين :

« أين الهايند يا جوب ؟ » .

أجابه « لابد أن تكون قد سقطت » . كان كلاهما يصرخ في وجه الآخر ليسمعه ، وقد ملأتهم الرهبة والإثارة والشعور بالانتصار . وصاح سين :

« لا يمكن لشيء أن يتحمل ضربة كهذه ....» ثم تغير صوته فجأة :

« لا ! لازالت هناك . إنها لازالت محلقة . يا إلهي . أترى أمنا هذه يا جوب ؟» .

كانت الهايند قد تلقت ضربة قاسية وكانت تترنح على أحد جانبيها وقد تمزقت مراوح ذيلها والدفة وكادا أن يختفيلن منها . وبدا واضحًا أن طيارها كان يكافح من أجل حياتها وحتى تترنح وتتقلب وتتخبط في السماء . وصاح جوب :

« لا أصدق ! إنها لا تزال تطلق النار علينا » . وفي هذه اللحظة توهج صاروخ محاط بالدخان ومر من فوقهم .

كان جوب يحملق فيها من خلال النافذة الجانبية وشرع في الصياح :

« إنها تعتدل ! إنها قادمة . إنها متجهة نحونا مرة أخرى » .

سيطر سين على طائرته وتوجه مباشرة نحو ممر الجبال . كادت قمم الجبل أن تمس طرف جناحه ، ثم ظهر الشلال الهادر ، بزبده الأبيض ، من تحتهم . وعندما صاح به جوب : « لقد أطلقت صاروخا آخر » ، كان الممر عبر الجبال قد انفتح من أمامهما ، ورفع سين الجناح المعطوب عاليًا في دورة قصوى . ووصلت الطائرة إلى سطح الصخور ، ودارت واختفت عبر الممر في الوقت الذي التقط فيه صاروخ سواتر الأشعة تحت الحمراء المنبثقة من عادم الهيركيوليس وخرج من الممر . كانت الهيركيوليس قد قامت بدورة رائعة مما اضطر سين لبذل جهد خارق للحفاظ على اعتدال مقدمته . وعندما نظر إلى السماء ، عبر الغطاء البلاستيكي لسقف الطائرة ، شعر بأنه على وشك أن يلمس صفحة الصخور . فقد كانت الطائرة تطير بجناح واحد الآن . حاول الصاروخ أن يدور

وراءها ولكن ، وفي تلك اللحظة ، اختفت الهيركيوليس من أمامه وحجبت الأركان الصخرية الإشعاعات تحت الحمراء عنه . ارتضدم الصاروخ على صفحة الجبل وأطار كتلة ضخمة من الصخر في الهواء ، مالئًا الممر من خلف الهيركيوليس بالغبار والدخان .

استعاد سين توازن الطائرة مرة أخرى ، وهو التوسل إليها كعادته ، ومهتما بحالة جناحها المدمر وسأل :

« أترى أي أثر للهايند ؟ » .

أجابه جوب : « لا .... » ، وقطع حديثه عندما رأى الشكل المخيف يظهر وسط الغبار والدخان وقال : « إنها هناك ولا زالت وراءنا ! » .

كان كل جسم الهايند الخلفي قد التوى وكان نصف الدفة قد اختفى . ترنحت متعثرة في الهواء ، وبدت عصية على السيطرة ، وكانت تتراجع بسرعة عن اللحاق بالهيركيوليس الهارية . كان طيارها شجاعًا ، ويبذل كل ما في وسعه للإبقاء عليها عاملة حتى النهاية . وصاح جوب محذرًا :

« لقد أطلق النار مرة أخرى » . رأى جوب الصاروخ ينطلق من تحت قاعدة جناحها المتهرئ ويتجه نحوه ، ووراءة ذيل كثيف من الدخان ، وفجأة صرخ ظافرًا :

« إنها تسقط ! » . ورأى جوب مراوح الذيل تنفصل عنها وتطير بحركة لولبية في الهواء بينما سقط جسم الهايند ، وكأنها ثور جاموس انقصم عموده الفقري ، ثم ارتطمت بالأشجار ، وسرعان ما انفجرت وسط دوامة هائلة من اللهب والدخان . وصاح فيها جوب بيأس :

« موتي بالطريقة الصحيحة ! » . فبالرغم من هلاك الهايند إلا أن حمولتها الرهيبة من المتفجرات انطلقت في الفضاء وتوجه بعضها نحو الهيركيوليس بإصرار عنيد .

حاول سين الارتفاع بالطائرة بقدر المستطاع ، وكاد الصاروخ أن ينحرف عنها ويطير بعيدًا لولا أنه سرعان ما صحح مساره وتوجه نحو الطائرة بعزم ، ومن ورائه هالة طويلة ممتدة من الدخان وارتطدم بقوة ، وملتصقا ، بالمحرك الأيمن الثاني للهيركيوليس .

وللحظات فقدوا الرؤية عندما غمر دخان الانفجار غرفة القيادة ، متسللاً من تقويها الواسعة ثم سرعان ما تلاشى . تزلزلت الطائرة وكأنها في نزع الموت ، فقد أطار انفجار الصاروخ جناحها للأعلى ، وبمعجزة عادت إلى مسارها واستطاع سين بمهارة فائقة أن يحافظ على توازنها .

ونظر بهلع إلى التلف الذي سببه الصاروخ . فقد اختفى المحرك نمرة اثنين

بعد أن خلع من قاعدته ، تاركًا فجوة واسعة بطرف الجناح الأيمن . كانت ضربة قاتلة . وفي نزع الموت واصلت الهيركيوليس طيرانها مندفعة للأمام بقوة محركاتها غير المتزنة الباقية ، وقد بدأ جناحها المعزوب ينحني وينطبق للخلف .

خفف سين من شدة انفتاح صماماتها ، محاولاً أن يقلل من إجهاد الطائرة ، وليوازن اندفاعها . نظر للأمام صوب النهر الواسع الضحل الهادئ بعد أن غادر منطقة الشلال . كانت أول أشعة لشمس قد بدأت تضيء قمم الأشجار على الضفتين ، ورأى التماسيح وهي مستروحة على رمال الشاطئ البيضاء .

أمسك سين بالميكروفون المتصل بعنبر الطائرة وتحدث عبر مكبر الصوت إلى من فيه من الشنقاني :

« استعدوا ! قد نسقط بشدة وعنف » ثم شد حزامه وضبطه على جسمه .

كانت الهيركيوليس تهبط لأسفل بتثاقل وقد أعطب كلا جناحيها واستغرب سين كيف إنها لازالت في الهواء . ثم بدأت في السقوط بسرعة ، وكأنها مصعد هابط من عمارة ، وتوقع أن تصطدم بالأشجار على مقربة من النهر . جذب سين الجنيحات لأقصى درجة ليقلل من سرعة هبوطها واستجابت الطائرة للدفع الإضافي ، بدلاً عن أن تدمر نفسها ، وسبحت في الهواء بمثل روعتها القديمة ، وتجاوزت قمم الأشجار على شاطئ النهر . أسرع سين بإغلاق طلمبات الوقود والوصلات الرئيسية والمانفيتة ليتجنب اشتعال النيران فيها وظل رافعًا لمقدمتها مما قلل سرعتها ، ولاحظ تراجع ابرة السرعة بشدة . انطلق صوت جرس الإنذار مشيرًا لقرب انهيارها ، ثم جاء الصوت المعمم للأذان لجهاز الهبوط منذرًا لهم بأن الإطارات لازالت مرفوعة .

ثم توقفت أجهزة التحكم عندما أوشكت الطائرة على النهاية ، وكانوا على ارتفاع عشرين قدمًا فوق وسط النهر . ولت لتماسيح من على الشاطئ هاربة في رعب ، وأثارت مياه النهر بضرباتها ، لكن سين واصل محاولاته لإطالة عمر طائرته حتى الرمق الأخير . شعر بذيلها وقد مس سطح الماء ، ورأى مؤشر السرعة يهبط إلى أربعين عقدة ، ثم توقفت الطائرة عن الحياة وسقطت على سطح الماء على بطنها ، بقوة أثارت زوبعة من المياه من حولها ، وتسللت إلى غرفة القيادة من خلال الثقوب التي أحدثها الرصاص .

إندفع كل من سين وجوب بقوة للأمام على حزام أمانهما المربوط على الكتف ، بينما قفزت الطائرة من على الماء ثم استقرت على بطنها وتوقفت بعرض النهر . وصاح سين في جوب : « أأنت بخير ؟ » وبدلاً عن أن يجيبه قام جوب بفك إيزيم حزام أمانه وقفز من على كرسيه . ورأى سين أن الطائرة قد بدأت تتخبط على غير هدى مع التيار ، وقد حملت خزانات رقودها الفارغة ،

والهواء المحبوس داخل جسمها ، على الاحتفاظ بها طافية على سطح الماء .

نادى جوب وذهبا سويًا إلى العنبر ورأيا على الفور ، بارتياح ، أن صناديق الصواريخ لازالت في مكانها ومربوطة بإحكام في شبكتها الواقية .

أما الجنود الشنقانيين فكانوا في حالة يرثى لها . وقد أصيب إثنان منهما ، وكان يئنان ويرتجفان وسط بركة من القيء غمرت سطح العنبر . كان أحدهما قد أصيب بكسر ، وقد برز العظم المكسور ، واضحًا من تحت جلد ذراعه المحطم ، كرأس حربة حادة الطرف .

أدار سين عجلة مفتاح باب الطوارئ وركله برجله ، وفي الحال انتفخت مظلت الطوارئ وقفزت للخارج وطفت على سطح الماء من جهة ردسي متصلة بباب الطوارئ على الجهة الأخرى .

إتكأ سين على الباب . كانت الطائرة قد اقتربت من منطقة رملية وقدر أن عمق الماء قد لا يزيد على ارتفاع كتف الإنسان ، فقد كان الماء صافيًا وأمكنه أن يرى القاع بوضوح .

وأمسك سين بذراع فردناند ، من وسط دوامة الشنقاني المضطربين وقال له: « من هنا . أخرج الرجال من هنا » . ورأى فردناند وقد وقف منتبهًا وبدأ في تحريك رجاله ودفعهم نحو الباب ، ثم أمر جوب :

« وضح لهم كيف يخرجون . وعندما يتم ذلك فعليكم جميعًا دفع الطائرة نحو السد الرملي » .

وضع جوب ذراعيه على صدره وقفز على قدميه ، على مظلة النايلون المنتفخة ، ثم سقط على الماء ووقف بعدها على قدميه . وصل الماء إلى إبطيه وقام في الحال واتجه نحو صفحة اليهركيوليس وألقى بثقله كله عليه .

وواحدًا بعد الآخر ، قام الجنود غير المصابين بالقفز على المظلة ثم إلى الماء، وكان جوب يساعدهم كل مرة . ودفع سين آخر الجنود من خلال الباب ثم قفز بنفسه .

كانت حرارة الماء أقل قليلا من حرارة الجسم . وعندما وقف سين رأى أن الجميع يعملون على دفع الطائرة المحطمة ، بكامل قواهم ، عبر تيار النهار . أضاف قوته إليهم وسرعان ما وجدوا أن الماء قد هبط إلى خصورهم وبدأ القاع قريبًا جدًا . استقر بطن الطائرة على رمال النهر وبدأ الماء يتسلل إليها . جرجر الجنود أرجلهم نحو السد الرملي وتساقطوا عليه متكومين ، وعلى وجوههم خواء وفتور من جراء الرعب والإجهاد .

نظر سين من حوله محاولاً تقييم وضعهم ، وليصنع خطط أولويات ما سيقوم به . كانت الطائرة قد جنحت ، لكنها كانت مرتفعة لدرجة أن الماء لم

يغمر إلا الجزر السفلي من أرضية العنبر . وتأكد من أن الصواريخ سالمة وأن الماء لن يصل إليها أو يتلف دوائرها الإلكترونية الحساسة .

كان التيار قد دفعهم قريبًا من الشاطئ وكانت الضفة مكتظة بأكوام الأشجار الميتة والأخشاب الطافية ، وما كان السد الرملي إلا مجرد ممرضين وراء الشاطئ . وقال سين لجوب :

« علينا أن نتحرك بسرعة ، إذ لابد أن تكون الهايند قد أرسلت إشارة بالموقف لبقية السرب ، ومن المؤكد أنهم سيأتون للبحث عنا .

- ماذا تريدنا أن نبدأ به ؟

- تفريغ صواريخ الإستقر . أشغل الجنود بها .

صعد سين للطائرة مرة أخرى ورأى أن المكابس الهيدروليكية لباب العنبر لازالت تعمل ، حتى بدون البطاريات ، وقام بإنزال الباب الخلفي .

كان وزن كل صندوق مكتوبًا عليه : ١٥٢ رطل . وصاح سين بالجنود :

« إنها خفيفة . كل صندوق يحمله إثنان منكم » . ثم قام هو وجوب برفع كل صندوق على أكتاف الجنود الذين تقدموا نحوهما ، وكانوا عند تحميل الصندوق يذهبون به نحو السد الرملي ، ثم إلى الشاطئ ، ويضعونه بين الأشجار . وكان فردنياند يشرف على عملية رحى الصناديق وتغطيتها بالأخشاب والفروع المتناثرة من حوله .

لم تستغرق عملية التفريغ أكثر من عشرين دقيقة ، كانت كل واحدة منهم تمثل عذابًا وقلقًا ونفاذ صبر لسين . وعندما تم إنزال آخر صندوق إلى الشاطئ هرع سين إلى باب العنبر وتطلع إلى السماء متوقعًا في أي لحظة أن يسمع صوت مراوح الهايند وأصوات محركاتها الإيسوتوف . وقال لجوب :

« لن يستمر حظنا مواتيًا لفترة طويلة ، ويجب أن نتلخص من الهيركيوليس» وسأله جوب بسخرية :

« ماذا تنوي أن تفعل ؟ تبتلعها أم تدفنها ؟ » .

بالحاجز الأمامي لعنبر الشحن كانت توجد رافعة بحمولة ١٢٠ طنًا تستخدم لجذب المشحونات والبضائع لداخل العنبر . وتحت إرشادات سين قام أربعة من الشنقاني بالإمساك بطرف السلك المعدني القوي للرافعة وجذبوه . ثم باستخدام قارب النجاة المملوء بالهواء ، قاموا بعبور النهار للضفة الأخرى وربطوا السلك بإحكام على شجرة ضخمة .

وبينما كانوا يقومون بذلك شرع سين وجوب في تفتيش الطائرة وجردوها من أي شيء ذي فائدة ، بدئًا بصندوق الإسعاف الأولى ، وحتى مخزون البن

والشاي والسكر . وبارتياح شديد وجد سين أن صندوق الإسعاف الأولى كان مكتظًا بما يلزم لإسعاف أو علاج حالات المناطق الحارة ، خاصة أدوية الملاريا ، والمضادات الحيوية . أرسل كل هذه الأشياء للشاطئ مع أحد الجنود ثم عاد مسرعًا إلى عنبر الشحن . كان زورق النجاة في طريقه إليهم ، ولم يسمعوا حتى الآن أي صوت للمروحيات الهجومية مما زاد من غبطتهم وسرورهم .

وتأكد سين من أن الجميع على الشاطئ ، ثم ذهب إلى جهاز تشغيل الرافعة وعشق تروس الكلتش به . ورأى الكيبل وقد بدأ يشتد ويتوتر ثم بدأت الطائرة الجانحة في الاهتزاز والتأرجح ثم بدأت تتحرك . ترك الرافعة تعمل بقوة ورأى الرمل ينزاح من تحت الطائرة ويتناثر من تحت بطنها الضخم ثم بدأت تتجذب ، بقوة رافعتها ، إلى عرض النهر حيث المياه العميقة .

وعندما بدأت تتحرك طافية قام سين بإغلاق باب العنبر حتى منتصفه ليمنع امتلائها بالماء قبل الأوان ، ثم مضى معها حتى منتصف النهر حيث التيار السريع المندفع . وعندما تأكد من أنها بدأت تسير مع التيار قام بتناول المقص الضخم الخاص بقطع الأسلاك الكبيرة ، من الرف المعلق به ، وقطع سلك الرافعة وبدأت الهيركيوليس تطفو مع التيار بحرية .

وبإحساس داخلي خفي قام سين بقطع أربعة أقدام من السلك القوي لكيبل الرافعة وسرعان ما التوى السلك في يده مكونا شبه دائرة . قام بلف ثلاثة فردات من السلك في حلقات كالأنشوطة ووضعها في جيب سترته ، حيث سيقوم جوب فيما بعد بتركيب أزرار من الخشب القوي على أطرافها . كان السلك الخانق واحدًا من أهم الأسلحة الخفية للكشافة ، وكان سين يشعر بأنه كالعاري منذ أن فقد سلكه الخانق ، الذي كان في صرة كتفه ، عندما ألقى بالصرة لأسفل الجبل من قبل . ثم حول كل انتباهه نحو الهيركيوليس .

كانت تطفو على النهر لسهولة . فقد كانت خزانات وقودها شبه فارغة . وعرف بأنه إن تركها ، فستظل طافية حتى تصل إلى الشلالات . استمر واقفا حتى تجاوزت نقطة سقوطها بحوالي ميلين ثم قام ، باستخدام المقص ، بقطع الأنابيب الهيدروليكية ومواسير الوقود الراقدة على سطح سقف العنبر . وسرعان ما تدفق خليط من زيت الهيدروليك والوقود وكون بركة صغيرة على سطح العنبر . وبعد أن اطمأن إلى أنه قام بكل ما يمكن عمله لصرف انتباه المطاردين عن جنوده وغنائمه ، وقف على حافة نافذة الطوارئ المفتوحة وأخرج من جيبه قنبلة فوسفورية ، كان قد أخذها من فرديناند ، ونزع فتيلها ثم تحدث بصوت عال مع الطائرة :

« شكرا أيتها العجوز ! لقد كنت ممتاز حقًا . وأقل ما يمكن أن أجازيك

به هو جنازة مثل جنازات الفايكنج . ألقى بالقنبلة متدحرجة على سطح العنبر ثم قفز من الشباك في الماء وأسرع سبحا نحو رفاقه ، يضرب الماء بذراعيه ورجليه بقوة ، وفي خياله تلك التماسيح السمينة السوداء التي شاهدها على السد الرملي.

ومن ورائه سمع الصوت المكتوم لإنفجار القنبلة ، لكنه لم يتوقف أو ينظر وراءه للحظة حتى شعر برمال الشاطئ تحت قدميه . وفي ذلك الوقت كانت الطائرة بعيدة في وسط النهر تحترق بشراسة رغم أنها لازالت طافية وكان الدخان الأسود للزيت المحترق يملأ السماء ، مرتفعا للأعلى، وقد حجب شمس الصباح .

خاض سين الياردات القليلة التي تفصله عن الشاطئ وزحف على يديه وركبتيه عندما تسلق الضفة العالية . وبينما كان جالسًا يلهث محاولاً التقاط أنفاسه سمع الصوت المعتاد والكريه لمحركات التيربو إيسوتروف قادمة نحوهم وبسرعة . وعلم أن دخان الهيركيوليس المحترقة قد قام بدور المنارة المرشدة للمروحيات ، والتي لابد أن تكون قد شاهدته على بعد عشرات الأميال منهم.

تناول سين حفنة من طين الشاطئ ومسح به وجهه وذراعيه وتسلل زاحفًا إلى أقرب أجمة وأخذ يراقب الهايند القادمة فوق الأشجار ، ثم دارت دورة واسعة حول الهيكل المحترق للهيركيوليس ، ثم ارتفعت فوقه لحوالي مائتي قدم وأخذت ترفرف بأجنحتها مثل الخفافيش مصاصة الدماء .

وصل اللهيب إلى أحد خزانات وقود الهيركيوليس مما أدى إلى انفجارها بقوة ، وتطاير أجزاءها الممزقة فوق النهر ، ثم سقوطها مطلقة عاصفة من بخار الماء من فوقها .

حلقت الهايند فوقها لبضع دقائق ، ربما تفتش عن ناجين ، ثم ارتفعت فجأة للسماء وتحولت بأنفها صوب الجنوب ثم اختفت كالنقطة السوداء عن صفحة الأفق . ووقف سين وخاطب نفسه : « مدى محدود وقدرة أقل على التحمل كما قال المرشد . توجه الآن إلى قاعدتك مثل أي روسي طيب ، وأبلغهم بأن الهدف قد دمر تماما أخبر بوبي موجابي بألا يقلق على صواريخه الثمينة من أن تقع في الأيدي الخطأ » .

ومد يده إلى جيبه وأخرج علبة السجار الهولندي الفاخر . تهرأت العلبة الورقية في يده من الاحتلال كما تفت السجارات التي فيها ، وتحولت إلى عجينة لينة ، فألقاها في النهار متنهدًا وقال : « حان الوقت لإبطال التدخين على كل حال » . ثم ذهب نحو رفاقه .

كان جوب مشغولاً بالجنديين الجريحين وقال له عندما شاهده قادمًا :

« هذا الشاب له طاقم بديع من الأضلع المكسورة ، وكذلك كسر عظم ترقوته » . انتهت جوب من لف الشريط الضاغط على الجندي ثم أشار إلى الجريح الثاني :

« تركت هذا لك » .

ـ شكرا على هذا التقدير .

انحنى سين على الجندي وتفحص الذراع المحطم وقال : « إنه كسر مركب مرعب » . كانت حوالي بوصتين من عظم العضد قد برزتا من تحت الجلد المليء بالقروح والدم المتجمد ، وبدأت أفواج من الذباب الأزرق تطن وتدور حول الدم ، وقام سين بطردها بعيدًا ثم سأل جوب :

ـ وماذا فعلت له حتى الآن ؟

ـ أعطيته جرعات من مخفف الألم كانت في صندوق الإسعاف .

ـ هذا المخفف للألم قد يصعق ثورًا . أعطني حبلاً من النايلون واثنين من أقوى الجنود .

كان ذراع الجريح قد أصبح قصيرًا بصورة مأساوية ، وكان على سين أن يعمل على التقاء طرفي العظم المحطم . ربط حبل النايلون حول رسغ الجريح وناول طرفه الآخر للجنديين القويين وأمرهما بالشنقانية :

« عندما آمركم بجذب الحبل : تجذبون . أهذا مفهوم ؟ . هيا يا جوب . عليك أن تمسك به بقوة » .

كانا في الماضي قد فعلا سويًا نفس الشيء ، وفي عديد من الحالات المماثلة كذلك . جلس جوب وراء الجريح وأدخل ذراعيه حول إبطي الجندي وأطبق عليه بقوة هائلة . ونبه سين الجريح بقوله :

« سيؤلمك ما سأقوم به » . لكن الجندي حدق في وجهه بجمود . وعندما استعد جوب تمامًا أمر سين الجنديين بجذب الحبل فجذبوه وهم مائلون للوراء . اتسعت عيون الجريح وتطاير العرق من جلده ، وصرخ في سين في وجه فردناند : « أجذب بقوة أكبر » وبدأت الذراع تعود لطولها المعتاد وانسحب طرف العظم البارز الحاد وتراجع داخل الجلد .

طحن الشنقاني أسنانه من فرط الألم ومحاولاً ألا يصرخ . وعندما التقى العظمان صدر منهما صوت كرفين الأكواب الزجاجية تسللت إلى أطراف أعصاب سين ، ورجع عظم الذراع إلى مكانه محدثًا صوتًا كالفرقعة وصاح سين : « كفى ! هذا طيب تمامًا » . وقام ببراعة بوضع قطعتين من خشب التجبير، كانا في صندوق الإسعافات ، على جانب الذراع ثم لفهما بشريط

جراحى لفًا محكمًا ، بدون أن يتجاوز في ضغطه الحد الذي يؤثر على جريان الدم ، ثم أوما لفرديناند :

« خفف قليلاً قليلاً من جذب الحبل » . قام فردنياند بإرخاء الحبل قليلاً ، وقامت الخشبتان بدورهما خير قيام وُمسكتا بالذراع في وضع مستقيم . وغمغم جوب مازحًا : « إنه فتح جديد في عالم الطب ! . عملية جراحية ناجحة رغم تعقيدها يا دكتور ! » . وسأل سين الجندي :

« هل تستطيع أن تمشي . أم نحملك حملاً للديار » . فرد عليه ساخطًا :

« طبعًا . سأمشي . أتظنني إمرأة ؟ » .

فابتسم سين في وجهه وقال له :

« إذا كنت امرأة لطلبنا فيك مهرًا غاليًا » . ثم التفت إلى جوب : « فلنبدأ بتفقد الغنائم » . كانت هي فرصتهما الأولى لفحص صناديق الهيركيوليس .

كانت هناك خمسة وثلاثين صندوقًا مكومة بغير نظام تحت الفروع المنتشرة لشجرة مهجوني ضخمة . وبمساعدة فرديناند وأربعة من رجاله بدأوا فرزها وإعادة رصها بانتظام بعد ملاحظة الكتابة المنقوشة عليها .

ثلاثة وثلاثون صندوقا ، وزن كل منهم ١٥٤ رطلاً ، كان مكتوبا عليها :

« نظام صاروخ ستنجر الموجه » .

« ١ ◆ مقبض يدوي + هوائي » .

« ١ ◆ جهاز إرسال واستقبال (المستجوب أو المستنطق) » .

« ٥ ◆ أنابيب إطلاق محشوة » .

وفي رأسه قام جوب بحسابات سريعة وقال :

« هذا يعطي تشاينا ١٦٥ قذيفة صاروخية ، وهناك فقط إحدى عشر مروحية تبقت بعد تدميرك للثانية عشرة . يبدو ذلك مناسبًا » .

علق سين على ذلك :

« بالطريقة التي يحارب بها هؤلاء الرجال ، فإنهم سيحتاجون لأي مقذوف منها » . ثم عبس وجهه بتشاؤم وقال : « حسنًا . حسنًا اقرأ العنوان التالي » . كان أحد الصندوقين الباقيين ذو شكل مختلف شاذ . وكان مطبوعًا عليه :

« نظام صاروخ ستنجر الموجه » .

« جهاز التدريب م (١٣٤) » .

« التدريب على تعقب الهدف » .

علق جوب على العناوين المطبوعة على الصندوق قائلاً : « سيجعل هذا من

حياة شخص ما شيئًا سهلاً ! » . هذه المراشد التي استلبوها تضمنت نظم التدريب الشاملة ، مما يتيح لأي معلم أن يراقب طريقة قيام المتدرب بتعقب الهدف ، وذلك من خلال منصة إطلاق الكترونية تحاكي المنصة الحقيقية المستخدمة في القتال . هذا الجهاز ذو قيمة غير محدودة لأي شخص يتولى تدريب الرينامو على استخدام تلك القذائف .

ولكن ، وحتى قام سين بفحص الصندوق الأخير ، الصغير الحجم ، اتضحت أمامه القيمة الحقيقية لهذا الكنز الثمين . فقد كان منقوشًا على الصندوق الخشبي الصغير :

« نظام صاروخ ستنجر الموجه » .

« تعديل نظام البرمجة لاستباق أي متغيرات مقدمًا » .

صفر سين بشفتيه وصاح : « يا للثالوث المقدس ! استباق المتغيرات مقدمًا ! هذا ليس نظامًا عاديًا أو جهازًا للحدائق ! » . وصاح جوب بانفعال أشد :

« دعنا نلقي عليه نظرة » .

تردد سين قليلاً ، وكأنه طفل متلهف لفتح هديته قبل حلول عيد ميلاده ، ونظر إلى السماء خوفًا من الهايند ، ومستغربًا كيف التقط هذه العادة العصبية من جنوده الشنقانيين . وقال :

« لأننا لن نجرؤ على التحرك قبل الظلام ، فإن لدينا وقتًا كافيًا للنظر للمحتويات » . ثم انحنى جانبًا وتناول السونكي من غمده المعلق على حزام فرديناند ، وبحذر قام بفتح غطاء الصندوق وأزاح شرائح (البولي يورثين) التي تغطي محتوياته . كان جهاز البرمجة مغلفًا بلفافة ثقيلة من البلاستيك بداخلها علبة . أزاح المزلاج وفتح العلبة . كان بداخلها عشرات من أسطوانات البرمجة ، كل منها بلون ورمز مختلف ، بداخل مظاريف شفافة مقاومة للرطوبة ، ومرصوصة بداخل فتحات مجهزة لهذا الغرض . وكان هذا ما قرأوه في المراشد التي سلبوها من ضابط المدفعية البريطاني كارليل .

تناول جوب المراشد ، بعد أن طلب منه سين ذلك ، وجلسا على الأرض وقلبا المجلد الضخم الذي يحتوي على الإرشادات وبحثا عن الجزء الخاص بالبرمجة المسبقة .

- ها هي ! نظام الهجوم على مروحيات الهايند . لون الأسطوانات أحمر . الرمز الكودي س /٤٢ / أ .

باستخدام نظام البرمجة المسبق يمكن أن تبرمج صواريخ ستنجر لمهاجمة مختلف الأهداف ، وذلك بتطبيق تكتيكات وترددات لاسلكية معينة خاصة بذلك الطراز من الطائرات . فببساطة ، وبعد إدخال الأسطوانة (الميكرو) في

خزانة منصة الإطلاق ، يتم توجيه الصاروخ ليعدل من أسلوب هجومه .

كان جوب يقرأ بصوت عال من المرشد ويتابع ذلك بإصبعه :

« أسطوانة نظام البرمجة س/٤٢/أ موجهة ضد مروحيات الهايند العسكرية يستخدم النظام (باحثًا) ذا لونين ، يمكنه التقاط انبعاثات كل من الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية الخارجة من الطائرات المستهدفة ، وعلى مرحلتين : ففي المرحلة الأولى للباحث يتم اشتباكه بالأشعة تحت الحمراء الخارجة من عادم محرك الطائرة :

« لكن كوابح العادم المركبة على هذه الطائرات تشتت وتخرج هذه الأشعة تحت الحمراء ، من خلال منافذ ثقيلة الدروع موجودة تحت جسم الطائرة. وقد أثبتت ضربات الصاروخ على هذا القسم من الهايند عدم جدواها »

،

« لذا فإن نظام س/٤٢/أ المعدل ، يقوم تلقائيًا بتحويل جهاز توجيه الصاروخ إلى (باحث) للأشعة فوق البنفسجية ، وذلك عندما تكون المسافة بين الصاروخ والهدف أقل من مائة متر . فالأشعة فوق البنفسجية تنطلق بصفة رئيسية من منافذ سحب الهواء لمحركات (الإيسوتوف تيربو ت ف ١١٧/٢) . وهذه المنطقة هي القسم الوحيد من جسم المروحية الذي لا تغطيه دروع التيتانيوم . وقد أثبتت التجارب أن الصواريخ التي تصيب منافذ دخول الهواء للمحرك تؤدي إلى تدمير كامل بنسبة ١٠٠٪ للطائرة » ،

« وللوصول إلى القدر الكلي من الأشعة فوق البنفسجية فيجب أن يتم إطلاق الصاروخ أمام مقدمة الطائرة وعلى بعد لا يتجاوز ألف متر ولا يقل عن مائة وخمسين مترًا ......» .

أقفل جوب المرشد وقال لسين :

« يا لخط تشاينا ! إنه سيحصل على ما لم يحلم به أبدًا » .

كان لديهم خمسة وثلاثين صندوقا ثقيلاً لحمله ، وعشرين رجلاً غير مصاب بمن فيهم سين وجوب . أخفى سين الصناديق التي اضطروا لتركها ، فسيرسل فيما بعد مجموعة من الجنود لإحضارها فور وصولهم لخطوط الرينامو.

وحملوا معهم ما استطاعوا حمله ، بما في ذلك جهاز التدريب وجهاز البرمجة المسبقة وأخذوا في السير ، بعد حلول الظلام ، على شاطئ نهر بنجوى ، آملين في الالتقاء أمامهم بالجبهة المتقدمة للرينامو . وواصلوا سيرهم بطول الليل .

لم يتمكن الطابور الطويل ، المثقل بأحمال صناديق الصواريخ ، من قطع أكثر من عشرين ميلاً عندما أشرقت شمس اليوم التالي . كان الطقس قد تغير وتحولت الرياح نحو الشرق مخلفة وراءها - حبًا منخفضة ورذاذًا باردًا من

الأمطار، يمكن أن تخفيهم عن أعين أي مروحيات قد تبحث عنهم . لذا واصلوا سيرهم أثناء النهار أيضا .

وعند الغسق سمح لهم سين بفسحة من الوقت يستروحون فيها لبضع ساعات. وألقى الرجال البائسون بأجسادهم المنهكة على الأرض الندية ، تحت رذاذ الأمطار ، حتى أيقظهم سين ثانية وعاودوا السير على الأرض الموصلة وهم ينزلقون على الطين ويلعنون الأحمال التي على ظهورهم . وبعد ساعة من شروق الشمس اختفت السحب بعيدًا وأخذ البخار يخرج من ملابسهم وهي تجف على أجسامهم .

وبعد ساعتين اصطدموا بالكمين :

فقد كانوا يسيرون على أرض سافانا خفيفة على طول شفة النهر ، وكانت أشجار السنط والكتر الشوكية تتبادل على الأرض مع تجمعات لحشائش الفيل الطويلة .

وسمع سين الصوت المعدني المميز للسلاح وهو يعمر في مدفع مكنة ، وقبل أن يستوعب في ذهنه ما سمع بالضبط ، كان قد انبطح على الأرض صارخًا لتحذير من معه من الشنقانيين . وعندما سقط على بطنه وكوعيه على الأرض الرملية رأى لمعان السلاح ، كأضواء الأشباح ، يبرق على صفحة الحشائش على بعد ثلاثين خطوة منه وجاءت زخة من الرصاص فوق رأسه جعلته يجفل ويطرف بعيونه .

تدحرج على يساره ليطيش تصويب المدفع ، وتناول بندقيته إي كي إم بيد واحدة ، وكأنها مسدس ، وأخذ يطلق النار أمامه بدون هدف ، حتى يربك المهاجمين ، وتناول من حزامه قنبلة يدوية .

كان على وشك إلقاء القنبلة عندما صاح فيردناند ، من خلفه ، باللغة البرتغالية متحديًا المهاجمين وسرعان ما هدأت النيران ثم سكتت . ومن فتحة بين أجمة حشيشة الفيل أمام سين ، أجاب صوت آخر على التحدي ، وسرعان ما أخذ فردناند يصيح باللغة الشنقانية : « أوقفوا إطلاق النار ! أوقفوا النار ! رينامو! رينامو » .

ساد صمت ثقيل يملؤه الشك بينما كان سين على استعداد ، ممسكًا بالبندقية بين والقنبلة بيد أخرى . فلقد شاهد في حياته العسكرية عددًا من الجنود الممتازين يساقون للموت عن طريق هدنة خادعة .

وجاءهم صوت من أمامهم مرددًا :

« رينامو ... أصدقاء » .

ناداهم سين بالشنقانية : « حسنًا . قفوا إن كنتم رينامو . دعنا نرى

وجوهكم الجميلة الصديقة» .

ضحك أحدهم وما لبث أن ظهر من بين الحشائش وجه أسود متهلل مرتديًا غطاء رأس الرينامو المموه بخطوط النمر ثم اختفى ثانية .

وبعد بضع ثوان ، وعندما لم يعد هناك مزيدًا من إطلاق النار ، وقف رجل آخر بحذر ثم رجل آخر . وقف رجال سين على أقدامهم وتقدموا للأمام ، ببطء أولاً وسلاحهم معمر وجاهز ، ثم التقوا جميعا على الأرض المكشوفة وهم يتصافحون ويضحكون ويربتون على ظهور بعضهم البعض . فلقد دخلوا في القسم الذي تسيطر عليه الكتيبة التي يقودها الميجر تاكلويرا . عرف الميجر سين في الحال وتصافحا بسرور متبادل :

« كولونيل كورتني ! كم أنا سعيد لرؤيتك حيًا ! لقد سمعنا في نشرة الأخبار من البي بي سي ، ومن راديو زمبابوي ، بأن طائرتك قد أسقطت وسط دوامة من النيران واللهب ، وبأنك وجميع رجالك قد قتلتم » .

دخل سين في الموضوع فورًا :

« ميجر تاكاويرا : إنني أحتاج لعونك . لقد خلفت ورائي عشرين صندوقًا من الصواريخ مخبأة هناك في الغابة . أريد منك أن ترسل مفرزة من مائة رجل لإحضارها هنا وسيقودهم أحد جنودي إلى المكان المخبأة به .

فأجابه تاكاويرا بتأكيد جازم :

« سأرسل أفضل رجالي وسأنتقيهم بنفسي » .

سأله سين :

« كم نبعد عن مركز قيادة الجنرال تشاينا ؟ » . أجابه : لقد اضطرته مروحيات فريليمو لأن ينسحب . ورئاسته الجديدة لا تبعد بأكثر من ستة أميال أعلى النهر . لقد تحدثت إليه في التو بالراديو . والجنرال في أشد اللهفة والشوق لرؤيتك » .

كان تقدمهم كمسيرة النصر . فقد ألهبت أخبار نجاحاتهم وسرت في خطوط الرينامو التي قابلوها في طريقهم لمركز القيادة . كان الرجل ، في بزات الرينامو ، يستديرون لتحيتهم ومصافحتهم وتربيت أكتافهم عندما يمرون بجوارهم ، وتسابق الحمالون لدفع صناديق الصواريخ على أكتافهم وكأنهم يحملون تابوت الرب ، وكأنهم كهنة ديانة قديمة . كانوا ينشدون أناشيد رينامو القتالية وهم يخبون في سيرهم ، والأحمال على ظهورهم ، شاعرين بالفخر يملأ جوانحهم .

كان الجنرال تشاينا واقفًا في انتظارهم لتحيتهم بنفسه ، أمام مدخل

مركز قيادته الجديد ، تحت الأرض ، وهو مرتديًا بزة رائعة مكوية ببراعة ومطرزة بالأوسمة والنياشين ، وغطاء رأسه مائل على جنب رأسه ومغطيًا إحدى عينيه ونادى سين مبتسمًا :

« كنت أعرف بأنك لن تخذلني يا كولونيل » . ولأول مرة ، منذ تعارفا ، شعر سين بأن ابتسامته كانت حقيقة وصادقة . لكنه رد عليه بفظاظة :

« لكننا فقدنا حوالي ثلاثين رجلاً تحت قيادة ألفونسو . لقد اضطررنا للتخلي عنهم » . ربت الجنرال تشاينا على كتف سين في حالة غير مسبوقة من حسن النوايا وقال له :

« لا ! لا يا كولونيل ! لقد انسحب ألفونسو وبسلاح ، ولم يفقد سوى ثلاثة رجال قبل وصولهم إلى إرسالية سانت ماري . لقد استلمت منه إشارة بالراديو قبل قليل وسيكونون معنا قبل مساء الغد على الأكثر . كانت كل العملية عبارة عن نجاح مذهل يا كولونيل » ثم سحب يده من كتف سين وقال له :

« والآن ، فلزي ماذا أحضرت لي معك » .

وضع الحمالون صناديقهم أمام قدميه . وبدا لسين ، وكأنه قيصر أسود يتسلم غنائم الحرب .

تهلل وجه تشاينا وقال : « افتحوها لي » . لم يتصور سين أبدًا مثل هذا الإنفعال الطفولي من رجل يتسم عادة بالتعالي والبرود . كان بالفعل يرقص طربًا ونشوة ويصفق بيديه ثم يمسح يدًا بأخرى وهو يراقب صغار الضباط في قيادة أركانه يستخدمون العتلات أو حراب بنادقهم في محاولة لنزع غطاء الصندوق الأول ، لكن الشريط الحديدي الذي كان يطوق الصندوق لم يستجب لمحاولاتهم المنفعلة .

لكن تشاينا لم يستطع تمالك نفسه في النهاية ، وقام بدفع الضباط بعيدًا ثم تناول عتلة من يد أحدهم وهجم على الصندوق بنفسه . كان العرق يتصبب بغزارة منه لفرط انفعاله وإجهاده عندما انزاح الشريط . وأخذ يتلقى التهاني وصرخات الإعجاب من معاونيه عندما أزاح الغطاء عن محتويات الصندوق .

كانت منصة إطلاق الإستنجر مجمعة وجاهزة ، وبداخل ماسورتها صاروخ ، بينما كان الجهاز المستنطق (الذي يحدد هل الهدف لعدو أم لصديق . وهو جهاز إرسال واستقبال لاسلكي) موضوعًا لوحده داخل علبة شفافة ، وجاهز للتوصيل في مقدمة خزانة المنصة ، بواسطة أسلاك كهربائية قصيرة ، هذا بالإضافة إلى أربعة مواسير إطلاق كل منها مشحون بصاروخ واحد ومحفوظة وسط نعافات البوليورثين البيضاء . بعد إطلاق الصاروخ يتم الإستغناء عن الماسورة واستبدالها بأخرى جديدة مشحونة بصاروخها الذي يزن ستة عشر رطلا.

وتدريجيا خفت الضحك والصراخ ، وتقدم ضباط الأركان للأمام وأخذوا يتفحصون محتويات الصندوق بحذر واضح ، وكأنهم اكتشفوا وكرًا للعقارب السامة تحت صخرة ويتوقعون في أي لحظة أن تلدغهم إحداها .

ركع الجنرال تشاينا على إحدى ركبتيه ، وباحترام أشبه بالتقديس قام بتناول المنصة من عشها.

أخذ ضباطه يراقبونه في انبهار عندما وضع السلاح على كتفه . امتدت ماسورة الصاروخ من خلفه ، وامتدت أمامه خزانة المنصة بهوائيها (الإيريال) ، وكأنها قارورة من البلاستيك مليئة باللبن ، وحجبت ملامح وجه تشاينا . حدق متأملاً في شاشة التصويب بالخزانة وأمسك بمقبض زناد الإطلاق .

صوب الإستنجر نحو السماء ، بينما ضباطه يتمتمون ويشجعونه بإعجاب شديد . وتفاخر تشاينا :

« لتأت (هنشوات) الفريليمو الآن وسنراها وهي تحترق » . ثم بدأ يقلد أصوات المروحيات وأصوات مدافع المكنة ، وكأنه يلعب مثل صبي صغير ، ويوجه الصاروخ نحو مروحيات هايند وهمية تصور إنها تحلق من فوقه وأخذ يصيح :

« باو ! باو ! ... فروم ! سويش ! بوم بوم ! » .

شارك سين في التمثيلية وصاح : « كا ! باو ! » وضج ضباط الأركان وهللوا فرحين وحاول كل منهم أن يتفوق على أقرانه بإطلاق مختلف الصيحات التي تحاكي إنفجار القذائف والمروحيات المحطمة عند ارتضامها بالأرض .

ثم بدأ واحد منهم في الإنشاد . وسرعان ما التقط الجميع عبارات اللازمة الغنائية وأخذوا يصفقون بأيديهم مرددين نشيد رينامو القتالي وهم يترنحون ويتمايلون ويضربون الأرض بأرجلهم .

اشترك في النشيد مائتي رجل ، وامتزجت أصواتهم في إنشاد إفريقي جميل شجي جعلت سين يقشعر وقد وقف شعر رأسه ومؤخرة عنقه . وقف الجنرال تشاينا وسط رجاله ، والصاروخ على كتفه ، وقاد كورس المنشدين . حلق صوته وعلا على أصوات الآخرين وأدهش سين بعمق صوته وصفائه الذي لا يقل في روعته عما في أي أوبرا عالمية .

انتهت الأنشودة بصيحة متحدية رهيبة : « رينامو ! » وأضاءت وجوههم السوداء بحماس بطولي متقد للفداء والتضحية .

وفكر سين : « بهذا المزاج فإن من الصعب هزيمتهم » . ثم ناول الجنرال تشاينا المنصة لأحد رجاله وأقبل على سين ليهز يده :

« أهنئك يا كولونيل ! » . كان جادًا وسعيدًا في نفس الوقت .

وأضاف : « أعتقد بأنك قد أنقذت قضيتنا العادلة من الدمار وأنا ممتن لك».

كان سين ساخرًا في رده على التحية :

« هذا حسن يا جنرال . لكنني لا أريد منك أن تخبرني كم أنت ممتن لي ، بل أريدك أن تريني ذلك بالفعل » .

تظاهر تشاينا بالتوبة وقال :

« بالطبع . اعذرني من فضلك . ففي غمرة انفعالي نسيت أن أخبرك أن هناك شخصًا ما في أشد الشوق لرؤيتك » .

أحس سين بتقلص في صدره وبانقطاع في نفسه وقال :

« أين هي ؟ » .

فأشار الجنرال تشاينا إلى مدخل مموه جيدًا لمنشئات تحت الأرض تغطيها الأشجار وقال :

« في مكتبي هناك » .

شق سين طريقه ، مستخدمًا كوعًا ويده ، وسط صفوف الجنود المنفعلين . وعندما بلغ باب المدخل ، لم يستطع السيطرة على نفسه وأخذ يقفز على درجات سلم المخبأ قفزًا .

كانت كلوديا في غرفة الراديو ، جالسة على كنبة ممتدة بطول الجدار البعيد ومن حولها جلست حارستاها . نطق باسمها عندما رآها ، فنهضت ببطء على قدميها وهي تحملق في وجهه وقد ابيض وجهها غير مصدقة بما تراه . كادت عظام وجناتها أن تخرج من خلال جلدها الأملس الشفاف وكانت عيناها واسعين وسوداوين كالليلة الحالكة .

وعندما عبر الردهة نحوها رأى سين العلامات التي على رسغيها ، شاحبة مزرقة مثل آثار الضرب ، وقد غطتها قشرة من الجلد الجاف واختلط الغضب في جوفه بفرحة لقائها .

أخذها بين ذراعيه . كانت نحيلة مثل طفلة . ولوهلة ظلت ساكنة في أحضانه ثم ما لبثت أن أحاطت عنقه بذراعيها وضمته إليها . دهش لقوتها رغم أنها ظلت ترتجف وتتشنج في نوبات متعاقبة وهي تضغط بوجهها على عنقه .

ظلا صامتين . لم يتحركا أو ينبسا لينت شفة لزمن طويل حتى إتبل قميص سين من دموعها وتوسل إليها :

« أرجوك لا تبكي يا حبيبتي » .

ثم رفع رأسها برقة بين يديه ومسح عيونها بإبهامي أصابعه . ابتسمت وهي تشرق بدموعها وقالت له :

« إنت فقط سعيدة جدًا الآن . لا يهمني شيء بعد ذلك طالما عدت أنت ثانية».

أمسك بيديها ورفعهما لشفتيه وأخذ يقبل القشور التي تكسو جروح رسغيها ، بينما غمغمت هي :

« لم تعد تؤلمني بعد الآن هذه القروح » . التفت سين خلفه ورأى الحارستين جالستين على الكنبة وقال لهن باللغة الشنقانية بصوت خافت :

« لقد ولدتكن أمهاتكن من الضباع النتنة آكلة البراز » . جفلن من الإساءة البالغة ، ثم صاح فيهن :

« أخرجن قبل أن أنزع مبايعتكن وأطعمها للصقور ! » .

اتقدت عيونهن بالشرر ورفعتا رأسيهما بتحد حتى أمسك سين بقبضة مسدسه . وهنا تحركتا بخفة وقفزتا من الأريكة باتجاه باب المخبأ .

التفت سين نحو كلوديا ثم قبلها لأول مرة منذ رآها اليوم وهمست كلوديا :

« عندما انتزعوا الأغلال من يدي وسمحوا لي بالاغتسال وغسيل ملابسي علمت بأنك في طريقك إلي » . كانت كلماتها معبرة تمامًا لمدى الوحشية والقسوة التي عوملت بها . لكن إجابة سين كانت أكثر مرارة :

« ذلك الوغد . أقسم لك أنني ، بطريقة ما ، سأسقيه من نفس الكأس المر الذي سقاكه . أقسم على ذلك » .

- لا يا سين . لم يعد هذا مهمًا بالمرة فلقد انتهي كل شيء ونحن معًا من جديد . وهذا هو كل ما يهمني .

لم تمر بضع دقائق إلا وقد عاد الجنرال تشاينا مندفعًا نحو غرفة الراديو التي كانا فيها وكان لا يزال مبتسمًا منفعلا .

ساق كلوديا وسين معه إلى مكتبه الخاص ولم يبد عليه إنه أعار أي اهتمام لما قابلا به ترحا به من تحفظ وبرود . جلسا بالقرب من بعضهما في مواجهة مكتبه وهما تمسكان بأيديهما ، غير متفتين لمزاحه ومداعبته لهما . وقام الجنرال تشاينا بإبلاغهما :

« لقد جهزت مأوى لكما . بل في الحقيقة قمت بإخلاء مخبأ أحد قادتي خصيصًا لكما وآمل أن يكون ملائمًا » .

- لكننا لا ننوي الإقامة طويلاً هنا يا جنرال بل أريد أن أكون في طريقي إلى الحدود ، ومعي الآنسة مونتيرو ، صباح الغد على أبعد تقدير .

- آه يا كولونيل . بالطبع أريد تقديم هذه الخدمة لك . فمن الآن فصاعدًا

اعتبر نفسك ضيفًا عزيزًا موقرًا فلقد نلت حريتك بجدارة . ولكن ، ولأسباب تتعلق بالعمليات العسكرية ، فإن تلك اللحظة السعيدة قد تتأجل قليلاً لبضعة أيام . فالفريليمو تتحرك بحشود ضخمة من الجنود نحونا.

أذعن سين على مضض وقال له :

« لا بأس من ذلك . ولكنني أتوقع في هذه الأثناء معاملة (خمس نجوم) . ثم إن الآنسة مونتيرو تحتاج لملابس جديدة بدلاً عن هذه الرقع المتهرئة » .

- سأرسل إلى غرفك أفضل ما لدينا من ملبوسات بمخازننا . لكنني لا أعدك أن تكون من تصميم كالفن كلاين أو جوتشي .

- ثم ، طالما نحن نتحدث عن هذا الموضوع ، فإنني أطلب تزويدي بعدد من الخدم للغسيل والنظافة والطبخ .

فأجابه تشاينا متخابثًا :

« بالطبع . فإنني لم أنس أصولك الإستعمارية ! . أحد رجالي كان يعمل كمساعد طباخ في فندق (برزدنت) بجوها نسبرج وهو يفهم تمامًا الذوق الأوروبي في الطعام » .

نهض سين وقال :

« سنتفقد مسكننا الآن » .

اقترح الجنرال تشاينا أن يرافقهما أحد ضباطه حتى المسكن وأضاف :

« إذا كنتما في حاجة لأي شيء آخر فارجو أن تطلبوه منه . لقد أصدرت تعليماتي الشخصية له بتقديم كل ما يمكن لتسهيل إقامتكما . وكما قلت لك من قبل فإنكم ضيوف ذوو مكانة وتقدير».

همست كلوديا لسين ، بينما الضابط يمشي أمامهما نحو المسكن :

« إن مرآه يصيبني بالذعر والكتابة ، ولا أدري متى يخيفني أكثر : هل عندما يكون متلطفا معنا أم عنيفا » .

وضع سين يده على كتفها ومضى معها في الهواء الطلق . ولكن ، ولسبب ما ، لم يكن لضوء الشمس ذلك الدفء الذي يتوقعه المرء . ورغم محاولته طمأنة كلوديا إلا أن برودة لقاء الجنرال تشاينا بقيت معها حتى تحت وطأة الشمس الإفريقية الدافئة .



كان المخبأ الذي قادهما الضابط إليه مقامًا على الغابة ويطل على النهر ولا يبعد بأكثر من ثلاثمائة ياردة من مركز قيادة الجنرال تشاينا . كان مدخله مغطى بشبكة تمويه قديمة ، لكنه كان محفورًا حديثًا تحت الأرض الصلبة

ذات الطين الأحمر المميز لشاطئ النهر . وعلق سيد عليه قائلاً :

« إنه جديد مما يعني إنه خال تماماً من جيوش القمل وبق الفراش وغيرها من الحشرات المنزلية » .

كانت جدران الطين رطبة باردة وكان المخبأ جيد التهوية بسبب الفتحات التي تفصل بين أعمدة السقف .

وكان الأثاث الوحيد الموجود عبارة عن طاولة وكرسيين من خشب الموبين بجوار أحد الجدران . ومقابل الجدار الآخر وضع فراش من خشب الموبين أيضاً عليه حشية من حشائش الفيل المنعمة جيداً مغطاة الملاءة من التيل الباهت اللون . لكن كان هناك نعمة أخرى وهي ناموسية جديدة معلقة فوق الفراش .

حضر الضابط المكلف بخدمتهم ومعه عدد من الخدم ووقتوا في صف أمام سيد وكلوديا . إثنان من أولاد المعسكر سيتولون النظافة والغسيل والكي وذلك تحت إشراف الشيف (الطباخ).

وكان الشيف شنقانياً هرمياً ، له إبتسامة تغطي وجهه وشعر أبيض كالثلج ، كما كانت له لحية ذكر ذلك كلوديا بسانتا كلوز أسود ، وأحباه توًا .

- الإسمي جويفل (لمبتهج) .

- إذن تتحدث الإنجليزية يا جويفل ؟

- والأفريكانية والبرتغالية ولغة الشونا و.... .

رفع سيد يديه ليوقفه وقال :

- كفى .. كفى . أتعرف الطبخ ؟

- إنني أفضل طباخ في موازمبيق .

ضحكت كلوديا وقالت :

- مبتهج ومتواضع !

حاول سيد مداعبته وإستفزازه :

- حسنًا يا جويفل . نريد الليلة (شاتوبريان) في العشاء .

بدا على جويفل الحزن وقال :

- آسف يا سيدي . ليس لدنيا شرائح من اللحم الليلة .

- حسنًا يا جويفل . فقط عليك إعداد أفضل ما تستطيعه للعشاء .

- سأخبركم عندما يكون جاهزًا يا سيدي ويا سيدتي .

- حسنًا . لا داعي للعجلة .

أرخى سيد الستارة على الباب إيذانًا بانصراف الخدم جميعًا .



كان الظلام يحيط بالمخبأ عندما سعل جويفل بأدب من وراء ستارة الباب ونادى :

- العشاء جاهز يا سيدي ويا سيدتي .

جلسا على مائدة الموبين تحت أضواء شمعة جلبها لهما جويفل ما مكان ما .

وأطلقت كلوديا صيحة فرحة عندما شاهدت ما أحضره جويفل لهما :

- يا إلهي ! لم أكن أعرف كم كنت جائعة .

كان العشاء مكونًا من كزرولة من الحمام السمين أحتوي وسط كومة من فطر عش الغراب ، وبجانبه أطباق من اليام والحساء وخبز الكسافا وفطائر الموز المحلاة . وأوضح لهم جويفل وهو يضع علبًا من جعة جنوب إفريقيا على الطاولة المزدحمة :

« أرسل الجنرال تشاينا هذه خصيصًا لكما » .

- جويفل . إنك ساحر !

أكلا في صمت وهما يبتسمان ، عبر المائدة ، لبعضهما البعض بين لقيمات الطعام . وأخيرًا تنهدت كلوديا بنعومة وقالت :

« لا أظنني سأمضي لأكثر من فراش النوم .. وليس أكثر » .



وعندما أحضر جويفل شاي الصباح لهما ، كان على الصينية دعوة مكتوبة من الجنرال تشاينا لتناول العشاء معه في ميس الضباط مساء ذلك اليوم.



بالنسبة ليه وكلوديا ، لم تكن ليلة العشاء بميس الضباط بذلك القدر من النجاح ، رغم ما بذله الجنررال تشاينا من جهد لتسليتهما والترفيه عنهما .

فلحم الجاموس الذي قدم لهما كان منتنًا وغير طري كما جعلت كميات البيرة الوافرة من ضباطه أكثر ميلاً للثرثرة والجدل ورفع الأصوات . وكان الطقس قد تغير ، وكان هواء المخبأ خانقا ، وإمتلأ الجو بسحائب دخان السجائر الرخيص المصنوع محليًا وبروائح عرق الرجال .

لم يتناول الجنرال تشاينا شيئًا من الشراب ، لكنه تربع على طرف المائدة متجاهلا الحوار الدائر والصراخ وطريقة إنقضاض جنوده على أطباق اللحم ، وبدلاً عن ذلك ، قام بلعب دور المضيف الشهم لكلوديا ودخل معها في نقاش

حاولت في البداية أن تتجنبه .

لم تكن كلوديا معتادة على تقاليد تناول الطعام في إفريقيا ولاحظت بدهشة العصيرة الغليظة وهي تغرف من وعاء ضخم ، وسط المائدة ، لتنتقل إلى أفواه الضباط بعد تكويرها باليد وغمسها في مرق الجاموس بالصلصة . كان المرق والدهن يسيل من بين أصابعهم ومن ذقونهم ولم يبذل أيًا منهم جهدًا ليخفف من حرارة النقاش أثناء تناول الطعام لذا كان الرذاذ ، وكميات ضئيلة من الطعام ، تتاثر من أفواههم عبر المائدة خاصة إذا ما ضحك أحد الضباط أو أبدى تعجبًا بصوت عال من أي شيء .

ورغم أنها كانت نصف جائعة إلا أنها لم تجد أي شهية للأكل . وأضاف الجهد الذي بذلته لمتابعة الحوار مع الجنرال تشاينا ، والإستماع لمحاضراته مزيدًا من فقدان الشهية لها . كان يقول لها :

« لقد قسمنا البلاد بأسرها إلى ثلاثة قطاعات حربية . فقائد المنطقة الشمالية هو الجنرال تاكاويرا دوس ألفيز . وهو مسؤول عن محافظات نياسا وكابودلقادو . أما في الجنوب ، فالقائد هو الجنرال تيبوتيب . وبالطبع فأنا المسئول عن جيش المحافظات الوسطى . وعلى رأسها مانيكا وسوفالا . ونحن جميعا نسيطر على خمسين في المائة من كل أراضي موازمبين بالإضافة إلى أربعين في المائة أخرى من البلاد مدمرة تمامًا وتطبق عليها سياسة الأرض المحروقة حتى نحرم مزيليمو نهائيًا من زراعة محاصيلهم الغذائية اللازمة لجنودهم أو المحاصيل النقدية اللازمة لتمويل مجهودهم الحربي ضدنا » .

نجح أخيرًا في جذب إهتمام كلوديا فقد جاءت نبرات صوتها حادة وغاضبة :

« إذن فإن التقارير التي تصلنا في الولايات المتحدة ، والتي تتحدث عن القطاعة والوحشية لحربكم هذه ، صحيحة . إن جنودكم يهاجمون ويمسحون من على وجه الأرض كل السكان المدنيين الذين كانوا يعيشون في الأرض المحروقة تلك » .

فأجابها تشاينا بابتسامة باردة كالثلج :

« لا يا آنسة مونتيرو . فإن الحقيقة الخاصة بأننا أبعدنا عن تلك الأرض المدمرة كافة السكان المدنيين هي للأسف صحيحة . لكن كل أعمال القتل، وكل المذابح والتعذيب ما قام بها إلا رجال الفريليمو بأنفسهم » .

فقالت كلوديا محتجة :

« لكنهم يمثلون حكومة مرازمبين الشرعية ، فلماذا يقومون بقتل مواطنيهم ؟

- إنني أوافقك على رأيك يا آنسة مونتيرو . فمن الصعب أحيانًا أن نعرف

ونتابع ما يجري في العقل الشيطاني الخبيث للماركسيين . فمن الواضح أن فريليمو ليست بقادرة على حكم موزامبين ، وليسوا بقادرين على توفير أي حماية للمواطنين المدنيين خارج المدن الكبرى ، ناهيك عن توفير خدمات الصحة والتعليم والعلاج والنقل والإتصال لهم . بالتالي فإنهم ، ولجذب إنتباه العالم بعيداً عن فشلهم التام لسياساتهم الإقتصادية ، والإبتعاد الشعب عنهم ، فقد وفروا للصحافة والإعلام الخارجي والعالمي (عيداً رومانيا) عن قصص المذابح والقتل والتعذيب والتي ألقوا فيها باللوم على مرتكبيها المزعومين من رينامو وجنوب إفريقيا . فمن الأسهل عليهم قتل المواطنين عند فشلهم في توفير الطعام والتعليم والخدمات لهم . وبالنسبة للماركسيين فإن إنجاح الدعاية ضد رينامو قد تساوى أرواح مليون نسمة في نظرهم » .

ـ أفهم إنك تعني بأن مذابحاً على نمط (الخمير روج) تمارس اليوم في موزامبين بواسطة القوات الحكومية ؟

كانت كلوديا مشدوهة مذعورة شاحبة الوجه ومبللة بالعرق وشديدة الضيق بالجو الخانق للميس ، وبحديث تشاينا المرعب ، ومحاولاته لتوضيح الأمور لها من وجهة نظره . وقال لها تشاينا :

« إنني لا أعني يا آنسة مونتيرو . إنني ببساطة أقدم لك الحقيقة الناصعة .

ـ لكن ... لكن على العالم أنْ يفعلَ شيئاً بالتأكيد .

ـ العالم لا يهمه أمرنا يا آنسة مونتيرو . لقد بقى علينا نحن في رينامو أن نقوم بإقتلاع النظام الماركسي من جذوره .

ـ لكن فريليمو هي الحكومة الشرعية المنتخبة .

هز الجنرال تشاينا رأسه وقال :

« لا يا آنسة مونتيرو . فالقليل جداً من الحكومات الإفريقية هي المنتخبة فعلاً . لم تحدث أي إنتخابات في تاريخ موزمبيق أو أنجولا أو تنزانيا أو أي دولة من دول إفريقيا الإشتراكية . فاللعبة الإفريقية هي في أن تتسلم السلطة ثم تتشبث بها بكل قواك ومهما بلغت التكلفة . فالنموذج الإفريقي للدولة يبدأ في القفز لملئ الفراغ الناجم عن إنسحاب المستعمر ، ثم تتخندق وراء متراس من بنادق إي كي ٤٧ الهجومية . بعد ذلك يتم الإعلان عن حزب قائد واحد يتولى زمام السلطة ، ومن ثم يتم أبعاد أي شكل من أشكال المعارضة وقمعها ، ثم ينتهي الأمر بإعلان الدكتاتور رئيساً مدى الحياة » .

رفعت كلوديا صوتها ليعلو على صوت زئير النقاش الدائر حول طاولة الطعام وقالت :

« أخبرني يا جنرال تشاينا : إذا قدر لجهودكم العسكرية النجاح يوماً ما ،

وتمت أنت وزملاءك الجنرالات باستئصال فريليمو ، وصرتم القادة الجدد لهذه البلاد . هل تسمحون لبعدها بقيام الإنتخابات الحرة وإنشاء نظام ديمقراطيي تعددي بالفعل ؟ » .

حدق تشاينا لوهلة في وجهها بدهشة شديدة ثم ضحك مبتهجًا جزلاً وقال لها :

« يا عزيزتي الغالية الآنسة مونتيرو : إن إيمانك الطفولي بخرافة (الإنسانية الفاضلة) مؤثر جدًا . إنني بالتأكيد لم أحارب هذه الحرب الضروس والطويلة لإستلام السلطة ، لأقوم بتسليمها لحفنة من الفلاحين الجهلاء . لا يا آنسة مونتيرو . عندما نتسلم السلطة فستظل باقية في أيدينا .....» ثم مد يده الطويلة الأنيقة رافعًا لها وقد إرتفع باطن يده القرمزي وإمتد نحوها وقال : « في هذه الأيدي ! » .

إحمرت وجنتا كلوديا من الغضب الملتهب ولم تتردد في القول :

« إنك إذن لست أقل سوءًا عما تقوله عن الآخرين » . هذا الرجل هو الذي قيد يديها وسجنها في تلك الحفرة القذرة . إنها تكرهه بكل قوتها ..... ورد عليها تشاينا :

« أعتقد إنك بدأت تفهمين أخيرًا . ففي إفريقيا لا يوجد أناس طيبون ولا أناس أشرار . هنا فقط يوجد ، وببساطة ، الخاسرون ثم الكاسبون » . إبتسم لها مرة أخرى وأضاف :

« لكنني أؤكد لك يا آنسة مونتيرو إنني لا أنوي إلا لأكون من الكاسبين» .

التفت الجنرال تشاينا عنها عندما دخل أحد ضباط الإشارة ، من خلال باب المخبأ المنخفض ، وأسرع نحوه . حياه معتذرًا وسلمه مظروفًا أصفر اللون . قرأ تشاينا الرسالة من غير أن يبدو على وجهه أي تعبير ثم نظر إلى ضيوفه :

« أرجو المعذرة لبضع دقائق » . وضع البيريه على إحدى عينيه بالزاوية المناسبة ثم نهض ومضى خلف الأشرجي خارج المخبأ .

وفي اللحظة التي إختفى فيها ، قالت كلوديا عبر الطاولة نحو سين :

« ألا يمكننا الخروج من هنا الآن ؟ . لا أظنني قادرة على تحمل لحظة واحدة أخرى . يا إلهي ! كم أكره هذا الرجل » .

فقال سين لها بصوت خفيض :

« لا يبدو أن تقاليد الميس صارمة للغاية . إذا خرجنا فلا أظن أن أحدًا قد يغضب » .

وعندما توجها نحو الباب خلفا وراءهما دوامة سكرى من مواء القطط والصفافير وصعدا السلم شاعرين بالإرتياح الشديد .

برج جو المساء . وتنفست كلوديا بامتنان في الهواء الطلق وقالت لسين : « لا أدري أيهما كان خانقًا أكثر : جو الميس أم الحوار » . وشهقت الهواء ثانية بعمق وقالت : « لم أتوقع أبدا أن تكون إفريقيا بهذه الصورة . كل شيء مختلط وكل شيء غير منطقي . لقد إنقلبت أفكاري عنها راسًا على عقب » .

فسألها سين :

« لكنها مثيرة حقًا . أليس كذلك ؟ » .

- مثيرة مثل كابوس ثقيل . إنني ذاهبة للنوم ، فعل الأقل هو الشيء الحقيقي الذي أو من به هنا.

توجها نحو المأوى المخصص لهما . لكن صوت الجنرال تشاينا أوقفهما :

« أأنتما مغادران بهذه السرعة ؟ » . ومن خلال الظلام جاء الجنرال بخطى سريعة رشيقة نحوهما وقال :

« إنني أخشى أن أخبركما بأنباء مخيبة للآمال . لكما الإثنان » .

أجابه سين ببرود :

« هي إنك لن تسمح لنا بالرحيل . لقد تراجعت عن الإتفاق الذي بيننا . لقد كنت أعرف أن هذا ما سيحدث لنا » .

فأكد تشاينا له بنعومة :

« إستجدت، ظروف خاررجة عن إرادتي . لقد إستلمت للتو إشارة من الرقيب ألفونسو . أنتي تعلم بأنني كنت أتوقع وصوله حضرا المساء وكان من المقرر أن يقوم هو ورجاله وتوصيلكم سالمين حتى الحدود . عمومًا فإنني ...... » . لكن سين قطع عليه حديثه مزمجرًا :

« حسنًا . فلنستمع لحديثك . ماذا أعددت لنا من خطط جديدة وألاعيب ؟ » .

تجاهل الجنرال تشاينا الإساءة واللهجة التي قيلت بها وقال :

« أفادنا الرقيب ألفونسو بأن هناك حشدًا ضخمًا للعدو على الغرب من خطوطنا . ويبدو أن فريليمو ، معتمدة على مروحياتها الهانيد ، قد تشجعت وصممت على القيام بهجوم شامل علينا ، وبدعم قوي من فصائل زمبابوية . ربما نكون الآن قد فصلنا تمامًا من حدود زمبابوي . وكل الأراضي بيننا ، والتي كانت تحت سيطرتنا حتى وقت قريب ، يبدو أنها قد تم إجتياحها بواسطة قوات العدو المتقدمة . وفي خلال ساعات ستكون تلك المناطق ساحات للقتال . وحتى الآن فإن الرقيب ألفونسو يشق طريقه نحونا بالرصاص وقد حدثت له

بعض الخسائر . إنني أخشى عليك يا كولونيل من التوجه إلى هناك فسيكون ذلك إنتحارًا إذا ما حاولت الوصول لحدود . لذا فلا مفر من أن تكون تحت حمايتي الشخصية من الآن وحتى إشعار آخر » .

لم يتأثر سين بل سأله بشراسة :

« بحق الجحيم ماذا تريد منا ؟ إنك تخطط لشيء ما وأكاد أشم رائحته النتنة . ما هو ؟ » .

إبتسم تشاينا ببرود وقال :

« يؤسفني أن أقول لك إن عدم ثقتك في تصرفاتي هو أمر محزن للغاية . وعمومًا أقول لك أنه كلما تم الإسراع في تدمير مروحيات الهانيد ، كلما إنهار هجوم الفريليمو علينا . ومن ثم تعود أنت والآنسة مونتيرو إلى العالم المتحضر... » .

- إنني منصت لك .

- إنك الشخص الوحيد ، أنت والكابتن جوب ، الذي يفهم الغستتجر . وفي هذا تلتقي مصالحنا . أريد منك أن تقوم بتدريب مجموعة مختارة من رجالي للتعامل مع الإستتجر .

حملق سين في وجهه وسأله :

- أهذا كل ما تريد ؟ ندرب رجالك على استخدام الإستتجر ثم تطلق سراحنا ؟

- بالضبط .

- وكيف أعرف إنك لن تخرج بخطط جديدة تجاهنا ؟

- إنك تجرحني يا كولونيل !

- ليس بالقدر الذي أريده .

- إتفقنا إذن . ستقوم بتدريب رجالي . وفي المقابل سأقوم بتوصيلك إلى الحدود تحت حراسة قوية ، وفي أقرب فرصة .

- ليس لدينا خيار آخر .

- إنني سعيد لتعقلك يا كولونيل . فهذا يجعل الحياة سهلة لنا جميعًا .

ثم عاد صوته جادًا صارمًا كرجل أعمال :

« علينا أن نبدأ حالاً » فأجابه سين :

« عليك أن تدع رجالك يرتاحون قليلاً . وسأبدأ صباح الغد ، وسأقوم بتدريب الشنقانيين الذين بإمرة فردنانه وألفونسو ، هذا إذا ما شق ألفونسو طريقه عبر الفريليمو بسلام » .

أراد تشاينا أن يعرف المزيد فسأله :

« كم سيستغرق ذلك من الوقت ؟ فمن الآن فصاعداً ستكون أي دقيقة هامة جداً لبقائنا » .

- إنهم فتية أذكياء ومتحمسون وسأستطيع أن أقوم بشيء معهم خلال إسبوع.

- هذا وقت طويل لن يتاح لنا .

- سأعمل على أن تكون الصواريخ جاهزة للمعركة بأسرع ما أستطيعه . أرجوك أن تصدقني يا جنرال فإنني لا أريد البقاء هنا ولو لدقيقة واحدة بعد تنفيذ مهمتي . والآن طاب مساؤك .

تناول ذراع كلوديا وتوجه نحو مخبئه . وهمست كلوديا :

« أوه يا سين . ينتابني إحساس داخلي بأننا وقعنا في مأزق ولن نستطيع معه الخروج من هنا » . لكن سين ضغط على ذراعها ليوقف حديثها وقال لها آمرا بصوت خافت :

« انظري من فوق رأسك . ماذا ترين ؟ » .

- النجوم ؟ أهذا ما تريدني أن أنظر إليه ؟

- نعم . النجوم .

بدت السماء مرصعة بالنجوم وكأن براعة عملاقة قد سحقت وتناثرت أشلاؤها اللامعة وطرزت قبة السماء . وأوضح سيد لها الأمر برفق :

- إنها تهدئ النفس .

تنفست بعمق ولطف وقالت لها :

« نعم يا حبيبي . فالليلة لنا ولندع الغد يهتم بشئونه » .

كانت تشعر بالأمان والقوة تحت الناموسية التي تغطي فراشها الذي كانت حشيته مملوءة بالعشب والحشائش الناعمة ولم تعد تهتم بالغطاء الخشن من النيل على جسمها .

واستيقظت فجأة عندما أحست بتوتر مفاجئ إنتاب سين . وفي الحال وضع يده على فمها محذراً إياها لتلوذ بالصمت . ظلت متثلجة في الظلام لا تجرؤ على التنفس أو القيام بأي حركة ثم سمعت الصوت . خربشة ضعيفة على باب المخبأ ثم إنزاحت الستارة جانباً وتسلل منها أحد الحيوانات .

تسارع نفسها وعضت شفتها حتى لا تشهق بصوت مرتفع وسمعت ذلك الشيء يتجه نحو السرير . كانت مخالبه ناعمة لا تحدث صوتاً ما عدا صوت

المتسلل الخفي ووقع أقدامه الخافت على الأرض . ثم شمت رائحته . رائحة الحيوان آكل اللحوم وأرادت أن تصرخ . بجوارها تحرك سين فجأة وبسرعة كأنه ثعبان سيلدغ ومد يده خلال الناموسية ثم سمعت صيحة حادة ومقاومة سريعة للشيء وحاولت أن تزحف لتهرب من هذا الشيء المعتدي . لكنها سمعت صوت سين عابسًا غاضبًا :

« أمسكت بك أيها الشحاذ الضئيل . لا تعتقد إنك تتسلل نحوي مرتين ثم تنجو بجلدك . قل لي مرة أخرى بانني عجوز وسأحطم رأسك » .

ضحك متاتو وكأنه جرو أمسكوه من قفاه وقال :

« ستكون دائمًا شابًا وجميلاً وللأبد يا سيدي البوانا » .

وسأله سين جادًا :

« وأين كنت طوال هذه المدة ؟ وما الذي أخرك . هل قابلت فتاة حسناء على الطريق ؟ » .

ضحك متاتو مرةٍ أخرى . كان يحب أن يتهمه سين بأنه مغازل وله غزوات نسائية . وتباهى قائلاً :

« لقد وجدت أعشاش الهنشاو ، بنفس الطريقة التي أعرف بها أين تقع خلايا النحل . لقد راقبت طيرانها قبالة الشمس وتتبعتها حتى مكانها السري » جذبه سين نحوه وهز ذراعه برفق وأمره :

« صفه لي » .

وفي الظلام تربع متاتو على الأرض وحشر إزاره بين رجليه وأخذ يسعل ويغمغم بشعور شديد بأهميته وقال :

« هناك جبل مستدير شكله كراس الرجل الأصلع . على أحد جوانب الجبل يمر خط الإنعمبي (السكة الحديد) وعلى الجانب الآخر الطريق . وهناك عدد كبير من الأسكاري (العساكر) حول الجبل ومعهم باندوكي (مدافع) ضخمة مخبأة في حفر بالأرض » .

بدأ سين يكون فكرة صحيحة عن الجبل المليء بالجنود والسلاح عندما كان متاتو يواصل وصفه له . فوراء خطوط الدفاع الخارجية كانت طائرات الهايند العسكرية تحط على مواضع متفرقة ومحاطة بأكياس الرمل . ومثلها مثل دبابات القتال داخل تحصيناتها ، فإنها ستكون غير قابلة للإختراق وما عليها إلا أن تنهض ثم تحلق لبضع أقدام فوق الأرض لتكون جاهزة لإطلاق مدافعها الجاتلنج الكاسحة وصواريخها المدمرة :

« وبداخل الدوائر التي تحط بها الهنشاو ، فهناك كثير من التاكر

الواقفة، ورجال بيض في ملابس خضراء يصعدون إلى الهنشاو وينظرون إليها من الداخل بإستمرار » . وإستمر متاتو يصف الورش المتحركة وتناكر الوقود ومجاميع الميكانيكيين والفنيين الروس الذين يعملون على أن تكون المروحيات جاهزة دائمًا للعمليات . وحقًا ، كما أشارت المراشد ، فإن طائرات الهلايند لها متطلبات مبالغ فيها من الخدمات والصيانة المستمرة والإحتياجات ، بينما محركات الإيسوتوف تيربو الضخمة بها تشرب الوقود شربًا . وسأله سين :

« متاتو . هل رأيت تناكر جاثمة على الخط الحديدي بجوار الجبل ؟ » .

« نعم رأيتهم ! تلك التناكر الضخمة المستديرة المليئة بالبيرة ؟ لابد أن يكون أولئك الرجال الذين يصعدون في الهنشاو دائمي العطش ! » .

فقبل بضع سنوات ، وفي إحدى زياراته النادرة للمدينة مع سين ، رأى متاتو تانكرًا ضخمًا يفرغ حمولته من البيرة في أحد مراكز توزيع الجعة بهراري . تأثر بشدة لهذا المنظر المثير لدرجة إنه ، ومنذ ذلك اليوم ، إقتنع تمامًا بأن أي تانكر، ومهما كان نوعه أو حجمه ، لا يحتوي إلا على البيرة فقط ، ولم يستطع سين تغيير رأيه هذا أبدًا مثلما لم يقتنع متاتو بأن كثيرًا منها لا تحمل سوى سوائل أخرى كالجازولين والبنزين . وكان دائمًا يحملق بأسى نحو أي تانكر يراه على الطريق .

إبتسم سين في الظلام من قناعات متاتو الراسخة التي لا تتغير . وعلم من سياق الحديث أن من الواضح أن وقود الطائرات يتم إحضاره سائبًا في تناكر ضخمة من هراري ثم يتم تفريغه في أوعية أصغر حجمًا وترحيله . ومن المفارقات أن ذلك الوقود كان يجلبب من جنوب إفريقيا . وعلى كل حال ، فإذا ما كان الروس يحتفظون بالوقود في مهابط الطائرات ، الهايند فلا شك أنهم يرتكبون خطأ جسيمًا . وهذا شيء يجب على سين تذكره .

ظل متاتو بجوار السرير لمدة تزيد على الساعة ، تمكن سين في أثنائها من استخلاص أي معلومة ممكنة عن ملاجئ الطائرات . كان متاتو متأكدًا من وجود أحد عشر طائرة بالقاعدة ، وهذا ما توافق مع تقديرات سين ، حيث كانت إحداها قد دمرت ، عند إصطدام الهيركبوليس بها ، من بين الإثنتي عشرة طائرة التي تكون سرب الهالين .

أيضًا كان متاتو يؤكد بأن تسعة فقط من بين تلك الطائرات كانت عاملة بالفعل . فعندما كان مختبئًا وراء تلة صغيرة قريبة من القاعدة ، أخذ في ملاحظة الطائرات التي تقلع من ملجئها في الفجر ، ثم تعود لتتزود بالوقود أثناء النهار ، ثم تلجأ لعشها في المساء . كان سين يعرف أن باستطاعة متاتو أن يعد حتى عشرين بدقة ، ولكن بعد ذلك يصيبه الغموض ولا يقدر على حساب أي

عدد أكبر من ذلك إلا بوصفه بأن (كثير) ، أو (بقدر أكبر) ، أو أخيرًا ، للأرقام الأكبر ، (مثل الأعشاب على سهول سيرنجتي) .

لذا كان سين متأكدًا الآن بأن طائرتين منهما معطلتان ، ربما في إنتظار قطع الغيار . وقبل رقم متاتو الذي أورده ، بأن تسعة طائرات هايند هي التي تشترك في العمليات ، وإنها لا تزال قوة يخشى بأسها وكافية لقلب كفة ميزان الحرب لغير صالح رينامو ، إلا إذا ما تم ، وبسرعة إخراجها من المعركة .

وعندما إنتهى متاتو أخيرًا من إعطائه كل التفاصيل سأل سين :

« والآن ، يا سيدي البوانا ، ماذا تريد مني أن أعمل ؟ » .

فكر سين في صمت وقلب الأمر في رأسه . لم يكن هناك سببٌ بعد الآن يدعوه لعدم إخراج متاتو من مخبئه في الغابة أو لعدم السماح له بالإنضمام للفصيل من الشنقاني الذي سيدريه ، وليعمل كقصاص للأثر معه . لكنه وأخيرًا وجد إن من التعقل ، في الوقت الراهن على الأقل ، إخفاء متاتو عن أعين الجنرال تشاينا الباردة ونظرة الزواحف إلتي تتسم بها . وقال له باللغة الإنجليزية:

« إنك كرتي الرابع يا متاتو » . ثم بالسواحيلية : « أريدك أن تبقى بعيدًا عن الأنظار . لا تدع أحدًا يراك هنا ، سواي وسوى جوب » .

- سمعًا وطاعة يا بوانا .

- تعال إلى كل ليلة كما فعلت هذا المساء . سأجهز طعامًا لك ، ومن ثم سأخبرك بما تقوم به . أما في الوقت الراهن فافتح عينيك جيدًا وأخبرني بكل ما تراه .

تسلل متاتو في صمت لخارج المخبأ ولم يسمعوا إلا هفيف الستارة على الباب وهي تتزاح عند خروجه . وسألت كلوديا بهمس :

« هل سيكون على ما يرام ؟ إنني قلقة عليه . إنه ذكي وفاتن حقًا » .

وفي الظلام إبتسم سين بحب جارف وراء الرجل الضئيل وقال لها :

« من بيننا جميعًا فهو غالبًا الوحيد الذي يستطيع البقاء و لعيش » .



كان الظلام مخيما عندما نزع سين البطانية عن جوب فجر اليوم التالي وقال له :

« لدينا عمل نقوم به » . وبينما كان جوب يشد رباط حذائه شرح له سين لقاءه بالجنرال تشاينا . ضحك جوب وقال :

« تقصد أننا أصبحنا الآن مدربين . كل ما نعرفه عن هذه الإستنجر هو الذي قرأناه في المراشد » . لكن سين أوضح له :

« لابد من التغيير . فكلما أسرعنا بتأهيل الشنقاني عليها كلما أسرع بالخروج من هنا » . رفع جوب أحد حواجبه متسائلاً وقد بدا عليه الشك : « هل هذا كل ما أخبرك به تشاينا ؟ » .

تملص سين عن الإجابة ليخفي هواجسه وظنونه :

« لنبدأ بتهيئه فردنان وصبيانه . سنبدأ بفرزهم وتقسيمهم إلى أيتام مكونة من فردين . واحد للعمل في منصة الإطلاق والثاني لحمل ومناولة الصواريخ . وبالطبع فإن على الرجل الثاني أن يكون أيضًا مدربًا للحلول محل الأول إذا ما سقط » .

تناول سين النوتة من جيبه ، وقرب اللمبة إليه ، وأخذ يسجل بعض الملاحظات تحت ضوئها الضعيف . حشا جوب قميصه بداخل بنطلونه المخطط كجلد النمر وسأله :

- متى تتوقع حضور ألفونسو إلى هنا ؟

- خلال هذا اليوم .. إذا ما وصل .

- إنه أفضل من بالمجموعة .

- فردنيانه ليس سيئًا .

وضع سين أسميهما على رأس قادة الأقسام وقال :

- تحتاج لثلاثين إسمًا للرجل الأول . ساعدني .

كانوا كعادتهم في الأيام الخوالي . يعملان معًا بهذه الطريقة . وشعر سين إنه قد بدأ يستمتع بما يقوم به .

وعندما بدأ ضياء الصباح يطل ، قاما باستعراض الرجال الذين اشتركوا في عملية فراند ريف ، والذين رافقوهم على الهيركبوليس . وبإستبعاد الجنديين المصابين بقي الوحدة الأصلية ثمانية عشر رجلا تحت قيادة فردناند .

وعلى الفور قام سين بترقية فردناند ترقية ميدانية لرتبة الرقيب الأصيل .

وقد كوفئ سين على ذلك الإجراء بإبتسامة عريضة وتحية عسكرية داوية ، كادت أن تنتزع فردنياند من على الأرض لشدة حماسه وإنفعاله .

كان على سين أن يجد شيئًا يشغل به الجنود ويبعدهم عنه مؤقتًا حتى يقوم هو وجوب بدراسة نظم تشغيل الإستنجر وإستيعابها .

ونادى سين فردناند برتبته الجديدة لأول مرة :

« سيرجنت ! هل ترى ذلك الجبل هناك ؟ خذ الرجل جريًا إليه ودوروا من حوله ثم عودوا إلى هنا في ظرف ساعتين » .

بالكاد كان الجبل يرى من خلال الأشجار وقد ظلله بعد المسافة بلون أزرق. وعندما كان يراقبان الجنود وهم يستديرون ويشرعون في الجري ، قال سين :

« إذا لم يصل ألفونسو وجماعته حتى هذا المساء فإن علينا أن نجد بديلاً لهم. لكن هذه ليست مشكلة عمومًا ، فإن تشاينا سيكون حريصًا على إمدادنا بأفضل رجاله . فحاليًا نحن على رأس قائمة الذين لا يدخر وسعًا لإرضائهم » . تدخل جوب مكملاً :

« وفي الوقت الراهن علينا أن نضرب في هذه المراشد بشدة وسرعة فأنا لم أذاكر منذ أيام الجامعة ولست معتادًا على ذلك » .

انضمت كلوديا إليهما من الخندق ، وساعدتهم على فرز المراشد ونزع الأغلفة البلاستيكية الحمراء عنها ، وتحديد المعلومات التي يحتاجون لها حاليًا ، وإبعاد الكميات الهائلة من المعلومات والإحصائيات الفنية التي لا يحتاجون إليها ، بما في ذلك تقارير العمليات والتعليمات التي لا يناسب تطبيقها ظروف تضاريس هذه المناطق ولا شكل الأرض فيها . وبعد ساعتين تمكنوا من تقليص الكم الهائل من المعلومات إلى مجلد صغير واحد يمكن لهم التعامل معه بكفاءة وسرعة .

ووقف سين وقال :

« حسنًا . علينا البحث عن مكان مناسب للتدريب » .

على بعد بضع مئات الأمتار أسفل النهر وجدوا موقعًا مناسبًا ، حيث كان جانب لأحد المرتفعات بشكل مدرجًا مناسبًا للمحاضرات . كانت أشجار المهوجني النهرية الضخمة تنشر فروعها وأغصانها المورقة على المدرج مما يوفر حماية له من غارات الهايند المفاجئة . وعندما عاد فردناند ورجاله يسبحون في عرقهم بعد ذلك الجهد وجههم سين فورًا لنظافة مدرج التدريب من الشجيرات والشوك ، بالإضافة إلى حفر خنادق مؤقتة قد يلجأون إليها إذا قطعت عليهم الغارات محاضراتهم . ثم إلتفت نحو كلوديا وجوب-قائلاً :

« يمكننا الآن فتح الصندوق الخاص بالتدريب ، وصندوق آخر للمنصة . ومن الآن فصاعدًا علينا أن « ننظر ونتعلم) ثم (اشرح لنا وأخبرنا) » .

وعند فتح الصندوق الأول إكتشف سين أن البطارية لم تكن مشحونة . لكن كان حل صندوق يحتوي على جهاز شحن صغير بكامل توصيلاته ومحولاته .

وتحت إشراف جوب ، قام فردناند ورجاله بأخذ البطاريات إلى الرئاسة وإلى غرفة الإتصال ، وبتعليمات من الجنرال تشاينا تم إعطاءهم الأسبقية لإستخدام

المولد الكهربائي المتحرك ، ٢٢٠ فولت بقوة ١٥ كيلو اط . قام سين بتوصيل البطاريات ، كل خمسة على حدة ، ووجد أنه يحتاج لأربعة وعشرين ساعة : حتى يوفر الطاقة الكهربائية لكل منصات الصواريخ .

وبينما البطاريات تحت الشحن قاموا بنصب منصة التدريب ، وأحد قاذفات الصواريخ ، على أرض مرتفعة ومسطحة كالطاولة ، قام فرديناند بتجهيزها على جزء من المدرج ، وتحت ظلال الأشجار . وبدأت كلوديا تقرأ بصوت عال من مرشد التدريب ، بينما جوب وسين يفضون الأغلفة ويركبون المعدات ويكررون ذلك حتى إعتادوا عليها تمامًا .

ازداد سرور سين عندما اكتشف أن تشغيل القاذفات ، مع إستثناء جهاز (البحث عن العدو من الصديق) ، كان لا يزيد تعقيدًا عن تشغيل صواريخ آر بي جي ٧ التقليدية . كانت صواريخ آر بي جي ٧ جزءًا هامًا من ترسانة الثوار العسكرية ، وكما علق جوب ، فإن أي جندي من رجال تشاينا يمكنه أن يعبئ ذلك الصاروخ ويطلقه ، حتى وسط الظلام الحالك وفي ليلة مطيرة ووسط العواصف الرعدية .

وأوضح سين لرفاقه :

« عمومًا لن نحتاج لجهاز (البحث عن الصديق من العدو) في مثل ظروفنا . فأي شيء طائر هنا في هذه السماوات ، بخلاف الطيور والصقور ، هو عدو » .

ذلك الجهاز (للبحث عن العدو من الصديق) هو نظام الكتروني (يستجوب) الهدف ويعرف ، بعد إستقبال رد الفعل اللاسلكي من الطائرة المحلقة ، إن كانت عدوة أم صديقة ، وبالتالي يوقف إنطلاق الصاروخ على الطائرة الصديقة.

وجدت كلوديا القسم الخاص بهذا الجهاز في المرشد الشامل الذي جمعوه . ولمحت إرشاداتها تم نزع ذلك الجهاز من القاذفات وبالتالي تحول الإستجر إلى سلاح ناري حر يصيب أي طائرة في السماء يطلق عليها .

لكن أسلوب التصويب للصاروخ ، بعد نزع جهاز البحث عن العدو أم الصديق ، سيكون على خط مستقيم ، حيث يتم إلتقاط الهدف على شاشة صغيرة ملحقة بجهاز التصويب ، ثم يتم إبطال جهاز التأمين من مسدس الإطلاق بالإبهام الأيمن . وبعد ذلك يتم توصيل (جهاز التشغيل الأوتوماتيكي) بإنزال لسان ملحق بصفحة المسدس الأخرى . هذا التوصيل يؤدي إلى تشغيل (البوصلة الملاحية الجيروسكوبية) فتنطلق في الحال دفعات من غاز الفريون التي تعمل على تبريد (باحثات) الأشعة تحت الحمراء عندما تنشط في هذه المرحلة . وبينما يتم توجيه جهاز التصويب على الهدف الطائر ، فإن جميع الأشعة تحت الحمراء

المنطلقة منه يتم تكبيرها ، ومن ثم تركيزها على (خلية الكشف عن النشاط الإشعاعي) الملحقة برأس الصاروخ . وعندما يصل تركيز الأشعة إلى درجة كافية تسمح للصاروخ بتعقب مصدرها ، فإن جهاز (المحفظة على توازن البوصلة الجبروسكوبية) ينفتح ويطلق الصاروخ صوتًا حادًا عاليًا .

ولإطلاق الصاروخ ، يقوم الجندي بالضغط على زناد المسدس بإصبعه ، ومن ثم يدور محرك الإنطلاق الكهربائي به . ينطلق الصاروخ من ماسورة القاذفة ، خلال السدادة السهلة الكسر ، إلى مسافة ثمانية أمتار تقريبًا ، لحماية الرامي من اللهب الخلفي له ، وفي هذه المرحلة يشتعل المحرك الخاص بالوقود الجاف للصاروخ ، وينطلق منه لهيب هائل خارج من زعانف ذيله القابلة للإنكماش ، ويطير الصاروخ بسرعة تزيد على أربعة أضعاف سرعة الصوت . وعندما تتجاوز قوة الدفع بثمانية وعشرين مرة قوة الجاذبية ، ينفتح فتيل الإشتعال المغلق ويصبح الصاروخ (مسلحًا) ، ويبدأ في مطاردة الهدف بإلحاح ومثابرة ، موجهًا ، ليس من الجندي الرامي ، ولكن بقواه وأجهزته الملاحية الذاتية .

وعند إدخال الأسطوانة الخاصة بالهجوم على مروحية الهانيد في جهاز (آر إم بي) ، الملحق بالصاروخ ، فإن الجهاز يتحول إلى (نظام اللونين) وذلك عندما يصل الصاروخ إلى مسافة مائة متر من مصدر الأشعة تحت الحمراء . عند هذه النقطة فإنه يتخلى عن متابعة تلك الأشعة المنطلقة من كوابح العادم بمحرك الطائرة ويتحول إنتباهه نحو الإنبثاقات الضعيفة للأشعة فوق البنفسجية الخارجة من مداخل الهواء بالمحرك . وعلى هذا الهدف يقوم الرأس الحربي الشديد الإنفجار بضربته القاتلة .

ضحك سين عندما قال له جوب :

« حتى الشنقاني يمكنه تعلم تشغيل وإطلاق واحدة من هذه » .

- توت ! توت ! . لقد ظهرت عنصرية قبيلة المتابيلي مرة أخرى !

- لكنه الواقع . فعندما تكون متفوقًا عرقيًا فليس هناك ، ببساطة ، أي داع لإخفاء الحقائق .

ومعًا ، نظرا بتوجس لكلوديا نوفًا من رد فعله ، لكنها تجاهلتهما ولم ترفع عينيها عن المراشد إلا عندما زجرتهما :

« إنكما تضيعان الوقت في الترهات أيها المتعصبان . هذه المرة لن تثيرا أعصابي أو تدفعاني للهجوم » .

رد عليها جوب منشرحًا :

« متعصبان ! هذه أول مرة يصفني فيها أحد بهذه الكلمة . إنني أحبها ! »

فقاطعهما سين :

« كف هذا الهراء . ولنلق نظرة إلى منصة التدريب » .

بعد أن قاموا بتوصيل إحدى البطاريات التي تم شحنها ، وأكملوا تركيب معدات المنصة ، عبر سين عن رأيه قائلا :

« بمثل هذه التجهيزات ، يمكن للأولاد أن يكونوا جاهزين للعمليات خلال أيام ، وليس أسابيع » .

فعندما يتم إدخال أسطوانة الميكرو داخل جهاز المراقبة بمنصة التدريب ، فإن شاشة المنصة تعطي في الحال صورة تحاكي مروحية الهايند ، والتي يمكن للمدرب أن يحركها كيفما يشاء ويضعها في مختلف أطوار وإتجاهات الهجوم ، صاعدة وهابطة ، منزلقة جانبيًا أو محلقة . وعندما يقوم بذلك يمكنه مراقبة رد فعل المتدرب عند محاولته ضبط صورة الطائرة الوهمية على شاشته ثم يهاجمها بصاروخ خيالي .

لعب جوب وسين بجهاز التدريب وكأنهما صبيان مراهقان وأخذا يطيران الصورة في مناورات معقدة . وقال جوب في حماس :

« إنها مثل لعبة (الباكمان) . لكننا نحتاج إلى (دم دم) ، إلى شنقاني وهمي يمثل دور المتدرب بالنسبة لنا » .

ومرة أخرى نظر الرجلان إلى كلوديا التي كانت جالسة القرفصاء وهي تتصفح مجلد المرشد .

وعندما شعرت بعيونهما عليها ، نظرت وقالت لهما :

« دم دم ؟ سأقوم بدور الدم دم . سلماني قاذفة الصاروخ » .

وقفت في منتصف أرض المدرج وقد وضعت القاذفة على كتفها وحدقت في شاشة التهديف . كانت كالقزم تحمل عملاقًا ، وقد عكست وضع طاقيتها العسكرية المموهة بالخطوط مما أعطاها مظهر الصبي الذي يلعب البيسبول في الليق . وسألها سين :

« ألنت جاهزة ؟ » .

حدقت نحو الشاشة بشدة وقالت : « أجذب ! » . وتبادل سين وجوب إبتسامة الإعتداد بالنفس والثقة . ونادى سين بصوت حاد :

« إنها قادمة ! بارتفاع الساعة الثانية عشر . أمني الجهاز وأشحنيه » .

وعدل سين من مسار الطائرة الشبح لتكون في وضع الهجوم المباشر بسرعة ١٥٠ عقدة . وقالت كلوديا :

« مؤمن ومشحون » . وعلى الشاشة لاحظا النسخة المطابقة لقاذفة الصاروخ

تقفز بسلاسة وتركز على المروحية المقتربة . ثم أعلنت : « جهاز التشغيل الميكانيكي مفتوح » . وبعد ثانية سمعوا القاذفة وكأنها تتنهد ، ثم تزمجر وهي قابضة عليها ، ثم إستقر الصوت ليصبح طنينًا متواصلاً كطنين بعوضة عملاقة مهتاجة . وغمغمت كلوديا :

« تم إلتقاط الهدف » . كانت الهايند الشبح على بعد ستمائة متر وكانت قادمة نحوهم بسرعة وهي تتضخم على الشاشة بصورة درامية . وصاحت كلوديا :

« أطلق النار ! » . رأوا الضوء الأحمر يجفل ثم يتحول إلى الأخضر مشيرًا إلى أن محرك الصاروخ الوهمي قد بدأ الدوران . وفي الحال اختفت صورة الهايند من الشاشة ليحل محلها صورة ترمز للإحتراق . وصاحوا جميعًا :

« تم تدمير الهدف ! لقد دمر الهدف ! » .

أعقب ذلك صمت رهيب ثم تنحنح جوب بعصبية وقال :

« كثيرًا ما تحدث المصادفات . علينا أن نجرب مرة أخرى » . شرعت كلوديا فورًا في العمل وهي تركز نظرها على شاشة التصويب :

ـ أجذب ! .

ـ قادمة نحونا بارتفاع الساعة السادسة . أمن وأشحن .

قام سين بتعديل مسار الطائرة الثانية لتأتي من خلفها على ارتفاع لا يتجاوز أعالي الأشجار ، وبسرعة هجومية . وكان أمامها ثلاثة ثواني فقط .

ـ مؤمن ومشحون .

استدارت كلوديا على كعب قدمها وكأنها راقصة باللرينا وإلتقطت الهايند بداخل دائرة الرؤيا وقالت :

« جهاز التشغيل الميكانيكي مفتوح » .

وعندما أعلنت ذلك قام سين بجعل الطائرة تنزلق جانبًا وهي ترتفع للأعلى مما يعطيها إنحرافًا ثلاثي المستويات . أصبح إصياد الهدف مثل محاولة إصابة طائر مرتفع وسط زوبعة من الرياح العرضية .

وهما ينظران إلى الشاشة ، لم يصدقا عيونهما عندما إستدارت كلوديا بخفة ، وهي تحافظ على الصورة في منتصف دائرة التصويب ، وشاهدا الصاروخ التنهد ثم يستقر صوته إلى نغمة حادة عالية .

« تم إلتقاط الهدف . أطلق النار » .

ومضت الشاشة والجميع يصيحون : « دمر الهدف ! دمر الهدف » .

تململوا بنوع من الضيق قطعة جوب مغمغماً :

« مرتين ، وأمام أنظارنا ؟ ليس هذا صدفة يا رجل » .

وضعت كلوديا القاذف على الأرض ، وأعادت وضع طاقيتها مغطية بها إحدى عينيها ، ثم وضعت يديها على خصرها وإبتسمت لهما بعذوبة . وقال لها سين بسخط حقيقي :

« أعتقد إنك قلت من قبل بأنك لا تعرفين إطلاق النار » .

- هل يعقل أن إبنة ريكاردو مونتيرو لا تعرف كيف تطلق النار ؟

- لكنك كنت معارضة بشدة للصيد .

- بالتأكيد . لم أطلق النار في حياتي على كائن حي . لكنني أموت في أطباق حمام البر . هكذا علمني بابا .

زمجر سين وقال :

« كان يجب على أن أخمن عندما نطقت بكلمة (أجذب) .

تفحصت كلوديا أظافر يدها اليمنى بتواضع وقالت :

« كشيء مثير للإهتمام ، أحب أن أخبرك بأنني كنت بطلة الرماية للنساء، في ولاية الاسكا ، ولثلاث دورات متعاقبة . ونافست في البطولة القومية لعام ١٩٨٦ » .

تبادل الرجلان نظرات مرتبكة متحيرة وقال جوب لسين يغيظه :

« لقد صرعتك بالضربة القاضية وقادتك مغمض العينين طوال هذه الفترة » .

فبدا على سين الجد وقال لها :

حسنا يا مس الاسكا . انت ذكية جداً . وقبل لحظات نلت وظيفة المدرب بجدارة . من الآن فصاعداً فانت المسئولة عن هذه الأجهزة . أما أنا وجوب فسنقوم بتقسيم الشنقاني إلى قسمين وندربهم على الأساسيات ثم نحولهم إليك بتدريبهم على جهاز المحاكاة وهذا ما سيسارع من وتيرة عملنا ويختصر الوقت .

قطع الجنرال تشاينا عليهم حديثهم عندما حضر إليهم بخطى سريعة ووقف على المدرج ، والبيريه مائل على جانب وجهه ، وهو يضرب فخذه بعصاه العسكرية وينظر إلى ما يقومون به متسائلا :

« متى سنبدأ التدريب ؟ كنت أتوقع أن تكونوا قد بدأتم بالفعل » .

عرف سين عدم جدوى محاولة التوضيح له وقال :

« سنمضي قدماً وبطريقة طيبة ، لكن بدون تدخل من أحد » .

- لقد جئت لأحذركم بأن فريليمو قد شنت هجومها الشامل . إنهم قادمون

نحونا بجيش من الجنوب وآخر من الغرب ، بهجوم ذي شعبتين ، في محاولة منهم لإخراجنا من هذه الجبال الحصينة ، ومن شاطئ النهر ، ودفعنا نحو السهول المكشوفة حتى يتمكنوا من إستخدام مدرعاتهم ومروحياتهم للوصول لأهدافهم المنشودة .

فسأله سين بشماتة خفية ، وكأنه يوخذه بالإبر وخذًا :

« إنهم إذن سيجلدونك جلدًا » .

لمعت عينا تشاينا عندما إستوعب غمزات سين لكنه مضى قائلاً :

« إننا نتراجع أمامهم الآن . فكلما حاول رجالي التمسك بإحدى النقاط الحصينة وإيقافهم ، يقوم الفريليمو ، ببساطة ، بإستدعاء المروحيات . وهؤلاء الروس يظهرون لنا مدى قدراتهم ومهاراتهم التي تعلموها في جبال أفغانستان . فهم ، ببساطة ، يحطمون دفاعاتنا . وكما تعلم فإنه ليس مما يسر أن تستمع في الراديو ، وأنت عاجز عن الرد ، نداءات قادتيي الميدانيين وتوسلاتهم لي لدعمهم . متى تظن أن باوكاني إرسال الإستنجر لهم ؟ » .

أجابه سين :

« بعد يومين » .

- أليس وقتًا طويلاً ؟ ألا توجد طريقة للإسراع بالعمل ؟

وبنفاذ صبر أخذ تشاينا يضرب بطن يده اليسرى بعصاه العسكرية وقال :

« أريد منك أن تسلمني ولو طاقمًا واحدًا في الحال . أي شيء يمكنه أن يضربهم ويردهم عنا ».

بدا على سين الإستغراب وقال له :

« هذا التصرف يا جنرال تشاينا سيكون تصرفًا أخرقًا للغاية . ومع احترامي لك ، فإنك إذا إستخدمت الصواريخ مجزأة مفرقة فكأنك تقدم هدية لملاحي الهايند » .

خرج الصوت من حلق تشاينا وكأنه ثلج متكسر :

« ماذا تقصد ؟ » .

ـ هؤلاء الطيارون الروس إلتقوا مع صواريخ الإستنجر من قبل ، في أفغانستان ، وأنت تعرف هذا جيدًا . إنهم يعرفون أي وسيلة مضادة للتعامل معها مما هو مسجل في المراشد أو أكثر من ذلك . إنهم الآن مقتنعون تمامًا بأنهم الشيء الطائر الوحيد في السماء ، وبالتالي فإنهم غير منتبهين إطلاقًا لوجود الإستنجر لديك . لذا فإذا ما أطلقت صاروخًا واحدًا نحوهم فكل شيء سيتغير . نعم . بإمكانك أن تسقط واحدة منهم ، لكن بقية السرب سينقض عليك .

تبخر التعبير الجامد من وجه تشاينا ، وبدا عليه تفكير عميق :

- إذن ماذا تقترح يا كولونيل ؟

- أن تضربهم مرة واحدة بكل ما لديك من قوة .

- متى ؟ وأين ؟

- عندما يكونون غير متوقعين لهجومك إطلاقًا ذلك الهجوم الذي عليك أن تشنه فجأة وفي عتمة الفجر على قاعدتهم .

هز تشاينا رأسه منفعلاً وقال :

« على قاعدتهم ؟ إننا لا نعرف مكان ملاجئ تلك الطائرات » . لكن سين عارضه وقال :

« أبدًا نحن نعرف مكانها . لقد قمت بالفعل بتحديد وكادن المعسكر الخاص بها والملاجئ التي تأويها وبدقة تامة . سأقوم بتدريب ألفونسو وفرديناند والجنود وأضع لهم خطة الهجوم عليها . أمهلني ليومين فقط وسيكونون جاهزين للتحرك » .

فكر تشاينا لحظة ، وقد وضع يديه خلف ظهره وهو يحدق في السماء الزرقاء ، وكأنه يتوقع في أية لحظة رؤية تلك الأشكال الحدباء المخيفة قادمة عليه . ووافق أخيرًا على رأي سين :

- أوكي . يومين .

- نعم . يومين . لكن بشرط أن تتركني ومن معي نرحل عندما تكون أطقم جنود صواريخك مكتملة التدريب وجاهزة لشن الهجوم . هذا هو شرطي الوحيد.

- لكن هناك طابق لفريليمو بيننا وبين حدود زمبابوي .

- سيخرب حظنا . وهذه هي الصفقة التي بيننا . هل تعطيني وعدك الجازم على ما إتفقنا عليه؟

- . حسنًا جدا يا كولونيل . أنا موافق .

- جميل . متى تتوقع وصول ألفونسو وفصيلته من الجنود ؟

- لقد وصلوا بالفعل إلى خطوطنا الأمامية ، وأتوقع ظهورهم هنا بعد ساعة أو أكثر قليلا . لكنهم سيكونون مجهدين فلقد كانوا وسط النيران للأربعة والعشرين ساعة الماضية .

تصلب وجه سين وقال عابسًا :

« إنهم ليسوا في رحلة عطلة الإسبوع لتلاميذ مدرسة . أرسلهم لي فور وصولهم هنا » .

وأخيرًا وصلوا . جاءوا يمشون بتراخٍ وأعياء وهم يتعثرون مثل ملاكم للوزن الثقيل في نهاية عشر جولات صعبة . كانت ملابسهم المخططة متسخة وملطخة بآثار المعارك المتصلة ، وكانت وجوههم رمادية اللون من الإرهاق .

وبينما إنهار الرجال المنهكون على مدرج التدريب واستغلقوا نائمين على الأرض ، شرح ألفونسو لسين بفتور قصة إنسحابهم من قاعدة قراند ريف وهروبهم إلى الإرسالية القائمة في بطن وادي هوندى حيث هجروا عربة الينموف وعبروا إلى موزامبين مشيًا على الأقدام . وأضاف :

« الغابة مليئة بالفريليمو والسماء مليئة بالهنشاو » . ثم سكت ومسح وجهه المرهق بمنديل كبير ممزق ثم واصل حديثه :

« إنهم يستخدمون السحر ! فلقد سمعنا الهنشاو وتتحدث من السماء . كانوا يسخرون منا ويسبوننا باللغة الشانقانية ويقولون إن لديهم سحرًا يحول رصاصنا وصواريخنا إلى ماء ! » .

أومأ سين برأسه مقطبًا . لابد أن الروس يستخدمون مكبرات صوت ، مركبة على ببطن مروحياتهم ، ليثبطوا من معنويات مقاتلي رينامو . وكانت هذه المن الحيل التي إستخدموها في أفغانستان .

- وعلى طول جبهاتنا فإنهم يمزقون رجالنا بالرصاص تمزيقًا أو يدفعونهم للفرار . إننا لا نستطيع محاربة شياطين السماء .

- أبدًا . إنكم تستطيعون بكل جدارة .

وأمسك سين بقميص ألفونسو وهزه :

« سأريكم كيف يتم ذلك . أيقظ رجالك فورًا فسيكون لديهم وقت كاف للنوم فيما بعد عندما نحرق أولئك الروس الأوغاد ونبعدهم عن السماء للأبد » .

لقد عمل سين وجوب طويلاً مع هؤلاء الرجال وحاربا معهم ، وصاروا الآن يعرفونهم بالإسم ، وكونوا فكرة واضحة عن مستوى آدائهم وقدراتهم .

كانا يعرفان أن ليس بينهم من هو جبان أو متهرب . فلقد تخلص ألفونسو من أمثال أولئك قبل مدة طويلة . ورغم ذلك ، فقد كان من بينهم من أطلق عليهم جوب لقب (الثيران) ، وهم أقوياء البنية من غير الأذكياء ، أو بعبارة أخرى ، هم وقود المدافع . الباقون كانوا في درجات متفاوتة من الذكاء والقدرة على التكيف ، وعلى رأس هؤلاء يقف ألفونسو وفرونالد .

قام سين وجوب بتقسيمهم إلى مجموعتين وركزا جهدهما على الواعدين من بين المجموعتين . وكانا ينتقيان بسرعة أولئك الذين لديهم قدرًا معقولاً من

الفهم ، ثم التعبير عما يشاهده في شاشة التصويب بالقاذفات ، بإدراك واضح للشك والمكان .

وبعد ثلاث ساعات تم إنتقاء عشرين رجلاً ممن لهم القدرة المعقولة لإستيعاب التدريب الضروري للعمل في أتيام الصواريخ ، كالرجل الأول ، ثم عدد مماثل من الجنود ليملأوا خانة الرجل الثاني المساند .

الباقون الذين لم يظهروا الكفاءة الذهنية اللازمة تم تحويلهم للعمل في أتيام الهجوم ، التي ستستخدم الأسلحة التقليدية ، من بنادق وراجمات ، في الهجوم الذي يخطط له سين .

وأخذ سين مجموعة من المتدربين على الصواريخ ، بينما أخذ جوب المجموعة الأخرى . وشرعا في العمل الرتيب لأقلمتهم على السلاح الجديد وتعريفهم به . واعتمدوا على تكنيك الشرح وإعادة الشرح والمراجعة . وأخذ كل متدرب دوره في تفكيك السلاح وإعادة تركيبه والإغلاق والتعبئة ثم تصويب القاذفة كان على المتدرب أيضًا أن يشرح لبقية زملائه ما يفعله ، وكان جوب وسين يصححانه إن أخطأ ، بينما زملائه ما يفعله ، وكان جوب وسين يصححانه إن أخطأ ، بينما زملاؤه يضحكون ويسخرون منه .

وفي وقت متأخر من الظهيرة إستطاع سين إرسال أول مجموعة من خمسة جنود ، كان فيها ألفونسو وفردنياند ، لكلوديا للتدريب على الهجوم على جهاز المحاكاة . سجل ألفونسو ثلاثة إصابات متوالية وبالتالي ثم تحويله على الفور ليعمل كمساعد ومترجم لكلوديا . وعند حلول المساء كان كل من الأفراد الخمسة للمجموعة قد سجل ثلاثة إصابات متوالية حددتها كلوديا كشرط للمرور في الامتحان . ثم اختار سين وجوب عشرة آخرين للتدريب على الجهاز مع كلوديا فور إشراق شمس الغد .

صرف سين الجميع عندما إشتد الظلام وسار ألفونسو وجماعته نحو خنادقهم مترنحين من الإجهاد والتعب ومن الدروس أيضًا .



كان جويفل ، الشيف ، قد إستولى على أحشاء الجاموس الذي تعشى به ضباط الجيش وضيوفهم ليلة أمس . ورغم أن إشتداد الحرارة مساء لأمس قد كاد يتلفها ، إلا أنه تغلب على ذلك بإضافة كميات وافرة من البصل المفرى والبري بري والصلصة . شحب لون كلوديا عندما قدم لها جويفل ، فخورًا ، طبقًا ساخنًا من الكرشة ووضعه أمامها على الطاولة . لكن الجوع تغلب أخيرًا على مزاجها في الأطعمة . وأخذ سين يطيب خاطرها :

- تجلدي وكلي ما هو متاح .

- لكن هذا الصنف ، يا عزيزي ، ليس في قائمة أطعمتي المفضلة .

- أوكي . إذن املأي جسمك ببعض الدهون ليغطي هذا النحول .

- ألا تحب نحولي هذا ؟

- بلى . أحبه . ولهذا أريد منك الإعتناء بنفسك أكثر .

وعندما رجع متاتو متسللاً إليهما في حلكة الظلام ، أطعمه سين حتى امتلأ واستدارت بطنه مثل كرة سوداء . ثم قال له سين :

« والآن أيها الشحاذ الضئيل الشره ، حان الوقت لتكسب عيشك بنفسك » ساقاه معهما إلى مدرج التدريب الغارق في الظلام وحيث كان جوب في انتظارهم. كان قد قام بتجهيز الخامات اللازمة لبناء نموذج مصغر لملجأ الطائرات وما حوله من تحصينات ودفاعات . وباستخدام ضوء شمعتين قاموا ببناء النموذج . كان متاتو قد شارك كثيرًا فيي الماضي بمثل هذا العمل ، عندما كانوا يقاومون ثوار الأدغال ، لدرجة إنه حاذق تمامًا ويعرف ما هو مطلوب منه . ومثله مثل الكثيرين الذين حرموا من نعمة القراءة والكتابة ، فقد وهب ذاكرة فوتوغرافية .

أخذ يتبختر مختالاً من حولهم وقد إمتلأ بالشعور بالأهمية وأخذ في إلقاء التعليمات لجوب وسين ويوضح لهما طبوغرافية المنطقة داخل القاعدة وخارجها ، وشكل الجبل الذي بنيت عليه والمداخل والمخارج والطرق التي تربط بينها وبين خط السكة الحديد .

كلوديا أيضًا أبرزت مزيدًا من المواهب والقدرات التي كان يجهلها سين . فباستخدام الخشب الأبيض الطري ، المأخوذ من شجرة تبلدي ، قامت بتصميم نماذج لإحدى عشرة طائرة هاينـد بصورة فائقة الإتقان . وعندما وضعوها على نموذج القاعدة أعطتها شكلاً حقيقيًا .

غادرا المدرج بعد منتصف الليل وتوجها لمسكنهما . كانت الإشارة لوالدها نهار ذلك اليوم قد عادت إلى مخيلتها الآن وحرمتها من النوم . وأخذت تحدث سين عن ذكريات طفولتها وصباها وعن أبيها . شعر سين بالغبطة والارتياح عندما كان يستمع إليها ، وهي تتحدث بسهولة وبتلقائية وبدون نبرة أسى عن أبيها . لقد استطاعت بالفعل السيطرة على تلك الصدمة وذلك الحزن العميق الذي خيم عليها عند معرفة نبأ مصرعه . كانت تتحدث عنه الآن وليس فيها سوى الوحشة والشوق إليه بالمقارنة باللوعة والألم الذي خيم عليها من قبل .

حدثت سين كيف أنها ، وفي سن الرابعة عشرة ، عندما بدأت تتحول من صبية إلى آنسة ، شعرت بأن حياتها تتحطم من حولها وتتناثر ، وذلك عندما تم الطلاق البائن بين والديها وإنهيار أسرتها . رسمت له صورة لوالدها فيما تلي ذلك

من سنين ، وللوحدة القاسية التي عانت منها عندما إنفصلت عن أبيها ، ثم ما أعقب ذلك من جيشان الحب والتضارب ، المتناقضين ، عندما عادت له مرة أخرى .

« لذا يمكنك فهم طبيعتي المشوشة والمختلطة أثناء صباي . ثم لماذا كنت دائمًا حريصة على التفوق في كل شيء أقوم به ، ولماذا أجد نفسي دائمة مندفعة لحماية ضحايا الظلم والإضطهاد والدفاع عنهم . كان وقتي مقسومًا بين محاولتي إكتساب رضاء بابا وبين محاولاتي الدؤوبة لرفض ومعارضة نظرته المتعالية والمادية للحياة . لهذا لا أدري حقًا كيف ستستطيع في المستقبل التعامل معي ! .

- التعامل معك سيكون دائمًا من دواعي سروري . لكن يبدو أن محاولة إلزامك مكانك ستأخذ كل وقتي .

- هذا هو نفس ما كان سيقوله بابا ، وسنكون معًا في إشتباك يرج ضلوعنا رجًا .... يا مستر!.

- آهـ . لكن فكري فيما سيجلبه تصالحنا مع بعضنا ، بعد الإشتباك طبعا ، من متعة لنا ! .

وفي النهاية إستطاعا أن يتدبرا بضع ساعات من النوم وإستيقظا في الصباح، لدهشتهما ، منتعشين نشطين لمواصلة التدريب من حيث توقفا ليلة الأمس .

وبينما إنتهت كلوديا من تدريب آخر الجنود على جهاز المحاكاة ، والتأكد من حسن إستخدامهم للقاذفات الحقيقية في الميدان ، جلس سين وجوب على الأرض بجوار نموذج القاعدة وشرع سين في شرح خططه للهجوم . إستمع جوب بإهتمام شديد ، مقترحًا تعديلا هنا وآخر هناك ، حتى توصلا أخيرًا إلى الخطة المثلى للزحف والاقتراب ثم الهجوم فالإنسحاب ، مع وضع كافة الاحتمالات لمواجهة أي مفاجأة قد تطرأ على الخطة .

ونهض سين قائلاً :

« حسنًا . لنلق الخطة على الجنود » .

كان الجنود الشنقانيون منتبهين باستغراق شديد ، وهم جالسون على منحدرات المدرج الصخرية ، عندما كان سين وجوب يصفان لهم خطة النارة الهجومية . إستخدموا الحصى المجلوب من الشاطئ ليرمز لمختلف الوحدات التي ستشن الهجوم وليحركانه من حول نموذج القاعدة . وعندما بدأ التدريب على الهجوم إستخدمت كلوديا النماذج التي بنتها من الخشب لطائرات الهايند ، وقوبل ذلك بالإنشراح والتهليل من الجنود عندما أخذت الطائرات واحدة بعد الأخرى في السقوط على الأرض بضربات الإستنجر الوهمية .

أعاد سين ترتيب النموذج من جديد ، ونادى ألفونسو ليعيد لهم شرح خطة الهجوم . كرروا ذلك خمسة مرات . وبالتناوب قام قائد كل فصيل بشرح الخطة لهم ، وسط الصيحات والتهليل ، بدون أن يملوا ، عندما كانت نماذج الطائرات تسقط مدمرة على الأرض . وفي نهاية العرض الخامس وقف الرقيب ألفونسو مخاطبًا سين بالنيابة عن زملائه : وبدأ خطابه مناديًا له بأعظم الألقاب :

« أنكوزي كاكولو ! ....» . لم يحدث أن خاطب سين من قبل بهذا اللقب الكريم الذي لا ينادى به إلا أعلى زعماء القبائل مكانة . كان سين مستوعبًا لمعاني اللقب وما يحمله من شرف . وكان هذا هو الدليل الساطع على أنه كسب أخيرًا كامل إحترام وولاء هؤلاء الرجال الفخورين والمقاتلين المتمرسين . وواصل ألفونسو خطابه :

« أيها الزعيم العظيم . إن أبناءك منزعجين قلقين » . خرجت من الجنود غمغمة وموافقة لما قاله وهزوا رؤوسهم بأسى . « في كل ما ذكرته لنا عن المعركة فإنك لم تحدثنا بأنك ستكون معنا لتقودنا للنصر ، ولتملأ جوانحنا بنار الحماس والتصميم مثلما فعلت في قراند ريف . طمئن أطفالك أيها الأنكوزي كاكولو بأنك ستكون معنا في وسط المعمعة ، وبأننا سنستمع إلى هديرك وزئيرك كالأسود عندما تتساقط الهنشاو محترقة من السماء ، وعندما نشاهد قرود الفريليمو تفر من أمامنا وتستغيث كالنساء رعبًا منا » .

مد سين يديه وقال :

« إنكم لستم أطفالي . إنكم أرجل الرجال مثلما كان آباؤكم رجالاً من قبلكم » . كانت هذه تحية غير عادية منه لهم . « إنكم لن تحتاجوا لي لتنفيذ هذا الأمر فقد علمتكم كل ما أعلمه . إن أحشاءكم تتقد بوهج النيران بنفس القوة التي تحترق بها الحشائش الجافة في الشتاء . هذه المعركة هي معرككتكم وحدكم . ولقد حان الوقت لرحيلي . يجب أن أذهب . لكنني سأكون دائمًا فخورًا بكم وبأننا كنا أصدقاء وأننا حاربنا جنبًا إلى جنب كالإخوة الأشقاء» .

أخذوا يغمغمون متذمرين وكأنهم في فريق أو كورس ، وتحدثوا مع بعضهم بأصوات متذمرة وجد مدمة غير مفهومة .

إستدار سين عائدًا . ورأى أنه عندما كان يتحدث مع الجنود ، كان الجنرال تشاينا قد جاء ووقف وسط الأشجار على ضفة النهر ، يراقبهم ويستمع لما يقال . كان من خلفه أكثر من إثنى عشر ضابطًا وحراسه الشخصيين ، وكانوا جميعًا يرتدون البيريهات العسكرية . تقدم تشاينا من وسطهم وتوجه للمدرج . وفي الحال وقف الجميع إنتباهًا . وحياسين :

« إنني أرى أن استعداداتك قد إكتملت يا كولونيل كروتني » .

- نعم . إنهم جاهزون يا جنرال .

- هل تتكرم بشرح الخطة مجددًا ، من أجلي ؟

استدعى سين الرقيب ألفونسو ، وأمره بشرح الغارة لهم من جديد . وقف الجنرال تشاينا أمام النموذج وقد وضع عصاه خلف ظهره وأخذ يتابع بعيون سريعة براقة تفاصيل الخطة ، ومن حين لآخر يسأل سؤالا بحدة :

- لماذا تستخدم فقط نصف الصواريخ التي لدينا ؟

- لأن طابور الهجوم لابد أن يخترق خطوط الفريليمو بدون أن يكتشف أمره . هذه الصواريخ ثقيلة وضخمة ، وسيكون إستخدام عدد أكبر منها غير ضروري، كما إنه قد يجعل من إكتشاف الفريليمو لهم أمرًا محتملا .

أومأ تشاينا برأسه موافقًا . ومضى سين : « كما إن عليك أن تضع في حسابك إحتمال فشل الهجوم . فإن ما حدث ذلك وقمت بالمقامرة بكل صواريخك في رمية واحدة للزهر .....» . وهز سين رأسه وسكت .

- نعم . بالتأكيد . من الحكمة الإحتفاظ بنصف الصواريخ كاحتياطي . فإذا ما فشل الهجوم فلن نصبح عاجزين تمامًا . واصل الشرح يا ألفونسو .

تناول ألفونسو الخطة بالشرح خطوة فخطوة وهو يستخدم الحصى الملون ليوضح له كيف أن أتيام الصواريخ ستتخذ مواقعها وتستلقي على الأرض مستعدة ، على مسافة خمسمائة متر من القاعدة ، وليواجه كل فريقين منهم أحد ملاجئ الطائرات المحاطة بأكياس الرمل . وعند إطلاق إشارة ضوئية حمراء ، سيقوم فريق الهجوم بالأسلحة التقليدية بشن الغارة بكامل قوتهم على الجانب الجنوبي ، وهم يقصفون باستخدام نيران صواريخ آر بي جي خزانات وتناكر الوقود ، ثم يكتسحون القاعدة بنيران المورتر ، وبعدها يشنون هجومًا مباشرًا على السور الجنوبي . في هذا الأثناء يتوقع فرارر الهنشاو عند بداية القصف وستحاول الفرار بالطيران بعيدًا . وإستمر ألفونسو شارحًا :

« لكن ستكون هناك لحظات تستغرقها الطائرة بالقرب من الأرض وهي محلقة ، مثلما يحلق الصقر قبل الإنطلاق ، وهذه اللحظات هي التي سنقوم فيها بقتلها » .

إستمر سين وتشاينا في النقاش حول الخطة وكافة تفاصيله حتى اقتنع تشاينا واكتفى أخيرًا بما سمعه وسأله :

« إذن متى ستبدأون التحرك » . إنتقض سين مهتاجًا وقال له :

« إنك دائمًا تستعمل كلمة (أنتم) . ليس لي أي دور بعد الآن لأقوم به . الرقيب ألفونسو هو الذي سقود الهجوم ، وسيبدأون التحرك عصر اليوم ، وقبل

ساعتين من حلول الظلام ، حتى يخترقوا خطوط الفريليمو أثناء الليل ، ثم يختبئون غداً ويقومون بالهجوم عند المساء .

« حسناً جدا » . وافقه تشاينا . « سأخاطب الجنود الآن » .

كان خطيباً مفوهاً ، كما اعترف سين ، عندما إستمع لتشاينا يذكرهم بعواقب إنتصار الفريليمو عليهم ، ويحثهم على البطولة والتضحية بأنفسهم من أجل القضية .

وعندما إنتهى من حديثه كانت وجوههم تلتمع وعيونهم تبرق بالحماس والتضحية . ثم رفع الجنرال تشاينا صوته :

« إنكم مقاتلون . لذا أسمعوني نشدي رينامو القتالي » .

اهتزت الغابة ورددت صدى النشيد الجذاب وصوت إنشادهم الجماعي . وغيمت الدموع عيني سين وامتلأ عاطفة وإنفعالاً . لم يكن قد عرف قيمة هؤلاء الرجال وما يمثلونه له إلا الآن ، عندما أوشك على فراقهم . ثم قطع عليه الجنرال تشاينا إستغراقه الحالم عندما ناداه :

« كولونيل . أنت أود التحدث إليك على إنفراد . أرجو أن تأت معي » .

إستأذن سين من كلوديا وجوب وطلب منهما قيام الجنود مرة أخرى بمراجعة جهاز المحاكاة .

مشى وراء الجنرال تشاينا وتوجها نحو خنادق الرئاسة ، ولم يلحظ سين أن حرس تشاينا الشخص لم يرافقه هذه المرة ، بل ظلوا واقفين أمام مدرج التدريب وبصورة متعجرفة .

وعندما وصلا للخندق توجه تشاينا معه إلى مكتبه تحت الأرض ، وكان على الطاولة إناء للشاي في إنتظارهما . وضع سين كمية من السكر في كوبه وصب الشاي وتذوق جرعة ساخنة منه ثم سأل الجنرال :

« ما الذي تريد أن تخبرني به إذن ؟ » .

كان تشاينا واقفاً موليًا ظهره إليه وهو يتفحص الخارطة الكبيرة على الحائط والموضح عليها ، بالدبابيس الملونة ، تطور هجوم فريليمو عليهم . لم يجب على تساؤل سين كما لم يتجرأ سين بإعادة سؤاله مرة أخرى . ومضى في إحتساء الشاي والإنتظار .

وجاء أحد جنود الإشارة من غرفة الراديو وسلم تشاينا ورقة مكتوبة . وعندما قرأها أطلق صيحة غضب وإشمئزاز ممزوج بالقلق ، ومد يده وحرك بعض الدبابيس الملونة عن موضعها على الخريطة ، فقد إخترقت فريليمو الخطوط الغربية وهي تقترب منهم الآن بدون هوادة .

وقال تشاينا لسين بدون أن يلتفت نحوه :

« لم نتمكن من إحتواء هجومهم » . وفي هذه اللحظة دخل للخندق جندي آخر من الحرس الشخصي للجنرال ، وعلى رأسه البيريه المميز للحرس ، وهمس شيئًا في أذن تشاينا . ظن سين أنه سمع كلمة (الأميركانية) وبدأ يهتم بالأمر .

ابتسم تشاينا للحارس وشكره وصرفه من أمامه بإحناء رأسه قبل أن يلتفت نحو سين قائلا :

« إنها لن تنجح » .

- ما هي التي لن تنجح ؟

- خطة الهجوم كما وضعتها أنت .

- لا شيء مؤكد في الحروب كما تعلم جيدًا يا جنرال . لكنني لا أتفق معك . إن لهذه الخطة فرصة تزيد على الستين في المائة للنجاح التام . وهذه نسبة معقولة جدًا .

- لكن النسبة ستزيد بالتأكيد ، وربما تصل إلى ثمانين في المائة ، إذا ما قمت أنت بقيادة الهجوم .

- لقد أشبعت غروري باطرائك لي يا جنرال . لكنها عملية تقديرية نظريًا وعمومًا فلن أقودها لأنني متوجه للوطن .

- لا يا كولونيل . إنك ستقودها .

- إن بيننا صفقة وإتفاقًا .

إبتسم تشاينا وقال : « صفقة ؟ لا تكن ساذجًا . إنني أعقد الصفقات وألغيها عندما يستدعي الأمر ذلك . وإنني أخشى أن الأمر قد إستدعى ذلك بالفعل » .

قفز سين على قدميه وقد شحب وجهه وصار كالشمع تحت لون جلده الأسمر وأعلن : « إنني ذاهب » . وبالرغم من غضبه الشديد ، تمكن من الحفاظ على صوته واضحًا جليًا : « سآخذ جماعتي معي وسنرحل الآن . الآن وفورًا . وعليك أن تقتلني لمنعي من ذلك » .

لمس تشاينا أذنه الصماء وابتسم مرة أخرى :

« هذه فكرة لا بأس بها يا كولونيل . أؤكد لك ذلك . رغم إنني لا أظن إننا سنصل لهذا الحد» .

ركل سين الكرسي الذي كان جالسًا عليه فارتضم بالجدار وسقط جانبا. استدار سين وخرج من الباب المنخفض وهو يقول : « سنرى » . وقال له تشاينا بصوت حازم واثق : « إنك سترجع إلى ثانية » .

لم يعره سين أي اهتمام ، ولم يبد عليه إنه سمع ما قاله تشاينا . خرج إلى الهواء الطلق والشمس المشرقة وتوجه بخطى سريعة نحو النهر .

كان قد وصل إلى مدرج التدريب قبل أن يشعر بأن شيئًا هامًا كان غائبًا ومفقودًا من الساحة .

وجد الجنود الشنقانيين جالسين بجمود على أماكنهم بالمدرج المنحدر ولم يبد عليهم أنهم قد تحركوا منذ أن شاهدهم لآخر مرة . كانت ملامح ألفونسو وكأنها منحوتة من صخر الحديد ، بدون تعبير عليه سوى الجمود والتبلد ، وهو الدرع الذي يتعمد الرجل الإفريقي أن يختفي من ورائه ، درع التبلد والجمود ، عندما يواجه قوى وضغوطًا ليس له دفاع ضدها .

كان جوب ممددًا على سطح المدرج وقد إتسخت بزته بالأتربة كما كانت قبعته ملقاة على الأرض تحت قدميه . هز رأسه كالمصاب بالدوار بينما أخذت نقط من الدماء تقطر من أنفه المتورم.

جرى سين نحوه صائحًا : « ماذا حدث ؟ » لكن جوب حملق نحوه محاولاً تركيز نظرته عليه . كان قد ضرب بقسوة شديدة وكانت شفتاه وأنفه متورمين من الكدمات وفمه مليئا بالدم الذي صبغ أسنانه بلون النبيذ الأحمر . كان أحد حواجبه مصابًا بجرح عميق ويسيل الدم منه عبر أنفه ، وعندما يتنفس كان الدم يكون فقاعة كبيرة قبل أن تنفجر . جبهته أيضًا كانت متورمة وكأن عليها حبات ترصعها من العنب ، وأحد فصي أذنه مقطوعًا والدم يسيل منها أيضا إلى بزته العسكرية .

أمسك سين بكتفه وصرخ :

« من فعل هذا بك بحق الجحيم ؟ من ؟ » .

غمغم جوب وعيونه تحدق في وجه سين :

« حاولت منعهم بكل جهدي . حاولت » .

« لا بأس عليك » . كان سين يحاول أن يرفعه على كرسي لكنه أبعد يد سين عنه وقال : « كلوديا » .

تجمدت أحشاء سين بالفزع وردد : « كلوديا ؟ » ثم تلفت من حوله بوحشية : « أين هي يا جوب ؟ ماذا حدث ؟ » .

- إنهم أخذوها معهم ، حرس تشاينا الأوغاد . حاولت منعهم ...

تناول سين المسدس من جرابه وسأله :

« أين هي ؟ » . مسح جوب صفحة وجهه بيده ونظر إلى الدم الذي لطخها وقال :

« لست أدري . كان قد أغمى عليّ ولا أدري لكم من الزمن » . وصرخ سين مرعدًا :

« تشاينا ، أيها الوغد الزنيم آكل الروث . إنك ستموت على يدي » . واستدار لإقتحام خندق تشاينا والهجوم عليه . ومن ورائه جاء حوت جوب متلهفاً :

« سين لي أرجوك أن تفكر أولاً . أرجوك ! » .

وتوقف سين . كم من مرة أنقذه بمثل هذه الكلمات : (فكر أولاً) .

إحتاج الأمر إلى إرادة غير عادية منه . وبعد ثواني إستطاع سين أن يسيطر على جنون رغبة القتل الذي إجتاحه وصاح في جوب من بين أسنانه :

« المراشد يا جوب : أحرقها ! » .

نظر جوب إليه بعينين طارفتين نصف مفتوحتين ، من خلال الدم الذي كان يسيل من حاجبه المقطوع . وكرر سين :

« أحرق كل المراشد . الشيء الوحيد الذي سيؤمننا يا رجل . فنحن الوحيدون الذين يعرفونها» .

صفت نظرات جوب وتعابير وجهه وقال له :

« وماذا بشأن أسطوانات الكاسيت ؟ » .

- نعم ! الكاسيت ! سلمها لي .

وبينما انشغل جوب بسرعة بتعبئة الأسطوانات في علبتها الأصلية ، توجه سين إلى حيث كان الفونسو جالسًا أمام الأرض المدرجة وتناول من حزامه قنبلة فوسفورية .

وأخذ سين يعمل بسرعة . استخدم الحبل القصير الحامل للمسدس ، والقنبلة الفوسفورية ، لصنع جهاز بسيط للتدمير الذاتي بداخل علبة الكاسيت . أدخل طرف الحبل في حلقة دبوس التفجير بالقنبلة ووضع القنبلة في وسط علبة الكاست . ثم إستخدم طرف حربة بندقيته لعمل ثقب على غطاء العلبة وأدخل فيه طرف الحبل من الداخل للخارج ثم قفل الغطاء بإحكام وربط الحبل المتدلى منه حول خصره . وقال عابسًا :

« فليحاول تشاينا انتزاعهم مني بعد الآن » . فإذا ما حاول أحد إنتزاع العلبة من يده الممسكة بها ، أو إذا ما رماها على الأرض ، فإن الحبل سينتزع إبرة القنبلة ، مدمرًا ، ليس فقط محتويات العلبة ، بل كل من يقف بالقرب منها . تمهل لفترة كانت كافية فقط لرؤية جوب وقد ألقى بعود ثقاب مشتعل في كومة المراشد . وعندما إشتد اللهب أمر جوب بالبقاء في مكانه حتى يتأكد تمامًا من تحولها إلى رماد .

ثم تحول سين عائدًا إلى مكتب تشاينا وهو يحمل العلبة الثقيلة . قابله تشاينا بتلك الإبتسامة الجليدية الساخرة قائلاً : « لقد قلت لك بأنك ستعود » . وسرعان ما تلاشت إبتسامته عندما رأى العلبة التي يحملها سين والحبل المربوط حول خصره .

رفع سين الصندوق بيده وعرضه متباهيًا في وجه تشاينا وقال له وهو يجاهد للسيطرة على إنفعاله : « هذا هو سرب الهاليند يا تشاينا . وبدون هذه العلبة فإن صواريخك الإستجر ستكون بلا فائدة لك » .

صوب تشاينا نظره إلى مدخل الخندق ، وأسرع سين بتحذيره :

« لا تفكر في عمل أي شيء . فبداخل هذه العلبة قنبلة فوسفورية ، وهذا الحبل متصل بإبرة التفجير . فإذا ما ألقيت بالعلبة ، كأن يهددني الموت الفجائي أو إذا ما حاول أحد إنتزاعها من يدي ، فإن كل شيء سيطير عاليًا وسط نيران بديعة . كل خامس من نوفمبير وأنت بخير ! » .

حدق كل منهما في وجه الآخر شذرًا ، لا يفصل بينهما إلا المكتب . ثم عادت الإبتسامة ثانية إلى وجه تشاينا ، إبتسامة قاتلة وأكثر برودًا مما شاهده سين من قبل . وقال له :

« هذه إذن ورطة بديعة صغيرة يا كولونيل ! » . وسأله سين :

« أين كلوديا مونتيرو ؟ » .

رفع تشاينا صوته مناديًا لأحد جنود المراسلة من غرفة الراديو وأمره :

« أحضر لي المرأة » .

إنتظرا صامتين ، وكل منهما يقظ رابط الجأش ، ينظر مترقبًا في عيون الآخر . ثم قطع تشاينا الصمت وتحدث وكأنه يحاوره :

« كان عليّ أن أفكر في اسطوانات الكاسيت . كان هذا تصرفًا ذكيًا منك . ذكيًا جدًا يا كولونيل ، لذا يمكنك تفهم دوافع رغبتي في قيادتك للهجوم » .

فأجابه سين :

« طالما نحن نتحدث في الموضوع ، فإنني أيضًا قمت بحرق كل مراشد الإستخدام والتعليمات المصاحبة لها ولم يعد يوجد سوى وجوب وكلوديا ممن يمكنه تشغيل وفهم الإستجر» .

تحداه تشاينا : « وماذا بشأن الشنقانيين : ألفونسو وفرديناند ؟ » . إبتسم سين له إبتسامة كشبح الموت وقال :

« لا يعرفون كل شيء يا تشاينا . يمكنهما إطلاق الصاروخ مثلاً ولكن

ليس لديهم أي فكرة عن البرمجة . إنك محتاج لنا يا تشاينا وبدوننا فإن كل سرب الهايند سيتحرك نحوك وستكون عاجزًا عن مقابلته تمامًا . لذا لا تتلاعب معي فإن بقاءك هو بين يدي » .

سمعا إندفاع أقدام وجرها خارج الغرفة ، وإلتفت كلاهما نحو باب المدخل عندما دفعت كلوديا عبر غرفة الراديو دفعًا .

كانت يديها مكبلتان مرة أخرى وراء ظهرها ، ولم تكن ترتدي قبعتها وبالتالي تناثر شعر رأسها المنكوش على وجهها وخلف عنقها . وعندما رآه صاحت من غير ترو :

« سين ! » وجذبت نفسها من بين يدي بحارستين الممسكتين بها ، محاولة الوصول إليه . قامت الحارستان بجذبها إليهما ودفعتاها نحو حائط الخندق . وصاح سين مزمجرًا في وجه تشاينا :

« قل لقرودك أن يبتعدا عنها » وعندما تطاير الشرر من عيون الحارستين قام تشاينا بتهدئتهما بإصدار أمر حاد :

« ضعا هذه المرأة على الكرسي » .

قامت بوضعها بالقوة على الكرسي الصلب المصنوع من خشب المهوجني ، وبعد أمر آخر من تشاينا قامتا باستخدام قيودها لربطها رباطًا محكمًا ، من رسغيها ، على ذراع الكرسي الثقيل . وقال تشاينا مقترحًا :

« إن لدي شيئًا من خصالك يا كولونيل ولديك شيء مني . هل نقوم بعقد إتفاق بيننا ؟ » .

أجابه سين في الحال :

« ليس هنا . بل على الحدود . وسأقوم هناك بتسليمك الأسطوانات » . لكن تشاينا هز رأسه بعدم الموافقة وقال :

« غير مقبول . ها أنا أقدم لك عرضًا مضادًا . أن تقود الهجوم على قواعد الهايند . وعندما ينتهي الأمر بنجاح سيقوم ألفونسو بحراستك حتى الحدود » .

قام سين برفع العلبة المفخخة لأعلى رأسه . وإبتسم تشاينا . وكان رده هو إنتزاع سكينه من غمده المعلق على حزامه . كان سكينًا بمقبض من العاج ويبلغ طول نصله خمسة بوصات .

وهو لازال يبتسم ، تناول شعرة واحدة من رأس كلوديا وإنتزعها بيده بشدة. أمسك بالشعرة بين إصبعيه الإبهام والسبابة ومس الشعرة بالنصل فسقط نصفها بعيدًا وسبح في الهواء ثم سقط على أرض الخندق . وقال تشاينا بنعومة :

« أرأيت كم هي حادة ؟ » .

جاء صوت سين مشروخًا من التوتر وبدأ العرق يتصبب منه :

« إذا ! قتلتها فلن يكون لديك ما تساوم عليه » . فأشار تشاينا إلى حرس الباب وقال :

« لدى هذا لأساوم به » .

قام الحراس باقتياد شخص ما لم يره سين من قبل . شبحًا غريبًا له جمجمة عتيقة . تساقط شعر الرأس في خصل متناثرة بينها فراغات عارية صلعاء .

كانت الشفتان متشققتين ضامرتين وقد ظهرت من ورائهما أسنان كبيرة بيضاء لا تتناسب مع هذا الوجه المحطم البشع .

وبكلمة من تشاينا قام الحراس بانتزاع الإزاء الممزق المتسخ الذي كان يغطي الجسم وتركاه عاريًا . ولأول مرة عرف سين بأنها إمرأة .

ذكره منظر جسمها بالصور المرعبة التي شاهدها من قبل عن الناجين من معسكرات الإعتقال في داخاو وبلزن . لقد كانت هيكلاً عظيمًا مغطى بجلد رقيق متدل ، وكان ثدياها الفارغـن يتدليان على عظام صدرها ، وكانت بطنها ضامرة لدرجة أن عظام حوضها وعانتها قد برزت للخارج . كانت يداها ورجلاها بدون لحم وقد تضخمت عظام ركبتيها وكاحليها لدرجة فظيعة .

حملق سين وكلوديا فيها برعب وفزع ولم يعودا قادرين على الكلام من هول الصدمة . ودعاهما تشاينا بصوت رقيق :

« انظرا إلى القروح التي على بطنها » . وكالمخدرين نظرا إليها . كان بطنها يحتوى على عدة أورام صلبة ولامعة تحت جلدها غطت كل بطنها الأسفل واختفت بين شعر عانتها .

وبينما كان كل انتباههما مركزًا على تلك الهيئة المحزنة ، من تشاينا يده بخفة ولمس ظهرين كلوديا بالسكين الحادة . شهقت كلوديا وحاولت إبعاد يدها عنه ولكن القيود منعتها من ذلك . ونظرت للأسفل عندما كان خيط رفيع من الدم القاني يسيل من بين أصابعها ويسقط على لأرض . وصرخ فيه سين :

« لماذا تفعل ذلك لها أيها الوغد القذر » .

ابتسم تشاينا وقال : « إنه مجرد خدش بسيط » . ثم تقدم ببطء نحو الهيكل العظمي الهاري للمرأة السوداء وأشار بالسكين إلى بطنها الضامر وأخذ يشرح لهما :

« الهزال الشديد والنحول ، وتلك الدمامل والقروح المتميزة ، هو تشخيص واضح للمرض . إن المرأة مصابة بما نسميه نحن في إفريقيا (بمرض النحول) .

همست كلوديا بصوت مليء بالرعب الذي تحتويه كلمة واحدة :

« الإيدز » .

وبدون أن يشعر تراجع سين خطوة للوراء بعيدًا عن ذلك الشبح المخيف الذي يقف أمامه . وقال تشاينا :

« نعم يا آنسة مونتيرو . إنه الإيدز في طوره الأخير » .

مد نصل السكين ومسك به إحدى الدمامل الصلبة على بطنها . لم يصدر عن المرأة أي رد فعل عندما انفتح الدمل وخرج منه مزيج من الصديد والدم الأسود وسال على أسفل بطنها إلى الأرض .

وهمس تشاينا : « الدم الملوث » . وكشط بعضًا منه بصفحة السكين وقال: « الدم الدافئ الذي يعج بالفيروس » .

ومد نصل السكين لسين لينظر إليه ، فتراجع سين للخلف تلقائيًا بينما الدم ينظر من حافتها .

أومأ تشاينا برأسه : « نعم لا شيء يخافه حتى أشجع الشجعان . فهو الأكثر تأكيدًا والأشد بطئًا وأكرهها ميتة على مر الدهور » .

وبيده الأخرى أمسك برسغ كلوديا :

« فكر في هذا الدم الآخر . الدم العذب الأحمر القاني لفتاة شابة حلوة تضج بالحيوية والصحة » .

كان الخدش على ظهر يد كلوديا لازال طريًا رغم أن تدفق الدم منه قد كاد أن يتوقف . وهمس تشاينا :

« الدم يمتزج بالدم . الدم المريض الملوث مع الدم السليم » .

قرب النصل الملوث نحو كلوديا ، والتي تصلبت على كرسيها محاولة التخلص من قيودها وقد ابيض وجهها رعبًا وهي تحملق في النصل .

وكرر تشاينا قوله مخاطبًا سين :

« الدم مع الدم . هل ندعهما يمتزجان ؟ » .

وجد سين نفسه عاجزًا عن الكلام . هز رأسه بتبلد وهو ينظر للسكين . وتساءل تشاينا :

« هل أقوم بذلك يا كولونيل ؟ كل شيء يتوقف عليك الآن » . قرب النصل الملوث نحو الخدش المفتوح برسغ كلوديا الناعم الكريمي وهمس :

« بوصة أخرى فقط يا كولونيل » . وفجأة صرخت كلوديا مولولة . أطلقت من حنجرتها كل ما كان مخزونًا بداخلها من الفزع والرعب والهول . لكن

تشاينا لم يجفل وحتى لم ينظر إلى وجهها ، بينما يده تمسك بالسكين بقوة وعزم . وسأل :

« ماذا نفعل يا كولونيل ؟ » .

مد يده بالسكين ولمس يدها بصفحة السكين تاركا لطخة من الدم الملوث على صفحة يدها الجميلة ، وعلى بعد بوصات من الجرح . ثم قام ببطء بتحريك السكين نحو الجرح برسغها وقال :

« تحدث بسرعة يا كولونيل . فبعد ثوان سيحدث ما لا رجعة عنه » . تركت صفحة السكين لطخة لامعة من الدم ، مثل المادة اللزجة التي تخلفها القواقع في طريقها ، على جلد كلوديا وبدأت تسيل باتجاه جرحها الطري .

وفجأة صرخ سين بأعلى صوته كالمستغيث :

« توقف ! أوقف هذا ! » .

أبعد تشاينا نصل السكين عنها ثم نظر إليها متسائلاً :

« هل يعني هذا إننا توصلنا لإتفاق ؟

- نعم عليك لعنة الجحيم . سأقوم بالمهمة .

ألقى تشاينا بالسكين الملوثة في ركن الغرفة ثم فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منه زجاجة ديتول مطهر . غمس منديله في السائل المركز وأخذ يمسح بحرص لطخة االدم الملوث من على يد كلوديا . شعرت بالتوتر ينزاح عن جسدها المتصلب وإنهارت على كرسيها . كانت تلهث وترتجف وكأنها هرة صغيرة تركت تحت المطر .

وصاح سين بصوت مشروخ :

« أطلق سراحها » . لكن تشاينا هز رأسه :

« ليس قبل أن تتضح لنا كافة شروط الإتفاق » .

زمجر سين :

« حسنًا . وأول شرط من هذه الشروط هو أن تأتي (إمراتي) معي . لن تبقي مرة أخرى في حفرة تحت الأرض مليئة بالجرذان » .

تظاهر تشاينا بالتفكير في الأمر ثم أومأ برأسه وقال :

« حسنًا جدًا . لكن الشرط الثاني هو إنك إذا ما خذلتني بأي صورة فسيقوم ألفونسو بقتلها في الحال » . صاح سين : « أحضر ألفونسو إلى هنا » .

لم يكن العرق قد جف على جبهته وكان صوته لا يزال خشنًا مهزوزًا : « أريد أن أسمعك بنفسي تلقي عليه أوامرك وتعليماتك » .

جاء ألفونسو ووقف في حالة الإنتباه وإستمع ، بدون أن يبدو على وجهه أي تعبير ، إلى تشاينا وهو يحدثه ويوضح له تعليماته : « .... وعمومًا ، فإذا ما فشل الهجوم ، أو اعترضتك قوات فريليمو قبل وصولك للقاعدة ، أم إذا أفلتت أي هنشاو من التدمير ...... » . قاطعه سين :

« لا يا جنرال . لا يمكن أن نامل في مائة بالمائة من النجاح . لذا فإن علينا أن نكون واقعيين ومعقولين . فإذا ما تمكنت من تدمير المروحيات ، ما عدا ستة منها ، فيجب إعتباري كمن حقق تمامًا نصيبه من الصفقة » .

عبس تشاينا ثم هز رأسه : « حتى ستة من الهاليند ستكون كافية لهزيمتنا التامة . سأسمح لك باثنين منها فقط . فإذا ما نجت أكثر من إثنتين منها فإن مهمتك ستعتبر فاشلة وسيكون عليك أن تدفع ثمن ذلك الفشل » .

ثم إلتفت لألفونسو وإستمر في إلقاء تعليماته : « لذا فإن عليك يا سيرجنت أن تطيع كل تعليمات الكولونيل وأن تنفذ الهجوم تمامًا كما خطط له . ولكن إذا فشلت مهمتكم ، أو هربت أكثر من اثنتين من الهنشاو ، فإن عليك أن تتولى كامل مسئوليات القيادة ، وسيكون أول مهامك التي تقدم بها أن ترمي بالرصاص الإثنين البيض وخادمهم الأسود . عليك أن تقتلهم في الحال » .

أخذت عيون ألفونسو تطرف بشدة وهو يتلقى تعليماته كالنائم . لم يدر وجهه لينظر إلى سين ، ووجد سين مستغربًا يسائل نفسه إن كان ألفونسو سيقوم بتنفيذ عملية الإعدام عليهم رغم علاقتهما الوثيقة ، والصداقة التي نمت بينهما ، ورغمًا عن حقيقة أن ألفونسو قد أضفى عليه ألقاب أنكوزي كاكولو، وبابا ، ورغم توسله له لقيادة الهجوم .... ،

لكن ألفونسو كان شنقانيًا إفريقيًا ومحاربًا ، وله إحساس عميق بالولاء القبلي ، وتقاليد موروثة للطاعة المطلقة لزعمائه ولحكماء القبيلة المسنين ..... ،

وفكر سين : « نعم . ربما يشعر ببعض الأسى وتأنيب الضمير . لكنه سيقوم بتنفيذ الأمر بدون تساؤل ولا تردد » .

ثم رفع صوته :

« حسنًا يا تشاينا . كلنا يعرف أين يقف . فلتسمح للآنسة مونتيرو بأن تحضر إلى الآن » .

قام الحراس بنزع قيود يديها . وبنوع من الأدب والدماثة ساعدهما الجنرال تشاينا ورفعها من الكرسي وقال مطيبًا خاطرها : « إنني أقدم إعتذاري للأحداث المؤسفة تلك يا آنسة مونتيرو ، لكنني واثق من تفهمك للضروريات التي أملت على إتخاذها » .

وقفت كلوديا على أقدامها المرتجفة ، وترنحت عندما توجهت نحو سين

وتعلقت به . وقال الجنرال تشاينا وهو يودعهما بابتسامة ساخرة :

« وهكذا أتمنى لكما وداعًا طيبًا وحيدًا جيدًا . وبطريقة أو بأخرى أخشى ألا نلتقي مرة أخرى » .

لم يتبرع سين بالرد عليه . وقاد سين كلوديا إلى باب الخندق ممسكًا بها بيد ، وباليد الأخرى العلبة المفخخة للكاسات .



تحركوا قبل ساعتين من حلول الظلام في طابور ثقيل وقد زادته القاذفات والصواريخ والأسلحة المساندة الأخرى عبأ على عبء . فبخلاف الأثقال التي يحملونها فقد كان لطول بعض الحمولات أثرًا على تشتت الطابور . كانت أشجار الغابة الكثيفة تعوق مسيرتهم ، وخاصة عندما يضيق الطريق ، مما يؤخر من إستجابة الطابور لمواجهة أي تهديد أو خطر .

حافظ سين في بداية المسيرة على الطابور مترابطًا متصلاً كجسم واحد . فقد كانوا لا يزالون على بعد عدة أميال من آخر خط للرينامو وبالتالي لا يكونوا مهددين من العدو إلا بعد وقت طويل من سيرهم .

لكن سين لم يكن يترك شيئًا للصدف . فقد حافظ على أن تكون فصائل حراسة المقدمة والمؤخرة في تمام اليقظة والإستعداد لصد أي هجوم ، ثم لإعطاء حملة القاذفات والصواريخ الفرصة للهروب والإختفاء . وحتى يضمن تنفيذ هذا المخطط ، أرسل سين جوب لقيادة فصيل المقدمة بينما بقى هو في الوسط ، حيث يمكنه الوصول إلى موقع أي مشكلة بسرعة وحيث سيكون بجوار كلوديا .

وسألته كلوديا :

« أين متاتو ؟ لقد تحركنا وتركناه وراءنا . إنني قلقة جدًا بشأنه » .

لا تقلقي لمجرد إننا تركناه وراءنا . إنه مثل واحد من تلك الجراء التي لا تستطيعين إرسالها للبيت . إنه سيتبعني لأي مكان . وفي الحقيقة فلا يستبعد أن يكون الشحاذ الضئيل يراقبها الآن من أطراف الغابة ، وفي هذه اللحظة » .

وقد برهن سين على صحة توقعات بشأنه . فعند هبوط الضلام عنى الطابور ظهر بجانب سين ، كالمعجزة ، ظل صغير . ونادى :

« أراك يا سيدي البوانا » . وغمز بعينه في الظلمة .

« أراك أيضا يا متاتو يا صديقي الصغير » .

داعب سين شعر متاتو وربت عليه بحنو وقال له :

« كنت في انتظارك لتختار لنا طريقًا خلال خطوط الفريليمو وليقودنا إلى

أعشاش تلك الصقور القبيحة ي . وامتلأ متاتو شعورًا بالأهمية وقال له :

« إتبعني يا سيدي البوانا » .

الآن وقد عاد متاتو ليرشدهم ، فإن بإمكان سين أن يعين تنظيم الطابور ليصبح التشكيل بعرض شخص أو شخصين حتى يتمكنوا من المرور عبر خطوط فريليمو بسهولة ويسر .

كان من حسن حظهم كبر حجم المعركة الدائرة من أمامهم . فقد كان هناك ستة ألف جندي من فريليمو ومن زمبابوي يهاجمون أقل من نصف عددهم من الرينامو المدافعين . وكان ميدان القتال واسعًا يزيد على عشرة آلاف ميل مربع . كان القتال يدور في عدة مناطق وجيوب معزولة ، بينما كانت معظم الأراضي الباقية يبابًا بلقعًا وممزقة ومهجورة .

أرسل سين متاتو وجوب أمامهم ، مع فصيل هجومي صغير ، ليبحثوا عن أماكن أو منافذ خالية من الجنود ، ليمروا من خلالها . أما باقي الطابور فسار وراءهم بمسافة معقولة ، وبحذر بالغ ، وتحت حماية الشنقانيين المسلحين بالرشاشات وصواريخ آر بي دي .

واصلوا سيرهم بدون توقف خلال الليل . وكان جنود الاتصال يهرولون ما بين متاتو وجوب ، وبينهم ، ليرشدوهم إلى الطريق الذي يجب عليهم إتخاذه ، كلما كان من الضروري أن يقوموا بالتفاف واسع أو أن يغيروا إتجاههم .

وكانوا من حين لآخر ، أثناء مسيرتهم الطويلة في البرد القارس ، يسمعون قصف المدافع وأصوات المورتر ومدافع المكنة الثقيلة تأتي من بعيد ، عندما كانت قوات الفريليمو المتقدمة تشتبك مع دفاعات رينامو . وكانوا أحيانًا يرون توهج الإشارات الضوئية وهي تنطلق فوق الغابة ، لكن لم يكن هناك صوت مسموع لتوربينات الإيسوتوف أو مراوح الهايند أثناء الليل . وكان من الواضح أن مروحيات الهايند عادة ما تحصر نشاطها وغاراراتها في ضوء النهار حيث يستطيعون تمييز الصديق من العدو ، وحيث يكون دعمهم للعمليات أكثر فعالية .

وقبل ساعة من بزوغ الفجر جاء جوب من خلال الطابور وتوجه نحو سين وأبلغه قائلا : « لن نتمكن من الوصول لأول أهدافنا إلا بعد ساعة أو أكثر من الفجر . إن مسيرتنا أبطأ مما توقعناه وأرجو أن تشير إلينا بما نفعله . فبهذه الطريقة ستجد الهايند فرصتها فينا » .

نظر سين إلى السماء قبل أن يرد عليه . كان الضياء الليموني لأول الفجر قد بدأ يخفي ضوء النجوم ، ثم قال له :

« إن الغطاء الشجري للغابة ليس كثيفًا بما يكفي لإخفاء هذا العدد

الكبير من الرجال وهذا الكم الهائل من المعدات . ما علينا إلا أن نواصل السير حتى نجد مكانًا مناسبًا للإختباء به . دع متاتو يسرع من خطاه » .

- وماذا بشأن المروحيات ؟

- القتال الرئيسي يجري الآن من ورائنا ، وإلى هناك سيتوجهون . علينا أن ننتهز الفرصة ونسرع في السير .

وعندما انتشر الضوء بدأ الرجال ، في الطابور الطويل ، يكثرون من النظر إلى السماء بتوجس وخوف . كانت خطاهم مسرعة ، تكاد تكون هرولة . ورغم أنهم ظلوا سائرين طوال الليل ، إلا أن الشنقانيين كانوا يحملون تلك الأثقال بكل صلابة وتحمل الأفارقة . تلك الأحمال التي قد تقصم قلوب وظهور أقوى الرجال البيض .

كان الصبح قد أطل عندما سمع سين الصفير المخيف للتوربينات ، خافتًا بعيدًا ومتجهًا نحو الشرق . كانت المروحيات تقوم بأولى مهامها الصباحية . لكن الإنذار قد سمع في كل الطابور وسرعان ما جرى الجمالون نحو أقرب غطاء بينما قام قادة المجموعات بالإنحناء وإستعدوا لإستخدام الأعلام الملونة لفريليمو ، والتي كان سين قد ذودهم بها ، في حالة ما توجهت نحوهم طائرات الهايند .

لم تكن هذه الخدعة ضرورية لأن طائرتي الهايند مرتا على بعد ميلين منهم ورأى سين صورتهم الظلية (السيلويت) وكأنها اليعاسيب المشوهة ، سوداء اللون بسبب من إحتجاب الضوء من جهة الطابور . وبعد دقائق سمع هدير مدافعها الجاتلنج وإنفجارات صواريخها وهما تضربان مركزًا حصينًا آخر للرينامو يقع وسط الصخور الحديدية على بعد منهم .

تحرك سين بالطابور مرة أخرى ، وزاد من سرعتهم رؤيتهم العابرة (للموت الطائر) الذي كان يحلق بالقرب منهم . وبعد ساعة هبطت مؤخرة الطابور على المنحدر الحاد للممر الضيق والذي يرقد من تحته مجرى النهر الجاف والكهوف، التي كانت عربات الينموك مخبأة فيها .

كانوا وكأنهم قد عادوا إلى وطنهم ، إذ سرعان ما زحف الجميع حامدين شاكرين صوب الكهوف المظلمة وأنزلوا أثقالهم . وأمرهم سين بعدم التدخين .

تناولوا حصتهم المقررة من رغيف الذرة البارد والمسك المجنف ثم رقدوا على أرض الكهف وناموا وكأنهم كلاب صيد عادت لمقرها بعد طراد شاق .

وجد سين مكانًا خاصًا لكلوديا عند نهاية الكهف ووراء حاجز طبيعي من كتل الحجر الرملي . وفرش لها بطانية على الأرض الصخرية حيث جلست متربعة عليها وبدأت في تناول حصتها من الطعام غير الشهي . لكنها قبل أن

تنتهي منه كانت قد سقطت على جنبها نائمة ، وقبل أن يلمس رأسها الأرض . قام سين بتغطيتها ببطانية أخرى نظرًا للبرد الشديد في أعماق الكهف . ثم توجه نحو المدخل .

كان ألفونسو قد مد سلك الهوائي للراديو اللاسلكي الصغير الذي كان يحمله . تربع على الأرض بجوار الجهاز موطيًا الصوت ، وهو يستمع إلى (تقارير الأحوال) التي يبثها قادة الرينامو الميدانيين مباشرة لمركز قيادة الجنرال تشاينا. وقال ألفونسو لسين بكئابة :

« كل شيء سيء جدًا وعلى كافة الجبهات ، وربما يصل الفريليمو إلى شاطئ النهر ظهر الغد . وإذا لم ينسحب الجنرال فسيتم إجتياحه » . توقف ألفونسو عندما سمع علامة النداء الخاصة به من الجهاز فضغط بيده على زر الميكروفون ونادى :

« شجيرة الموز ! هذا هو الخنزير الإفريقي ! » . ثم ذكر لهم الإسم الكودي لهدفه المحدد : كوكاكولا !

إبتسم سين على هذا الرمز الظريف المستخدم وسط الأدغال الإفريقية . بعد ذلك أكدت شجيرة الموز إستلامها للإشارة وتحولت لجهة أخرى بعد الإتفاق على موعد الرسالة التالية ، على أن تكون فجر الغد . في ذلك الفجر سيكون مصيرهم جميعًا قد تحدد ، بطريقة أو بأخرى .

ترك سين ألفونسو يطوي سلك الهوائي ويعيد جهاز اللاسلكي إلى علبته . ومن فوهة الكهف أخذ يراقب الرجال الخمسة ، والذين كانوا ، تحت إشراف جوب ، يكنسون الأرض الرملية على الشاطئ بأغصان الشوك ليزيلوا آثار خطاهم ويعموها .

ثم عاد جوب إلى فوهة الكهف وسأله سين :

« هل عينت حراسًا ؟ » . فأجابه جوب وهو يشير إلى المرتفعات من فوقهم :

« على كافة القمم . ولقد تمت تغطية كل المداخل » .

توجه معه سين لداخل الكهف وقال :

« حسنًا . حان الوقت لبرمجة وتسليح قاذفات الإستجر » .

استغرق تجميع القاذفات وتوصيل البطاريات وإدخال الإسطوانات في الكمبيوتر الصغير لخزانة المنصة حوالي ساعة من الزمن . وأخيرًا كانت كل القاذفات جاهزة تمامًا من ناحية التسليح والبرمجة للهجوم على مروحيات الهايند بأسلوب الهجوم بلونين . وقاموا بتسليمها لقادة الفصائل الشنقانيين .

ونظر سين إلى ساعته وإستغرب لدقتها وفي مواصلة تعيينها للزمن رغم كل

الظروف القاسية التي تعرضت لها . وقال لجوب :

« يمكننا إغماض عيوننا لبضع ساعات » . لكن أحدًا منهما لم يتحرك . ـ . عن ذلك ، وكأنهما على إتفاق مسبق ، توجها نحو مدخل الكهب ، بعيدًا عن الآخرين ، وإتكأ كل منهما على الجدار الصخري ، وهما يحدقان بتفكير عميق نحو ضفة النهر الجاف حيث كان ضوء الشمس يبرق على الرمال البللورية وكأنها الجليد المسحور .

وغمغم سين :

« إذا ما استمعت لنصيحتي لكنت الآن في أرغد عيشي بمنتديات هراري » .

فابتسم جوب إبتسامة منخفضة وقال له :

« ولن أنال فرصة تدمير آي هايند » . كانت شفته المقروحة قد غطيت بقشرة رقيقة وقد ظهرت عليها نقطة من الدم ، كياقوتة صغيرة ، عندما إنفتح الجرح مرة أخرى . مسحها بمنديله الكبير ومضى يقول :

« لقد قمنا معا بصيد أخطر الوحوش يا سين ، وفي أسوأ وأوعر الأماكن . صدنا الجاموس في أدغال الجسي ، والفيل في كساقا ساقا . ولكن صيدنا القادم سيكون غاليًا وهو الأضخم و لأفضل » .

التفت سين ليتفحص وجهه . كان مما يعطي صداقتهما نكهة خاصة هو وحدة مشاعرهما ونظرتهما للأشياء . فخلال المسيرة الشاقة الطويلة أثناء الليل شعر سين بأن كراهيته للجنرال تشاينا وسخطه عليه قد زال ، وحلت محلها هذه الرغبة المتقدة التي أوقد نارها جوب قبل قليل .... مشاعر الصياد وإنفعاله الشديد .

كان كلاً منهما صيادًا ، وكان الطراد بالنسبة لهما كالنار المتقدة التي تسري في دمائهما وعاطفة قوية ثم يحاول كلاهما إخمادها . كانا يفهمان بعضهما البعض ويعرفان ويقبلان بهذه الرابطة التي جمعتهما معًا والتي إزدادت قوة خلال العشرين سنة التي مضت على مودتهما المشتركة . لكنهما نادرًا ما تحدثا عن شعورهما نحو بعضهما البعض وهذا ما اكتشفه سين الآن حين قال لجوب بعد تفكير وبصوت عال :

« ربما حان الوقت لنتحدث عما يربط بيننا . إننا أكثر من إخوة أشقاء ، أنتي وأنا » .

ببساطة قال له جوب :

« نعم . لقد تجاوزنا في علاقاتنا حتى ما يربط بين الإخوة الأشقاء » .

ثم صمتا مرة أخرى . لم يشعرا بأي نوع من الضيق أو الإرتباك ، بل

بالعكس ، إمتلئا بالقوة والثقة باعترافاتهما . ثم قطع سين الصمت قائلاً :

« لأنك أخي حقًا . هل أطلب منك إسداء معروف لي ؟ » .

أومأ جوب برأسه فمضى سين قائلاً :

« سيكون القتال عنيفًا عند القاعدة . ولا أريد أن تقع كلوديا أسيرة لدي فريليمو ، فإذا لم أكن هناك لمنع ذلك فإن هذا هو الذي أطلبه منك » .

غمرت الظلال عيني جوب وقال بأسى :

« لا أريد التفكير في هذا الإحتمال » .

- إذا لم أكن هناك . هل تقوم به نيابة عني ؟

- نعم . في هذه الحالة .

- إذا ما كان عليك أن تقوم بتلك المهمة فأرجوك ألا تحذرها ولا تتحدث معها بل قم بها بدون أن تتوقع هي حدوث شيء .

- أعدك بألا تعرف ما سيصيبها وسيتم كل شيء بسرعة .

ربت سين على كتف صديقه وقال له :

« شكرًا يا جوب . والآن يجب علينا أن نرتاح قليلاً » .

كانت كلوديا نائمة وكانت أنفاسها تتردد في عذوبة وهدوء حتى أن سين، للوهلة الأولى ، ظن بصحتها الظنون . ألصق رأسه بالقرب من صدرها وشعر بدفء أنفاسها على صفحة وجهه . قبلها فغمغمت ومدت يديها إليه فتمدد ورقد بجوارها .

بدا عليه أنه لم ينم سوى لحظة حينما شعر بلمسة خفيفة على خده أيقظته . نظر ورأى جوب جالسًا بالقرب منه :

- حان الوقت يا سين .

نهض سين وقال بصوت خافت مخاطبًا كلوديا : « واصلي نومك يا حبيبتي » ثم نهض وتوجه مع جوب نحو الرجال الذين كانوا في إنتظاره أمام الكهف وعلى رأسهم متاتو وألفونسو وقادة الأتيام ، يحملون أسلحة خفيفة حتى تتم تحركاتهم بخفة وخفية .

وقال جوب : « الساعة الآن الرابعة بعد الظهر ». ورأى سين أن ضوء الشمس على مجرى النهر قد رق وطالت الظلال . لم يكن قد تبقى شيء ليقال فلقد قاما بنفس الشيء مئات المرات من قبل . تمنى جوب اللقاء ثانية وأومأ سين برأسه وهو يشد أربطة حقيبة ظهره .

أخذ متاتو يرقص أمامهم وكأنه جني الغابة وتبعوه جميعا متسللين خارج

الكهف إلى عتمة الأشجار ثم إتجهوا جنوبًا وهرولوا في تشكيل الطابور .

سمعوا لمرتين أصوات المروحيات تمر عن بعد . وفي إحدى الممرات إنبطحوا جميعًا على الأرض بداخل الأخاديد القريبة حينما مرت مروحية من فوقهم على إرتفاع كبير.

قدر سين إرتفاعها بحوالي أربعة ألف قدم وكانت تطير بأقصى سرعتها . رفع سين منظاره إلى عينيه وبدأ في مراقبتها وخمن أنها إنتهت من مهمتها وعائدة الآن إلى قاعدتها للتزود بالزخيرة والوقود . أكدت تخمينه رؤية خلو حوامل صواريخ السواتر الموضوعة تحت جسم الطائرة منها كما كانت فوهات حجرات الصواريخ مسودة اللون من جراء اللهب الذي إنطلق من الصواريخ أثناء هجومها على أهدافها .

كانت المروحية متجهة بالضبط نحو المكان الذي يقودهم إليه متاتو الآن . وحتى عندما ضبط سين المنظار عليها ، رأى أن المروحية قد خففت من سرعة توربيناتها وبدأت في الهبوط نحو ملجئها . وتوصل سين إلى أن القاعدة وملاجئ الطائرات قد لا يبتعد عنهم بأكثر من خمسة أميال . نظر إلى متاتو ، والذي كان واقفًا مترقبًا سماع آيات الاستحسان والثناء من سين . وابتسم متاتو وقال :

« كالنحلة عائدة إلى خليتها » .

ابتسم له سين في حنو وقال :

« إن لك عيونًا كعيون الصقر ، ترى كل شيء » .

ولم يتمالك متاتو نفسه من الطرب وإحتضن نفسه مسرورًا وأخذ يتأرجح ويهتز فقد كان إطراد سين له هو كل ما يطمح إليه .

وبعد نصف ساعة بدؤوا في الزحف ، كالنمور ، على بطونهم ثم شرعوا في الصعود إلى قمة صخرية لجبل صغير ومنها إنزلقوا مع الأفق إلى الناحية الأخرى قبل أن يرفع سين منظاره . استخدم كاب رأسه العسكري ليغطي العدسة ، إذ أن أي إنعكاس لضوء الشمس عليها سيبرق كالهليوجراف ليكشف مكانهم .

التقط خط السكة الحديد في الحال ، على مسافة تقل عن ميلين منهم ، وكانت الطرقات مفروشة بحصى القرانيت الأزرق بينما التمع الخط الوحيد للقضبان الحديدية ، في ضوء الشمس الغاربة ، بلمعان صقله مرور العجلات الحديدية للعربات عليه ، ولأزمان طويلة .

تتبع الخط الحديدي لحوالي ميل ورأى التقاطع المتفرع من الخطر والذي وقفت عليه عربتان للوقود . كان الخزانان شبه مختفيين وراء أشجار ضامرة هزيلة ، وصف من الشجيرات بجوارها .

بعد دقائق رأى عاصفة من الغبار تثور كالريش المنفوخ بداخل الغابة ثم رأى عربة للوقود تتحرك على الطريق الترابي ثم تتوقف بجانبي الصهريج الضخم للوقود . رأى سين من خلال منظاره المقرب رجالاً يرتدون أفرولات ويقومون بتوصيل خرطوم للسحب بالصهريج ويضخون الوقود إلى خزان العربة .

وبينما كان العمل جاريًا ، نهضت إحدى مروحيات الهايند بصورة درامية فجائية من المنحدر الأمامي للجبل ، الواقع خلف التقاطع الفرعي للخط الحديدي . وهكذا عرف سين ، أخيرا ، موقع الملجأ الذي تهبط وتقلع منه هذه الطائرة . طارت المروحية لإرتفاع ثلاثمائة قدم فوق الجبل ثم إستدارت وتوجهت بعيدًا ، بشكلها الأحدب وأنفها الثقيل ، لإنجاز مهمة أخرى لها في مواقع الإشتباكات العنيفة بالشمال ، وقبل هبوط الظلام وتوقف العمليات .

وبعد أن عرف الآن مكان القاعدة بالضبط ، أصبح مستطاعًا التعرف على بقية المواقع ، المموهة بدقة بالغة ، على منحدرات الجبل . إستطاع أن يعد ستة منها وأخبر متاتو بذلك . إبتسم متاتو بزهو وأشار إلى بعض المواقع التي فات على سين رصدها وقال :

« هناك موقعان آخران . كما أن على الجانب الآخر من الجبل ثلاثة أخرى لا يمكنك أن تراها من هذا المكان » .

اتضحت الحكمة من وراء قيام سين باستكشاف ميداني في ضوء النهار حيث أصبح قادرًا على التمييز بين النماذج التي وضع على أساسها خطة هجومه وبين الطبوغرافية الحقيقية لملاجئ الطائرات وما حولها من معالم . وقام بتسجيل هذه الفروق بدفتره ، وبدأ يعين تقديراته للمسافات ولمدى النيران التي سيتم إستخدامها . ثم نادى قادة الأتيام واحدًا بعد الآخر وأشار لكل منهم بالضبط على المواقع التي يريد منه إحتلالها فور وصول أتيامهم ، وبعد أن يغطيهم الظلام.

اكتفى سين بما حصل عليه من معلومات من متاتو وأرسله إلى جوب :

« بعد غروب الشمس وحلول الظلام عليك إحضار جوب وبقية الرجال إلى هنا » .

قضى سين الساعة الأخيرة للنهار ، بعد إنصراف متاتو ، في مراقبة مروحيات الهاليند وهي عائدة لقواعدها من الشمال . كانت هناك إحدى عشرة طائرة وهو دليل ساطع على كفاءة مهندسي الصيانة من الروس والذين تمكنوا من إصلاح الطائرتين المعطلتين التي أبلغ متاتو بأنهما لا تطيران . بالتالي كان كل السرب ، ما عدا الطائرة التي حطمها سين ، مشتركًا في العمليات ويقوم بإبادة رهيبة لثوار الرينامو .

وبينما كانت كل مروحية تحلق فوق الجبل ثم تهبط إلى ملجئها ، كان

سين يقوم بإيضاح خصائص طيرانها لقادة الأتيام ويحثهم على إستيعاب كل موقع وملجأ لأي مروحية ويعيد تأكيد مهمة كل منهم :

ـ هذه الطائرة لك يا (تندللا) . أنظر كيف تحلق في السماء . ستقوم بتدميرها من مكانك وسط أجمة تلك الأشكار السوداء على حافة حفيرة الماء . هل فهمت ذلك تمامًا ؟

ـ لقد استوعبتها تمامًا ، أنكوزي كاكولو .

بدت الحمرة على السماء مؤذنة بالغروب وتساءل سين بينه وبين نفسه ، وهو يرى حمرة الدم القاني لتتوارى خلف الأشجار، كم من الدماء ستسفك عند الفجر .

ثم تلى ذلك ظهور الشفق الإفريقي القصير الأمد ، لكن الظلام لم يكن قد انتشر بالدرجة التي تمكنهم من التسلل من المرتفع الذين تبعوا فيه . لم يكن هناك حوجة للمزيد من النقاش وجلس سين والفونسو متجاورين . كان الشعور العام مألوفًا لديهما ولدى سين خاصة . ورغم إنه إنتظر هذه الطريقة لعدد لا يحصى من المرات ، إلا أنه لم يكن يقدر على السيطرة ، أو على تجاهل، ذلك التوتر الذي يضغط كالحزام المطاطي المشدود على أمعائه . كان ذلك هو الترقب المبكر لجفاف الرعب والفزع ، الذي سريعًا ما سيرويه حتى الثمالة . كان يحس بالشوق والحنين إليه مثلما يشتاق المدمن ويحن لطعنة الإبرة والمخدر . وفي نفس الوقت كان يخشاه حتى أعماق دواخل نفسه .

وتحدث ألفونسو بصوت خافت :

« سنقوم بمقتلة عظيمة في الفجر . ستكون حرب الرجال الذين هم رجال حقًا » .

فأومأ سين برأسه وقال له :

« نعم يا صديقي . سيكون القتال طيبًا . لكننا إذا فشلنا فما عليك إلا أن تحاول قتلي . وهذا يأيضًا سيكون قتالاً طيبًا » .

دمدم ألفونسو بضيق وعيونه تعكس الوهج الأحمر الدخاني للغروب :

« سنرى ! نعم سنرى ! » .

وبحلول الظلام تلاشى مظهر الجبل الذي تقبع على سفحه قواعد المروحيات، ثم ظهر كوكب الزهراء وأطل ضوءه الثابت على قمة الجبل مباشرة وكأنه يشير إليه ويحدد موقعه لهم . وخلال الساعة الأولى للظلمة ظهر من خلال الأشجار قادة طابور الهجوم وعلى رأسهم جوب وبجواره كلوديا بينما كان متاتو يرشدهم لمكان سين . شرع سين في الحال بتوزيع المهام والمواقع

عليهم . تولى القادة مهامهم وشرعوا في فتح صناديق قاذفات الإستنجر وتجهيزها ثم إعادة فحص الصواريخ الخاصة بكل قاذفة وتجهيزها بعد إخراجها من أنابيب حفظها .

أخذ سين وجوب وكلوديا في التوجه من تيم لآخر ، يراجعون حالة القاذفات ويتأكدون من أن البطاريات مشحونة وموصلة تمامًا ، وأن الأسطوانات المحتوية على غاز الفريون مفتوحة الصمامات ، وأن شاشة الهدف تضيء عندما توصل بجهاز التشغيل الميكانيكي .

وأخيرا استعد سين لتوزيع أتيام صواريخ الإستنجر . لكنه قبل أن يقوم بذلك جمع قادة الأتيام وكرر لهم ، للمرة الأخيرة ، تعليمات وطلب من كل واحد منهم إعادة ما سمعه . وبعد أن رضي أخيرًا ، بدأ في توزيعهم على مواقع الهجوم المحددة لكل منهم . سمح بفترة خمس دقائق لتفصل بين تقدم كل فريق منهم نحو هدفه .

تحدد لألفونسو قيادة تيم الصواريخ الذي سيهاجم السور الشرقي للقاعدة . ولأن المكان بعيد فقد كان أول من غادر . وعندما جاء دور جوب ، الذي سيهاجم السور الغربي ، للذهاب ، تصافح مع سين وهذا أيديهما . لم يتبادلا الأماني الطيبة ، فقد كان كلاهما يتطير من ذلك . لكن جوب سأله مداعبًا :

« إسمع يا سين . بخصوص الأربعة ألف دولار الخاصة بالبونص . ألا تريد الدفع لي الآن ؟ ».

فابتسم سين ، من خلال الكريم الأسود الذي كان قد مسح به وجهه للتمويه ، وقال له : « من الممكن أن أعطيك صحكا بذلك » .

بادله جوب الإبتسام وربت على كتف صديقه ثم مضى بعيدًا ليسمح لسين بالخلو إلى كلوديا .

وهمست كلوديا لسين :

« لا أريد أ ، أتركك » . واحتضنها سين بقوة وأمرها :

« إلزمي جانب جوب دائما » .

- عد لي سالمًا .

- حاضر .

- عدني بذلك .

- أعدك بذلك .

ثم تركها حيث توجهت نحو جوب وإحتواهما الظلام .

تابعها سين بنظراته ووجد أن يراه مرتجفتين . أدخلهما في جيبه وضم قبضته

محدثًا نفسه :

« الحب قطعًا لا يفعل الكثير لغريزة القتال لدى » . ورغم أنه حاول إبعادها من ذهنه إلا أنه غمغم : « لكنها ستكون على ما يرام بوجرب » .

كان الفصيل الآخر ؛ المخصص للهجوم على دفاعات القاعدة ، في إنتظار سين بصبر شديد وهم متربعون على الأرض . كانوا أربعة وعشرين رجلاً ، وقود المدافع أو القنابل البشرية كما تخيلهم سين بحزن وأسى . هم الرجال الأقوياء الذين لم يوافقوا في إختبار القدرات لتشغيل الإستتجر . وبينما ستقوم الفرق المجهزة بقاذفات الصواريخ بالعمل من مواقع ثابتة على بعد خمسمائة متر خارج أسوار القاعدة ، فإن فرق الهجوم ، تحت قيادة سين ، ستهجم على القاعدة هجومًا مباشرًا ، وأيضا من الأطراف ، بقصد تركيز النيران المضادة باتجاههم، وفي نفس الوقت لدفع المروحيات للخروج من ملاجئها ، مرتفعة في الهواء ، مما سيتيح لرماة الصواريخ القيام بالتصويب نحوها وتدميرها .

هذا الفصيل هو الذي سيواجه مدافع ١٢,٧ ملمتر المتحصنة وراء مراكزها الدفاعية القوية ، مثلما سيواجه كل العقبات والمخاطر الرهيبة الأخرى التي تدافع عن القاعدة .

مهمتم هي أصعب مهام الحملة كلها . ولهذا السبب وحده لم يطمئن سين لتسليم قيادتهم لأي شخص آخر ، وهو الذي سيقودهم .

ونادى سين متاتو بصوت خافت . كان كلما واجه خطرًا ماحقًا أمامه ، مثل وحش جريح وسط الأحراش الكثيفة ، أو موقعًا قويًا للعدو ليهاجمه ، كان متاتو دائمًا يقف بجواره من تلقاء نفسه ، ولم تكن هناك قوة تستطيع إبعاده عنه مهما كانت الظروف .

وكدليل على الإحترام والتقدير ، كان ألفونسو قد أهوى سين بندقية هجومية طراز إي كي إم ، وهي الطراز المحسن والأحدث للبندقية المعروفة إي كي ٤٧ التي كان الثوار حريصين على إقتنائها وإستخدامها . كان سين يحمل معه هذه البندقية الآن عندما تحرك بفصيل الهجوم وهبطوا من المرتفع الجبلي . وتحت إرشاد متاتو ، قام أثناء الليل بدورة إلتفافية أوصلتهم لمكان يقع بين خط السكة الحديدية وبين سور القاعدة ، وبأقرب ما يكون للخط الدفاعي الذي كانت تقف عليه تاكر الوفود الضخمة .

لم يكن هناك داع للإستعجال ، فقد كان لديهم الليل بطوله لإتخاذ مواقعهم ، ومن ثم تحركوا خفية وتسارعت خطاهم كلما إقتربوا من مواقع العدو .

تجاوزت الساعة الثانية صباحًا وأفل القمر عندما إنتهى سين من توزيعهم

على مراكز الإنطلاق ، والتي قام بتوزيعها ببدقة فائقة على مسافات محددة من بعضها البعض بحيث ليتمكنوا ، عند إعطاء الإشارة ، من التحرك سويًا للأمام في تشكيل القتال والصدام .

قام بالتفتيش عليهم للمرة الأخيرة ، وهو يزحف في صمت من رجل لرجل ، ويقوم بنفسه بتصويب مدافعهم المورتر م ٤ عيار ٦٠ مليمترًا أو تعديل وضعها ، ثم ليتأكد من أن أيًا منهم مستوعب تمامًا لدوره وهدفه ، ثم يغادرهم بهمسة تشجيع وطرقة خفيفة ثابتة لكتف كل منهم . وأخيرًا ، وبعد أن تأكد من عمل كل ما يمكن القيام بعمله ، جلس على الأرض في إنتظار وترقب.

كانت هذه دائمًا أسوأ فترة من فترات القنص ، وأجملها . وهو جاثم في صمت ، تساءل كم من حياته قضاه بهذه الطريقة ، في إنتظر البداية ، في إنتظار ظهور الضوء المناسب لإطلاق النار ، منتظرًا في المخبأ لتلك اللحظة التي تقف فيها الأنفاس عندما يظهر الفهد بفجائية سحرية أمام شجرة الطعم وشبح ظلاله تبرز واضحة أمام الفجر البازغ .

رجع بذاكرته عبر السنين لتلك المغامرات والمهام الجسيمة الشرسة التي قام بها ، وللمخاطر الرهيبة والإثارة التي لا تحتمل والإنفعالات التي مرت به ، وأدرك فجأة أن هذه المرة ربما كانت الأخيرة من تلك الأحداث . لقد تجاوز عمره الأربعين عامًا كما إن كلوديا مونتيرو قد دخلت حياته وقد آن الأوان لتغيير مسارها . غمره الحزن ، وفي نفس الوقت ، شعور بالرضى لهذه الأفكار ، وحدث نفسه قائلاً :

« سيكون صيدي الأخير هو أفضلها جميعًا » . وفي عتمة الليل والظلام الذي يسبق الفجر سمع صوتًا مثيرًا ومفزعًا في نفس الوقت . النحيب المرتفع لتوربينات ضخمة تصرخ بعواء في أواخر الليل كالذئب آكل الإنسان . وما لبث أن إرتفع صوت ثان ثم ثالث . فقد كان سرب المروحيات قد شرع في تسخين المحركات تمهيدًا لأول هجمات يقومون بها عند الفجر .

نظر سين إلى عقارب ساعته المضيئة والتي أشارت لأحد عشر دقيقة قبل الخامسة . لقد حان الوقت تقريبًا . وبدون تفكير إنتزع خزنة الرصاص المنحنية كالموزة من بندقيته إي كي إم وقام باستبدالها بأخرى أخرجها من جراب الخزن المعلق على حزامه العسكري . أعطته هذه العادة الرمزية نوعًا من الراحة لإعتياده الطويل لها ، وأخذ متاتو ، الذي وقف بجواره ، يهتز منفعلاً وممتلئًا بالترقب ، وهو ينظر إليه . وجاءت نسائم الفجر برقة المحبين مربتة على صفحة خد سين .

أدار وجهه نحو الشرق ومد يده فاردًا أصابعه . إستطاع بالكاد أن يرى شبح

أصابعه أمام الفجر القادم . هذا ما يطلق عليه المثابيلي « وقت القرون » ، وهي اللحظة من الفجر التي يستطيع فيها راعي المواشي المتابيلي رؤية قرون أبقاره على الأفق الشرقي من السماء .

وذكر سين نفسه : « الضوء الكافي لإطلاق النار بعد عشر دقائق » . كان يعلم كم هي طويلة هذه الدقائق العشرة لتأتي .

وواحدة بعد الأخرى أبطلت المروحيات محركاتها ، حيث ستقوم الأتيام الفنية الأرضية بإكمال تزويدها بالوقود والذخيرة ، ويستعد الملاحون للصعود .

كان على سين أن يكون حكمه صائبًا وأن يكون الضوء هو فقط المناسب . فمروحيات الهايند قد لا تستخدم أضواء الهبوط السفلية لها ، وعلى أتيام قاذفات الصواريخ أن تكون قادرة على رؤية الطائرات بوضوح على ضوء الفجر .

بدأت إطلالة الضوء تتسلل بسرعة . فأغمض سين عينيه وأخذ يعد من واحد لعشرة قبل أن يفتح عينيه ثانية . إستطاع الآن أن يرى تخوم الجبل وكأنه مرسوم على لوحة سوداء ، وأن يرى حواف أغصان أشجار المساسا على أفق السماء القرمزية وهي تتهادى بجلال أمام نسائم الفجر .

وأصدر أمره لأحد رجال المورتر الذين بجواره : « أطلق النار ! » .

انحنى الجندي للأمام وهو يحمل قذيفة المورتر بكلتا يديه وألقاها في فوهة ماسورة المدفع . إشتعلت شحنة ذيل القذيفة . وبفرقعة هادئة أطارت بعيدًا قذيفة الإشارة ، لإرتفاع خمسمائة قدم في السماء فوق قمة الجبل ، وإنفجرت وتطايرت منها ، متوهجة ، أضواء حمراء متلألئة تبهر الأبصار .



انحدرت كلوديا مونتيرو وراء جرب من سطح الجبل . كانت تسير بالقرب منه بحيث أنها ، إذا ما مدت يدها للأمام ، للمسته . حمل جوب على كتفه أحد قاذفات الصواريخ ، ومن وراء كلوديا كان الجندي نمرة إثنين يمشي وقد حمل على ظهره المحنى الأنابيب التي تحوي الصواريخ الإضافية الثقيلة .

كان الطريق متفككًا وعرًا وكانت حصيات الكوارتز تنزلق تحت أقدامهم وكأنها اللآلي الكروية . وشعرت كلوديا بالسرور من ثباتها في مشيها على هذه الأرض الوعرة كأي واحد منهم .

لكنها مع ذلك تبللت بالعرق ، رغم شدة البرد في الليل ، عندما بلغوا سفح المنحدر وبدأوا الزحف قدمًا نحو أسوار القاعدة . تعجبت من نفسها حيث كانت منذ وقت قريب ، لا يتعدى بضع أسابيع ، تشعر بالإرهاق والإرتباك في مثل هذه الظروف . لكنها الآن كانت قادرة على التصرف وعلى تحديد الإتجاه .

مستعينة بالنجوم ، مثلما كانت تستجيب في الحال لإشارات جوب ، وتقوم تلقائيا بإخفاء آثار أقدامها بنفسها .

وصلوا للغيضة القصيرة الأشجار ، كثيفتها ، والتي ستكون مركز هجومهم المرتقب وتسللوا بداخلها زاحفين . ساعدت كلوديا جوب في تجهيز منصة الإستنجر لتكون جاهزة للإستخدام ، ثم وجدت لنفسها بقعة مريحة تحت إحدى الأشجار .

تركها جوب في مكانها وبرفقتها الشنقاني نمرة إثنين وإختفى في الظلام كالفهد . لم تكن مرتاحة للإبتعاد عنه رغم علمها بأنها ، وبعد وقت غير طويل، ستكون وسط دوامة من الرعب والخطر والخوف . عفرت كم أجبرتها الظروف وعلمتها ، في تلك الأسابيع الماضية ، على تحمل المشاق وعلى الخشونة والإعتماد على نفسها . وإبتسمت محدثة نفسها : « سيكون بابا فخوراً بي » . وإستخدمت الفعل الدال على المستقبل وكأن والدها لا يزال حيًا . وأكدت لنفسها : « قطعًا هو فخور بي . إنه لا يزال في مكان ما هناك ينظر إلى . كيف بدونه إستطعت أن أقوم بكل ما قد قمت به » . كانت ذكراه راحة لها . وكلما فكرت فيه إختلط في ذهنها بسين حتى بدا وكأنهما إمتزجا في كيان واحد ، أو كأن أباها قد تجسد بطريقة ما أو ظهر من جديد مجسداً في شخص حبيبها. هذا الشعور وتلك الذكرى أنسياها وجدتها إلى أن قطعها جوب بظهوره المفاجئ ويمثل ما كان قد غادر . وهمس لها عندما جلس بجوارها :

« كل الأقسام الأخرى متخذة مواقعها تمامًا . سيكون أمامنا قتال طويل . لذا حاولي أن تنالي قسطًا من النوم » .

« لن أستطيع النوم » . إحتفظت بصوتها خافتًا حتى اضطر لينحني بالقرب منها ليلتقط حديثها : « أرجوك أن تخبرني عن سين كورتني . أريد أن أعرف كل ما تعرفه أنت عنه » .

ـ إنه أحيانا بطل وأحيانًا وغد من كبار الأوغاد ! لكن ، وفي معظم الأحوال، فهو شيء وسط بين الاثنين .

ـ إذن لماذا بقيت معه طوال هذه الفترة ؟

ـ لأنه صديقي الصدوق .

خرجت كلماته ببساطة وهمس ، ثم ببطء وتمهل بدأ يحدثها عن سين ، واستمر يحكي لها طوال الليل .

إستمعت كلوديا إليه بشغف شديد وكانت تشجعه للإستمرار بإلقاء أسئلة هادئة عليه :

« لقد كان متزوجًا . أليس كذلك يا جوب ؟ » أو « لماذا غادر وطنه جنوب

إفريقيا ؟ لقد علمت بأن أسرته واسعة الثراء . فلماذا إختار مثل هذه الحياة ؟ » .

وهكذا إنقضى الليل . وفي تلك الساعات صارا صديقين ، وجدت فيه الصديق الحقيقي الوحيد في إفريقيا . وفي النهاية قال لها بصوته الإفريقي العميق الجميل :

« إنني سأفتقده لدرجة لا أستطيع التعبير عنها» .

- إنك تتحدث وكأنكما ستفترقان وليس هذا صحيحً . سيكون كل شيء باقيًا كما هو .

- لا ! لن يكون كل شيء كما هو أبدًا . إنه سيذهب معك . لقد انتهى عهدي معه وبدأ عهدك .

مدت يدها ولمسته برفق وناشدته :

« لا تكرهني لهذا السبب » . فقال لها : « ستنعمان بالحياة سويًا وستكون رحلتكما معًا في هذه الحياة جميلة وحميمة مثل رحلتي معه . سأحلق بفكري نحوكما وإنني أتمنى لكما كل السعادة والمرح في حياتكما معًا » .

همست له بعذوبة ورقة :

« شكرًا لك يا جوب . ستكون دائمًا صديقنا » .

رفع جوب ذراعه وفرد أصابعه المفتوحة باتجاه الشرق وغمغم بصوت خافت :

« إنه وقت القرين وعلينا أن نشرع في العمل » . وقبل أن يكمل حديثه إنفجرت في الهواء ، فوق التل ، باقة من النيران القرمزية الباهرة للأبصار .

❖ ❖ ❖

عندما انفجرت قذيفة الإشارة وأنارت الفجر الباذغ ، كانت المعركة قد ولدت . كان سين دائمًا ما يعتبر بداية المعارك كالولادة ، أو كوحش عليه أن يحاول توجيهه رغم أنه حي وله إرادة ذاتية ، أو كحدث مخيف مفزع يجتاحهم جميعًا ويحملهم معه للأمام طوعًا أو كرهًا .

كان قد سلم صواريخ آر بي جي (٧) لاثنين من أفضل رماة المدفعية المتبقين بعد فرز أكثرهم مهارة وخبرة وتحويلهم للعمل في قاذفات الإستنجر . طار الصاروخ الأول واطيًا وأرتضدم بالأرض أمام أقرب تانكر للوقود بعشرين قدمًا وإنفجر متوهجًا بلهيب أصفر اللون ، ورأى سين أحد الحراس الفريليمو يطير في الهواء وهو يتقلب . وجاء الصاروخ الثاني أكثر إرتفاعا وتجاوز التانكر بستة أقوام بعد أن بلغ قمة إرتفاعه لخمسمائة ياردة ثم سقط في الغابة الخلفية بصوت مخنوق من جراء الأشجار والأجمات الكثيفة .

وصرخ سين من بعيد وهو يجري نحوه :

« صوب أيها الثور الشنقاني ! » . فقد أدرك إنه أخطأ لعدم قيامه بإطلاق القذيفة الأولى الفاصلة بنفسه .

كان الحراس الفريليمو يستغيثون ويصرخون وهم يتبعثرون حول تناكر الوقود . ومن سور القاعدة بدأ مدفع ١٢,٧ ملمتر في الضرب مطلقا نيرانًا متصلة رهيبة عبر السماء .

أدرك سين المدفعجي الشنقاني ، والذي كان يحاول مرتبكًا إعادة تعبئة مدفعه آر بي جي (٧) . لكنه كان مضطربًا غير واثق من رميه في الظلام . إنتزع سين القاذفة من على كتف الشنقاني وبحركتين سريعتين إنتزع غطاء الصاروخ ونزع عنه دبوس الأمان . ثم وضع القاذفة على كتفه ، وركبته على الأرض ، وصوب الصاروخ نحو أقرب تانكر . إنتظر لثوان حتى تتوقف هبة نسيم الفجر العابرة ، فقد كان يدرك أن صاروخ آر بي جي (٧) يفقد دقته عند إطلاقه عبر إتجاه الريح ، حيث تقوم الرياح التي تهب على زعنفته بتحويله لاتجاهها .

توقفت دفقة الهواء وركز سين تنشينه على تانكر الوقود . كان المدى لا يزيد على ثلاثمائة مترًا ، وهو في حدود قدرة الصاروخ ودقته ، ثم أطلق النار . طار الصاروخ وإرتطدم بصفحة التانكر الذي إنفجر وسط شريط مرتفع نحو السماء من وقود الطائرات المشتعل وإمتلأ الفضاء باللهب والدخان .

انتهز سين جندي الصواريخ الذي كان واقفًا بالقرب منه وأسرع الرجل مرتبكًا ليخرج صاروخًا آخرًا من الصندوق ، كان لا يزال داخل علبته من الكرتون المقوي .

أضاء الوقود المشتعل المنحدر الجنوبي للتل وحوله إلى نهار ساطع ، كان سين راكعًا من العراء ، وسرعان ما صوب مدفعجي الـ ١٢,٧ ملمتر مدفعه باتجاهه وأطلق قذائفه . ذابت الأرض من حول سين في موجة من السحاب والدخان والغبار والأحجار الطائرة ورقد الشنقاني على الأرض. وصاح سين فيه :

« انهض أيها الوغد » وأكمل سين تعبئة القاذفة بنفسه غير عابئ بالمدفعجي والذي كان موجهًا نحوه مدفع الـ ١٢,٧ ملمتر .

رفع القاذفة على كتفه وصوب نحو التانكر الثاني والذي كان مضاءًا باللهب ، وكأنه مشهد من مسرحية ، وعندما كان على وشك إطلاق النار رأى أن التانكر قد إحتجب بستارة صفراء من الغبار ، وإنطلقت نحو سين عاصفة من قذائف المدفعية مرت بالقرب من رأسه وكادت أن تفجر طبلة أذنه من جراء الضغط الذي أحدثته .

توقف لثلاثة ثواني ، وعندما إنزاحت ستارة الغبار قام بإطلاق مدفعه خلالها وسرعان ما إنفجر التانكر وطار بعيدًا عن خط السكة الحديد بقوة إنفجار

شحنته القاتلة من الوقود .

سال الوقود الملتهب على سفح الجبل وكأنه الحمم تنطلق من بركان فيزوف صغير . وألقى سين بالقاذفة على صدر الشنقاني وصرخ فيه :

« اضربهم على رؤوسهم بهذا الشيء الدموي ! وهذا هو الضرر الوحيد الذي ستسببه لهم » .

كان باقي رجال المورتر يقومون بعملهم بطريقة أفضل . فقد كان سين قد جهز لهم أسلحتهم وصوبها من قبل . وكانوا يقومون ويقعدون وهم يلقون بقذائف المورتر ذات الزعانف بداخل مواسير القاذفات ، وبدأ سيل منتظم من القنابل يطير في الهواء عاليًا ثم يسقط على القاعدة التي على سطح الجبل . راقب سين تأثير الإنفجارات بعيون المحترف البعيدة عن الإنفعال وغمغم : « هذا حسن . هذا طيب » .

لكنه يعلم أنهم لم يستطيعوا حمل أكثر من ثلاثين قذيفة لكل مورتر تزن القذيفة كيلو جرامين . وكان يعلم أنهم سينتهون منها في بضع دقائق . لذا كان عليهم اقتحام سور القاعدة أثناء صرف الفريليمو إنتباههم لتلك القنابل المتفجرة . رفع سين لبندقيته إي كي إم وأزاح لسان الأمان ثم صاح فيهم وهو يطلق سلسلة من الصفير المتقطع بصفارته : « هيا إليهم ! » .

ثغر الشنقانيون على أقدامهم في حركة منسقة واحدة وأسرعوا هابطين على صفحة الجبل . كان هناك عشرون منهم ، خط ضعيف من رجال يجرون وقد أضاءتهم نيران اللهيب وجعلت منهم هدفا واضحًا لمدافع ١٢,٧ ملمتر المنصوبة على الجبل . وسرعان ما جا جاءت القذائف من حولهم كالجراء الطائر .

وصرخ سين وهو يضحك بصوت عالي من هول الوقف : « يا للعنة ! ماذا نفعل؟ » .

كان أحد رماة الفريليمو قد التقط سين من بين فصيل الهجوم وبدأ يركز نيرانه عليه . لكن سين كان يقفز ، أثناء هبوطه من الجبل ، بخطوات طويلة ويتمايل يمينًا ويسارًا وكانت الطلقات إما عالية فوقه أو إلى الخلف منه قليلاً . ومرت رصاصة بالقرب منه حتى شعر بضغط هوائها على بزته . وبطريقة شبه مستحيلة كان يطيل من خطاه ومتاتو بجانبه يقهقه ضاحكا ، وهو يلزم جانبه . فصرخ في وجهه :

« ما المضحك في الأمر أيها الشحاذ المخبول الضئيل ؟ » ووصلا إلى الأرض المسطحة بالقرب من التاكر المحترقة . غطت سحابة من الدخان الأسود الجو رحم يعد بمقدور مدفعجي الفريليمو رؤية سين . وإنتهز سين هذه الفرصة لترتيب صفوف الإقتحام لجنوده الشنقانيين المهرولين بحماس ، ووجههم نحو المركز

ومحيط القاعدة ، وهو يشير بقبضة يده المرفوعة عاليًا لها ويحثهم على الإسراع .

إستغلوا سحائب الدخان ليتسللوا نحو المائتي متر التي تفصلهم عن الهدف ، قبل أن تعمل نسائم الفجر على تشتيتها بشكل منهمر من السناج الأسود الذي هبط على الأرض .

وخرج من بين الدخان والسناج أحد جنود الفريليمو ، متعثرًا في مشيته ، أمام سين ، كان مرغويًا بنطلونًا ممزقًا من الجينز وحذاء تنسّى . وكان قد فقد سلاحه .

ويبدو أن شظية صاروخ قد أصابت عينه ، فقد كانت العين منتزعة من محجرها ومتدلية على خده ، وكأنها حبة من العنب ، وهي تهتز وتضرب خده ، متصلة بالحبل العصبي العيني ، والرجل يهز رأسه برعب وأسى .

وبدون أن يهدئ من سرعته أطلق عليه سين زخات من رصاص بندقيته أصابته في بطنه ثم قفز فوق جسده الذي تمدد على الأرض وواصل جريه .

تلاشت سحابة الدخان ونظر سين إلى جنود وعرف في الحال ، ولدهشته ، أنه لم يفقد واحدًا منهم . فقد كان العشرون شنقانيا منتشرين وهم مسرعون بدون أن يكونوا هدفًا لرماة الفريليمو ومدافعهم الآلية .

وفي تلك اللحظة رأى سيد السلك الوحيد المشدود وعليه صفوف من الأقراص المعدنية المستديرة معلقة عليه بأسلاك قصيرة ، على بعد خطوات أمامه. كان على وجه كل قرص رسم لجمجمة عليها عظمان متصالبان بلون قرمزي متوهج تحت ضوء اللهيب والنيران . وقبل أن يتحقق تمامًا مما رأى ، كان هو ورجاله قد دخلوا في حقل الألغام الذي يحيط بسوء القاعدة ويحميها.

بعد ثانيتين فقط ، كان الشنقاني الذي يجري على يمين سين قد هبط برجله على لغم مضاد للأفراد . ومن خصره فما دون ، كان جسمه قد إختفى وسط الغبار ووميض الإنفجار وسقط على الأرض بينما تمزقت كلتا رجليه وتحولتا إلى قطع دموية متطايرة أسفل ركبته .. وصرخ سين في جنوده :

« واصلوا الإقتحام ! فقد كدنا نصل إليهم » . لكن الخوف تملكه الآن وتسلل كالوحش الأسود إلى جسمه وركبه وخنق أنفاسه . فأن تصبح مقعدًا مبتور الأطراف كان بالنسبة إليه مخيفًا ومرعبًا أكثر من الموت نفسه . كانت الأرض تحت أقدامهم مزروعة بكبسولات الموت أو البتر المحقق للأطراف السفلية . وسرعان ما قفز متاتو أمامه وأجبره على ضبط خطواته وقال له بصوته الرقيق باللغة السواحيلية :

« اتبعني يا سيدي البوانا وضع رجلك في مكان رجلي » . وأطاعه سين وأبطأ من خطاه ليواكب خطى الرجل الضئيل .

وهكذا قاده متاتو خلال الخمسين خطوة الأخيرة من حقل الألغام . وأيقن سين أنه لم يسبق له إطلاقًا أن شاهد مثل هذا العرض للشجاعة الفطرية والإخلاص من إنسان لآخر . سقط إثنان من الشنقاني قبل الوصول للسور وطارت سيقانهم بعيدًا . تركوهم راقدين في برك من دمائهما ولحمهما الممزق وقفزوا فوق السلك المشدود الذي يفصل القاعدة من حقل الألغام .

ورغمًا عن الشعور بالرعب وبالإبتهاج معًا في هذه اللحظة ، إلا أن عيون سين إمتلأت بالدموع الحارقة من شدة وقوة شعوره بالعرفان والحب للأندوروبو الضئيل . أراد أن يختطفه كلعبة الأطفال ويحتضنه . لكنه بدلاً عن ذلك قال له لاهثًا بالسواحيلية : « إنك هزيل جدًا لدرجة أن اللغم ما كان سينفجر حتى لو ضغطت عليه » . وتلألأت عيون متاتو بالفرح وجرى بجانب سين عندما بدأ الهجوم على مدفع ١٢,٧ ملمتر المنصوب أمامه والمحاط بأكياس الرمل .

كان سين يطلق النار من بندقيته إي كي إم ، المرتكزة على وركه ، في زخات أفقية قصيرة وأمكنه أن يرى رأس المدفعجي من خلال كوة المتراس المكون من أكياس الرمل المرصوصة فوق بعضها البعض . أدار المدفعجي ماسورة المدفع باتجاه سين ، مصوبًا على بطنه ، وكان قريبًا لدرجة أن سين كان يرى إنعكاس أضواء اللهيب على عينيه وهو يضبط نشانه . وفي اللحظة التي سبقت إطلاق المدفع عليه ، ألقى سين بنفسه للأمام وسقط أسفل ممر القذيفة وطارت الرصاصات فوق رأسه وأصمت إنفجاراتها أذنيه . لكنه تدحرج للأمام حتى وصل للمتراس ومدد جسمه عليه حتى شعر بأن بإمكانه مد يده ولمس فوهة المدفع الآلي .

انتزع سين قنبلة الشظايا المتفجرة من حزامه ونزع مسمار التأمين ثم ألقاها من خلال كوة المتراس وكأنه يرمي بخطاب في صندوق البريد .

إبتسم عندما سمع الجندي الفريليمو يستغيث بلغة برتغالية غير واضحة . وقال له : « عيد ميلاد سعيد ! » ثم إنفجرت القنبلة وسط دخان ولهب رهيب .

قفز سين للأعلى وتدحرج من فوق المتراس . كان هناك رجلان يتلويان على الأرض ونصف دستة آخرين كانوا قد ولوا فرارًا باتجاه الجبل ، بدون سلاح ، وهم يصرخون من الفزع .

ترك سين متاتو للإنتهاء من الجريحين ، المتلويين على الأرض ، بسكين صيده بينما أمسك هو بالمدفع المهجور وجره نحو الطرف الآخر للمتراس وصوبه باتجاه الجبل نحو الفريليمو الهاربين وأطلق عليهم النار وهو يحرك المدفع يمينًا وشمالاً . سقط إثنان من الهاربين بينما تهلل وجه متاتو وأخذ يدندن طربًا وهو يجرجر صندوقًا حديديًا من شرائط الرصاص على الأرض ثم يساعد سين في

تعبئة المدفع .

الآن ، وبحوزته شريط يحتوي على ٢٥٠ رصاصة ، حول سين إتجاه المدفع وأخذ بمشط صفحة الجبل من فوقه ويشتت شمل الفريليمو المذعورين .

تبين لسين أن أكثر من نصف الشنقانيين على الأقل قد نجوا من حقول الألغام ومن الهجوم الدامي وإنقضاضهم على العدو . فقد رأى رجاله يزأرون ويصرخون بوحشية وهم يقتحمون دفاعات الفريليمو ويطاردون الفارين .

صارت ماسورة مدفعه الثقيل شديدة الحرارة وأخذت تطقطق وكأنها حدوة حصان خارجة من كير الحداد . هجره سين وهو ينادي جنوده للقفز من فوق المتراس الخلفي وإقتحام قلب القاعدة ليبدأوا في تحطيم المعدات الأرضية والورش الخاصة بخدمات الطائرات والتي يديرها الروس .

وبينما هو واقف على رأس المتراس ، وقد اسود وجهه بالسناج وآثار الشاكر المحترقة ، ظهر من أمامه شبح ضخم لمروحية هايند . فعلى بعد لا يتجاوز مئتي متر منه ، بدأت طائرة هايند في الخروج من ملجئها المحاط بأكياس الرمل وتوربيناتها تزأر بصوت رهيب . بدا شكلها وكأنها وحش (بهيموس) خرج من أعماق التاريخ فجأة . دارت بتثاقل حول نفسها وواجهت سين بعيونها البشعة وما لبث أن رأى سين الفوهات المتعددة لمدفعها ، الرابض تحت أنفها ، موجهة إليه كأصابع الإتهام . أسرع سين وأمسك بمتاتو من قفا عنقه ورماه على أرض المتراس وألقى بنفسه من فوقه بكامل جسمه كاتماً أنفاس متاتو في اللحظة التي هبت على المتراس عاصفة من نيران المدفع أذابت جدرانه وحولتها إلى سحب من الدخان والحصى الطائر .



أكثر ما صدم كلوديا هو السرعة الفجائية للأحداث . ففي لحظة ما كانت السكينة والهدوء تغمران الكون من حولها ، وسط الظلام الذي سبق الفجر . وفي اللحظة التالية جاء اللهب وضجيج الرصاص والمدافع للمعركة ، وأضيئت السماء باللهيب الساطع المتقافز نحوها ، وبطلقات الإستكشاف المضيئة اللامعة وأصم آذانها إنفجارات المورتر والقذائف والقنابل وهدير نيران المدافع الآلية .

ومرت لحظات طويلة قبل أن تتأقلم عيونها على الضوء الباهر ولتكيف نفسها على المتغيرات السريعة للمعركة . كان جوب قد حدد لها المكان الواقع على طرف السور والذي سيشن منه سين هجومه وأخذت تتفحصه بقلق . وكانت ترى الأشكال الصغيرة للرجال المهرولين على سفح الجبل ، والذين أضاءتهم أنوار وقود الطائرات المحترق ، التي كانت تلقي ظلالا قاتمة لهم . أمام كل

رجل منهم . وكان هناك عدد كبير منه يجرون مثل النمل الأسود من على البعد . وبرعب شديد رأت عددًا منهم يسقط على الأرض بدون حراك وسط الفوضى العارمة والتحركات واللهيب وأصوات القصف .

وهمَست بقلق لجوب متسائلة :

- أين سين ؟ أيمكنك رؤيته ؟

- على شمالك . قريبًا من طرف الدخان .

ورأته . كان ذلك عند تعرفها على شكل الرجل الضئيل الذي كان يجري أمامه مثل كلب صيد أمين .

- إنني أراه ! وأرى متاتو !

وأمامهما مباشرة بدأت الأرض فجأة وعلى غير توقع منها تختفي تحت عاصفة من الغبار واللهب ولم تعد تشـ هدهما . وصرخت بصوت عالي كالعويل :

« لا يا إلهي ! لا ! » .

ولكن ، وعندما توارى الغبار وأزاحه نسيم الصباح رأت الإثنين جاريين ومن حولهما يتطاير الرصاص الملتهب وكأنه سرب من يراع الجحيم .

- أحمه يا إلهي . أرجوك . أرجوك .

لكنها لم تعد تشاهده بعد أن بلغ المتراس الأول ووجدت نفسها تمسك بزراع جوب وتهزه بوحشية :

- أين هو ؟ هل تراه ؟

ثم فجأة ظهر سين مرة أخرى . رأته من ذلك البعد وكأنه شيء اسطوري بطولي يهبط برشاقة على المتراس المحاط بأكياس الرمل وسط توهج نيران اللهيب وصرخت بارتياح بصوت عال . ثم رأته ينكمش ويتوارى بينما خرج من أعماق الأرض ، على مسافة غير بعيدة منهما ، شبح عملاق لمروحية هايند مرتفعة إلى السماء ، أدرات رأسها المخيف المنكس باتجاه سين ، وكأنها ثور هائج في حالة هجوم . سمعت زئير مدفعها ثم شلالات الغبر والتراب الطائر ، والتي حجبت رؤيتها لسين ، عندما إرتطمت قذائف المدفع بصفحة الجبل . وصرخت مستغيثة بجوب : « لقد قتلوه ! » ثم مدت يدها لتمسك به مرة أخرى لكنه إنتزعها من يده .

كان قد ركع على ركبته وقد وضع قاذفة الإستنجر على كتفه الأيمن ، ووجهه ، المضاء بانعكاس الحرائق المشتعلة عليه ، مركزًا على شاشة التسديد. وحثته كلوديا على الإسرع : « أطلق النار ! أسرع ! » .

قفز الصاروخ خارجًا من ماسورته الطويلة . وإندفع الهواء الساخن وذرات

الغبار والحشائش الجافة اللاسعة ليضرب وجه كلوديا عندما اشتعل محرك الصاروخ . صرت عينيها وكتمت أنفاسها وهي تنظر إلى الصاروخ منطلقا بعيدًا ، ووراءه الدخان واللهب ، متجهًا إلى قمة الجبل حيث كانت الطائرة محلقة ووراءها السماء الداكنة . ثم رأت الهزة الخفيفة التي صاحبت تحول الصاروخ إلى دور الباحث عن الأشعة فوق البنفسجية ثم رفع الصاروخ أنفه جزئيًا . لم يعد الصاروخ متجهًا صوب منافذ العادم المدرعة ولكنه إتجه نحو الفوهة المفتوحة لمداخل التوربينات والواقعة أسفل صندوق التروس الأحدب لمراوحها الأمامية .

اعتقدت للوهلة الأولى إنها رأت الصاروخ وهو يطير مباشرة نحو فتحة المدخل لكن الانفجار الذي نجم عند ارتطامه بها بدا لها ضعيفا ، خاصة عند إحتواء صفائح التيتانيوم المدرعة له تمامًا ، لدرجة أن شيئًا من ضراوته البالغة عند إرتطامه لم يظهر بوضوح أمام عينيها . ترنحت الطائرة كالوحش الجريح ورفعت أنفها للسماء ثم إنكفأت للوراء واصطدمت مروحة ذيلها بالصخور بصفحة الجبل وإنقلبت على جنبها وأخذت تتدحرج على جانبي الجبل المنحدر وهي تتقلب رأسًا على عقب واللهيب مندفع من حلق مدخل الهواء ثم سقطت على الأرض ممزقة لنفسها تمزيقًا بينما أجزاءها المحطمة المحترقة تتناثر في الهواء .

بحثت كلوديا عن سين وسط شعور باليأس الشديد وشهقت عندما تعرفت عليه من خلال غبار والدخان وهو يقفز للوراء نحو المتراس ثم يتحول بسرعة إلى صفحة الجبل ومتاتو من ورائه . إنتهرها جوب صائحًا :

« عبئي القاذفة من جديد ! » .

ووسط شعور بالذنب قفزت كلوديا وتناولت الصاروخ الإضافي وساعدته على تركيبه بالجهاز .

وفي اللحظة التي تم تعمير القاذفة إلتفتت نحو القاعدة . كان سين قد إختفى ، لكن ثلاثة مروحيات أخرى كانت قد بدأت التحليق في الجو شاقة طريقها للأعلى في عتمة الفجر المضاء بالحرائق واللهب ، وبدأت تطلق مدافعها الضارية ، بعض القذائف تقصف أهدافها على القاعدة حيث كان المهاجمون مشتبكين يدًا بيد مع المدافعين اليائسين في حامية الفريليمو ، وقذائف أخرى تشق ظلام الغابة وراء المعسكر بنيرانها المتوهجة محاولة أن تحطم تلك العاصفة من الصواريخ التي بدأت تصوب نحوها خارجة من الغابة المظلمة .

أصيبت مروحية أخرى وسقطت على ظهرها وإنفجرت بلهيب عنيف عندما إرتطمت بقمة الجبل الصخرية ثم تلتها أخرى مترنحة أثناء تحليقها ثم إنحنت للأسفل وقد أصيبت بضربة قاتلة لتسقط على قمم الأشجار وتتقلب بينها حتى سقطت على الأرض .

وبنفس السرعة التي سقطت بها المروحيات الثلاثة نهضت من على الأرض ، ومن مخابئها الحصينة المموهة ، مروحيات أخرى وهي تطلق مدافعها نحو المهاجمين . قفز جوب على قدميه عندما حاولت مروحية التسلل بعيداً وهي تحلق بعجلة فوق رؤوسهم . قوس ظهره وصوب الصاروخ عموديا للأعلى وكأنه صياد يطلق النار على طائر حجل في السماء .

كانت المروحية قد إرتفعت لألف قدم في السماء وهي مواصلة لصعودها وبدا أنها على وشك تجاوز مدى الإستنجر الفعال وإضافة إلى الزاوية الصعبة التي شكلها مسارها المنحنى الصاعد . لكن الصاروخ قفز للهواء وطاردها بدون هوادة وجفلت المروحية الهائلة وترنحت من الضربة . وقفت المروحية في مكانها لوهلة قبل أن تسقط للوراء وتوربيناتها المعطوبة تصرخ في لحظة الموت بعويل هادر ثم غطست باتجاه الوادي وخبطته وسط شلالات من الأغصان المحطمة وجذوع الأشجار الممزقة والرمال الطائرة . وصاح جوب ، بدون أن ينظر لزفرات موت الهايند :

« عبئى من جديد ! » .

وقفزت كلوديا وهي تناوله الصاروخ وساعدته في تركيبه بالقاذفة وربتت على كتفه عندما إنتهت من التعمير :

« انطلق ! » .

جاءت مروحية أخرى من الغابة المواجهة لهما مباشرة . كان الطيار الروسي محلقاً بها على ارتفاع منخفض جداً حتى ظهر وكأنه لازال على سطح الأرض وأخذ يروغ بالطائرة ويتحرك يميناً وشمالاً ويرتفع وينخفض وراء الأشجار المتناثرة ثم يتمايل ويترنح كأنه ملاكم بينما الهواء العنيف لمراوح طائرته يضرب على حشائش الفيل الطويلة من تحتهما ويسويها بالأرض .

استدار جوب ليواجه هذه الطائرة ، ولم يجد مناصاً من أن يقف في العراء تحت أضواء اللهيب المنعكس عليه ، ثم إستجمع قواه وصبره وهو يلتقط صورة الهايند في شاشة الرؤيا بالقاذفة .

توقفت الهايند للحظة في الهواء وسرعان ما هبت منها عاصفة من قذائف الجاتلنج باتجاههما وبقوة إقتلعت كلوديا من على قدميها وألقتها بعيداً وضجت آذانها بطنين القذائف التي إنطلقت حولهما بأسرع من الصوت .

سقط جوب فوقها وكادت أنفسها أن تتوقف من ثقل وزن جسمه عليها ولكنهما كانا قد سقطا بين صخرتين ضخمتين مستديرتين مما شتت القذائف الأخرى بعيداً عنهما . مرت الهايند فوقهما على بعد أقدام منهما حيث رقدا وأخذ هواء مراوحها يضرب كالسكاكين عليهما وتطاير شعر رأس كلوديا على

وجهها وأخذ يجلد عينيها كالسياط .

ثم إنزلقت الطائرة مبتعدة وكأنها حوت النمر القاتل . كانت كلوديا مختنقة من ثقل جوب الواقع على جسمها ونصف عمياء من الغبار ومن الشعر على عيونها .

وأخذت تناضل لتخليص نفسها من جوب . وفجأة أدركت أن يديها مبللتان وأن سائلاً دائماً كان متدفقاً عليها وملطخاً لملابسها . وخاطبت جوب من غير تفكير :

« جوب ! إنهض ! قم عني ! » .

لكنها لم تعرف أن ما لطخ يديها وجسمها كان دم جوب إلا عندما لم يرد عليها أو ينهض عنها ، بل ظل راقداً ممدداً فوقها بجسمه الثقيل اللين . هذا الإدراك أعطاها قوة وحشية فدحرجت جسده عنها جانبًا وجرت نفسها بعيداً عنه.

زحفت على ركبتيها ونظرت إليه . كانت قذيفة مدفع قد أصابته بأعلى جسمه وكان الجرح مفزعًا وبدا وكأن حيوانا متوحشًا قد مزق أعلى صدره وكتفه . فقد كان ذراعه الأيمن ممزقاً من الكتف وملقى فوق رأسه بطريقة بشعة مستسلمة .

حدثت فيه وكأنها مخدرة وحاولت أن تناديه باسمه لكن الصوت لم يخرج من حلقها . ومدت يدها ولمست وجهه بدون أن تحاول مس جسمه المشوه الممزق وشعرت بإحساس طاغ من الوحشة والخسارة وفتحت فمها وأطلقت حزنها المكبوت في عويل يائس . جاء عويلها منطلقاً بغضب عارم حتى أن شدة غضبها وإنفعالها حيرها وأدهشها وكأنه إنتزعها من داخل جسمها . شعرت بأنها تنظر من بعيد إلى نفسها ، مندهشة لتصرفات هذا الرجل الغريب القاسي الذي كاد يخمد أنفاسها ، ووجدت نفسها تقفز نحو قاذفة الصواريخ الراقدة بجوار جوب .

ثم وجدت نفسها وقد وقفت على قدميها ، وقاذفة الصواريخ على كتفها الأيمن ، وهي تبحث في السماء عن المروحية الهايند والتي كانت على بعد أربعمائة قدم منها تحوم بالقرب من سفح الجبل ، من فوق الغابة ، وتنتقي أهدافها من بين الأشجار وتدمرها بدفقات قصيرة ، لكنها رهيبة ، من قذائف مدفعها الأمامي .

ولابد أن الطيار قد حدد موقعها ، عندما إستدارت لتواجهه وهي واقفة منتصبة وسط أضواء النيران ، لأنه أدار مروحيته على محورها في الهواء وصوب مدفعه المنصوب تحت غرفة الطيار باتجاهها .

وقالت بصوت عال :

« الجهاز مشحون ومستعد » .

وجاءها صوتها غريبًا على أذنيها وهي تكرر أنشودة الموت :

« جهاز التشغيل الميكانيكي مفتوح » .

رأت صورة الهايند وقد ظهرت على الشاشة الصغيرة التي أمامها وركزت على الشعرتين المتقاطعتين بحلقة التصويب ثم إنتحب الصاروخ وبعدها إستقر على الصوت الإلكتروني الحاد النبرة المتحفز . وهمست :

« ثم ضبط الهدف » . لم تشعر بأي خوف عندما تغير مظهر الطائرة على الشاشة وإتجهت نحوها مباشرة ، ومدفعها على وشك الإنطلاق ، عندما كان المدفعجي يعمل على توجيهه جانبًا ليلتقط شكلها الصغير في منظار الطائرة .

وقالت بهدوء وثبات أعصاب :

« أطلق النار ! » . وضغطت على زناد مسدس القاذفة . إرتدت القاذفة على كتفها وهزتها هزًا بينما إنطلق الإستجر ، ضيقت عينيها أمام التيار القوي الخلفي للصاروخ وهو ينطلق قدمًا بأربعة أضعاف سرعة الصوت ومتجهًا مباشرة نحو المروحية المحلقة .

وإنطلق مدفع المروحية . لكن كلوديا لم تشعر إلا باندفاع الهواء الشديد الذي مر فوق رأسها من جراء القذيفة . قبل أن ترى الصاروخ يعدل مساره ويتجه مباشرة نحو الحلق المفتوح لمداخل هواء تورّبينات الطائرة . ومن على إرتفاع منخفض إرتطمت الهايند بالأرض وتدحرجت لمداخل هواء توربينات الطائرة . ومن على إرتفاع منخفض إرتطمت الهايند بالأرض وتدحرجت على جنبها . وفي اللحظة التي سبقت إحاطة لهيب الوقود المشتعل وغمره لها ، شاهدت كلوديا التواء قسمات وجه الطيار من الرعب والألم وهو محتبس في غرفة الطائرة المدرعة ثم إختفى كل ذلك في شلال من اللهيب . وقالت كلوديا لنفسها :

« إنه إنسان . إنسان آدمي حي يتنفس . لقد دمرته وإنتزعت حياته » . توقعت أن يغمرها الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير . فكم من كيانها يؤمن بأن كل حياة ، وبالذات حياة الإنسان ، هي شيء مقدس . لكن الشعور بالذنب لم يغمرها بل حل محله موجة من الشعور الوحشي بالإنتصار . نفس الشعور الذي إجتاحها عندما قررت إسقاط الطائرة .

تلفتت حولها بسرعة وبحثت في السماء عن أي هدف آخر . أي شيء لتدمره . أي شيء تفرغ فيه غضبها وإنتقامها . لكن سماء الفجر كانت خالية ، وكانت بقايا جثث الطائرات المحطمة ملقاة على جوانب منحدرات الجبل وبين أشجار الغابة بالوادي . وحدثت نفسها :

« كلها أسقطت . لقد دمرناها جميعًا » .

ومن الغابة خرجت أيتام صواريخ الإستتجر من الشنقانيين وبدأوا يجتاحون الجبل ويندفعون نحو قلب القاعدة لدعم هجوم سين . رأت كلوديا مدافعي الفريليمو يلقون بأسلحتهم على الأرض ويجلسون فزعين خائفين في خنادقهم ، بأيدي محبطة مرفوعة ، في محاولة للإستسلام . ولا حظت ، بدون شفقة ، الجنود الشنفانيين وهم يطلقون صيحات الحرب ويصرخون في وجه الفريليمو ويمزقون أجسادهم طعنًا بحراب بنادقهم أو يضربونهم بأعقابها حتى تركوهم كالدجاج المذبوح .

ويجوارها سمعت أنين جوب . وفي الحال تلاشى غضبها وألقت بالقاذفة بعيدًا عنها وركعت على ركبتيها بجواره وهمست :

« لقد ظننت إنك مت ! » . ثم فكت لفاعها عن عنقها بأصابع بدأت الآن ترتجف وقالت له :

« لا تمت يا جوب ! أرجوك ألا تموت ! » . كان اللفاع ملطخا بالعرق والغبار وكانت دروزه مقطعة متهرئه لكنها كورته وحشرته بداخل الجرح المخيف الواسع وهي تضغط عليه بكل قوتها محاولة إيقاف نزيف دم الحياة منه وقالت له :

« سيكون سين هنا قريبًا . لا تمت يا جوب . أرجوك أن تقاوم . وسأساعدك» .



توارى سين ومتاتو تحت المتراس لحماية نفسيهما من عاصفة نيران المدفع التي جاءت فوق رأسهما ببضع بوصات وملأت عيونهما وأنوفهما بالتراب المتطاير من أكياس الرمل المحيط بالمتراس.

وفي اللحظة التي توقف فيها المدفع قفز سين خارجًا من المتراس وشاهد على الفور المروحية المصابة تسقط ، وذيلها للأسفل ، على جوانب الجبل الصخرية ثم تمزق نفسها إربًا إربًا وهي تتدحرج أسفل المنحدر . ضحك سين وقال بصوت عال متجاوزًا حالة الخوف في أعماق نفسه :

« هذه الصواريخ اللعينة تعمل حقًا ! » .

وبجانبه كان متاتو يقهقه ويصفق بيديه ثم قال لسين بالسواحيلية :

« وكأننا نصطاد طيور القطا بالباندوكي ١٥٧٧ » ثم قفز وراء سين من فوق المتراس .

عندما اقترب سين من أحد الخنادق رأى ثلاثة من الفريليمو يولون الأدبار عند رؤيته . وقام على الفور بإطلاق الرصاص عليهم ، وهو يحمل بندقيته إي

كي إم بيده ويسندها على خصره أصابت زخة من الرصاص واحدًا منهم أسفل ظهره وألقته على وجهه على الأرض . قام الإثنان الآخران بإلقاء بنادقهما وركعا على ركبتيهما وهما يرطنان من الرعب بكلام غير مفهوم . رفعا أيديهما للأعلى ، فوق رؤوسهما ، وتجاهلهما سين وجرى متجاوزًا لهما فانهارا على الأرض غير مصرتين بالنجاة .

دخل سين وسط الدفاعات الخارجية للقاعدة ثم وصل لمنطقة الحظائر المحاطة بمراكز خدمة الطائرات ومهابط المروحيات المقواة بالدفاعات المتينة وبالمتاريس . كانت الورش ومستودعات الوقود محاطة أيضًا بأكياس الرمل وبشباك التمويه ، وكانت بعض قذائف المورتر الشاردة لا تزال تسقط بينها مثيرة حممًا من الغبار وشظايا الشلرينل ذات الصفير الذي يصم الآذان . كانت إحدى المروحيات قد أسقطت بالقرب من السور الخارجي للقاعدة وكانت تحترق بشدة بالغة والدخان الأسود الزيتي يصعد كالسحاب من فوقها ليسقط على الورش وما حولها .

ووسط ذلك الاضطراب والفوضى كانت هناك مشاهد لأشكال آدمية تجري هنا وهناك بدون هدف واضح ؛ فنيون مرتدون لأفرولات رمادية واسعة ، وغير مسلحين ، يرفعون أيديهم فوق رؤوسهم عندما يرون سين . وكان أغلبهم يسقط على ركبتيه راكعًا مستسلمًا .

فقد كان منظر سين ، بوجهه الملطخ بكريم التمويه الأسود ، وبشهوة القتل التي تملكته ، وبفرصة النجاح في المعركة التي غضنت ملامحه ، مرعبًا قاسيًا ووحشيًا لمن يراه . وأشار إليهم سين بماسورة البندقية منتهرًا :

« على الأرض ! » .

وبارتياح شديد واضح سقطوا على الأرض ووجوههم وجباههم على التراب ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم .

وأمامه مباشرة رأى الريشات الطويلة المنحنية لمروحية هايند وقد برزت من فوق جدار من أكياس الرمل يحيط بمهبطها . وضمن وهو يجري نحوها : -

« واحدة منهم لم تتمكن من الصعود » .

وفي تلك اللحظة بدأت المراوح تدور ببطء ، ثم بدأت تشتد وتسرع في دورانها. ولابد أن هناك أحدًا ما يحاول الصعود بها . وفي وثبة مفاجئة ، قفز سين فوق المدخل الضيق ثم إلى مهبط الطائرة وتوقف لبرهة لينظر حوله بسرعة ويعرف ما يجرى .

أطلت المروحية بلطخها المموهة من فوق رأسه ومراوحها تئز وتدور بسرعة من فوق وكادت تصل للسرعة التي ستنطلق بعدها . كان فريق الخدمة الأرضية

من الروس محتشدين حول مقدمة المروحية ، ولاحظ سين التناقض الذي رمز له الشعار المكون من سهم قرمزي المروحية ، ولاحظ سين التناقض الذي رمز له الشعار المكون من سهم قرمزي والمرسوم على أنف الطائرة والذي يعني « ملاحون ممتازون » ، وهو واحد من الألقاب المفضلة للأداء الممتاز الذي تمنحه القوات الجوية السوفييتية لكوادرها المميزة .

التفت الملاحون الروس بوجوههم البيضاء نحو سين وحملقوا فيه مدهوشين . أشار إليهم بماسورة بندقيته إي كي إم فتراجعوا للوراء .

كان باب قمرة الأسلحة بالمروحية لا يزال مفتوحًا وكان أحد الملاحين يحاول الصعود إليه ، ولم يظهر منه سوى مؤخرته السمينة المغطاة بأفرول الطيران الرمادي . من سين يده بين رجلي الملاح وقبض على خصيتيه بكامل قوته . صرخ الروسي مستغيثًا عندما استخدمهما سين كمقبض يجر به الملاح للخلف ثم يلقي به على جدار أكياس الرمل بالمهبط .

كانت المراوح تدور مطلقة صفيرًا حادًا عندما عمل المحرك التوربيني . وقفز سين على السلم المؤدي لقمرة الطيار . كان باب القمرة مفتوحًا أيضًا . ورفع سين بندقيته للأمام .

كان الطيار الممسك بآلة القيادة شابًا نحيلاً وله شعر قصير أشقر اللون وكان لعجلته للفرار بعيدًا بالطائرة قد نسى إرتداء خوذة الطيران . أدار وجهه لينظر إلى سين ، وكان وجهه الغاضب قد إمتلأ ببقع قرمزية من حب الشباب .

والتفت نحوه بعيون زرقاء شديدة الشحوب .

اتسعت عيناه عندما لمس سين طرف أنفه المبقع بحب الشباب بفوهة البندقية قائلا له :

« انتهى الحفل يا إيفان . فلنذهب لمنازلنا ! » .

كان واضحًا إن هذه المروحية لم تكن ضمن جدول غارات الفجر لهذا الصباح ، وأن الطيار والملاحين لم يشرعوا في محاولة الطيران إلا بعد أن بدأ الهجوم . لم يكن قد مر على الهجوم أكثر من عشر دقائق منذ إنطلاق أول قذيفة مورتر نحو القاعدة ولم يكن هذا بالوقت الكافي ، رغم أن الروس كانوا قد أوشكوا على النجاح في الإقلاع .

وصرخ سين في الطيار :

« أوقف المحرك » . وعزز أمره ذاك بضغط فوهة بندقيته على أنفه بقوة كانت كافية لرؤية الدم سائلا على منخاريه ولدموعه التي غيمت عيونه الشاحبة .

وعلى مضض دفع الطيار بذراع الوقود إلى النهاية وأقفل المفتاحين الكهربائيين للسوتشات . وسرعان ما تلاشى صغير التوربين وسكت . وأمره سين :

« أخرج ! » . وفهم الطيار المعنى والرمز رغم إنه لا يعرف الكلمة وقام بفك إيزيم حزام الأمان وهبط من الطائرة .

قام سين بصف الطيار ومهندس الطيران والملاحين الثلاثة أمام جدار أكياس الرمل وحياهم قائلاً :

« مرحبًا بكم يا رفاق في العالم الرأسمالي » . ثم إلتفت وراءه ونظر إلى المروحية ثم تهلل وجهه وقال لنفسه وهو ممتلئ بالنشاط والخفة من سريان الأدرنالين في دمه :

« هذا كنز هائل ! . لقد حصلنا لأنفسنا على مروحية هايند حقيقية عاملة » ثم نادى متاتو إليه.

كان متاتو في أوج حالاته وإقترح على سين بمرح : « فلنقتلهم الآن . أعطني الباندوكي وسأطلق عليهم النار نيابة عنك » .

لم يكن سين في حياته قد رأى متاتو يطلق سوى طلقة واحدة . وكانت هذه عندما أراد سين مداعبته يومًا فسمح له بإطلاق بندقيته ٥٧٧ ذات الماسورتين ، وكانت النتيجة أن متاتو طار في الهواء عاليًا وسقط على بعد عشرة أقدام من مكانه . إبتسم سين وقال له :

« لن تصيب أيًا منهم ، حتى من هذه المسافة أيها الشحاذ الضئيل المتعطش للدماء » ثم ركز إنتباهه على المروحية وبدأت ضخامة الجائزة تزداد وضوحًا أمام عينيه .

فهذه الهايند ستكون مركبة ممتازة لهم للفرار بها . وسيتمكن هو وكلوديا وجوب ومتاتو من الخروج من هنا وعلى الدرجة الأولى الممتازة . ولكن وعندما برزت له حقائق الأمر شعر بهبوط في معنوياته وبخيبة أمل عارمة .

لم يقد سين في حياته أية مروحية ولم يكن لديه حتى أبسط المعلومات عن التحليق بها ما عدا إنها تحتاج إلى لمسات رقيقة وخبيرة على أجهزة الملاحة ، وأنها مختلفة تماما عن بقية الطائرات ذات الأجنحة الثابتة .

نظر متفحصًا ودارسًا مرة أخرى إلى الطيار الروسي . لكنه ، وبالرغم من حب الشباب الذي يكسو وجهه وما يبدو عليه من إنشغال الفكر ، إلا أنه لمس فيه نوعًا من العناد والإعتداد بالنفس ظهر في عيونه الشاحبة . وأدرك سين أن ضباط سلاح الجو الروسي هم من صفوة القوات السوفيتيه ولابد أن يكون هذا الطيار من غلاة أبطالهم المتعصبين .

وخمن في نفسه أنه لن يحصل على تعاونه في رحلة الخروج ، فتحدث إليهم بصوت عال :

« حسنًا يا سادة . فلنخرج من هنا » وأشار إلى المنفذ الضيق للخروج من مهبط الطائرة . وتحت التهديد بالبندقية خرجوا في صف واحد وبكل طاعة . وعندما مر الطيار الروسي أوقفه سين وتناول المسدس التوكاريف من قرابه المعلق على خاصرته قائلاً :

« لن تحتاج إليه يا إينان » ووضعه في حزامه هو .

كانت بالقاعدة ورشة حصينة متاخمة لمهابط الطائرات ، وقد تم نحتها على جانب الجبل وسقفت بالأعمدة وأكياس الرمل . قادسين الأسرى إليها ثم نظر من حوله متفقدًا الموقف .

كانت المعركة قد لفظت أنفاسها الأخيرة ، بالرغم من أنه لازالت تسمع أصوات نيران متقطعة وفرقعة وإنفجارات الذخيرة المحترقة . ومن خلال الدخان والغبار رأى سين قوات الرينامو الشنقانيين يفتكون بالأسرى من الفريليمو ويبحثون عن الغنائم والأسلاب ورأى بينهم عددا من جنود أتيام الصواريخ والذين هجروا قاذفاتهم ، عقب تدمير المروحيات ، وهرعوا نحو القاعدة للاشتراك في السلب والنهب.

رأى واحدًا منهم يطعن بحربته مؤخرة أحد أسرى الفريليمو وهو يهدر بالضحك بينما سقط الأسير على الأرض يرفس برجليه ويتلوى لتجنب طعنات السلاح ، بينما رأى المزيد من الرينامو خارجين من الخنادق ، وقد علقوا بنادقهم على أكتافهم وملأوا أيديهم بالغنائم .

وبالرغم من أن سين كان معتادًا على سلوكيات القوات غير النظامية الإفريقية ، إلا أن هذا الخرق الصاروخ للإنضباط ضايقه وأزعجه . صاح في وجوههم منتهرًا لهم ، وكان لقوة شخصيته وللنفوذ الذي رسخه لديهم ، حتى وهم في قمة نشوة إنتصارهم ، أن أطاعوه في الحال وبدون تذمر . أما الجندي الرينامو الذي كان يتسلى بتعذيب أسيره فقد توقف برهة ليطلق رصاصة على مؤخرة عنق ضحيته الممزق قبل أن يسرع تلبية لنداء سين .

وأصدر سين أمره لهم محذرًا :

« أحرسوا هؤلاء الأسرى البيض . وإذا ما مسهم أي أذى فإن الجنرال تشاينا سيقدم بعمل شواء من خصيكم ويجعلكم تأكلونها » .

وبدون أن ينظر وراءه ، مضى نحو القاعدة ، مؤكدًا سيطرته وقيادته ، ومعيدًا لصواب جنوده الشنقانيين الذي كانوا في حالة غير طبيعية من الإنفعال والصياح والصراخ . وعلى مسافة منه رأى الرقيب ألفونسو . فأمره قائلاً :

« لا يمكننا حمل كل هذه الغنائم بعيدًا . لذا دع الجنود ينتقون ما يستطيعون حمله ثم ضع ألغامًا ملتصقة في غرف المخازن بعد أن تغرقها بالبنزين الذي بالبراميل » .

ثم نظر سين إلى ساعته وقال لألفونسو :

« علينا أن نتوقع هجومًا مضادًا من فريليمو علينا في هذه القاعدة خلال ساعة واحدة . وأريد أن أكون في طريق للرحيل وقتها » .

« لا ! » . هز ألفونسو رأسه : « لا ! فالجنرال تشاينا قد وضع ثلاثة فرق بيننا وبين الفريليمو ليصد أي هجوم مضاد من جانبهم . وهو يأمرك بالصمود هنا حتى يصل إليك » .

تراجع سين للوراء وحملق في وجه ألفونسو :

« ماذا تقول بحق الجحيم أو تتحدث عنه ؟ الجنرال تشاينا على بعد مسيرة يومين منا . هناك على شاطئ النهر ! » .

ضحك ألفونسو وهز رأسه : « سيكون الجنرال تشاينا هنا خلال ساعة . فلقد تبعنا ومعه خمسة فرق من خيرة جنوده . لم يبتعد قط بأكثر من ساعة منا ، ومنذ أن فارقنا شاطئ النهر » .

- وكيف عرفت ذلك ؟

ضحك ألفونسو مرة أخرى وربت بيده على جهاز اللاسلكي ، الذي يحمله أحد جنوده على ظهره ، والذي كان واقفًا بجواره ، وقال :

« لقد تحدثت إلى الجنرال قبل عشر دقائق ، وفور أن قتلنا آخر الهنشاو للروس » .

وهدر سين في وجهه :

« ولماذا لم تخبرني قبل الآن بذلك ؟ » .

- لأن الجنرال أمرني بذلك . لكنه أمرني الآن بأن أخبرك بأنه في غاية السرور بقتل جميع الهنشاو . وهو يقول إنك بمثابة إبن له . وعندما يصل سيقوم بمكافأتك » .

بدل سين أوامره لألفونسو :

« حسنًا . إذا كان علينا أن نتمسك بالقاعدة فابدأ بتوزيع رجالك على محيط دفاعات السور وسنستخدم المدافع الآلية الثقيلة عيار ١٢,٧ ملمتر » .

قطع سين حديثه عندما رأى جنديًا من الشنقاني جاريًا باتجاهه . كان يلهث بشدة عندما وصل إليه وقال له :

« أنكوزي ! » .

وعندما نظر سين إلى وجهه عرف إنه يحمل له أبناء سيئة . وسأله متلهفًا وهو يقبض على ذراعه : « المرأة ؟ هل المرأة البيضاء مصابة بأذى ؟ » .

هز الشنقاني رأسه وقال :

« إنها سالمة . لقد أرسلتني إليك . إنه المتابيلي . كابتن جوب . لقد أصيب » .

بدأ سين يجري وهو يصيح في الجندي : « كيف حاله ؟ » .

صاح الجندي من ورائه : « إنه يموت . المتابيلي يموت » .

كان سين يعرف أين يمضي ، فلقد إختار بنفسه تلك الغيضة قصيرة الأشجار الشوكية ليتخذها جوب مرتكزًا لهجومه . بدأت أشعة الشمس الأولى للصباح تحيل قمم تلك الأشجار إلى لون ذهبي وكان سين يجري أسفل الجبل . كانت كلوديا قد تمكنت ، بمساعدة إثنين من الشنقانيين من تحريك جوب إلى أرض مسطحة ناعمة تحت إحدى الأشجار ، وكانت قد أسندت رأسه على صندوق صواريخ فارغ ووضعت ضمادة فوق جرحه . وعندما رفعت رأسها ورأت سين صاحت:

« أواه يا سين ! الحمد لله » .

كان قميصها ملطخًا بالدم المتجلط وشاهدت تعابير وجه سين فقالت له :

« إنه ليس دمي ، فأنا بخير » .

تحول سين بكل إنتباهه إلى جوب . كان وجهه النبيل قد أخذ لونًا مرضيًا أزرقًا رماديًا وبدا وكأن لحم رأسه قد ذاب كالقار الساخن .

لمس سين وجنتيه وكان جلده باردًا كالموت . وبإهتياج وتوتر بدأ سين يفتش على نبض ما في يده السليمة وكان إرتياحه عظيما عندما أحس على رسغه بنص ضعيف متسارع .

وهمست كلوديا : « لقد فقد كمية كبيرة من دمه رغم أنت تمكنت من إيقاف النزيف بعد ذلك» .

غمغم سين لها قائلا : « إنه الآن في حالة صدمة وسألقي نظرة على الجرح » .

حذرته كلوديا بسرعة : « لا ترفع هذه الضمادات . فالجرح بشع . لقد أصيب على جانب كتفه بقذيفة مدفع وليس بالجرح إلا بقايا عظام مفتتة ولحم متهرئ . إن يده معلقة بجسمه على مزقة من عضل وعصب » .

قطع سين حديثها بصرامة :

« خذي متاتو معك وتوجهي إلى المهابط وحاولي أن تعرفي أن يحتفظون بصندوق الإسعافات الأولية . فالروس يحتفظون دائما بكميات معقولة منها .

أريد بالذات بلازما الدم ودريات وأربطة وضمادات . وهذه هي أكثرها أهمية . لكن حاولي أيضًا العثور على مطهر ومضادات للألم » .

نهضت كلوديا على قدميها وقالت : « يا سين ! كنت قلقة بشأنك . لقد رأيت ..... » .

قطع حديثها بدون أن يرفع نظراته عن جوب :

« لن تتخلص مني بهذه السهولة . عليك الآن أن تسرعي وعودي بأسرع ما يمكن . متاتو ! إذهب مع الدونا وخذ بالك منها » .

جرى الاثنان . وحتى عودتهما ثانية ومعهما الإمدادات الطبية المطلوبة ، فإن سين سيظل عاجزًا عن القيام بأي شيء . وليشغل نفسه بأي عمل قام بتبليل منديله من زجاجة الماء وأخذ يمسح الدم والغبار من على وجه جوب . إرتفعت أجفان جوب وفتح عينيه وعرف سين أن جوب قد إستعاد وعيه فقال له :

« أوكي يا جوب . فأنا هنا . لا تحاول أن تتحدث » .

أغمض عينيه للحظة وعندما فتحهما ثانية نظر إلى الأسفل ، وكان أضعف من أن يحرك رأسه . رغم ذلك حاول أن ينظر لجسمه ليعرف مدى ما أصابه من جراح . وهذا دائمًا رد الفعل التلقائي رأي مصاب . وتساءل بصوت واه :

« أهو دم الرئة الذي فقدته ؟ هل كلتا يدي في مكانهما ؟ كلتا رجلي ؟ » .

فقال له سين :

« فقط الذراع الأيمن والكتف . فقد أصابتك قذيفة ١٢,٧ ملمتر . خدش بسيط صغير . وستكون بخير وتجتاز هذه المشكلة يا شاب ! أتريد ضمانًا مكتوبًا ؟ هل تظنني أكذب عليك ؟ » .

طفت على وجه جوب إبتسامة شاحبة وغمز بطرف عينه . شعر سين بأن قلبه يتمزق من أجله . فهو يعرف إنه كذب عليه . لن يجتاز جوب هذه المحنة . وقال لجوب بمرح مصطنع :

« إرتاح . أرقد على ظهرك واستمتع بها ، مثلما قال الأسقف للممثلة الفاتنة ! فأنا المسئول عنك الآن » .

وأغمض جوب عينيه .

❖ ❖ ❖

اهتدت كلوديا لمكان الخندق الذي توجد به الإسعافات الأولية ، عن طريق شعار الصليب الأحمر المرسوم على مدخله . كان هناك إثنان من الرينامو الشنقانين ينهبون محتوياته بعد أن فتشوه بدقة لإنتقاء ما يمكن لهما حمله . صرخت كلوديا فيهما بعنف مما دعاهما للتراجع بخذيان وشعور بالذنب .

كانت الرقع المكتوبة على صناديق الورق المقوي للأدوية كلها بالحروف السيريليكية الروسية. وكان على كلوديا أن تفتحها وتتفحص محتوياتها بنفسها . وجدت صناديق تحتوي على عشرات الأكياس من البلازما النقية وسلمت متاتو إثنين منها . أما الدريات فكانت موجودة على الرف بينما كان الأمر واضحًا بالنسبة للضمادات والأربطة والحبوب والكابسولات . عثرت أخيرًا على أنبوبة ذات لون أصفر بني ولها رائحة اليود المميزة فاختارت عددًا منها . ثم وجدت أن بعض الرقع تحتوي على كتابة باللغة العربية والفرنسية إضافة للروسية . ولما كان لها إلمام بسيط بشيء منم اللغتين ، فقد إستطاعت التعرف على أيهما يحتوي على المضادات الحيوية أو على مضادات الشعور بالألم .

عثرت أيضا على صندوقين طبيين ميدانيين وكان واضحًا أنهما مجهزان خصيصًا لأيتام وفرق الإسعافات الأولية الروس . وبالطبع ضمتهما إلى قائمتها ثم أسرعت مع متاتو ، بأحمالها الثقيلة الثمينة ، خارجين من الخندق .

وقبل أن تصل لسور القاعدة ، برز من خلال الدخان ، الذي ذرته الرياح ، وجه مرعب مألوف وتقدم نحوها . كان هذا الشخص آخر من تتوقع رؤيته هنا .

وحياها الجنرال تشاينا مناديًا :

« يا للصدفة السعيدة يا آنسة مونتيرو . إنني محتاج لعونك » . وكان تشاينا مصحوبًا بنصف دستة من ضباط أركانه .

إستعادت كلوديا رابطة جاشها بسرعة ، بعد صدمة اللقاء غير المتوقع مع تشاينا ، فردت عليه بحدة وهي تحاول المرور من حوله :

« إنني مشغولة جدًا ، وجوب مصاب بجرح بالغ ويجب على أن أسرع إليه » .

مد الجنرال تشاينا يده وقال لها :

« أخشى أن تكون حوجتي إليك اشد من حوجة اي شخص آخر » .

فانفجرت كلوديا بالغضب وصاحت فيه :

«الموقف لا يتحمل ويحتاج جوب لهذه الإسعافات وإلا فسوف يموت » .

لكن تشاينا لم يتركها وقال لها :

« سيقوم أحد رجالي بتوصيلها إليه وستأتين معي . أرجوك . بعدم ذلك سأضطر للأمر بحملك ، وبالطبع فهذه ليست بالوسيلة الكريمة .. يا آنسة مونتيرو » .

كانت كلوديا تواصل إحتجاجها عندما قام أحد ضباط رينامو باستلام ما تحمله من طرود الإسعاف . وإضطرت أخيرًا للإستسلام بهزة لا مبالية من كتفها . ثم قالت لمتاتو وهي تشير لأسفل الجبل : « إذهب معه » . وأومأ الرجل الضئيل

بإشراق وجه ومضى مع الجندي الذي يحمل الطرود نحو مكان جوب .

توجهت كلوديا مع تشاينا نحو قلب القاعدة . وشق الجميع طريقهم وسط ركام المعركة . إرتجفت كلوديا ذعراً عندما داست برجلها على جثة متفحمة لأحد رجال الفريليمو . أما الجنرال تشاينا فكان بادي السرور والغبطة لما يشاهده من حوله وقال لكلوديا بصوت دمث :

« لقد نجح الكولونيل كورتني نجاحًا منقطع النظير وفوق أي توقعات لي بشأنه . بل أنه حتى نجح في أسر طائرة هايند سليمة تمامًا إضافة إلى أسراه من الطيارين والملاحين الروس » .

ـ أرجو ألا تبقيني طويلاً معك إذ أن علي أن أرجع إليهم .

ـ يا آنسة مونتيرو ! إن كابتن جوب سيعيش أو يموت بدونك . أما أنا فأحتاج لمعونتك لي كمترجمة وللحديث مع الطيار .

ـ لكنني لا أتحدث الروسية .

ـ آهـ ! لحسن الحظ فإن الطيار يبدو عليه القدرة على التحدث بالإيطالية . أما كيف تعلمها فهذا ما لا أعلمه . لكنه يردد باستمرار : إيطاليانو ! ... إيطاليانو !

أمسك تشاينا بذراعها ونزل معها على السلم المؤدي للخندق المموه والمحاط بأكياس الرمل .

ونظرت كلوديا لما حولها بالخندق وأدركت أنه ستخدم كورشة هندسية . فقد كان به بنكا حديديًا طويلاً على كل جدار . كان موضوعًا على إحدى هذه البنوك مخرطة حديدية وخرامة يدوية . وعلى الرفوف ودواليب الحائط كان هناك أنواع مختلفة من الآلات ومعدات الورش الأخرى مرصوصة فوق البنكين الطويلين كما كان هناك أيضًا ، عند نهاية طرف الورشة ، معدات لحام كهربائية أو تعمل بالغاز . تذكرت أن والدها كان يهتم بورشة صغيرة أقامها بالدور الأرضي لمنزله بأنكوردج ، وكم قضت فيها أمسيات عديدة وهي تشاهده يشبه هوايته بالعمل فيها .

كان الأسرى الروس الخمسة جالسين على الطرف البعيد من الغرفة وسألتهم كلوديا : « أيكم يتحدث الإيطالية ؟ » .

تقدم للأمام منهم رجل طويل نحيل ، مرتديًا أفرول الطيران الرمادي ، وكان وجهه مبقعًا بحب الشباب وعيونه الشاحبة قلقة متوترة وقال :

ـ أنا يا سنيورة .

ـ أين تعلمت الإيطالية ؟

- إن زوجتي خديجة من إحدى جامعات ميلانو . وقد قابلتها عندما كانت تحضر للدكتوراة في جامعة باتريس لوممبا في موسكو .

كانت لغته الإيطالية شوية بلهجة روسية غليظة وقواعد اللغة غير سليمة لكن كلوديا فهمت ما يقوله بسهولة تامة وأخبرته :

« إنني أقوم بالترجمة للجنرال تشاينا . لكن من واجبي أن أحذرك بأن هذا الرجل متوحش وقاسي القلب . أما أنا فلست من حلفائه ولا من أصدقائه ولن أتمكن من إسباغ أي حماية عليكم».

- شكرًا يا سنيورة وأنا أقدر موقفك . لكنني لا أحتاج لحماية . فطبقًا لميثاق جنيف فإنني أعتبر أسير حرب ولدي حقوق مثل ما لرجالي هنا .

- ماذا يقول ؟ . سألها الجنرال تشاينا .

- إنه يقول بأنه أسير حرب وأنه ورجاله محميين بموجب ميثاق جنيف .

- أخبريه بأن جنيف بعيدة كل البعد عنا . هذه إفريقيا . وأنا لم أكن من الموقعين على أي معاهدة أو إتفاق بسويسرا . أخبريه أن ما له من الحقوق هنا هو ما أحدده أنا له . أخبريه بأن عليه أن يطير بالمروحية تحت إشرافي وأوامري وأن زملاءه في فريق الصيانة الأرضية سيقومون بصيانة الطائرة وتشهيلها لتكون جاهزة دائمًا للطيران » .

وأثناء قيام كلوديا بالترجمة لاحظت أن فك الطيار قد سقط وأن عيونه الشاحبة الزرقاء قد تصلبت . أدار رأسه نحو رفاقه وتحدث معهم باللغة الروسية . وفي الحال بدأوا يغمغمون ويهزون رؤوسهم . وقال الطيار لكلوديا باذدراء :

« قولي لهذا القرد الأسود إننا نصر على حقوقنا وإننا نرفض أن نطير أو نحارب من أجله لأن هذا يعتبر عملاً من أعمال الخيانة » . وكانت كلوديا قد سمعت من قبل أن كثيرًا من الروس عنصريين . وما حديث الطيار والتعبير الذي استخدمه إلا تأكيد لصحة ما سمعته .

كان رفضه واضحًا حتى أن تشاينا لم ينتظر سماع الترجمة من كلوديا وقطع حديثها بجفاء وغلظة وقال لها :

« أخبريه بأن لا وقت لدي للجدل أو لإقناعه باللطف والذوق . إنني أسأله مرة أخرى للتعاون معي . لكنه إذا رفض فسأكون مضطرًا لتنفيذ ما أراه شيئًا خطيرًا جادًا تجاههم » . وتحدثت كلوديا إلى الضابط الروسي :

« يا سنيور . هذا الرجل خطر جدًا . وقد رأيته يرتكب من أعمال الطغيان والشر ما لا أستطيع البوح به . حتى أنا عذبني وآذاني » .

وقف الضابط الطيار بإنتباه وجاء صوته حازمًا :

« إنني ضابط روسي وأسير حرب وإنني أعرف واجبي تمامًا » .

كان تشاينا ينظر في وجه الطيار عندما كان يتحدث وابتسم إبتسامة باردة عندما ترجمت كلوديا ما قاله . وتمتم : « رجل شجاع آخر . ولكن يجب أن نحدد الآن مقدار شجاعته » .

وبدون أن ينظر إلى ضباط أركانه أعطاهم أمرًا باللغة الشنقانية . وبينما كانوا يدحرجون العجيلة التي تحتوي على إسطوانات غاز (الأوكس أسيتلين) أمامهم ، ابتسم تشاينا بثبات في وجه الضابط الروسي . ورد عليه الرجل بنظرة باردة شاحبة وكأنهما في إمتحان لمدى ثبات وإرادة كل منهما .

تشاينا هو الذي استدار بعيدًا . توجه نحو البنك الطويل وأخذ يتفحص محتوياته من المعدات والأشياء الأخرى المبعثرة فوقه . صورت عنه غمغمة رضى عندما إختار قضيبًا نحيلاً من الحديد الصلب وهزه في يده مختبرًا وزنه . كان طوله وحجمه مثل القضيب الذي تنظف به مواسير البنادق ، وكان مخرومًا من جانبيه لغرض خاص بربط مسامير قلووظ عليه ، وربما كان يستخدم كوصلة تحكم في مروحيات الهايند .

وقال تشاينا بصوت عال : « هذا القضيب مناسب تمامًا » . ثم تناول قفازًا مهملاً من الإسبستوس المضفور يستخدم عند القيام بعمليات اللحام . تحققت كلوديا ، من كثرة مراقبتها لوالدها وهو يعمل في ورشته الصغيرة ، أن تشاينا مقتدر تمامًا على تشغيل الجهاز . قام بإشعال بوز اللحام وبسرعة ضبط تدفق الأكسجين والأستلين من أسطوانتيهما المنفصلتين حتى صارت الشعلة كالريشة البراقة الزرقاء ، شديدة السخونة ومستقرة . ثم تناول القضيب الحديدي ، بعد إرتداء القفاز ، وبدأ في تسخين طرفه أمام الشعلة الزرقاء .

راقبه كل الروس بقلق وإرتباك ، ورأت كلوديا عيني الطيار اللتين تنظران بصرامة ، وقد بدت عليهما رعشة من عدم اليقين ، بينما يرق على شفته العليا عرق كالندى .

وتحدثت كلوديا إلى الطيار بصوت خافت :

« هذا الرجل حيوان وعليك أن تصدقني عندما أقول لك: إنه قادر على ارتكاب أشد الآثام وأفظعها . أرجوك يا سنيور فأنا لا أريد مشاهدة ما سيحدث لكم » .

هزّ الطيار رأسه رافضًا توسلاتها ، لكنه كان محدقًا في طرف القضيب المعدني عندما بدأ يتوهج بلون الكريز الأحمر ، وقال لها :

« لن تستفزني تهديداته الهمجية » . لكنها لاحظت بعض التردد على صوته وأنه صار أجشًا .

وفي يد تشاينا ، تحول طرف القضيب تدريجيا إلى لون قرمزي متوهج ثم إلى لون أبيض من شدة الحرارة . إبتسم تشاينا وأطفأ الشعلة .

أخذ تشاينا يلوح بالطرف المتوهج للقضيب في انشراح وكأنه عصا المايسترو في فرقة موسيقية وابتسم للطيار . كانت ابتسامة غير طروبة كابتسامة الكوبرا وقال :

« إنني أكرر رجائي . اسأليه إن كان سيقود لي الطائرة » . فأجاب الطيار « نييت » . لا . . ورغم إضطراب صوته إلا أن إجابته كانت حاسمة . ثم أضاف باللغة الروسية « أبزانكا » . القرد الأسود . .

وقف تشاينا أمامه ومرر القضيب على مسافة قريبة من عيني الطيار الذي قال لكلوديا : « أخبريه يا سنيورا بأنني لا أستطيع الطيران بدون عيوني » .

أومأ تشاينا برأسه عندما ترجمت له كلوديا الحديث وقال : « صحيح تمامًا» ثم ترك الطيار وأخذ يمشي أمام بقية الروس وهو يحرك القضيب المتوهج في حركات كالساحر أمام وجه كل منهم ، دارسًا لرد فعلهم بعناية . كان الميكانيكي السمين ، في أفروله الملطخ بالزيوت ، والذي كان في نهاية الصف، هو الذي أعطى لتشاينا المؤشر الذي كان يبحث عنه . فقد راغ بعيدًا عن طرف القضيب وتراجع للخلف حتى أوقفه جوار الخندق ، بينما تصبب العرق منه وسال على خدوده المتوردة السمينة وحتى ذقنه . وبصوت كالصرير قال شيئًا بالروسية ، لكن الضابط الطيار أجابه بأمر صارم من كلمة واحدة .

ابتسم تشاينا ابتسامة نحيلة وجعله يشعر بحرارة طرف القضيب المشعة على خده . وقال له :

« إنك لا تحب ذلك . أليس كذلك يا قوقعتي البيضاء السمينة الرخوة ؟ » . كان رأس ميكانيكي الطيران قد عصر على الحائط وكانت عيناه تتحركان في محجريهما يمينًا وشمالاً مع حركة طرف القضيب .

بدأ القضيب يبرد تدريجيًا ، وبوجه عابس متهجم تركه تشاينا جانبًا وتوجه عائدًا للطاولة الحديدية وأشعل جهاز اللحام مرة أخرى . وبينما بدأ في تسخين القضيب بجرحى تهاوى الميكانيكي على أكياس الرمل وعرقه يتصبب على أفروله القطني .

تحدث الطيار معه برقة مشجعًا له بنغمة أخويه ، وأحنى المهندس الميكانيكي رأسه وتمالك نفسه ، ونظر إلى رئيسه بعرفان واحترام . وابتسم تشاينا بارتياح وهو يراقب هذا الحديث المتبادل بين الرجلين .

وعندما شاهدت كلوديا هذه الابتسامة الصفراء عرفت في الحال أن تشاينا قد حدد ضحيته . فقد إتضح جليًا أن الميكانيكي كان أقل الخمسة شجاعة

وأدركت أن الطيار ، وبدون قصد أو بصيرة منه ، قد كشف عما بينه وبين الميكانيكي من أواصر الصداقة ومن الإهتمام بشأنه .

وهمست بالإيطالية :

« أرجوك ... إن صديقك في خطر عظيم وإذا أردت إنقاذه فعليك أن تنفذ ما يطلبه منك هذا الرجل » .

نظر الطيار إليها . ومن تعابير وجهه رأت كلوديا إنه بدأ يضطرب . وناشدته كلوديا :

ـ أرجوك ، من أجلي . لن أقدر على تحمل المنظر » . لكن اليأس غمرها عندما رأت الروسي يتصلب مرة أخرى وتعود تعابير وجهه إلى الصرامة والتصميم، فقد هز رأسه . وشاهد تشاينا هذه الإيماءة .

أطفأ شعلة اللحام وأخذ ينفخ طرف القضيب المعدني الذي إبيض لونه وصبر قليلاً لمزيد من التأثير الدرامي . فقد كانت كل العيون في الخندق مركزة على طرف المعدن المتوهج .

وفجأة أصدر أمرا باللغة البرتغالية . فتقفز إثنان من رجاله وأمسكا بذراعي الميكانيكي . صرخ بصوت حاد محتجًا لكنهما ألقيا به على الطاولة ممددًا على بطنه . قام أحد الرجال بالجلوس بين لوحي كتفه وثبت على الطاولة . حاول المقاومة عبثًا وأخذ يرفس برجليه ولكن رجال تشاينا أسرعوا إليه وربطوا كاحليه على أرجل المنضدة . رقد ممدودًا عليها وراسه للأسفل وهو عاجز عن القيام بأي مقاومة .

صرخ الطيار الروسي محتجًا وتقدم للأمام ، لكن أحد ضباط الرينامو سدد مسدسه نحو بطنه وأجبره على التراجع نحو الجدار .

وسأله تشاينا « مرة أخرى ؟ هل ستطير بي ؟ » .

صاح الطيار في وجهه بالروسية وكان واضحًا إنه شتمه وأساء إليه ، فقد كان وجهه محتقنًا الآن ، وبدت حبوب الشباب وقد إزدادت حمرة على وجهه وذقنه وخديه .

وأشار تشاينا إلى رجاله ، فقام واحد منهم بإخراج سكينه من غمدها المعلق بحزامه ومزق حزام أوفرول الميكانيكي من ناحية خصره ، ثم جذب الأوفرول الممزق لناحية رجليه ، وتدلت القطع الممزقة على ركبتي الرجل المكبل . ومن تحت الأوفرول ظهر السروال الضيق للرجل وسرعان ما قام الرينامو بنزعه أيضًا .

حملقت كلوديا في دهشة ووجل في مؤخرة الميكانيكي العارية البيضاء السمينة وقد برزت خصيته من بين فخذيه .

كان الطيار يصرخ بالروسية ووجدت كلوديا نفسها تتوسل بصوت واه للجنرال :

« أرجوك يا جنرال تشاينا . أرجوك أن تسمح لي بالخروج . لا يستطيع تحمل هذا الشيء » . حاولت أن تدير وجهها بعيدًا وتغمض عينيها لكن الإثارة المفزعة لما سيحدث دعاها لأن تنظر من خلال أصابعها .

تجاهل تشاينا توسلات كلوديا والطيار وتحدث بغلظة مع الضابط الذي كان يجلس بين لوحي كتف الميكانيكي . قام الضابط ، وهو لا زال يثبت ضحيته بالطاولة ، بالإمساك بكلتا يديه بردفيه وجذب الردفين بعيدًا عن بعضهما . تيبست إحتجاجات كلوديا في حلقها ورأت نفسها تحدق بذهول في الروسي العاجز .

تقدم تشاينا نحوه وهو ممسك بالقضيب الحديدي المتوهج ووقف على بعد ثلاثة بوصات منه . شعر الروسي بالحرارة الشديدة في أعماق لحمه وأخذ يقاوم بعنف وضراوة للتخلص من قيوده مما دعى إثنان آخران من الرينامو للجلوس على ظهره وثبيته على البنك الحديدي بثقل وزنيهما معًا مما أعجزه عن الحركة .

توجه تشاينا ببصره نحو الطيار الذي كان يهذي كالمخبول ، ووجهه متغضن من شدة الغضب وهو يصيح مطلقا اللعنات والتهديدات ، وقال له :

« نعم ؟ » .

ولما لم يسمع منه أو من كلوديا أي إجابة قال:

« إنني آسف فالضرورة تجبرني » .

وثني رسغ يده المسك بالقضيب المحمي وغرزه في شرج الروس المسكين . وعندما مس القضيب المتوهج جلده الحساس صرخ الروس مستغيثًا ، صرخة مدوية حادة جعلت كلوديا تبكي شفقة عليه .

خرج الدخان من المعدن ومعه صوت أزيز وطشيش وبقبقة بينما أخذ تشاينا يحرك رسغه يمينًا وشمالاً وهو يغرز القضيب الملتهب أعمق فأعمق داخل جسم الروسي . بدأت صرخاته الآن تأتي في دفقات مدوية كالرعد ووضعت كلوديا يديها على أذنيها كي لا تسمع الصراخ المدوي وأدارت وجهها بعيدًا وهي تجري نحو ركن الخندق وتضع وجهها على أكياس الرمل .

ملأت رائحة الدخان أنفها وحلقها ورئتيها ، تلك الرائحة البشعة للحم المحترق والدهن المتفحم والذي غطى لسانها . شعرت بالغثيان وحاولت عبثًا أن توقف القيء الذي هجم عليها ، لكنه إندفع إلى حلقها بشدة وعنف وتدفق القيء بين أرجلها على الأرض .

ومن خلفها بدأ الصراخ يخف تدريجيا وأصبح أنينًا بشعًا مترددًا . كان كل الروس يصرخون ويحتجون في حنق شديد واختلطت صيحاتهم ولعناتهم في موجة مضطربة من الجنون .

وعندما هبت عليها موجة أخرى من رائحة اللحم المحروق والبراز المتدفق حاولت التقيؤ من جديد ثم مسحت فمها بظاهر يدها وأسندت رأسها على جدار الأكياس الرملية . أخذت كلوديا ترتجف بشدة بالغة وانهالت الدموع هنا وسالت على خديها .

ثم بدأ صراخ الروسي من ورائها يخف تدريجيًا ولم يعد يسمع في الخندق سوى غرغرة الميكانيكي وأنينه المتقطع الذي أخذ يخفت الآن ويزيد في عذاب الروس الآخرين . وكان بمقدور كلوديا أن تعرف ، دون أن تنظر إليه ، بأنه يموت .

وجاءها الصوت البارد الرهيب :

« آنسة مونتيرو . أرجو أن تتمالكي أعصابك فلا زال أمامنا عمل نقوم به » . إنفجرت كلوديا في وجهه صائحة :

« إنك حيوان ! إنني أكرهك ! يا إلهي كم أكرهك ! » . لكنه أجابها بهدوء :

« إن مشاعرك لا تثير في أي درجة من الاهتمام . عليك الآن أن تخبري الطيار بأنني في إنتظار كامل تعاونه معي » .

كان أنين الميكانيكي قد صرف انتباهها لبرهة . وعندما التفتت لتواجه الجنرال تشاينا رأت أنهم فكوا وثاق الرجل المنكوب وتركوه يسقط على الأرض . لم يحاول تشاينا بذل أي جهد لإنتزاع القضيب المعدني من جسمه وكان الرجل لا يزال ممددًا على الأرض وقد أثبتته الطعنة وأخذ يتدحرج بضعف محاولاً إنتزاع الجزء البارز من القضيب بدون جدوى . فقد إلتصق الجزء المحمي من القضيب بأحشائه عندما بدأ يبرد وثبت في مكانه بقوة . وكان كلما حاول إنتزاعه خرج براز سائل مزبد مختلط بفقاقيع غازية من جرحه البشع .

وأمر شانيا كلوديا :

« تحدثي إلى الطيار » .

حولت كلوديا عينيها عن الرجل المحتضر وخاطبت الطيار :

« أرجوك أن تفعل ما يريده » . فصرخ الطيار .

« لن أستطيع ! هذا واجبي » .

صرفت كلوديا في وجهه :

« فليذهب الشيطان بواجبك ! ستنتهي أنت وكل رجالك هذه النهاية » . وأشارت إلى الأرض بدون أن تنظر إليها : « هذا ما سيحدث لكم جميعًا » . ثم إلتفتت نحو بقية الروس الذين كانوا يرتجفون وينظرون كالمصعوقين وقد شحبت وجههم من الرعب والفزع :

« انظروا إليه ! هل هذا ما تريدون حدوثه لكم ؟ » .

لم يفهم أحد منهم ما قالته بالإنجليزية لكن المعنى كان واضحًا لهم جميعًا فأداروا وجوههم نحو الطيار .

قاوم الطيار نظراتهم المتضرعة لمدة دقيقة . ثم ، وبكلمة من تشاينا قام ضباط الرينامو بالإمساك بأحد الروس من فريق الخدمة الأرضية وألقوا به ، وهو يصيح ويركل برجليه ، على البنك الحديدي ووجهه للأسفل .

رفع الطيار الروسي كلتا يديه للأعلى في إشارة لخضوعه ونادى كلوديا بصوت واهن :

« قولي له أن يتوقف . سنقوم بعمل كل ما يأمر به » .

ابتسم تشاينا بعذوبة لكلوديا وقال لها :

« شكرًا لك يا آنسة مونتيرو . إنك الآن حرة للعودة إلى الكولونيل كروتني» . فسألته شاردة الذهن :

وكيف ستتحدث مع الطيار ؟

حول تشاينا ابتسامته الوقورة الأبوية إلى الطيار وقال لها :

« هو يفهمني تمامًا الآن . وأؤكد لك بأنه سيتعلم الحديث بلغتي ، وبمنتهي السلامة ، في أقرب وقت قد تتصورينه » . ثم إلتفت نحو كلوديا وقال لها :

« أرجو أن تنقلي احترامي للكولونيل كورتني وأن يقابلني في أسرع فرصة تلوح له فإنني أريد أن أودعه وأشكره وأتمنى له رحلة سعيدة » . ثم إنحني لها بنوع من الهذر قائلاً :

إذن فلتسرعوا بعون الله يا آنسة مونتيرو وأرجو أن تتذكرونا جميعا ، نحن أصدقاؤكم في إفريقيا ، بكل حب وعاطفة » .

وعندما لم تجد كلوديا ما تقوله ، إستدارت نحو باب الخندق ورجليها ترتجفان وكأنهما من المطاط . وهي دائخة من هول ما شاهدته ، نزلت متعثرة لأسفل الجبل ولم تعد المناظر الكئيبة للمعركة من حولها تثير لديها أي إهتمام .

وعلى حافة الجبل توقفت قليلاً وحاولت أن تستجمع شتات نفسها . أخذت تستنشق الهواء بعمق محاولة السيطرة على تنهداتها المتقطعة التي تأتيها على غير وعي منها ثم أخذت تمشط شعرها بأصابعها وأعادت ربط شريط القماش على

رأسها . ويطرف قميصها مسحت العرق والدموع من وجهها وصدمت عندما شاهدت اللطخات التي خلفها ذعره على قميصها .

وهمست لنفسها :

« لابد أنني أبدو بشعة » . وضمت قبضة يدها لتخفي أظافرها المكسورة . ثم إستعادت عزيمتها ورفعت ذقنها وأخبرت نفسها : « يجب ألا يراني سين بهذه الحالة . ولكن ، تمالكي نفسك يا فتاة ! » .

وعندما هرعت إليه ، وهو مشغول بلف البطانية حول حدب ، نظر سين إليها وسألها :

« ماذا حدث ؟ ما الذي أخرك ؟ » .

- الجنرال تشاينا هنا وأجبرني على الذهاب معه .

- ماذا أراد منك ؟ ماذا حدث ؟

- لا شيء . ليس مهمًا . سأحدثك بكل شيء فيما بعد . كيف حال جوب ؟

- حتى الآن حقنته بلتر من البلازما .

كان قد علق جهاز الدرب على فرع شجرة من فوقه . « لقد تحسن نبضه إذ أن جوب خشن قوي كثور جاموس عجوز . ساعديني على تضميد الجروح » .

- هل هو واع ؟

- إنه بين اليقظة تارة والإغماء أخرى .

وتحت الضمادات كان هناك جرح خطير لدرجة إنهما تهيبا الحديث عنه ، إذ ربما استطاع جوب أن يسمع الحديث ويفهمه .

غطى سين كل الإصابة بمعجون اليود ثم لف حولها شريطًا ضاغطًا ثم أربطة بيضاء كانت بصندوق الإسعاف الطبي . وحتى أثناء عمله ، كان الدم وصبغة اليود تتخلل الأربطة وتلطخها .

قاما سويًا بإمالة جوب على جانبه حتى يلف الشريط والضمادات حول كتفه وقامت كلوديا بإعادة الذراع نصف المبتورة إلى مكانها وأحنت كوعها على صدره ثم قام سين بلفها بالشريط في مكانها بإحكام . وعندما إنتهيا كان كل جسم جوب العلوي مغطى تمامًا ، كالشرنقة ، بالأربطة والشرائط ولم يكن بارزًا سوى ذراعه اليسرى .

وجس سين نبضه ثم نظر إليها وقال :

« لقد عاد نبضه للإرتفاع مرة أخرى ، لذا سأعطيه لترًا آخرًا من البلازما » .

ومن بعيد جاءت أصوات متقطعة لنيران المدافع الآلية ومدافع المورتر خارجة

من الغابة ، ومن وراء القاعدة بالجبل ، ونظرت كلوديا لسين بقلق وسألته : « ما هذا ؟ » .

فأجابها ، وهو لا يزال يضبط في جهاز الدرب : « إنه الهجوم المضاد للفريليمو . لكن لتشاينا ثلاثة فرق هناك ، وسيكون بمقدور فرق تشاينا صدهم بدون مشقة تذكر » .

وسألته : « سين ! من أين أتى تشاينا ؟ لقد ظننت أنه ...... » . قطع سين عليها حديثها وقال : « نعم . أنا أيضًا كنت أظنت هناك على شاطئ النهر . لكن الوغد الحاذق كان على أعقابنا طوال ذلك الوقت ، ومستعدًا للقفز وإستلام الغنائم » .

انتهى من تركيب حقنة الدرب بعد ضبط الجهاز ، ثم تربع جالسًا على الأرض بجوار كلوديا وأخذ يتمعن في وجهها . ثم قال لها :

« حسنًا . أخبريني بما حدث » .

ابتسمت له ابتسامة مشرقة وقالت : « لا شيء » . فقال لها برقة :

« لا تخدعيني أيتها الجميلة » . ثم وضع ذراعه حولها . وبالرغم منها خنقتها العبرات .

وهمست له :

« إنه تشاينا . فوق ما حدث لجدب .... جعلني أترجم ما يقوله الطيار الروسي. يا إلهي . إنني أكرهه . إنه حيوان . لقد أجبرني أن أشاهد .... » . ثم توقفت فجأة.

سألها سين : « أكان شيئًا فظيعًا ؟ » .

فأومأت برأسها : « لقد قتل واحدًا من الروس بأقذر وسيلة تتصورها » .

- رجل ظريف هذا التشاينا . لكن حاولي نسيانه وإخراجه من دماغك فلدينا مشاكلنا الخاصة . فليهتم الروس بشأن بعضهم البعض » .

- لقد أجبر الضابط الروسي على أن يقود له المروحية .

نهض سين ورفعها على قدميها وقال لها :

« لا تفكري في تشاينا أو في الروس بعد الآن . كل ما علينا أن نهتم به هو كيفية الخروج من هنا » . ثم توقف فجأة عندما شاهد الرقيب ألفونسو ورجاله يجرون لأسفل الجبل باتجاههم ، وكانوا جميعًا محملين بما نهبوه وسلبوه من الغنائم .

وصاح ألفونسو ، وعلى وجهه العريض الوسيم إبتسامة بهيجة :

« أنكوزي" يا لها من معركة ! يا له من نصر ! » .

أجابه سين موافقًا :

« نعم . لقد ثاقلتم كفصيل من الأسود . لقد كسبت المعركة لكن عليك الآن أن تساعدنا للخروج من هنا إلى الحدود ، فالكابتن جوب مصاب إصابة بالغة » .

تلاشت ابتسامة ألفونسو . فبالرغم من العداوة التقليدية بين قبيلتيهما ، إلا أن الرجلين قد حملا قدرًا كبيرً من الإحترام لبعضهما البعض . وقف ألفونسو بجوار سين ونظر إلى جوب الممدد على الأرض وسأله :

« ما مدى الخطورة ؟ » .

تدخلت كلوديا قائلة :

« هناك نقالة طبية من الزجاج الليفي في غرفة الإسعاف بالمعسكر ونستطيع أن نحمل جوب عليها » .

غمغم ألفونسو متوجسًا :

« إنها مسيرة يومين إلى الحدود . خلال أراضي يسيطر عليها الفريليمو » . وجاء صوت سين قاسيًا جافًا :

« إن الفريليمو تجري كالكلاب التي إحترقت ذيولها . أرسل إثنين من رجالك لإحضار النقالة » . فأجابه ألفونسو :

« الجنرال تشاينا يطلب حضورك فهو راجع على متن المروحية ويريد التحدث إليك قبل رحيله » .

نظر سين إلى ساعة يده وقال له محذرًا :

« حسنا . لكنني أريد النقالة هنا عندما أعود فسوف نتحرك نحو الحدود بعد ساعة من الآن» .

وافق ألفونسو بحبور وقال :

« أنكوزي . سنكون مستعدون لذلك » .

ثم التفت سين لكلوديا وقال لها :

« إنني متوجه لمقابلة تشاينا وسأحاول التحدث إليه وإقناعه بترحيل جوب على المروحية . لكنني لا أعتقد أن فرصي معه ستكون وردية . أرجوك أن تبقى مع جوب وإهتمي بمعدل نبضه هناك حقنة أدرنالين جاهزة في الصندوق ، لكن لا تلجئي إليها إلا كملاذ أخير » .

ناشدته هامسة :

« أرجو الا تتأخر طويلاً ، فإنني لا أجد في نفسي الشجاعة إلا عندما نكون

هنا ».

- متاتو سيقى معك .

صعد سين على الجبل بخفة ومر في طريقه بالطابور الأول للحمالين . وكان من الواضح أن تشاينا كان يحمل معه كل ما يقدر عليه ، بما في ذلك صناديق قطع غيار المروحيات ، ومئات من جركانات الوقود الخاص بالطائرات . كانت صفوف الحمالين متجه إلى الفيافي المؤدية للنهر . ولم يعرهم سين سوى إنتباه ضئيل ، فلقد قام بدوره تمامًا وكان تواقا للخروج من هذا المكان ، والوصول إلى الحدود ، والعمل على الإسراع بجوب إلى حيث يجد العناية الطبية المناسبة ، ولإيصال كلوديا إلى بر السلامة .

ورغم كل تلك الأسبقيات فقد إنشغل بها جسٌ من الشكوك وعدم اليقين : هل سيفي تشاينا بوعده ويتركهم يرحلون ؟ أليس سين متفائلاً بأكثر مما يلزم؟

وحدث نفسه بعبوس :

« سنرى » .

ثم نادي أحد ضباط الرينامو الذي كان يشرف على أعمال الحمالين :

« أين الجنرال تشاينا ؟ » .

وجده وسط أركان حربه ، مع الأسرى الروس ، في خندق من قيادة المعسكر . نظر تشاينا من الخريطة التي كان يتفحصها وإبتسم بمودة لسين عندما دخل عليهم وناداه :

« كولونيل كورتني ، تهاني الحارة لك ، لقد كنت رائعًا ، هذا النجاح العظيم » .

- وأنت الآن مدين لي بمعروف .

- نعم . أنت ومن معك تودون الرحيل . لقد قمت بعملك هذا بتسديد كافة ديونك تمامًا وأنتم الآن أحرار في الذهاب .

هز سين رأسه وقال :

« لا ! فطبقا لحساباتي فإنك لازلت مدينًا لي بواحدة . فالكابتن جوب مصاب إصابة قاتلة وحالته حرجة وأريده أن يرحل لزمبابوي عن طريق المروحية المأسورة » .

ضحك تشاينا وقال له :

« يبدو إنك تمزح . هل تظن إني أضحى بإرسال هذه الطائرة إلى مهمة لا جدوى منها ؟ لا يا كولونيل . لقد سددت كافة الديون وأرجوك ألا تلح على مطالب خيالية . فبأذني المعطوبة وسمعي المعطل ، والذي لا يزال يضايقني

كثيرًا ، فقد أجد نفسي مدفوعًا لمرجعة عرضي السخي بالسماح لك ولمن معك بالرحيل دون أي عائق » .

ثم ابتسم ومد يده لسين قائلاً :

« هيا بنا يا كولونيل ولنفترق كأصدقاء . لقد وضعت تحت أمرك الرقيب ألفونسو ورجاله وسيقدمون لك أي خدمة تحتاجها . إنك رجل ذو إمكانيات غير عادية وأنا واثق بأنك ستجد وسيلة لإخراج نفسك ومن معك لبر السلامة بدون أن تحتاج لأي مساعدة مني » .

تجاهل سين اليد الممدودة نحوه . نظر تشاينا إليها ثم سحبها إلى جانبه ، وقال :

« وهكذا نفترق يا كولونيل . أنا إلى حربي الصغيرة ، ومن يدري ، فربما أجد لنفسي يومًا ما دولة لي شخصيًا . وأنت إلى الأحضان الدافئة لفتاتك الأمريكية الشابة الفنية جدًا والجميلة جدًا » . ثم ابتسم ابتسامة ثعلبية متخابثة وقال : « أتمنى لك السعادة والمرح وأنا واثق بأنك تتمنى لي نفس الشيء » .

ثم استدار نحو الخارطة يدرسها مرة أخرى ، تاركًا سين متحيرًا مدهوشًا لا يعرف ما يفعل . لابد أن هناك شيئًا ما مفقودًا ، فلا يمكن أن ينتهي الأمر بهذه الطريقة . أدرك سين أن هنالك الكثير ليأتي ، لكن الجنرال تشاينا بدأ يملي أوامره بالبرتغالية لأحد ضباط ، تاركا سين واقفا محتارًا أمام مدخل الخندق .

انتظر سين لبضع لحظات أخرى ثم استدار فجأة واندفع خارجًا من الخندق . وفقط ، بعد أن خرج ، رفع تشاينا رأسه وابتسم من ورائه ابتسامة خبيثة ظافرة ، والتي لو شاهدها سين ، لكان قد أجاب على سؤاله .



القسم الرابع
موزمبيق

بدأت جماعة ألفونسو عملها بسرعة . كانت النقالة مصنوعة من الزجاج الليفي ، وهي من النوع الخفيف الوزن والخاصة بأتيام الإسعاف والإنقاذ الجبلية . لكنها على كل حال تحتاج لأربعة رجال لحملها على الأراضي الوعرة ، وكان أمامهم طريق شاق وطويل حتى الوصول للحدود. لكن سين كان له رأى آخر . فقال مشجعًا لهم عندما عاد :

« المسافة لا تزيد على مائة كيلو متر والطريق ليس بهذه الوعورة ، فإذا ما سرنا قدمًا فسنصل في ظرف يومين .

رحبت كلوديا به بارتياح وأخبرته قائلة :

« يبدو جوب متحسنًا وأكثر قوة ، وقد سأل عنك عندما عاد إليه وعيه . لكنه قال شيئًا عن جبل ما . أظنه قال : الجبل (٣١) » .

إرتسمت بصيمي بسمة على شفتي سين وقال لها :

« هناك كان أول لقاء بيننا . إنه شارد قليلاً فساعديني على رفعه للنقالة» .

رفعا جوب برفق ووضعاه على النقالة ، وأوصل سين جهاز الدرب على إطار ملكي فوق رأسه ، ووضع حول جسمه إحدى البطانيات الصوفية التي كان قد صادرها من المعسكر . وقال وقد إنتصب واقفا :

« هيا يا متاتو . عد بنا إلى الوطن » . ثم أومأ للتيم الأول من حملة النقالة لرفعها .

لم يكن قد مضى على شروق الشمس أكثر من ساعتين . لكن هذه الفترة بدت وكأنها العمر كله بالنسبة لسين وهو ينظر من خلفه إلى القاعدة الجبلية . كان الدخان لازال يبدو من فوق الجبل وكان آخر طابور من الحمالين قد بدأ يختفي داخل الغابة ، وكلهم محملون بالغنائم الثقيلة المستلبة .

كان الصوت البعيد لإطلاق النار قد تلاشى وسكت ، إذ سرعان ما تراجع الفريليمو الوجلين أمام نيران فرق الجنرال تشاينا ، والذي بدأ بسحبها لتعود لقواعدها في المناطق الوعرة ، أدنى نهر البنجوي .

ورأى سين مروحية الهايند تنهض ببطء من قاعدتها ، ثم تحلق فوق الجبل بمحركها القوى ومراوحها البراقة ، وفجأة غطست متجهة نحوهم ، وصوت

محركها يزداد إرتفاعًا ، ووجد سين نفسه ينظر مشدوهًا لمدفعها الجاتلنج المتعدد الفوهات والمركب على مقدمة الطائرة .

وعندما اقتربت المروحية منهم تعرف على الجنرال تشاينا جالسًا في الكبينة المصنوعة من الزجاج المدرع . كان متربعًا على مقعد مهندسي الطائرة الذي يتحكم في المدفع ١٢,٧ ملمتر ، ورأي سين مواسير المدفع وهي تتحرك قليلا باتجاهه .

لم تكن المروحية تبعد عنه بأكثر من خمسين قدما ، وقريبة منه ، حتى كان بأركانه مشاهدة أسنان تشاينا البيضاء وهي تبرق وسط وجهه الداكن عندما ابتسم لها .

لم يكن طابورهم الصغير قد وصل لحافة الغابة بعد ، ولم يكن هناك أي ساتر لهم أو حماية من شرور ذلك المدفع الجهنمي المصوب عليهم . وبدون تفكير منه ، مد سين يده وجذب كلوديا إليه محاولاً أن يحميها بجسمه .

ومن فوقهم رفع الجنرال تشاينا يده بتحية تهكمية ثم راغت المروحية بعيدًا باتجاه الشمال الغربي وبدأت تصغر شيئًا فشيئًا حتى صارت كالنقطة ثم اختفت. حملقوا جميعًا فيها بذهول وصمت بعد أن أصابهم هلع عظيم ، ثم كسر سين حاجز الصمت الزاهل وقال :

« هيا بنا يا إخوتي » . وفي الحال رفع الجنود الأربعة النقالة ومضوا قدمًا في هرولة وعدو وئيد ، وهم ينشدون أغاني المارشات القديمة ، بصوت رقيق جميل .

كان متاتو يستكشف الأرض من أمامهم وعثر على مجاميع مبعثرة من رجال الفريليمو المتراجعين الخائفين . فبعد خسارتهم للدعم الجوي ، إنها الهجوم المضاد لهم بأسرع مما بدأ وكان وضعهم مائعًا ومضطربًا . أرغم وجودهم جماعة سين للدوران بعيدًا عنهم نحو الشمال . وبأكثر مما توقعه سين ، فقد قادهم متاتو في دورة واسعة ليتجنب الإحتكاك بالجنود الفارين ودار معه الرينامو وحملة النقالة بدون إبطاء خطاهم .

وعند حلول الظلام توقفوا لتناول شيء من الطعام وقسط من الراحة . أدار ألفونسو جهاز الراديو ، حسب البرنامج المتفق عليه ، مع مركز قيادة الرينامو وأبلغهم بتقريره عن الموقف والمكان الذي وصلوا إليه . تسلم ردًا مقتضبًا باستلامهم للإشارة وبعدم وجود تعليمات أخرى لإبلاغه بها .

تناولوا عشاءهم من المعلبات التي صادروها من مخازن الروس ودخنوا سجاير (بلكان) المعطى والملفوف بورق أصفر مع فلتر من الورق المقوي الأجوف .

عاد جوب إلى وعيه مرة أخرى وأخذ يشكو بصوت مبحوح أجش :

« كأن هناك أسدًا يلتهم كتفي ويمضغ فيه » .

حقن سين أمبولة مورفين في كيس الدرب مما خفف عليه الألم ، حتى إنه إستطاع أن يتناول بضع لقيمات من اللحم المحفوظ غير المتبل . لكن شعوره بالعطش كان قويًا بأشد من جوعه ، فرفع سين رأسه برفق وساعده على شرب كوبين من القهوة الروسية القوية .

جلس سين وكلوديا بجوار النقالة في إنتظار بزوغ القمر وأخبر سين جوب قائلاً :

« لقد بلغنا وادي هوندى مرة أخرى . وعندما نصل إلى إرسالية سانت ميري ستكون بخير . فأحد الآباء الكاثوليك هو طبيب . وسيكون في مقدوري إرسال مذكرة لأخي جاري في جوها نسبرج ، وسأطلب منه إرسال طائرة الشركة النفاثة إلى أمتالي ، وسنطير بك إلى مستشفى في جوها نسبرج العمومي قبل أن تعرف ما أصابك يا رجل . وهناك ستحصل على أفضل رعاية طبية في العالم » .

وعندما ظهر القمر واصلوا سيرهم ولم يتوقفوا إلا عند منتصف الليل للراحة. قام سين بصنع فراش من الحشائش لتنام كلوديا عليه . وهمس في أذنها قبل أن تستغرق في النوم :

« غدًا مساء ستنالين حمامًا ساخنًا وتنامين على فراش وثير بين الأغطية النظيفة » .

تنهدت قائلة : « أتعدني بذلك ؟ » .

- أعدك بشرفي .

وكعادته المتأصلة فيه ، إستيقظ قبل ساعة من الصباح ومضى لإيقاظ الحراس لإستلام وردية الفجر .

أزاح ألفونسو غطاءه عنه ونهض واقفًا بجوار سين . طافا على الحراس ثم توقفا بجوار المعسكر المؤقت ، ومن ألفونسو سجارة روسية لسين . دخنا ، والسجائر وسط أيديهم المضمومة ، حتى يخفي توهج التباكد المحترق عن أي عيون معادية . ثم ألقى ألفونسو بسؤال غير منتظر :

« ما حدثتني به بخصوص جنوب إفريقيا : أهو صحيح ؟ » .

- وماذا قلت لك ؟

- أن الجميع ، حتى السود منهم ، يأكلون اللحم كل يوم !

ابتسم سين في عتمة الفجر ، لما في تصور ألفونسو للجنة من طرافة ، حيث يجد الإنسان اللحم ليتناوله كل يوم ، وقال له مداعبًا :

« أحيانًا يسأمون من تناول شرائح اللحم البقري يوميًا ، حتى إنهم يتحولون للدجاج ولحم الضأن للتغيير » .

هذا ألفونسو رأسه . فهذا الشيء فوق تصوره ، فلا يوجد في إفريقيا من يمل لحوم البقر .

- كم يكسب الرجل الأسود في جنوب إفريقيا ؟

- حوالي خمسمائة راند في الشهر إذا ما كان عاملاً عاديًا غير مدرب ، لكن هناك العديد من المليونيرات السود » .

خمسمائة راند كانت أكثر مما يكسبه الرجل في سنة كاملة في موزامبين ، هذا إن كان محظوظًا لدرجة كافية لإيجاد عمل له . أما المليون فكان رقما يتجاوز كل قدرة ألفونسو على تخيله . وهز ألفونسو رأسه في حيرة وقال متسائلا « خمسمائة ؟ وتدفع بعملة الراند وليس بورق الإسكيودو ، أو بدولارات زمبابوي ؟ » .

« نعم ، بالراند » . أجابه سين . فبالمقارنة بالعملات الأخرى في إفريقيا فإن الراند قوى كالجنية الذهب .

وتساءل ألفونسو ، والشك يغمره :

« وهناك بضائع تملأ المخازن والحوانيت ، أشياء يشتريها الرجل بما لديه من الراند ؟ » .

كان من العسير على ألفونسو تخيل الرفوف الملأى بالبضائع المعروضة للبيع، بخلاف بضع زجاجات بائسة للمشروبات الغازية المصنوعة محليًا وعلب السجائر الرخيص ، لذا أضاف سين مؤكدًا :

« أي شيء تريده . سواء كان صابونًا أم سكرًا أو زيت الطبخ او دقيق الذرة» . هي أشياء من العجائب كادت تمحى من عقل ألفونسو . وسأل : « وبأي مقدار أريد ؟ ألا يوجد نظام للحصص ؟ » .

- أي كمية تستطيع دفع ثمنها . وعندما تملأ بطنك تمامًا ، فبإمكانك شراء الأحذية والبذلات وأربطة العنق ، ترانزستر راديو أو نضارات سوداء .... » .

فاعترضه ألفونسو متلهفا :

. « أو دراجة أيضًا ؟ » .

ضحك سين ، وقد بدأ النقاش يسرى عنه ، وقال :

« الفقراء فقط هم الذين يركبون الدرجات . بقية الناس يستخدمون عرباتهم الخاصة » .

- حتى السود يمتلكون عربات خصة ؟

فكر ألفونسو طويلا في تلك الفكرة ثم سأل بحياء لا يناسب شخصيته : « هل لرجل مثلي أن يجد عملاً هناك ؟ » .

تظاهر سين بأنه يفكر في الأمر ، بينما كان الفونسو يترقب إجابته بتوجس : « أنت ؟ أنت ؟ إن أخي جاري يمتلك منجمًا للذهب ، ويمكنك أن تكون ملاحظًا للعمال في ظرف سنة من العمل معه ، ورئيس وردية في ظرف سنتين . يمكنني أن أجد لك عملاً في اليوم الذي تصل فيه للمنجم».

- وكم يكسب الملاحظ هناك ؟

- ألف ، ألفان .... .

صعق ألفونسو . إذ لم يزد مرتبه من الرينامو عما يعادل راندًا واحدًا في اليوم مدفوعة باسكيودو موزمبيق . وغمغم وهو مشغول الفكر بما سمع :

« أحب أن أكون رئيسًا للملاحظين » .

داعبه سين : « هل سيكون ذلك أفضل من رتبة رقيب في الرينامو ؟ » .

ضحك ألفونسو بسخرية ، وواصل سين دردشته ومداعبته :

« ولكن ، ليكن معلومًا لديك إنك لن تنال حق التصويت في جنوب إفريقيا. فهذا الحق للبيض فقط » .

تساءل ألفونسو : « حق التصويت ؟ ما معنى كلمة صوت ؟ » . ثم أجاب على نفسه وقال : « ليس لدي صوت في موزامبين وليس لديهم ذلك في زامبيا أو زمبابوي أو أنجولا أو تنزانيا . ليس لأحد حق التصويت في إفريقيا ، ربما ، ما عدا مرة واحدة في حياة الإنسان لينتخب رئيسًا مدى الحياة ، أو ليصوت لحكومة من حزب واحد » . ثم هز رأسه وشخرياذ وراء : « التصويت ؟ لا يمكنك أن تأكل صوتًا . لا يمكنك أن تلبس صوتًا أو تركبه أو تعمل معه . فمقابل ألفي راند في الشهر وبطن مليئة يمكنك أن تأخذ صوتي » .

تطلع سين إلى السماء وقال له :

« في أي وقت تأتي لجنوب إفريقيا ما عليك إلا الحضور لمقابلتي » . بدأت قمم الأشجار تتضح للرؤيا أمام الأفق وبقى وقت قليل بزوغ الفجر . داس بحذائه على عقب السجارة وبدأ يستعد للنهوض عندما سمع خمس ألفونسو :

« هناك شيء يجب علي أن أخبرك به » . أثارت نبرة صوته والتغيير المفاجئ لمجرى الحديث إنتباه سين الشديد وتحفزه . تربع جالسًا وأمال رأسه نحو ألفونسو وقال له : « نعم ؟ » .

تنحنح ألفونسو بارتباك وضيق وقال له مغمغمًا :

« لقد قطعنا معك شوطًا طويلاً » .

« نعم . طريقًا طويلاً شاقًا . لكن النهاية بدأت تلوح . ففي مثل هذا الوقت غدًا .... » . لم يكن محتاجًا للإستمرار ، كما لم يكن ألفونسو مستعجلاً

الإجابة .

واخيرًا قال له ألفونسو :

« لقد قاتلنا جنبًا إلى جنب » .

- نعم . كالأسود .

- ولقد ناديتك بألقاب التشريف والإجلال : بابا ، وأنكوزي كاكولو .

- وهذا ما يشرفني كثيرًا . كما إنني ناديتك (بيا صديقي) .

أومأ ألفونسو برأسه في العتمة وقال له بجدية وحزم :

« لن أسمح لك بعبور الحدود إلى زمبابوي » .

ارتد على عقبيه وقال :

« أخبرني عن السبب ؟ » . فسأله ألفونسو بدوره :

« أتذكر كوثبرت ؟ » . مرت لحظات على سين قبل أن يتذكر الرجل :

- كوثبرت : أتقني الرجل الذي كان بقاعدة فراند ريف الجوية ؟ . الرجل الذي ساعدنا في الدخول ؟ » . بدا ذلك وكأنه قد مر دهر طويل عليه .

أومأ ألفونسو موافقًا :

« إبن أخ الجنرال تشاينا . نعم . هو من أتحدث عنه » .

ابتسم سين :

« سامي ديفز الابن ! القط البارد الوديع . نعم أتذكره جيدًا » .

- لقد تحدث الجنرال تشاينا إليه بالراديو ، أمس في الصباح عندما كان في مهبط المروحية ، وبعد نصرنا المذهل . لقد كنت في الغرفة الأخرى بالخندق وسمعت ما قاله له » .

شعر سين برياح ثلجية تهب على سلسلته الفقرية ، ووقف شعر مؤخرة عنقه من التوجس . وسأل ألفونسو ، وهو خائف من الإجابة :

- وماذا قال تشاينا له ؟

- لقد أمر كوثبرت بأن يبلغ الجيش الزمبابوي بأنك أنت الذي قدت الهجوم على قاعدة فراند ريف الجوية ، وإنك أنت الذي سرق الإنديكي المليئة بالصواريخ وطار بها . لقد طلب من كوثبرت أن يخبرهم بأنك ستعبر الحدود إلى زمبابوي عن طريق وادي هوندي وإرسالية سانت ميري وأن عليهم إنتظارك هناك»

تقلصت أمعاء سين من شدة الصدمة . ولزمه غير قصير كان مصعوقًا بمدى شناعة وقسوة الشرك الذي أعده له تشاينا . كانت قسوته شيطانية . فبعد أن يتركهم يصدقون بأنهم مطلقوا السراح ، ويجعلهم يتذوقون طعم الخروج والنجاة

من تلك المحن ، بينما هم في الحقيقة كانوا متجهين نحو مصير أكثر ظلامًا وأشد سوءًا مما كان ، حتى تشاينا نفسه ، قادرًا على إلحاقه بهم .

فالغضب الشديد والحقد والقسوة البالغة للقيادة في زمبابوي لن تعرف حدودًا ، فقد كان سين يحمل جواز سفر زمبابوي ، وهو وثيقة خطرة تضعه في مرتبة الخونة المجرمين لبلده كما تعتبره قاتلاً سفاحًا لا أمل لنجاته مهما جاءت الضغوط من الخارج . سيقومون بتسليمه للمخابرات المركزية الزمبابوية السيئة السمعة ، ومنها للإستجواب في زنازين سجن شيكا روبي ، والتي لن يخرج منها حيًا أبدًا . أما جوب ، فبرغم جراحه البالغة ، فسيلاقي نفس المصير .

حتى كلوديا ، وبالرغم من أنها أمريكية الجنسية ، فهي من وجهة النظر الرسمية لم تعد على قيد الحياة . فقد مضت عدة أسابيع منذ صدور بلاغ بأنها مفقودة . وخلال تلك الفترة فإن الحماس والإهتمام بشأنها ، حتى في سفارات بلادها في هراري وجوها نسبرج ، قد فتر . فهي ووالدها قد إعتبرا من الميتين ، وبالتالي لن تتوقع أي حماية لها ، ومن ثم فهي معرضة لأي مصائب قد يتعرضون لها بالمثل .

لم يكن أمامهم أي مفر . فقد أطبق الشرك عليهم . إذ أن جيش الرينامو من ورائهم ، وجيش الفريليمو في كل مكان ، ورجال المخابرات المركزية الزمبابوية من أمامهم . إنهم كمن ألقى به في قفر موحش ، وسيكون مصيرهم إما أن يتم صيدهم مثل الحيوانات البرية ، أو أن يلاقوا حتفهم جوعًا بطيئًا وعطشًا في هذه الفيافي .

وحدث سين نفسه :

« فكر ! حاول أن تجد مخرجًا » .

قد يحاولون عبور حدود زمبابوي من نقطة أخرى غير وادي هوندي ، لكن المخابرات الزمبابوية بالتأكيد قد إستنفرت كل البلاء وعبأتها ضدهم . وسيكون هناك فصائل من الجنود على أي معبر محتمل . وبدون أوراق ثبوتية أو إذن مرور فلن يتمكنوا من الوصول لأبعدِ من بضعة أميال . ثم إنّ هناك جوب . ماذا سيفعل به ؟ كيف سيحملون رجلاً جريحًا بينما كل الشرطة والمراكز العسكرية والمباحث تفتش على مريض محمول على نقالة .

وقطع عليه ألفونسو تفكيره :

« علينا أن نتجه جنوبًا . يجب أن نتوجه لجنوب إفريقيا » .

حدق سين مشدوهًا فيه :

« علينا ؟ . أتعني إنك تريد أن تأتي معنا ؟ » .

فأجابه بفلسفة وواقعية :

« لن أستطيع العودة للجنرال تشاينا بعد أن خنته وكشفت سره . سأذهب معكم لجنوب إفريقيا » .

ـ لكن ذلك الطريق يصل إلى ثلاثمائة ميل وسنمر من خلال جيشين متقاتلين، فريليمو من ناحية ومن الناحية الأخرى جيش رينامو الجنوبي . ثم ماذا بشأن جوب ؟ .

ـ سنحمله معنا .

ـ ثلاثمائة ميل ؟

هز ألفونسو رأسه وقال بدون إكتراث :

« في هذه الحالة سنتركه وراءنا . إنه مجرد متابيلي وسيموت على كل حال» .

سيطر سين على الرد الغاضب الذي كاد أن يخرج منه وظل صامتًا يقلب في الأمر . وأينما إتجه بتفكيره فقد كان يرى أن ألفونسو على صواب . فمن ناحية الشمال فإن الإتجاه نحو (ملاوي) يعيقه خزان كابورا باسا ومياهه الواسعة وأيضًا ، دفاعات الجنرال تشاينا . أما على الشرق فالمحيط الهندي . وبالطبع فعلى الغرب توجد مخابرات زمبابوي المركزية ورجالها . وقال سين بعد تردد :

« حسنًا . ليس أمامنا سوى طريق الجنوب . فربما إستطعنا التسلل بين الفريليمو وجيش رينامو الجنوبي . غير أن أهم ما سنمر به هو عبور خط السكك الحديدية المليء بحشود الحرس والجنود ومنه نتوجه نحو نهر لمبابوي . كما أن علينا أن ندبر طعامنا وشرابنا ، أثناء ذلك ، في فيافي شاسعة مزقتها وحرقتها عشرة سنوات من الحرب الأهلية » .

لكن ألفونسو كان متفائلاً :

« في جنوب إفريقيا سنأكل اللحيم الطازجة يوميًا » .

نهض سين وسأله : « هل سيتبعنا رجالك ؟ » .

رد عليه ألفونسو بواقعية وصرامة :

« سأقتل كل من يرفض الذهب معنا ، إذ ليس بإمكاننا السماح لهم بالرجوع إلى الجنرال تشاينا » .

« هذا صحيح » . وافقه سين على رأيه وأضاف : « وستبلغ القيادة بالطبع ، في الوقت المحدد لك للإتصال بهم ، بأنني عبرت الحدود إلى زمبابوي ، وبهذه الطريقة سنقوم بتضليل تشاينا لأربعة أو خمسة أيام على الأقل . ولن يعرف أننا توجهنا جنوبًا إلا بعد أن نكون قد إبتعدنا عنه بما فيه الكفاية ، وعن مدى

قدرته للوصول إلينا . من الأفضل إذن التحدث مع رجالك الآن إذ أن علينا التوجه جنوبيًا في الحال . تحدث إليهم قبل أن يدركوا إننا وراء شيء آخر » .

نادى ألفونسو الحراس . بدت وجوه الشنقانيين ، في الضوء الرمادي الشاحب من الفجر ، صارمة متيقظة وهم يتربعون على الأرض في دائرة من حوله . وإستمعوا لألفونسو وهو يحدثهم عن جنة الجنوب التي سيقودهم إليها . وقال لهم وهو ممتلئ بحماس متقد ، وبفصاحة وبلاغة المؤمن الداخل حديثًا في الدين :

« لقد سئمنا جميعًا الحرب والقتال ، سئمنا عيشة الحيوانات في الغابة . لقد حان الوقت لأن نعرف كيف نعيش كالرجال ولنجد لأنفسنا نساء وزوجات ينجبون أطفالنا » .

وقبل أن يكمل حديثه رأى سين عيونهم تبرق من توقع المستقبل القادم لهم . وشعر بحمل ثقيل عن صدره . ولأول مرة بدأ يؤمن بأنهم سيوفقون في قطع المشوار الذي أمامهم ، إذا ما توفر لديهم العزم والإصرار ، مع قدر عظيم من الحظ .

توجه لإبلاغ كلوديا وجوب بما هو قادم إليهما . كانت كلوديا تغسل وجه جوب بقطعة مبللة من القماش ، وقالت لسين عندما رأته قادمًا نحوهما :

« إنه أحسن كثيرًا بعد أن نال قسطًا طيبًا من النوم أثناء الليل ..... » ثم قطعت كلامها عندما رأت وجه سين . تضعضعت معنوياتها بوضوح عندما شرح لهما سين ما سيقومون به . وهمست :

« لقد كان ذلك أجمل ما يكون حقيقيًا . كنت أشعر في أعماق نفسي بأن الأمر لن يكون بهذه السهولة ، وأن الجنرال تشاينا ليس متنكرًا في ثياب بابا نويل » .

ظل جوب راقدًا بهدوء على النقالة ، لا يبدي أي حراك ، حتى ظن سين أنه قد أغمى عليه فمد يده وجس نبضه . وعندما لمسه فتح جوب عينيه وهمس :

« هل تثق في هؤلاء الشنقانيين ؟ » . فقال له سين :

« ليس لدينا خيارات أخرى » . ثم مضى قائلاً بحماس : « نحن ...... » . لكن جوب همس له بصوت يكاد يكون مسموعًا : « اتركني هنا يا سين ...... » .

تصلبت قسمات وجه سين وقال له بصوت غاضب مرير ، محذرًا له :

« توقف عن هذا الهراء » .

لكن جوب ألح عليه : « بدوني ربما تجدون فرصة للنجاة . فإذا ما كان عليك أن تجر وراءك هذه النقالة ..... » .

- لكن لدينا إثنى عشر شنقانيًا قويًا .

- من الأفضل أن ينجو البعض منكم بدلاً عن أن نموت جيمعا . اتركني يا سين . أنقذ كلوديا ونفسك :

- لقد بدأت تغضبني حقًا .

ثم وقف سين وقال لكلوديا :

« سنتحرك خلال عشرة دقائق » .

◆ ◆ ◆

ارتحلوا نحو الجنوب ، بحذر شديد ، طوال ذلك اليوم . وقد شعروا براحة عظيمة لعدم حوجتهم للتطلع للسماء خوفًا من طائرات الهايند ، بالرغم من أن الشنقانيين ، من خلال تعودهم على ذلك ، كانوا يرفعون وجوههم للسماء من حين لآخر . وكلما اقتربوا من الخط الحديدي كلما أبطأت خطاهم وقضوا وقتًا أكبر في الإختباء وسط أجمات أشجار الأبنوس الكثيفة وشجيرات الجسى حتى يعود إليهم متاتو كالشبح ليخبرهم بأن الطريق آمن امامهم ، ثم يقودهم إليه .

وبعد الظهيرة ترك سين بقية جماعته مختبئين في واد ضيق منحدر مليء بالشجيرات وذهب مع متاتو للإستكشاف . عاد بعد ساعتين عندما بدأت الشمس في الغروب وفوجئت كلوديا بظهوره الفجائي ، بدون أن تسمع حركته، بجوارها . وشهقت قائلة :

« لقد أفزعتني ! إنك تتسلل كالقطة » . فأخبرها :

« لا يبعد الخط الحديدي سوى ميل واحد من هنا . ويبدو الحراس الفريليمو في حالة من الفوضى والإنزعاج . لكن هناك تحركات عسكرية متواصلة على الخط . وبرغم حالة الخوف التي عليهم فإن مرور من بينهم سيكون خطرًا نوعًا ما .

وعندما يظهر القمر فسأذهب لإلقاء نظرة أخرى » .

وبينما هم في إنتظار القمر ، قلم ألفونسو بمد هوائي الراديو وأرسل رسالته المجدولة إلى مركز قيادة تشاينا بالشفرة فقال :

« لقد طار الحمام » . كانت هذه الشفرة هي التي إتفق عليها مع المركز . وبالتالي سيصدق تشاينا بأن سين وجماعته قد عبروا الحدود . وبعد فترة وجيزة من الإرسال ، ويبدو أن ذلك كان بعد قيام فني اللاسلكي بالمركز بإبلاغ الرسالة ، جاء الأمر لألفونسو للعودة للقاعدة الرئيسية على شاطئ النهر . أيد الفونسو استلام الأمر وأقفل جهازه . وابتسم وهو يعيد الجهاز إلى داخل حقيبته وقال :

« لن يتوقعوا وصولي إليهم قبل يومين على الأقل . وبعد ذلك سيبدأ الشك يساورهم .

وعندما نشر القمر ضياءه الفضي على قمم الأشجار ، تسلل سين ومتاتو داخل الغابة للقيام باستكشاف أخير لخط السكة الحديد . وبعد ميل جنوبًا وجدوا المكان الذي يمر عليه الخط خلال مجرى مائي ضيق . وبالرغم من أن المجرى المائي لا يحتوى إلا على برك ضحلة متناثرة ، إلا أن جانبيه كانا ممتلئين بالشجيرات النهرية والتي يتوقع أن توفر لهم غطاءًا جيدًا ، ولابد أن هذه الشجيرات كانت قد أزيلت يومًا ما ، لمسافة مائة متر على الجانبين ، لكنها إمتلأت بالنموات الثانيوة للشجيرات بعد ذلك . وغمغم سين :

« يا للفريليمو الأوغاد الأغبياء . هذه الشجيرات التي أهملوا إزالتها ستوفر لنا بعض الغطاء وسنبقى بداخل المجرى » .

كان الخط الحديدي الرئيسي يعبر المجرى على جسر صغير فوق المجرى وقد أقيم على مداخله نقاط للحراسة على بعد خمسين ياردة منه . وعندما أخذ سين في تفقد المجرى والجسر بمنظاره المقرب لاحظ أن أحد الحراس ، المسلح ببندقية إي كي معلقة على كتفه ، يمشي الهويني نحو الجسر فوق النفق . إتكأ الحارس على إفريز الكبرى وأشعل سيجارة . دل وهج السيجارة على درجة تقدمه ثم رجع عائدًا إلى نقطة الحراسة .بدا لسين وكأنه يمشي بخطى غير ثابتة . وعندما عاد الجندي لنقطة الحراسة خرجت منها ضحكات نسائية سمعها سين ومتاتو من ذلك البعد . وضحك سين بخفوت وقال لمتاتو :

« يبدو أن لديهم حفل هناك » .

فأجابه متاتو بحسد وتلمظ واضح :

« طبعًا لديهم نبيذ البلح والرقص والنساء » . ثم رفع يده ، وإبهامه ممدود في ضوء القمر بحركة فاحشة ، وقال : « إنني أشتهي شيئًا من ذلك لنفسي » .

قرصه سين في أذنه وقال له :

« أيها الشحاذ الضئيل الداعر . أعدك ، عندما نصل إلى جوها نسبرح ، أن أزوجك لأضخم وأسمن فتاة نستطيع العثور عليها » . فمزاج متاتو الغرامي كان يصب دائمًا في الفتيات المكتنزات البدينات . وكان سين يداعبه كثيرا بقوله :

« مثل (شريا تسنج) على جبل إفرست » .

كان لإنصراف الحرس للهو والعبث ما يشجع سين بأن عبورهم سيكون سهلاً . ومن ثم انسحب مع متاتو بهدوء وشرعا في العودة إلى حيث تركا بقية المجموعة .

كانت قد مضت ثلاثة ساعات على غيابهما وقارب الوقت منتصف الليل الآن عندما إقتربا من معسكرهم . وعلى رأس الجدول توقف سين ليعطي إشارة التعرف عليهما ، وهي صفارة تحاكي التغريد اللين للطائر السهار الأحمر العنق، حتى لا يتعرض لإطلاق النار من أحد الشنقانيين . انتظر لدقيقة حتى يتلقى ردًا ، ولما لم يجيء الرد كرر إشارته . لم يتلق سوى الصمت وشعر بالبوادر الأولى للانزعاج .

وبدلاً من أن يمضي قدمًا ، قام مع متاتو بالدوران بحذر حول الجدول . وفي ضوء القمر إلتقط متاتو أثرًا غير متوقع وإنحنى لتفحصه بعبوس وتجهم . وهمس سين له : « من ؟ وفي أي إتجاه ؟ » .

رفع متاتو رأسه وأشار بيده نحو الشمال قائلاً :

« رجال كثر . إنهم رجالنا الشنقانيين ليست إلا . لقد هربوا وتركوا المعسكر » .

ذهل سين وتمتم : « هربوا ؟ لا معنى لهذا اللهم إلا ..... أوه يا إلهي ! لا ! » .

وبسرعة وصمت وصل للمعسكر . لم يجد الحراس الذين أقامهم هناك . عرف أنهم هجروهم . وأحس سين بالرعب كالموجة العاتية يكاد يخنقه . وهمس بصوت واهـ وهو يضغط على نفسه من أن يصرخ مناديًا لها باسمها :

« كلوديا ! » .

أراد أن يندفع نحو المعسكر ليجدها لكنه سيطر على نفسه ، وجذب الهواء لداخل رئتيه في سلسلة متصلة ، ثم حول أصبع بندقيته إي كي إم إلى الوضع الأوتوماتيكي الكامل وتوجه زاحفا على الأرض نحو المعسكر . كان الشنقانيون الخمسة الذين تركهم في حراسة مدخل الوادي قد اختفوا واختفت معهم كل معداتهم وأسلحتهم . مضى قدمًا ورأى النقالة التي تمدد عليها جوب في ضوء القمر وبجوارها كلوديا ملتفة ببطانيتها في نفس المكان الذي تركها فيه . ولكن ، وعلى مقربة من كلوديا ، وجد شخصًا ممددًا آخرًا وشاهد بوضوح الدماء التي تجمدت على مؤخرة رأس الرجل .

ألقى سين بالحذر جانبًا واندفع نحو جسم كلوديا ثم ركع على الأرض وحملها بين ذراعيه .

شهقت كلوديا وأطلقت صيحة وبدأت تقاوم ، وهي في بداية صحوها من نوم عميق ، ثم هدأت بعد أن عرفت سين . ونادت بصوت ثقيل يملؤه النعاس :

« سين ! ما هذا ؟ ماذا حدث ؟ » .

غمغم بانفعال وحرارة :

« الحمد لله . لقد ظننت .... » . ثم وضعها برفق على فراشها وتوجه إلى حيث رقد جوب على النقالة وهزه برفق : « جوب . أأنت على ما يرام ؟ » .

لكن جوب لم يزد على أن تحرك قليلا وتمتم بشيء غير واضح .

قفز سين على قدميه وذهب لألفونسو الممدد على الأرض ولمس عنقه . كان جسمه دافئًا ونبضه قوي ومنتظم . فنادى كلوديا لإحضار الكشاف الكهربائي له . وتحت شعاع الكشاف بدأ يفحص الجروح التي برأس ألفونسو . وبالرغم من توقف النزيف في حينه إلا أنه وضع ضمادات على الجرح ولفه بشريط وقال لكلوديا : « حسنًا فعلوا بضربه على رأسه وإلا لكانوا قد سببوا له أذى بالغًا » وضحك ساخرًا من نكتته . وسألته كلوديا بقلق :

« ماذا حدث يا سين ؟ لقد كنت غارقة في النوم ولم أحس بأي شيء » .

أحكم سين رباط الشريط على رأس ألفونسو وقال لها :

« هذا من حسن حظك وإلا لنلت نفس المعاملة » .

- ماذا حدث ؟ أين الآخرون ؟

- ذهبوا . طاروا . هجرونا . من المحتمل أن يكونوا غير مستسيغين للمشوار أو للهدف المنشوده لقد حطموا رأس ألفونسو وهرعوا عائدين للجنرال تشاينا » .

حملقت بدهشة فيه وقالت :

« أتعني إنه لم يبق سوى أربعتنا ؟ وأن كل الشنقاني ما عدا ألفونسو قد ذهبوا ؟

- نعم هذا صحيح .

سمعا صوت أنين ألفونسو ، الذي مد يده متحسسًا للأربطة التي على رأسه . وساعده سين على الجلوس .

ربتت كلوديا على ذراع سين فالتفت إليها وسألت :

« ماذا سنفعل يا سين ؟ وماذا بشأن جوب ؟ كيف نستطيع أن نحمله ؟ بل كيف نستطيع الخروج من هنا أساسًا ؟ » .

نظر سين باتجاه جوب وقال لها بعبوس :

« هذا ، يا حبي . سؤال مثير للغاية . وكل ما أستطيع قوله هو أنه في مثل هذا الوقت غدًا ، سيكون صديقنا القديم الجنرال تشاينا قد علم بفرارنا ، وسيعلم بالضبط إلى أين نحن متجهون » .

حملقت فيه بذهول :

- وماذا نحن فاعلون ؟

ـ ليس أمامنا خيارات كثيرة . وهناك طريق واحد أمامنا وهو أن نواصل الدرب الذي نحن سائرون إليه .

ساعد ألفونسو على النهوض على قدميه . وهمست كلوديا بقلق :

ـ لكن هذا مستحيل . فأنتما الإثنان لن تقدرا على حمل النقالة وحدكما .

ـ هذا صحيح تمامًا . وعلينا القيام بترتيبات أخرى بالطبع .

قاما بحمل جدب من نقالته وارتداه على بطانية كلوديا ثم ، وبينما الآخرون ينظرون ، بدأ سين يفكك الصوف الزجاجي من النقالة . وقبل أن ينتهي جاء متاتو بصمت من بين الظلام وهمس في أذن سين بتقرير موجز .

وقال سين لألفونسو وهو لا يكاد ينظر إليه : « لقد علمتهم جيدًا . لقد تفرق رجالك في أحد عشر إتجاهًا مختلفًا . فإذا ما تبعناهم فقد نمسك بواحد أو اثنين منهم ، لكن بعضهم سيصل حتمًا إلى تشاينا بأنبائه السارة » .

لعن ألفونسو الهاربين بمرارة بينما كان سين يوضح ما يقوم به لكلوديا وجوب :

« سأستخدم شرائط النايلون من النقالة لأصنع مقعدًا متدليًا يمكن حمله» . تشككت كلوديا في الأمر وقالت :

« لكن جوب ليس قويا بما فيه الكفاية ليجلس معتدلاً . فأي حركة ستفتح جراحه من جديد . كما ʼن النزيف ...... » . توقفت حين حملق سين فيها بغضب ونهرها قائلاً : « هل لديك فكرة أفضل ؟ » . لكنها هزت رأسها .

قام سين بمضاعفة طول قماش التيل الأخضر ، الذي كان بالنقالة ، ثم فك حمالة بندقيته إي كي إم وبندقية ألفونسو إي كي ليصنع منها حمالات للكتف تربط على المقعد المرتجل . وغمغم : « سنقوم بالتعديلات اللازمة أثناء سيرنا » .

ثم قال لكلوديا : « بدلاً عن التفتيش عن المتاعب ، اشغلي نفسك بشيء ذي فائدة مثل جمع ما خلفه الشنقانيون من معدات حتى نختار منها ما يناسبنا » .

قام بفرز المعدات بسرعة ، واستغنى عن معظمها ماعدا القطع الضرورية وقال : « سأقوم أنا وألفونسو بحمل جوب بيننا . وفوق ذلك لن نقدر على حمل أكثر من بنادقنا وبطانية لكل منا . ʼما كلودي ومتاتو فعليكما حمل صندوق الإسعاف وزجاجات الماء وبطانية لكل منكما وسنترك الباقي وراءنا » .

وسألت كلوديا :

« وماذا عن معلبات الطعام ؟ » .

ـ عليك نسيانها .

ثم أخذ يوزع حصص الأحمال عليهم وإختزل كل شيء تقريبا للحد الأدنى، فهو يعلم أن أي رطل من الوطن الآن سيبدو مثل عشرة أرطال بعد الأميال القليلة الأولى. حتى ألفونسو تخلي عن بندقيته إي كي واستلم بدلاً عنها المسدس التوكاريف الذي أخذه سين عنوة من الطيار الروسي. حتى الذخيرة لم يحمل منها سوى خزنتين لبندقيته إي كي إم، كما إحتفظ هو وألفونسو بقنبلتين يدويتين لكل منهما إحداها فوسفورية والأخرى من ذوات الشظايا.

ثم ألقوا بالمعدات المهجورة في قعر الجدول وغطوها بالأغصان والتراب كي لا تعثر عليها أطواف الفريليمو العابرة.

وقال سين لجوب:

« هيا يا شباب. حان الوقت للذهاب ». ثم نظر لساعة معصمه ووجد إنها قاربت الثالثة صباحا. كانوا متأخرين، وكان عليهم عبور الجسر قبل إنقضاء الظلام.

ركع بجانب جوب وساعده على وضع الجلوس بمقعد قماش التيل ثم ربط ذراعه المصابة بإحكام على صدره. وحذر جوب:

« سيكون هذا صعبًا عليك ». ثم بينه وبين ألفونسو قاما برفع جوب على قدميه وتحمل جوب الألم الشديد بصبر وصمت ووقف مستندًا عليهما.

ضبط سين وألفونسو المقعد وثبتا الشرائط الدائرية على كتفيهما ثم رفعا جوب على المقعد فجلس ورجليه متدليتين. لف يده السليمة حول كتف سين بينما شبك سين وألفونسو ذراعيهما خلف ظهر جوب ليسنداه. وسأله سين: « هل أنت جاهز؟ ». وغمغم جوب بصوت خفيض محاولاً إخفاء الألم الذي تسببه له أي حركة: نعم.

وحذره سين ضاحكًا:

« إذا كنت تظن أن الأمر صعب الآن فعليك الصبر لبضع ساعات وسترى! ».

توجها مع المجرى المائي متجهين للخط الحديدي. كانوا يمشون بخطى بطيئة بينما أخذ سين وألفونسو يتأقلمان على هذه الطريقة للسير وهما يحتضنان جوب بينهما، لكنهما تعثرا على أرض وعرة وتأرجح جوب على مقعده وإرتطم بهما. لم يصدر عنه أي صوت لكن سين سمع صوت أنفاسه الخشنة القريبة من أذنه. وعندما برح به الألم غرز أصابعه، بدون قصد منه، في كتف سين.

ورويدًا رويدًا وببطء تحركوا على المجرى المائي الضحل باتجاه الجسر الذي يمر الخط الحديدي من فوقه. كان متاتو يتقدمهم بمائة ياردة وقد ظهر شبحه بالكاد تحت ضوء القمر. صفر لهم بإشارة التوقف ثم عاد بعد لحظات ليصفر لهم بالتقدم. أما كلوديا فكانت وراءهم بخمسين خطوة حتى تتمكن من

الهروب إذا ما تم إكتشافهم واضطررا للتراجع .

ما كان بإمكان سين وألفونسو أن يمضيا في صمت وهما يحملان جوب . وذات مرة وقعوا في بركة داخل المجرى المائي وتناثرت المياه من حولهم وكأنهم قطيع من أفراس النهر .

وصل متاتو إلى الجسر وأشار إليهم بالإسراع . تعثرا تحت وزن جوب وخرجا إلى العراء عندما جاء من فوق الجسر أصوات لأقدام على الحصى المفروش وأصوات لحديث متبادل .

خفضا رأسيهما وأسرعا جريًا ووصلا للجسر وحملا جوب للنفق الخرساني المظلم . كانت كلوديا تجري منحنية نحوهما على بعد خطوات منهما ومد سين يده الطليقة نحوها وجرها من العراء المضاء بالقمر إلى ظلمة النفق .

استندوا على الحائط الخرساني وهم منحنون تحت السقف المقوس وحاولوا التحكم في صوت أنفاسهم وهم جميعا يلهثون بشدة من جراء الجري خلال الوحل والطين والرمل الذي بقاع المجرى .

ارتفعت الأصوات من فوقهم ، وصوت الأقدام ، ثم توقفت مباشرة فوق رؤوسهم . وبدا إنها أصوات رجل وإمرأة . ربما كان رجال حامية الفريليمو قد أحضروا نساءهم معهم ، أو أن يكونوا قد وجدوا صديقات لهم من بين نساء معسكرات اللاجئين التي ظهرت فجأة بطول الشريط الحديدي ذي الحراسة القوية .

كان نقاش حار يدور هناك . الرجل يتحدث بصوت مخمور ، والمرأة بصوت سليط حاد وهي تحتج على عرضه لها . وأخيرًا سمعوا صوت الرجل يأتي حاسمًا :

« دولار شومي (عشرة دولارات) » . وفي الحال هدأ صوت المرأة وغردت موافقة . ثم جاءت أصوات الأقدام على الحصى وطارت بضع حصيات على الجدار الخرساني وسقطت في بطن المجرى . وهمست كلوديا في رعب :

« إنهما قادمان نحونا ! » . وفي الحال ثواري الجميع في أعماق ظلام الجسر .

وهمس سين : « اهدأوا » . ثم إنحنى ليريح جسم جوب بإخراجه من مقعد القماش وركنه برفق على جدار الجسر .

وبينما أخرج سين سكينه من غمدها ، ظهر شيخان على مدخل الجسر وقد ألقى القمر ظلالهما للأمام ثم مضيا واختفيا في أعماق الظلمة .

وبعد قليل تراجعا متعثرين نحو الشاطئ الرملي ، واختفيا حول ركن الجسر ثم خف صوتهما تدريجيًا . وأعاد سين السكين نعمدها المعلق بحزامه وقال مبتسمًا في همس : « هذا ما يعنيه عصر السرعة ! » .

ضحكت كلوديا بعصبية وهمست :

« ثانيتين بالتمام والكمال . يجب أن يكون هذا رقمًا عالميًا أو يدخل موسوعة جينس » . ضمها سين إليه في رفق واعتذر لها :

« أرجو أن نكون أيضًا أصدقاء وإنني آسف لأنني إنتهرتك » .

- لا بأس . إنني أستحق ذلك . فقد أصبحت مثل جين الحزينة ، ولن تجد مني مستقبلاً أي شكوى أو تذمر .

عاد ليتفقد جوب ووجد أنه قد إنزلق بشدة ضعفه ، من متكئه على الجدار ، وكان جالسًا على رمل النفق . وعندما إنحنى ليرفعه على قدميه لمست أصابع سين كتفه . كانت الضمادات ندية ، وسرعان ما تلاشت إبتسامته . فقد بدأ النزيف يعود إليه من جديد .

وفكر سين وهو ينهضه واقفًا :

لا يمكنني عمل شيء له الآن ، ثم : « كيف حالك يا إبني العجوز ؟ » .

جاء همس جوب أجشًا خافتًا :

« لا شيء . لا تقلق » .

بعد بضع دقائق سمعوا صوت عصفور ليلى يأتي من جهة متاتو . وكان يعني أن الطريق خال آمن . أرسل سين كلوديا أمامه وانتظر خمسة دقائق لتعبر الأرض المكشوفة المنظفة على جانب الكبرى ثم نظر لساعته بعقاربها المضيئة وشرع في رفع جوب لمقعده البدائي وتوجهوا قدمًا تحت ضوء القمر .

كانت المئة خطوة التالية من أطول وأصعب المسافات التي قطعها سين في حياته . لكنهما أخيرًا وصلا للغابة التي تحف المنطقة المنظفة ووجدا كلوديا في إنتظارهما . وهمست بحبور :

« لقد فعلتاها ! » .

فأجابها سين متجهمًا :

« نعم . بالتأكيد . فالميل الأول قد مضى كالبرق . أمامنا فقط ثلثمائة ميل أخرى » ثم واصلوا سيرهم .

أخذ يعد خطواته ، بعد ضبط الزمن على ساعته بعقرب الثواني ، وقدر سين أن سرعتهم لا تزيد على ميلين في الساعة . من أمامهم كان متاتو يختر لهم أسهل الدروب . كان دائمًا مختفيًا وراء أشجار الغابة ، ولم يرشدهم إليه سوى أصوات الطيور الهادئة التي كان يطلقها من حين لآخر . كان سين يستعين بالنجوم لتحديد الإتجاه نحو الجنوب ويعتمد أكثر على الصليب الجنوبي ، ونجمتيه البراقتين اللتين تشيران للجنوب دائمًا ، والذي يظهر من حين لآخر من

بين فجوات الأشجار .

وعندما بدأت الكواكب والنجوم تشحب في لونها ، وأذن الفجر بالبزوغ ، توقفوا مرة أخرى وسمع سين لهم بتناول جرع من الماء للمرة الأولى . جرعتان لكل منهم ، من الزجاجات التي تحملها كلوديا . ثم ركز إنتباهه على كتب جوب . كانت الضمادات مبللة بدم جديد ، وكان لون وجه جوب رماديًا مثل بقايا رماد المعسكر بعد إطفاء النار ، وقد غارت عيناه في محجريهما وجفت شفتاه وتشققتا وكانت أنفاسه تخرج منهما كالصفير الخافت .

بدأ سين برفق في إزالة الضمادات ، ثم تبادل مع كلوديا نظرة سريعة . كان الجرح بشعًا وقد تيبس الشاش القطني عليه ويداخل فجوة الجرح . وأيقن سين بأنه لو حاول نزعه فسيتمزق اللحم الذي إلتصق به وسيبدأ النزيف من جديد . مال عليه وتشمم رائحة الجرح ، بينما ابتسم جوب ابتسامة واهنة له وقال:

« كشرائح اللحم غير الطازج » .

فابتسم سين وقال له :

« لكنها تحتاج إلى بعض الثوم » . كان عندما تشممه قد أحس بأول بوادر التعفن . عصر على ضمادة الجرح المزيد من معجون اليود ثم غطاها بشريط لاصق جديد ثم بدأ بلف رباط عليه بمساعدة كلوديا . ثم لف الشاش والأربطة الملوثة بالدم ووضعها في جيبه ، إذ سيقوم بغسلها جميعًا عندما يتوفر الماء لهم .

وقال لجوب :

« علينا أن نواصل السير ويجب أن نبتعد بقدر الإمكان عن خط السكة الحديد . هل أنت قادر على ذلك ؟ » .

أومأ جوب ، لكن سين رأى الخوف في عينيه ، فأي خطوة يتحركونها هي العذاب بعينه بالنسبة إليه .

ـ سأقوم بحقنك بجرعة أخرى من المضاد الحيوي ، ويمكن أيضًا أن أعطيك جرعة مورفين مع الحقنة .

هز جوب رأسه وقال :

ـ لا داعي إلا إذا ساء الأمر .

وابتسم جوب مرة أخرى ، ابتسامة مزقت فؤاد سين . ولم يستطع النظر في عيني جوب عندما قال له :

ـ أرني أجمل جانب من جسمك !

جذب سين بنطلون جوب وحقنه في مؤخرته السوداء اللامعة بإبرة تحت

الجلد ، وأدرات كلوديا عينيها في حياء ، لكن جوب همس لها :

« لا بأس يا كلوديا . مسموح لك بالنظر لكن اللمس ممنوع . وهذا كل شيء » .

زمت شفتيها في جد وإحتشام وقالت له :

« إنك لا تقل سوءًا عن سين . فكلاكما بذئ ، بكل ما في الكلمة من معنى ! » .

ثم رفعوا جوب على مقعده المعلق وواصلوا سيرهم . وفي منتصف النهار بدأ السراب يتلألأ في أشكال دوامية زجاجية على التلال الصخرية الصغيرة والتي كانوا يشقون طرقهم خلالها ببطء ومشقة ، ويبدأ ذباب الموبين الدقيق الحجم يحوم كالضباب ، حول رؤوسهم ويتسلل إلى أنوفهم وآذانهم وعيونهم بإصرار مزعج . ومع إرتفاع درجة الحرارة بدأ العطش يساورهم ويبدأ العرق يجف على قمصانهم ويترك آثارًا ملحية متعرجة عليها .

وعندما توقفوا في منتصف النهار تحت ظل ضئيل لشجرة تبك ، شعر سين بأن قواهم قد إستنفذت ، وإن أسوأ درجات الحرارة لإزالت في الطريق . مددوا جوب على فراش أقاموه على عجل من الحشائش ، وسرعان ما غرق في شيء أقرب إلى الإغماء منه إلى النوم ، وأخذ يطلق شخيرًا خافتًا من خلال شفتيه الجافتين المتورمتين .

احتكاك شريط حمالة المقعد بكتفي سيكشط الجلد عنهما وسبب له ألمًا لا يطاق . فقد كان يتبادل الوضع مع ألفونسو كلما توقفوا للراحة . وسبب شريط النايلون الخشن لألفونسو مثلما سبب لسين من دمامل وألم مبرح ، وأخذ يغمغم بوجه متجهم عابس ، وهو يتفحص أكتافه المقروحة :

« كنت من قبل أكره المتابيلي ، لأنهم ، ببساطة ، وكر للبراغيث . وما هم إلا حفنة لصوص وقرود مصابة بالعدوى . والآن لدي سبب آخر لأكرههم » .

فألقى سين إليه بأنبوبة معجون الأيودين قائلاً له :

« أمسح (الموتى) على قروحك الموجعة ثم قم بحشو الأنبوب الفارغ في فمك الثرثار » . وتوجه ألفونسو ، وهو لا زال يغمغم ، ليجد مكانًا يرقد فيه .

ثم فتش سين عن مكان آخر لتهجع فيه كلوديا وفرش لها بطانية على الأرض إستلقت ونامت في الحال .

وعند الغروب قام سين بإنضاج عصيدة من الذرة على نار هادئة بدون دخان ، بينما انشغل ألفونسو بمد الهوائي وضبط الراديو على موجة مركز قيادة رينامو . كانت هناك ضجة وشوشرة وتداخلات على موجة الرينامو ، ربما كانت بسبب

تداخلات إرسال الفريليمو ، لكنه سمع أخيرًا إشارة النداء الخاصة به وسط الضجيج :

« أنقولوبي ! (الخنزير البري الإفريقي) ! كن معنا . أنقولوبي ! هنا شجرة الموز » .

أكد ألفونسو استماعه ثم ذكر لهم بلاغًا وهميًا عن مكانه يشير إلى أنه لازال بعيدًا للشمال من الخط الحديدي ، وأنه في طريقه للنهر . إستلمت شجرة الموز الأشارة وأوقفت الإتصال .

وأبدى سين رأيه : « يبدو أنهم وقعوا في الفخ ، كما يبدو أن الشنقانيين الذين فروا منا لم يصلوا بعد لرئاستهم ، أو يطلقوا صفارات الإنذار علينا . ليس بعد على أية حال » .

تناولوا وجبتهم في آخر ضوء للنهار وأخذ سين في دراسة الخريطة الميدانية التي معه وأشر على مكانهم حسب تصوره . وطبقًا للخريطة ، فإن الأرض الصخرية ذات التلال الصغيرة تمتد قدمًا لحوالي ثلاثين ميلا أخرى وبعدها تبدأ في الانحدار تدريجيًا نحو سهل منبسط تتناثر عليه عدة قرى صغيرة ومناطق زراعية للأهالي . وبعد ذلك تظهر العقبة الطبيعية الأولى في طريقهم ، وهي نهر عريض آخر يجري من الغرب إلى الشرق مباشرة ويقف في طريق عبورهم .

ونادى سين ألفونسو وسأله :

« هل تعلم أين يبدأ القسم الجنوبي للرينامو ، وفرق الجنرال تيبوتيب ؟ وأماكن توزيع القوات؟ » .

فقال له مجيبًا :

« مثلنا تمامًا . إنهم يغيرون مواقعهم باستمرار لإرباك الفريليمو .. فأحيانًا تجدهم هنا ، وأحيانا أخرى هناك على نهر ريوسيف » . ثم هز رأسه وقال :

« أينما يوجد قتال ، فإنك تجد الرينامو » .

- والفريليمو : أين هم ؟

- إنهم يطاردون الرينامو لكنهم يفرون من أمامهم كالأرانب عندما يلتقون بهم .

ثم ضحك وقال :

- أما بالنسبة لنا الآن فلا يهمنا هذا أو ذاك أو أين هم ، فأي واحد منهم نقابله سيحاول قتلنا.

- تقرير مخابراتي رائع .

شكره سين ثم طوى الخريطة وحشرها في كيسها البلاستيكي . إنتهوا

بسرعة من تناول وجبتهم الفقيرة ثم نهض سين واقفًا وقال :

« حسنًا يا ألفونسو . هيا بنا نرفع جوب ونواصل السير» .

نجشأ ألفونسو ثم إبتسم متخابثًا وقال :

« إنه كلبك المتابيلي ، فإذا ما كنت بحاجة إليه فعليك حمله بنفسك . أما أنا فقد حملت ما فيه الكفاية » .

وأرى سين الفزع الذي إنتابه وراء قناع جامد لوجهه وقال له بهدوء :

« إنك تضيع الوقت . إنهض على قدميك » . وتجشأ ألفونسو مرة أخرى وسمر عيونه عليه ، وهو لازال مبتسمًا .

مد سين يده ببطء وإنتزع سكينه من غمده . وبنفس التصميم من ألفونسو يده ووضعها على التوكاريف المعلق بجزامه . وأخذا ينظران لبعضهما البعض في تحد . ومن بعيد جاء صوت كلوديا متسائلاً :

« ما الأمر يا سين ؟ ماذا يجري ؟ » . لم تكن تفهم شيئًا عن اللغة الشنقانية التي كانا يتحدثان بها . لكن التوتر كان ظاهرًا في صوتيهما . وأجابها سين :

« إنه يرفض معاونتي على حمل جوب » .

فسألته كلوديا بقلق : « لكن ليس بمقدورك حمله وحدك . هل تستطيع ؟ أعتقد أن ألفونسو سيساعدك ... » .

أجابها سين بالشنقانية : « وإلا سوف أقتله » .

ضحك ألفونسو عاليًا ثم وقف ونفض جسمه كالكلب وأدار ظهره نحو سين . ثم تناول جهاز اللاسلكي بحقيبته وبندقية سين (إي كي إم) ومعظم زجاجات الماء وقال وهو يضحك ضحكة خافتة : « سأحمل هذه الأشياء وبإمكانك حمل تابعك المتابيلي » . هز رأسه من نكتته هذه ثم مضى في طريقه نحو الجنوب .

رفع سين يده عن مقبض السكين ونظر إلى جوب الذي كان يراقب ما يحدث وهو راقد على فراشه من الحشائش . وصاح سين في وجهه : « إذا نطقت بكلمة فسأركلك على مؤخرتك السوداء » .

حاول جوب أن يبتسم : « أنا لم أقل شيئًا » . لكنها كانت ابتسامة واهنة ضعيفة عابرة .

وقال سين مقطبًا : « حسنًا » . ثم تناول المقعد بحمالاته وأربطته وطلب من كلوديا مساعدته .

ساعدا جوب على النهوض على قدميه ثم قام سين بربط شرائط النايلون حول خصره وتحت زاوية إنفراج رجليه ، مثل حبال البراشوت ، ولفها فوق كتفه.

ثم ساعد جوب بوضع ذراعه حول خصره وأجلسه على المقعد ورفعه ، وأخذ يغني : « أمامنا نهر واحد . فقط نهر و حد لنعبره » ، وجاء غناؤه مخروشًا خاليًا من النغم ، وهو يبتسم وينظر إلى جوب .

مضوا قدمًا . وبالرغم من أن ارجل جوب كانت تلمس الأرض ، محاولاً أن يحمل بنفسه أكبر قدر من وزنه ، إلا أنه كان معتمدًا أساسًا على الشرائط المعلقة حول كتفي سين . وبدا الإثنان وكأنهما جوادان في رباط واحد .

بعد المائة خطوة الأولى صار لتحركهما نوع من الإيقاع والثبات . لكن تقدمهما كان أيضًا مضطربًا وبطيئًا جدًا خاصة بسبب أقدام جوب التي يدوس على الأرض بها . لم تكن أمامهما أي فرصة لتتخفى أو لإخفاء آثارهما ، فقد كان على سين اختيار أسهل الطرق وأوضحها . إلتزموا بالسير في طريق كانت لتعبره حيوانات الغابة ، وهو واحد من شبكة من الدروب المعقدة ، مثل عروق الورقة الجافة ، التي تطرز السهوب الإفريقية .

وسارت كلوديا وراءهما ، وهي تحمل الصندوق الطبي وبقية زجاجات الماء . لكنها حملت أيضًا فرعًا مورقًا تحاول أن تزيل به آثار مرورهم . ربما كان ما تقوم به كافيًا لإخفاء أثرهم عن الشخص العادي ، لكن أي قصاص أثر من الفريليمو يمكنه تتبعهم وكأنه يمشي على طريق عام . لم يكن عملها يستحق هذا الجهد ، لكن سين لم يشأ إحباطها ، فقد كان يعلم كم هو مهم بالنسبة لها أن تشعر بأنها تساهم بالفعل في فرارهم من هذه المحنة .

أخذ سين يحصي خطواته على عقارب ثواني ساعته ووصل إلى أن سرعة تحركهم هبطت لأقل من ميل في الساعة ، أو ثمانية أميال في اليوم ، أو هي كل المسافة التي سيقطعونها يوميًا . وحاول أن يقسم ثلثمائة على ثمانية ، لكنه توقف قبل أن يصل إلى الجواب المثبط للهمم .

كان كل من متاتو والفونسو قد اختفيا داخل غابة الكمبرتم المقابلة لهم ، وعاود سين النظر إلى ساعته . لم يكن قد مضى عليه ، حاملا جوب ، أكثر من نصف ساعة . لكن قوة إندفاعه بدأت تتراجع . فقد كان وزن جوب كبيرًا ، وكانت الشرائط تقطع في أكتاف سين وتسبب له ألمًا عظيمًا مثلما كانت أقدام جوب تتجرجر على الأرض وتضطرب عند أي عثرات في طريق الحيوانات الذي يسيرون عليه . وقال لجوب :

« سنأخذ خمسة دقائق من الراحة الآن . وسنكرر ذلك كل نصف ساعة » .

وعندما أجلسه سين متكئًا على جزع شجرة ، أسند جوب رأسه على لحائها الخشن وأغمض عينيه . كانت أنفاسه متقطعة في صدره وأخذ العرق ينقط على خديه ويسيل عليهما ، وكأنه كرات صغيرة من اللؤلؤ عاكسة لون

جلده ».

ترك سين الرقائق الخمسة تمضي إلى عشرة ثم قال لجوب يمرح :

« على قدميك ، أيها الجندي . دعنا نقطع بعض الأرض ».

كان إنها من جوب على قدميه مرة أخري سوط عذاب لكليهما ، وعرف سين إنه ، بمحاولته أن يكون رفيقا مع جوب ، فقد سمح له بالراحة لوقت أطول مما يجب . وهذا ما سبب تيبس الجرح وتصلبه .

استمرت المرحلة التالية ، لنصف ساعة ، فترة طويلة لدرجة أن سين ظن أن ساعته قد توقفت ، ولم يتأكد من أنها عاملة إلا بعد أن راقب شوكة الثواني . وعندما أنزله على الأرض أخيرًا وأجلسه ، عبس جوب وقال لسين بأسى :

« آسف يا سين فقد أصبت بالعقال والتشنج ، في ساقي اليسرى ».

جلس سين مواجهًا له وبدأ يتحسس عقد عضلات ساق جوب اليسرى ويدلكها ثم خاطب كلوديا بصوت هادئ :

« هناك حبوب ملح في الصندوق الطبي ، في الجيب الأمامي ».

ابتلع جوب حبوب الملح بينما أمسكت كلوديا بزجاجة الماء ووضعتها بين شفتيه . وبعد جرعتين دفع الزجاجة بعيدًا عنه . حثته كلوديا لشرب المزيد لكنه هز رأسه وقال لها مغمغمًا : « لا تسرفي في إهلاك الماء ».

ربت سين على ربلة ساق جوب بقوة ثم سأله :

« كيف الحال الآن ؟ ».

ـ مناسب لبضعة أميال أخرى .

ـ إذن فلنذهب ، قبل أن تتشنج ربلة ساقك مرة أخرى .

اندهشت كلوديا من جراء محافظة الرجلين على وتيرة مشيهما خلال الليل مع تلك الدقائق الخمسة من الراحة كل نصف ساعة والجرعات البائسة من الماء التي يتبلغان بها عندها . وقالت لنفسها :

« ثلاثمائة ميل بهذه الطريقة ؟ ببساطة ، ليس هذا ممكنًا . فاللحم والدم لا يتحمل هذا الجهد الخارق وسيموتان معًا بهذه الطريقة ».

وقبل الفجر بقليل ، ظهر متاتو فجأة كالشبح الأسود الضئيل خرجًا من الغابة وهمس لسين ، والذي أوضح لهما :

ـ لقد قال بأنه عثر على بئر ضحلة على بعد ثلاثة أميال من هنا . هل تقدر على ذلك يا جوب ؟

أشرقت الشمس على قمم الأشجار ، وبدأت الحرارة ترتفع تدريجيًا وكأنه

خارجة من موقد مشتعل . وعندما إنهار جوب ، وتدلى معلقاً على الحبال بكتف سين بكل وزنه ، كانوا لا يزالون على بعد نصف ميل من البئر .

أنزله سين على الأرض وجلس بجواره . كان الإرهاق قد برح به حتى إنه ، ولعدة دقائق ، لم يجد في نفسه حتى المقدرة على الحديث إليه . ثم قال لجوب بهمس أجش :

« لا بأس عليك منذ إخترت مكاناً مناسباً تماماً ليغمى عليك » . كانوا وسط رقعة مغطاة بالشجيرات الشوكية الغزيرة ووجدوا فيها ظلاً كافياً وغطاء مناسباً يحميهم بقية ذلك النهار .

صنعوا لجوب فراشاً من الحشائش تحت الظلال وأرقدوه فيه . كان نصف واعي ويتحدث بصوت كالمخمور وبغير إسترسال ، وكانت عيونه تشرد من وقت لآخر بدون تركيز . حاولت كلوديا إطعامه ، لكنه أدار رأسه بعيداً ، لكنه شرب بشراعة عندما عاد متاتو والفونسو أخيراً من البشر وقد ملأوا كل الزجاجات الفارغة . وبعد أن شرب ، دخل في نوبة إغماء أخرى ، وهو على فراشه تحت الظل بينما قرر سين فضاء بقية النهار الحار وسط الغابة .

تمدد سين وكلوديا على الأرض وعلمت كلوديا أن قوى سين قد أوشكت على النضوب عندما رأته ممدوداً بصورة أقنعتها بأن قوته الخارقة ، التي تعلمها جيداً ، لها أيضاً حدود لا يستطيع تجاوزها .

وعندما إستيقظت بعد منتصف النهار كان لا يزال راقداً بلا حراك كالميت، وأخذت تتمعن في وجهه بحب وعطف يصل إلى درجة الشره . كانت لحيته كثة غزيرة وبدأ شعرها يتجعد ، وكانت ملامحه وتكوين جسده تشيران إلى نحوله وذوبان كل ما كان به من شحم ولحم . ورأت الخطوط التي لم تلاحظها من قبل على جلده . تفحصته وكأن تاريخ حياته قد تم نحته على تفاصيل جسمه بواسطة نحات ماهر حتى شعرت بأنها تقرأها قراءة . وقالت لنفسها :

« يا إليه ! إنني أحبه » . واندهشت لعمق مشاعرها نحوه . كان لونه قد حال وإحترق ، حتى صار بلون المهوجني الداكن ، بفعل الشمس والنضال الشاق ، لكنه لازال محتفظاً ببريقه وكأنه جلد فاخر وتعمل جرى طلاؤه وتلميعه عبر السنين . وابتسمت لغرابة التشبيه ، لكن ذلك كان صحيحاً بصورة ما . فقد تذكرت والدها وجلد حذائه (البولو) الشديد اللمعان ! . تذكرت أنها كانت تراقب والدها ، في غرفة الملابس ، بحب شديد وهو يدعك ويدهن حذاءه بالورنيش ، بأصابعه أولا ، ثم يقوم بتلميعه حتى يتوهج وذلك بباطن يده .

وهمست لنفسها :

« بوتسُ ـ الحذاء العالي الساق . إنـه إسـم جيـد لـك ! » . ثم تـذكـرت كـيـف تمدد حذاء الركوب لوالدها وتجعد عند الكاحل ، وصار لينًا كالحرير ، وهذا هو ما جعله مفضلاً لوالدها عند ركوب الخيل .

ابتسمت وهمست لسين : « إنه مجعد مثلك يا حذائي القديم ! » ثم ابتسمت وقبلت خطوط جبهته برقة حتى لا توقظه .

في تلك اللحظة عرفت إلى أي درجة تجسدت ذكرياتها عن والدها في هذا الرجل الراقد كالطفل بجوارها ، وبدا لها أن الرجلين قد ذابا في جسد واحد ، وأن بمقدروها أن تصب كل حبها في مكان واحد . وبرفق رأت نفسها ترفع رأس سين وتضمه إلى كتفها وأخذت أصابعها تتخلل شعره المجعد وهي تهزه برفق كطفل نائم .

حتى هذه اللحظة كان قد تمكن من إثارة كافة مشاعرها ، من الغضب إلى العاطفة الحسية ، كل شيء ما عدا الرقة . أما الآن فقد إكتمل كل شيء. وهمست له برقة الأم لوليدها : « يا طفلي » . وعرفت عندها بأنه جزء منها تمامًا.

شتت فكرها صوت أنين خافت ، فرفعت رأسها ونظرت باتجاه جوب ، الذي كان راقدًا تحت ظل شجرة شوكية . لكنه لاذ بالصمت مرة أخرى .

عاد تفكيرها إلى الرجلين ، جوب وسين وعلاقتهما الرجولية الخاصة ، والتي عرفت أنها لن نشاركهما فيها أبدًا . كان يمكن أن تشعر بالغيرة ، ولكن بدلاً عن ذلك ، وبطريقة غريبة ، شعرت لمزيد الأمان لذلك . فإذا ما كان سين ثابتًا في حبه لرجل آخر ، ويضحي بنفسه من أجله ، فهي بالتأكيد ستتعم بنفس الثبات معه في علاقتها مع سين والتي ، رغم إختلافها عن تلك ، إلا أنها علاقة أكثر عمقًا وخصوصية .

أن جوب من جديد ، وبدأ يتقلب أثناء رقاده بقلق . تنهدت كلوديا ووقفت ثم توجهت إلى حيث رقد .

كانت سحائب من الذباب المعدني الأخضر تطن من حول ضماداته وأربطته الملوثة بالدم والتي تغطي كتفه . هبط الذباب على الضمادة وتذوق طعم الدم بخراطيمه الطويلة ثم فرك أرجله الأمامية مع بعضها في سرور . ورأت كلوديا بعض الذبابات وقد شرعت في وضع بيضها ، في أطواف سميكة ، على القماش المبلل بالدم . أطلقت صيحة قرف وتقزز وهشت الذباب بعيدًا ثم أزالت كتل البيض من طيات الضمادات .

فتح جوب عينيه ونظر إليه وعرفت إنه عاد لوعيه مرة أخرى فابتسمت مشجعة له وسألته :

« أترغب في شربة أخرى من الماء ؟ » .

جاءها صوته خافتًا حتى إضطرت للإنحناء عليه لتسمعه :

« لا . يجب عليك إقناعه لأن يقوم بذلك » .

فسألته : « من ؟ سين ؟ » . وأومأ جوب برأسه وقال لها :

« لن يستطيع الإستمرار بهذه الطريقة . إنه يقتل نفسه . بدونه لن يبقى أحد منكم على قيد الحياة وعليك إقناعه لتركي هنا » .

بدأت تهز رأسها قبل أن يتوقف عن الكلم وقالت له بحزم :

« لا . لن يفعل سين ذلك أبدًا ولن أسمح له بذلك حتى لو أراد . إننا جميعًا شركاء في هذا الأمر يا صديقي » . ثم لمست ذراعه : « والآن ما رأيك في شربة الماء ؟ » .

إستسلم لها وهو عاجز عن الجدال معها . فهو مثل سين ، قد بدا عليه التدهور المثير للإنزعاج في الساعات القلائل الأخيرة . جلست بجواره تهش الذباب بعيدًا عنه ، مستخدمة جريدة من نخل إيلالا ، بينما أخذت الشمس تنزلق ببطء نحو الأفق الغربي .

وفي برودة ما قبل الغروب ، إنتقض سين وجلس بحيوية ونشاط ومسح الأرض من حوله بعينيه في نظرة سريعة وكأنما عمل النوم على تنشيطه وتقويته . وسأل : « كيف حاله ؟ » . وعندما هزت رأسها جاء وجلس بجوارها وقال :

« علينا أن نرفعه ونستأنف مشو رنا في الحال» .

توسلت إليه :

« أعطه بضع دقائق أخرى . هل تدري بماذا كنت أفكر عندما كنت جالسة هنا ؟ » وضع يده حول كتفها وقال لها : « أخبريني » .

ـ كنت أفكر في تلك البئر وأحلم بأن أصب بعض الماء على جسمي وأغسل ملابسي وأتخلص من هذا النتن .

ـ هل سمعت بنابليون ؟

نظرت إليه بدهشة وقالت :

« نابليون ؟ ما شأنه بالغسيل والاستحمام ؟ » .

ـ كان كلما عاد من إحدى حملاته ، يرسل راكبًا سريعًا أمامه لزوجته جوزفين مع رسالة تقول (إنني في طريق إليكم . إياك أن تستحمي !) فكما ترين ، كان يحب امرأته كما يحب الجبن . كامل الدسم . فلو كنت زوجته لأحبك وأنتي بهذه الحالة ! » .

لكمته على كتفه وقالت له : « إنك مقرف حقًا » . وجاء أنين جوب ،

فناداه سين : « هاي يا رجل . ماذا بك ؟ » .

همس له جوب : « سأقبل عرضك الآن » .

- أتقض المورفين ؟

أومأ جوب برأسه وهمس : « حقنة صغيرة تكفي . أليس كذلك ؟ » .

- ستنالها .

ومد سين يده لصندوق الأدوية .

بعد الحقنة ظل جوب راقدًا وقد أقفل عينيه ورأى سين وكلوديا خطوط الألم التي حول فمه ترتخي تدريجيًا . وسأله سين : « أأنت أفضل الآن ؟ » فابتسم جوب برقة وبدون أن يفتح عينيه .

وقال له سين : « سنعطيك بضع دقائق أخرى لترتاح فيها ريثما نعاود الاتصال بشجرة الموز ، فقد حان الوقت . ثم توجه نحو ألفونسو الذي بدأ يمد الهوائي .

وعندما أدار ألفونسو الجهاز وذكر الإسم الكودي جاءته الإستجابة قوية وواضحة وسريعة لدرجة جفل سين منها :

« أنجلويي . هنا شجرة الموز » .

ضبط ألفونسو الموجة ثم ضغط الميكروفون بإصبعه وأعطى تقريرًا بموقع وهمي آخر ، وكأنه في طريقه للوصول إلى شاطئ النهر .

كان هناك صمت لا يعكره إلى طنين وقرقعة الأثير ثم جاءهم صوت واضح وقوي لا تخطئه الأذن :

« دعني أحدث الكولونيل كورتني ! » .

نظر ألفونسو إلى سين وهمس له وهو يناوله الميكروفون :

« الجنرال تشاينا » .

لكن سين دفع المايك عنه وقطب وجهه بتركيز عميق في إنتظار بقية الإرسال . ووسط الصمت الذي تلى ، تركت كلوديا جانب جوب وأسرعت إلى سين وجلست بجواره فأحاطها بذراعه حماية لها ونظرا إلى الراديو . ثم قالت هامسة : « إنهم الهاربون . وتشاينا على علم بفرارنا » .

« انصتي » . جاءها صوت سين محذرًا . وظلوا جميعًا صامتين حتى عاد صوت تشاينا : « حسنًا ! حسنًا ! أفهم من هذا إنك لا ترغب في الإجابة . على كل حال فإنني أفترض بأنك تسمعني يا كولونيل » .

تركز كل إنتباههم على الراديو . وفتح جوب عينيه . لقد سمع أي كلمة قالها تشاينا بوضوح، وأدار رأسه . كان ألفونسو قد ترك حقيبته وحزامه

مكومين على بطانيته ، وعلى بعد لا يزيد على عشرة خطوات من المكان الذي يرقد عليه جوب ، وقد برز مقبض المسدس التوكاريف من الجيب الخارجي للحقيبة .

وجاء صوت تشاينا ودودًا رقيقًا :

« لازلت تخيب ظني فيك يا كولونيل . كان كل شيء سيتم ببساطة وسهولة إذا ما ألقيت نفسك بالكاد بين ذراعي لجنة الإستقبال التي أعددتها لك عند حدود زمبابوي » .

ارتكز جوب على كوع ذراعه السليمة . لم يحس بأي ألم اللهم إلا بإحساس الضعف والدوار ، فقد قام المورفين بعمله . لكن كان من الصعب عليه أن يفكر بوضوح . ركز كل إنتباهه على المسدس وتساءل إن كان ألفونسو قد حشاه بالرصاص أم لا ، ثم بدأ يتحرك باتجاهه بأن يمد رجليه ثم يغرز كعبيه على الأرض ويرفع صلبه متقوسًا ثم يستقيم مرة أخرى . لم يصدر عنه أي صوت وكان الجميع قد ركزوا كل انتباههم على الصوت الخارج من الراديو :

« إذن لازالت اللعبة جارية يا كولونيل ، أم بالأحرى نمسيها بالصيد ؟ إنك صياد عظيم ، صياد أبيض عظيم . وإنك مشهور بمطاردة الوحوش الضارية . إنك تسمى ذلك بالرياضة وكنت فخورًا بما تسميه (بالمطاردة المشروعة) » .

كان جوب قد قطع نصف المسافة ولم يزل لا يحس بأي ألم . وتحرك بسرعة أكبر . ففي أي لحظة قد يلتفت واحد منهم ويراه .

« إنني لم أفهم قط هذا الغرام المشبوب للرجل الأبيض بالطراد . وبالنسبة لي كان هذا دائمًا شيئًا لا معنى له . مواطنونا يعتقدون دائمًا إنك إذا أردت اللحم ، فعليك أن تقتل الحيوان بكفاءة وبأقل جهد ممكن » .

وصل جوب إلى كومة المعدات الموضوعة على بطانية ألفونسو ومد يده ليلمس مقبض المسدس . لكنه عندما حاول تناوله من جيب الحقيبة لم تطاوعه أصابعه . فقد كانت مخدرة تمامًا وانزلق المسدس من يده لكنه ، بدلاً من أن يسقط على الأرض بصوت مسموع ، سقط على البطانية بدون صوت . ورأى بارتياح شديد أن الترباس كان مجرورًا والسلاح مؤمنًا ، فقد حشاه ألفونسو بالرصاص ، جاهزًا للاستعمال الفوري .

ومن خلفه كان صوت تشاينا لازال منطلقًا من جهاز الراديو :

« ربما تكون قد أفسدتني يا كولونيل . وربما أكون قد تأثرت بتقاليدكم الأوروبية البالية لكنني ، وللمرة الأولى ، بدأت أفهم غرامكم ذاك وأتقمصه بنفسي فربما كان الأمر أخيرًا ، وببساطة ، أن الطريدة التي أمامي ضخمة

بما فيه الكفاية لحفزي على نيلها . وأتعجب من كيفية رؤيتك لهذا التغيير في الأدوار يا كولونيل . فأنت الطريدة وأنا الصياد . إنني أعلم أين أنت الآن ، لكنك لا تعلم بمكاني . فربما أكون أقرب إليك مما تتصور . أين أنا الآن يا كولونيل ؟ عليك أن تخمن . عليك أن تهرب مني وتختبئ . متى سنلتقي ، وكيف؟ » .

أمسكت أصابع جوب بعناية بمقبض التوكاريف ورفعه ، ودهش للجهد الذي تطلبه هذا العمل البسيط . وضع إبهامه على اللسان المنزلق لجهاز التأمين لكن اللسان لم يتزحزح . شعر بالخوف والإحباط يسريان فيه ، فقد كان أكثر ضعفًا وخدرًا من أن يقدر على تحريك اللسان للأمام ، في الوضع الجاهز للإطلاق .

« إنني لا أعدك (بمطاردة مشروعة) يا كولونيل ، فسأقوم باصطيادك بطريقتي الإفريقية الخاصة . لكنها ستكون مطاردة ورياضة ممتعة لي ، وهذا ما أعدك به أخيرًا » .

وضع جوب كل قوته في إصعبه حتى شعر أخيرًا بلسان الأمان وقد بدأ يتحرك تحت إبهامه .

« الساعة الآن هي ١٨٠٠ زولو . وسأتصل بك على نفس هذه الموجة في نفس الوقت غدًا يا كولونيل ، هذا إذا لم نكن بالفعل قد التقينا . وحتى ذلك الوقت عليك بمراقبة السماء يا كولونيل كروتني وانظر أيضًا خلفك . فإنك لن تدري من أي اتجاه سأجيء ، لكن كن واثقًا بأنني سأجيء» .

كان هناك صوت لقرقعة خفيفة عندما أقفل تشاينا الجهاز ، ومن سين يده وأقفل الراديو حتى لا تستهلك بطاريته . لم يتحدث أيًا منهم أو يتحرك حتى قطع الصمت عليهم صوت طقطقة معدنية حادة . كان ذلك الصوت لا يعني إلا شيئًا واحدا لا شك فيه بالنسبة لسين . فهو صوت لسان الأمان لسلاح ناري وقد إنزلق . كان رد فعله سريعًا كالبرق . فقد ألقى بكلوديا ممددة على الأرض ثم استدار لمواجهة ما يحدث .

وللحظة شعر بأنه كالمشلول ثم صرخ صرخة داوية : « لا يا جوب ! لا وحق المسيح ! لا ! » ثم ألقى بنفسه للأمام وكأنه سباح متمرس يقفز من المنصة .

كان جوب راقدًا على جنبه مواجهًا لسين لكنه بعيد عنه وعن متناول يده .

اندفع سين عبر المسافة التي تفصل بينهما ، ولكن بدا له وكأنه يخطو على عسل مدلوق ، لزج وبطئ يعيق خطاه . رأى جوب وهو يرفع المسدس وحاول أن يمنعه بقوة تأثير نظرته إليه . كانا ينظران في عيني بعضهما البعض ، يحاول سين السيطرة عليه بعيونه الملتهبة ، وجوب ينظر إليه بعيون حزينة مليئة بأسى

عميق لكنها ثابتة غير مترددة .

رآه سين وهو يفرج شفتيه وسمع صوت فوهة المسدس وهي تصك أسنانه وجوب يمدها بعيدًا داخل حلقه ثم يقفل فمه ويطبق بأسنانه على الماسورة ، وكأنه طفل يمتص في قطعة حلوى مجمدة . حاول سين يائسًا الوصول إليه واستخدم كل قوته للوصول فقط ليد جيب ولينتزع الماسورة السوداء الغليظة من فمه . ومست أطراف أصابعه بالكاد رسغ جوب عندما إنطلق المسدس .

جاء الصوت مكتومًا وقد كبته لحم وعظام جمجمة جوب .

ووسط هذا المجهود الخارق ، صفت بصيرة سين وإبصاره صفاء غير طبيعي، وبدا له أن الزمن قد توقف لدرجة أن الذي حدث أمامه ثم ببطء شديد ، وكأنه شريط سينمائي يجري بنصف سرعته .

فقد تغير شكل وجه جوب وانتفخ أمام أعين سين وكأنه بالون مطاطي مليء بغاز تحت ضغط شديد . ثم اتسعت أجفان عينيه وبرزت كرتي العينين من محجريهما للحظة ، كاشفة عن بياض متسع يحيط بالحدقتين ثم دارتا وارتفعتا باتجاه الجمجمة .

تغير وجهه الممزق مرة أخرى واستطال نحو الخلف جاذبًا جلد الوجه على جانبي عظام الوجنتين ، وتمدد منخاراه عندما سحبت الرصاصة محتويات دماغه ودفعتها للخارج خلف رأسه ، وامتد عنقه لطول غريب لدرجة أن سين ، في غمرة آثار الكارثة ، سمع طقطقة تكسر فقرات عنقه .

اندفع جوب للخلف بعد انطلاق الرصاصة وقفزت يده بعيدًا عن رأسه وهي تمسك بالتوكاريف في قبضتها المضمومة . وفي هذه اللحظة قفز سين عليه وأمسك به قبل أن يرتضدم رأسه المهشم بالأرض .

احتضن جوب بذراعيه وضمه إلى صدره بكل قوته . كان الجسد ثقيلاً وساخنًا من الحمى ، لكنه لين وهش ، وكأنه بدون عظام ، وأوشك أن ينزلق من بين ذراعي سين اللتان تحيطان به ، فشدد سين ضمته عليه . شعر بأن عضلات جوب ترتجف وترتعش وأخذت رجليه ترفسان رفسات متكررة في حركة منشارية وحاول سين تثبيته ليسكن . وهمس :

« جوب . جوب » ثم مد يده وراء رأسه وغطى الجرح الهائل وكأنه يحاول أن يعين رأسه لما كان عليه ، وكأنه يحاول إعادة المخ وما سال من رأسه إلى جمجمته المحطمة . وهمست ثانية :

« أيها الغبي . لماذا فعلت هذا ؟ » . ثم ألصق خده بخد جوب وأمسك به كالعاشق .

« كان بإمكاننا أن ننجح . كان بإمكاني إخراجك من هنا » . استمر في

حضنه وضمه إليه ، ثم بدأ يهدهده ، كالطفل ، برفق ويغمغم في أذنه بنعومة ورقة ، وهو يلصق خدوده به ، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة :

« لقد سرنا حتى الآن معًا ، وليس من العدل أن تنهي مسيرتنا هنا » .

جاءت كلوديا إليهما وركعت على ركبتها بجوار سين . مدت يدها لتلمس كتفه وفتشت عن أي شيء تقوله ، لكنها لم تجد ما تقوله وسحبت يدها قبل أن تلمسه ، فقد كان سين غافلاً عنها وغير واع بما يدور حوله .

غمره حزن رهيب حتى أن كلوديا ترددت في النظر إلى عينيه . كان حزنًا خاصًا ، رقيقًا هشًا لكنها وجدت نفسها تنظر إليه رغمًا عنها . حتى مشاعرها الخاصة تجاه جوب اختفت تماما في غمرة أحزان سين . كانت قد نمت وترعرعت فيها عبر المحن عاطفة قوية تجاه جوب لكنها كانت لا تقارن بتاتًا مع الحب الذي تراه أمامها الآن .

فالمسدس الذي حطم جوب ، حطم أيضًا جزءًا من كيان سين نفسه . ولم تجد في نفسها أي شعور بالصدمة أو الدهشة حينما انفجر سين في بكاء مرير . وهو يحتضن جوب بين ذراعيه ، شعر سين بآخر تقلصات الموت وارتعاشاته نسكن فجأة لدى جوب وبدأت حرارة الحياة تنزوي لتفسح الطريق إلى برودة الموت في ذلك الجسد الذي يضمه سين إلى صدره .

خرجت دموعه الحارة المحرقة من أعماق فؤاده ، وحرقت أجفانه قبل أن تندفع خارجه منهما وتتدحرج ببطء على خدوده الداكنة ، التي لوحتها الرياح والشمس ، ثم تهبط على ذقنه الكثة .

حتى ألفونسو لم يتجرأ على النظر إليه ، فوقف وتوجه بعيدًا نحو الشجيرات الشوكية . أما كلوديا فلم تتحرك . كانت راكعة بجوار سين وانهالت دموعها في صمت وانسجام وجداني مع دموعه . ومعًا بكيًا وناحا عليه .

أما متاتو ، فقد سمع صوت الرصاصة المكتوم على بعد ميل منهم ، عندما كان يحرس مؤخرتهم ويزيل آثار أقدامهم ويبحث في حذر عن أي إشارة لطوف معادي .

أسرع عائدًا إليهم . ومن بين الشجيرات التي تحيط بمعسكرهم حملق فيهم لبضع ثوان قبل أن يستنتج بالضبط ما حدث . زحف نحوهم في صمت وقبع بجوار سين . ومثله مثل كلوديا ، أبدى إحترامًا عميقًا لحزن سين ، وانتظره حتى يسيطر على غصة ألمه واختناقه بالبكاء . ثم تحدث سين أخيرًا ، بدون أن ينظر حوله ، وبدون أن يفتح عينيه :

« متاتو » .

- أنديو - بوانا .

- اذهب وابحث عن مكان الدفن . فليس لدنيا الأدوات ولا الوقت لنحفى قبرًا . وهو متابيلي ويجب أن يدفن جالسًا ومواجهًا لشروق الشمس » .

- أنديو - بوانا .

إنسبل متاتو وتوجه نحو الغابة المظلمة . ثم فتح سين عينيه أخيرًا وأرقد جوب برقة شديدة على البطانية الصوفيية الرمادية ثم تحدث بصوت مستقر لكلوديا وكأنه يناقشها :

« على حسب التقاليد ، يجب علينا أن ندفنه وسط زريبة أبقاره » . ثم مسح دموعه السخينة من على خديه بظهر يده ومضى يتحدث بهدوء :

« لكننا هائمون على وجوهنا ، أنا وجوب ، ولم يكن لديه أبقار ولا زريبة».

كانت كلوديا غير متأكدة من أن سين يتحدث إليها لكنها أجابت على الفور :

« كانت وحوش البر أبقاره ، والبراري والغابات زرائبه ، وسيكون حتمًا راضيًا بهذا المكان » .

أومأ سين برأسه بدون أن ينظر إليها وقال :

« إنني ممتن لك ولتفهمك الأمر » . ثم مد يده وأغمض عيون جوب . لم يكن وجهه مشوهًا ما عدا تحطم أسنانه الأمامية . وبطرف البطانية مسح سين الدم من على جانب فمه وبدا عليه الآن منظر الإنسان الراقد في سلام وطمأنينة . أداره سين على جنبه وبدأ يلفه بالبطانية واستخدم شرائط النايلون والحمالات لربطه بصورة تجعله جالسًا وركبتيه مرفوعتان حتى أسفل ذقنه .

وعاد متاتو قبل أن ينتهي سين من عمله وأبلغه بأنه وجد مكانًا مناسبًا ، وأومأ سين برأسه بدون أن يتوقف عن عمله .

قطعت كلوديا الصمت وقالت بصوت خافت :

« لقد قدم حياته من أجلنا . فالحب العظيم نادر بين الرجال » . وبدا لها قولها سخيفًا وفي غير محله في تلك اللحظة وتمنت لو لم تقله . لكن سين أومأ برأسه :

« لم أتمكن أبدًا من تصفيه حسابه معي ، أما الآن فلن أستطيع » .

انتهت من تربيطه ، وكان جوب ملفوفًا تمامًا بالبطانية ولم يظهر منه سوى رأسه . وقف سين وتوجه إلى حقيبته الخاصة وأخرج منها القميص الإضافي الوحيد الذي بها وعاد إلى حيث أرقد جوب وركع بجواره مرة أخرى وخاطبه برقة بالغة :

« وداعًا يا أخي . لقد كان دربًا طيبًا قطعناه معًا وكم تمنيت أن نبلغ نهايته

سويًا » .

ثم انحنى عليه وقبل جبهته بدون أي تعبير على وجهه ، وبدا ذلك طبيعيًا وصادقًا .

ثم لف قميصه النظيف حول رأس جوب وحمله بين ذراعيه وتوجه به نحو الغابة وهو يضم رأسه إلى كتفه . قاده متاتو نحو حفرة مهجورة لحيوان دب النمل وسط الأشجار الشوكية القريبة . استغرق توسيع الحفرة بضع دقائق لتتسع لجسد جوب . وبمساعدة متاتو ، عدل سين وضع الجثة لتواجه الشرق وليكون الظهر مواجهًا لنجمة المساء .

وقبل ردم القبر ، انحنى سين عليه وتناول من جيب سترته قنبلة شظايا .

وكان متاتو وكلوديا يرقبانه بدهشة وهو يقوم بضع شرك خداعي مستخدمًا القنبلة وخيط قصير مفتول من ألياف لحاء بعض الشجر . وعندما فرغ ذلك ووقف ، نظرت كلوديا إليه متسائلة، وأجابها باختصار : « لصوص المقابر».

عاونه متاتو في رحى الأحجار حول كتف جوب ليبقى في وضع الجلوس ثم قاما ، باستخدام حجارة أكبر حجمًا بتغطيته تمامًا ، ومن كل جوانبه لإبعاد الضباع عنه . وعندما تم ذلك لم ينتظر سين ، فقد ودعه تمامًا ، بل مضى مباشرة نحو المعسكر وبدون أن ينظر وراءه ، ولحق به متاتو وكلوديا .

وبالرغم من أساها ، فقد شعرت كلوديا بآفاق التميز والطهارة والشفافية التي تحيط بها لما شاهدته في الساعة الماضية ، وذاد حبها واحترامها لسين قوة ، ولمئات المرات ، بالمشاعر التي أبداها سين لخسارته صديقه . شعرت بأن دموعه قد أثبتت قوته أكثر مما أنبأت بضعفه ، وأن هذا المظهر النادر للحب الخلص إنما يشير حقًا إلى جولته وإنسانيته . ومن هذه المأساة المفزعة عرفت عن سين أكثر مما كان يمكن أن تعرفه طوال العمر .

واصلوا سيرهم تلك الليلة ، واندفع سين قدمًا وكأنه يحاول أن يسابق حزنه. ولم تحاول كلوديا أن تبطئ من تسارع خطاه . فبالرغم من أنها صارت الآن نحيلة وذات قوة وصحة ، وكأنها كلب صيد ، إلا إنه كان عليها أن تبذل كل جهدها لمجاراة سرعة مشيه ، والبقاء بالقرب منه ، بدون أن تتذمر أو تشتكي . وعندما أشرقت شمس الصباح الجديد ، كانوا قد قطعوا حوالي أربعين ميلاً من المكان الذي دفن فيه جوب ، ورأوا أمامهم سهلا طينيًا عريضًا .

وجد سين أجمة ذات أشجار طويلة يستظلون تحتها . وبينما قامت كلوديا مع متاتو بإعداد الطعام ، قام سين بتعليق منظاره المقرب على ظهره ووضع الخريطة في جيبه الخلفي وتوجه نحو أطول شجرة .

أخذت كلوديا تنظر إليه بقلق وهو يتسلق الشجرة . لكنه كان رشيقًا

كسنجاب الشجر وقويًا كزعيم القرود الطلح ، وكان يستخدم القوة الخارقة في ذراعيه ليرفع نفسه للأعلى على ذلك الجزع الأملس ، الخالي من أي مكان يضع قدميه عليه .

وعندما اقترب من قمة الشجرة ، طارت من أمامه أنثى ضخمة للنسر الإفريقي الأبيض الظهر ، بفزع شديد ، تاركة عشها المشوش المصنوع من الأغصان الجافة وأخذت تحلق بقلق من فوقه ، عندما استقر سين بين أعلى الفروع ، وعلى بعد أقدام قليلة من عشها .

كان عش النسر يحتوي على بيضتين كبيرتين بلون أبيض طباشيري ، وغمغم سين مهدئًا الطائر المحلق من فوقه :

« لا تقلقي يا فتاتي العجوز ، فلا أنوى سرقة بيضك » . لم يكن سين من أولئك الذين الشمئزون من هذا النوع من النسور ، حيث أنها تلعب دورًا هامًا في تظهير الأحراش من الجيف والأمراض . وبينما نجدها بشعة قبيحة الشكل عند وجودها على الأرض ، إلا أنها قد تعتبر نموذجًا للجمال والأناقة عند تحليقها في الجو . هي سيدة السماء والطيران الطبيعي ، ومقدسة عند قدماء المصريين وغيرهم من الشعوب القديمة التي تعيش على الفطرة ، لدرجة إعتبارها من الآلهة.

ابتسم سين للنسر ، وهي الابتسامة الأولى التي ارتسمت على شفتيه منذ رحيل جوب ، ثم ركز كل اهتمامه للسهل الممتد من أمامه وأسفل منه . كان السهل الطيني الممتد قديمًا مزروعًا زراعة مكثفة في الماضي ، ولاحظ سين الأشجار المتناثرة التي تحدد الفواصل بين كل حقل وآخر ، وعرف سين أن هذه الأشجار كانت تجاور قرى صغار المزارعين المحددة على خريطته . وأدار منظاره إليها.

رأى على الفور أن تلك الحقول لم تحرث أو تزرع لعدة مواسم . فقد ملأتها النموات الثانوية الغزيرة للشجيرات والحشائش التي تنتشر على الحقول الإفريقية المهجورة وتعرف على السيقان الطويلة الخشنة لنباتات التيل البري ، والتي تشتهر بأشواكها الدقيقة التي تغطي أوراقها ، والتي تلتصق بكل من يحتك بها وتسبب له إزعاجًا شديدًا . رأى نموات الخروع والقطن البري الذي تحول الشجيرات متناثرة ، كما تعرف على الأزهار البرتقالية اللون للقنب البري ، والتي أسعدت قوة تخديرها فصائل السلام التي شكلها في الماضي الرئيس كندي من الشبان والفتيات ، والتي أعطت ، عبر تلك السنوات ، السلوى والبهجة لحشود الشباب من الأمريكان والأوروبين ، الذين رحلوا وراء فصائل السلام تلك ، لا يحملون معهم سوى الأمتعة البائسة على ظهورهم وبناطلين الجينز القذرة ، ثم النوايا الطيبة ورغبات ضبابية وإيمان فطير بالجمال والسلام

والإخاء الإنساني . لكن الإيدز الذي ظهر حديثًا قلل من أعدادهم حتى صار حضورهم فرديًا . وارتاح سين لذلك . شعر بأن أفكاره قد سرحت في أودية الخيال فاستجمع نفسه وعاد ليتأمل ببطء مناظر الخراب والدمار التي أمامه .

استطاع أن يرى بالكاد حطام القرى العديمة السقوف . ورأى على بعض الأكواخ بعض دعامات السقوف من الفروع الخشبية لكنها كانت كالهياكل وقد اسودت من نيران الحرائق التي أتت عليه . ورغم إنه دقق في الفحص إلا أنه لم ير أي دليل على وجود أناس بها ولا حتى منذ عهد قريب . فقد كانت الممرات والطرق التي بين الحقول قد امتلأت بالأعشاب النامية عليها ولم يكن هناك أي أثر يدل على وجود الحيوانات الأليفة ولا دجاج أو ماعز ، ولا حتى الدخان الذي يشير إلى صناعة الطعام بالأكواخ .

وقال لنفسه :

« ربما كانت رينامو أو فريليمو قد أفسدت في هذه الأرض ودمرتها تدميرًا». ثم نظر بعيدًا نحو الشرق والتلال الزرقاء البعيدة بالداخل . ففي هذا الصباح الباكر كان الهواء ساكنًا نقيًا متلألئًا وكان بمقدوره أن يتعرف على بعض المعالم ويؤثرها على خريطته الطبوغرافية . وبعد مرور خمسة عشر دقيقة كان باستطاعته تحديد موقعهم بقدر معقول من الدقة والثقة .

لقد أحرزوا قدرًا من النجاح أكثر مما كان متوقعًا . فهذه الجبال على جانبه الأيمن ما هي إلا جبال شيمانماني ، التي تشكل الحدود بين موزمبيق وزمبابوي ، لكن أقرب قممها كان يبعد عنه بأكثر من أربعين كيلو مترًا . لقد كانت خريطته تسجل المسافات بالكيلومترات رغم أن سين كان يفضل العمل بالميل بدلاً عن المقياس المتري .

لابد أن تكون قرية دومبي الكبيرة على بعد بضعة كيلومترات على جانبه الأيسر لكنه لم يتمكن من تحديد موقعها أو التقاط أي علامة تدل عليها . وخمن بأنها ، مثل بقية قرى العائلات التي أمامه ، قد تم هجرها قبل زمن طويل وغالبًا ما تكون قد عادت أحراشًا وأجماتًا وحشائشًا وغاباتًا . وبالتالي فإن الأمل ضعيف في العثور على أي طعام بها . لقد كادت كميات دقيق الذرة التي جاءوا بها أن تنفذ من جراء تعدد المرات التي طعموا فيها منها . ويبدو أن عليهم ، ابتداء من صباح الغد ، أن ينهبوا طعامهم ، الأمر الذي سيؤخرهم كثيرًا . ومن الناحية الأخرى ، فإذا ما كانت قرية دومبي لا تزال مأهولة ، فلابد أن تكون قلعة حصينة إما لرينامو أو لفريليمو . وبإدراك ووعي قرر أن يتجنب أي احتكاك ببني الإنسان هنا . فلا أحد منهم ، حتى الفونسو ، يمكنه أن يقول بثقة عمن يتحكم من القوات المتصارعة في هذه المنطقة ، ولا أن يعرف إن كانت هي

منطقة دمار شامل تسبب فيه كلا الجانبين . حتى الحدود الفاصلة بين القوتين المتصارعتين يمكن أن تتغير ، ليس يوميًا ، بل كل ساعة ، وتتبادلها الأيدي وكأنها أميبا ضخمة لا شكل لها .

ثم نظر طويلاً إلى الجنوب ، نحو الطريق الذي سيعبرونه . لم يكن هناك أي معلم بارز أو واضح يشير إليه . فهذه المنطقة هي جزء من السهل الممتد حتى ساحل المحيط الهندي ولم يكن عيه أي جبال كما لا تشقه أي وديان ذات شأن. لا يميز هذا السهل إلا العوائق الطبيعية على نطاقه الجنوبي والممثل في غابات الأشجار الخشبية الصلبة الغزيرة إضافة للأنهار والمستقعات التي تحيط بمداخلها .

كان أكبر أنهارها هو نهر سابي ، أو ريو سافي كما أسماه البرتغاليون ، والذي يمر عبر حدودهم مع البلاد التي ستصير زمبابوي فيما بعد ، ومنها إلى المحيط . هذا النهر عريض وعميق وسيحتاجون قطعًا إلى نوع من المراكب للعبور عليها .

أما النهر الثاني والأخير ، والذي أسماه الشاعر روديارد كبلنج (بالنهر العظيم الرمادي الأخضر الزيتي) ، نهر لمبابو ، المحاط تمامًا بأشجار الحمى ، فقد كان العقبة الأخيرة التي ستواجههم . كان يبعد عنهم بحوالي ثلاثمائة كيلومتر إلى الجنوب ، وعليه تلتقي وتتداخل حدود طبيعية لثلاثة دول هي موزمبيق وزمبابوي وجنوب إفريقيا فإذا ما استطاعوا الوصول لتلك الحدود فإنهم يكونون قد بلغوا الحدود الشمالية لحديقة كروجر القومية الشهيرة ، والتي يحرسها وتخترقها طولاً وعرضًا جيوش جنوب إفريقيا . تمعن سين في الخريطة بشوق شديد : جنوب إفريقيا والأمان ، جنوب إفريقيا والوطن ، حيث لازال القانون وأحكامه تطبق فيها وحيث لا يسير الناس كل لحظة تحت ظلال الموت .

أيقظه من تفكيره الحالم صوت صفارة خافتة ونظر للأسفل . كان متاتو واقفًا تحت الشجرة ، تحته بستين قدمًا ، وهو يشير لسين :

« انصت ! خطر ! » .

وشعر سين بنبضه يتسارع وبقلبه يدق بشدة . فمتاتو لا يستخدم إشارة الخطر بسهولة . أدار رأسه وبدأ يصطنت . لكن مرت دقيقة كاملة قبل أن يسمع الصوت . فقد كان سين ، كرجل غابات وأحراش ، يمتلك حواسًا ، وخاصة حاستي السمع والبصر ، شديدة القوة والدقة . لكنه ، بالمقارنة بمتاتو، فقد كان كالأعمى والأطرش .

وعندما سمع وتعرف على الصوت أخيرًا ، ورغم إنه جاء ضعيفًا وبعيدًا ،

فقد ارتفع نبض سين مرة أخرى واستدار من فرع الشجرة الذي كان جالسًا عليه ونظر للشمال ، للجهة التي جاء منها الصوت .

كانت السماء صافية زرقاء إلا من قطع متناثرة من السحب المرتفعة البعيدة. ونظر سين خلال منظاره المقرب وبدأ يبحث عن مصدر الصوت . نظر نحو الأفق وفوق قمم أشجار االخشب الصلب الطويلة . وأوضح له الصوت البعيد ، والذي يزداد لحظة بعد أخرى في ارتفاعه ، الاتجاه الذي ينظر إليه ، حتى ظهر فجأة ، في دائرة المنظاره ذلك الشكلي الذي يخشاه ، وشعر بأمعائه تتجمد من الرعب .

فكأنه حشرة عملاقة ضارة ، حلقت الطائرة الهايند  ظهرها الأحدب ، وأنفها المتدلي ، فوق قمة الغالبة . كانت لا تزال على بعد بضعة أميال لكنها متجهة مباشرة إلى الوكر الذي اتخذه سين على قمة تلك الشجرة الطويلة .

❖ ❖ ❖

جلس الجنرال تشاينا في مقعد مهندس الطائرة الذي يقبع تحت قمرة القيادة بطائرة الهايند ، ونظر للأمام عبر الحاجز الزجاجي المدرع الذي يحميه من الريح. ففي هذا الصباح الباكر كان الهواء صافيًا كالبللور ، ومن خلاله أضاءت أشعة الشمس كل تفاصيل المنظر الطبيعي الرائع من تحته ، وألقت عليه أضواء ذهبية براقة .

وبالرغم من أنه قد طار لعدة ساعات على الطائرة الأسيرة إلا إنه لم يتعود حتى الآن على الإحساس بالقوة غير العادية التي يثيرها مقعده تحت القمرة الأمامية فيه . فالأرض وما عليها ترقد من تحته . فهو ينظر إلى من يمشي عليها من البشر ويعلم إنه يمتلك القدرة على إعطاء الحياة لهم أو إنزال الموت بهم .

مد يده وأمسك بذراع التحكم في مدفع الجاتلنج . كانت يده تتناسب تمامًا مع مقبض مسدس المدفع . وعندما يضغط بيده على زرار التصويب فإن شاشة تبيان الهدف والموجودة على لوحة التحكم المواجهة له تضيء . وعندما يحرك ذراع التحكم للأعلى أو الأسفل ، لليمين أو للشمال ، تتحرك فوهات مواسير المدفع تلقائيًا وتحاكي أي حركة للذراع ، بينما تظهر في نفس الوقت صورة واضحة للهدف على الشاشة المضيئة .

بضغطة بسيطة من إصبعه ، كان بإمكان تشاينا أن يرسل شواظًا من نيران المدفع الجبار ، تدمر أي هدف تقع عينه أو مشيئته عليه . بإمكانه أيضا ، وعن طريق مفتاح التحويل على اللوحة ، أن يختار نوع السلاح الذي يرمي به من بين عدة أنواع مسلحة بها الهايند ، ومنها الصواريخ والراجمات وقذائف الجاتلنج والرشاشات .

لم يتأخر تشاينا كثيرًا في التعرف على أسلحة الهايند المتوعة أو التحكم

في استخدامها بكفاءة . فقد كان للتدريب الأساسي الذي تلقاه في معسكر تدريب الثوار بسيبيريا ، قبل سنوات عديدة ، عند بداية حرب تحرير روديسيا ، دورًا كبيرًا في سهولة إستيعابه لها الآن . لكن الذي أمامه الآن ربما كان أقوى الطيران التي تحكم فيها في حياته وأكثرها قدرة على تحقيق السيطرة التي يسعى إليها.

فبأمر أو بكلمة واحدة منه ، يمكنه أن ينطلق في السماء كالنسر السابح في الأثير أو أن ينقض كالبازي الجوال على الفريسة . يمكن أن يحلق في الهواء أو يتوقف في مكان واحد على السماء أو أن يطير بخفة فوق قمم الأشجار . كانت القوة الهائلة لهذه الآلة شيئًا قد يفوق قدرات البشر في نظره.

كانت أمامه ، عند البداية ، عدة مشاكل ليتغلب عليها . فلم يكن بمقدوره التعامل مع الطيار الروسي وملاحيه ، فقد تميزوا بالعناد وعدم الرغبة في التعاون . وبالرغم مما يتهددهم من أبشع أصناف الموت و لهلاك ، فقد كان واثقًا من انتهازهم لأي فرصة تلوح لهم للهروب أو لتخريب طائرته الهايند الثمينة . كان بإمكان أي ملاح روسي منهم أن يفرغ الزيت من أي قطعة متحركة في الطائرة أو أن يرخي رباط أي صامولة أو يحرق جزءًا من الأسلاك الكهربائية ، ولن يكون بمقدور تشاينا أو أيًا من مساعديه أن يعرف السبب إلا بعد فوات الأوان . إضافة لذلك ، فقد جعل الطيار الروسي ، ومنذ الوهلة الأولى ، التفاهم بينهما مستحيلاً . فقد كان يتصنع البله ويتعمد ألا يفهم تعليمات تشاينا أو يسيء تفسيرها . كان الروسي يلعب على ورقة أن تشاينا لن يستطيع عمل شيء بالطائرة بدونه ومن ثم صار باستمرار مصدرًا للتحدي والتمرد والحرون .

قام تشاينا بحل هذا الإشكال بسرعة . ففي خلال ساعات من تدمير السرب الروسي وأسر الهايند ، أرسل رسالة شفرية طويلة إلى محطة تقع على بعد مائتي ميل شمالاً منه ، عبر الحدود بين ملاوي وموزمبيق .

استلمت الرسالة وتم حل شفرتها بداخل مكاتب إحدى كبريات مزارع الشاي ، على منحدرات جبال ملانجي ، والتي كان يملكها أحد أعضاء اللجنة المركزية لحركة المقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو) ونائب مدير المخابرات بها في نفس الوقت . قام بدوره بإرسال إشارة تشاينا وما يطلبه بالتلكس ، ومباشرة ، إلى الرئيس الأعلى للجنة المركزية المقيم بلشبونة بالبرتغال . وخلال ستة ساعات كان طيار برتغالي حربي متمرس ، صاحب بضع آلاف من ساعات الطيران على المروحيات ، واثنان من مهندسي الطيران المروحي المهرة ، يمتطون طائرة من شركة (ت أ ب) في طريقها لإفريقيا . ومن نيروبي تحولوا إلى طائرة تجارية تابعة لملاوي متجهة مباشرة إلى بالانتاير عاصمة ملاوي . وهناك كانت بانتظارهم عربة لاند روفر بسائقها ، من عربات شركة الشاي ، أخذتهم

وتوجهت بهم إلى مطار خاص وسط مزارع الشاي .

وفي تلك الليلة قامت طائرة الشركة ذات المحركين ، البيتشكرافت ، بعبور ليلي لبحيرة كابورا باسا ، وهي رحلة محفوفة بالحظر قام بها طيار الشركة عدة مرات من قبل . وبإشارة ضوئية حمراء ، متفق عليها ، اهتدى إلى المهبط السري داخل الغابة ، والذي مهده رجال تشاينا وسط الغابة ، وغرب جبال قورونجوسا مباشرة .

وقف صفان من رجال رينامو ، كل منهم يحمل عاليًا خرقة مبللة بالبرافين ومشتعلة .

وأوضحوا بذلك مهبط الطائرة والذي هبط عليه طيار البيش كرافت بسهولة .

وبدون أن يوقف محركات الطائرة ، قام بإنزال ركابه ثم استدار وعاد إلى نهاية المهبط المؤقت ثم طار بعيدًا وتوجه ثانية نحو الشمال في ظلمة الليل .

فيما مضى ، وليس بعيدًا ، كانت مثل هذه العملية المعقدة لإحضار الرجال والمؤن غير ضرورية . فقبل سنة واحدة كان يمكن لتشاينا أن يرسل إشارة بطلباته إلى الجنوب ، بدلاً عن الشمال ، وسرعان ما تصل إليه طلباته ، لا عن طريق الطائرة الخاصة الصغيرة ، بل بطائرة بوما مروحية تحمل علامات قوات جنوب إفريقيا الجوية .

ففي تلك الأيام ، وعندما كان الرئيس الماركسي للفريليمو ، ساموراميشيك ، يستضيف ثوار المؤتمر الوطني الإفريقي ، ويسمح لهم باستخدام موزمبيق كنقطة إنطلاق لهجماتهم بالألغام الملتصقة وبقنابل العربات المتفجرة على أهدافهم بجنوب إفريقيا ، كانت جنوب إفريقيا ترد عليه ببدعم كامل لقوات رينامو التي كانت تسعى لقلب نظام حكم الفريليمو .

ثم ، ولخيبة أمل قيادة الرينامو ، قام ساموار ميشيل وبوثا ، رئيس جنوب إفريقيا ، بتوقيع معاهدة بينهما ، في مدينة أنكوماتي الصغيرة على حدود بلديهما ، والتي كانت أهم نتائجها المباشرة هي خفض كبير لدعم جنوب إفريقيا للرينامو في مقابل طرد المؤتمر الوطني الإفريقي وقواته من موزمبيق .

كلا الطرفين قام بخداع الآخر وهو يبتسم ويغمز بعينه . فساموار ميشيل أغلق مكاتب المؤتمر في مابوتو ، عاصمة موزمبيق ، لكنه سمح لهم بالإستمرار في حملاتهم بدون دعم رسمي من فريليمو أو بموافقة منها . أما جنوب إفريقيا فقد خففت من دعمها العلني للرينامو ، لكن مروحيات البوما واصلت عبورها السري للحدود أثناء الليل .

ثم انقلبت المائدة عندما قتل ساموار ميشيل بتحطم طائرته الخاصة ، وهي

طائرة توبوليف عتيقة استغنت عنها القوات الجوية السوفييتية وأهدتها بكرم بالغ لميشيل عربونًا للصداقة التي بينهم وبين حليفهم الإفريقي . كانت معدات التربوليف عتيقة كسيحة . وفي الليلة التي تحطمت فيها ، كان الطياران الروسيان قد امتلئا بالفودكا لدرجة أنهما لم يسجلا في دفترها خطة الطيران . كانوا على بعد مائتي كيلومتر من خط الطيران المقرر عندما سقطت الطائرة على حدود جنوب إفريقيا ، سقطت أولاً على الجانب الموزمبيق ثم ، وللصدفة غير العادية ، أخذت تتخبط وتدحرجت لجنوب إفريقيا !

ورغم الدليل الذي أثبته التسجيل بصندوق التوبوليف الأسود ، الذي احتوى تسجيلا كاملا للطيارين الروسيين وهما يكرران طلباتهما ، للمزيد من الفودكا ، من المضيفة الجوية ، إضافة لما جاء في حديثهما من فحش القول عن المضيفة الحسناء وما سيقومان بعمله معها بعد إنتهاء الرحلة ، إلا أن حكومات روسيا والفريليمو كانا يصران على أن الجنوب إفريقيين هم الذين ساقوا ميشيل إلى حتفه . قبر بالتالي إتفاق أنكوماتي مع سامورا ميشيل في ذلك الجبل البعيد على الحدود ، وعاودت مروحيات البوما عبورها للحدود وهي تحمل المؤن والزخائر لثوار الرينامو .

ثم بدأت تتسلل إلى خارج موزمبيق تدريجيًا أخبار مفزعة . في البداية خرج بعض المبشرين الملتزمين من الأحراش وأوضحوا للعالم الخارجي ما يجري في البلاد من دمار رهيب وبؤس ومجاعة ، ومن الأعمال الشريرة الفظيعة التي تقوم بها فصائل الرينامو النهابة في أراضي مساحتها تساوي مساحة فرنسا .

وتمكنت قلة من الصحفيين الجسورين من الوصول لساحات القتال ، وبقى واحد أو اثنين منهم على قيد الحياة وخرج ليكتب عن المحرقة والمذابح الدائرة هناك . وقدرت بعض تقاريرهم عدد الضحايا من المدنيين بأكثر من نصف مليون ، ماتوا من الجوع أو المرض أو بالإبادة .

وبدأت سيول اللاجئين ، بعشرات الألوف ، تتدفق عبر الحدود إلى جنوب إفريقيا . وتحدثوا ، فزعين خائفين جائعين منهكين من المرض ، عن القصص المرعبة لما يجرى هناك ، وأيقن الجنوب إفريقيون ، برعب شديد ، إنهم كانوا يغذون ويصنعون وحشًا كاسرًا من الرينامو .

في نفس الوقت ، بدأ الرئيس الجديد ، الأكثر إعتدالا ، والذي حل محل ساموروا ميشيل كرئيس لحكومة موزمبيق وللفريليمو ، الرئيس كيسانو ، بإرسال إشارات تصالحية مع جنوب إفريقيا . ثم التقى الرئيسان ، وبسرعة تم تنشيط إتفاق أنكوماتي وإعادته للحياة . ولكنه ، وفي هذه المرة ، تم ذلك بنية شريفة . وفجأة ، وبين عشية وضحاها ، توقف تمامًا تدفق دعم جنوب إفريقيا

للرينامو .

كل هذا حدث في الشهور القليلة السابقة وانتاب الجنرال تشاينا ورفاقه من قادة الرينامو اليأس والغضب . فقد بدأت مؤنهم من الزخائر والطعام تتدهور بسرعة وبدون أي أمل لإعادتها لما كانت عليه . وسرعان ما سيجيء الوقت للإبقاء على حياتهم ، سيلجأون للسلب والنهب في بحثهم عن الطعام ، وفي أرياف مدمرة بالفعل من جراء اثنتي عشرة عامًا من حرب العصابات . وكان حتميًا أن يفرغوا جام غضبهم وحقدهم على ما تبقى من السكان المدنيين وعلى أي أجنبي يستطيعون أسره . كان العالم ضدهم ، وكانوا هم ضد العالم



كان الجنرال تشاينا ، وهو جالس على المقعد المرتفع في الهايند ، يستعرض كل ذلك في ذهنه . فمن هذا العلو استطاع أن يكون فكرة واضحة عن الدمار والفوضى التي لحقت بالبلاد . كان كل شيء متقلب ومتغير في موزمبيق . وفي ظروف كهذه يجد المغامرون والمحتالون القساة الفرصة للوثوب للسلطة .

ومن بين قادة الرينامو ، أثبت الجنرال تشاينا ، عبر السنين ، بأنه أكثرهم دهاء وأوسعهم حيلة . وكان يدعم مركزه ويقويه بكل انتصار أو نجاح يحققه . كان جيشه أقوى جيوش الرينامو الثلاثة . وبالرغم من أن اللجنة المركزية بالخارج هي ، إسميًا ، القيادة العليا لحركة المقاومة ، إلا أن نفوذه وهيبته ، رغم التناقض الظاهر ، كانا يتزايدان باستمرار ، عند كل نكسة تتلقاها الحركة .

وكانت اللجنة المركزية تسارع المرة تلو الأخرى للاستجابة لطلباته . فالسرعة المدهشة التي استجابوا فيها لطلبه للطيار البرتغالي والملاحين ، جسدت أهمية مركزه تمامًا . وبالطبع كان لتدميره لسرب الهايند واستيلائه على مروحية سليمة أثر في تضخيم صورته ونفوذه وأهميته . أما حيازته لهذه المركبة غير العادية ، والتي يمتطيها الآن فوق البراري والقفار ، فقد وضعته في مركز فريد من القوة والسيطرة .

ابتسم الجنرال تشاينا برضى وتحدث إلى الطيار البرتغالي من الميكروفون المركب على خوذته القوية :

« أيها الطيار . هل تستطيع بعد أن تشاهد القرية ؟ » .

- ليس بعد يا جنرال . وفي تقديري ، فإننا نحتاج لأربعة دقائق أخرى من الطيران » .

كان الطيار البرتغالي في أوائل الثلاثينيات من عمره . وكان فتيًا وقويًا ممتلئًا بالحماس والإقدام ، لكنه أيضًا كان كبيرًا بما يكفي لاكتسابه

خبرات واسعة متراكمة وقدرة مناسبة للحكم على الأشياء . كان وسيمًا ذا بشرة داكنة اللون زيتونية ، وله شارب مفتول متدلي وعيون داكنة براقة كعيون لطيور المفترسة .

ومنذ حضوره تمكن من السيطرة على أجهزة الهايند وتشغيلها بكفاءة وثقة ، وازدادت مهارته عند كل ساعة يحلق فيها بها وهو يستوعب تمامًا كل خاصية تتميز بها المروحية .

أما المهندسان البرتغاليان فقد تسلما زمام الأمر من الملاحين الروس ، وظلا يراقبان أي إجراء يقومون به بشأنها . كان من أهم مميزات الهايند هو إمكانية خدمتها وصيانتها في كل الظروف بدون الحاجة إلى معدات متقدمة ، وقد قام كبير المهندسين بالتأكيد للجنرال تشاينا بأن قطع الغيار والمعدات التي سلبوها من القاعدة تكفي للحفاظ عليها صالحة للطيران ولفترة غير محدودة .

لكن النقص الوحيد كان في نظام صواريخ السواتر وصواريخ الهجوم . وهذا النقص تم تعويضه تمامًا باستيلاء تشاينا على حوالي مليون قذيفة عيار ١٢،٧ مليمتر من القاعدة المدمرة لمدفع الجاتلنج .

احتاج الأمر وقتها لمائة وخمسين حمالاً لنقل الذخائر وحدها ، بينما قامت خمسمائة حمالة أخرى ، من متدربات تشاينا ، بحمل براميل الأفجاز ، كل منهن تحمل خمسة وعشرين لترًا على رأسها . كانت رينامو تستخدم النساء عادة كحمالين . وقد تدربن منذ طفولتهن على حمل الأثقال فوق رؤوسهن . وكانت هذه الكميات من وقود الطائرة كافية لما يزيد على مائتي ساعة من الطيران ، وعندما يحين ذلك الوقت ستتوفر فرص مناسبة للإستيلاء على تنكر وقود من الفريليمو ، سواء كان على خط السكة الحديد أو على أحد الطرق القريبة من الساحل والتي لازالت صالحة للإستخدام .

على كل حال ، فقد كان ما يشغل الجنرال تشاينا في هذه اللحظة هو موعده المضروب ، الذي حدده بالراديو ، مع الجنرال تيبوتيب ، قائد جيش القسم الجنوبي للرينامو .

وتحدث الطيار عبر الميكروفون :

« جنرال . لقد شاهدت القرية » .

فأجابه تشاينا : « آهـ . نعم . إنني أستطيع رؤيتها أيضًا . توجه إليها من فضلك » .

وعندما اقتربت المروحية منه ، غير سين موضعه على الشجرة العالية وزحف نحو فرع مورق كثيف الغطاء ومدد نفسه على الفرع . وبالرغم من إدراكه لخطورة النظر إلى السماء ، فإنه اعتمد على لحيته الكثة ولونه المصبوغ

الداكن ليتجنب إنعكاس أشعة الشمس عليه ، وتطلع إلى المروحية بحدة .

كان يدرك أن بقاءهم على قيد الحياة متوقف على تملصهم من هذه المروحية وتجنبها ، وأخذ يدرس شكلها ليصل إلى تقدير معقول لمدى الرؤية المتاحة أمام الطيار والمدفعجي من القمرة . فقد يكون أمرًا حيويًا لسين أن يعرف المنطقة العمياء لمهندس الطائرة ومجال نيران أسلحته .

رأى المدفع في برجه البعيد ، أسفل مقدمة الطائرة ، يتحرك يمينًا ويسارًا ، وكأن المدفعجي يستعرضه أمامه ، إذ لم يكن سين يعلم بأن تشاينا إنما كان يتأمل بحبور ويتفحص ما لديه من مصادر القوة ، وإنه يلهو ويلعب، لا غير بأجهزة تشغيل السلاح ، لكن هذه الحركة أوضحت تمامًا لسين مجال النيران المحدود لمدفع الجاتلنج .

فمواسير المدفع تتحرك في قوس زاويته ثلاثون درجة من أقصى اليمين لأقصى اليسار . أما ما فوق ذلك فعلى الطيار أن يدور بالمروحية على محورها حتى يستطيع إصابة الهدف .

اقتربت الهايند الآن من سين ، واستطاع حتى رؤية التفاصيل الدقيقة على جسمها ، ابتداء من شعار (طيار ممتاز) المكتوب باللون القرمزي على مقدمتها ، وحتى الصفوف المتصلة من رؤوس البرشام الذي يثبت دروع صفائح التيتانيوم عليها . حاول أن يبحث عن أي نقطة ضعف في المروحية أو على دروعها ، ولكنه ، وخلال الثواني القليلة التي تفحصها فيها ، لم ير فيها ما يشوبها ما عدا مداخل الهواء إلى التوربينات ، التي تشبه زوجًا من العيون المحجوبة بغطاء ، والجاثمة فوق قمرة القيادة . كانت تلك المداخل مغطاة بشبكة منع الشوائب ، وهي عبارة عن أقراص معدنية خفيفة تتوسط الشبكة التي تغطي مداخل الهواء لمنع الغبار والأوساخ والركام ، الذي تثيره الرياح الشديدة المندفعة من مراوح الطائرة عندما تحلق قريبا من الأرض ، وحتى لا تدخل تلك الشوائب أو يتم امتصاصها بداخل التوربينات .

ولكن على كل حال لم تكن شبكة منع الشوائب مجدية لمنع صواريخ الإستتجر من الوصول مباشرة إلى مداخل الهواء ثم للتوربينات ، ورأى سين أن هناك فتحة تحيط بأطراف مانع الشوائب ، متسعة بحيث تكفي لإدخال رأس رجل فيها . فإذا وجدت الزاوية المناسبة الصحيحة ، والمسافة القريبة المعقولة فإن بإمكان أي قناص متمرس أن يرسل مجموعة من قذائف مدفع آلي من خلال تلك الفتحة مما سيحطم ريشات التربينة الداخلية . بل إن سين أدرك أيضًا أن ريشة واحدة محطمة من تلك الريشات قد تؤدي لفقدان التوربينة لتوازنها ومن ثم يترتب على ذلك سلسلة من الترددات المضطربة داخل المحرك مما يؤدي لتحطمه

خلال دقائق . وغمغم سين لنفسه :

« يا لها من ضربة ! ويا له من حظ عظيم مواتي ! » . ثم حدق من فوقه بنصف إغماضة لعينيه . وفجأة تغير الضوء المنعكس من زجاجة القمرة المدرع مما سمح له برؤية تفاصيل ما بداخل القمرة بوضوح تام .

وعندما رأى ملامح الجنرال تشاينا واضحة ، بالرغم من خوذة الطيران البلاستيكية القوية والنظارات ذات المرآة والخاصة بالطيران ، والتي كانت عليه وغطت عيونه ، شعر سين بالكراهية الرهيبة تتدفع من أعماقه نحوه .

فهنا ذلك الرجل الذي يمكن أن يلقي عليه ، بدون تردد ، المسئولية عن قتل جوب وعن كل المصاعب والكرب والبلاء الذي أصابهم حتى الآن .

وغمغم بانفعال عظيم :

« إنني أريدك ، يا إلهي ! كم أريد أن أضع يدي عليك » .

بدا وكأن تشاينا قد أحس بقوة الكراهية في سين . فقد التفت بوجهه وحملق مباشرة على القمة التي نبطح عليها سين وحدق فيه من خلال نظارته الشمسية ذات المرايا ، وانكمش سين وتجمد بين أغصان الشجرة .

ثم فجأة مالت الطائرة على جانبها وتوجهت بعيدًا ، معرضة بطنها الرمادية البيضاء الملطخة بالطلاء المموه ، إلى أنظار سين . اهتزت الشجرة بشدة من جراء الهواء القوي الذي هب عليها من الطائرة وكاد سين أن يهوي من ذلك يعلو ، ثم سكن بعد أن تحقق من أن تخيله من تركيز تشاينا بصره نحوه أو تعرفه عليه ما كان إلا وهمًا .

راقب المركبة الضخمة وهي تطير بعيدًا نحو المكان الذي تقصده ، ثم ، وبعد بضعة أميال منه تغير صوت الطائرة وتحول صوت مراوحها إلى صوت هادئ حاد النبرة ، ثم حلقت الهايند لفترة وجيزة فوق الغابة وبعدها لم يعد يشاهدها .

تدلى سين من على الشجرة . وكان متاتو قد أطفأ النار الصغيرة ، التي جهزوا عليها طعامهم ، فور سماعه لصوت الطائرة ، ولكن كان طعامهم قد نضج قبل ذلك .

وأمر سين :

« سنأكل أثناء السير » .

تنهدت كلوديا برقة ، لكنها وقفت على قدميها وكانت كل عضلة في ساقيها أو ظهرها تئن من الإرهاق . وقال لها سين وهو يضع ذراعه حول كتفها :

« آسف يا جميلة . فقد نزل تشاينا على بعد ميل أو اثنين على الشرق منا ، وغالبًا ما هبط في قرية دومبي ويجب أن نكون على ثقة من أن لديه جنود كثر

هناك . لذا علينا أن نسير بدون هوادة » .

أكلوا آخر لقيماتهم من عصيدة الذرة الساخنة المملحة اللزجة وهم سائرون وغسلوها بجرعات من الماء ، من زجاجاتهم ، لها طعم الطين والطحالب . وأخبرها سين :

« علينا من الآن فصاعدًا أن نعيش على نجده على الأرض ، كما أن تشاينا يزفر أنفاسه الآن على مؤخرة أعناقنا » .



حلقت الهايند على ارتفاع مائة قدم من الطريق الذي يشق قرية دومبي .

كان هو الطريق الوحيد بها ، وكانت القرية نفسها عبارة عن مجموعة من عشرين مبنى ، أو نحو ذلك ، من المباني التي هجرت طويلاً . فقد كان زجاج إطارات النوافذ مهمشًا ، وقد سقط الطلاء الأبيض من على جدران بيوتها المهجورة ، تاركًا أشكالاً كالبرص عليها . أما النمل الأبيض فقد إلتهم ما تبقى من خشب السقوف وتدلت بعض ألواح الزنك منها .

تلك المباني المواجهة للطريق العام كانت يومًا ما حوانيت ومخازن عامة لصغار التجار ، (الدوكا) الشهيرة في إفريقيا ، والتي يمتلكها عادة التجار الهنود . كانت إحدى اللافتات الشاحبة اللون والكلمات ، والتي تدلت وأصبحت تترنح مع الهواء كرجل مخمور ، تحمل إسم (باتل وباتل) تحت العلامة التجارية القرمزية لشركة الكوكاكولا .

الطريق نفسه كان ترابيًا متسخًا تملأ جنباته الأوساخ والركام وتنمو الحشائش بمختلف أنواعها على وسطه وجوانبه .

وأمر تشاينا الطيار :

« اهبط بنا » . وسرعان ما غطست المروحية باتجاه الطريق وأطارت من حولها زوبعة من التراب وأوراق الشجر والحشائش الجافة وأكياس البلاستيك المتهرئة .

كان في انتظار الطائرة بضع رجال ، وقفوا على شرفة (باتل وباتل) إضافة لرجال مسلحين منتشرين بين المباني المتهالكة ، حوالي خمسين رجلاً ، كلهم يحملون أسلحة قوية ويرتدون تشكيلة من الملابس المموهة ، عسكرية ومدنية ، وهو الأمر الشائع لدى الثوار الأفارقة .

استقرت الهايند على الطريق المليء بالحفر وخفض الطيار سرعة المحرك ، فأبطأت المراوح دورانها وانخفض صوت المحرك إلى صفارة خفيضة . فتح الجنرال تشاينا باب فمرته المدرع وقفز بخفة إلى الأرض ، والتفت ليقابل

مجموعة الرجال المستقبلين له بشرفة الحانوت . وصاح :

« تيبوتيب ! » . ثم فتح ذراعيه على اتساعهما في تحية أخويه : « ما أطيب لقـ ك ثانية » . وكان قد رفع صوته فوق صوت صفارة المحرك .

هبط الجنرال تيبوتيب من سلالم الشرفة ليحييه وقد مد ذراعيه الضخمتين، كالصليب ، نحوه واحتضنا بعضهما البعض بمنتهى عدم الإخلاص لرجلين قاسيين متنافسين يعلم كل منهما إنه قد يقتل الآخر يومًا ما . وقال تشاينا :

« يا صديقي القديم » ووقف على بعد ذراع منه مبتسمًا نحوه بحرارة وحب .

لم يكن تيبوتيب الاسم الحقيقي له ، بل هو اسم مستعار ، اتخذه أثناء الحرب الأهلية ، عن أحد عتاة تجار الرقيق والعاج في القرن الماضي .

لكن الاسم وما تضمنه كان يناسبه تمامًا ، وهذا ما دار في ذهن تشاينا وهو ينظر إليه . فهنا يقف رجل وغد شرير من طبقة قطاع الطرق الكلاسيكيين ، رجل تعجب به ، لكنك تعامله باحتراس عظيم .

كان قصيرًا ، لا تصل قمة رأسه إلى ذقن تشاينا ، لكن كان كل شيء فيه بعد ذلك عملاقًا . فصدره كان ضخما كذكر الغوريلا ويداه وذراعاه السميكتان يقفان أمام صدره بنفس الطريقة ، كما كانت أصابع يديه في مستوى ركبتيه . أما رأسه فكان شبيهًا بأحد الصخور الروريسية العملاقة الجرانيتية التي تقف على قمة صخرية بالجبل . كان قد حلق رأسه ، لكن لحيته كانت كثة وعبارة عن كتلة من الصوف المجعد تصل إلى صدره أما جبهته فكانت عريضة وكذلك منخاراه ، بينما شفتاه كانتا لحميتين ومليئتين.

كان يربط على جبهته شريطًا ملونًا بهيجًا من القطن ، بينما يرتدي سترة مفتوحة الصدر من جلد الكوكو المدبوغ ليبرز صدره الضخم . أما صدره فمغطى بصوف أسود مبروم كحبات الفلفل ، بينما كان ذراعاه الممتدتان خارج الكم القصير سميكتان مفتولة العضلات .

أجاب على ابتسامة تشاينا بالمثل . وبدت أسنانه البراقة البيضاء بلون اللؤلؤ ، في تناقض واضح مع عينيه المصفرتين المطرزتين بشبكة من العروق والأوردة الدقيقة . وحياه باللغة الشنقانية:

« لقد عطر حضورك يومي هذا برائحة أزهار السنط وعبيرها الفواح » . لكن عينه انزلقت وراء تشاينا ، وعادت لتتطلع إلى المروحية العملاقة التي نزل منها . كان حسده واضحًا حتى كاد تشاينا أن يشتم رائحته وطعمه مثل الكبريت المحروق .

هذه الآلة الجبارة غيرت الميزان الدقيق للقوى بين هذين الرجلين ، الذين

يعتبران من أكبر جبابرة لوردات الحرب بالرينامو . لم يستطع تيبوتيب إبعاد عينيه عنها . وكان واضحًا إنه يرغب بشدة في تفحصها عن قرب . لكن تشاينا تناول ذراعه . وتوجه معه إلى ظل الشرفة . لم يكن الطيار قد أوقف بعد المحرك . لكنه وما أن توجه تشاينا ومضيفه بعيدًا عن مراوحها ، حتى قام بزيادة سرعة محركاته وحلق بها في الحال وتوجه بها بعيدًا .

تخلص تيبوتيب من يد تشاينا وظلل عينيه بيده لينظر إلى الطائرة المحلقة . كانت عيونه الضبابية المصفرة تحملق فيها بجوع ورغبة وكأنه ينظر إلى جسد امرأة عارية في مشهد فاضح . تركه تشاينا يتشوق إليها حتى غابت عن الأنظار .

لقد أرسل الطائرة بعيدًا عن عمد لأنه يعرف تيبوتيب ويفهمه . فإذا ما ظلت الطائرة في مكانها ، فقد يكون الإغراء شديدًا عليه .

فالخيانة كانت شيئًا طبيعيًا بالنسبة لهما مثلما يكون التنفس لدى الآخرين . والهايند هي جوكر تشاينا وكرته الرابح .

انتفض تيبوتيب وضحك لغير سبب واضح وقال :

« لقد أخبروني بأنك دمرت سرب المروحيات وأسرت هذه ، فقلت لهم أن تشاينا كالأسد بين الرجال وهو أخي » . فقال تشاينا :

« هيا بنا يا أخي . لا نقف تحت الشمس » .

وفي الظل ، على الشرفة ، صفت المقاعد والطاولات لهما وقامت فتاتان صغيرتان تعملان مع تيبوتيب بتقديم أواني فخارية مليئة بالبيرة المحلية لهما ، بيرة ثخينة لاذعة ومنعشة . كانت الفتاتان دون العشرين ، وكانتا جميلتين ولهما عيون واسعة كعيون الظباء . كان تيبوتيب يحب النساء ويحيط نفسه بهن دائمًا ، وكانت هذه إحدى نقاط ضعفه ، كما يعرفها تشاينا والذي ابتسم له ابتسامة باردة مسيطرة . كان تشاينا نفسه لا يمانع من إقامة علاقة بهن ، ولكن علاقته لا تزيد عن تغيير طارئ وليست شيئًا ضروريًا في حياته ، لذا فلم يعرهن تشاينا اهتمامًا يذكر قبل أن يعود لحديثه مع الجنرال .

كان الحرس الشخصي لتيبوتيب قد ابتعد عنهما حتى لا يسترقوا السمع ، فأشار تيبوتيب إلى الفتيات بالانصراف أيضًا . وسأله تشاينا :

« وكيف تسير معاركك يا أخي ؟ لقد سمعت بأنك أخذت برؤوس الفريليمو ووضعتها بين أرجلهم . أهذا صحيح ؟ » .

لم يكن هذا صحيحًا بالطبع . فبصفته قائد رينامو القسم الجنوبي ، فإنه بالتالي أقرب ما يكون للعاصمة والميناء ، ما بوتو ، والتي تعتبر مركزًا قويًا للحكومة .

وبالتالي كان هو الأكثر تضررًا من سحب دعم جنوب إفريقيا لحركتهم ، بينما يقف وحيدًا على الجبهة الأمامية ليواجه انتقام الفريليمو وهجماتهم المضادة عليه . كان تشاينا يعلم أيضًا بأن الشهور الأخيرة شهدت نكسات شاسعة بالجنوب . لكن تيبوتيب ضحك الآن وأومأ برأسه موافقًا :

« لقد التهمنا كل ما أرسلته الفريليمو لمواجهتنا . أكلناهم وابتلعناهم دون أن نتجشأ أو صيبنا الضراط » .

أخذا يتناوشان وهما يحتسيان الجعة . كانا يتسمان ويضحكان ويراقبان الواحد منهما الآخر كالأسود أمام الطريدة ، كل منهما يتوخى الحذر ويستعد في أي لحظة للقفز على أخيه أو ليدافع عن نفسه ، حتى غمغم تشاينا أخيرًا :

« إنني مسرور لأسمع منك بأن كل شيء يسير على ما يرام . لقد حضرت إليك لأرى إن كان بإمكان طائرتي 'لهايند أن تدعمك في قتالك للفريليمو » . ثم فرد يديه في حركة استنكار : « لكنني أرى أنك لا تحتاج لدعم مني » .

كانت هذه لعبة ميكافيلية منه . وانتظر تشاينا حتى تسللت هذه الفكرة إلى أعماق تيبوتيب ومكامن الحذر فيه ، وبدأت ملامحه تتغير . كان تشاينا يعلم بأن من الخطأ التكتيكي الفادح أن يطلب من رجل كهذا مساعدته . فتيبوتيب له أنف كالضبع يشتم خلاله أي نقطة للضعف . لذا دار تشاينا حول غرضه منه وعرض أمامه الطعم ، المتمثل في الطائرة ، ثم حرك الطعم قليلاً أمام عيني تيبوتيب ثم ، وبحركة ماكرة من يده ، جعل الطعم يختفي من جديد .

جفل تيبوتيب وحاول أن يفتش على جواب مناسب من خلال ابتسامته . كان بدوره يكره أن يعترف بالفشل أو بالضعف أمام شخص يعلم تمامًا أنه سيستغله دون شفقة . لكنه كان لا يزال يشتهي بشوق تلك الآلة الخرفية . فقال له مناقضًا قوله السابق :

« إن مساعدة الصديق أمر مرغوب فيه دائمًا ، وخاصة العون من أخ لي يمتطي الهنشاو ويشق بها عنان السماء » . ثم مضى مسرعًا : « وربما أستطيع أن أقدم لك خدمة صغيرة في مقابل مساعدتك » .

وفكر تشاينا في نفسه وهو معجب بأسلوبه :

« يا الموغد الندكي . إنه يعلم بأنني ما حضرت إلى هنا حبًا فيه . إنه يعلم أنني أريد منه شيئًا » .

توارى الاثنان ، على الطريقة الإفريقية ، خلف ستارة أخرى من الابتسامات والحكايات الصغيرة التافهة ثم عادا ، بعد دورة طويلة وكأنهما يتغازلان ، إلى الموضوع الرئيس . فقال تيبوتيب:

« لقد نصبت شركًا للفريليمو ، فقد انسحبت من غابة سيف» .

وفي الحقيقة فإنه طرد طردًا إلى خارج تلك الغابات الطبيعية الثمينة بعد قتال عنيف في مواجهة أعنف هجمات الفريليمو التي شنوها في عزم وتصميم ، منذ بداية حملتهم الكبرى الطويلة .

فأجابه تشاينا موافقًا ، تاركًا أثرًا من السخرية على حديثه وقال :

« كان هذا ذكاء منك وحيلة بارعة . فقد كان الشرك محبوكًا لتترك الغابة لهم ، وكان الفريليمو أغبياء ليسقطوا فيه » .

كانت غابات سيف كنزًا ثمينًا إذ أن أشجارها ، التي يطلق عليها اسم الخشب الرصاصي ، تبلغ من الطول ما يزيد على سبعين قدمًا ، كما تسمى أيضا بأشجار العاج لصفات خشبها الثمين العريض . فهي من مجموعة المهوجني الروريسية الجميلة التي تعطي كتلاً يصل قطرها إلى خمسة أقدام ، كما تعتبر من أندر وأقيم أشجار إفريقيا كلها . تسمى أيضا بالتامبوتي أو أشجار الصندل الإفريقي لما لخشبها من مزايا عظيمة ولما له من رائحة طيبة .

وربما لم يكن في إفريقيا بأسرها مثل هذا التجمع الكبير الغزير لهذه التامبوتي الثمينة وكانت تمثل حتى وقت قريب آخر الثروات الطبيعية في هذه البلاد الممزقة . ففي البداية تم استئصال قطعان الأفيال العظيمة ، ثم تلاها قطعان وحيد يقرن ، ثم الجاموس الوحشي ، الذي تمت إبادته بالنيران التي أطلقت بالمدافع الرشاشة عليه من الجو . أما السوفييت والكوريين الشماليين فقد قضوا على مواطن الجنبري الواسعة وعلى المصايد الفنية للأسماك في السواحل الدافئة التيارات على الشرق من موزمبيق ، هذا إضافة للمغامرين الأجانب الغربيين الذين ، وعن طريق تصاريح رسمية صادرة لهم من الفريليمو ، أبادوا الأعداد الهائلة من التماسيح في بحيرة كابورا باسا . ولم يكن قد تبقى سوى هذه الغابات .

كانت حكومة موزمبيق في حوجة ماسة للعملة الصعبة ، بأكثر من حوجة أي دولة أخرى في إفريقيا ، من الحديثة الاستقلال . فقد كانوا ، ولأكثر من عقد من الزمان ، متورطين في حرب أهلية استنزافية صفت دماء اقتصادهم وأوصلته إلى ما يقارب الصفر . وكانت هذه الثروات الممثلة في غابات الصندل الإفريقي هي آخر ما تبقى لهم من مصادر العملة الصعبة .

وقال تيبوتيب لتشاينا :

« لقد تحركوا إليها مع فرق العمل الإجباري ، بعشرين وربما بثلاثين ألفًا من العبيد » .

فسأله تشاينا باهتمام واضح :

« أبمثل هذا العدد ؟ وأين وجدوهم ؟ » .

« لقد كنسوا آخر الفلاحين عن الأرض ، وأغاروا على معسكرات اللاجئين ، وجمعوا المتشردين والمتعطلين من شوارع ما بوتو وأحيائها الفقيرة وأسموا ذلك باسم (البرنامج الديمقراطي لتوفير العمالة الكاملة للمواطنين » . ويدأ الرجال والنساء في العمل من الفجر وحتى الغروب مقابل عشرة قطع من إسكيودو الفريليمو في اليوم ، بينما كانت الوجبة الوحيدة التي تقدم لهم أثناء اليوم تكلفهم خمسة عشر إسكيودو » .

وألقى تيبوتيب برأسه للوراء وضحك عاليًا ، بإعجاب أكثر منه تسلية وأضاف :

« فالفريليمو أحيانًا ليسوا بالأغبياء . فقد كان كل واحد من فرق العمل يدفع كل يوم خمسة إسكيودو من جيبه ليقطع كتل الخشب للحكومة . إنه إجراء جديد بالإعجاب حقًا » .

وسأله تشاينا مستغربًا :

« وتركت الفريليمو يقومون بكل هذا ؟ » .

لم يكن ما أهمه هو محنة فرق العمل ولم تشغل باله . فقد كان سعر كتلة واحدة من التامبوتي بطول ستين قدمًا تقدر بحوالي خمسين ألف دولار أمريكي وكانت غابات التامبوتي تمتد لمئات الآلاف من الأفدنة .

ورد عليه تيبوتيب :

« بالطبع تركتهم يقومون بذلك . فإنهم لا يستطيعون ترحيل هذه الأخشاب إلا بعد إعادة تأهيل الطرق وخط السكك الحديدية . وحتى يحين ذلك فإنهم يعملون على رحى تلك الكتل في أكوام هائلة على طول الطريق القديم . ويقوم عيوني هناك بإحصاء وعد أي كتلة تضم إلى تلك الأكوام » . ثم تناول تيبوتيب دفترًا متواضعًا ، مغطى بالبلاستيك ، من جيب سترته الجلدية ، وعرض على تشاينا الأرقام التي سجلها بدقة بالقلم الأزرق على الصفحة الأخيرة .

احتفظ تشاينا بوجهه جامدًا بدون تعبير وهو يقرأ جملة العدد المدون . لكن عيونه لمعت من خلف نظارته الشمسية ذات الإطار الذهبي . كانت جملة الدولارات تكفي لتمويل كلا جيشيهما لخمسة سنوات أخرى ، أو تكفي لشراء ولاء الدول ، أو لتصعيد أحد لوردات الحرب لرتبة رئيس الدولة مدى حياته .

وواصل تيبوتيب حديثه :

« لقد حان الوقت تقريبًا بالنسبة لي للعودة إلى غابات سيف لجمع ما

حصدته الفريليمو لي من الثروة » . لكن تشاينا استفسره :

« وكيف ستقوم بتصدير هذا الحصاد الوفير ؟ فإن وزن كتلة واحدة من التامبوتي قد تصل إلى مائة طن . ومن الذي سيشتريه منك ؟ » .

صفق تيبوتيب بيديه ونادى أحد مساعديه ، الذي كان متربعًا على الأرض في ظل أحد المباني المطلة على الشارع . فقفز رجل العصابات وأسرع إلى حيث جلس الجنرالان . ركع على ركبته وفرد على الأرضية الخرسانية المتشققة للشرفة خريطة ميدانية بين كرسييهما وقام بوضع بعض الحجارة على أركانها الأربعة لتثبيتها . وانحنى تشاينا وتيبوتيب لدراستها . أخذ تيبوتيب يشير إلى حدود المنطقة الشاسعة تلك ، والتي تقع بين نهري ريو سيف ولمبوبو ، والتي تقع مباشرة على الجنوب منهم وقال :

« هنا تقع الغابات . وهنا وهنا وهنا تقع المستودعات التي كومت فيها الفريليمو كتل الأخشاب . وشجعه تشاينا بقوله :

« أرجو الاستمرار » .

« أكثر المستودعات بعدًا إلى الجنوب لا يفصل بينها وبين نهر لمبوبو ، أي الحدود مع جنوب إفريقيا ، سوى ثلاثين ميلاً فقط » .

فاعترضه تشاينا موضحًا :

« لكن الجنوب إفريقيين قد تنكروا لنا ووقعوا اتفاقًا مع كيسانو والفريليمو » . جمع تيبوتيب أوراقه وقال :

« المعاهدات والإتفاقيات ما هي إلا قطع من الورق . إننا نتحدث هنا عما قيمته نصف مليار دولار من الخشب . لقد تسلمت بالفعل تأكيدات جازمة من حلفائنا السابقين في الجنوب ، بأنني إذا تمكنت من جمع كمية مناسبة ، فإنهم سيتولون ترتيب ترحيلها إلى الحدود ، ثم يدفعون الثمن في لشبونة أو زيورخ» . ثم صمت لوهلة وقال :

« لقد قطعت لفريليمو الأخشاب ورصتها وبقى علي فقط أن أستلمها وأوصلها للزبون » .

وسأله تشاينا :

« أتظن أن مروحيتي الحربية الجديدة ستساعدك في العملية ؟ » .

فأجابه :

« تساعدني ؟ نعم . رغم إنني أستطيع تحقيق نفس النتيجة بقواتي الخاصة » . فأجابه تشاينا :

« ربما . ولكن عملية مشتركة ستكون أكثر سرعة وضمانًا . سنتقاسم

القتال ومن ثم الغنائم . فبطائرتي الهنشاو ، وبدعم لك بقواتي من الشمال ، فلن يستغرق طرد الفريليمو من الغابات أكثر من أسبوع » .

تظاهر تيبوتيب بأنه يدرس هذا العرض . ثم أومأ برأسه وسأله بلطف :

« سأقوم بالطبع بمكافأتك تمامًا على مساعدتك لي وذلك بنسبة معقولة من قيمة الخشب الذي سنتسلمه » .

تنهد تشاينا وقال :

« كلمة (معقولة) ليست من الكلمات المفضلة عندي . والأحسن منها أن نستعمل الكلمة الإشتراكية الطيبة التي تعني المساواة . فلنقل أنصبة متساوية . ما رأيك ؟ » .

بدا على تيبوتيب الألم ورفع يديه محتجًا وقال :

« كن معقولاً يا أخي » .

ولساعة استمرا يتجادلان ويتساومن ، واقتربا تدريجيًا من عقد صفقة حول توزيع ثروة تلك الدولة بينهما وحول مصير عشرات الألوف من المواطنين البؤساء في فرق العمل . وعلى هذه النقطة علق تيبوتيب قائلاً :

« عيوني التي بثثتها هناك أفادوني بأن العاملين في معسكرات قطع الأشجار ورصها قد وصلوا لنهاية قدراتهم . فالفريليمو يطعمونهم على مؤن هزيلة لدرجة أن معظمهم ، إن لم يكن كلهم ، صاروا مرضى يتضورون جوعًا . إنهم يموتون بالمئات كل يوم . وقد هبطت قدرتهم على قطع الأخشاب إلى نصف ما كانت عليه قبل شهرين .

كما أن فريليمو استنزفت كل من يقدر على العمل ، ولم يعد لديهم احتياطي للعمالة الجديدة ليسحبوا منها ، وبدأت العملية بأسرها في التدهور الآن . بالتالي فليس لدينا وقت للإنتظار ، أو أي مكسب من ذلك ، وعلينا بالهجوم عليهم في الحال وقبل بداية فصل الأمطار » .

تطلع تشاينا إلى ساعة معصمة الرقمية ، وهي من علامات الرتبة ، مثلها مثل النجمة على كتافيتيه . ستأتي الهايند لأخذه بعد نصف ساعة وعليه أن يسرع بالإنتهاء من مباحثاته وعقد الصفقة . وخلال دقائق كانا قد إتفقا على آخر التفاصيل للعملية المشتركة . ثم أشار تشاينا عرضًا ، وكأن الأمر قد خطر على باله صدفة الآن :

« هناك موضوع آخر واحد » . بنهت لهجته تيبوتيب إلى أهمية الطلب القادم . فمال على الكرسي ووضع يديه العريضتين القويتين ، اللتين تشبهان يد الدب الرمادي ، على ركبتيه . وقالت تشاينا :

« إنني أطارد حاليًا جماعة صغيرة من البيض الهاربين ويبدو إنهم يحاولون الوصول إلى حدود جنوب إفريقيا » . وباختصار اسم تشاينا صورة وصفية لجماعة سين واختتم طلبه قائلا :

« أريد منك استنفار كل قواتك بين هذا المكان وبين نهر لمبوبو للقيام بالبحث عنهم وإلقاء القبض عليهم » .

سأله تيبوتيب بعد تفكير :

« رجل أبيض وامرأة بيضاء ، امرأة بيضاء شابة . يبدو هذا أمرًا مثيرًا يا أخي » .

- الرجل هو الأكثر أهمية عندي . أما المرأة فهي أمريكية ، وربما تكون لها قيمة كبيرة كرهينة ، أما بخلاف ذلك فإنها لا تعني الكثير » .

- بالنسبة لي فإن للنساء قيمة دائمًا وخاصة إذا كانت شابة وبيضاء . فإنني أفضل تغيير اللون من حين لآخر . علينا إذن أن نعقد صفقة أخرى يا أخي ، ومرة أخرى بأنصبة متساوية . فإذا ما ساعدتك على الإمساك بالهاربين البيض ، فإنك تستلم الرجل لكنني سأحتفظ بالمرأة . اتفقنا ؟ ».

فكر تشاينا لحظة ثم أومأ برأسه :

« حسنًا جدًا . يمكنك أخذها . لكنني أريد الرجل حيًا وغير مصاب بجراح» ضحك تيبوتيب وقال :

« وهذا بالضبط ما أريد أن تكون عليه الفتاة ! إذن ، ومرة أخرى فنحن متفقان » .

مد يده اليمنى وأمسك بيد تشاينا . كان كل منهما يعلم ، عندما نظرا لبعضهما البعض ، بأن هذه الإيماءة لا تعني شيئًا ، وإن الاتفاقيات التي عقداها لن تنفذ إلا إذا كانت في مصلحتهما كلاهما ، وإنها يمكن أن تمزق بدون إنذار بواسطة أي منهما إذا ما تغيرت الظروف .

ثم دعاه تيبوتيب :

« والآن حدثني عن هذه المرأة البيضاء . أين شوهدت لآخر مرة . وماذا قمت به حتى الآن للقبض عليها ؟ » .

عاد تشاينا مرة أخرى للخريطة المفرودة بينهما ، وفطن تيبوتيب إلى تغير وجه تشاينا والتعبير الجديد الذي بدا عليه والإصرار الذي وضح على صوته وهو يخبره كيف أن سين وجماعته قد أفلتوا من الشرك الذي نصبه لهم على حدود زمبابوي ، وكيف أن الهاربين الشنقانيين قد أبلغوه باتجاه سيرهم الجديد جنوبًا إلى جنوب إفريقيا . وقال وهو يضع إصبعه على نقطة في الخريطة تقع شمال

السكة الحديد :

« إنني أعلم بأن آخر مكان وصلوه كان هنا . لكن هذا كان قبل ثلاثة أيام .. ربما يكونون الآن في أي مكان على طول هذه المنطقة ... » ومد يده مؤشرًا على منطقة بالخريطة : « لكن واحدًا منهم مصاب إصابة شديدة لذا فمن المحتمل ألا يكونوا قد وصلوا إلى هذا المكان جنوبًا . ولقد جهزت دوريات من الكشافين . حوالي ثلاثمائة رجل يمشطون الأرض جنوب الخط الحديدي بحثًا عن أثر لهم . لكنني أريد منك أن ترمي بشبكتك مثلي تمامًا ولكن للأمام من خط سيرهم . فكم رجلاً تستطيع توفيره ؟ » .

هز تيبوتيب كتفيه بلا مبالاة وقال بثقة :

« لقد وضعت بالفعل ثلاثة فرق عسكرية هنا ، بطول نهر سيف لمراقبة قطع ورحى الكتل في الغابات . وهناك خمسة فرق أخرى منتشرة في الشمال من هنا . فإذا ما حاول أولئك البيض الوصول إلى حدود لمبويو ، فلابد لهم من المرور مباشرة عبر خطوطي وخطوط الفريليمو الذين يحرسون شمال الغابة .

وسأقوم بالاتصال بقادة فرقي ، بالراديو ، ليكونوا على أتم اليقظة بالنسبة لهم » .

جاء رد تشاينا حادًا وسلطويًا : « عليكم أن تغطوا أي طرقة أو معبر بالنهر . على رجالك إقامة نقاط للتفتيش بدون أي ثغرات عليهم ، بينما سيقوم رجالي القادمين من الشمال بدفع البيض الهاربين إليهم . لكن من المهم أن تحذر قادة فرقك بأن ذلك الرجل الأبيض هو جندي وجندي ممتاز . إنه هو الذي قاد كشافة بالانتاين قبل نهاية الحرب » .

صاح تيبوتيب مستغربًا :

« كورتني ؟ إنني أتذكره جيدًا » . ثم ضحك : « بالطبع ، إنه كورتني الذي قاد الهجوم على قاعدتك . لا عجب إنك تريد وضع يدك عليه بهذا الإصرار. إنك لا تنس الماضي مع الكولونيل كورتني ويبدو إنك ترجع في ذلك سنوات للوراء . إن لك ذاكرة عميقة يا أخي » .

فأومأ تشاينا برأسه ولمس فص أذنه الصماء وقال :

« نعم . سنوات طويلة وذاكرة عميقة . لكن الإنتقام ، يا عزيزي ، عبارة عن طبق يكون مذاقه طيبًا إذا ما كان باردًا عند أكله » .

نظر كلاهما نحو السماء عندما سمعا صوت الهايند قادمة نحوهما من شمال القرية . ونظر تشاينا إلى ساعة معصمه . جاء الطيار في موعده بالضبط لالتقاط قائده ، وشعر تشاينا بأن ثقته في طياره البرتغالي إذدادت رسوخًا . نهض من على كرسيه وقال لتيبوتيب :

« سنكون على اتصال مستمر بالراديو على الموجة ١١٨,٤ ميجاهيرتس ، ثلاثة مرات يوميًا ، السادسة صباحًا ، ثم عند الظهر ثم في السادسة مساء » .

لكن تيبوتيب لم يكن ينظر إليه . لقد كان ينظر إلى السماء بحنين عظيم وشوق عندما أطلت الهايند محلقة فوق القرية وكأنها وحش بالغ التشويه في فيلم من أفلام الرعب .

جلس الجنرال تشاينا على مقعد مهندس الطيران وأحكم رتاج باب القمرة المصنوع من الزجاج المدرع ثم رفع إبهام يده اليمنى باتجاه تيبوتيب الواقف على شرفة الحانوت المتهالك . وعندما حياه بدوره ، نهضت الهايند رأسيًا للأعلى فوق القرية وأدارت رأسها إلى الشمال .

وتحدث الطيار إلى تشاينا عبر سماعة أذنه :

« جنرال . إحدى دورياتك كانت تنادي عليك بالراديو باستعجال شديد وكانوا يستخدمون علامة النداء الخاصة بهم (الثاني عشر الأحمر) » . فأمره تشاينا :

« حسنًا جدًا . أرجو التحويل بسرعة إلى موجة الدورية » وبدأ ينظر إلى اللوحة الرقمية أمام جهاز الراديو ثم تحدث من الميكروفون المثبت على خوذة الطيران : « الثاني عشر الأحمر . هذه شجرة الموز . هل تقرأني ؟ » .

كان المصطلح الكودي (الثاني عشر الأحمر) يطلق على أقوى جماعات كشافيه التي انطلقت وراء أثر درب الهاربين ، على الجنوب من الخط الحديدي. ألقى الجنرال تشاينا بنظرة على الخريطة ، التي فردها على ركبتيه ، محاولاً تخمين موقعهم بالضبط . وأجابه قائد الفصيل في الحال على ندائه :

« شجرة الموز . هذا هو الثاني عشر الأحمر . لدينا اتصال مؤكد بالهاربين» . أحس تشاينا بمشاعر الإنفعال وبالانتصار تصعد في صدره . لكنه احتفظ بطابع صوته العادي وأمر قائد الفصيل :

« حدد مكانك بالضبط » . وعندما قرأ عليه القائد الإحداثيات ، قارنها تشاينا بالخريطة ووجد أن فصيل الكشافة لا يبعد بأكثر من خمسة وثلاثين ميلاً شمال القرية . وسأل الطيار :

« هل فهمت ما قاله قائد الفيصيل ؟ توجه إلى هناك بأسرع ما يمكنك » . وعندما ارتفع صوت المحرك لأقصى قدرة به ، نادى تشاينا على القائد :

« الثاني عشر الأحمر . أطلق إشارة ضوئية حمراء عندما ترانا قد اقتربنا منك » .

بعد سبع دقائق انطلقت إشارة ضوئية حمراء من الغابة ، بالقرب من مقدمة

الطائرة ، وقام الطيار بتخفيض سرعته وحلق فوق رؤوس الأشجار .

كان جنود فصيل الرينامو قد نظفوا بفئوسهم مهبطًا للمروحية نزل عليها الطيار مثيرًا عاصفة من الأتربة والأوساخ . ولاحظ بعين الرضى أن الجنود قد ألقوا بستارة واقية حول منطقة الهبوط . ققفز تشاينا بإقدام وحماس من قمرته وسرعان ما هرع قائد الفصيل نحوه وحياه . كان شابًا مخيلاً مقدامًا وقد اكتظ هندامه بالأسلحة وزجاجات الماء وبكميات من الجبخانة بداخل الجيوب المعلقة بحزامه . وأعلن لقائده :

« لقد مروا من هذا الدرب في وقت ما من مساء الأمس » .

فسأله تشاينا :

« هل أنت متأكد بأنهم هم ؟ » .

أوما قائد الفصيل برأسه وقال :

« نعم . الرجل والمرأة البيض . لكنهم دفنوا شيئًا هناك » ، وأشار بذقنه ، « إننا لم نلمسه ، لكنني أعتقد بأنه قبر » .

- « أرني إياه » .

مشى تشاينا وراءه حتى منطقة الشجيرات الشوكية ثم توقف قائد الفصيل بجوار ركام من الحجارة المرصوصة . وقال تشاينا بثقة :

« نعم . إنه قبر . قوموا بفتحه » .

صاح قائد الفصيل بأمر لاثنين من جنوده . وضعا سلاحهما أرضًا وبدأ العمل في إزاحة الأحجار العلوية وبالقائها بعيداً نحو المنحدر . وناداهما تشاينا :

« أسرعوا . اعملوا بهمة وسرعة أكبر » . وسرعان ما تطايرت الأحجار الحديدية التي كانوا يلقون بها بسرعة إلى المنحدر وتطاير منها الشرر وهي ترتضدم ببعضها البعض . ثم قال قائد الفصيل عندما كشف عن رأسه جوب المغطى :

« هذه هي الجثة » . ثم خطا نحوها وجذب القميص الملطخ الذي كان يغطيها . عرف تشاينا في التو ملامح جوب وقال :

« إنه المتابيلي . لم أكن واثقًا بأنه سيصمد حتى هذا المكان . أخرجوه من قبره وأطعموه للضباع» .

قام إثنان من الكشافة وجذبا جوب من أكتافه الملفوفة بالبطانية وراقب تشاينا المنظر باهتمام الفيلان . فقد كان تشويه جثث الأعداء والتمثيل بهم من التقاليد القديمة لقبائل النجوني حيث كانوا يعتقدون أن فتح بطن القتيل وإخراج أحشائها منها سيؤدي إلى فرار روح القتيل وعدم إلحاقه الأذى المنتصر .

لكن تشاينا كان يجد في مشاهدة نبش القبر رضيً أو إشباعًا متسمًا بالحقد الأعمى له . كان يتلذذ بما سيسببه هذا العمل من حزن رهيب لسين كورتني ، وسيستمتع بالذات بما سيقوله له ، عندما يصف ما قام به بالتفصيل ، في إرساله القادم له بالراديو .

وفي تلك اللحظة لمح الحبل المفتول القصير والذي كان يحيط بكتفي الجثة التي تغطيها البطانية . حدق فيه مذهولاً للحظة ثم ، وبعد أن رأى الحبل وقد اشتد وتوتر ، ثم سمع صوت طرقة المفجر على القنبلة ، تحقق تمامًا مما يرى وأطلق صيحة تحذير داوية وألقى بنفسه على الأرض ووجهه إليها .

سحق الإنفجار طبول أذنيه وملأ الألم كل رأسه . شعر بموجة الإنفجار تضربه وبأن شيئًا ركله على خده بقوة صاعقة فتدحرج على الأرض ثم استقر جالسًا عليها . وللوهلة الأولى تخيل أنه قد فقد بصره ، ثم بعد ذلك بقليل بدأت النجوم وأضواء الألعاب النارية التي ملأت رأسه في التبدد ، وبشعور عظيم بالإرتياح علم أن بإمكانه أن يرى مرة أخرى .

كان الدم يسيل على جانب وجهه ويتدفق قطرة قطرة من ذقنه على صدر سترته العسكرية . خلع المنديل من حول عنقه وضغطه على الجرح العميق ، الذي سببته إحدى الشظايا ، بطول خده.

ووقف مترنحًا وحدق في القبر ثانية . كانت القنبلة قد مزقت بطن أحد رجاله حتى صارت كبطن سمكة مفتوحة ، وكان الرجل راكعًا يحاول أن يعيد أحشاءه إلى داخل بطنه . لكن الأغشية اللزجة التي تغطيها التصقت بيديه العاريتين . أما الجندي الثاني فقد صرع في الحال . قفز قائد الفصيل نحو الجنرال تشاينا وحاول أن يفحص الشق الذي بوجنته لكن تشاينا دفعه بيده بعيدًا عنه وأخذ يصيح بهيستيريا :

« أيها الوغد الأبيض . ستدفع ثمنًا غاليًا على ما فعلته يا كولونيل كورتني. أقسم لك على هذا».

كان جندي العصابات لا يزال يحاول الإمساك بمصارينه وأحشائه المتدلية اللزجة ، لكنها كانت دائمًا تنزلق من بين أصابعه . كان يطلق نعيبًا مدويًا ويصرخ صرخاتًا زادت هيجان تشاينا وغضبه حدة على حدة فصاح : « أبعدوا هذا الرجل من هنا ! خذوه بعيدًا وأسكتوه ! » .

جروا الرجل الجريح بعيدًا . ورغم ذلك لم يهدأ تشاينا . كان يرتجف ويهتز من الصدمة وشدة الغضب وينظر متلفتًا حوله باحثًا عن شيء ينفث فيه حنقه الشديد . أشار إلى الجنود من حوله ومن إصبعه المرتجف أمامهم وصاح فيهم :

« أيها الرجال ! أحضروا سيوفكم وسكاكينكم » جرى اثنان من

الفور لا لتنفيذ أمره . « أخرجوا ذلك الكلب المتابيلي من جحره . نعم هذا صحيح . والآن استخدموا السكاكين والسيوف . قطعوه مزقًا لإطعام الضياع . تمام ! تمام! قطعًا صغيرة ! لا تتوقفوا . لحم مفروم ! أريده أن يصبح لحمًا مفرومًا ! » .



طوال ذلك الصباح ، قادهم متاتو جنوبًا ، عبر الحقول المهملة ، ومرورًا بالقرى المهجورة . وقد وجدوا في الحشائش والنموات الثانوية للشجيرات غطاء طيبًا . وكانوا دائمًا ما يتجنبون الممرات والدروب المطروقة ، كما كانوا يلتفون حول الأكواخ المحروقة ولا يخترقونها .

عانت كلوديا من مصاعب اللحاق بخطوات الآخرين . فقد كانوا لا يتوقفون للراحة إلا لدقائق معدودة منذ مساء اليوم السابق وشعرت بأنها وصلت لأقصى حد ممكن للإحتمال . لم تعد تحس بأي ألم ، وحتى الأشواك القصيرة الشيطانية ذات الرؤوس الحمراء الحادة ، والتي تركت الدماء تسيل من جلدها ومن ذراعيها العاريين ، لم تعد تؤلمها إلا كشيء تافه أثناء سيرها . كانت تمشي وكأنما أقدامها قدت من الرصاص ، مشيًا آليا بدون روح . ورغم أنها حاولت الإنسجام مع خطى الآخرين إلا أنها شعرت بأنها تمشي مثل ساعة لعب الأطفال . وجدت سين وقد تجاوزها دون قض لكنها لم تجد القدرة للحاق به . ثم نظر سين من فوق كتفه نحوها ورأى تخلفها عنه فأبطأ من مشيه حتى لحقت به وقالت له بأنفاس مخروشة :

« إنني آسفة » .

رفع عينيه نحو السماء وقال لها برقة :

« لا مفر من مواصلة السير » . تمالكت نفسها وكابدت للحاق به .

وبعد منتصف النهار بقليل سمعوا صوت الهايند . جاء الصوت ضعيفًا في البداية ، وبعيدًا ، ثم إزداد ضعفًا وخفوتًا عندما اتجهت المروحية صوب الشمال .

وضع سين ذراعه حول كلوديا ليثبتها عندما لاحظ إنها تترنح في مشيتها وقال لها برقة :

« حسنًا فعلت ، وإنني آسف لما سببته من متاعب . لكننا قطعنا مسافة طيبة ولن يتوقع تشاين إطلاقًا إننا وصلنا لهذا الحد جنوبًا ، وقد توجه عائدًا للشمال ، مما يعني أن بإمكاننا الحصول على بعض الراحة الآن » .

قادها إلى مجموعة من أشجار الأكاشيا التسوكية القصيرة والتي شكلت ملاذًا طبيعيًا . كانت تتنهد من الإرهاق عندما رقدت بهدوء على الأرض القاسية بينما جلس سين بجوارها وبدأ يخلع عنها حذاءها وجواربها وأخذ يدلك أقدامها

بلطف قائلاً :

« لقد زادت قدماك قوة وصلابة وجمالاً ولا توجد عليهما أي آثار للقروح أو السجحات . إنك مثينة كأحد الكشافة ، لكنك أكثر رقة وعذوبة منهم » .

لم نستطيع حتى الرد عليه بابتسامة لمجاملته لها . وتناول سين جوربها وأدخل إصبعه في أحد ثقوبه ناحية الإبهام وأخذ يؤرجح الجورب كالدمية التي تتحدث . كما عند حواة الأطفال . ويقول»

« حسنًا . حسنًا . إنها تمشي بصورة طيبة » . ثم أخذ يقلد صوت (المس يجي)، وكأن الجورب لا يزال يخاطبها : « ولكن أيها الغلام السمين ، لو رأيتها في فستانها الفضفاض ! » .

ضحكت كلوديا ضحكة ضعيفة فابتسم لها سين بمودة وقال :

« هذا أفضل . عليك الآن أن تأخذني حظًا من النوم » .

ولبضع دقائق أخذت تنظر إليه وهو يصلح جوربها فغمغمت نصف نائمة :

« من التي علمك الخياطة بالإبر ؟ أبنات الهوى ؟ » .

- لقد كنت كالعذراء حتى عثرت عليك . اخلدي للنوم .

- إنني أكرهها أيًا كانت تلك التي علمتك .

ثم أقلت عينيها . وبدا لها أنها فتحتهما بعد ذلك مباشرة ، لكن ضوء النهار الباهر كان قد تحول إلى ظلال رقيقة للمساء ، وهبطت حرارة النهار إلى برودة الغسق . فجلست . كان سين يطبخ شيئًا على نار صغيرة من الحطب الجاف فنظر إليها وسألها :

- أجوعانة ؟

- أتضور جوعًا .

أحضر لها إناء معدنية وقال لها : « العشاء » .

سألته متشككة :

« ما هذا ؟ » . ونظرت إلى الإناء المملوء بالسجق المشوي المسود اللون ، وكانت كل قطعة بحجم إصبعها الصغير . وقال لها :

« لا تسألي . فقط على عشائك » .

وبحذر شديد تناولت قطعة وتشممتها ، وهي ساخنة بعد خروجها من النار . فكرر لها : « كلي ! » . وليضرب مثلاً واقعيًا لها قام بإلقاء واحدة من القطع في فمه ومضغها ثم ابتلعها وأبدى لها رأيه :

« لذلية جدًا . هيا كلي » .

وباحتراس قامت بقضم إحدى القطع ، والتي انفجرت بين أسنانها وملأت فمها بشيء كالكسترد الدافئ الذي له طعم السبانخ ، وأجبرت نفسها على ابتلاعها .

- خذي قطعة أخرى .

- لا . شكرًا .

- إنها مليئة بالبروتين . تناولي قطعة .

- لا أستطيع .

- لن تقدري على المشوار القادم ببطن فارغة . افتحي فمك .

وبدأ يلقمها قطعة ثم يتناول هو أخرى .

وعندما فرغ الإناء ، سألته مرة أخرى :

« والآن حدثني . بماذا أطعمتني ؟ » .

لكنه ضحك وهز رأسه ثم التفت لألفونسو ، الذي كان جالسًا على الأرض وهو يلتهم نصيبه من الوجبة وأمره بتشغيل الراديو :

« دعنا نسمع إن كان لتشاينا شيئًا يقوله » .

وبينما انشغل ألفونسو بمد أسلاك الهوائي ، تسلل متاتو بخفة إلى المعسكر. كان يحمل علبة أسطوانية مصنوعة من لحاء الشجر وقد أقفل أطرافها بسدادات من العشب الجاف ثم تبادل بعض الكلمات مع سين ، والذي بدا عليه الاهتمام الشديد . وسألته كلوديا بقلق :

- ما الأمر ؟

- لقد شاهد متاتو الكثير من العلامات هناك . ويبدو أنها آثار للتحركات عسكرية ضخمة للفريليمو أو الرينامو حيث إنه لم يستطع تحديدهم بالضبط .

أصابها القلق وتحركت إلى القرب من سين ، الذي كان جالسًا ، واستندت على كتفه وبدءا سويًا يستمعان للراديو ، الذي إزدحمت الأصوات فيه واختلطت مع ذبذبات الأثير . كانت معظم الأصوات باللغة الشنقانية وبعضها كان بالبرتغالية المشوبة باللكنة الإفريقية .

وقال ألفونسو مغمغمًا وهو يركز أسماعه على الجهاز :

« هناك شيء ما يختمر . إنهم يحركون الجنود إلى نقاط للإيقاف والتفتيش» فسأله سين : « أهم الرينامو ؟ » .

وأومأ ألفونسو برأسه موافقًا وقال :

« يبدو أنهم من رجال تيبوتيب » .

وتساءلت كلوديا : « ماذا يقول ؟ » .

كذب عليها سين بقوله : « إنها اتصالات روتينية » . إذ لم يرد أن يزيدها إزعاجًا زيادة على ما بها .

استرخت كلوديا وأخذت تراقب متاتو ، الجالس بالقرب من النار ، وهو يرفع السدادة بحذر من الوعاء الأسطواني ويهز محتوياته ويرميها فوق النار . وعندما عرفت ما يقوم بانضاجه ، وتجمدت من الفزع وصاحت :

« هذا أكثر شيء مثير للتقزز ..... » . لم تستطع أن تكمل حديثها وهي تنظر في إنشداه وفزع إلى اليرقات الكبيرة المليئة بالشعر واالتي تتلوى وترتجف على الفحم المتقد . كانت شعيراتهم الغزيرة تشتعل في النار مخرجة دخانا ذا رائحة شاذة وبعدها توقفت الديدان عن الحركة والتوت وصار شكلها كالسجق الأسود الناضج .

خرجت من حلقها صيحة مختنقة وقبضت على ذراع سين عندما تعرفت على الديدان وشهقت:

« لا ! إنهم ليسوا ... أنا لم ... إنك لم تجعلني آكل ... أوه . لا . لا أصدق ذلك! » .

لكن سين طمأنها بقوله :

« إنها مغذية جدًا » . وعندما رأى متاتو إتجاه نظراتها ، التقط إحدى الديدان المشوية من على الفحم وأخذ يقلبها بين يديه لتبرد وقدمها لها بكرم حاتمي وهو منشرح الصدر .

لكن كلوديا تمتمت : « أعتقد إنني سأتقيأ » . وأدارت وجهها بعيدًا : « لا أصدق إنني أكلت واحدة من هذه ..... » .

في تلك اللحظة طقطق الراديو بحدة وجاء منه صوت خافت وبلغة حلقية لم تفهمها كلوديا قط . لكن اهتمام سين الفجائي بالإرسال حول انتباهها ، وشعورها بالتقزز ، إلى سين وسألته :

« أي لغة هذه ؟ » .

فأجابها باختصار : « هي لغة الأفريكانس . صمتًا ! استمعوا ! » . لكن الإرسال تلاشى فجأة واختفى .

وسألته ثانية :

« أفريكانس ؟ أتقصد اللغة الهولندية لجنوب إفريقيا ؟ » .

فأومأ سين موافقًا :

« هذا صحيح . ولابد أننا وصلنا للحد الأقصى لمدى إرسالهم إلينا . فهذا

بالتأكيد إرسال جنوب إفريقي ، وربما كان صادرًا من أطواف حرس الحدود على نهر لمبوبو » .

تداول سين حديثًا سريعًا مع الفونسو ثم أخبر كلوديا :

« إنه متفق معي بأن ذلك كان إرسالاً لطوف عسكري جنوب إفريقي . وقال لي الفونسو بأنهم كانوا يلتقطون أحيانا مثل هذا الإرسال حتى بمواقعهم في أقصى الشمال » .

نظر سين إلى ساعة معصمه وقال :

« لا أظن أن الجنرال تشاينا سيقوم بتسليتنا هذا المساء . ومن الأفضل أن نحزم أمتعتنا ونستق لمواصلة السير » .

كان سين على وشك أن يقف على قدميه عندما عاد الراديو فجأة إلى الحياة . هذه المرة ، كان الصوت واضحًا حتى أنهم كانوا يسمعون أنفسهم الجنرال تشاينا :

« مساء الخير يا كولونيل كورتني . أرجو المعذرة لتأخري عن الجدول المحدد ، لكن كان لدي عمل هام لأنجزه . تعال إليّ يا كولونيل كورتني ، أرجوك » .

وأثناء الصمت الذي خيم عليهم لم يقم سين بأي خطوة تجاه الميكروفون ، وسمعوا قهقهة خافتة لتشاينا عبر الأثير وهو يقول :

« ألا زلت عاجزًا أمام الكلمات يا كولونيل ؟ لا بأس . فإنني واثق من أنك تستمع إلي الآن ، لذا أبدأ بتهنئتك على الأرض التي قطعتها حتى الآن . فهذا شيء مذهل وخاصة إذا نظرنا لدور الآنسة مونتيرو في تأخير وإبطاء سيرك » .

همست كلوديا بمرارة :

« الوغد المتغطرس . ما هو إلا ذكر خنزير شوفيني حقير حتى النخاع » .

وواصل تشاينا :

« بمنتهى الصراحة أقول لك يا كولونيل كروتني : أنك فاجأتني حقًا . لقد أجبرتني على إعادة توزيع قولتي ونقاط التفتيش أكثر للجنوب حتى تقوم بواجبها بالترحيب بك » .

مرة أخرى ساد صمت وجيز ثم جاء صوت الجنرال تشاينا فجأة ، مليئًا بالحقد وتعمد الأذى:

« أتدري يا كولونيل إننا عثرنا على المكان الذي دفنت فيه المتابيلي » . شعرت كلوديا بسين وقد تجمد بجوارها وتيبس جسمه . وعم الصمت الجميع حتى قطعه حديث تشاينا مرة أخرى :

« لقد نبشنا القبر ووصلنا إلى تقدير الزمن الذي مضى على الدفنت من درجة تعفن الجثمان » .

بدأ سين يرتجف . ومضى تشاينا يتحدث بأنس وانشراح :

« فالمتابيلي يتعفن عادة مثل ضبع ميت ، ولم يكن صديقك استثناءًا حدثني يا كولونيل ، هل كانت تلك رصاصتك التي فجرت رأسه بها ؟ إنه شيء معقول جدًا أن تقوم بصرعه ، لأنه لم يكن قادرًا على قطع المشوار معك » وزمجر سين:

« الخنزير ! الخنزير الدموي ! » .

ثم ضحك تشاينا بخفة :

« أوه ، بالمناسبة ، لقد فشل شركك الخداعي الذي نصبته . إنه من عمل الهواة كما أظن . لكن لا تقلق بشأن المتابيلي فلقد سهلت الأمر على الضباع وأمرت اثنين من جنودي بتقطيعه (بالبانجاس) . قطع ذات حجم كبير يا كولونيل . حساء من لحم المتابيلي ! » .

اندفع سين نحو الميكروفون ووضعه أمام فمه وصاح فيه :

« أنت أيها الحيوان الدموي الفاسق ، أنت أيها الغول القذر ، عليك بحق المسيح أن تصلي لئلا أضع يدي عليك قط » .

ثم سكت سين ، وهو يلهث من فرط حنقه عليه .

كانت هناك ابتسامة على صوت تشاينا :

« شكرا يا كولونيل . لقد مللت التحدث مع نفسي . أنه لأمر طيب أن أتصل بك ثانية فلقد افتقدتك » .

ويجهد جبار قاوم سين رغبته في الرد عليه . وقام بدلاً عن ذلك بقفل الجهاز . كان صوته لازال مرتجفاً حينما قال :

« احزموا أمتعتكم فسيقوم تشاينا قطعًا بتحديد موقعنا بالضبط بعد هذا الإنفجار السريع وعلينا الإسراع بالخروج من هذه المنطقة » .

فوقفت كلوديا في طاعة لأمره وقالت بصوت مستسلم :

« كما كنا نجر أقدامنا من قبل ؟ » .

لكن تقدمهم كان بطيئًا تلك الليلة . فمرتين قبل منتصف الليل حذرهم متاتو للتوقف بعد قيام حاسته السادسة بإشعاره بالخطر الذي أمامهم . كان قد توجه للأمام ليستكشف الطريق ووجد الكمين الذي أعد لهم . وكانوا بالتالي مجبرين على الإلتفاف البطيء الخفي حول الكمين ليتجنبوه . وغمغم ألفونسو :

« إنهم جماعة الجنرال تيبوتيب ولابد أنه يساعد الجنرال تشاينا . فهناك رجال بنتظروننا على أي ممر أو معبر » .

لكن حظوظهم تغيرت للأحسن بعد منتصف الليل . فقد عثر متاتو على طريق مستخدم متجه مباشرة صوب الجنوب . واكتشف أنه ، ومنذ فترة وجيزة ، قد مرت عليه مجموعة كبيرة من الرجال ، وفي نفس الاتجاه الذي يسيرون فيه . وقال سين :

« سنستخدم أثر دربهم لنخفي أثرنا نحن » . وانتهز سين الفرصة ووضع متاتو في المقدمة ووراءه كلوديا ، أما هو والفونسو فقد مشيا وراءهما وتعمدا وضع أقدامهما على الأقدام الصغيرة لكلوديا ومتاتو لتختفي كل الآثار وسط علامات الأخفاف العريضة التي تركتها جماعة تيبوتيب وراءها .

أسرعوا عبر الطرقة حتى التقطت آذان متاتو الحادة الأصوات الخافتة الصادرة عن فصيل الرينامو المتحرك في صمت الليل وسكونه . ثم خففوا من سيرهم وتبعوهم من على بعد معقول في صمت ، تاركين لفصيل الرينامو ووقع خطاه إخفاء صوت تحركهم .

فمواصلة الاحتكاك أو الاقتراب من العدو ، والمحافظة على مسافة معقولة ،هي شيء بين المسافة التي تكشف عن وجودهم ، والمسافة التي تخفي ذلك وهي أمر مخيف ورهيف مما يدعو للاعتماد كلية على متاتو وقدراته الخارقة للسمع والإبصار ، والتي لولاها لما تمكنوا من المشي بهذه السرعة الجيدة .

وقبل وقت وجيز من بزوغ الفجر توقف فصيل الرينامو أمامهم تقريبًا فرقدوا متقرفصين في الظلام واستمعوا إليهم يخططون لإقامة الكمائن على جانبيي الطريق . وعندما استقرت الكمائن ، قام متاتو بقيادتهم بالتفافة واسعة أخرى حتى التقوا بالطريق مرة أخرى وواصلوا سيرهم نحو الجنوب .

وغمغم سين بعبوس ، رغم ارتياحه لما قطعوه من مسافة :

« لقد قطعنا ، على ما أعتقد ، خمسة وعشرين ميلاً . والآن وقد بدأت أول بوادر لضوء الفجر، وبدأت نجوم الشرق في الشحوب ، فلن نستطيع المخاطرة بالتحرك أثناء الضياء . فالريف يعج بأرتال الرينامو . عليك يا متاتو ، إذًا ، أن تجد لنا مكانًا نستلقى فيه أثناء النهار » .

خلال سيرتهم تلك الليلة ، وصلوا إلى منطقة ذات أراضي لينة مليئة بحفر ضحلة للمياه ، وذلك على مشارف نهر سيف . وقادهم متاتو الآن عمدًا إلى داخل الحشائش الطويلة النامية بالمستنقعات . غطسوا في الأراضي الفيضانية التي تحيط بالنهر حتى ركبهم وأخذوا يشقون طريقهم بين البرك الضحلة المكشوفة

التي امتلأت بسحب رمادية للناموس والبعوض . غطت المياه أي أثر لهم حيث كان سين يحرس مؤخرتهم ويعيد وضع حشائش المستنقع لما كانت عليه قبل مرور رفاقه حتى يخفي أي دليل عليهم .

وبعد بضع مئات من الياردات اكتشف متاتو جزيرة جافة صغيرة لا ترتفع عن مياه الفيضان بأكثر من بضع بوصات . وعندما تقدم متاتو نحوها سُمع صوت لتخبط عنيف وسط البوص عندما اندفع جسم ثقيل من خلاله .

صرخت كلوديا من الصدمة عندما تخيلت أنهم وقعوا في كمين قاتل آخر للرينامو ولكن متاتو لم يلق بالاً لها وانتزع سكينه من غمده ، وبصيحة الحرب الحادة غطس نحو الحشائش . كان هناك صراع عنيف بينه وبين جسم متلو مغطى بالقشور حجمه ضعف حجم متاتو .

اندفع سين لمساعدة متاتو . وبينهما معًا استطاعا أن يضربا ويطعنا ذلك المخلوق ، ثم اجراه خارج الحشائش نحو فضاء الجزيرة . اقشعر جسم كلوديا رعبًا عندما رأت أمامها احدى السحالي الرمادية الضخمة ، حوالي سبعة أقدام طولاً ، وذات بطن صفراء مبقعة وذيل طويل كالكرباج ، كان لا يزال يتلوى ويضرب الأرض من جانب لآخر .

وبصيحات الفرح بدأ متاتو في الحال في سلخ الجلد المغطى بالقشور . وتساءلت كلوديا :

« ما هذا الحيوان ؟ » .

فأجابها سين وهو يمسح مديته على بطن يده : « إنه اللوقان (الورل) ، ألذ ما يشتهيه متاتو من طعام » . ثم مضى لمساعدة متاتو في تقطيع ذلك الورل .

لحم ذيله كان أبيضًا مثل شرائح سمك موسى . وعندما قدم سين لها قطعة منه كشرت كلوديا وعبست وقالت لسين :

- أنت ومتاتو قد تأكلان حتى أولادكما .

- أهذا تقوله فتاة تتمشى دائمًا بديدان الموبين ؟

- سين . أرجوك . لا استطيع . لا أستطيع أن أجبر نفسي على ذلك . على الأقل، ليس نيئًا .

- ليس لدينا حطب ناشف للنار . كما إنك كنت تأكلين (الساشيمي) الياباني . أليس كذلك ؟ لقد أخبرتني من قبل بأنك تحبينه .

- لكن الساشيمي سمك نيئ وليس سحلية نيئة !

- نفس الفرق . تخيلي أنه ساشيمي إفريقي .

أخذ يلاطفها ويتملقها حتى استسلمت أخيرا وتذوقته . ولعجبها وجدت أن

طعمه مستساغًا وسرعان ما تغلب جوعها على حساسيتها تجاهه .

ولأول مرة منذ مدة إرتووا من الماء وملأوا بطونهم من اللحم الأبيض الطري . وسرعان ما التف كل منهم ببطانيته وأخلدوا للنوم ، بينما الحشائش الطويلة المتمايلة تحمي رؤوسهم من حر الشمس ومن عيون السماء الهايند . وشعرت كلوديا بالأمان واستسلمت للنوم .

استيقظت في منتصف النهار واستمعت للطائرة التي تفتش عنهم . وهمس سين لها :

« إن تشاينا يفتش في ضفاف النهر من أمامنا » . كان صوت محرك الطائرة يعلو وينخفض عندما تدور حول كل إلتفاف للنهر وتفتشه . وشعرت كلوديا بعضلات بطنها تتقلص وتتكمش كلما ارتفع هدير الطائرة ، والتي مرت من على مسافة قريبة منهم ، إلى الجنوب من مكانهم ، ثم تلاشى صوتها أخيرًا .

وطمأنها سين :

« لقد ذهب . حاولي إكمال نومك » .

واستيقظت مرة أخرى يغمرها إحساس بالرعب . وعندما حاولت أن تتحرك وجدت نفسها مثبتة على الأرض بقوة ويد رجل ما تضغط على فمها لمنعها من الصياح . وعندما أدارت عينيها جانبًا وجدت أنه سين . وجاءت أنفاسه الحارة على أذنها :

« اهدئي . لا تنبسي ببنت شفة » .

وعندما أومأت برأسها تخلى عنها وتدحرج على الأرض بهدوء وأخذ يترقب من خلال ستارة الحشائش المائية . ونظرت بدورها نحو مياه البحيرة الضحلة .

لم تر شيئًا في البداية . ثم سمعت شخصا يغني . كان غناء عذبًا لفتاة بنبرة عالية الطبقة ، وبأغنية حب شنقانية . ومع الغناء جاء صوت أقدام تخوض في مياه البحيرة الضحلة . اقترب الغناء عنها حتى أن كلوديا انكمشت تلقائيًا بالقرب من سين وكتمت أنفاسها .

وفجأة وصلت الفتاة المغنية إلى مجال الرؤية لكلوديا وذلك من خلال فتحة بين الحشائش .

كانت فتاة رشيقة جميلة القوام وقد جاوزت بالكاد سن المراهقة ، إذ أن ملامحها ، رغم أنها كانت حلوة وطفولية ، إلا أن نهديها كانا مستديرين كبيرين كقطع من شمام (التساما) . لم تكن ترتدي سوي مئزر لستر العورة ممزق ومربوط على حقويها وكان جسمها المتوهج تحت ضياء شمس الظهيرة المتأخرة بلون مولاس القصب . كانت تبدو متوحشة وعلى الفطرة وكأنها إحدى

الأرواح الهائمة في الغابات ، وأحست كلوديا في الحال بالإبتهاج والإرتياح لرؤيتها.

كانت تحمل بيدها اليمنى حربة خفيفة لصيد الأسماك ، ذات جوانبي مسننة كالشوك ، وعلى استعداد لرميها فور رؤيتها للسمكة .

وفجأة توقف الغناء من شفتيها وتجمدت للحظة ثم اندفعت برشاقة الراقصات . اهتز هود حربتها في يدها ، وبصرخة فرح خافتة رفعت على رأس الحربة سمكة قرموط لزجة طويلة من خارج الماء . تلوت السمكة على رأس الحربة وكان فمها العريض المملوء بالشوارب يفتح ويقفل ويغمغم وبدأت الفتاة تضرب الرأس العريض المسطح ثم ألقت بالسمكة في سلتها المصنوعة من قصب البوصي المضفور والمربوطة حول خصرها .

غسلت يديها لإزالة الإفرازات اللزجة للسمكة ثم تناولت حربتها وشرعت تفتش عن صيد جديد ومضت قدمًا حيث كانت جماعة سين جاثمة بلا حراك وسط كومة من حشائش المستنقع . ضغط سين بيده على ذراع كلوديا محذرًا لها ألا تتحرك . لكن الفتاة الشنقانية كانت قريبة منهم لدرجة إنها لو تحركت ببضع خطوات لتعثرت بهم .

وفجأة رفعت الفتاة رأسها ونظرت مباشرة إلى عيني كلوديا . حدقت كل منهن في الأخرى للحظات ثم استدارت الفتاة فجأة وولت هاربة وبسرعة خاطفة كان سين قد نهض وجرى وراءها ، كما نهض من على جانبي الحشائش كل من متاتو وألفونسو واشتركا في الطراد .

كانت الفتاة في وسط البركة قبل أن يصلوا إليها . وحاولت أن تدور وتعود من حيث أتت لكنها كانت أينما اتجهت تجد واحدًا منهم جاهزًا للقبض عليها وتوقفت محتارة ماذا تفعل . كانت تلهث من الرعب واتسعت عيونها بتوحش ، لكنها كانت تقبض بقوة على الحربة وبإصرار وعزيمة رغم أن معنوياتها لابد أن تكون قد تدهورت وهي ترى أمامها ثلاثة رجال يواجهونها وشعرت بأنها كقطة محاطة بالكلاب ولا مهرب أمامها .

تظاهر متاتو بالهجوم عليها من الجنب ، وفي اللحظة التي أدارت رأس الحربة نحوه ضربها سين من على يدها فطارت الحربة وأحاط سين الفتاة بذراعيه . ظلت تركله وتخمشه بأظافرها عندما قادها نحو الجزيرة وألقاها على الأرض الجافة . كانت قد فقدت سلة سمكها وأيضا دثارها أثناء مقاومتها ، فقبعت على الأرض عارية ترتجف وهي تنظر للرجال الذين أحاطوا بها .

تحدث سين إليها بلهجة ناعمة مهدئة ، لكنها امتنعت عن الرد عليها في البداية . ثم بدأ ألفونسو في استجوابها . وما أن تبينت الفتاة إنه من قبيلتها حتى

ظهر على ملامحها الإرتياح . وبعد بضعة أسئلة رقيقة بدأت تستجيب بأنفاس متقطعة ، وبعد تردد منها ، لاستجوابهم .

ولم تستطع كلوديا أن تخفى اهتمامها بشأن الفتاة فتساءلت :

ـ ماذا تقول ؟

فأجابها سين : « إنها تعيش في هذه المستنقعات لتختفي من أعين الجنود . لقد قتل الرينامو أمها ، أما الفريليمو فقد ساقوا أبيها وبقية أفراد عائلتها بعيدًا لقطع الأشجار بالغابة . لكنها فرت منهم » .

واصلوا استجواب الفتاة لساعة كاملة : كم يبعد النهر عنهم ؟ هل هناك مكان لعبوره ؟ كم عدد الجنود هناك على النهر ؟ أين يقطع الفريليمو الأشجار الآن ؟

وعندما كانت تجيب على كل سؤال كان الخوف يتلاشى تدريجيًا عنها . ويبدو أنها أحست بتعاطف كلوديا معها فأخذت تنظر إليها بنظرات طفولية حزينة مع نوع من الثقة فيها . وهمست الفتاة أخيرًا لها :

« إنني أتحدث بعض الإنجليزية يا آنسة » .

وصعقت كلوديا وسألتها :

« وكيف تعلمت هذه اللغة ؟ » .

ـ في الإرسالية وقبل أن يأتي الجنود ويحرقونها ويقتلون الراهبات » .

ابتسمت كلوديا لها وقالت :

« إن إنجليزيتك لا بأس بها . ما هو إسمك أيتها الطفلة ؟ » .

ـ ميريام ، يا آنسة .

تدخل سين محذرًا كلوديا بوجه عابس :

« لا داعي لهذه المودة الزائدة » .

ـ لكنها صغيرة مسكينة وحلوة .

أراد سين أن يرد عليها ثم رأى ألا داعي لذلك ونظر نحو الشمس الغاربة بدلا عن ذلك وقال :

« يا للعنة . لقد فاتنا موعد استقبال رسالة تشاينا . لنستعد للتحرك من هنا فقد حان الوقت للإسراع .

ويعد بضع دقائق كانوا قد حزموا متاعهم واستعدوا للسير . وأصلحت كلوديا حزمتها على كتفها وسألت : « وماذا بشأن الفتاة ؟ » . فقال لها سين : « سنتركها وشأنها هنا » . ولكن شيئًا في صوته ، والطريقة التي نظر بها بعيدًا

أقلق كلوديا . بدأت تمشي وراء سين عندما تجاوز اليابسة ودخل في الماء ثم توقفت ونظرت وراءها . كانت الفتاة السوداء لا زالت متربعة على الأرض وعارية ، وكانت تنظر في بؤس وحزن إلى كلوديا ، وكان متاتو واقفا وراءها وهو يحمل سكينه في يده اليمنى في إنتظار الإشارة .

غمرت الحقيقة الصارخة كيان كلوديا بغضب ثلجي رهيب وصاحت بصوت مرتجف منادية لسين :

« سين ! ماذا كنت ستفعل بهذه الطفلة ؟ » ..

فأجابها بجفاء : « لا تقلقي بشأنها » .

أخذ جسمها يرتجف وصاحت :

« متاتو ! ماذا تفعل ؟ » وعندما ابتسم متاتو نحوها مررت إصبعها على حلقها وقالت : « أتنوي أن .... ؟ » . أحنى متاتو رأسه بحبور وعرض السكين عليها لتراها وقال :

« أنديو ، كوفا » . كانت تعرف هذه الكلمة السواحيلية (كوفا) ، إذ كثيرًا ما استخدمها متاتو عندما كان والدها يطلق النار على الصيد وبعدها يتوجه متاتو لذبحه . وجدت نفسها تهتز بكامل جسمها من الغضب واندفعت نحو سين :

« إنك تريد أن تقتلها عمدًا » وكان صوتها يصرخ بالزعيق الحاد من شدة رعبها وغضبها .

ـ صبرًا كلوديا . أصغى إلي . لا يمكننا أن نتركها وراءنا . فإذا ما أمسكوا بها .... سيكون ذلك إنتحارًا .

صرخت في وجهه : « أيها الوغد ! إنك في نفسي مستوى رداءة أي وغد رينامو. إنك لست بأقل سوءًا من تشاينا نفسه » .

ـ إنها حياتنا التي على المحك . ألا تفهمين ؟ إنه بقاءنا من عدمه .

ـ لا أصدق ما أسمعه منك . مستحيل أن أحدق .

ـ هذه أرض قاسية لا ترحم . فإذا ما كان علينا أن نعيش ، فعلينا أن نتبع نفس أساليبهم ولن نستطيع إرتكاب حماقة الرحمة هنا .

ارادت أن تهاجمه بدنيًا وكورت قبضة يديها في محاولة للسيطرة على نفسها ولكن جاء صوتها يصرخ في حدة وقوة :

« الرحمة والضمير هنا ما يفرقان بيننا وبين الحيوانات » . ثم جذبت نفسًا عميقًا : « فإذا كنت تقدر الذي بيننا ، فلا تقل شيئًا آخر ولا تحاول أن تجد مبررًا لما كنت على وشك القيام به نحو هذه الطفلة » .

فسألها سين :

« هـل تفـضلين الوقـوع في أسـر الجنـرال تـشاينا ؟ فهـذه الطفلـة ، كمـا تسمينها ، لن تتردد في إرشادهم لمكننا بالضبط » .

- إياك يا سين ! إنني أحذرك . فأي شيء تقوله سيسبب دمار العلاقة التي بيننا بما لا يمكن إصلاحه مرة أخرى .

اقترب منها سين ليمسك يدها ويجذبها نحوه وقال :

« حسنًا إذن . ماذا تريدين منا أن نفعله لها ؟ سأنفذ كل ما تقولينه . فإذا ما أردت أن نطلق سراحها لتقوم بإبلاغ أول طوف للرينامو يقابلها فسأقوم بذلك » .

كانت كلوديا تقف متصلبة في دائرة ذراعيه . وبالرغم من أن الحدة التي في صوتها قد تلاشت، إلا أنها كانت باردة وعلى وجهه عزم وتصميم وقالت : « سنأخذها معنا » .

أطلقها سين ورمى بذراعيه في الهواء : « معنا ؟ » .

- هذا ما قلته . فإذا لم نستطع تركها وراءنا فإن هذا هو الحل الوحيد الممكن .

ظل سين يحملق في وجهها بينما مضت قائلة :

« لقد قلت بأنك ستنفذ كل ما أقوله . لقد وعدتني بذلك » .

فتح فمه ثم أغلقه ونظر إلى الفتاة السوداء . كانت قد فهمت بعض ما دار من جول بشأنها وما يكفي لأن تعرف بأن حياتها في مهب الريح ، وأن كلوديا هي راعيتها وحاميتها . وعندما رأى سين تعبير وجه الفتاة شعر فجأة فالخجل وبتأنيب الضمير والتقزز مما كان ينوي القيام به . كانت هذه المشاعر غير عادية بالنسبة إليه . فأثناء حرب الأدغال التي خاضها ، لم يكن فصيل الكشافة يترك وراءه أي شهود . هذه المرأة التي يحبها بدأت تغير من طباعه وتحوله إلى إنسان ناعم هين .

كان يفكر بهذه الصورة ثم ابتسم وهز رأسه : ولكن ، ربما كانت كلوديا ، ببساطة ، تعيده إلى إنسان ناعم هين .

كان يفكر بهذه الصورة ثم ابتسم وهز رأسه : ولكن ، ربما كانت كلوديا ، ببساطة ، تعيده إلى إنسانيته ؟

كان لا يزال مبتسمًا حين قال لها : « حسنًا . ستأتي الفتاة معنا ، ولكن بشرط أن تسامحينني » .

قبلته قبلة سريعة وباردة وقد أقفلت فمها وأدرك سين أن بعض الوقت سيمر قبل أن تعود إلى طبيعتها وتنسى غضبها . تركت سين وتوجهت نحو الفتاة

ورفعتها على قدميها . وتعلقت ميريام بها بعرفان كبير .

وأمر سين متاتو :

« ابحث عن مئزرها وأغمد سكينك . فستأتي الفتاة معنا » .

دارت عيون متاتو في محجريهما وغمغم مبديًا عدم موافقته . لكنه ذهب ليبحث عن القطعة الوحيدة التي تتدثر بها الفتاة .

وبينما أخذت ميريام تلف الإزار حول وسطها ، إتكأ الرقيب ألفونسو على بندقيته وأخذ ينظر إليها باهتمام . كان واضحًا إنه لم يكن غير سعيد بقرار الإبقاء على حياتها . لكن كلوديا لم تشعر بالإرتياح من نظراته التي صارت حامية وراعية لها ، وفتحت صرة حاجياتها الخاصة ، وأخرجت القميص الوحيد الذي تبقى لها ، والذي كان من ملابس الرينامو المموهة التي تسلمتها من مخازن تشاينا .

غطاها القميص حتى منتصف فخذيها مما أرضى مزاج كلوديا نحو الحشمة . أما ميريام فقد امتلأت غبطة وسرورًا ونسيت ما مر عليها من رعب قبل دقائق وأخذت تتمخطر في زيها الجديد وقالت لكلوديا :

« شكرًا لك يا دونا . شكرًا جزيلاً لك . أنت سيدة طيبة » .

وتدخل سين :

« حسنًا . انتهى عرض الأزياء الآن وعلينا مغادرة هذا المكان » . ثم أمسك ألفونسو بذراع ميريام .

الآن ، فقط ، عرفت الفتاة أنها ستذهب معهم . فجذبت يدها بعنف وانفجرت محتجة بانفعال عاطفي ودموعها تجري . وزمجر سين :

« يا للعنة ! هذه مشكلة جديدة وشائكة » .

فسألته كلوديا :

« ما هي ؟ » .

- إنها ليست وحيدة ، بل معها هناك آخرون .

- ظننت إنها فقدت والديها .

- هذا صحيح . لكن معها أخت وأخ مختبئين في المستنقعات . طفلان صغيران لا يستطيعان حماية أنفسهما ناهيك عن الدفاع عنها . يا للعنة ! يا للعنة ! والآن ماذا نفعل بحق الجحيم ؟

حددت كلوديا موقفها ببساطة وقالت :

« سنذهب للبحث عن الطفلين وسنأخذهما معنا » .

- طفلين ؟ أأنت مخبولة ؟ إننا لا ندير ملجأ للأيتام .

- هل نعود مرة أخرى لنفس الموضوع ؟

أدارت كلوديا ظهرها إليها بسخط وغضب وتناولت يد ميريام وقالت لها :

« لا بأس عليك فكل شيء على ما يرام . عليك أن تتقي بي وسنرعى شؤونكم جميعًا » .

هدأت الفتاة السوداء وحملقت في وجه كلوديا بافتتان وتوقير كالجرو الصغير . وسألتها كلوديا :

« أين الأطفال ؟ سنذهب لإحضارهما » .

قادتها ميريام من يدها نحو المستنقع :

« تعالي يا دونا وسأريك المكان » .

كان الظلام تامًا عندما وصلتا للجزيرة الصغيرة التي خبأت ميريام الطفلين، وسط تجمع غزير لبنات البردي ، فيها . وعندما أزاحت بيدها الفروع الخضراء الكثيفة حملق نحوهما زوجان من العيون السوداء الواسعة وكأنهما عيون أفراخ البوم في عشهما .

« هذا غلام » . ورفعته كلوديا إليها . كان في نحو الخامسة أو السادسة من عمره ، نحيلاً هزيلاً من الخوف .

« وطفلة » . كانت أصغر من الغلام ، لا يزيد عمرها عن أربعة أعوام . وصاحت كلوديا عندما لمستها :

« إنها تحترق من الحمى . هذه الطفلة في غاية المرض » . كانت الطفلة أضعف من أن تقف على قدميها وظلت ملتفة على نفسها وكأنها قطة تحتضر . فقد كانت ترتجف وتموء بصوت هادئ متصل.

وقال سين : « إنها الملاديا » وجلس بجوار الطفلة : « لقد كادت تقضي عليها » . فأجابته كلوديا :

« لدنيا كلوروكوين في الصندوق الطبي » . ومدت يدها للصندوق بينما زمجر سين ، « هذا جنون ! لا يمكن أن نتأخر بسبب هذه المجموعة . هذا كابوس ! » .

ردت عليه كلوديا بحدة : « أقفل فمك . كم حبة كلوروكوين أعطيها ؟ التعليمات تقول (للأطفال دون السادسة أرجع للطبيب) . شكرًا جزيلاً . سنجرب الآن حبتين » .

وأثناء إهتمامهما بالطفلة سألت كلوديا ميريام : « ما هي أسماء الطفلين ؟ ماذا تطلقين عليهما ؟».

كانت الإجابة طويلة ومعقدة وفترت همة كلوديا لكنها استعادت حيويتها بسرعة وقالت :

« لا أستطيع نطق هذه الأسماء . سنطلق عليهما اسم ميكي وميني » . تدخل سين محذرًا لها : «سيقوم والتي ديزني بمقاضاتك » . لكنها تجاهلته وقامت بلف ميني ببطانيتها . وقالت لسين بلهجة الأمر الواقع :

« ستقوم أنت بحملها » . لكنه قال لها محتجًا :

« إذا ما تبولت الشحاذة الصغيرة فوقي فسأحطم عنقها » . وواصلت تعليماتها : « وعلى ألفونسو أن يحمل ميكي » .

كان واضحًا لسين أن غرائز الأمومة لدى كلوديا قد ثارت فيها وأيقن أن امتعاضه من هذا العبء الإضافي الذي ألقي عليهم قد لان وتلطف من جراء المسؤوليات الجديدة التي اندفعت كلوديا نحوها . فقد زال عنها ذلك الإرهاق والفتور الذي لازمها منذ وفاة جوب وعادت الآن أكثر حيوية ونشاطًا .

رفع سين الطفلة ، العديمة الوزن تقريبًا ، على ظهره ولف جسمها بجزء من البطانية . تسللت حراة جسمها خلال البطانية وكأنها زجاجة من الماء الحار لفت بها . أما الطفلة فسرعان ما هدأت وانتابها النعاس ، فقد كانت معتادة على حملها بهذه الصورة منذ ولادتها . لكن سين هو الذي كان يغمغم متذمرًا :

« لا أصدق حتى الآن ما يحدث لي ! أأكون ممرضة ملعونة غير مدفوعة الأجر وفي مثل سني هذه ؟ » . ورغم ذلك وجد نفسه مندفعًا في طريقه داخل المستنقعات .

وقبل أن يمضي نصف الليل ، كانت ميريام قد أثبتت جدواها لدرجة فاقت كل العبء الإضافي الذي شكلها وجود الطفلين على القافلة . فقد كانت تعرف تمامًا مناطق النهر وأنحائه وكأنها من المخلوقات التي تسكن تلك المستنقعات . كانت تتقدم الجميع ، ومعها متاتو ، وتقودهم عبر متاهات الجزر والبرك والمستنقعات وتدلهم على الممرات المجهولة والسرية مما وفر لهم ساعات وساعات من الاستكشاف المرهق .

وبعد منتصف الليل بقليل ، وعندما انتصب أوريون ، الصياد الأكبر ، على السماء فوقهم مباشرة ، شارعًا قوسه المشدود ، وحوله النجوم اللامعة ، كانت ميريام قد قادتهم لخارج تلك المتاهات وأرحلتهم لشاطئ نهر (ريو سيف) وأشارت إلى موضع يستطيعون من خلاله حوض النهر إلى الشاطئ البعيد الآخر .

جلسوا للراحة ، بينما شرعت النسوة في رعاية الأطفال وإطعامهم بشرائح من لحم اللجوانا . كان الكلوروكوين قد أظهر مفعوله وأخذ جسم الطفلة يبرد تدريجيًا وصارت أقل قلقًا ونكدًا . أما الرجال ، فقد تناولوا وجبة سريعة ثم

أخفوا أنفسهم وسط حشائش البوص وحقول البردي وأخذوا يمعنون النظر عبر المياه السوداء التي انعكست على سطوحها نجوم السماء وكواكبها وكأنها الذباب المنير . وهمس سين لرفاقه :

« هذه هي أخطر نقطة أمامنا . وقد كان تشاينا يطوف حول النهر بحوامته طوال نهار الأمس وسيعود ثانية عند أول ضوء صباح اليوم . علينا ألا نضيع أي وقت في هذا المكان ويجب أن نقوم بعبور النهر والإبتعاد عنه تمامًا قبل شروق الشمس » .

تظاهر ألفونسو بالثبات والرزانة وهمس :

« سيكونون في انتظارنا على الجانب الآخر البعيد . إنهم يتوقعون وصولنا إليهم هناك » .

أيده سين : « هذا صحيح . إنهم هنا لكن المهم إننا نعرف بوجودهم هنا . سنترك النسوة هنا ، ونمضي نحن سويًا لتنظيف الضفة الأخرى . لن نستطيع استخدام الأسلحة النارية . ومن ثم علينا الاعتماد على السكين والسلك الخانق . هذه الليلة ستكون الليلة المبللة اللينة » . استخدم سين تعبير فرقة الكشافة القديم : (سبنزا إنامانزي) ، « ومهما كان أسلوبنا المستخدم فستكون عمليتنا لينة مبللة » .

كان سلك سين الخانق من الصلب غير القابل للصدأ ، يبلغ طوله أربعة أقدام ، وهو ذلك السلك الذي كان سين قد قطعه من كيبل الرافعة الخاصة بطائرة الهيركيوليس قبل أن يهجرها . وكان جوب قد شذب قطعتين ، كالأزرار ، من أصلب الخشب وثبت كل قطعة بقوة على أحد طرفي السلك حتى تكون مناسبة للقبض عليها باليد بدون أن تنزلق . كان السلك مرنًا بحيث يلتوي حول نفسه ليصبح بحجم قطعة دولار فضية ومن ثم حشره سين ، بعد إتمام تجهيزه كسلك خانق ، داخل جيب القنابل على حزامه في ذلك الوقت حيث ظل بمكانه حتى الآن .

أما الآن فقد أخرجه سين من جيبه وفرده وجرب قوته بأن قبض على الزرارين بيديه وشده بقوة . واطمأن سين إليه تمامًا ثم أعاد لفه هذه المرة حول رسغ يده اليسري كالسوار حول المعصم.

خلع الرجال الثلاثة ملابسهم تمامًا ، فالملابس المبللة تعمل على تنبيه العدو عندما ينقط الماء منها على النهر ، أو تعطي العدو ما يمسك به عند الصراع يدًا بيد . كما وضع كل رجل منهم سكينه معلقة على عنقه .

إنزلق الرجال الثلاثة في الماء بهدوء وبدون صوت . وأخذوا يجدفون ، مثلما تسبح الكلاب وتجدف ، وهم على مقربة من بعضهم البعض ، وتركوا التيار

يحملهم حتى خرجوا من المخاضة وعبروا للشاطئ الآخر .

هبطوا على حقل للبردي على الضفة الجنوبية للنهر وانزلقوا على بطونهم حتى الشاطئ . ولما كانت بطن سين البيضاء العارية تلمع تحت أضواء النجوم فقد قام بتقليب نفسه على طين المستنقع اللزج الأسود حتى غطى أي بوصة من جسمه به ، ثم تناول قبضة كبيرة من الطين ومسح بها جوانب وجهه وجبهته وذقنه . وسألهما بهدوء : « جاهزان ؟ هيا بنا » .

ثم أخرج كل منهم سكينه من غمدها ، وبدأوا في التقدم بعيدًا عن النهر وداروا باتجاه التيار نحو إحدى المخاضات . كانت المستنقعات في معظمها تقع على شمال النهر ، أما هذا الجانب منه فكان أكثر جفافًا وكانت الغابات تنمو عليه وتصل إلى الشاطئ .

ظلوا تحت الأشجار مختبئين لفترة ثم توجهوا نحو المخاضة بحذر وهم منتشرون . بقي سين في الوسط بينما كان ألفونسو ومتاتو على الأجناب .

شم سين رائحة الرينامو حتى قبل أن يراهم . جاءته رائحة التباكو المحلى ودخانه التافه الرائحة ، كما اشتم رائحة العرق على الملابس المتسخة غير المغسولة . وتجمد في مكانه تمامًا ، وأخذ يصغي ويحدق أمامه مركزًا كل روحه في هذا التحديق .

ومن أمامه مباشرة ، في الظلام ، سعل رجل بهدوء وتنحنح منظفًا لحلقه . وحدد سين مكانه بدقة . غطس في الأرض ولمس التراب بيديه ثم بدأ يستكشف الخطوة القادمة له على الأرض بيديه حتى لا يتسبب فرع أو غصن أو ورقة جافة في الكشف عن مكانه . وخطوة حذرة تلو أخرى كان يتحرك للأمام حتى انعكس خيال رأس الرينامو تحت ضوء النجوم . كان جالسًا خلف مدفع آلي آر بي دي مثبتًا على حامله بالأرض . وكان الجنوبي يحدق أمامه عبر النهر .

انتظر سين في مكانه ومرت الدقائق بطيئة ، خمسة ثم عشرة دقائق ، وكل دقيقة منها كالدهر في طولها ، ثم جوزي صبره :

فقد تثاءب رجل آخر وتمدد على الجانب الأيسر منه وسرعان ما جاء صوت رجل ثالث محذرًا له في غضب هامس لأن يلزم الصمت .

حفظ سين مكان كل رجل منهم ثم انسحب بنفس الهدوء والحذر الذي جاء به . وعند حافة الغابة وجد ألفونسو في انتظاره . وبعد دقائق أخرى لحق متاتو بهما .

وهمس ألفونسو لمتاتو : « ثلاثة » . وأجابه سين : « نعم ثلاثة » أما متاتو الذي لا يخفى عليه شيء فعارضهم جميعًا وقال : « أربعة رجال ! فهناك رجل رابع أسفل الشاطئ مباشرة ! » .

قبل سين تقدير متاتو بدون مناقشة . بدا على سين الإرتياح من وجود أربعة فقط من الرينامو بالكمين فقد كان يتوقع عددًا أكبرًا منهم . لذا خمن بأن تشابنا لابد قد قام بتوزيع رجاله . بمجاميع صغيرة ، ليغطي كل الممرات والمخاضات التي على هذا الجانب من النهر .

وحذر سين رفاقه بالتزام الصمت الشديد وقال :

« طلقة واحدة وسيرقص كل الجيش رقصة الحرب على أعقابنا . متاتو : عليك الإنتهاء من الرجل الذي حددت موقعه أسفل الشاطئ . ألفونسو : عليك بالرجل الذي تحدث والمختبئ بداخل البوص . أما أنا فسأنتهي من الإثنين الذين في الوسط » . ثم قام بفك السلك من رسغه وشده مرة أخرى واختبر قوته بين يديه حتى ارتاح وتعود عليه تمامًا . وقال لهما :

« انتظراني حتى تسمعا الهواء عندما ينفخه الرجل الأول ثم يهاجم كل منكما هدفه » . ثم مد يده ولمس أكتافهما ، بنفس الطقوس القديمة ، وافترقوا واختفوا في ظلمة الليل متجهين إلى النهر .

كان جندي المدفع الآلي قابعًا في مكانه الذي تركه فيه سين . ولكن ، وعندما تحرك سين من خلفه ، غطت السحب النجوم مما أجبر سين على التوقف حتى تتضح الصورة أمامه ، رغم أن تأخير ثانية واحدة قد يتسبب في الكشف عنهم وكان يصارع الحافظ الذي يدفعه للعمل ولو بحاسة اللمس فقط . لكنه سيطر على دوافعه وصبر . وعندما إنزاحت السحب اغتبط لأنه صبر . فقد أزاح الحارس غطاء رأسه وأخذ يحك مؤخرة عنقه ؛ تلك اليد الممدودة كان يمكن أن تعيق السلك الخانق من إنجاز القتل السريع المطلوب وسيكون هناك إستغاثة وصراخ وإطلاق نار وسيصل إليهم في الحال أي رينامو على بعد أميال منهم ويطبق عليهم .

انتظر حتى انتهى الحارس من هرش مؤخرة رأسه وأعاد غطاء رأسه في مكانه . وعندما أنزل يديه وصل سين من ورائه ولف السلك الخانق حول رقبته في لفة واحدة سريعة . وفي نفس اللحظة جذب السلك بكلتا يديه وبكل قوة بينما ضرب بركبته اليمنى الرجل بين لوحي كتفه . قطع السلك اللحم فالقصبة الهوائية وكأنهم قطعة من جبن الشيدار . أحس سين بتوقف السلك للحظة عندما اصطدم بعظام فقرات عنقه فأخذ يحرك السلك كالمنشار يمينًا وشمالاً وهو يشد بكل قوته بينما ركبته تضغط الجندي للأمام .

وجد السلك المنطقة الغضروفية بين الفقرات ودخل خلالها . طار رأس الرجل في الحال وسقط منذ حرصا على حجره . ثم خرج صوت الهواء المندفع منه . اندفع الهواء من رئتيه من خلال القصبة الهوائية المفتوحة في تنهيدة خافتة . وكان

هذا هو الصوت الذي انتظره كل من متاتو وألفونسو . كان يعلم بأنهما يجهزان على ضحيتهما في هذه اللحظة رغم أنه لشدة توتره لم يسمع أي صوت إلى أن وقع الرجل الذي قتله للأمام وبدأ الشريان السباتي يفرغ الدم على الأرض بهسيس منتظم وكأنه صوت اللبن الذي تعتصره ، من حلمات البقرة ، أصابع إمرأة متمرسة على وعاء الحليب .

نبه الصوت رجل الرينامو الرابع ، الوحيد الذي بقي حيًا ، فنادة بلهجة منزعجة مدهوشة :

« ألفيز ! ما الأمر ؟ ماذا تفعل ؟ » .

هذا السؤال قادسين إليه . أخرج سكينه من غمدها وأمسك بها تحت يده . وبحركة خاطفة غرز نصلها بزاوية حادة تحت أضلع الرجل بينما شل حركته بيده اليسرى التي أطبقت على عنقه ومنعته من الصراخ والاستغاثة . في نفس الوقت كان سين يعمل بسكينه على الرجل موسعًا الفتحة وهو يحركها في بطنه وجوفه بكل ما في يده اليمنى من قوة .

وخلال ثلاثين ثانية كان كل شيء قد انتهى . إنتقض الرجل وارتعش رعشة الموت فأطلقه سين ووقف من فوقه . كان متاتو واقفا بجواره وسكينه مشرعة جاهزة للتدخل وكانت يداه وسكينه مبللتين بالدماء . كان قد أنجز مهمته وأسرع نحو سيده لمعاونته . ولكن لم يكن هذا ضروريًا الآن .

انتظرا لدقيقة كاملة وأصغيا لأي حركة أو إنذار . فربما كان هناك حارس آخر لم يفطن إليه متاتو . لكنهما ، بخلاف نقيق الضفادع في حقول البوص وهسيس أسراب البعوض ، لم يسمعا أي صوت .

وأمر سين رجاله بتفتيشهم وأخذ النافع من أسلابهم . أخذوا معهم بندقية واحدة وكل الذخائر ونصف دستة من القنابل اليدوية وبعض الملابس وكل الطعام . وجمعوا كل الغنائم بسرعة كبيرة ثم اكتفى سين بذلك وأمر بطمر بقية الأشياء والتخلص من الجثث .

جروا الجثث نحو ضفة النهر ودفعوها نحو التيار ثم ألقوا بالمدفع الآلي الثقيل وبقية المعدات بداخل المياه العميقة وراء البوص . ونظر سين إلى ساعته وقال :

« إن الوقت ليس في صالحنا وعلينا الإسراع بإحضار النساء والأطفال » . كانت كلوديا وميريام والطفلين في مكانهم وسط البوص حيث تركوهم وضمت كلوديا رجلها بسعادة وارتياح وسألته :

« ماذا حدث ؟ إننا لم نسمع أي شيء » . فأخبرها سين :

« لا شيء لتسمعينه » . ثم تناول الطفلين النائمين ، كل منهما بذراع من

ذراعيه .

كونوا ، عبر التيار ، دعامة عمودية بشرية متساندة وقد أطبقت يد كل منهم على ذراع الآخر وهم ملتصقون ويخوضون في الماء الذي وصل إلى ذقن كلودا . فيدون هذا التساند ربما اكتسح ذلك التيار النساء . وحتى بعد هذه الكتلة البشرية المترابطة فإن عملية العبور كانت شاقة خطرة ، وسرعان ما وصلوا للشاطئ الجنوبي للنهر ، يجرون أرجلهم جدًا من الإرهاق .

لم يتركهم سين ليرتاحوا أكثر من الوقت اللازم لتجفيف ميني ولفها في سترة من الأسلاب التي غنموها من أحد قتلى الرينامو ، ثم انطلق بهم مرة أخرى ودفعهم دفعًا خلال الغابة ونبههم :

« لابد أن نتخلص من منطقة النهر قبل شروق الشمس فسوف يظهر تشاينا فور ظهور الضياء» .



رأى الجنرال تشاينا مجموعة الرجال الواقفين على الشاطئ من طائرته على ارتفاع مائتي قدم . وعندما خفضت المروحية سرعتها واتجهت نحوهم ، تموجت مياه النهر وتدافعت بلون داكن من جراء الهواء الشديد المندفع أسفل مراوحها .

وجه الطيار البرتغالي مروحيته إلى طرف الغابة المحاذية للشاطئ وهبط عليها . وقام تشاينا بالقفز من قمرة الأسلحة وتوجه بخطى سريعة باتجاه النهر . وبينما لم يظهر أي تعبير على قناع وجهه ، إلا أن الغضب كان يغلي من خلف مظهره الجامد وعيونه البراقة التي كلنها تطلق الشرز لذا تناول نظارته السوداء من جيب سترته وأخفى عيونه وراء عدساتها .

وسع الرجال دائرتهم احترامًا له ، وخطى تشاينا نحوهم ثم نظر إلى الرأس البشري المقطوع ، الراقد على الضفة الموحلة . كان الرأس مغسولاً نظيفًا من جراء مياه حقل البوص ، كما قامت سرطانات الماء وحشراته بتنظيف أطراف الرقبة المقطوعة ، بينما غسلت المياه ما تبقى من لحم حتى ابيض لونه وغطت الأعين بلون رخاص جامد . لكن القطع النظيف التي تسبب في فصل ذلك العنق كان يدل ، بما لا شك فيه ، إنه من عمل شخص معين ، وكأن ذلك الفاعل قد ترك توقيعه على ضحيته .

وقال تشاينا بصوت خافت :

« هذا من عمل الرجل الأبيض ، وقد كان كشافوه يسمون ذلك (بالعمل اللين) . فالسلك الخانق كان العلامة التجارية لهم . متى حدث ذلك ؟ » .

فأجابه تيبوتيب وهو يمشط لحيته الكثة بانزعاج وتوتر :

« مساء أمس » .

لم يكن هناك أي شهود من رجال الكمين . ولا أي واحد منهم حتى يجعل منه مثلاً يذكر وعبره لمن يعتبر .

واتهمه تشاينا ببرود :

« وسمحت لهم بالمرور من هنا ؟ . لقد التزمت لي جازمًا بأنهم لن يعبروا هذا النهر » .

زمجر تيبوتيب وهو يلعن رجاله :

« هؤلاء الكلاب ! هؤلاء الخنازير الذين لا يرجى منهم ! » .

لكن تشاينا واصل هجومه البارد :

« لكنهم من رجالك . والرجال في العادة يقتدون برؤسائهم وقادتهم . إن فشلهم هو من فشلك يا جنرال » .

قيل هذا بمحضر من رجاله وجنوده وأركانه هو . دمدم تيبوتيب من الهوان والتحقير الذي لحقه . لقد التزم فعلاً لكنه فشل في الإيفاء بالتزامه . والآن أخذ جسمه يهتز ويرتجف من الغضب . نظر لمن حوله من الرجال بعيون ترمي بالشرر مفتشًا عن ضحية يفرغ فيها غضبه ، لكنهم جميعا خفضوا عيونهم وظهر على وجوههم الذي والطاعة والخنوع . ولم يجد فيهم أي راحة أو فش لغله.

وفجأة حرك رجله اليمنى للخلف ثم ركل الرأس المقطوع ركلة هائلة . وحطمت مقدمة حذائه ، المحمية بقطعة من الحديد الصلب ، أيضا الأنف الطري المشبع بالمياه وأخذ تيبوتيب يصيح « الكلب ! » . ثم يركل الرأس من جديد حتى طار متدحرجًا على الشاطئ . لكنه تبعه وهو يصرخ من فرط الغضب ويواصل تصويب ركلاته العشوائية القوية عليه حتى قفز ما تبقى من الرأس كالكرة من على الشاطئ وسقط في النهر .

ثم عاد راجعًا للجنرال تشاينا وهو يلهث من فرط الغضب . وقابله تشاينا بإطراء ساخر :

« جميل جدًا يا جنرال . في منتهى الشجاعة ولكن وا أسفاه ! إذ لم تتمكن من عمل نفس الشيء للرجل الأبيض » .

بدأ تيبوتيب الإجابة بقوله : « لقد وضعت حراسة على أي معبر بالنهر ...... » ثم توقف عندما رأى الجرح العميق ، المخاط بخشونة واستعجال ، على وجنة تشاينا للمرة الأولى . وابتسم بقسوة المنتقم وقال له :

« لقد جرحت يا أخي . يا لسوء الحظ . إنها لم تكن بسبب الرجل الأبيض . أم كانت بسببه فعلاً ؟ بالتأكيد لا . فأنت أكثر دهاء وحيلة من أن تسمح له

بإيذائك يا جنرال تشاينا ، بدون الإشارة إلى أذنك بالطبع ! » .

وجاء دور تشاينا لينفث غضبه :

« فقط إذا ما كان جنودي هم الذين هنا . فهؤلاء الكلاب الحمقى من رجالك لا يعرفون حتى هرش ظهورهم » .

زأر تيبوتيب وزمجر في وجهه :

« واحد من رجالك هو جاسوس خائن وهو يجري الآن مع الرجل الأبيض . أما رجالي فليس فيهم خونة ، فأنا أمسك بهم بين يدي بقوة » . ثم من مخالبه تلك ، التي تغطي يده ، نحو تشاينا وهزها أمام وجهه ، لكن تشاينا أغمض عينيه وجذب نفسًا عميقًا . لقد عرف أنهما سيضلان إلى نقطة اللاعودة بعد كلمة واحدة أخرى . فإذا ما تبادلا كلمة أو أكثر من هذه الشاكلة فلن يحصل على أي تعاون في المستقبل من هذا القرد العملاق الملتحي . « يومًا ما سأقتله لكنني أحتاج إليه في هذا اليوم » .

فأهم شيء في عالم الجنرال تشاينا اليوم هو أن يضع يده على الرجل الأبيض ، حيًا إن أمكن ذلك وإلا فميت إذا لم تكن هناك فرصة لحياته . وبدون مساعدة تيبوتيب فلن تكون لديه فرصة له فيه حيًا أم ميتًا . أما عن غضبه ورغبته في تأديب تيبوتيب ، فإن عليه الإنتظار لوقت آخر ولمناسبة أخرى .

وتحدث تشاينا بلهجة تصالحية أقرب منها للتواضع :

« جنرال تيبوتيب . أرجوك أن تغفر لي تجاوزي . فلقد سمحت لخيبة أملي أن تطغى على حقيقة شعوري تجاهك . إنت أعلم بأنك بذلت ما في وسعك من أجلي . إننا ، أنا وأنت ، ضحايا العجز رجالنا وضعف قدراتهم . لذا أرجوك أن تتجاهل ما بدر مني من سلوك غير طيب » .

أخذ تيبوتيب على غرة ، مثلما أراد تشاينا ، وماتت الأقوال الغاضبة ، التي كان على وشك أن يقذفه بها ، في فمه المفتوح .

وقال تشاينا له :

« وبالرغم من عدم استطاعة أولئك الأغبياء إيقافهم ، فإننا ، وعلى الأقل ، نعرف مكان الهاربين بالضبط . فلدينا آثارهم الطازجة ، ويوم شمس كامل لتتبعهم . لذا علينا الإستفادة الكاملة من هذه الفرص المتاحة أمامنا ولننتهي من هذا الأمر المتعب . بعد ذلك سأكون أنا ومروحيتي تحت أمرك تمامًا لتنفيذ المهمة الغالية التي في انتظارنا » .

عرف إنه اختار الكلمات المناسبة للفرص . فقد أخلى غضب تيبوتيب المكان تدريجيًا ليحل محله ذلك التعبير المستتر للجشع والطمع الذي يعرف

تشاينا عنه تمامًا . وقال تيبوتيب :

« لقد استدعيت بالفعل أفضل من لدى من قصاصي الأثر . كما سيكون معهم هناك خمسون آخرون وراء أثرهم ، خلال ساعة من الآن . رجال يمكنهم اللحاق بأقوى الظباء جريًا ، وسيكون الرجل الأبيض في قبضتك قبل غروب شمس اليوم ، وهذه المرة لن ترتكب أي أخطاء .

- وأين قصاصوا الأثر هؤلاء ؟

- لقد اتصلت بهم بالراديو .

- يمكنني إرسال الهايند لإحضارهم .

- هذا ما سيوفر لنا وقتًا ثمينًا .

أخذوا ينظرون للطائرة وهي تقلع وتتوجه نحو الشمال وهي تطير على ارتفاع منخفض فوق المياه الداكنة الجارية لنهر سيف . وعندما اختفت عن الأنظار استدارا ونظرا صوب الجنوب . وعلق تشاينا :

« أظن إنك لم تعد مسيطرًا على إقليم جنوب النهر . فهناك تقع الغابات التي قمت بذكاء شديد بتركها للفريليمو » ثم أشار إلى الأشجار الغزيرة ذات الأخشاب الثمينة الصلبة التي يصل طولها العظيم إلى السماء .

أذعن تيبوتيب وقال بتردد :

« النهر هو جبهتي الأمامية . لكن أقرب قوات للفريليمو هي على بعد عدة أميال بعيدًا إلى الجنوب . وتقوم فرقي الإستكشافية بتغطية هذه المناطق بدون أي تدخل منهم . أما الرجال الذين سأرسلهم وراء الرجل الأبيض فسيمسكون به قبل وقت طويل من وصوله إلى الأراضي التي يسيطر عليها الفريليمو » .

ثم توقف تيبوتيب وأشار إلى ضفة النهر فجأة : « آه ! ها قد حضروا » .

جاء طابور مزدوج من الغوريلا المدججين بالسلاح جريًا عبر الدرب المطروف باتجاههما : «خمسون من أفضل رجالي . ستتعشى الليلة بفراخ بيضاء يا صديقي . لا تقلق . اعتبر أنهم بالفعل على مائدتك الآن » .

توقف فصيلي الرينامو وجلسوا على الشاطئ ، في انتظار قصاصي الأثر . كان تشاينا يتميز بمعرفته لخصائص المقاتلين والحكم عليهم . فمضى الآن متجولاً بينهم ، وعرف فيهم ذلك الحماس والتحفز الذي يتصف به محاربوا الأدغال من جراءِ الإنضباط والاحتراف الذي حولهم ، عبر السنين ، إلى مقاتلين أشداء من الدرجة الأولى . ولأول مرة يتفق مع تيبوتيب . فهؤلاء رجال أقوياء يمكن الاعتماد عليهم لإنجاز المهمة المقلقة له . ثم استدعى تشاينا إليه قادة الفصائل وسألهم :

ـ أتعرفون من تطاردون ؟ » . وأحنوا رؤوسهم .

ـ الرجل الأبيض خطير وكأنه فهد جريح . لكنني أريده حيًا . هل تفهمون ذلك ؟

ـ نعم نفهم ذلك يا جنرال .

ـ لديكم جهاز إرسال . أريد تقريرًا للإنجاز على رأس كل ساعة وعلى موجة القيادة .

ـ حاضر يا جنرال .

ـ وعندما ترون الهدف بأعينكم اتصلوا بي وسأحضر لكم فورًا على الهنشاو . أريد أن أكون حاضرًا عند إهلاككم .

نظر قادة الفصائل صوب النهر وعلى وجوههم تعبير يدل عن اليقظة والتصميم . وبعد لحظات ، وبالرغم من سمعه المعطل ، التقط تشاينا صوت صفير محرك الطائرة راجعة من الشمال .

وقال تشاينا لقادة الفصائل محذرًا ومرغبًا :

« إذا ما قمتم بمهمتكم على الوجه الأكمل فستتم مكافأتكم . أما إذا خذلتموني فستندمون على ذلك . ستندمون بشدة على ذلك » .

وعندما هبطت المروحية على الأرض قفز منها بخفة إثنان من قصاصي الأثر كانا بالكبينة الخلفية . وصاح تيبوتيب مناديًا لهما وأشار إلى الدرب الذي خلفه سين وجماعته وراءهم .

زاد اطمئنان تشاينا وثقته في القصاصين عندما رءاهما يعملان . لقد كانا يتقنان عملهما تمامًا . قاما بإلقاء نظرة حول أثر الدرب ثم عادا بسرعة إلى بداية الأثر وجلسا على الأرض من حوله وهما يتبادلان الهمس ثم يقومان بلمس الآثار الباهتة التي أمامهما بأعواد خضراء لينة من الصفصاف البري كانت بأيديهما . وكان عيونهما عزم وتصميم وكأنهما كلبا صيد اشتما رائحة الطريدة .

وعندما نهضا مرة أخرى تغيرت تعابير وجهيهما واتخذت طابعًا عمليًا واقعيًا . ثم توجها صوب الغابات الجنوبية وهما يجريان .

ومن ورائهما انتشر الفصيلان الكاملان للرينامو بشكل مروحي وبدأوا في الجري من روائهما بنفس التشكيل المنتشر .

وعلق تيبوتيب بشغف :

« لن تستطيع المرأة البيضاء أن تسابق هؤلاء وبالتأكيد سيتم القبض عليهم قبل وصولهم لخطوط الفريليمو وسنتسلمهم قبل نهاية هذا اليوم ، ولن يفلحوا في الهروب منا هذه المرة » . ثم التفت نحو تشاينا :

« لماذا لا نتبعهم على المروحية ؟ » .

تردد تشاينا . فهو لا يرغب في أن يعرف تيبوتيب مواطن الضعف بالهايند . ومن الأفضل له أن يستمر تيبوتيب في اعتقاده بأن الطائرة لا عيب فيها وأنه لا مثيل لقدراتها . إنه لن يحدثه عن صعوبة توفير الوقود اللازم لها ، ولا عن مدى طيرانها المحدود حتى لو كانت خزاناتها مليئة تمامًا بالوقود ، ولا عما قاله له مهندس الطائرة البرتغالي محذرًا بأن المحركات قد تجاوزت الفترة المحددة لعملها وضرورة مراجعتها وتعميرها ، وهو الأمر الذي أكرم له الطيار بدوره عندما أشار إلى ضعف في قوة المحرك الأيمن .

لذا رد عليه تشاينا بقوله :

« إنني أفضل الانتظار هنا . وعندما يلحق رجالك بالرجل الأبيض فسيتصلون بي عن طريق الراديو وفي هذه الحالة سألحق بهم » .

ارتدى تشاينا نظارته السوداء ومشى بخطى وئيدة نحو المروحية . كان الطيار واقفًا بانتظاره ، ومتكئًا بنوع من اللامبالاة على جسم الطائرة المموه بالطلاء ، بأسفل قمرة القيادة . وسأله تشاينا بالبرتغالية :

« ما هي حالة المحرك ؟ » .

- لقد بدأت المحركات تندفع فجأة أو تتجاوز دورتها وتحتاج إلى مراجعة سريعة .

- وماذا عن الوقود ؟

- الخزانات الرئيسية مليئة حتى ربعها لكنني على كل حال أحتفظ بالخزان الاحتياطي جاهزًا .

- ستصل قافلة الحمالين ومعهم الوقود قبل صباح الغد إلى قاعدتنا الأمامية أما المهندس فيمكنه مراجعة المحركات مساء اليوم . لكنني ، منذ الآن وحتى المساء ، أريد الطائرة جاهزة وعلى استعداد تام حيث أنني سأحتاج إليها عندما يلتقي كشافونا مع أولئك الهاربين .

هز الطيار كتفه وقال :

« الأمر لك . وسأطير بها إذا كنت مستعدًا لكافة الإحتمالات لذلك المحرك » فوافق تشاينا وأمره بقوله :

« راقب الراديو جيدًا واستمع له . فإذا ما واتانا السخط ، فسينتهي كل شيء خلال ساعات ».



أدرك سين أن كلوديا لن تستطيع الإستمرار بهذه السرعة لأكثر من ذلك .

كانت تجري أمامه مباشرة ، وكان بمقدوره أن يدرس التغييرات التي طرأت عليها من جراء ما لاقته من الحرمان والعيش الشاق . كانت قد صارت نحيلة وهشة حتى أن قميصها المتهرئ الممزق صار يرفرف حول أجنابها كما تحولت أرجل بنطلونها إلى مزق متعلقة بوسط فخذيها ، من جراء الأشواك والحشائش الحادة الأطراف مثل الموس . أما رجليها فقد بدا وكأن سيقانها الطويلة أصلا قد ازدادت طولاً من شدة نحولهما . لكن ، ورغم ذلك ، فقد احتفظت سيقانها بتلك الأناقة الموروثة من السلالة النقية الرفيعة التي أنجبتها . لكن الشوك والحشائش الحادة قد تركوا بصماتهم على ذراعيها وساقيها وصارتا وكأن قططاً هائجة قد هاجمتها بأظافرها ومخالبها الحادة . كانت بعض الخدوش قد برئت وبعضها قد كون قشرة على جلدها لكن البعض كان لا يزال دامياً .

نما شعرها غزيراً وتحول إلى خصل ملتصقة بالعرق وأخذ يتطاير حول لوحي كتفها العظميين عند كل خطوة تخطوها وصار ظهرها نحيلاً حتى أن سين كان يحصي فقرات سلسلتها وحتى صلبها ، والذي تحول من جراء التمارين الشاقة المفروضة فرضاً ، إلى ما يشبه كرات المطاط الهندي . وأخذت المناطق الممزقة من بنطلونها تغمز له مع كل خطوة لها . أخذت ساقيها في التخبط من الإرهاق وهي ترمي بهما يميناً وشمالاً وقدماً ، كما تهلهل كاحلاها وأخذا يرتجفان من تحتها .

كان عليه أن يسمح لها بالراحة ، لكنها لم تشتك قط ، ولا مرة ، منذ أن فارقوا شاطئ ريوسيف . وابتسم سين بحب وإعجاب وهو يتذكر تلك الفتاة المدللة المغرورة التي هبطت من البوينج ، في مطار هرادي ، قبل عدة أيونات زمنية . فهذه المرأة التي أمامه تختلف عن تلك . هذه امرأة قوية ذات عزم وإرادة وذات روح نضالية وكأنها نصل موسى دمشقية .

كان يعرف أنها لن تستسلم وأنها ستواصل المشوار حتى تموت . ومد يده نحوها وربت على كتفها :

« خفض عليك يا جارية فسنرتاح لعشرة دقائق » .

وعندما أرادت أن تتوقف ترنح جسمها وكادت أن تتهاوى . وأحاط سين كتفيها بذراعه وأمسك بها وقال لها مداعباً :

« إنك أعجوبة نادرة . هل تعلمين ذلك ؟ » .

ساعدها على الجلوس متكئة على جذع شجرة وأزاح الغطاء عن زجاجة ماء وناولها لها .

وقالت لها كلوديا بصوت أجش مبحوح من التعب .

« ناولني ميني . فقد حان موعد الكلوروكوين » .

دلى سين الطفلة من كتفه ووضعها على حجر كلوديا وقالت لها :

« تذكري . عشرة دقائق فقط » .

انتهز ألفونسو فترة الراحة لتشغيل الراديو بينما كان ميكي جالسًا على الأرض بجواره ، وميريام من الناحية الأخرى . وكانا ينظران بإندهاش وعجب عندما أدار المفتاح وبدأ يفتش بين الموجات . جاء نفس التداخل في الأصوات المختلطة مع أزيز الأثير المصحوب بنتف متقطعة بلغة الأفريكان .

وفجأة جاء صوت منفعل يتحدث من مسافة قريبة وبصوت عال باللغة الشنقانية قائلا :

« إننا قريبون جدًا الآن » .

وجاءه الرد في الحال :

« استمروا بقوة وراءهم وطاردوهم ولا تدعوهم يفلتون . اتصلوا بي عندما تمسكون بهم » . كان هذا الصوت مما لا مجال للشك في صاحبه ولم يكونوا في حوجة لتأكيد استماعهم له فأجاب قائد الفصيل :

« حسنًا جدا يا جنرال تشاينا » .

انتهى الإرسال وتبادل سين والفونسو نظرة عابسة قاسية وسريعة . وقال الشنقاني :

« إنهم قريبون جدا ولن نفلت منهم » .

فأجابه سين : « لكن بمقدورك الإفلات ، بطريقتك الخاصة » .

تردد ألفونسو ونظر بجانب عينه إلى ميريام . نظرت إليه الفتاة الشنقانية بعيون واسعة مليئة بالثقة فيه . فسعل ألفونسو وأخذ يهرش في جسمه بارتباك . وغمغم :

« سأبقى معكم » . ضحك سين بمرارة وقال باللغة الإنجليزية :

« انضم إلى النادي يا زميل ! فهذه الساحة الصغيرة لم تتأخر كثيرًا في إلقائك في حبائلها وسيكون هلاكنا جميعا هو هذه (الشيلات) الحمر من بنات حواء . لا تنس قولي هذا » .

قطب ألفونسو وعبس إذ لم يفهم شيئًا . ثم قال له سين بالشنقانية « لملم الراديو وبقية حاجياتك . فإذا أردت أن تقف معنا ، فعلينا أن نجد مكانًا مناسبًا للوقوف فيه إذ أن إخوانك الرينامو ، أكلة الروث ، سيكونون معنا قريبًا جدًا»

والتفت سين ونظر إلى متاتو ، الذي قفز على قدميه في الحال . وقال له بالسواحيلية :

« ذاك كان تشاينا ، على الراديو » .

أومأ متاتو برأسه وقال :

« إن له فحيحًا مثل الكوبرا » .

- إن رجاله متتبعون لأثرنا ، ولقد تباهوا قبل قليل إليه وذكروا أنهم قريبون جدًا منا . هل بقيت معك يا صديقي اتقديم أي حيل أخرى يمكننا استخدامها الآن ؟

اقترح متاتو إشعال الحرائق ، لكن بدون إقتناع منه ، كما لم يوافق سين أيضًا على النار إذ قال له:

« لا تنس أن اتجاه الرياح هو ضدنا وسنشوي أنفسنا شيًا إذا ما أشعلنا النار بالغابة » .

رفع متاتو رأسه وقال :

« طالما كانت النسوة والأطفال معنا فلن نجد حيلة أخرى . إننا بطيئون ، كما إننا نخلف وراءنا آثارًا يمكن للأعمى تتبعها حتى وسط الظلام » . ثم هز رأسه الصغير الرمادي في بؤس شديد وقال :

« الحيلة الوحيدة التي تبقت أمامنا هي في قتالهم . بعد ذلك سنموت يا سيدي البوانا » .

لمس سين رأس متاتو بيده وربت على كتفه وقال له :

« ارجع متاتو وأعرف بالضبط كم يبتعدون عنا . أما نحن فسنمضي للبحث عن مكان مناسب نقاتلهم فيه » .

مضى متاتو ، وأخذ سين ينظر إليه حتى اختفى وسط جذوع الأشجار ثم غير عمدًا تعابير وجهه قبل أن يتجه نحو كلوديا بوجه عادي أقرب إلا اللامبالاة وسألها :

« كيف حال مريضتنا ؟ إنها تبدو لي مرحة مبتهجة » .

- لقد فعل الكلوروكوين الأعاجيب بها .

هزت كلوديا الطفلة في حجرها . وكأنما أرادت ميني إثبات تحسن صحتها فأدخلت إصبعها في فمها وابتسمت بخجل لسين . شعر بتلك الإبتسامة تنفرز في فؤاده مثيرة لمشاعره بدرجة لم يتوقعها . وضحكت كلوديا .

« لا توجد أنثى محصنة ضد محاسنك القاتلة ويبدو أن آنسة أخرى قد انضمت لركب محبيك» .

ربت سين على شعر الطفلة الصوفي الناعم وقال :

« إنها امرأة حقًا . وكل ما تريده الآن هو الركوب مجانًا . هيا يا حلوتي فحصانك جاهز » .

مدت ميني يديها بثقة لسين فرفعها على ظهره وربطها فيها .

أما كلوديا فنهضت متثاقلة على قدميها واستندت عليه لحظة وقالت له : « أتعلم ما سأقوله ؟ إنك شخصي ودود بأكثر مما تحاول الظهور به » .

- لقد خدعتك . أليس كذلك ؟

همست له :

« كم أود رؤيتك ومعك طفل من صلبك » .

- لقد بدأت تخيفينني ! هيا بنا نتحرك قبل أن تفاجئيني بالمزيد من أمثال تلك الأفكار المختلة».

لكن الفكرة لم تبارح خياله وهما يجريان في الغابة . طفل له من هذه المرأة.

لم يخطر ذلك على باله من قبل ، ثم ، وكأنما مرحبة بهذه الفكرة ، شعر بيد رقيقة تأتي من وراء كتفه وتلمس لحيته وتربت عليها بخفة وكأنها فراشة ترفرف فوقها . كانت ميني تصنع له ما كان يقوم به نحوها قبل دقائق . وللحظة عابرة شعر بانسداد في حلقه وعجز عن التنفس . أمسك بيدها الصغيرة في يده ، وكانت يدها لينة وهشة وكأنها جناح عصفور طنان وغمره شعور رهيب بالأسى . الأسى لأنه لن يحصل على طفل أبدًا ، فقد استسلم لذلك أخيرًا ، ولا على طفلة . لقد انتهى كل شيء تقريبًا . فقد كانت فرقة الصيد على مقربة منهم ولن يستطيعوا التغلب عليهم . لم يكن أمامه أي مهرب . وكل ما كان يأمل فيه هو وقفة نهائية في مكان مناسب ، وبعد ذلك لن يكون هناك ما يتبقى لهم . لا مهرب ولا مستقبل .

غمرته تلك النزعة السوداوية بالحزن والإنقباض حتى أنه وجد نفسه جاريًا في العراء قبل أن يعرف ذلك . وتوقفت كلوديا أمامه فجأة حتى كاد أن يرميها على الأرض . ووقف إلى جانبها وأخذا ينظران لما أمامهما بذهول وعدم تصديق .

فقد كانت الغابة التي أمامهما مدمرة عن بكرة أبيها وخاوية على عروشها. فعلى مد البصر كانت أشجار أفخر الأخشاب الصلبة قد تلاشت وكأن عاصفة جبارة قد اكتسحتها . لم يتبق منها سوى الجذوع التي قطعت بالقرب من سطح الأرض وكانت لا تزال تنزف منها السوائل الحمراء وعصارتها وكأنها من دماء القلوب . كانت الأرض من حولها ممزقة ومتشققة من جراء سقوط كتل الأشجار الضخمة عليها ، ولم يتبق سوى أكوام النشارة الناصعة في المكان الذي نشرت فيه الفروع والأغصان وقطعت فيه الكتل بالأطوال

المرغوبة . وبين أكوام الفروع والأغصان الجافة كانت هناك دروب صنعتها الكتل عندما جروها على الأرض وأخذوها لترص بعيدًا ز

رقفت ميريام بجوار سين وقالت له بصوت خافت :

« هناك حيث كان أهلنا يجبرون على العمل . إليها أخذهم الفريليمو معهم لقطع الأشجار . قيدوهم بالسلاسل معًا وأجبروهم على العمل حتى تمزق اللحم من فوق عظام أيديهم . وكانوا يضربونهم كالثيران ويشغلونهم حتى يتساقطون ولا يستطيعون النهوض من على الأرض » .

وسألها سين :

« كم كان عددهم ؟ فإنني أرى أن أشجارًا كثيرة قد قطعت » .

فهمست ميريام :

« ربما مات رجل أو امرأة مقابل كل شجرة أسقطت . لقد أخذوا أي شخص معهم ، الآلاف فوق عشرات الألوف » . وأشارت إلى الأفق : « إنهم يعملون الآن في أقصى الجنوب ولا يتركون أي شجرة واقفة وراءهم » .

ملأ الغضب الممزوج بالدهشة سين . فقد كان ما شاهده يعني دمارًا على نطاق يتحدى قوانين الطبيعة ، بل حتى قدسية الحياة نفسها . ليس فقط لأن تلك الأشجار لم تصل إلى قمة جلالها خلال ثلاثمائة عام أو يزيد ، ولا لأن دمارها لم يستغرق سوى بضع ساعات من العمل بالفئوس التي تحملها الأيدي المتصلبة للرجال والنساء ، بل لسبب أكبر من ذلك بكثير . هذه الغابة كانت مصدرًا ومنبعًا لأعداد لا نهاية لها من أنواع الحياة من الحشرات والطيور والزواحف والثدييات ، وللإنسان نفسه . وفي ظروف هذا التدمير الهائل فإن كل ذلك ستيلاشى .

ليس هذا كل شيء . فبعد مصيره الذي تقرر ، ومعرفة الزمان والساعات التي تبقت من حياته ، شمل سين انقباض وسوداوية غمراه كالنبوءة . وعرف أن دمار هذه الغابة ما هو إلا رمز يشير إلى ما سيلحق بكل القارة .

ففي العقود القليلة الماضية كانت إفريقيا قد بدأت تمزق نفسها من جراء القسوة والوحشية الكامنة فيها ، بل تحطمت كل النظم و لقيود التي فرضها المستعمر عليها لمائة عام كابحا جماحها . ورغم أن تلك النظم التي فرضها الاستعمار قد تعتبر قيودًا على السكان ، إلا أنهم ، وما أن تحرروا من الإستعمار ، إلا واندفع الأفارقة ، وبقسوة تقارب الإنتحار ، إلى مصير لا يعني سوى تدميرهم الذاتي .

ووجد سين نفسه يرتجف من غضب العاجز عن فعل شيء أمام تلك الحماقات ، وفي نفس الوقت كان حزينًا لدرجة الغثيان والموت تجاه هذه

المأساة، بل كل المآسي . وقال لنفسه :

« إذا ما كان علي أن أموت فمن الأفضل أن يتم ذلك قبل أن أرى كل ما أحبه وأعيش من أجله ، الأرض والحيوانات والناس ، وقد أصابه الدمار » .

كانت ذراعه لازالت حول كتفي كلوديا النحيلين ، بينما ميني مربوطة على كتفه ، عندما استدار ونظر وراءه للجهة التي قدموا منها . وفي تلك اللحظة جاء فارًا من الغابة التي وراءهم : متاتو .

ارتسمت على وجهه علائم الاستعجال اليائس وبدا على ملامحه الضئيلة مظهر الخوف من الموت القادم :

« إنهم قريبون جدًا يا سيدي البوانا ، ويقودهم قصاصان للأثر . لقد راقبتهم يعملون ولن نستطيع خداعهم هذه المرة فهم قصاصوا أثر متمرسون » .

وسأله سين وهو المسيطر ، بعد جهد ، على تعابير التشاؤم في ملامحه :

ـ كم معهم من الجنود ؟

ـ إنهم أكثر عددًا من الأعشاب على سهول سيرنجيتي . إنهم يجرون كقطيع من الكلاب المسعورة عند الطراد . وهم رجال أقوياء وقساة . حتى نحن الثلاثة لن نصمد طويلاً أمامهم » .

نظر سين من حوله . كان الجزء المقطوع الذي يقفون عليه عبارة عن أرض قتل طبيعية ، خالية من أي غطاء ما عدا جزوع الأشجار المقطوعة التي يصل ارتفاعها إلى ركبهم . تمتد الأرض العارية لحوالي مائتي متر حتى بداية أكوام الخشب الجاف ، التي تتناثر بعدها . وقد جفت الأغصان والأوراق عليها وتحول لونها إلى البني المصفر . كانت تلك الفروع بمثابة المتراس الطبيعي لهم . واتخذ سين قراره بسرعة ونادى ألفونسو :

« سنقف ونصمد لهم هناك » . قطعوا الأرض المكشوفة جارين متلاصقين وقد وضعوا النساء وسطهم . كانت ميريام تجر أخيها معها من ذراعه وكان ألفونسو بجوارهما يحميهما بنفسه . كان الشنقاني الضخم مثقلاً بأحماله من الراديو والذخيرة ، وبالغنائم التي سلبوها من كمين نهر سيف . رغم هذا فقد كان يحمل ميكي على كتفه عندما يتعثر ولا ينزله إلى الأرض إلا من حين لآخر . كان الشنقانيون الثلاثة : الرجل والمرأة والطفل ، قد كونوا فصيلهم المميز وسط الجماعة وقد قرب بينهم الولاء القبلي والجاذبية الطبيعية للرجل والفتاة ، وكان سين يدرك أن بمقدوره الاعتماد على ألفونسو ليهتم على الأقل بجماعته ، مما سيتيح له التركيز على أتباعه الخصوصيين : كلوديا ومتاتو ثم الطفلة الصغيرة .

لم يكن ألفونسو يحتاج للتعليمات في مثل هذا الموقف . فهو ، كسين ، له

عينا جندي في الميدان . وجرى مباشرة بدون تلفت إلى كومة من الأفرع المهجورة التي تشكل متراسًا طبيعيًا ، والتي تتيح له مجالاً مسيطرًا جيدًا من النيران عبر الحزء المقطوع من الأشجار .

استقروا هناك بسرعة وأخذوا في تقوية المتراس بالمزيد من الفروع الثقيلة التي جروها إليه . أنزلوا أسلحتهم وذخائرهم واستعدوا لمواجهة أول هجمات الرينامو .

أما كلوديا وميريام فقد ذهبا مع الأطفال نحو حفرة ، إلى الوراء من الرجال، محاطة بجزعين ضخمين للشجر مما أعطاهم نوعا من الحماية . وعندما شعر سين باكتمال استعداداتهم توجه مسرعًا نحو كلوديا وجلس بجوارها وقال لها :

« أريد منك ، فور بداية إطلاق النار ، أن تأخذي ميريام والأطفال وأن تلوذوا بالفرار بأرواحكم . توجهي دائمًا جنوبًا ...... » . ثم سكت عندما رآها تهز رأسها وتضغط بعناد على فكيها . وقالت له :

« لقد جريت بما فيه الكفاية وسأبقى معك » . ووضعت يدها على ذراعه : « لا . لا تجادلني ولا تضيع الوقت » .

- كلوديا !

- من فضلك لا تحاول . لم يتبق أمامنا أي وقت فلا تضيعه في جدال لا طائل منه » .

كانت على حق بالطبع . ففرارها لوحدها كان عبثًا ، ناهيك عن العناية بالطفلين ومن ورائها فعيل من خمسين رينامو . وأومأ سين برأسه موافقا وقال لها : « لا بأس » . ثم تناول المسدس التوكاريف من حزامه وجهزه ثم بحرص جذب صمام الأمان . وقال لها : « خذيه » .

حملقت في السلاح بتقزز وسألته :

« لأي شيء أحمله ؟ » .

- أعتقد إنك تعرفين السبب .

- لنفس الغرض ، مثل جوب ؟

أومأ برأسه وقال : « سيكون الأمر أسهل من الذهاب في طريق تشابنا » هزت رأسها وهمست: « لا أستطيع . وإن لم يكن هناك مفر ، في النهاية ، ألا تقوم بذلك من أجلي ؟ » .

- سأحاول . لكن لا أظنني سأجد في نفسي الشجاعة . هيا . خذيه . فقط في حالة ..... » .

ويتردد منها تناولت المسدس ووضعته في حزامها . ثم قالت له :

« والآن قبلني » .

قطعت صفارة متاتو عليهما قبلة الوداع . وهمس سين في أذنها :

« أحبك ..... » .

فأجابته : « وسأحبك على مدى الدهور » .

تركها وعاد زاحفاً إلى أكوام الحطب الجاف وجلس بجوار متاتو ثم نظر ، من خلال فرجة بين الفروع ، إلى طرف الغابة .

ولعدة دقائق لم ير شيئا ، ثم رأى حركة كالظل بين الأشجار . وضع سين يده اليمنى على قبضة البندقية إي كي إم ورفعها حتى مس عقبها خده .

خيم الصمت خلال ما تبقى من النهار وهم في الإنتظار . لم يغرد أي طائر ولم يتحرك أي مخلوق حتى سمعوا أخيرًا صوتًا خافتًا لصفير طائر جاء من طرف الغابة ، ثم هيئة رجل خرج منها مسرعًا وواضحًا لهم الجزء من الثانية ، ثم اختفى وراء إحدى الجذوع الضخمة المقطوعة . وبعده مباشرة قفز رجل آخر من بين الأشجار ، على بعد مائة متر من يسار الأول ، وقفز للأمام واختفى أيضًا . وفي الحال خرج من على يمينهم رينامو ثالث .

وغمغم سين : « ثلاثة فقط ؟ » . وعلم أنهم لن يبرزوا لهم أكثر من هؤلاء الثلاثة حاليًا ، والذين كانوا من المتازين حقا . أخذ الرينامو يتقدمون في اندفاعات سريعة واحدًا بعد الآخر وهم منتشرون انتشارًا واسعًا مثل فهو ذكر عجوز متوجهًا إلى الطعم .

وفكر سين : « من المؤسف إننا لن نسقط سوى واحد من هذه المجموعة . كنت آمل في قتال أفضل ليكشفوا عن مواقعنا » . ركز نظره على الكشافين المتقدمين ليحاول إلتقاط أكثرهم خطورة ورتبة . وقرر في نفسه :

« ربما كان ذلك الذي في الوسط » . وسرعان ما تأكد ظنه عندما رأى يد الرجل ترتفع بخفة من وراء أحد الجذوع وتشير لأحد الجنود للتقدم للأمام . كان ينسق عملية التقدم وهذا ما حدد وضعه كالرجل الرئيسي ، الرجل الذي سيذهب به سين أولاً .

وحدث سين نفسه : « لندعه يقترب أكثر » . لم تكن بندقية إي كي إم خاصة بالقناصة ولم يكن يثق في دقة نيرانها لأبعد من مسافة مائة متر . انتظر وهو يستحث الرجل ، بإرادته وأمانيه ، أن يقترب وأخذ ينظر إليه من خلال نشان البندقية .

قفز الرينامو وواصل تقدمه ورأى سين أمامه شابًا في منتصف العشرينات ،

على كتفيه تتدلى أحزمة ذات جيوب مبيئة بالرصاص وكان رأسه المشط بطريقة الراستفاري يحمل العديد من شرائط التمويه المفروزة به . كانت له ملامح عربية وسيمة ولون كهرماني جميل . كان حسن الطلعة عمومًا ما عدا إنحراف بسيط بعينه اليسرى تعطي وجهه نظرة الشاب الذكي العارف بالأمور .

وطالما كان قريبًا لدرجة أن يرى سين انحراف عينه فإن هذا يعني إنه اقترب جدًا . سدد سين المرمى على جذع الشجرة التي اختبأ وراءها الرينامو وجذب نفسا عميقا وشرع يخرج الهواء ببطء من رئتيه وهو يضع مفصل أصبع يده اليمنى بهدوء على الزناد .

ثم ظهر الرينامو فجأة أمام المرمى وضربه سين متعمدًا في بطنه قاصدًا ألا يقتله مباشرة . كان يعلم مدى الأذى الذي تلحقه رصاصة ٧,٦٢ عندما تخترق البطن بسرعة ثلاثة ألف قدم في الثانية . وكان يعرف من التجارب المرة التي شاهدها من قبل مدى التوتر وفقدان الأعصاب الذي تلقاه عندما ترى أحد رفاقك ملقى في أرض مكشوفة ، بين فئتين متقاتلتين ، وأمعاؤه متدلية من بطنه المصابة ، وهو يصرخ مستغيثًا يطلب الرحمة وجرعة ماء .

كانوا يطلقون - في الكشافة - على مثل هذا الجريح لقب (الشادي المفرد) أو الندابة . فندابة ذو صوت عال حاد ، يمكنه إحباط هجوم ، أو تثبيط همة الآخرين ، بنفس فعالية مدفع آلي (آر بي دي) يضرب فيهم من وراء حصن .

سمع سين صوت الرصاصة وهي تصيب الرينامو في معدته ، ذلك الصوت اللحمي الذي يشبه صوت بطيخة تسقط فوق أرضية من الحجر ، وسقط على الأرض واختفى من الأنظار وسط الركام والأوساخ .

في الحال جاءت نيران كثيفة للبنادق من طرف الغابة . واتضح لسين ، بسبب الرمى العشوائي ، إنهم لم يروه أو يحددوا مكانه . وما لبث إطلاق النار أن توقف من الرينامو . كان الرينامو يحافظون على ذخيرتهم وهذا علامة على حسن انضباطهم وتدريبهم ، إذ أن أي جنود أفارقة آخرين ، من الدرجة الثانية ، يستمرون في إطلاق النار منذ بداية القتال وحتى استنفاذ الطلقة الأخيرة لديهم .

وأيد سين تقدير ماتو لهم من قبل : « هؤلاء الشباب يتقنون عملهم ولن نستطيع الصمود طويلاً أمامهم » . ظل الإثنان الآخران من الرينامو في مكانهما على الأرض ، وسط الأرض المقطوعة الأشجار ، وسمع سين أنينًا خاويًا خافتًا يأتي من ذلك المكان الذي سقط فيه رجل العصابات عندما بدأت أولى علامات الألم الفظيع ، من جراء جرح البطن العميق ، تظهر عليه .

وأخذ سين يشجعه على المضي في الأنين : « غنى لنا ، دادي أوهـ ! دع زملاءك يعرفون كم هو مؤلم ذلك الجرح » . وظل سين ينظر لطرف الغابة

محاولاً استباق التعرف على أي حركة أخرى منهم قبل حدوثها .

وخمن في نفسه :

« الآن سيقومون بحركة الكماشة وسيحاولون الإحاطة بنا . ولكن على أي جنب : اليمين أم الشمال ؟ » . وكأنما استجاب الرينامو لحدسه ، فقد رأى حركة خفيفة في الغابة . وكان واحدًا من الرينامو يتجه يمينًا .

ونادى سين بصوت خافت :

« ألفونسو . إنهم يحاولون الجانب الأيمن . أبق هنا وتمسك لنا بخط الوسط».

ثم زحف سين للوراء واختفى وراء الكومة المرتفعه [illegible] ثم نهض على قدميه وجرى منحنيًا إلى الجانب الأيمن .

وعلى بعد أربعمائة متر سقط على ركبتيه وشرع في الزحف للأمام حتى وجد موقعًا آخر مواجهًا لجدار الغابة . كمن وراء جذع مناسب وأخذ ينظم أنفاسه وهو يراقب خط الأشجار وقد جهز بندقية إي كي إم في الوضع الأوتوماتيكي ووضع إصبعه على صمام الأمان .

لقد صدق حدسه بالنسبة للخطوة التالية تمامًا . فقد ظهرت حركة الإلتفاف على الأجناب ، خارجة من الغابة على بعد مئة متر على يمينه . كانوا فصيلاً من ثمانية جنود ، خرجوا معًا ، وجروا باندفاع واحد لاتخاذ موقع لهم وراء كومة حطب أخرى . وتركهم سين ليقطعوا نصف المسافة إليها .

وحدث نفسه :

« هذا حسن جيدا . أظنني سأنال واحدًا أو اثنين من هذا السرب » . كانت بندقيته جاهزة لرمي الصفوف وستأتي نيرانه نحوهم على جانبهم وقد تكتسح خطهم . قام بالتركيز على قائد الفصيل والذي كان يجري أمام جنوده عن قرب ، تركه سين يتقدم حتى يجري في خط النيران وصوب البندقية على مستوى ارتفاع ركبته ، إذ أن الـ (إي كي إم) ترتفع عاليا عند تشغيلها أوتوماتيكيا ، ثم ضغط الزناد .

سقط قائد الفصيل وكأنما اعترضه سلك مشدود ، ووقع في نفس المصير اثنان آخران . رأى سين الرصاصات وهي تمزقهم . أخذها أحدهما على كتفه حيث طارت عاصفة من القماش المزق من بزته المموهة وحددت مكان إصابته . أما الثاني فقد أصيب في رأسه بضربة مباشرة على صدغه . وعندما سقط على الأرض قفز غطاء رأسه طائرًا وكأنه قمرية ممزقة .

وقال سين لنفسه : « ثلاثة منهم » . لقد سرته النتيجة فقد توقع صرع واحد

منهم وأمل في اثنين . وهاهم ثلاثة صرعي . غير خزنة الرصاص بينما راقب بقية الفصيل وهم يفرون عائدين إلى الغابة بعد انهيار هجومهم . وأطلق سين وراءهم زخة أخرى سريعة من الرصاص قبل أن يتواروا خلف الأشجار ، ورأى واحداً منهم يترنح ثم يحنى كتفه مندفعاً نحو الغابة واختفى فيها .

وفي الحال جاء إطلاق كثيف للنار على خط الوسط وقفز سين من وراء الجزع وجرى لمساعدة ألفونسو .

وأثناء جريه فتح عليه أحدهم النار من الغابة ومرت رصاصة بالقرب من رأسه بذلك الصوت الذي يشبه ضربة الكرباج والذي جعل الأدرنالين يمور ويندفع ساخناً في مجاري دمه . أحنى رأسه وواصل الجري . ووجد نفسه يستمتع باللحظة ، ويتجاوز موجة الرعب التي كادت أن تجتاحه .

وفي الوسط كان هناك تبادل حاد للنيران . فقد كانت رينامو تحاول اقتحام الأرض المكشوفة وكانوا على وشك الوصول إليها عندما وصل سين لألفونسو وانبطح بجواره مضيفاً قوة بندقيته لنيران ألفونسو الدفاعية . وتراخى الهجوم ثم توقف الرينامو الجذوع المقطوعة تلاحقهم نيران المدافعين وتثير الغبار من حولهم .

ورفع ألفونسو صوته وقال لسين :

« اثنين ! لقد صرعت اثنين منهم ..... » لكن متاتو كان يرتب على ذراع سين ويشير بيده إلى الجانب الأيسر . استطاع سين بالكاد أن يتبين مجموعة أخرى من الرينامو تقتحم المنطقة المقطوعة الأشجار وتتخذ سواتراً هناك . وعرف أن الهجوم على الجانب الأيمن والوسط لم يكن إلا خداعياً لتشتيت انتباههم . والآن جاء نحو من اثنى عشر رينامو من خلفهم وسيحيطون بهم ويطوقونهم خلال دقائق ويثبتونهم ، عاجزين ، على الأرض .

ونادى سين محذراً ألفونسو :

« لقد أحاطوا بمؤخرتنا » . فأجابه ألفونسو :

« ليس بإمكاننا عمل أي شيء لإيقافهم . إنهم بأعداد كبيرة بينما نحن قليلون » .

- سأعود لأحمي المؤخرة وسأبقى مع النسوة .

- إنهم لن يهاجموننا مرة أخرى ! وطالما أحاطوا بنا فسينتظرون حتى وصول الهنشاو .

وجاءت عاصفة من الرصاص خلال كومة الأحطاب . وأحنى سين وألفونسو رؤوسهما تلقائياً . وقال ألفونسو :

« إنهم يطلقون النار فقط لنظل في مواقعنا ، ولن يغامروا بفقدان أي رجل منهم بعد الآن » .

وسأله سين كأنما يستوثق من تقديره الخاص :

« كم تبقى للمروحية حتى تصل ؟ » .

فأجابه ألفونسو برأي قاطع :

« ليس أكثر من ساعة . ثم ينتهي كل شيء سريعًا » .

نعم . كان ألفونسو مصيبًا . فليس هناك دفاع أمام الهايند ولم يعد هناك أي حيلة يلعبونها .

وقال سين وهو يزحف نحو الحضرة التي اختبأت فيها النسوة والأطفال : « سأتركك هنا » .

كانت كلوديا تحمل ميني على حجرها فنظرت متسائلة نحو سين عندما انزلق نحو الحفرة بجوارها . وقال لها بإيجاز :

« لقد أحاطوا بنا ونحن محاصرون » . ثم ألقى لها بخزن الرصاص الفارغة وقال لها : « هناك بضع صناديق للذخيرة في حقيبة ألفونسو . هل تعرفين كيفية تعبئة هذه الخزن الفارغة ؟ » .

ستكون منشغلة بهذا الواجب . فالساعة القادمة ستكون صعبة للغاية لبقائهم . زحف سين إلى طرف الحفرة الخلفي وأخذ يحدق أمامه .

رأى شيئًا يتحرك وسط الأوراق المصفرة الجافة على بعد خمسين خطوة منه وأطلق على الشيء زخة من الرصاص . جاء الرد بالرصاص من ثلاثة أو أربعة مواقع من خلفهم ، ودمدمت فوق رؤوسهم رصاصات إي كي وصرخت ميني ، من ورائه ، من الرعب . مضت الدقائق ببطء وكان الصمت ينقطع كل بضع ثوان بطلقات متقطعة من مواقع الرينامو ، لزرعهم في مكانهم .

وزحفت كلوديا إلى جانب سين ووضعت الخزن المليئة بالرصاص بجوار ساعده الأيمن . وسألها :

« كم تبقى من علب الذخيرة ؟ » .

فأجابته وهي تلتصق به : « عشرة » .

لم يعد مهمًا إنهم لم يتبق لهم سوى مائتي رصاصة في حقيبة ألفونسو . نظر سين نحو السماء متوقعًا أن يسمع في أي لحظة صفافير محركات المروحية .

وكأنما قرأت كلوديا أفكاره ومدت يدها وأمسكت بيده . وتحت الشمس الأفريقية اللاهبة أمسكا بأيدي بعضهما البعض وأخذا في الانتظار . لم يبق شيء يقال أو شيء آخر للقيام به أو أي دفاع ، مهما كان واهيًا . كل ما

تبقى هو انتظار المحتوم .

ولمس متاتو ساق سين بيده . ولم يكن هناك أيضًا شيء ليقوله .

مد سين رأسه والتقط الصوت . كان صوتا عاليًا ومستقرًا يختلف عن صوت هبوب نسائم الظهيرة فوق قمم الأشجار .

ضغطت كلوديا على يده بشدة وغرزت أظافرها في يده . فلقد سمعت الصوت نفسه . وهمست :

« قبلني . للمرة الأخيرة » . فوضع بندقيته جانبًا واحتضنها بين ذراعيه وظلا متعانقين بكل قواهما . وهمست ثانية له :

« إذا كتب على الموت فإنني سعيدة لألاقيه بين ذراعيك » وشعر سين بأنها تدس التوكاريف المشحون في يده . وقالت له :

« وداعًا يا عزيزي » .

كان يعلم بأن عليه القيام بهذا ولكنه لم يعلم من أين يجد الشجاعة لقتلها.

وجاء صوت محركات الهايند عاليًا كالعويل . جذب صمام الأمان ورفع المسدس بدقة وهدوء . أقفلت كلوديا عينيها وأدارت رأسها قليلاً ورأى سين خصلة من شعرها مبللة بالعرق تتدلى أمام أذنها ورأى شريان عنقها اللدن الكريمي ينبض تحت جلدها الرقيق الناصع البياض الذي حمته خصلات شعرها الفاحم من أن تلوحه الشمس . كان هذا أصعب موقف مر به في حياته كلها لكنه كان مضطرًا . فرفع فوهة التوكاريف باتجاه صدغها ...... وفي هذه اللحظة القدرية جاء صوت انفجار رهيب لقذيفة مدفع أمام حافة الحفرة . وبدون تفكير جذب سين كلوديا للأسفل وحماها بجسمه . ظن للوهلة الأولى بأن المروحية قد أطلقت عليهم النار . لكن هذا مستحيلاً . فلازالت المروحية بعيدة عن الرؤيا وعن مدى النيران .

توالت انفجارات القذائف وأعاد سين صمام الأمان للمسدس وأطلق كلوديا ثم تدحرج حتى حافة الحفرة ورأى عاصفة من الإنفجارات والنيران تكتسح مواقع الرينامو . وعرف سين أنها قذائف المورتر فهذه خصائص الإنفجارات المميزة لقذائف المورتر عيار ثلاثة بوصات . ومن بعدها جاءت عاصفة الدخان هادرة وراء ذيول صواريخ آر بي جي وسط أشجار الغابة . وغطى طنين الإنفجارات صوت الهايند القادمة باتجاههم . لقد تغير الوضع تمامًا .

وجدوا أنفسهم فجأة وسط المعمعة . وشاهد سين أشكالاً تجري مهتاجة وتقفز بين أكوام الحطب والجذوع ، هارية مولية الأدبار ، وهي تطلق نيران بنادقها على غير هدى .

« إنهم الفريليمو ! » . كان متاتو يشد سين من يده ويصوت بانفعال شديد « إنهم الفريليمو!».

وهنا عرف سين الحقيقة . لقد سبب تبادلهم المتقطع للنيران ، مع مطارديهم من الرينامو ، استدعاء أعداد ضخمة من أرتال الفريليمو الذين احتشدوا بالقرب من المنطقة ، ربما استعدادًا للهجوم على دفاعات الرينامو على نهر سيف . وفجأة اكتشف ثوار الرينامو أنهم يواجهون قوة جبارة من الفريليمو . ومن كثافة النيران ، قدر سين أن هناك عدة مئات من الفريليمو بالغابة ، ممن يشكلون قوات نظامية للمواجهة ، وبقوة كتيبة على الأقل .

ورأى جماعة الرينامو التي كانت تحيط بهم تتخلى عن مواقعها وسط أكوام الحطب والجذوع في المنطقة المقطوعة وتتفرق ش[illegible] بغير نظام أمام انفجارات قذائف المورتر . تناول سين بندقيته وساعدهم على الفرار برشات متقطعة منها على أدبارهم وظهورهم . وسقط واحد منهم وأخذ يتلوى على الأرض مثل سمكة خرجت من الماء .

ثم رأى طابورًا من مشاة الفريليمو قادمًا جريًا على يساره . كانوا يرتدون بزات مموهة من طراز جيوش ألمانيا الشرقية وعليها تلك اللطخات الخضراء والبنية التي تختلف عن خطوط النمر على أزياء الرينامو .

ولما كان كل من الرينامو والفريليمو خطرًا عليهم فقد جذب سين كلوديا لجانبه وقال لها هامسًا :

« لا تتحركي . فربما كان الفريليمو لا يدركون بأننا هنا . وربما يكتفون بمطاردة الرينامو ولا ينتبهون لنا أو لوجودنا . لازالت أمامنا فرصة للخلاص » .

كانت ميني تصرخ وتولول خائفة من الهدير المحيط بها . فنادى سين ميريام بإشارة عاجلة وأمرها بإسكات الطفلة وإيقاف صراخها .

تناولت الفتاة الشنقانية الطفلة وغطت فمها بيدها وأوقفت صراخها في الحال . ونظر سين بطرف عينه من حافة الحفرة ولاحظ أن جماعة الاقتحام للفريليمو قادمة نحوهم . كان يبدو عليهم الشراسة والقوة ويمسكون ببنادقهم ، المستندة إلى خصورهم ، ويطلقون منها النار . توقع وصولهم لمكانهم خلال ثوان فرفع بندقيته . لقد تبدد أمل خلاصهم إذ لم يتغير شيء بالنسبة لهم سوى أنهم قد يموتون على أيدي الفريليمو وليست الرينامو .

وعندما رفع بندقيته وصوبها نحو بطن أقرب الفريليمو القادمين نحوه ، غطت سحابة من الغبار الهدف . ومن السماء جاء القصف الراعد لمدفع ١٢,٧ ملمتر الثقيل . اختفى طابور اقتحام الفريليمو وذاب تحت بصر سين وقد اكتسحته نيران الهايند المركزة عليه . غطى الغبار الحفرة التي اختبئوا فيها

وأخفاهم عن السماء في تلك الثواني المصيرية التي كانت الهايند تحلق فيها من فوقهم .

سملت الفوضى كل شيء . قوتان متعارضتان ومشتبكتان في أعماق الغابة وقذائف المورتر ونيران الصواريخ تحيل الأشجار إلى رماد ومن السماء فوقهم جميعا تحلق الهايند ، مرسلة شواظًا من نيران صواريخها وقذائف مدفعها ومضيفة المزيد إلى تلك الفوضى والاضطراب .

وربت سين على كتف متاتو وأمره باستدعاء ألفونسو . اختفى الأندرويو الضئيل وسط الغبار ونيران المدافع ليعود بعد دقيقة ومن ورائه 'الشنقاني الضخم . وقال له سين باقتضاب :

« ألفونسو . استعد للجري مرة أخرى . فالفريليمو والرينامو يتبادلون الصفعات هناك وعلينا أن نحاول التسلل قبل أن تكتشفنا الطائرة » .

توقف سين وأخذ يتشمم الهواء ثم رفع نفسه على ركبتيه ونظر وراءه .

كان الهواء من حولهم قد تحول إلى لون بني مشوش . ومن فوق ضجيج المعركة وطنين الهايند سمع سين الصوت الخافت لقرقعة الأحطاب والفروع المحترقة . وصرخ :

« النار ! وهي قادمة نحونا مع اتجاه الريح ! » .

كان أحد الصواريخ المنفجرة قد أشعل النار في كومة طويلة من الحطب الجاف وسرعان ما جاءت سحب من الدخان نحو الحفرة التي رقدوا فيها ملهبة عيونهم وجعلتهم يسعلون ويختنقون.

« لا مفر أمامنا الآن . إما أن نجري من هنا أو نموت اختناقًا » .

كانت أصوات الحرائق وقرقعة الحطب المشتعل واللهب قد طغى على هدير المعركة . وسمعوا صراخ الجرحى واستغاثات الذين حصرتهم النيران من كل جانب . أسرع سين برفع ميني على كتفه وأمسكت الطفلة برقبته وتعلقت به كالبرغوثة السوداء . جذب سين كلوديا على قدميها بينما رفع ألفونسو ميكي على كتفه حيث جلس عليه ورجلاه منذ ليتان من فوق جهاز الراديو الضخم وكانت ميريام بجانبه ممسكة بيده التي تحمل البندقية .

التف الدخان من حولهم ، كثيفًا كالزيت ، وجروا باتجاه الريح ملتصقين مع بعضهم البعض . ملأ الدخان رئاتهم وحجب عنهم السماء كما حجب عنهم المتقاتلين في الغابة من حولهم والطائرة المحلقة فوقهم أيضا . طاردتهم النيران من ورائهم بشراسة وكانت تقترب منهم شيئًا فشيئًا كل ثانية تمر .

وشعر سين بالحرارة تهب على مؤخرة عنقه وأخذت ميني تصرخ عندما

مست شرارة جانب وجهها . أخذت كلوديا تلهث باحثة عن نسمة هواء ثم تعثرت وركعت على ركبتيها لكن سين رفعها على قدميها وجرها قدمًا .

بدأ سين يختنق وكان كل نفس يجذبه يشوي كل الطريق إلى رئتيه .

لن يتمكنوا من الإستمرار بهذه الصورة ، فلقد لعقت الحرارة جلودهم وشوتهم الشرارات المتطايرة وكانت الطفلة تصرخ من العذاب وتخمش جسمها بدون جدوى وكأنما هاجمها سرب من اليعاسيب وانزلقت يدها وكادت تسقط لكن سين تناولها من كتفه وحملها بيد واحدة .

وفجأة وجدوا أنفسهم في منطقة مكشوفة مقطوعة الاشجار ولا يحيط بهم سوى الجذوع الميتة والتي تقف مثل شواهد القبور وسط الدخان الكثيف الملتف . وكانت الأرض الرملية من تحتهم متهرئة من جراء عمليات أتيام القطع . وصاح فيهم سين :

« أرضًا ! » . وجذب كلوديا نحو الأرض ووضع ميني بين ذراعيها وقال لها ، بينما الطفلة تقاوم وتتلوى بشراسة : « امسكي بها بقوة » . ثم خلع قميصه وأمرهم بالانبطاح على الأرض وأطاعته كلوديا في الحال ورقدت على بطنها وهي تحتضن ميني من تحتها . غطى سين وجهيهما بالقميص حتى يعمل كمصفى ضد الدخان والسناج والشرر وفتح إحدى زجاجات الماء وبلل القميص ورؤوسهما وملابسهما .

كانت ميني لا تزال تبكي وتقاوم . لكن كلوديا أمسكت بها بقوة . ركع سين بجوارهما وأخذ يغرف الرمل بيديه ويغطيهما به حتى دفنهما تحت قلة من الرمل ، مثل تلك اللعبة التي يقوم بها الأطفال على شواطئ المصايف . كان الدخان أقل كثافة بالقرب من الأرض واستطاعوا أن يتنفسوا . أما ألفونسو ، الذي كان يشاهد ما يقوم به سين ، فقد حذا حذوه ودفن ميريام وأخيها الصغير في الرمل بالقرب منهما .

كان الشرر يتطاير وسط الدخان على جسر سين العاري ويلدغه كأنه نمل السفاري السام . وشعر سين بلحيته تشوي وبعينيه تجفان من الحرارة . قام بإفراغ محتويات حقيبته على الأرض وغطى بالحقيبة الفارغة رأسه وصب عليها محتويات الزجاجة الثانية من الماء ثم رقد على ظهره وكوم الرمل حول جسمه ورقد ساكنًا .

كان الهواء على الأرض قابلاً للإستنشاق ، وبه قدر محدود من الأكسجين يكفي لإبقائه واعيًا . لكن رأسه كان يطن وأصابه بعض الدوار بينما كانت موجات الحرارة تهب عليه مرة بعد أخرى في دفقات عنيفة . واشتم رائحة قماش حقيبته المصنوعة من التيل المتين ، والتي غطى بها رأسه ، وقد بدأت تحترق من

غير لهب وبدأت طبقة الرمل الخفيفة التي غطى باقي جسمه بها تشويه وكأنها وعاء معدني تحت فرن حراري . وسمع هدير اللهب يتصاعد باضطراد وصوت الفروع الجافة المحترقة تقرقع مثل طلقات الرصاص . أحاطت النيران بكل أكوام الحطب من حولهم ، لكن الرياح المتولدة من حرارة الاحتراق دفعت اللهب والدخان ببطء بعيدًا عنهم .

ثم توقف الهدير . وللحظة خاطفة انفتحت سحب الدخان وأمكنهم جذب جرعات عذبة سريعة من الهواء الطازج ، رغم أن الحرارة الشديدة من حولهم كانت لا تزال في أوجها ، ولم يجرؤ سين على الخروج من طبقة الرمال التي تغطيه .

وتدريجيًا بدأت الحرارة تتشتت ، وأخذت تدفقات الهواء البارد العذب تصب عليهم بأكثر من ذي قبل . جلس سين وأزاح الحقيبة عن رأسه وكان جسمه قد تأثر بالحرارة ، وصار كأنما تم رشه بحمض قوي ، ونظر إلى البقع الحمراء القانية التي سببها الشرر بجسمه وعرف أنها سرعان ما ستتحول إلى قروح مؤلمة .

زحف نحو تلة الرمل التي غطى بها كلوديا والطفلة ، وأخذ يزيحه عنهما بيده كان قميصه قد حافظ على أفواههما وأنفيهما وعندما جلستا ونفضا الرمال عن رأسيهما رأى أنهما قد خرجتا من تلك المحنة أفضل حالاً منه ومن ألفونسو . فقد مرت النيران من فوقهما لكن الدخان كان كثيفا بالهواء وغطى الرؤية من حولهما .

رفعهما سين على أقدامهما وقال بصوت مخروش أجش : « علينا الإسراع بالخروج من هنا قبل تلاشي الدخان » . خرج الصوت من حلقه وكأنه ابتلع قبضة من الزجاج المكسور وكانت الدموع تسيل على خدوده المحترقة المسودة من السناج .

وجميعًا تعلق كل منهم بالآخر ، وأخذوا يشقون طريقهم خلال السهل الأسود المحترق . وكأنهم أشباح ملطخة بالسناج ، أخذوا يتعثرون خلال الدخان الملتف من حولهم ويعرجون في مشيهم . كانت الأرض ساخنة وكأنما عليها حمم بركانية وأخذت تحرق أخفاف أحذيتهم ، وهم يحملون الأطفال على أكتاف الرجال ويتجنبون أكوام الرماد المتوهج .

ولمرتين سمعوا صوت الهايند من فوقهم . ورغم أنهم كانوا يحدقون فيها بعيون دامعة محمرة إلا إنهم لم يروها من خلال السحب الزرقاء التي تعبر من فوقهم ، كما لم يشاهدوا أي إشارة لمطارديهم سواء من الريناامو أو الفريليمو . لقد شتتت النيران تلك القوات المتعارضة ودفعهم اللهب بعيدًا عنهم .

وغمغم سين وهو يشاهد متاتو يمشي راقصًا أمامهم من خلال الدخان الرقيق : « كأن للشحاذ الضئيل أقدام من الأسبستوس ! » . وأخذت ميني تئن من ألم قروحها ، وهي فوق كتف سين . وعند ما توقفوا للراحة لأول مرة أعطاها سين حبة أسبرين وجرعة ماء من آخر زجاجة تبقت لديهم .

وعندما جاء الغروب امتلأت السماء بالألوان القرمزية البراقة المشوبة بظلال بنفسجية قاتمة . جلسوا على الأرض ملتصقين ببعضهم البعض وكان الإرهاق قد شغلهم عن إقامة حرس على مكانهم وناموا جميعًا نومًا متقطعًا من جراء نوبات السعال العنيف التي احتاجتهم جميعا .

وعند الفجر كانت الريح قد اتجهت جنوبًا ، لكن الدخان كان لا يزال يغطي الأرض من حولهم ، مثل الضباب على شواطئ الأنهار ، وحصر مجال الرؤيا أمامهم إلى بضع مئات من الأقدام.

بدأ سين وكلوديا في العناية أولا بالأطفال وأخذوا يمسحون حروق وقروح أجسامهم بمعجون اليود . وبالرغم من أن ميكي تحمل الألم بعزيمة محارب شنقاني إلا أن الفتاة الصغيرة كانت تئن من وخز اليود مما دفع سين لأخذها في حجره وشروعه في النفخ على جروحها ليخفف من ألمها .

وبعد العناية بالأطفال جاء دور النسوة للعناية بالرجال . كانت حروق سين على ظهره وصدره سطحية وأخذت كلوديا في معاملتهما برقة فائقة عكست مدى عرفانها لسين وحبها العميق له .

لم يتحدث أي منهما عن تلك اللحظة التي رفع فيها سين التوكاريف وسدده نحو صدغها . ربما لن يتحدثوا عن هذا أبدًا ، لكن ما حدث سيبقى في أعماق كل منهما للأبد وسيكون دائمًا بينهما : فبالنسبة لسين كانت أكثر لحظات حياته رعبًا وفزعًا ، أكثر حتى من موت جوب نفسه ؛ أما بالنسبة لكلوديا فكان ذلك تأكيدًا واضحًا لإخلاصه لها . كانت تدرك بأنه سيجد الشجاعة لفعل ذلك ، لكنها تدرك أكثر أن ذلك كان سيكلفه شيئًا أغلى من التضحية بحياته هو . لم تكن محتاجة لتأكيد أكثر من ذلك لمدى حبه لها .

كان الطفلان من أشد الحاجة للماء ، فقد أصابهما الجفاف من جراء حرارة اللهيب والدخان . سقاهما سين نصف ما تبقى بالزجاجة من ماء وقسم الباقي بغير تساوي على الآخرين ، إذ اكتفى هو وألفونسو بجرعة لكل ، بينما زاد نصيب النساء .

ونادى على متاتو بصوت كطقطقة الحصى :

« متاتو . إذا لم تعثر لنا على ماء قبل المساء فإننا سنكون موتى وكأنما أحالتنا الهنشاو إلى غبار بمدافعها » .

وواصلوا سيريهم الأعرج المتعثر خلال الغابة السوداء المحترقة . وبعد فترة الظهيرة المتأخرة عصرًا أوصلهم متاتو إلى حفيرة طينية ضحلة محاطة بالجذوع المـ ـ ـقة التي لا زال الدخان يخرج منها . وفي وسط الحفيرة ، المكتظة بالرماد الكثيف والبقايا المحترقة للكائنات الصغيرة من الثعابين والجرذان والقطط البرية والسنور التي فرت إليها من النيران واللهب ، كان هناك بريكة صغيرة قذرة الماء .

قام سين باستخدام قميصه كمصفى . وشربوا جميعًا حتى ارتووا وكأنهم يشربون رحيقًا وهم يتأوهون من السرور بعد ابتلال حلوقهم التي جففتها حرارة النيران والدخان . وعندما شربوا حتى أوجعتهم بطونهم غسلوا رؤوسهم ووجوههم وبلل الماء ملابسهم وأخذوا يضحكون ، بضعف شديد ، من شدة استمتاعهم بالماء .

وبعد ميل من الحفيرة وصلوا للخط الذي تغير فيه مسار الرياح وأوقفت فيه سريان النيران . غادروا المنطقة التي دمرتها النيران والرماد المحترق وعسكروا تلك الليلة وسط الفروع المقطوعة والحطب المتناثر والتي سببت لها فرق القطع من الدمار أكثر مما سببته النيران والحرائق .

ولأول مرة منذ بداية الحريق قام ألفونسو بمد سلك الهوائي لجهازه وأداره . والتف الجميع حول الراديو يستمعون إلى توبيخ تشاينا لرجاله ولتهديداته وتجمدوا في مكانهم عندما عرفوا الصوت . لكنه كان يتحدث بالشنقانية وكانوا يسمعون صوت محركات الطائرة من وراء الصوت . كانت تعليماته مبهمة كالألغاز وموجزة ، وكذلك إجابات مساعديه .

وسأل سين ألفونسو :

« ماذا تظن إنه يخطط له ؟ » . لكن الشنقاني هز رأسه :

« يبدو إنه يحرك قواته إلى مواقع جديدة » . لكنه لم يكن مقتنعًا بما قاله . وسأله سين :

« ألم يتخل عن الطراد ؟ أظن أنه فقد أثرنا بعد الحريق ، لكنني لا أظنه قد تخلى عن مطاردتنا » . فأجابه ألفونسو مؤيدًا :

« لا أظن . فأنا أعرفه جيدًا . إنه لم يستسلم بعد وسيتبعنا على طول الطريق . فالجنرال تشاينا رجل يعرف كيف يمارس كراهيته حتى النهاية . ولن يسمح لنا بالخروج من هنا » .

ـ لكننا في الأراضي التي تسيطر عليها الفريليمو الآن . أتعتقد بأنه سيأتي وراءنا حتى هنا ؟ » .

هز ألفونسو كتفه :

« لديه الهنشاو ولن يهتم كثيرًا بشأن الفريليمو وأظنه سيأتي وراءنا ويتتبعنا أينما توجهنا » .

انتهت الجنرال تشاينا من تعليماته وكان واضحًا إنه مشغول الآن بترتيبات تزويد المروحية بالوقود ، لأنه تحول للبرتغالية . ثم جاء الرد فيما يبدو من المهندس الأرضي بنفس اللغة . وشرع ألفونسو في الترجمة لسين :

- لقد وصل الحمالون ولدينا الآن احتياطي من ألفى لتر .

- وماذا بشأن طلمبة الرفع الاحتياطية ؟

- إنها هنا يا جنرال وسأقوم بتغييرها هذه الليلة .

- يجب أن تكون المروحية جاهزة للطيران مع أول ضوء صباح الغد .

- ستكون جاهزة وقتها يا جنرال . إنني أضمن ذلك .

- حسنًا . سنهبط خلال دقائق وعليك الاستعداد لتبدأ عملك في الحال .

ثم أقفل تشاينا الجهاز بالطائرة .

ظلوا يستمعون للراديو لعشرة دقائق أخرى حتى عم الظلام ولم يعد هناك إرسال آخر ومد ألفونسو يده لإغلاق الجهاز . لكن خاطرًا طرأ على ذهن سين فمنعه من قفل الجهاز وبدأ يفتش بين الموجات . وفي الحال التقط إرسالاً لقوات جنوب إفريقيا ، جاء من موقع ما ، وقويًا وواضحًا مما دل على أنهم اقتربوا كثيرًا من الحدود ومن نهر لمبوبو . وبالنسبة لسين جاء سماعه للغة الأفريكان مريحاً مليئًا بالمواساة وبالأمل .

وبعد بضع دقائق تنهد سين وأقفل الجهاز وأمر ألفونسو :

« ألفونسو ، عليك الوردية الأولى للحراسة الليلة . هيا تحرك ! » .



بعد أن قلت احتمالات مراقبتهم من الجو ، قرر سين معاودة الترحال بالنهار . وكلما قطعوا ميلاً وراء ميل صوب الجنوب كلما ازدادت علامات أنشطة فرق قطع الأشجار وصارت أكثر وضوحًا وحداثة .

وفي اليوم الثالث بعد الحريق قادهم متاتو في التفافه واسعة حول مواقع القطع . كانت جذوع الخشب الصلب القوي قد قطعت حديثًا وكانت لا تزال تبكي بدموع عصاراتها السائلة منها . لم تكن الأوراق المكومة في أكوام طويلة عالية قد جفت بعد وكانت لا تزال لينة طرية . وحذرهم متاتو للإلتزام بالصمت التام أثناء مرورهم بين الأكوام المتناثرة وكانوا يسمعون ، ليس بعيدًا عنهم ، أصوات المناشير وأناشيد فرق العاملين عليها .

كانت الغابة تعج بالنشاط البشري من حولهم وحملت الأرض آثار الأقدام

العارية لألوف العاملين ، وأثر الألواح التي كانت تدحرج عليها الكتل الثقيلة حتى إيصالها لمناطق التجميع . لكن متاتو قادهم بمهارة خلال الغابة الممزقة حتى أنهم لم يشاهدوا أي إنسان حتى اليوم الرابع لهم.

وبينما جلسوا لتناول شيء من الطعام وهم مختبئون وراء أفرع لأشجار حديثة القطع ، قام سين ومتاتو بالتسلل نحو فرجة في الغابة ، واستطاع سين بمنظاره أن يرى مجاميع العمل للفريليمو على الناحية الأخرى منها . كان المئات من الرجال والنساء السود ، وبعضهم لم يتجاوز سن الطفولة ، يقاسون التعب والمشقة في عملهم وتحت رقابة صارمة من حراس الفريليمو في أزيائهم العسكرية المموهة .

كان كل الحراس يحملون بنادق إي كي معلقة على أكتافهم ويحملون على أيديهم سياط من جلود فرس النهر ، السامبوق الإفريقية القاسية ، ويجلدون بها ظهور وسيقان أولئك الكلاحين بدون تمييز . وحمل الهواء ، على بعد خمسمائة ياردة من سين ، أصوات الصياح والعويل لأولئك التعساء وصوت الكرابيج تنهال على أجسامهم العارية .

كانت فرق العمل تقوم برحى الكتل المشذبة بخشونة ، في أكوام كالأهرام ، وكان نصف العمال يشدونها بالحبال بينما النصف الآخر يقوم بدفعها بالأيدي من الأسفل ، وكان الحراس يحثونهم على بذل جهد أكبر ويقومون بانشاء المقاطع الرئيسية لأغاني العمل ، بينما يكمل الآخرون مقاطع النشيد بأصوات حزينة موغلة في الوحشة واليأس وهم يواصلون عملهم في شد الحبال أو دحرجة الكتل .

وأثناء مراقبة سين للمنظر كان أحد الكتل قد دفع بعد جهد إلى قمة البرجة ، وقبل أن يتم وصنعه في مكانه المنتظر انقطع أحد الحبال ، فانزلقت الكتلة وسقطت مرتضمة بباقي الكتل وتدحرجت نحو الأرض باتجاه العمال الذين أخذوا يصرخون ويستغيثون ويندفعون هاربين للخارج . لكن بعض الضعفاء منهم لم يجدوا القوة الكافية للفرار ، فتدحرجت الكتلة من فوقهم . وسمع سين صراخهم اليائس المختلط بصوت عظامهم المحطمة . لم يتحمل حتى سين المتمرس على تلك الشدائد ذلك المنظر ، فلمس كتف متاتو وزحفا بعيداً عائدين إلى بقية جماعتهم .

وقضوا ما بعد ظهر ذلك اليوم بالقرب من معسكرات العمال ، وهي عبارة عن أكواخ بدائية مؤقتة تمتد لمسافات بعيدة . وكانت روائح دخان حطب الوقود تختلط فيها بروائح المراحيض المكشوفة وبؤس البشرية المعذبة .

وشرح سين لكلوديا ما شاهده عابساً ثم قال :

« لقد صار الإنسان الأسود ، للأسف ، أرخص سلعة إفريقية هذه الأيام » .

فأجابته :

« إذا ما قلت هذا لمواطني بلادنا ، فإنهم ببساطة لن يفهموا ما كنت تتحدث عنه . فكل ما تقوله هو عكس ما يحدث في بلادنا » .

كانت الأكواخ ومعسكرات العمال شبه خالية في هذا الوقت . فكل القادرين على العمل كانوا في الغابة ، ولم يكن بالمعسكرات سوى المرضى أو المحتضرين الراقدين تحت أي ظل يقيهم حرارة الشمس . أرسل سين متاتو للمعسكر للسلب . ولابد أنه وجد أحد مطابخ الميدان واستطاع أن يتجنب الحراس ، فقد عاد ومعه نصف جوال من دقيق الذرة معلق على كتفه .

ذلك المساء ، أكلوا من العصيدة حتى شبعوا ثم تجمعوا حول الراديو يستمعون إلى تشاينا متحدثًا من موجة القيادة .

ومرة أخرى ، وعندما انتهى تشاينا من إرساله ، حول سين الموجة إلى موجة الجيش الجنوب إفريقي وأخذ يتصنت لنصف ساعة حتى استوعب الأصوات وعلامات النداء لمختلف الوحدات العسكرية في نطاق الإرسال . وأخيرا شعر بأنه قد تعرف على رئاسة قوات الحدود . فقد كانوا يستخدمون علامة النداء (كودو) وهو الإسم الذي يطلق على ذلك الغزال الجميل الملتوي القرون الذي يعيش في الغابات الإفريقية .

انتظر سين في صبر حتى اللحظة التي سكت فيها المتحدثون ثم ضغط على زر الميكروفون وتحدث بلغة الأفريكان :

« كودو . هذا موزي . هذا إرسال في ظروف طوارئ خطيرة . هل تسمعني يا كودو ؟ هذا موزي يتحدث إليك » .

الإرسال في ظروف الطوارئ الخطيرة أم (الإرسال العاصف) عبارة عن نداء لتوصيل رسالة في غاية الأهمية . وكان هذا النظام متبعًا أيام حرب العصابات في روديسيا . كان يأمل أن تعود ذاكرة قائد جيش الحدود الجنوب إفريقي إلى تلك الأيام . كلمة (موزي) بالأفريكانية تطلق على نوع من العصافير ، وكانت هي الإسم الكودي لسين في تلك الأيام الخوالي .

أعقب نداء سين صمت طويل جاء أثناءه صدى الإشارات مترددًا عبر الأثير . وظن سين أن نداءه لم يسمع فرفع الميكروفون لينادي مرة أخرى في اللحظة التي عاد فيها الراديو إلى الحياة :

« الموقع الذي ينادي كودو » . هكذا جاءه الصوت المليء بالشك . « قل مرة أخرى اسم ندائك » .

- كودو . هذا موزي . أكرر - موزي . مايك - أوسكار - سييرا - إنديا - إكو . إنني ألتمس توصيلي بالجنرال دو لا راي ، نائب وزير القانون والنظام العام » .

كان لوتر دو لا راي هو الوسيط بين سين وبين القيادة في السبعينيات . من بعدها ارتفعت مكانته إلى أعلى قمم السلم السياسي في جنوب إفريقيا . وبالتأكيد فإن (كودو) يعلم من هو ولن يتردد قطعًا في توصيل مثل هذا النداء الهام لمثل هذه الشخصية البارزة .

كان واضحًا أن (كودو) يفكر في نفس الشيء ، لكنه استغرق وقتًا أطول ليتخذ قراره . وأخيرا نادى :

« موزى . انتظر لحظة . إننا نعمل على توصيلك بالجنرال دو لا راي » .

مرت حوالي ساعة ، بعد أن خيم عليهم الظلام ، قبل أن يتصل (كودو) مرة ثانية :

« موزى . هذا كودو . لم نتمكن من الإتصال بالجنرال دو لا راي » .

- كودو . هذه مسألة موت أو حياة . سأناديك على نفس هذه الموجة كل ستة ساعات وحتى تصل إلى دو لا راي » .

- حسنًا (دود رخ) يا موزي . سنحافظ على موعد الاستماع لك كل ستة ساعات . توتسينز ! (إلى اللقاء !) » .

❖ ❖ ❖

كانوا قد تركوا بطاطينهم وراءهم عندما فروا من النار ، وهذه الليلة خاصة كانت قارسة البرد لدرجة الصقيع . رقدوا جميعًا متلاصقين التماسًا للدفء من أجسامهم . وهمست كلوديا لسين :

« لم أفهم ما كنت تقوله بالراديو . مع من كنت تتحدث ؟

فأجابها :

« كنت أتحدث مع قاعدة عسكرية بجنوب إفريقيا ، ربما تكون على الحدود التي نتجه نحوها».

فسألته بترقب وأمل :

« وهل سيساعدوننا ؟ » .

- لا أدري . ربما يساعدوننا إن استطعت الاتصال بشخص له علاقة بي . وقد طلبت منهم المحاولة لكنهم لم يعثروا عليه » .

- من هو ؟ .

- أثناء فترة حرب الأدغال ، وبالرغم من أنني كنت قائد فرقة الكشافة

الروديسية ، كنت أقدم تقاريري أيضا للمخابرات العسكرية لجنوب إفريقيا » .

- جاسوس ؟ .

- لا . لم أكن جاسوسًا فقد كان الروديسيون والجنوب إفريقيين حلفاء ، وعلى نفس الجانب . وأنا جنوب أفريقي كما تعلمين . لذا فلم أكن جاسوسًا ولا خائنًا » .

فسألته لتغيظه :

« عميلاً مزدوجًا ؟ » .

- سميه ما تشائين . لكن دو لا راي كان ضابط الاتصال معي . ومنذ بداية الحرب كنت أرسل إليه تقاريرًا من وقت لآخر ، كلما استطعت أن أجد معلومات عن المؤتمر الوطني الإفريقي أو نشاطهم الثوري أو عن أي تحركات من الحكومات المعادية لفرض عقوبات علينا .

- إنه مدين لك إذن . أليس كذلك ؟ .

- إنه مدين لي بالكثير . بالإضافة إلى أننا أقرباء . إنه ابن خالتي المباشر » .

توقف سين عندما تسلل جسم صغير ورقد بينهما . ابتسم وقال :

« انظري من هنا ! إن لم تكن هي ميني ماوس بعينها ! » .

تزحزحت كلوديا لتفسح مكانًا للطفلة ، واستقرت ميني بينهما سعيدة بالمهد الدافئ الذي وجدته بينهما ، واتخذت من ذراع سين وسادة لرأسها وضمها إليه بحنان .

وربتت كلوديا على رأسها وقالت :

« إنها حلوة فاتنة وأود أن أبتلعها » .

ظلا صامتين لمدة طويلة حتى ظن سين أنها قد نامت . لكن كلوديا تحدثت مرة أخرى ، بنعومة وبعد تفكير عميق :

« إذا ما خرجنا من هنا . أتظن أن (بإمكاننا) تبني ميني ؟ » .

هذا السؤال البسيط حمل في طياته الشراك والحفر . فلقد عني حياة تجمعهما معًا في المستقبل ، حياة مستقرة في بيت وأسرة ومسئوليات . كل الأشياء التي تجنبها سين طوال حياته . ربما كان مفروضًا أن يفزعه هذا الحديث لكنه ، بالعكس ، شعر بأنه يشع الدفء والراحة في نفسه .

◆ ◆ ◆

كان مولد الهندا الكهربائي يقعقع بصوت مزعج ، وأضاءت لمباته المعلقة على العمدان كل المنطقة التي جثمت عليها المروحية .

كان غطاء المحرك مفتوحًا وقد أزيلت كوابح الركام عن مداخل التوربينات . وكان المهندس البرتغالي ، في أوفروله الأزرق ، يراقب ويشرف على أي عملية يقوم بها الأسرى الروس . لقد عرف البرتغاليون الآن كيف يفهمون تصرفات الجنرال تشاينا وكيفية التعامل معه كما عرفوا جيدًا نقاط الضعف في موقفه . وفي خلال الفترة الوجيزة التي قضوها وسط الرينامو شهدوا أكثر من مرة العقاب الذي يلحقه الجنرال تشاينا بأي شخص لا ينفذ أوامره أو يقوم بأي سلوك استفزازي تجاهه ، وكان المهندس البرتغالي منتبهًا تمامًا الآن لتلك العيون المتعصبة الداكنة المسلطة عليه أثناء قيامه بعمله .

تجاوزت الساعة منتصف الليل ، لكن الجنرال تشاينا لم يخلد للراحة . كان طائرًا طيلة نهار ذلك اليوم ، منذ الفجر وحتى الغسق ، ولم يهبط إلى الأرض إلا للتزود بالوقود . كان أي شخص عادي ، بخلافه ، سينهار من التعب ، وعلى رأسهم الطيار البرتغالي ، لكن الجنرال تشاينا كان من النوع الذي لا يفتر ولا يكل . كان يجوس حول المروحية ويراقب كل كبيرة أو صغيرة لعمليات الصيانة الجارية عليها ويوجه الأسئلة ويستعجلهم للإنتهاء من عملهم . كان قلقًا وكأنما امتلأت نفسه بكل الانفعالات والتصورات السوداء .

وكرر ما يبدو إنه للمرة الألف في تلك الليلة :

« يجب أن تعمل لتكون الطائرة جاهزة مع بزوغ الفجر » . ثم مضى بخطى طويلة نحو خيمة القماش التيل ، التي اتخذها مركزًا متقدمًا لإدارته ، وحدق في الخريطة الكبيرة المضاءة وأخذ يراجع مرة أخرى مراكز قواته المبعثرة في أنحاء المنطقة ويتحدث مغمغمًا مع نفسه .

رأى على الخريطة تلك المعالم التي لاحظها من الجو ؛ مواقع معسكرات قطع الأشجار التي تسيطر عليها الفريليمو ، والطرق الوعرة التي شقوها داخل الغابة . رأى وعرف في الحال مدى الدمار والتعرية التي لحقت بغابات الخشب الثمين كما حدد أعداد العاملين في فرق القطع القسرية . عرف أيضًا عدم جدوى العثور على أعدائه البيض وسط تلك البشرية الكثيفة ، وأن أي أثر لتحركاتهم سيختفي بالقطع وسط آثار ألوف الأقدام المتحركة هناك . لن يجرؤ أيضًا على إرسال كشافين أو قصاصي الأثر لمناطق قطع الأشجار ، فلقد خسر من جنوده أكثر من أربعين رجلاً من جراء النيران وهجمات الفريليمو ذلك اليوم . وأخبر نفسه :

« لا . يجب على أن أصبر ولا أتعجل » .

وحرك يده وجاس بها في الخريطة .

لم تصل عمليات قطع الأخشاب بعد إلى مناطق الجبال الجنوبية التي تحيط

بمداخل حوض نهر لمبويو . وفي المنطقة ما بين الجبال والنهر خفت الأشجار كثيرًا وأفسحت مجالاً لسهول الموبين الفسيحة . كانت بعمق خمسين كيلو مترًا وصالحة تمامًا لتتبع آثار الهاربين ، إذ أنها تقع في الطريق الذي لابد لهم من عبوره إذا ما أرادوا الوصول لنهر لمبويو وإلى الحدود .

ومنذ النهار ، اتخذ تشاينا قراره بوضع وتركيز فمجموعة من جنوده هناك، كنقطة أخيرة لإيقاف الهاربين . فطيلة ذلك النهار قام بنقل الجنود الجدد ، الذين وضعهم تيبوتيب تحت تصرفه ، بمروحيته . ففي قمرتها الخلفية كان بوسع الهايند نقل أربعة عشر جنديًا بكامل معداتهم ، وقام تشاينا بالفعل بأحد عشرة سفرية . تجاوزوا الغابة المكتظة بحشود الفريليمو وأنزلوا الجنود وسط سلسلة التلال ، مع تعليمات مشددة لإقامة نقاط للمراقبة على قمة كل تلة والاحتفاظ بقوات للطواف المستمر بين النقاط ، ووصل عدد جنود إلى مائة وخمسين جنديًا لقطع طريق سين إلى اللمبويو .

ظل الجنرال تشاينا يحدق في الخريطة وكأنها لوحة لوجه الأبيض وغمرته مرة أخرى السحب الكئيبة لخيبة الأمل والإحباط . فلقد أوشك هذا الصباح على الإمساك بالرجل الأبيض في قبضته القوية ، بعد أن ثبته بدون حراك في ذلك الموقع المحاط بجنوده ، وبدون أي مجال للنجاة على الإطلاق . ثم جاء تدخل الفريليمو ، ومن ثم اشتعلت الغابة عن بكرة أبيها بنيران الحرائق واللهب والدخان ، ثم صراخ رجاله واستغاثاتهم العقيمة في الراديو ، طالبين منه إنقاذهم من اللهب المحيط بهم ..... .

عمل تيبوتيب المستحيل لإقناعه بأن سين كورتني قد اندثر وتلاشى مع جنوده وسط نيران الغابة ، لكن الجنرال تشاينا كان يعلم خلاف ذلك . فلقد أنزل كشافيه وقصاصيه على الرماد الأسود فور انخفاض الحرارة فيه للدرجة التي تسمح لهم بالمشي عليه . ولقد عثروا على الأماكن التي كان سين قد دفن فيها جماعته لإنقاذهم من الحريق ، وكانت علامات أجسادهم واضحة على التربة الناعمة . وعثروا أيضا على آثار أقدامهم المتجهة جنوبًا ..... دائمًا نحو الجنوب .

وخلال بقية النهار قام تشاينا بالبحث عنهم ، طائرًا على علو منخفض ، لكن الدخان حجب الرؤية عنه ما عدا في الدائرة الصغيرة التي تقع من تحت بطن المروحية .

أضاف هذا الفشل مزيدًا من التصميم إليه . وزادت حيل الرجل الأبيض وحظوظه الخرافية في التخلص والمروق من كل شراك تشاينا من شدة غضبه ، وألهبت رغبته في الإنتقام . فخلال تلك الساعات الطويلة التي كان ينقل فيها

جنوده إلى مواقعهم الأخيرة ، غرق خيال تشاينا بكل أنواع الإنتقام والبطش الذي سيلحقه بهم وأخذ يحلم بكل المحن البشعة التي سيوقعها بسين وكلوديا عندما يكونا في متناول يده .

لن يتعجل الأمر معهما فسيستمتع باللحظة ويتذوقها نقطة منقطة . وسيحصى لحظات عذابهما وألمهما كما يحصي البخيل اليهودي شيكلاته . سيبدأ بالمرأة بالطبع وسيكون الرجل الأبيض مشاهدًا لكل ما يجرى لها . فبعد استمتاع تيبوتيب بها حتى الثمالة سيقوم بتسليمها لرجال . سيقوم شخصيًا باختيار أبشع الرجال وأقبحهم وسط المشوهين منهم والذين يتميزون بأعضاء ذكورية كالأفيال . وهو يعرف الكثير من رجاله ممن لهم تلك الخصائص الفريدة ! سيتركهم يتبادلون المرأة من بعد تيبوتيب ، وبعد اكتفائهم سيأتي لها بالمرضى والمقروحين الذين تملأ أجسامهم الجروح المفتوحة التي تنز بالدم والصديد والقشور والقروح الاستوائية . وأخيرًا سيسلمها للرجال المصابين بالمرض الذي يخشاه الجميع . مرض الناحلين .... الإيدز . نعم ستكون تسلية ممتعة له . واستغرب هل ستتحمل المرأة البيضاء كل هذا ؟ هل ستفقد عقلها قبل جسمها ؟ سيكون لذيذًا أن يعرف الإجابة . وبالطبع سيتم إجبار الرجل الأبيض لمشاهدة كل ثانية مما يجري .

فقد وبعد الانتهاء من المرأة البيضاء ، سيستدير نحو الكولونيل سين كورتني : لم يقرر بعد ما سيفعله بشأنه فأمامه عدة خيارات لذلك . على كل حال فالرجل الأبيض يتميز بالخشونة والصلابة ويتوقع أن يصمد أمام العذاب لمدة أيام وربما لأسابيع .

وهو غارق في خططه ، يتلمظ بما سيتم ، صعدت ابتسامة إلى شفتيه وهدأت من توتره للدرجة التي وجد نفسه فيها وقد استقر على كرسيه القماشي ثم جذب أطراف البالطو الذي يرتديه وغرق أخيرًا في نوم عميق .



استيقظ مضطربًا غير قادر على التأقلم بما حوله . فقد كان شخص ما يهز كتفه مستحثًا له على الاستيقاظ . أزاح اليد بعيدًا عنه وتعثر في القيام من كرسيه وهو يرميه بعيون كالشرر . كان الوقت صباحًا باكرًا ، وكانت الأشجار من حول مأواه المؤقت تبدو كالهياكل الرمادية وراء الضياء الخافت للفجر ، وكانت اللمبات المعلقة على العمدان لا تزال مضيئة حول المروحية الجاثمة على الأرض ، وجهاز الراديو الموضوع على الطاولة الخشبية المواجهة له يصرخ مناديًا له :

« اتصال يا جنرال تشاينا ! لدينا اتصال مباشر معهم ! » . كان هذا قائد

الجنود الذين تم توزيعهم على قمم الجبال عند مداخل لمبويو ، وكان يتحدث بانفعال عظيم ، مما يدل على شدة هيجانه وإثارته .

وهو نصف نائم ، توجه تشاينا نحو جهاز الراديو وأمسك بالميكروفون وصاح فيه : « هنا (شجرة الموز) . قدم تقريرًا عن موقعك وعن وضعك بالضبط» وعند سماع صوته قام قائد الفصيل باستعدال وقفته ، من ذلك البعد ، وضبط جهازه ليقدم تقريره العاجل للجنرال .

كان الهاربون قد سقطوا في إحدى نقاط الإيقاف ، في المكان بالضبط الذي توقعه الجنرال تشاينا . جرى تبادل قصير لإطلاق النار ثم لجأ الهاربون إلى قمة أحد التلال ، على مرمى حجر من نهر لمبويو .

وابلغ قائد الفصيل الجنرال منفعلاً :

« لقد أرسلت لإحضار مدافع المورتر وسنمزقهم ونلقي بهم من قمة ذلك الجبل » .

تحدث تشاينا إليه بحسم ووضوح :

« أرفض . أكرر . ارفض . لا تطلق نيران المورتر عليهم ولا تهاجمهم . أريدهم أن يؤخذوا أحياء . حاصر الجبل وانتظر قدومي إليك » . ثم نظر باتجاه الهيلكويتر . كانت أغطية المحركات المدرعة بالتيتانيوم قد أعيدت إلى مكانها وكان المهندس البرتغالي يشرف على آخر عمليات ضخ الوقود . فقد كان هناك صف من الحمالين ، كل منهم يحمل على رأسه برميلاً بحمولة خمسة وعشرين لترًا من الوقود ، في انتظار دورهم لتفريغ البراميل بداخل خزانات المروحية الرئيسية .

وصاح تشاينا مناديًا المهندس باللغة البرتغالية . وجاء هذا يخطي واسعة إلى خيمة الجنرال والذي أمره :

- يجب علينا الإقلاع في الحال .

- سأنتهي من ضخ الوقود خلال نصف ساعة .

- هذا وقت طويل . كم لديك الآن بالضبط من الوقود بالطائرة ؟ .

- الخزانات الفرعية مليئة . أما الخزان الرئيسي فملىء لثلاثة أرباعه تقريبا .

- هذا يكفي . استدع الطيار وأخبره بأننا يجب أن نقلع حالاً .

- لكن يجب أن أعيد كابحات الركام وأغطي بها مداخل التوربينة .

- كم يستغرق هذا ؟

- ليس أكثر من نصف ساعة أخرى .

- لا ! هذا وقت طويل .

صاح في تشاينا مهتاجًا . وجاء الطيار خارجًا يتعثر من خيمته ولم يكن قد استيقظ تمامًا ، فقد كان يجذب إليه سترة الطيران الجلدية ، بينما تدلت حواشي خوذة طيرانه حول أذنيه . وصاح تشاينا فيه :

« تعجل ! أدر الطائرة » .

لكن المهندس واصل إلحاحه :

« وماذا عن الكوابح ؟ » .

- سنطير بدونهم . إنهم وضعوا اكتحوط فقط من التراب .

- نعم ... ولكن .... ! .

- لا ! .

دفعه تشاينا بيده صائحًا : « لا ! لا أستطيع الانتظار . أنس وجود الكوابح وسنطير في الحال . أدر محركات الطائرة » .

وبينما كانت أطراف معطفه تتدلى على ساقيه ، جرى الجنرال تشاينا نحو المروحية وصعد إلى كرسيه في قمرة السلاح .



رقد سين كورتني على بطنه بين صخرتين مباشرة أسفل قمة التل ونظر من فوق قمم غابات الموبين . وهناك إلى الجنوب كان الخط الداكن الأخضر للأشجار قد ظهر بالكاد تحت ضوء الفجر الخافت ، وحدد بوضوح موقع نهر لمبويو .

وتحدث بصوت كنواح الثكلى :

« أبهذا القرب ؟ لقد كدنا ننجح في الوصول إليه ! » .

لقد كان مجدد وصولهم لهذا المكان إنجازًا ضد كل ما يمكن تصوره من عقبات . فقد قطعوا ثلاثمائة كيلومتر خلال أرض خربتها الحرب ، وبين

جيشين دمويين متقاتلين ، فقط ليتم إيقافهم هنا ، عندما وقعت عيونهم على الهدف ! . جاءتهم زخة من نيران بنادق إي كي من أسفل منحدر الجبل وتردد صداها بعيدًا واختفى في الأفق .

كان متاتو راقدًا بين الصخور بجواره وهو يوبخ نفسه :

« إنني رجل عجوز غبي يا سيدي البوانا . يجب أن تطردني وتستخدم بدلاً عني شابًا أكثر حيوية وذكاء ، غير كسيح ولا أعمى مثلي ولا حطمته السنون» .

خمن سين أن مراقبة للرينامو لابد أن تكون قد حددت مكانهم عندما كانوا يعبرون إحدى الفيافي المكشوفة بين الجبال . لم يكن هناك تحذيرًا لهم ، ولم تتم أي مطاردة واضحة ، ولم يروا أي كمين منصوب لهم . لكن ، وبدون أي إشارة تدل عليهم ، وجدوا فجأة فصيلاً للرينامو خارجًا من الغابة مندفعًا باتجاههم ومرتديًا الأزياء المموهة بخطوط جلد النمر .

كان الإرهاق قد هد قواهم بعد مسيرة طويلة أثناء الليل وربما أصاب تركيزهم الوهن . ربما كان من الأجدى بقاءهم داخل الغابة بدلاً من عبورهم تلك الساحة المكشوفة . لكن كان من العبث التفكير الآن فيما كان من الأجدر عليهم القيام به .

لم يكن أمامهم أي وقت كافٍ إلا لتناول الأطفال ودفع النسوة دفعًا نحو جانب التل وسط إطلاق نار متقطع وضعيف من الرينامو على ما حولهم من الصخور . وربما قصد الرينامو هذا الرمي العشوائي ، كما خمن سين . ولابد أن تعليمات الجنرال تشاينا لجنوده هي أن يأخذوهم أحياء.

وتساءل بينه وبين نفسه : « أين تشاينا الآن ؟ » . لكن هناك شيء واحد مؤكد ، هو أنه ليس بعيدًا عنهم ، وأنه في طريقه الآن إليهم بأسرع ما تستطيع الهايند الطيران به . نظر ثانية باتجاه نهر لمبوبو وشعر بمذاق الفشل المر وخيبة الأمل بمؤخرة لسانه .

ونادى ألفونسو :

« هل جهزت هوائيات الراديو وأدرت الجهاز ؟ » . كان سؤالاً لتضييع الوقت أكثر مما كان أملاً في أي اتصال . فخلال الليل حاول مرتين الاتصال ، حسب

الجدول المتفق عليه ، مع جيش جنوب إفريقيا . وحتى إنه سمع مرة صوت (كودو) ينادي عليه بصوت ضعيف . لكن الضعف كان قد أصاب أيضًا بطاريات جهازه وبدأت قوتها في النفاذ ، وتراجعت إبرة اختبار قوة البطاريات حتى وصلت للمربع الأحمر .

وصاح ألفونسو من بين الصخور مجيبًا له :

« إذا حاولت من سلك الهوائي للأعلى فسيمزق هؤلاء القرود خصيتي بنيرانهم » .

فقال له سين بجفاء :

« لقد لاح الضياء وبدا النهر واضحًا . ناولني الإيريال ! » . ارتكز على كوعه وألقى بالسلك الملفوف المعزول إلى أبعد مدى ممكن ثم انحنى على جهاز الراديو . وعندما فتح الجهاز أضاءت لوحة البيانات بضوء خافت . ونادى بصوت يائس :

« كودو . هذا موزي ! كودو . هل تسمعني ؟ » .

جاءت رصاصة طائشة وحطمت الصخرة من فوق رأسه . لكن سين تجاهلها :

« كودو . هذا موزى ! » .

أمسكت المرأتان بالطفلين وأخذتا تراقبانه صامتتين .

أعاد ضبط الجهاز ثم نادى : « كودو ! هذا موزى » .

لم يصدق أذنيه عندما جاءه صوت ضعيف لم يستطع إلا بصعوبة سماع كلماته . فقد جاوبه رجل وقال :

« موزى . هذا أوباص . إنني أقرؤك على الموجة الثالثة » .

كاد سين أن يختنق وجذب نفسه وقال :

« أوباص ! يا إلهي ! أوباص ! » .

أوباص ، أو الجد ، كان الاسم الكودي للجنرال لوثر دو لا راي .

« أوباص . إنني في مأزق قاتل هنا . ألتمس منك عاجلاً إخراجًا ساخنًا لي من هذا المكان » .

(الإخراج الساخن) كان يعني سحبه من مكان خطر وتحت نيران الأعداء.

« إننا سبعة أفراد . خمسة بالغين وطفلين . موقعنا هو .... » . وقرأ له خطوط الطول والعرض للمكان وواصل : « إننا في قمة جبل صغير يبعد بحوالي عشرين كيلومترًا شمال لمبوبو » . ثم رفع رأسه ونظر حوله بعجلة وقال : « هناك جبلان كبيران على بعد ميلين على الشرق منا . هل تسمعني يا أوياص ؟ » .

- أسمعك يا موزي » .

ضعف الصوت ثم عاد ثانية يحمل صوت دو لا ري :

- ما كان اسم جدتك قبل أن تتزوج ؟

صرخ سين في الجهاز من شدة توتره :

« أوه لعنة الله عليك ! » .

فقد كان الجنرال لوثر يحاول تأكيد شخصية سين في وقت رهيب كهذا . وصاح لسين :

« اسم جدتي قبل زواجها كان سانتين دو ثيري وهي جدتك أيضا يا لوثر . أيها الوغد المتعفن!».

- أوكى موزى . سأرسل لك (بوما) للإخراج الساخن . أتستطيع الصمود لساعة أخرى ؟

- تحرك سريعًا يا أوياص فالأعداء في كل مكان من حولنا .

- حاضر يا موزى ....

كان على سين أن يلصق أذنه بالجهاز لإلتقاط الكلمات الأخيرة :

« أرسلهم إلى نار الجحيم يا سين ! » .

ثم تلاشت الإشارة اللاسلكية وماتت آخر ومضة لإبرة البطاريات ترك سيد الراديو والتفت مبتسمًا نحو كلوديا :

« إنهم قادمون لنا ! سيقومون بإرسال مروحية بوما عسكرية لإخراجنا ! » .

لكن ابتسامته ماتت في شفتيه . واستدارت كل وجوههم ببطء نحو الشمال. فقد جاء من هناك صوت آخر مع انبلاج الفجر . صوت بعيد خافت ، لكنهم جميعًا يعرفونه . كان صوت الموت الوشيك القادم .

❖ ❖ ❖

ظلوا جميعًا يحدقون في الهايند رهي قادمة من الشمال ، محلقة على ارتفاع خفض فوق الغابة ، بشكلها لذي يشبه وحشًا هائلاً أحدب الظهر ، وملطخة بطلاء التمويه البشع ، وأشعة الشمس الوليدة تنعكس على قمرة القيادة وكأنها عيون واسعة متوهجة حمراء .

ومن خلال غابة الموبين على سفح التل خرجت إشارة ضوئية حمراء ، من صاروخ للإشارة ، تستدعي الهايند إليها . غيرت الهايند من اتجاهها قليلاً وتوجهت مباشرة صوب قمة الجبل التي رقدوا عليها .

كانت كلوديا بجانب سين فوضع ذراعه حول كتفها وقالت له :

« إنه لأمر بشع قاس . وكأننا نموت مرة تلو أخرى » . ثم تناولت مسدس التوكاريف من حزامها وحاولت أن تضعه في يده . رفع سين المسدس عنه : « لا ! لا أستطيع أن أفعل ذلك ! لن أدخل في تلك التجربة مرة أخرى » . فسألته قائلة :

« ما العمل إذن ؟ » .

لم يرد عليها وإنما أشار إلى قنبلة الشظايا التي أمسك بها بيده اليمنى . حملقت في الكرة المستديرة المعدنية ذات المربعات السوداء التي تطرزها ، والتي كانت أشبه بثمرة خبيثة سامة ، فارتعدت وأبعدت عينيها عنها .

وهمس لها مطمئنًا :

« ستكون أسرع وأكثر ضمانًا . وسنذهب معًا في نفس اللحظة » .

كان يعرف ما سيقوم به ، فسيضع القنبلة بينهما وهو يضمها إلى صدره . نظر ثانية إلى الطائرة القادمة . كانت قريبة جدًا منهم . لقد حان أوان الموت ولن يحذرها . سيقبلها فقط للمرة الأخيرة ثم ....

وفجأة ضاقت عيون سين ، فقد كان هناك شيئًا مختلفًا على شكل الطائرة التي كانت مقبلة عليهم بسرعة ، وهي تكبر في الحجم شيئًا فشيئًا أمام عينه . أحس بالرعشة الأولى لشدة الإثارة عندما تبين له ما الذي اختلف على المروحية هذه المرة . وهمس لكلوديا :

« لا زالت أمامنا فرصة . فرصة ضئيلة لكننا سنستفيد منها . تعالى إليَّ يا

ميني . تعالي بسرعة » . ناداها بالشنقانية وأخذت الطفلة تتمخطر وذهبت إليه .

وهمس سين لكلوديا :

« أمسكيها » . ثم رفع مؤخرة تنورتها المزقة. كانت ترتدي تحت التنورة لباسًا أزرق اللون . جذب سين لستك اللباس ووضع شيئًا مستديرًا فيه ، واستقر ذلك الشيء بين صلبها ولباسها . وقال لها بالشنقانية وهو يصلح من شأن اللستك الذي يمسك باللباس :

« احتفظي لي بهذه الكرة يا صغيرتي . هذا سر بيننا فلا تلمسيها أو تنزعيها . فقط دعيها في مكانها . أتفعلين ذلك من أجلي يا زهرتي الصغيرة ؟ » .

نظرت ميني إليه بعيون سوداء عاشقة وأحنت رأسها بحزم وقبلها سين وهو يحتضنها بذراعه.

كان صوت محركات المروحية حادًا لا يحتمل عندما أقبلت عليهم على مستوى قمة الجبل . وعندما وصلت إلى بعد مائتي متر منهم فتح ألفونسو النار من بندقيته (إي كي) وأفرغ خزنة كاملة من الرصاص على غطاء القمرة . لم تترك الرصاصات الخفيفة أي أثر على الزجاج المدرع وخففت المروحية من سرعتها وحلقت في مكانها في الهواء تحت ريش مراوحها اللامع . كان الجنرال تشاينا جالسًا على الكرسي المرتفع لقمرة السلاح ، وكان قريبًا لدرجة أنهم شاهدوا ابتسامة الظفر على وجهه عندما تناول الميكروفون ووضعه أمام فمه .

وجاء صوته عاليًا مرتفعًا من خلال مكبر الصوت المعلق أسفل أجنحة الطائرة :

« صباح الخير يا كولونيل كورتني . لقد قدتني طويلاً في هذه الرقصة المرحة . لكن الطراد قد انتهى . أرجوك أن تأمر رجالك بإلقاء أسلحتهم » .

صاح سين في ألفونسو عندما زمجر محتجًا وركب خزنة جديدة في بندقيته:

« افعل ما أمر . نفذ ما قاله » . ثم تصلب صوت سين : « لدي خطة . أرجوك أن تثق بي » .

كان ألفونسو لا يزال مترددًا . وفجأة أرعد مدفع الجاتلنج من على الهايند فأصم آذانهم وأطار زوبعة وعاصفة من الشظايا والصخور والغبار من جانب التل إلى الأسفل مباشرة منهم :

ـ لا تجرب صبري : يا كولونيل . أخبر رجالك للوقوف على أقدامهم ورفع أيديهم عاليًا فوق رؤوسهم » .

وكرر سين أوامره :

« قوموا بذلك ! » .

بدأ متاتو أولا ثم تلاه ألفونسو والذي نهض ببطء على قدميه وقد رفع ذراعيه عاليًا .

ـ مرهم بأن يستديروا . أريد التأكد بعدم وجود أي مفاجئات أخرى تجاهي» .

استداروا جميعًا . ثم جاء صوت تشاينا مرة أخرى :

ـ اخلعوا ملابسكم جميعًا . كل ملابسكم » .

وببطء خلعوا جميعًا ملابسهم ووقفوا عراة أمام نظراته .

ـ حسنًا . والآن توجهوا نحو الأرض الفضاء بعيدًا عن الصخور » .

توجهوا نحو الساحة في العراء وأيديهم مرفوعة .

ـ والآن المرأتان » .

همس سين لكلوديا : « كوني شجاعة . فلا زالت أمامنا فرصة ، وفرصة طيبة » .

ووقفت كلوديا متثاقلة . وجاء صوت تشاينا كالصدى من فوق الغابة :

« آنسة مونتيرو . هل تسمحين بخلع ملابسك ؟ » .

وعلى الفور ، وبنوع من التحدي قامت كلوديا بفك أزرار قميصها المهلهل وجذبته من فوق رأسها وبرز صدرها العاري وتلألأ تحت وهج الشمس .

ـ والآن بنطلونك » .

تركت بنطلونها يسقط تحت كاحليها ورفسته بعيدًا عنها .

ـ حسنًا جدًا . والآن باقي الملابس » .

كان سروالها الداخلي قد تهرأ وتمزق حتى صارت أطرافه كخيوط العنكبوت . وهزت كلوديا رأسها وصاحت :

« لا ! لن أخلعه » . ووضعت يديها على صدرها وكان تصميمها واضحًا في رفضها خلع تلك القطعة .

ـ لا بأس . سأتركك تحتفظين بحشمتك في الوقت الراهن . وفيما بعد سيستمتع رجالي بكل شيء » . ثم ضحك تشاينا : « أرجو الوقوف هناك في العراء » .

توجهت كلوديا لأسفل التلة وقد رفعت رأسها وذقنها عاليًا ووقفت بيد ألفونسو ومتاتو .

ثم تحدث تشاينا بالشنقانية :

ـ والآن أنت أيها الفتاة » .

وقفت ميريام على قدميها . لم يكن لديها حياء الأوروبيات من التعري ، وقامت في الحال بخلع كل ملابسها ، ووقفت عارية وهي ممسكة بيد أخيها ثم انضمت للآخرين .

ـ والآن يا كولونيل كورتني . أعظم ما في الصيد هو الصيد الأخير » .

نهض سين على قدميه وبدون اكتراث قام بنزع ملابسه الممزقة وألقاها بعيدًا عنه.

وداعبه تشاينا :

ـ مؤثر جدًا . شيء جدير بالإعجاب ، أعني لرجل أبيض مثلك ! » .

وقف سين وحدق فيه بجمود . لكنه كان يحاول تقدير المسافة بينه وبين المروحية . وقدرها بستين ياردة . لازالت بعيدة جدًا .

ـ أرجو أن تقف في الساحة حتى أراك جيدًا يا كولونيل . إننا لا نريد المزيد من سوء التفاهم بعد الآن . أليس كذلك ؟ » .

تناول سين يد ميني وتوجه بها نحو الساحة . أخذت الكتلة الكروية تهتز من وراء مئزرها من جانب لآخر ، وكأنها الأرداف المستعارة لدى نساء العصر الفكتوري وكانت تمسك بيدها الأخرى حزام لباسها لمنعه من الإنزلاق إلى ركبتيها من جراء وزن الكرة .

أخذ سين يعد خطواته نحو الطائرة المحلقة في مكانها : « عشرة ، خمسة

عشر ، عشرين خطوة » . كان يرى بوضوح حدقات عيون تشاينا حتى وصل إلى أربعين ياردة ، ولازالت بعيدة . توقف بجوار كلوديا واصطفوا جميعًا في صف و' ـ ، عرايا وعاجزين.

وأصدر تشاينا أمرًا بالشنقانية لرجاله . ومن الغابة اندفع جنوده نحو سفح الجبل وهم يطلقون صرخات النصر . اقترب الطيار البرتغالي أكثر باتجاههم ، مظهرًا كل مهاراته في السيطرة على المروحية المحلقة .

وركز سين نظره على فتحة مداخل الهواء لمحركات لتوربينة وأخذ يعد المسافة التي تفصله عنها : « ثلاثين ياردة ، خمسة وعشرين ياردة ... . » . كانت فتحة المدخل بقطر غطاء برميل الأوساخ لم يكن عليها أي غطاء . واستطاع أن يرى بصعوبة ، من خلال الفتحة المستديرة ، أسنان التوربينة القرمزية وهي تدور بسرعة لا تصدق .

استقرت الهايند في الهواء وحلقت أمامهم . ومن قمرة السلاح أدار الجنرال تشاينا رأسه لينظر لأسفل الجبل لجنوده من الرينامو المتقدمين . انشغل بهم للحظة وانتهز سين الفرصة .

انحنى قليلاً وجذب تنورة ميني . وفي نفس اللحظة أدخل يده من تحت حزامها وأطبق بيده على القنبلة . رفعها إليه ، جذب منها دبوس الأمان وسمح للمفجر أن ينطلق . سمع صوت طرقة مسمار التفجير . أمامه فترة أمان قدرها خمس ثواني . حسب في سره حتى ثلاثة ثوان ثم تراجع للخلف وكأنه لاعب بيسبول ماهر ، في اللحظة التي لتفت فيها تشاينا إليه .

ركز على مداخل المحرك وألقى بالقنبلة بكل ما لديه من قوة . طارت القنبلة بانحناءة بسيطة وركز مشيئته على طيرانها ، محاولاً بقوة إرادته وحدها أن يدخلها في الدائرة الصغيرة لمدخل الهواء.

ارتطمت القنبلة بأسفل إطار المدخل وقفزت على حافته ثم قام تيار الهواء الرهيب الذي صنعته ريشات الموتور . يجذبها للداخل وقفزت القنبلة إلى حلق القناة المفتوحة .

انفجرت القنبلة عندما اصطدمت بالريش الدائرة بقوة وسرعان ما طاش توازن ذلك المحرك القوي ووجه كل طاقته الجبارة نحو نفسه في طقوس هوجاء

لتدمير الذات.

وبينما أمسك سين بكل من كلوديا وميني تحت ذراعيه وألقاهما على وجهيهما على الأرض ، مزقت ماكينة الهايند نفسها إربًا إربًا في لحظة واحدة قاتلة .

اهتزت المروحية بعنف وطاشت رمية الجنرال تشاينا بعيدًا حتى أن القذائف التي أطلقها من مدفع الجاتلنج طارت بعيدًا إلى السماء . ثم تدحرجت المروحية على ظهرها وطار الدخان والقطع المعدنية ، في سحائب من الضجيج ، من بين محركاتها المعطوبة والمشوهة بعيدًا .

وارتطمت بجانب الجبل . ثم قفزت مرتفعة لأعلى وسقطت مرة أخرى ، ثم تدحرجت على المنحدر واكتسحت في طريقها صفوف الرينامو المتقدمة فحطمتهم وشتتت شمل من نجا منهم . لكن معظمهم لم يتمكن من الهرب وتدحرج جسم الطائرة الممزق عليهم واكتسحهم وألقى بهم لأسفل التل .

وأخيرا زحفت المروحية على بطنها كالعملاق نحو السفح وتوقفت عند خط الأشجار . تدفق الوقود ، الصافي كالماء ، من خزاناتها المحطمة ، كالشلال ، وتدفق على جسمها وهو يلمع كالبرق من ضوء الشمس .

نهض سين وكلوديا مرتجفين على ركبتيهما وأخذا ينظران مشدوهين لهذا الدمار الشنيع . وفجأة، وبشيء من عدم التصديق ، انفتح باب قمرة الأسلحة وكأنه جدار ضخم لصدفة عملاقة وزحف الجنرال تشاينا من تحته . كان وقود الهايند يتدفق كرشاشة الحدائق ، عاليًا في الهواء وأخذ الرشاش يهطل على تشاينا كرذاذ المطر . بلل الوقود بزته وأخذ يسيل على وجهه وجسمه . لكن تشاينا اندفع بعيدًا عن هيكل المروحية المحطم وأخذ يجري بعيدًا عنها ، متعثرًا ، للنجاة ، بروحه .

لم يقطع سوى عشرة خطوات مهتزة عندما انفجرت الطائرة في جدار من اللهيب الذي قفز وغطى المسافة حتى تشاينا واشتعلت النيران في بزته المسودة . تحول من جراء النيران إلى شعلة بشرية وجرى على المنحدر واللهب الأصفر من ورائه . كانوا يسمعون عويله وصراخه ، حتى من مكانهم على قمة التل . كان صوتًا لا يمت للصوت البشري بصلة .

لم يصل تشاينا إلى الأشجار ، بل سقط عند حافة الغابة وقام جسده المشتعل بإضرام النار في الحشائش الكثيفة التي سقط فها . تحول سفح الجبل إلى محرقة له . لكن صراخه واستغاثاته كانت لا تزال تسمع من وسط النيران .

وصاح سين في جماعته المذهولة :

« إلى الوراء ! » .

وأيقظهم صوته من رعبهم وذهولهم . أمسك بمني بين ذراعيه وأنهض كلوديا على قدميها .

جروا جميعًا نحو دائرة تحيط بها الصخور كانت على قمة التل ، في الوقت الذي جاءت زخات من رصاص الرينامو من حولهم . رقدوا وراء الصخور ، غير مكترثين بتغطية أجسامهم العارية ، وأخذوا يشاهدون الهايند المحترقة ، وسريان النار في الحشائش عند حافة الغابة .

وعندما تلاشى اللهيب رأوا كومة متفحمة راقدة على المنحدر المغطى بالسناج والرماد . كانت تشبه كومة من الجوالات المحترقة ما عدا أنه ، وعندما تحولت الرياح باتجاههم ، حملت لهم رائحة اللحم البشري المحروق ووصلت حتى قمت التل .

لكن مسار الريح ، الذي تحول ، حمل إليهمْ صوتًا جديدًا ، ونهض سين ونظر نحو نهر لمبوبو الأخضر بعيدًا عند الأفق .

كانت مروحية البوما تبدو كنقطة سوداء من على البعد . لكنها كانت تقترب مسرعة نحوهم ، وصوت محركاتها يرتفع عبر الهواء .

واحتضن سين كلوديا وضمها إليه وقال لها :

« ارتدي بنطلونك وقميصك يا عزيزتي ، إذ يبدو أن رفقة طيبة على وشك الهبوط علينا ! » .



انتهت